

al-maktabeh
حَضَارَةُ مَصْرَ الْقَدِيمَةِ
مكتبة
المتدين

الجزء الأول

في الاتجاهات المضاربة العامة من أواخر الألف الثالثة م

١٨٠

دكتور عبد العزيز صالح
أستاذ تاريخ مصر والشرف القديم
وعيد كلية الآثار الأسيوطي
بجامعة القاهرة


مكتبة الأنجاو المصرية



مكتبة
المصنفين
al-maktabeh
مكتبة
المصنفين

مختار الأثر الفقيه وأثرها

الجزء الأول

في الاتجاهات الحضارية العامة حتى وأخر الألف الثالث ق م



دكتور عبد العزيز صبحي

كلية الآداب - جامعة القاهرة

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٦٢



إلى بلدى

وأرجو أن أؤدى بعض واجبي نحوها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يصدر هذا الكتاب في أربعة أجزاء متتابعة ، وقد استهدفنا في جزئه الأول تصوير الخطوط العريضة لمصرنا القديمة بأسمائها ولغتها وتكوين شعبها وروابطنا القومية بها ، ونشأة الحضارة فيها منذ عمر الإنسان أرضها ، ثم تكوين صورة عامة مترابطة لتطور حياتها السياسية والإدارية والعقائدية والاقتصادية والفنية والأدبية ، وعلاقاتها الخارجية ، حتى نهاية الألف الثالث قبل الميلاد .

ويسلك الجزء الثاني سبيل الجزء الأول ويمتد بدراسته حتى نهاية العصور الفرعونية في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد .

ويبحث الجزء الثالث في حياتنا الفكرية القديمة بمعتقداتها وفسفاتها وآدابها وعلومها وتنظيماتها الإدارية وأوضاعها التطبيقية بحثاً موضوعياً تفصيلاً .

ويتناول الجزء الرابع آثارنا القديمة بمعناها الواسع ، أي بعمارتها المدنية والدينية والحربية والأخروية ، وفنونها التصويرية والزخرفية والتشكيلية ، فضلاً عن وسائل تنفيذ هذه الفنون ، وأدوات الحياة اليومية الراقية .

وحرص هذا الجزء من الكتاب على عرض حياتنا الحضارية القديمة بأهم قضاياها ، وتقليب مشكلاتها على وجوهها المختلفة ، وبحث الفروض المحتملة لحلها ، وتطلب ذلك الاستعانة بعدد غير قليل من الآراء المتقاربة والآراء المتعارضة ، وسوف يلحظ القارئ أن الغالبية العظمى من هذه الآراء آراء باحثين أجانب أجلاء ، على الرغم من أنها تمس صميم تاريخنا القومي القديم ، وقد تعمدت ذكر أسمائهم في المتن أحياناً إلى جانب ذكرها في الحواشي ، وأردت من ذلك أن يستبين لنا عظم الشوط الطويل الذي يتعين علينا نحن المصريين أن نقطعه لنؤدى واجبنا في بحث تاريخنا القومي القديم بحثاً جدياً ، وليستين لأصدقائنا طلبة التاريخ والآثار أنه ما من رأى في التاريخ القديم إلا وهو بحاجة إلى بحث جديد ، وأنه ليس يكفي شيوع الرأى لقبوله ، وأنه ما من رأى يجل عن المناقشة وعن الأخذ والرد .

ولست أشك في أن متابعة بعض مناقشات الكتاب تتطلب شيئاً من جهد القارئ ، ولكنها رسالة العلم وحق تاريخنا القديم قبل كل شيء ، وقد حرصت بقدر الإمكان على دفع المشكلات الشائكة

والتفاصيل الدقيقة إلى الحواشي حتى لا تعترض القارئ وتظل في الوقت نفسه في متناول يد المتخصص ،
لا سيما بالنسبة إلى الفصل الأول لأهميته وضرورة توضيح قضاياها .

ولست أشك مرة أخرى في أن حرص الكتاب على رد الآراء إلى أصحابها قد يثير شيئا من التساؤل
عن دوره فيها ، ولكني أرجو أن يجد المتخصص في كل صفحة من هذا الكتاب فكرة جديدة وعرضا
جديدا .

وبعد ، فهذا جهد خمس سنوات ، وأعتقد أني لازلت بحاجة إلى خمس أخرى ، والله المستعان ما

عبد العزيز صالح




ديسمبر سنة ١٩٦٢

* * * * *







ويسرني أن أزجي خالص شكرى على المعاونة الطيبة التي لمستها من الأستاذ المهندس محمد القاتح عمر
عضو مجلس الإدارة المتدب والأستاذ المهندس عبد الغفار شمس مدير الهيئة وكل من أسهموا في إصدار
هذا الكتاب من رجال هيئة المطابع الأميرية ، وكنت أود أن أجدل ثنائى عليهم اسما اسما ، لولا خشيتي
ألا أحصيهم ، ويسعدنى أن أذكر أنه ربطتنى بهم جميعا روابط تزيد عن روابط الصداقة ، وأن كلا
منهم كان يعتبر هذا الكتاب كتابه قبل أن يكون كتابى ، جزاهم الله عنى خيرا .

الفصل الأول





١ - أسماء مصر القديمة

مصر بلد معنى عريق ، أطلق أجدادنا الأوائل على أرضها اسم **كيمه**    (وتأيمه) ^(١) بمعنى **السوداء والسمر** وال**خمرية** ^(٢) ، رمزا منهم إلى لون تربتها ودسامة غرينها وكثافة زرعها . وجعلوا لاسمها مشتقات عدة تؤدي معناه ، فقالوا « **تأيمه** » و « **باتانكيمه** » أي أرض السواد أو أرض السمره ، وقالوا « **تانكيمه** » بمعنى أرضنا السوداء










(١) اكتفى المصريون بالتعبير عن كلمة « كيمه » في كتابتهم التصويرية (أي الهيروغليفية والهيراطيقية) بحروفها الساكنة الثلاثة ، وهى الكاف والميم وتاء التانيث الأخيرة ، جريا على عاداتهم في عدم تسجيل حروف الحركة في كتابتهم ، فكتبوها :

...    -   - 

See Wb. V, 126, 7f.

فيما خلا مرات معدودة اضافوا اليها فيها حروف حركة مختلفة فكتبوها كموه     (Max. d'Anii, 9, 6)

H. GAUTHIER, Dictionnaire des noms géographiques, Paris 1928, V, 203 (but without reference)

وربما كماه أيضا         

أو السمرء... (٣) ، واعتبروا طابع السمرة أو السواد فيها ميزة تفرق بينها وبين اصفرار الصحراء المحيطة بها والتي أطلقوا عليها اسم « دشرة » بمعنى الحمراء ، إشارة منهم إلى شدة جدها ، فضلا عن نعوت أخرى مثل : خاسة ، ومرو ، ونو (٤) ، وهي نعوت تؤدي معانى الخلاء والقفرو والبادية .

وشابه العرب المصريين في تصويرهم اللفظي لأرض الزراعة ، حين أطلقوا على أرض الجزيرة بالعراق اسم أرض السواد لسواد تربتها وشفافة زرعها وللفرقة بينها وبين الصحارى التي تحف بها (٥) .

== ووصفوا معبودهم « مين » بالصفة نفسها - (Pap. Berlin 3056, III, 1) ووصفوا معبودتهم الأثيرة ايسة (إيزيس) بأنهما ست كيمية أو كمية أى سيدة سمرء أو خمرية ، وليست سوداء بطبيعة الحال J. D. MICHON, Baugeschichte des Denderahtempel, VI, 38.

ووصفوا صنفا من أصناف غلالهم بأنه « بدت كمة » أى حنطة سمرء ، وليست سوداء بطبيعة الحال Pap. Hearst, IV,5; Golenischeff's Glossary, 6, 8 ; BUDGE, B.D. (Nu Pap.), XIX, 16. أيضا ،

وأطلقوا على البحيرات المرة (وبحيرة التمساح خاصة) اسما عاما وهو « كم ور » بمعنى الأمر الكبير، سواء باعتبارها بحرا متصلا ، أو على أساس نسبتها إلى معبودهم الكبير أوزير

Pyr. 628b, 1350, 1630d, 1638 ; ZÄS XXIX, 44 ; Sinuhe, 21.

ويتضح من الأمثلة السابقة أن الصفة كم أو كمة كانت أقرب في بعض أحوالها إلى أن تعنى اللون الاسمر عامة أو اللون الخمرى ، دون اللون الأسود الصريح الذى لم يكن مستحبا كثيرا من ناحيته الجمالية لدى المصريين ، ولم يكن يتفق مع تصوراتهم عن ربهم إيسه الجميلة ، ولا من ربهم مين رب قفط وحامى القوافل وأحد أرباب السيول ، ولم يكن يستحب في لون الحنطة بطبيعة الحال .

ولسنا نغفل أن المصريين مثلوا وصوروا بعض ملوكهم وملكاتهم باللون الأسود ، فلون أحد فناني الأسرة الحادية عشرة تماثلا لفرعونه متوحوتب نب حوة رع باللون الأسود ، ولون أحد فناني الأسرة الثامنة عشرة تماثلا لفرعونه توت عنخ آمون باللون الأسود أيضا ، وصور بعض فناني عصر الرعامسة الملكة أحسن نفرتارى في بعض مقابر دير المدينة ولونوا صورها باللون الأسود .

ولكن يلاحظ إلى جانب ذلك ، أن العيوب الفنية في تماثيل متوحوتب تدعو إلى الظن بأن فنانه لونه باللون الأسود عن سوء اختيار وقلة تجربة . وإن الملكة أحسن نفرتارى لم تلون باللون الأسود وحده ، وإنما لونت في حالات أخرى باللون الأزرق أيضا ، وإن صورها الملونة رسمت بعد وفاتها بأكثر من قرنين ، ورسمت في مقابر رؤساء عمال دير المدينة وليس في مقابر عليه القوم ، أى أن من رسموها كانوا من الفنانين العاديين الذين لا يبتد كثيرا بفنهم ، وليسوا من الفنانين المسئولين ذوى المهارة . أما بالنسبة إلى تماثلي توت عنخ آمون فالمعروف أنهما وضعا لدى مدخل مقبرته ليقوما مقام الحراس ، وترتب على ذلك أن تمثلت فيهما طبيعة مزدوجة ، فرمزا إلى الملك بعلامه وملابسه ورمزا إلى هيئة الحراس النوبيين بلونهما الأسود ، ولم يكن الأزوداج في طبيعة التماثيل غريبا عن منطق المصريين لا سيما في تماثيل الشوابتي التي كانت ترمز إلى أصحاب المقابر بهيئاتهم المثلثة فيها وترمز في الوقت نفسه إلى أتباعهم وخدمتهم بالنصوص المكتوبة عليها .

(٣) N. de G. DAVIES, Amarna VI, 27,8 ; Pap. Sallier I, 1,1 ; L.D. III, 146 ; Mariette, Karnak, 53, 22 ;

Pap. Harris, 9, 6 ; 49, 12; Carnarvon Tablet, I, 5.




(٤) Wb. V, 494, 5f.; III, 234 ; II, 109,5f.; II, 217,1-2.


(٥) « السواد جماعة النخل والشجر لخضره واسوداده ، وقيل ذلك لأن الخفرة تقارب السواد ، وسواد كل شيء كورة » ماحول القرى والرساليق ، لسان العرب ج ٤ ص ٢٠٩

وردد الأجداد اسم كيمه في نصوصهم بروح التكريم ، فكان من فراعنتهم من يقول في أحاديثه " عملت على أن تصبح كيمه بأهلها فوق رأس كل أرض " (٦) ، وكان منهم من يفخر في نصوصه بأنه " من ثمرات كيمه " (٧) ، كما كان من أدبائهم من يفخر في مقدمة كتابه بأنه " ثمرة كاتب من كيمه " (٨) .

وتعددت أسماء مصر إلى جانب اسم كيمه ، ولم يكن مثل هذا التعدد بدعا في عرف أصحاب الحضارات القديمة ، ومنهم المسلمون الأوائل الذين أطلقوا على مدينة يثرب تسعة وعشرين اسما .

وسوف يفضى بنا تعدد أسماء مصر إلى مناقشات لا تخلو من إسهاب ووعورة ، ولكنها مناقشات مستحبة على أية حال ، لأنها تتعلق بمصر وأخيلة أهلها .

فن أقدم أسماء مصر وأكثرها شيوعا في ألقاب الفراعنة ومتونهم الرسمية ، اسم « تاوى »  (٩) بمعنى الأرضين ، أرض الصعيد « تاشمو »  وأرض الوجه البحري « تاشمو »  (١٠) . وهو اسم ابتدعه أصحابه منذ أواخر الألف الرابع ق.م على أقل تقدير ، وتأثروا في إطلاقه بوجود الفوارق الإقليمية اليسيرة في مظاهر البيئة بين الوجهين ، وما تواتر إليهم عن استقلال كل منهما بأوضاعه السياسية القديمة قبل بداية عصورهم التاريخية خلال الألف الرابع ق.م ، ثم حافظوا على تضمينه (أى تضمين اسم تاوى) في ألقاب فراعنتهم طوال عصورهم القديمة جريا على عادة التقليد من ناحية ، ولْيؤكدوا التمام شمل الوجهين في طاعتهم وفي ظل وحدة سياسية وحضارية متكاملة ، من ناحية أخرى .



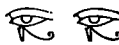
؛ وظلت صلوات مصر بالنيل والفيضان والزراعة صلوات لا تنفصم في تصورات المصريين عن أرضهم وتسمياتهم لها ، فعبر كتابهم عنها باسم « إيدبوى »  (١١) أى الضفتين أو أرض

Urk. IV, 102 ; Mariette, Abydos, II, 31, 21. (٦)

Great Stela of Amenophis II, * (S. HASSAN, The Great Sphinx and its Secrets, Cairo 1953). (٧)



Brit. Mus. Pap. 10474, I, 4. (٨)

cf. Wb. V, 217, 1 f.

...  —  —  (٩)

...   —    (١٠)

cf. P. MONTET, op. cit., 5 f.

...  — 

...   Wb. I, 153, 5 (١١)

ولا يخلو من دلالة أنهم ظلوا أكثر حرصا على وصفها بنوعها الشعرية طوال عهود المحن السياسية التي حلت بها في عصورها المتأخرة على أيدي الفرس والإغريق والرومان ، تأكيذا منهم لاعتزازهم بها على الرغم من تضيق أعدائهم عليها ، ورغبة منهم في التنفيث عن قوميتهم المغلوبة على أمرها من خلال السطور التي سجلوها علانية على النصب الخاصة وعلى جدران المعابد العامة .

بيد أنه مهما يكن من أمر هذه الأسماء والنوع ، فإن أمرها لا يقارن بأمر اسمين آخرين عرفهما العالم الخارجي لمصر ورددتهما نصوصه أكثر مما رددهما المصريون القدماء أنفسهم ، وهما : اسم مصر ومترادفاته ، واسم آيجوπτوس Αἴγυπτος ومترادفاته .

فن أقدم المصادر الخارجية المعروفة التي سجلت اسم مصر ، رسالة وجهها أمير كنعاني إلى فرعون مصر خلال الربع الثاني للقرن الرابع عشر ق . م ، وأشار فيها إلى أنه قد يضطر لإزاء تهديد جيرانه له إلى إرسال أهله إلى « ماتو مصري »^(٢١) أى إلى أرض مصر (ولفظة ماتو لفظة أكديّة الأصل تعني معنى الأرض) . وأضافت رسائل أخرى من العصر ذاته عدة أسماء قريبة من لفظ « مصر » مثل أسماء : « مَشِرَى » و « مِصْرَى » في لوحة ميتانية وجهها صاحبها إلى فرعون مصر^(٢٢) . واسم « مِصْرَى » في لوحة آشورية بعث بها صاحبها إلى فرعون مصر أيضا^(٢٣) . واسم « مصر » في نص من راس الشمرا في شمال سوريا^(٢٤) . واسم « مصرم » في نص فينيقي^(٢٥) من أوائل الألف الأول ق . م أو نحوها .

وعادت النصوص الآشورية فرددت اسم مصر خلال القرون التاسع والثامن والسابع ق . م بأكثر من صورة واحدة ، فكثبته مِصْرَى ومِصْر . . .^(٢٦) ، وقال الفرس القدماء عنه مُصْرَايا ومدرايا (وربما مودارتو أيضا)^(٢٧) . وكتبه البابليون في أواخر القرن السادس ق . م « مُصْرُو »

(٢١) J.A. KNUFTZON, Die El-Amarna - Tafeln, Leipzig, 1915, I, Tafel. 117. والرسالة من ريب أدى الى

أمنحوتب الثالث او ولده أخناتون

(٢٢) H. WINCKLER und L. ABEL, Der Thontafelfund von El Amarna, Gloss ry 39*.

(٢٣) Ibid., 152.

(٢٤) KOEHLER-BAUMGARTEN, Lexicon in Veteri Testament Libros, 557.

(٢٥) Ibidem, CIS 1029; F. BROWN and others, Hebrew and English Lexicon of the Old Testament, Oxford 1929, 595; W. GESENIUS, Hebräisches und Aramaisches Handwörterbuch, 1910, 449.

(٢٦) cf. LEO OPPENHEIM, Ancient Near Eastern Texts relating to the Old Testament, (ed. J.B. Pritchard), Princeton 1955, 279, 281, 282, 284, 286.

وعن أسماء أخرى مثل مُصْرُو مِصْر... إلخ - راجع :

H. WINCKLER, Alttestamentliche Untersuchungen, 168 f.; 170; E. SHRADER, Keilinschriften und Geschichtsforschung, 246 f; F. DELITZSCH, Wo Lag. das Paradies?, 308 f; G. EBERS, Aegypten und die Bücher Mosis, 71 f.

Ibid. (The same references) and see, T. K. CHEYNE, in Encyclopaedia Biblica, III, col. 3161; KOEHLER, Lexicon, 557.

و «مِصْر» (٢٨) . وقال عنه المعيلون اليمينيون «مصر» و «مِصْرِي» (٢٩) . وكتبته نصوص التوراة «مِصْر» (أو مصور) و «مصرايم» ، وقالت «يُؤورِي مِصْر» (٣٠) بمعنى نيل مصر ، و «إيريس مصرايم» (٣١) بمعنى أرض مصر . . . ، ثم قالت عنه النصوص الأرامية السورانية «مصرين» (٣٢) . وعبر عنه شاعر بدوي من بداية العصور الإسلامية بنفس التسمية (٣٣) . . . ، وذلك فضلا بطبيعة الحال عن تعبير لغة القرآن الكريم عنه بلفظه الفصحح «مِصْر» ، وتعير لغتنا الدارجة عنه بلفظ «مِصْر» . . . (*)

والواقع أن اختلاف الصور اللفظية لاسم مصر في اللغات القديمة ليس هو بيت القصيد ، فلا زال العالم الخارجي يذكر القاهرة مثلا باسم كايرو واسم كبير . . . ، ولا زال أهله يعبرون بالفاظ: إيجيبت وإيجيطن وإيجيتو عن اسم واحد ، ولكن مدار البحث هو أن المصادفات شاءت ألا يعثر حتى الآن على وثيقة مصرية قديمة اعتبرته اسما لبلدها في صراحة ، وأن النصوص الأشورية وهي أكثر المصادر القديمة ترديدا لاسم مصر ، لم تكن بمتداداته لمدنا مصر وحدها ، وإنما عنت بها كذلك منطقتين أخريتين: منطقة في شمال سزريا أو في جنوب آسيا الصغرى ، روت قصص التوراة أن سليمان اشترى خيولا منها (٣٤) ، ومنطقة حدودية نشأت على المشارف الشرقية لشبه جزيرة سيناء (٣٥) ، وسكنها أسويون دانوا بالولاء لمصر وفرعونها ، واشتركوا مع أهل دمشق وبعض أهل فلسطين في مقاومة شلما نصرملك آشور عام ٨٥٣ ق.م ، وتجددت الاشتباكات بينهم وبين الملك الأشوري تيجلات بيلاسر في النصف الثاني من القرن الثامن ق.م ، فغلبتهم جيوشه الكثيفة على أمرهم ، وولى عليهم قبيو من أروبو ، أي قيا من أعراب البادية ، يدعى

KOEHLER, op. cit., 557. (٢٩)

T. K. CHEYNE, op. cit. (٢٨)

Gn. 45, 20; 47, 6, 3. (٣١)

Mi. 7, 12; Js. 19, 6; 37, 25; 2 K 19, 24. (٣٠)

W. Gessenius, op. cit. 449. (٣٢) وذكرى نص ميني من آسيا الصغرى اسم مصر ،

WINCKLER, Die Keilinschriften und das Alte Testament, 141, Ann. 3.

وذكر نص بيزنطي اسم **μυσρα** وقد يدل الاسمان على مصر فعلا أو على مطلقة تشبهها في الاسم

Sec, T. K. CHEYNE, op. cit. col. 3161.

بآسيا الصغرى

(٣٣) لسان العرب ج ٧ ص ٢٤

* يسعدني أن أعجل شكري للأستاذ الدكتور خليل يحيى نامي على الروح الطيبة التي لمستها منه في مناقشة هذه المترادفات معه .

H. WINCKLER, Alt. Unters., 171 f; T. K. CHEYNE, op. cit., col. 3162-3163; W. Gessenius, 1910, 449. (٣٤)

cf. T. K. CHEYNE, op. cit., col. 3163-3165; H. WINCKLER, "Arabische Muṣri", in MVAG, XI (1906), (٣٥)

102 f; E. F. WEIDNER, in A.F.O., XI (1941), 45.

إديبايل . . ، ثم تكرر خضوعهم لملك الأشوري شاروكين (سرجون الثاني) في أواخر القرن نفسه (٣٦) .
وهنا تملك الفرور الكتبة الأشوريين فاعتبروا خضوعهم في الحالين خضوعاً من حليفتهم الكبرى وسميتهم
مصر ، كما اعتبروا جزاهم بمثابة جزى الفرعون المصري نفسه (١٧) . وزادت النصوص الأشورية بعد
ذلك فذكرت اسمي مُرَرِي (أو مُصَرِي) ومُصَرِي اسمين لأمرين آراميين ، حكم ثانيهما دويلة مؤاب
القديمة في جنوب منطقة الأردن الحالية (٣٨) .

ولم تخل تسمية التوراة لمصر من الغموض بدورها ، فهي لم تذكر كلمة "مصر" في صورتها المفردة
وحدها ، وإنما كتبها كذلك مصرايم عدة مرات ، وعنت بها البلد حيناً وأهلها حيناً آخر ، واعتبرتها
اسماً مذكراً مرة واسماً مؤنثاً مرة أخرى (٣٩) .

وليس من المستبعد إطلاقاً أن تؤدي الكشوف الأثرية المقبلة إلى إظهار وثائق مصرية تذكر اسم
مصر في صراحة ، ولكن حتى تظهر هذه الوثائق يمكن ترتيب الآراء المحتملة في ضوء المصادر المعروفة حتى الآن ،
في تحليل اسم مصر ومترادفاته القديمة ، في أربعة آراء تنتهي جميعها إلى اعتباره لفظاً سامياً مشتركاً
يؤدي معاني الحاجز والحد والسور ، ويرجم عن صفى الحصانة والحماية . وتجري شواهد هذه الآراء
على النحو التالي :

() أن يكون اسم مصر صورة لفظية ومعنوية لكلمة مصرية قديمة مثل كلمة « مجر »
التي كانت تعنى معنى « الدرء » ، ومعنى البالد « المكنون » أو « المحصور » (٤٠) ،
واشتقت فيما اعتقد Wilhelm Spiegelberg من كلمة «جرو» بمعنى الحد ، أو من كلمة «جري»

(٣٦) اعتبر Oppenheim أهل هذه المنطقة هم أهل منصرى في جنوب آسيا الصغرى (op. cit. 279, n.9)
ولا يتفق ذلك مع ما ذكرته النون الأشورية من تعاونهم مع أهل دمشق وفلسطين وشمال شبه
الجزيرة العربية ، وذكرها بلدهم بعد قبائل نمود وأشباهاها من القبائل البدوية التي سكنت البادية . وكان اسم
إديبايل الذي ذكرت النون الأشورية أن ملكها تيجلات بيلاسر عين صاحبه قيما على مصرى ، اسماً عاماً لقبيلة
بدوية اعتبرتها متون التوراة من ولد اسماعيل أى من العرب الشماليين ، وكان أهلها يهشون فيما يحتمل إلى الجنوب الغربي
من غزة .

(٣٧) يلاحظ أن هذا الادعاء لا يختلف عما ادعته النصوص الأشورية نفسها من سيطرة ملوكها على دولة صبا
وتلقيهم الجزى من ملوكها اليمنيين ، ولم تكن سبباً التي اتصلوا بها غير جالية تجارية كبيرة خرجت من اليمن
وأقامت في شمال الجزيرة العربية على مقربة من واحة تيماء وعلى مقربة من طريقها التجارى الكبير لترى
مصالح دولتها الجنوبية في تجارته ، ولكن الكتبة الأشوريين اعتبروا امتداد نفوذ دولتهم عليها بمثابة امتداد
سيطرتهم على دولة سبأ الجنوبية كلها .

L. OPPENHEIM, op. cit., 271, 291. (٣٨)

Ex. 10, 7; 12, 33; Gn. 14, 25; 41, 55, 56; 46, 34; 50, 11; Is. 19, 16, 25; etc... (٣٩)

M. G. DARESSY, "Les Noms de l'Égypte" dans Bull. de l'Inst. égyptien, Série V, t.X (1916), p. 368. (٤٠)

بمعنى السور، ثم أضيفت إليها ميم المكانية نأد بجت «مجر»^(٤١)، وكتبت بعد ذلك بصورة كثيرة مثل «مجرى» و «إمجر»^(٤٢) وراودتها فيما اعتمد K.Sethe كلمة مجد^(٤٣).

(II 𐎎𐎍 - II 𐎎𐎍 - I 𐎎𐎍)

وتمثل ولهم شيبجلبرج ذلك «الدرء» المصرى فى أسوار الحدود المصرية الشمالية الشرقية القريبة من جنوب فلسطين ومن أرض جوشن التى طرد المصريين العبرانيين عنها ، وهى أسوار أشار المصريون إليها بالرمز فى متون دولتهم القديمة ، ثم أطلقوا عليها فى نصوص دولتهم الوسطى اسم «أسوار الوالى»^(٤٤).

وتمثل M.G.Daressy البلد «المكنون» فى حصانة مصر الطبيعية بين الصحراء والبحر على حد قوله^(٤٥) ، أو بين الصحراء الشرقية والصحراء الغربية على وجه أصح .

وآراء شيبجلبرج وزيته ودارسى فى هذه الاشتقاقات والتفسيرات آراء صائبة ، ونضيف إليها من ناحيتنا أن كلمات مجر ، وچرو ، ومجرى ، وإمجر ، ومجد ، التى استشهد بها كل من شيبجلبرج وزيته ، يمكن الاستعاضة نبيها عن حرف “ج” بحرف ص ، وتحويلها إلى مصر ، وصرو ، ومصرى ، وإمصر ، ومصد ، دون تردد كبير ، فقد أدى حرف 𐎎 فى الكتابة المصرية القديمة أغراض حروف الجيم المعطشة والجيم المهملة والزاي والصاد فى اللغة العربية واللغة الدارجة الحالية .

فمن صور تأديته وظيفه الصاد على سبيل المثال :

جيع فى اللغة المصرية = صيع بمعنى صباع فى اللغة الدارجة الحالية وإصبع فى اللغة العربية .

قج » » = جص فى اللغة العربية

وج (أو وحي) » » = وصى فى اللغة العربية

(٤١) W. SPIEGELBERG, “Varia”, in Rec. de Trav., XXI (1899), 39-40; A. ERMAN, Gram. § 102.

(٤٢) ومن استعمالات المصريين لها أن وصف أحد شعرائهم فرعونه سنوسرت الثالث بأنه «أمجر» أى درء وأنه أشبه بأسوار جوشن ، وتقع أرض جوشن على امتداد مديرية الشرقية الحالية ، وذكرتها التوراة وذكرت أن اتباع موسى عاشوا زمنا بها ، وذكرها المصريون باسم جيم .

ثم وصف الشاعر فرعونه بأنه من يدرأ (مجر) الريح العاصفة إبان غضب السماء . . .

F. LL. GRIFFITH, Kahun Papyri, pl. II, 14, 19; also Urk. IV, 1087, 10; Mar., Karnak, XV, 6.

(٤٣) S. SETHE, in ZÄS XXX, 53 f; Pyr. 494 b, 498 b; Kommentar, 213, 307, 336.

(٤٤) Pyr. 628 b, 1630 d; A. ERMAN, n ZÄS XXIX, 44; XLIV, 91; ED. MEYER, Gesch. I, § 227 Anm ;

MAX MÜLLER, Asien und Europe, 39 f, 43; Sinuhe, B 17

M. G. DARESSY, op. cit., 368. (٤٥)

جعن في اللغة المصرية = صان (المجر) الحالية بعد إحلال الألف فيها محل العين ، علما بأن النصوص الأثرية ذكرتها باسم صانو وهو نطقها المصري الصحيح .

جير في الكتابة القبطية = صير في اللغة الدارجة الحالية

ومن صور تأديته لوظيفة حرف الزاي على سبيل المثال :

جت في اللغة المصرية = زيت في اللغة العربية (مع تقدير أن حروف الحركة لم تكن تدون في الكتابة)

جتن في اللغة المصرية = زيتون في اللغة العربية

جعق » » = زعق » »

جعقة » » = زعقة » »

ججة » » = غزة » »

(ب) أن يكون (اسم مصر) ذا صلة بكلمة سامية كنعانية تتفق معه في حروفه الأصلية وتدل على معنى ينسجم مع خصائص بلده ، مثل كلمات « مَصْر » و « مَصْرًا » و « ما صُور » ، التي كانت تعني معاني الحصن والمكان المسور والحامية ، وتشبهها في ذلك الكلمات الأرامية مُصْر ومَصْرُو ومَصْرًا بمعنى الحد والناحية ، وربما الكلمة الأثرية « موصور » بمعنى أرض الحدود أيضا (٤٦) .

(ج) أن يكون عبري الاشتقاق من كلمات تشبهه في اللفظ مثل صر ، وصور ، ومِصُورا ، ومصوروت ، وهي كلمات تعبر في مجملها عن معاني الحدود والمواقع المحصنة والمحصورة (٤٧) ، وذلك مع ملاحظة تشابه كلمة « صر » فيها (وتجمع على صرر) مع الكلمة المصرية صرو (أو چرو) لفظا ومعنى ، وملاحظة إضافة حرف الميم إليها دون أن يتغير معناها (٤٨) .

أما « مصرايم » التوراة فتحتمل بدورها ثلاثة تسميات :

تفسيرا شائعا اعتبرها صيغة ثنائية ترمز إلى ازدواج المصريين أى الوجهين ، الوجه القبلي والوجه البحري . وهو أقل التفسيرات احتمالا .

cf. J.A. KNUDTZON, op. cit. S 510-511; 512-513; 1465 (Taf. 117, 50 79, 191); KOEHLER, op. cit., 558; (٤٦) GESENIUS, op. cit. 449; CHEYENE, op. cit., col. 3162; L. OPPENHEIM, op. cit., 279, n. 9.

KOEHLER, op. cit., 557; DARESSY, op. cit. (٤٧)

SPIRGELBERG, op. cit., 40. (٤٨)

وتفسيرا آخر اعتبرها صيغة ثنائية كذلك ، ولكنه رأى تعبر عن معنى « السورين » وترمز إلى ازدواج أسوار الحدود المصرية الشمالية الشرقية^(٤٩) . وهو تفسير مقبول .

ثم تفسيرا ثالثا اعتبرها كلمة مفردة تضمنت نهاية مكانية تماثل ميم المكان في اللغة العربية^(٥٠) . وهو تفسير مقبول أيضا زكاه صاحبه Edward Meyer بأمرين يعبران عن وجهة نظر التوراة أكثر مما يعبران عن وجهة النظر الحديثة ، وهما :

أن التوراة ذكرت كلمتي مصر ومصرايم في عرض الحديث عن الوجه البحري أكثر مما ذكرت في عرض الحديث عن مصر كلها^(٥١) ، وذلك مما يعني أنها لم تقصد بالكلمة الثانية منهما معنى الازدواج .

وأنها ميزت الصعيد أحيانا باسم « باتروس » ، وهو اسم محرف عن التعبير المصرى القديم پاتارسى (أو پاتورسى^(٥٢)) بمعنى أرض الجنوب ، وعبروا عن أهله باسم پاتروسيم^(٥٣) .

وحيثما ابتغى الأخبار النسابون أن يترجوا عن هذا التمايز بين الوجهين ، ترجحوا عنه بأسلوبهم الخاص ، فنسبوا الوجه البحري « مصرايم » إلى مصرن حفيد نوح ، ونسبوا الصعيد « باتروس » إلى ولده^(٥٤) ! (وليس لهذه النسبة أصل علمي على الإطلاق) .

(د) أن يكون ذا صلة بمفهوم العرب لكلمة مصر ، وهو مفهوم لا يختلف كثيرا عن مفهوم المصريين والفلستينيين له ، حين روي أن المصر يعنى الحاجزين الشينين والحد بين الأرضين ، وجمعه مَصُور . وحين قالوا : مَصَّرُوا الموضع جعلوه مصرا ، وتمصر الموضع فصار مصرا أى تمدين . ورويوا أن أهل مصر في صدر الإسلام كانوا يكتبون في عقودهم اشترى فلان الدار بمصورها أى بمحودوها^(٥٥) .

وهكذا اشتركت الآراء الأربعة ، على الرغم من تشعب مباحثها ، في ترجيح أصل سامي قديم استخدمه المصريون وجيرانهم الشرقيون ، مع اختلاف لهجاتهم ، في التعبير عن معانى الحاجز والحد

E. NAVILLE, "Some Geographical Names", in J.E.A. IV, 230-231. (٤٩)

ED. MEYER, Gesch., I § 42, J. BARTHE, Nominalbildung, 152 ; T. K. CHEYNE, op. cit. col. 3162. (٥٠)

GESENIUS, op. cit. (1886), 488, 490; T. K. CHEYNE, col. 3161 (٥١)

G. EBERS, op. cit. 85 f.; SPIEGELBERG, op. cit. 40. وذكرته بهذا الاسم مصادر مسارية (٥٢)

Gn. 106=I Ch. I, 8 ; also Gn. 10, 13. (٥٤)

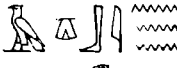

Gn. 10, 14; Is 11, 11; Jer. 44, 15 (٥٣)

(٥٥) لسان العرب ج ٧ ص ٢٢ - ٢٤

والسور ، ورتبوا عليه ما شاءوا من صفات تتصل به مثل صفات الحصانة والحماية والتمدن وما إليها... (٥٦).

*
* *

أطلق الإغريق اسم آيجو پتوس Αἴγυπτος على النيل وأرض النيل في آن واحد ، منذ عصر شاعرهم هوميروس على أقل تقدير ، ثم قصره على مصر نفسها (٥٧) . وكتبه الرمان بعدهم آيجيتوس Aegyptus ، وشاع بعد ذلك في اللغات المعاصرة بترادفاته المألوفة : Egypt, Egypte, Ägypten, Egitto... على الرغم من عدم استخدامنا له إطلاقا ، وعلى الرغم من أن أجدادنا لم يستخدموا مرادفه القديم المحتمل في غير القليل النادر (٥٨) .

ولعل أقرب المسميات المصرية المحتملة إلى اسم آيجو پتوس ومشتقاته هو اسم آجي  الذي نمنه الباحث Edward Naville (٥٩) ، وترادفاته آجب وآجبة  ، وكانت كلها مترادفات رمزت المتون المصرية بها إلى الماء الأزلى الذى برزت الأرض منه ، وإلى النيل والفيضان ورب الفيضان ، وربما إلى الأرض المغمورة بالفيضان أيضا (٦٠) ، وذلك على نحو ما عبر الإغريق باسم آيجو پتوس في العصور المتأخرة عن النيل وأرض النيل معا ، بعد أن حوِّروا كتابته إلى ما يتفق مع نطقهم له وبعد أن أضانوا في نهايته حرفى الواو والسين اللذين اعتادوا على إضافتهما إلى نهاية أغلب مسمياتهم... (٦١) .

(٥٦) لم تتضمن الكتابة القبطية كلمة مصر فيما أعلم حتى الآن ، ولكنها تضمنت كلمة مرس *μαρης* بمعنى الصعيد أو الجنوب ، فهل لها صلة باسم مصر باعتبارها تصغيره ؟
لا نظن ذلك ، وذكر المسعودى المريس بمعنى أرض الصعيد حتى النوبة ، ج ٦ ص ٢٧٣ ، وذكره ابن دقماق ج ٤ ص ١٢١ . (cf. CRUM, Dict., 300 b.)

(٥٧) أطلقوه في صيغة المذكر على النيل وفي صيغة المؤنث على مصر .
Odusea IV ; 355, XVII, 427.

وذكروا النيل باسمه الحالى *Νεῖλος* مند عهد شاعرهم هسيود *Hesiodos*

(٥٨) عقب ادوارد نافييل على هذه الظاهرة ، ظاهرة تسمية بلد باسم قلما يستخدمه أهله ، تعقبا طريفا ، فأشار الى تسمية الالمانى فى الإنجليزية *a German* وفى الفرنسية *un Allemand* وفى الايطالية *un Tedesco* على الرغم من أنه يسمى فى وطنه *ein Deutscher*

E. NAVILLE, "Some Geographical Names", in J.E.A. IV, 228 f. (٥٩)

Wb. I, 22, 10 f.; Pyr. 120, 265, 499 a, 508 a, 551 b, 559a, 701 c, 1173 a; NAVILLE, Todt. LXI, (٦٠)

Taf. XXXVII, 6

(٦١) أمتقد *H. BRUGSCH* أن اسم آيجو پتوس تحوير للاسم المصرى حت كابتاح أو حوت كابتاح ، وهو اسم معبد الاله پتاح فى مدينة منف ، وذلك على اعتبار ان اسم المبد طفى على اسم مدينته ففرقت به ، ولما لحظ الاغريق أهمية المدينة وشهرتها خلال العصر الصاوى أطلقوا اسمها على القطر كله بعد ان صوروه بما يتفق مع نطقهم له أو فهمهم له . *H. BRUGSCH, Géogr. Inschr., I, 83.*

وشاع هذا الاعتقاد من بروكس ، لولا ان عارضه دارسى ولكن دون ان يستبدله بتفسير آخر مقبول ، وعارضه كذلك *ED. NAVILLE* وأشار الى ان الاغريق عرفوا آيجو پتوس قبيل عهد هوميروس وفى فترة لم يكن تجارهم يتعدون خلالها المناطق القريبة من السواحل المصرية الى قلب الدلتا ومنطقة منف ، هذا فضلا من صعوبة تحوير عبارة حت كابتاح التى ذكرتها النصوص السامرية باسم خيكوبتاح الى آيجو پتوس ومشتقاتها .

ED. NAVILLE, op. cit., 229.

ب - مصر القديمة بين جيرانها في الجنس واللغة

ظل الأجداد المصريون منذ أواخر دهرهم الحجري القديم الأعلى ، أى منذ ما يقرب من عشرة آلاف عام ، فرعاً من سلالات البحر المتوسط الجنوبية (٦٢) ، مع اختلاطات محلية بين سكان أطراف الصعيد وأطراف الدلتا ، وبين سكان حواف الصحراء الشرقية وسكان حواف الصحراء الغربية ، وهي اختلاطات ترتبت على فوارق البيئات المحلية ، وعلى مدى اختلاط أهل الأطراف والحواف بجيرانهم الآسيويين من ناحية وجيرانهم الأفريقيين من ناحية سواها ، عن طريق مداخيل أرضهم ومخارجها التي لم تكن عسيرة العبور دائماً خلال فترات اندهر الحجري القديم الأعلى وخلال فترات طويلة من الدهر الحجري الحديث الذي تلاه ، سواء بالنسبة إلى من عرفوا اصطلاحاً باسم أصحاب اللهجات السامية وانتشروا بالبحر الإقليمي في شمال شبه الجزيرة العربية ونواحي الشام وبادية العراق (٦٣) واتصلوا بمصر عن طريق شبه جزيرة سيناء وبرزخ السويس في أغلب أحوالهم ، وربما عن طريق البحر الأحمر أيضاً. أو بالنسبة إلى من عرفوا اصطلاحاً باسم أصحاب اللهجات الحامية وانتشروا بخصراًئهم الإقليمية في المناطق الليبية وفي نواحي النوبة وأراضى البجا والصومال (٦٤) .

واعتبر المصريون القدماء أنفسهم أمة قائمة بذاتها . ولم يعترفوا صراحة بفتات الاختلاط الجنسي القديم إلا في مرات قليلة ، وهو اختلاط لم يبرأ من مثله شعب قديم على الإطلاق ، واعادوا على أن يطلقوا على أنفسهم إسم " رمث " (٦٥) : بمعنى الناس ، و " رمثن كيمة " (٦٦) : بمعنى أهل مصر ،

cf. K. S. SANDFORD & ARKELL, *Palaeolithic Man and the Nile Valley in Upper and Middle Egypt*, (٦٢) Chicago 1934, 86.; and see, HALL, *The Ancient History of the Near East*, 1913, 85 f, P. MORET et DAVY, *Des clans aux empire*, Paris 1923, 179 f, 243 f.

(٦٣) تأثرت تسميتهم بالساميين وأصحاب اللغات السامية بما ذكرته التوراة عن سام بن نوح وما حاوله أحبارها من وضع سلاسل الانساب المفتعلة في حواشياها ، ثم أطلقها على لغاتهم في القرن الثامن عشر SCHLÖZER, in *Eichhorn's Repertorium VIII* (1781), 161.

(٦٤) تأثرت تسمية الحاميين بنفس ما تأثرت به تسمية الساميين من حيث ذكر حام بن نوح في التوراة وتقسيم نسابة التوراة للشعوب التي عرفوها إلى أبناء سام وأبناء حام ، ثم أطلقها على لغاتهم في القرن التاسع عشر LEPSIUS, *Standard Alphabet*, 2nd ed., London 1863.

وراجع عن مدى الصلات بين لغات المجموعتين ص ١٤

Wb. II, 421 f., 423. (٦٥)

Sinuhe, 33; Max d'Anii, 9, 6; Mythe d'Horus, 22; Wb. V, 127, 13-14, see also ρμνκημε (Срѹм, (٦٦) Dict. 110 a); ἔρμoκύμιoς (ZÄS, XLIII, 158).

و "رمثن پاتا" (٦٧) بمعنى ناس الأرض . وأوشكوا أن يقصروا هذه التسمية على أنفسهم ، وكانهم اعتبروا من دونهم من الخلق أقل إنسانية منهم . ولم يكن ذلك غريبا عليهم بعد المأساة من رقى حضارتهم عن حضارات الشعوب المحيطة بهم ، ولم يكن غريبا كذلك عن منطق بقية الأمم المتحضرة القديمة التي عاصرتهم والتي أعقبتهم في الزمن ، فقد فكر أهل بلاد النهرين مثل تنكيرهم في عهود قوتهم ، واعتبر كل من الإغريق والرومان كل من عداهم من الخلق بآخرة ، بعد أن هيأت الأقدار لهم أن يسودوا العالم القديم بحضارتهم وبأسهم ، وعلى ذات النحو زعم أهل التوراة التدايمي أنهم شعب الله المختار ، ثم كرم الله تعالى المسلمين بوصفهم بأنهم خير أمة أخرجت للناس ، وناهيك أخيرا بما ظنه الألمان في أنفسهم حين بلغوا ما بلغوه من حضارة العلم والحرب .

نسب المصريون أنفسهم إلى بلدهم ، فقالوا إنهم "كيميتيو" (٦٨) أى أهل كيمية ، وردد أدباؤهم أن شعبهم هو شعب الشمس ، والشعب النيل ، وشعب السماء ، وشعب الإله ، وادعوا أنهم صور من ربهم الأكبر تشكلوا من لحمه ، وخلقوا من عينيه ، ونزلوا مع دموه (٦٩) .

وعبر المصريون عن لغتهم باسم "رانكيمية" أى لسان مصر (وحرافيا "فم مصر") و "مدتن كيمية" بمعنى لغة مصر ، و "مدت رمثن كيمية" (٧٠) أى لغة أهل مصر ، واحتفظوا للغتهم بمبادئ نحو وصرف ميزت بينها وبين غيرها من لغات العالم القديم ، ولكنهم ضموا لها في الوقت ذاته قواعد أخرى ومفردات تكشف عن استمرار دالاتهم بغير انهم الأديين أصحاب المجموعة السامية في الشمال الشرقى ، وأصحاب المجموعة الحامية في الغرب وفي الجنوب والجنوب الشرقى ، وظلت صلات لغتهم بهاتين المجموعتين موضع أبحاث علمية مسهبة منذ أوائل القرن الماضي حتى الآن ، فأكد غلبة العنصر السامي فيها من علماء اللغات :

Th. Benfey , F. Hommel , A. Erman , K. Sethe , A. Ember , A. Kamal , T.W. Thacker, etc... (٧١)

(Ibid., I, 6.) Harris I, 11. انظر أيضا « باتانكيمية » بمعنى أهل أرض مصر (٦٧)

Wb. V, 128, 1. (٦٨)

Glossary Golenischeff, 3, 15 ; Pap. Westcar, 8, 17 ; A. M. BLACKMAN, in J.E.A. XVI, 66 ; (٦٩)

Wb. III, 114, 6 ; Pap. Petersburg, 1116 A rt. 131-132 ; W. SPIEGELBERG, in ZÄS, LXIV, 89 f ;

A. ERMAN, Die Literatur, 78 ; A. ERMAN, Die Religion, 66 ; E. NAVILLE, Textes relatifs au Mythe d'Horus..., 21, 2 f.

Sinuhe, 32 ; Unamun, 2, 77 ; Max d'Ani, 9, 6 ; see also 𓆎𓅓𓏏𓏏𓏏𓏏𓏏 (٧٠)

See, esp., A. ERMAN, in ZÄS, XXVII, 125 f ; ZDMG XLVI, 93 f ; ZÄS, XLVI, 96 f. (٧١)

A. EMBER, in ZÄS, XLIX, 93 f ; XLIX, 82 f ; I, 86 f ; LI, 110 f ; LIII, 83 f ; OLZ XVII, 6-7 ; XIX, 72-74 ; JAOS XLI, 177, and Egypto-Samitic Studies, 1930.

T. W. THACKER, The Relationship of the Semitic and Egyptian Verbal Systems, Oxford 1954.

ومن علماء الآثار والتاريخ (٧٢)

J. de Morgan ; H. Brugsch ; Hewzey ; W.F. Petrie ; P. Lacau ; R. Weill, etc....

وتقضى الطابع الحامى فيها كل من اللغويين (٧٣) :

E. Renan ; W. Max Müller ; O. Bates ; G. Möller ; C. Meinhof ; F. Behnk. ;
W. Vyčichl ; E. Zyblarz, etc. ...

ومن المؤرخين : (٧٤) A. Wiedemann ; Ed. Meyer ; W. Hölscher ; etc. ...

وربط فريق من هؤلاء وهؤلاء بينها وبين المجموعتين السامية والحامية في سياق واحد، وذلك على اعتبار أنه ليس من فارق أصيل بين المجموعتين ، وأنهما من أصل مشترك قديم ، أوهما على الأقل من أسرة كبيرة يمكن تسميتها في مجملها باسم الأسرة الحامية السامية ، ومن أنصار هذا الرأى :

Leo Reinich ; H. Zimmern ; J. Barth ; Th. Nöldeke ; D.L. O'Leary ;
W.H. Worrel ; E. Zyhlarz ; etc. ...

وقسم فريق من هؤلاء اللغويين الأسرة الحامية السامية الكبيرة القديمة إلى أربعة أقسام
أو خمسة وهى :

السامية (بلجاتها الأكدية والأوجاريتية والعبرية والأرامية والعربية والجزرية والأمهرية وأشباهاها).
والبربرية (بما تتضمنه من لهجات الطوارق والكجايل وأشباهم) .

esp. : J. DE MORGAN, La préhistoire orientale, II, 1926, ch. VI ; also in J.As. 1923, 117f. (٧٢)

W.M. F. PETRIE, Preh o c i gyp , Lon on 1920, 48f. ; The M.k ng of E gypt, Lon on 1939

P. LACAU, dans Annuaire de Collèges de France, 1945, 104 f.

R. WEILL, Recherches sur la Ire Dynastie et les temps prépharaoniques, Le Cairo 1961, 2 Partie, 283 f.

See esp. : C. MEINHOF, Die Sprachen der Hamiten, 1912., O. BATES, The Eastern Libyans, 1917. (٧٣)

G. MOLLER, in OLZ, XXIV, 193-197; ZDMG, LXXVIII, 36 f., W. VYCIHL, in WZKM XL, 171 f;

MSOS, XXXVII, 134 f. E. ZYHLARZ, in ZÄS, LXX, 107 f; Ursprung und Sprachecharakter der

Altägyptischen, Berlin 1933; ZÄS, LXVII, 133f. ; ZES, XXV, 161 f. ; 241 f; FRIDA BEHNK,
in ZDMG, 82, 136 f.

(٧٤) ولكنى دون اغفال العناصر السامية ،

See, A WIEDEMANN, "La question de l'origine du peuple égyptien" dans J. DE MORAN, Recherches II, ch.

V ; ED. MEYER, Gesch. des Altertums, I 2, § 166 ; W. H ÖLSCHER, Libyer und Ägypter, 1937.

والكوشية (بما تتضمنه من لهجات البجا والجالا والصومال وغيرهم) .

والمصرية القديمة .

ثم الهوسوية لغة الهوسا (؟) (٧٥) .

ورجح ما أسلفناه من تميز اللغة المصرية بشخصيتها وكثير من مفرداتها وقواعدها على الرغم من صلاتها ببقية أخواتها ، كل من :

(٧٦) A. H. Gardiner M. Cohen, G. Lefebvre وإلى حد

* * *

لم يتأت ما بين اللغة المصرية وأخواتها من تقارب نتيجة لعامل واحد بالضرورة ، وإنما يرجح أنه ترتب على عوامل متشابكة كثيرة . ففضلا عن وحدة الجنس البعيدة بين مصر وجيرانها ، وعامل الاختلاط الجنسي المتقطع بينهما ، توفرت فرص الاتصال الثقافي والتشابك اللغوي بين أهلهما عن طريق الأخذ والعطاء في مجالات التجارة ، والأخذ والعطاء في مراسلات الود بين الحكام ، وخلال فترات المد السياسي من جانب على جانب آخر (وكان من جانب المصريين في أغلب الأحوال) ، ثم عن طريق شيوع لهجات الأوقاء والعامل وأسرى الحروب الذين استقروا في مصر وأنجبوا فيها .

ولن تستهدف الصفحات التالية مناقشة لغوية خالصة ولا مناقشة جنسية خالصة بقدر ما تستهدف أمرين ، وهما :

(أ) توضيح موضع مصر القديمة بالنسبة إلى جيرانها .

(ب) توضيح موضع مجتمعنا الحالي بالنسبة إليها .

وفي ضوء هذين الهدفين وضوء ما أسلفناه عن تعدد وسائل التقارب بين مصر وبين جيرانها ، نجد أن الصبغة السامية ظلت أكثر وضوحا في المفردات المصرية القديمة خلال ثلاث مراحل أساسية طويلة ، وهي :

مرحلة التكوين الثقافي التي سبقت العصور التاريخية واستمرت خلال الألف الرابع ق.م ، وكان جزء كبير من أهل مصر خلالها من نفس جنس أصحاب اللغة السامية الغربية ، وظهرت ألفاظ هذه

MARCEL COHEN, "Langues chamito-sémitiques", dans les langues du Monde, 1924 ; Essai comparatif (٧٥) sur le vocabulaire et la phonétique du chamito-sémitique, Paris 1947, 43 f.

MARCEL COHEN, op. cit. ; G. LEFEBVRE, "Sur l'origine de la langue égyptienne", dans Chr. d'Égypte, (٧٦) 1936, 266 f. ; A. H. GARDINER, Egyptian Grammar, Oxford 1927, p. 3.

المرحلة في نصوص الدولة القديمة خلال النصف الأول من الألف الثالث ق.م، بعد أن اعتاد أصحابها على الكتابة وأتقنوها .

ومرحلة بدأت منذ أواخر الألف الثالث ق.م، وسبقت عصور الدولة الوسطى ثم استمرت خلالها، واستقبلت مصر إبانها جماعات متفرقة من الرعاة والتجار والمهاجرين ومن عمال المناجم والأرقاء الأموريين (الساميين)، واتسعت صلاتها ببلاد الشام حتى أصبحت لغتها مفهومة عند بعض أهل لبنان .

ومرحلة ثالثة سبقت بداية الدولة الحديثة ، منذ القرن الثامن عشر ق. م ، واستمرت خلالها ، واندثرت إلى مصر في أوائها جماعات سامية عدة تحت ضغط هجرات آرية شمالية، ثم مدت مصر نفوذها السياسي والحضاري على نواحي الشام وأطراف العراق منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر ق.م، وتبأت لها فرص التوسع في الأخذ والعطاء مع البابليين والآشوريين والكتعانيين والأراميين والعبرانيين الأصليين ومن إليهم من الأقوام الذين ظهروا على مسرح السياسة في الشرق الأدنى القديم .

وفضلا على ما تضمنته نصوص هذه المراحل الثلاث ، شاعت في العبارات المصرية الدارجة مفردات سامية كثيرة ، يصعب تحديد أزمتهما ، وتجاهلتها المتون الأدبية الرسمية عصورا طويلة حتى سجلتها الكتابة القبطية منذ القرون الميلادية الأولى .

وليس من شك في أن مقارنة المفردات المصرية بالمفردات السامية ينبغي أن يبدأ بما كان بينها وبين اللغات السامية الغربية العتيقة التي عاصرتها منذ عصورها الأولى ، وانتشرت في الشام والمناطق الغربية من شبه الجزيرة العربية ، لولا أن أصحاب هذه النواحي لم يسجلوا لغتهم بالكتابة إلا في مراحلها المتطورة منذ أواخر الألف الثاني ق.م، أي في عصور متأخرة كثيرا عن بداية ظهور نصوصنا المكتوبة القديمة . ولكن على الرغم من ذلك ، ولحسن الحظ ، تضمنت اللغة المصرية مفردات سامية غير قليلة عاشت حتى عصور اللغة السامية الكلاسيكية وعاصرت مفردات المعاجم ، واستمر بعضها حتى عصرنا الحاضر ، مع تغييرات طفيفة لا تكاد تحس في حروفها وحركتها ، وهي تغييرات لم توجد بينها وبين المفردات المصرية فحسباً ، بل وجدت أمثالا كذلك بين مفردات أهل الشام وأهل العراق وأهل شبه الجزيرة العربية (٧٧) ، ووجدت بين مفردات فروعهم الداخلية الصغيرة أيضا (٧٨) .

*
* *

(٧٧) انظر على سبيل المثال كلمة شمس في اللغة العربية، وشمشو وسمسو وشاشو في اللغة الأكادية العراقية وشمش في اللغة الآرامية ، وشمس في اللغة الأوجاريتية وشمس في اللغة العبرية .

وقارن لفظ حطة في اللغة العربية ، ولفظ حطة في اللغة الآرامية .

ولفظ كرم في اللغة العربية ، وكارانو في اللغة الأكادية العراقية ، وكام وكانو في اللغة المصرية .

cf. M. COHEN, op. cit., Nos. 263, 122, 184, 186.

(٧٨) انظر على سبيل المثال قراءة من قراوا « إنا أنطيناك الكوتر » عوضا عن « إنا أعطيناك الكوتر » .

ففي التعبير عن أعضاء جسم الإنسان ، عبر المصريون في نصوص الدولة القديمة^(٧٩)، عن العين بلفظ "عين" - وعن كلمة شفة بلفظ سبة (وكانت السين تختلط بالشين في أغلب اللهجات السامية القديمة ، كما اختلطت الباء بالفاء في اللغات القديمة كلها)^(٨٠) - وعبروا عن الإصبع بلفظ صباع (حرفيا : صبع وكانت حروف الحركة لا تكتب في أغلب اللغات السامية القديمة)^(٨١) - وعبروا عن لفظ قلب ولفظ لب بكلمة أب - وذكروا اللسان بلفظ نس (وكانوا لا يكتبون حرف اللام ويستعيضون عنه في الكتابة بحرف النون أحيانا أو بحرفي النون والراء ، ثم كتبوه بحرفه الأصلي في عصورهم القبطية ، فأصبحت كلمة نس تكتب لس) .

وعبروا عن الرجل بلفظ رد ، واستخدم العرب هذا اللفظ فقالوا : ما أدري أين ردى بمعنى ما أدري أين ذهب أو مشى ، وقالوا ردت الجارية أى مشت على رجل ورنعت أخرى^(٨٢) .

وذكر أهل العصر نفسه ، عصر الدولة القديمة ، أنعال : حسب - وخب - وختم - ونخر - وشد - وتم - وتم - ونجر - ونعى - وحبس بمعنى أليس ، بألفاظها العربية العادية^(٨٣) . وقالوا بصح بمعنى بصق - وبت بمعنى بصر - وبت بمعنى بص - وخع بمعنى شع - وحتم بمعنى حطم - وبتخ بمعنى بطح - ونسب بمعنى لسب أى ذاق واستطعم - وجبجب بمعنى كبكب أى طرح أرضا - وبيق بمعنى رقى - وساب بمعنى انساب^(٨٤) ، مع تحوير لطيف في كل فعل منها .

وقالوا حكى وحكى بمعنى مدح وقدم قربانا^(٨٥) وقالها اليونان القدماء بنفس المعنى - وقالوا خوى بمعنى حى وحفظ^(٨٦) ، ولا زال أهل نجد في شبه الجزيرة العربية يطلقون لفظ خوى على الحارس الخاص حتى

(٧٩) See Pyr. 1393; 118; 311; 1306.

(٨٠) كتب الانباط لفظ سنة : شنت أى شنة . وقارن عن اختلاط الباء بالفاء اسم الفيلسوف بلاؤ في اليونانية، مع كتابته أفلاطون في العربية ، وكلمة برعو في المصرية مع اسم فرعون في العبرية والعربية .

(٨١) قارن لفظ الرحمن ولفظ السموات في كتابة المصحف الشريف .

(٨٢) تاج العروس ج ١ ص ١٤٧

وعبر المصريون عن اليد بكلمة قريبة منها وهى چات (Pyr. 1763) وكلمة بعيدة عنها وهى چرت (Pyr. 440) ولكنهم استخدموا صورتها للتعبير عن حرف الدال في كتابتهم الهيروغليفية ، وذلك مما يعنى أنه كان لها اسم آخر في لغتهم الدارجة يدخل فيه حرف الدال ويحتمل أنه هو اسم يد السامى نفسه (ZÄS. L, 91. and see Wb. V 516, 581).

Wb. III, 166, 11 f.; 228, 3 f.; 351, 1 f.; 319-320, 1-2; IV 560, 8 f.; V, 303; II, 383, 13; 207, 4; III, (٨٣) 64, 3 f.; I, 305, 11f.

Wb. I, 555; 564, 1f.; III, 241; I, 197, 10f; 565, 16-17; II, 334, 11f; V, 165, 3; I, 33, 15 f; III, 420, 3-4 (٨٤)

Ibid., 244, 10 f. (٨٦) .

Wb. II, 117; 178, 2-4. (٨٥)

الآن . وعبروا عن حرق الفخار بلفظ قرر وعبر عنه الأكديون والعبرانيون باللفظ نفسه (٨٧) . وقالوا
شمع بمعنى غنى وأطرب ، واستعملها العرب بنفس المعنى (٨٨) .

وفي أسماء الأحياء ، عثر أهل الدولة القديمة عن كلمة طفل بلفظ تفن (أو طفن مع إحلال النون
محل اللام) — وعن الرفيق بلفظ سنو أي صنو — وعن العدو بلفظ سبي (٨٩) — وعبروا عن ألفاظ ذئب وعزة
وتمساح وچاح بصور قريبة من صورها الحالية فكتبوها بكلمات : سئب وعنخة وچنج ومساح
(وإمساح) (٩٠) — وذكروا الأسد بلفظرو ، وذكره الأكديون القدماء باسم أرو ، وسماه بعض أهل الحبشة
الساميين أرى (٩١) — وذكروا اللبؤة باسم رو أبو ، وحين استخدموا اللام في خطهم القبطي كتبوها لبوى (٩٢) .
وقالوا عن جلد الحيران مسقا ومسكا وقيل عنه في العربية مسك وفي الأكدية ما شكو وفي الأرامية
ماشكا (٩٣) — وربطوا بين هيئة الصقر وبين لفظ حور ، وهو لفظ لازال يطلق على نوع من البواشق والصقور
في جنوب شبه الجزيرة العربية وشمالها (٩٤) . وقالوا عن القطيع الصغير إدر وذكره أهل التوراة القدامى
في لغتهم السامية باسم غدر وعذر (٩٥) — ويحتمل أنهم عبروا عن كلمة وحى بلفظ حو (٩٦) (وإن كانوا
قد خصوا به الملوك) .

وفي أسماء السوائل والنباتات والأشياء والمعنويات والصفات ، عثر المصريون في نصوص الدولة
القديمة عن الماء بلفظ مو ، وعبر عنه الأكديون القدماء بلفظ مو أيضا ، وقال عنه الأراميون مايا
وماؤ ، وقال عنه العبرانيون مايم ، وقال عنه الآشوريون القدماء مو ، وماي أو شيئا من هذا القبيل (٩٧) .

(٨٧) Wb. V, 61,9; M. COHEN, op. cit., No. 239.

(٨٨) A. KAMAL, dans Bull. de l'Inst. égyptien, XI (1917), p. 94; A. ERMAN, Aeg. Gr., 129.

ويشير M. COHEN إلى أفعال أخرى ، مثل فعل حجى أو حذى بمعنى أضاء وأنار ، ويقال في العربية
حضا النار بمعنى أوقدنا وحركها لتنتهب (Ibid., 109)

(٨٩) Wb. I, 299, 3; IV, 150; 87, 14 f.

(٩٠) Ibid. III, 420, 5 f.; I, 205; V, 577, 6 f.; II, 136, 10.

(٩٢) λαβου (Wb. II, 403, 8).

(٩١) M. COHEN, op. cit., No. 34

(٩٣) Wb. II, 150, 3; M. COHEN, op. cit. 150, 3.

(٩٤) يقول لسان العرب ج ٥ ص ٢٥٦ « الحر الصقر ، والحر فرخ الحمام ، وقيل انه طائر نحو الصقر وليس
به ، انمر اصقع قصر الدنب عظيم المنكين والراس ، وقيل انه يضرب إلى الخضرة وهو يصيد »
ولو ان مدى دلالة كلمة حور المصرية على الصقر باعتباره طائرا لا يزال موضع جدل طويل — راجع لذلك
ص ٢٦٥ وحاشيته ٦٤

(٩٥) Wb. I, 154. III, 44

(٩٦) A.H. GARDNER, Some Personifications, in PSBA. XXXVIII, 49.

(٩٧) see also M COHEN ci No 485 وأضاف المصريون في نصوص الدولة الحديثة كلمة مى ومنوا بها المنى
(Wb. II, 36, 4) ، وكلمة موية ومنوا بها الرطوبة والرشح والمنى والبصاق (Ibid., 53) ولا زالت هذه الكلمة
تستعمل في الصعيد حتى الآن ، والطريف أن أهل الحجاز ونجد يستعملونها كذلك في لغتهم الدارجة
بمعنى الماء .

وعبر المصريون عن الموت بلفظه الحالي^(٩٨). وقالوا منمة أو منامة بمعنى سرير وممر قد المتوفى^(٩٩) —
وعبروا عن المعية بلفظ مع .

وقالوا ورس بمعنى مسند الرأس الذي توضع الوسادة فوقه، وقال عنه البابليون ورشاً^(١٠٠) — وعبروا عن
الفأس الذي استخدموه في عصورهم الأولى استخدام المحراث بلفظ مر ، وروت المعاجم أن المر عند
العرب هو المسحاة أو مقبضها ، وهو من المحراث ، ويعمل به في الطين^(١٠١) — وذكر المصريون الخضر
والبقول باسم سمو وقال عنها الأكديون سمو^(١٠٢) — وعبروا عن صفة الصغر بكلمة شرى وعبر الأكديون
عنها بكلمة شرو وشارو^(١٠٣) — وعبروا عن الطين باسم سين وسماه الأراميون بعدهم بقرون طويلة سين
أيضا أو سيان^(١٠٤) .

وعبروا عن القمح بلفظه الحالي — واستخدموا كلمة قد بمعنى هيئة — واحتفظوا بكلمات سامية أخرى
كثيرة مع تحوير طفيف في كل كلمة منها ، فعبروا عن كلمة أثل بلفظ أسر — وعن كلمة ثمرة بلفظ برة ،
وهي في الفينيقية بروفي العبرية پرى — وعبروا عن كلمة زمن بلفظ سمن — وعن كلمة مرض بلفظ مرت ،
وعن كلمة واحة بلفظ واحة — وعن كلمة يمنة بلفظ إمنة — وعن عدد ست بلفظ سس — وعن عدد ثمان
بلفظ نحن أو نحنو — وعن كلمة باكر أو بكرة بلفظ بكا (وباك) — وعن كلمة مرقاة بلفظ ماقاة أو ماقاة^(١٠٥) —
وعبروا عن صفة دافئ أو ساخن بلفظ سرف ، وعبر الأكديون عنها بلفظ شربو ، وعبر العبرانيون عنها
بلفظ سرب — وعبروا عن الحب والتمر بكلمة نير ، وعبر الأكديون والأراميون بالكلمة نفسها عن
فكرة النسل والإنتاج^(١٠٦) .

*
* *

وأضفت نصوص الدولة الوسطى (منذ أواخر القرن الحادى والعشرين ق. م) ثروة سامية جديدة
من الأسماء والصفات والأفعال :

(٩٨) Wb. II 55; 165. وقالوا منى بمعنى مات ورسا ، وقالوا « هرون منية » بمعنى يوم النية (Ibid., 73, 22)

(٩٩) Wb II, 80, 13.

(١٠٠) Ibid., I, 355. (١٠١) تاج العروس ج ٢ ص

(١٠٢) وفي اللغة الجاوية « سيام » M. COHEN, op. cit., No. 273.

(١٠٣) Wb. IV, 525, 11 ; M. COHEN, op. cit. No. 293. (١٠٤) Wb. IV 37, 11-12 ; Cohen, op. cit. No. 297.

(١٠٥) Wb. V, 40, 3-4 ; 75 ; I, 129-130 ; 530,9 ; III, 453,5 ; II, 96,6 ; I, 347,18 ; 85, 14 f. ; IV, 40 ; III, 282, 10 ; (١٠٥)

I, 481, 17 ; II, 33.

(١٠٦) M. COHEN, op. cit., No. 289, 367 ; Wb. II 249. وقارن مارسيل كلمة اخرى لها دلالتها لو

صحت (Ibid. 500 bis) ، وهى كلمة « هرو » فى المصرية القديمة بمعنى « نهار » ، مع قول العرب : الوهر

بمعنى توهج وقع الشمس على الارض (انظر لسان العرب ج ٧ ص ١٥٦) .

ففي أعضاء الجسم عبر أهلها عن الأذن بكلمة ادن^(١٠٧) ، وكان الأراميون يقولونها أودنا .
وفي أسماء الحيوانات ذكروا القرد بلفظ قند^(١٠٨) .

وفي أسماء الأشياء والمعنويات والصفات ، عبروا عن كلمة لون بلفظ أون - وعن كلمة حمض بلفظ حمت (وحمز وحماة) - وعن كلمة دقيق أو دقاق بلفظ دقو - وعن كلمة همهمة بلفظها الحالي^(١٠٩) .

وذكروا في نصوصهم أفعال: وهى - ووهى - وهوى - وفدق (بمعنى فتح أو فدغ) بألفاظها الحالية. وقالوا وحي بمعنى وصى - وخسى بمعنى خسىء - وقاع بمعنى ناء - وعن بمعنى طاب أو عتله وارتأى^(١١٠) - ونغ بمعنى فك^(١١١) - ووجح بمعنى ملح - وقدم بمعنى كدم، وأبى بمعنى رغب واشتاق - وعبي بمعنى اقتخره، وهما فعلان عربيان - وقالوا وسخ بمعنى وسع - وعرق بمعنى عرك الشيء وتجر فيه - وصفا؟ (حرفيا: سف) بمعنى هدأ وصفا - وعشى بمعنى عقى في السامية أى ارتفع - وجنف بمعنى أنف وأبى - وسحم (أو سحم) بمعنى صحن^(١١٢) - وبدش بمعنى مدش في السامية أى تعب - ووخا بمعنى ونى وتونخى^(١١٣) - وخذب بمعنى قتل ، وقيل في العربية خدبه بالسيف أى ضربه فقطع الخدب والضرب بالسيف يقطع اللحم دون العظم^(١١٤) - وقالوا آب بمعنى لاب أى ظمى ، واللزب في اللغة العربية هو العطش^(١١٥) .

*
* *

وأنت نصوص الدولة الحديثة بمزيد من الأسماء والأفعال السامية :

فأضاف أصحابها في أسماء أعضاء جسم الإنسان كلمة جديدة، فعبروا عن كلمة كف بلفظ كب^(١١٦) .

وذكروا من الأسماء والصفات كلمات: يم وبركة - ومركبة وعجلة - ومنحة وبركة (بمعنى عطية) - ومغارة ومخاضة - وسيف وحربة ورمح وزعقة - وزيت وزيتون ورمان - بصور تقرب من صورها

Wb. V, 57, 1 (١٠٨)

Wb. I, 154. (١٠٧)

Wb. I, 52; II, 93; III, 99; V 494; III, 490, 9 f. (١٠٩)

Wb. I, 340, 4; 345; 583, 6 f.; 394; III, 398-399; V, 7; I, 190, 1 f. (١١٠)

Berlin leather roll, I, 10; Beni Hassan I, pl. XXVI, 1 (not in Wb). (١١١)

Wb. V, 170, 8 f.; 40, 6; I, 6, 24; 174, 10-11; 364, 11 f.; 212; III 442; I, 224; V 174; III 466 (= IV 216). (١١٢)

(١١٣) راجع عن كلمات بدش ووخا ومعشى :

أحمد بدوى ، اللغة المصرية القديمة ومكانتها بين اللغات - مؤتمر مجمع اللغة العربية ١٩٦٠ - ١٩٦١ ، ص ٢٧٤ ، ٢٧٧ ، ٢٧٣ (and see Wb. I, 487; 353; 224.)

Wb. III, 403. (١١٤) - وانظر تاج العروس ج ١ ص ٢٢٨

Wb. I, 6, 24. (١١٥) - تاج العروس ج ١ ص ٤٧٢

Mar., Karnak, 54, 56 (19 Djn); Med. Habu, XXIII, 21. XXVII, 36. (١١٦)

الحالية ، فكتبوها بألفاظ ييم وبركة — ومركبة وعجرة — ومنحة وبركا — ومجارة ومشادة (أو مشدة) — وسيفة وحرب ومرح وزعقة^(١١٧) — وزت وزتن ورمين (مع تقدير عدم كتابة حروف الحركة)^(١١٨) .

وتصرفوا بعض الشيء في ألفاظ أخرى فعبروا عن كلمة صبي بلفظ سفي — وعن الضفدع بلفظ قرر أو قرور (وهو في اللغة العربية قرة وفي العبرية قرقور) — وذكروا كلمة فح بلفظ فح — وكلمة تابوت بلفظ دابرت — وكلمة كعكة بلفظ عككة — وكلمة طبل بلفظ تبين أو طبن مع إحلال النون محل اللام في الكتابة ، وكلمة لهب بلفظ رهب — وكلمة جص بلفظ قص — وكلمة مكتر بلفظ مجدل أى حصن (وكتبوها في القبطية . مشترل) — وكلمة كفا بمعنى كفل وقفًا — وكلمة إثار بمعنى إसार وأسير ، وكلمة كم بمعنى كرم — وكلمة ثبر أو ثابر بمعنى سافر أى كاتب السفر — وكلمة مكارى بمعنى شارى — وهى كلمة سامية قديمة — وكلمة ماخر بمعنى بائع ، وقالها الأشوريون ، أخيرانو — وكلمة شوطى بمعنى تاجر ، وذكرها اليونان القدماء بنفس المعنى فقالوا شاط وشوط بمعنى تاجر — وكلمة سدرة بمعنى بهو — واستخدموا كلمة سعرة للتعبير عن شعر الصوف — وكلمة شرع للتعبير عن شراعة الباب — وكلمة مقر بمعنى عصارهى سامية قديمة^(١١٩) — وكلمة تشار وعذر (أو عجز) بمعنى معين — ويقال في العربية من عذرى من فلان أى من نصيرى منه^(١٢٠) — وعبروا عن البرص والقش (?) بكلمة جش وقش^(١٢١) — وعن المطر بلفظ سنم أو زنم ، ويقال له في العبرية زرم وفي الأكديّة زنانو ، وفي الحبشية السامية زنم^(١٢٢) .

وقالوا في أنعالم زعق — وعشق — وحزن — وتقم ، بألفاظها الحالية . وقالوا يتح بمعنى نتح — وبرق وبرج بمعنى برق وبلج أى ظهر مبكرًا — وبد بمعنى مد — ووزن بمعنى ثقل — وقالوا عام بمعنى علم — وبرك أو بارك بمعنى أهدى وصلى — ومشع بمعنى مشى — ونمس بمعنى طمس ودفن^(١٢٣) — وستق بمعنى رضع وقالها الأراميون ينق وكتبها النصوص الأكديّة إنقو^(١٢٤) — وقالوا ونج بمعنى وبص أى وضغ ولمع — وعبا بمعنى أضاء — وكلاهما فعلان ساميان^(١٢٥) .

*
* *

(١١٧) Wb. I, 78, 11; 466, 11; II, 113, I, 236; 84, 11; I, 466, 10; II, 164, 14; 158, 14; IV, 442; III, 149; II, 112, 4; V, 451.

(١١٨) انظر أيضا عن حبة بمعنى حبب أى ماء صاف M. COHEN, op. cit., No. 252. Wb. III, 63, 2;

(١١٩) Wb. IV, 114; V, 61; I, 578, 6; V, 561; I, 235, 4; V, 262; II, 440, 3; V, 82, 7; II, 164; V, 120; I, 151, 5; V, 106, 5; V, 364, 9; II, 163, 3; 132, 10; IV, 434, 19; 528, 7f; 371; 528; II, 159

(١٢٠) Wb. V, 526, 4. — تاج العروس ج ٣ ص ٢٨٦ ووصف المصريون معبودهم آمون بأنه باعذر (أو باعجر) أى المعين Wb. I, 242, 5 Cairo 42211; Edfu II, 47; Edfu Mammisi, 145).

(١٢١) Wb. V, 156, 8, (Copte KAW)

(١٢٢) Wb. IV, 165, 11, 12; M. COHEN, op. cit., No. 299.

(١٢٣) Wb. I, 566, 12; 466, 13; 500, 13; 390, 1, 7; V, 541; I, 230, 2; III, 214; II 344; I, 183; 466; II, 156, 5 f.; V, 389, 6.

(١٢٤) Ibid., IV, 177; M. COHEN, 493 bis.

(١٢٥) راجع عن ونج وعبا — أحمد بدوى — المقال السابق ص ٢٧٦ ، ٢٧٣ ، وانظر Wb. I, 295, 13; 177, 11

وليس من سبيل للأسف إلى معرفة مدى فضل المصريين في نحت هذه الألفاظ السامية ، ولكن يرجح من ناحية أخرى ، أن أهل التوراة استعاروا منهم أسماء ومفردات وأنعلا وضموها إلى حصيلتهم السامية ، فأخذوا عنهم اسم موسى بمعنى الوليد - وبأحمسى بمعنى النوبي (ونطقوه نبحاس) - ونثرى بمعنى نظرون ثم نقله الإغريق عنهم أو عن الفينيقيين - وثوف بمعنى بردى - وشس بمعنى ألباسترو ومرمر ، وششن بمعنى سوسن - وإعح بمعنى قمر وأصبحت عندهم إرح وريح (أنظر أريحا ويريحا بمعنى مدينة القمر) - وإو لحوان من فصيلة الكلاب - وشمس بمعنى خدم أو تبع (١٢٦) - وعدة كلمات تعبر عن المنسوجات والملابس الكثانية مثل شش (شاش ؟) - وإند - وشندة (؟) (١٢٧) . وإو بمعنى جزيرة (١٢٨) - ويؤورى للدلالة على نهر النيل وفيضانه (١٢٩) - وشيارو بمعنى بحيرة البوص للدلالة على البحر الأحمر أو خليج السويس ... (١٣٠)

*
* *

لا تزال المقارنات بين اللغة المصرية القديمة وبين مفردات جيرانها الإفريقيين لا سيما اللبيين بطوائفهم في النوب ، والنوبيين وجماعات البجا والحالا والهوسا والصوماليين في الجنوب والجنوب الشرقى ، أقل حظا في حطائها ونتائجها من المقارنات بين المفردات المصرية وبين بقية المفردات السامية الغربية ، نتيجة لندرة النصوص الإفريقية القديمة ، وحدائث دراستها ، وعدم تسجيل أغلب لهجاتها القديمة بالكتابة إطلاقا ، واضطرار الباحثين إلى الاعتماد على صورها الحديثة ، على الرغم من اعتراضهم بمراحل التطور الحتمية التي عفت على طائفة كبيرة من خصائصها القديمة وحوت نطق بعض مفرداتها الباقية وربما حوت مدلولها أيضا .

وساهم كل من E. Zyhlarz ; M. Cohen مع غيرهما (١٣١) في عقد المقارنات بين اللغة المصرية القديمة ولغة البربر اللبيين ، وعرضوا عددا من أوجه التشابه المقبولة بين بعض أفعال وأسماء اللغتين ، مع اختلافات إقليمية بينهما في اللهجة وترتيب الحروف مثل الخلط بين الباء والفاء، وبين الحاء والهاء، وبين التاء

(١٢٦) Wb. II, 366 ; V, 359 ; IV 540 ; III, 485 ; I, 42 ; 48 ; 3 ; IV, 482
وف لفة البجا بنفس المعنى cf., Chr. d'Egypt, 1936, 275.

(١٢٧) Wb. IV 539 ; I, 71 ; IV, 522. وراجع من افد المصرية وافود السامية : احمد بدوى - المقال السابق ص ٢٧٠ ومن شدة المصرية وسند وسند بمعنى البردة والقميص في السامية (؟)

A. KAMAL, dans Bull. de l'Inst. ég., t. XI (1917), p. 100.

W. VYČIHL, in ZÄS, LXXVI, 79 f. (١٢٩)

Wb. I, 47 (١٢٨)

(١٣٠) cf. J. ROBERT TOWERS, in J.N.E.S. 1959, 150 f. وأرجع شبيجلبرج كلمة شيارو في العبرية وشارى في

القطبية الى معنى مشرق الشمس في المصرية القديمة « خمى رع » .

W. SPIEGELBERG, in ZÄS LXVI, 37f., also W.C. Crum, Dict., 584a.

والكاف ، وبين القاف والكاف والجيم ، وبين العين والألف ، وبين الألف والهمزة ، وبين الواو والهمزة ، والخلط بين الفعل اللازم والفعل المعتدى ، وإضافة ألف (ليلية) مهموزة في بدايات بعض الأفعال ... إلخ .

وفي ضوء هذه الوجوه من التشابه والاختلاف ، قرب Zyhlarz بين أفعال مصرية قديمة وأخرى ليلية تقرب منها في النطق والمدلول إلى حد مقبول ، مثل (١٣٣) :

جمى	في المصرية بمعنى وجد	و	إجى في الليلية .
نجى	» »	و	إنجى »
بسى (وفسى)	» »	و	إفسى »
وبى	» »	و	إبى »
مت (وموت)	» »	و	إميت » (١٣٣)
سوى	» »	سو و	إسو » (١٣٤)
سون	» »	و	إسن »
نو	» »	و	إنى وإنهى »
ندى	» »	و	إندى »
إارى	» »	و	أرو »
مرى	» »	و	مرى ومرهى في الليلية .
ودف	» »	و	إتف »
سرق	» »	و	إسرج »
ساق	» »	و	أسيح »
فدق	» »	و	إذتك » (١٣٥)
تكا	» »	و	توكو »
سبدد	» »	و	سبدد »

E. Zyhlarz, "Konkrdanz ägyptischer und libyscher Verbalstammtypen", in ZAS LXX, 107f.; Ursprung (١٣٣) und Sprachcharakter des Altägyptischen, Berlin, 1933.

(١٣٣) مع ملاحظة وجود الفعل نفسه في اللغات السامية

(١٣٤) ويقال في اللغة الجنوبية (الكاشية) سو أيضا بمعنى شرب . cf. M. COHEN, op. cit., No. 296.

(١٣٥) لاحظ كذلك قرب فعل فدق في المصرية من فعل فدغ وقتق في العربية (ص ٢٠)

و حثبت في الليبية	و	في المصرية بمعنى استقر	و	و حثب
و ونف	و	استمتع	»	ونف
و وسف	و	تكاسل	»	وسف
و ومن	و	وضح وأشرق	»	وبن
و مدد	و	أصاب الهدف	»	مجدد (أو مزدد)
و لإنجو	و	صاح	»	نج
و أجر	و	تفوق	»	إقر
و سكي	و	حرت	»	سكي
و سنكر	و	بتجر	»	سنشر

وقرب Zyhlarz بين طائفة قبيلة من أسماء اللغتين وصفاتهما ، مثل :

و أجو (وأجو) في الليبية	و	في المصرية بمعنى ثور	و	جو
و وشن (أو أوشن) في الليبية	و	ذئب	»	ونش
و مزو في الليبية	و	عشرة	»	مجو (أو مزو)
و تامرت (أو تامرة) في الليبية	و	الذقن	»	تامرت (أو تامرة)
و أفاد في الليبية	و	ركبة	»	باد
و إسم (١٣٦)	و	دسم	»	سمي
و إنك	و	هدية	»	فقا
و مديت	و	وتد	»	مجيت
و إاستى	و	قاعدة (مشروع)	»	شوننة
و أس	و	يوم	»	سو (أو أسو)
و درى	و	سور	»	چرى
و اريرة (واريرى) في الليبية	و	زهرة	»	حررة
و إنز (بمعنى يرعى) في الليبية	و	راع	»	نز
و إ	و	ناحية	»	ع

(١٣٦) قرب مارسيل الكلمة المصرية « سمي » الى الكلمة العربية « سمن » . M. COHEN, op. cit., No. 264.

جنس	في المصرية بمعنى ضيق	و إهنسا	في اللبية
نبنى	» » صغير	و نونو	»
بوت	» » فاسد	و بويت	»
نجم (نوجم)	» » حلو	و نودم	»

* * *

ووجدت لغات الجنوب لا سيما البجاوية منها ، أى لغة البشاريين والعبادة وفروعهم ، نصيبا من المقارنة بينها وبين اللغة المصرية القديمة ، ولم تخل هذه المقارنة من إظهار نوع من التقارب اللفظي بين مفردات الجانين ، وهو تقارب لا ندرى إن كان نتيجة لاتصال جنسى قديم ، أم ترتب على صلات الأخذ والعطاء في مجالات التجارة وانتقالات الرعاة ، أو تأكد خلال امتداد النفوذ المصرى في الجنوب خلال عصوره الفرعونية الطويلة . . .

فن الأسماء المتقاربة بين الجانين :

سن	في المصرية بمعنى أخ	و سان	في البجاوية
عخم (أو عشم)	» » صقر	و إهم (أويم)	»
نف	» » نَفَس	و نيفى	»
رد	» » رجل	و راد (بمعنى أثر القدم) في الصومالية (١٣٧)	
سيم في المصرية	بمعنى خضر	و سيام	في البجاوية (١٣٨)
حتر	» حصان (أى زوج من البهم) و حتاى	»	
إدر	» تطيع صغير	و ودر	»
إب	» كبش	و أب	»
نياو	» عزة	و ناي (ونياى)	»

(١٣٧) لاحظ كذلك قمل ردى في اللغة العربية بمعنى مشى أو هجّل راجع ص ١٧

وعبرت قبائل جنوبية عن القدم بلفظ « ابا » وقرب مارسيل بين هذا اللفظ وبين استخدام المصريين لصورة الساق والقدم للتعبير عن حرف الباء في كتابتهم التصويرية (op. cit. No. 382) ويدل هذا الاستخدام على أن حرف الباء كان حرفا أصيلا في كلمة تدل على القدم أو الساق في لغتهم ، لولا أنهم لم يسجلوا هذه الكلمة صراحة في كتابتهم ، وإن كانوا قد عبروا بكلمة « بو » عن معنى مكان أو مقام ، وربما عن معنى موضع القدم (٤) أيضا — أنظر على سبيل المثال « بوف » بمعنى مقامه وموضع قدمه (٤)

(Wb. I, 410, 7).

(١٣٨) وشمو في اللغة الاكدية السامية (راجع ص ١٩)

مكتبة المهتدين الإسلامية

لمح وإحة في المصرية بمعنى ثور وبقرة (وفي القبطية آحه وإيحي) .
وأحا وأحًا في البجاوية (١٣٩)

ومن الأفعال المتقاربة بين الجانبيين :

جد في المصرية	بمعنى قال	و جد في لغة الجالا
إما في المصرية (ei في القبطية)	« أتى »	و إآ (أو إآ) في البجاوية
مى « (و إمو ، وأمو في القبطية)	« تعال »	و مآ في البجاوية وإمو في الصومالية
شمس »	« تبّع »	و شمش في البجاوية (١٤٠)
عم »	« ابتلع »	و أم »
خم »	« جهل »	و جام »
حسى »	« غنى ودمح »	و هسو ، وحسو في البجاوية
قرب »	« برد »	و قابوب في الصومالية

*
**

ومرة أخرى ، لم يؤد التقارب بين اللغة المصرية وبين جاراتها في الشرق والغرب والجنوب إلى ضياع شخصيتها اللفظية إطلاقاً ، ولم تكن المفردات التي أسلفناها غير قليلة من كثرة كثيرة من مفردات ابتدعها المصريون بوحى بيئتهم وبما يناسب مطالب حضارتهم ويتفق مع أذواقهم وتخييلاتهم ، فهم وإن شاركوا إخوانهم الساميين في التعبير عن العين بلفظ عين على سبيل المثال ، إلا أنهم ابتدعوا للعين ستة أسماء أخرى فضلاً عن عدد من الصفات ، وإذا شاركوهم في التعبير عن الأذن بكلمة ادن ، إلا أنهم ابتدعوا لها خمسة أسماء سواها لم يشاركهم فيها جيرانهم . وإذا شاركوهم في التعبير عن الطفولة بلفظ طفن (طفل) ، إلا أنهم عبروا عنها من ناحيتهم بما لا يقل عن عشرين لفظة أخرى . وظل ذلك شأنهم في التعبير عن كل ما أحاط بهم وعاشوا فيه ووصفوه ، فعبروا عن السماء بنحو أربعين إسماً وصفة ، وعبروا عن العرش بنحو ثمانية عشر إسماً وصفة ، وعبروا عن حركات المشي في الذهاب والإياب بنحو أربعين فعلاً ، وعبروا عن حالات الفرح والاستمتاع بنحو أربعين فعلاً أيضاً ، وهلم جرا . . .

(١٣٩) الكلمتان موجودتان منذ بعض القبائل الحبشية التي جمعت لفتها بين السامية والحامية ، ويرجع ليمان
إسملها الإفريقي. (LITTMANN, in Deut. Liter. 1931, 1404).

(١٤٠) استخدمت في الآرامية والعبرية بنفس المعنى أيضاً - وراجع ص ٢٢

وعلى أية حال فليست المفردات هي السبيل الوحيد لتصوير مكانة اللغة المصرية القديمة بين جاراتها ، ولكن ظلت قواعد نحوها وصرفها أكثر دلالة منها في تصوير الصلات بينهما من ناحية ، وتصوير شخصية مصر اللغوية المتميزة من ناحية أخرى .

فقد اشتركت اللغة المصرية القديمة مع أخواتها الساميات في خصائص عدة ، كان من أوضحها وجود حرف العين بين حروفها - وشيوع المصدر الثلاثي بين أفعالها - وغلبة الفعل المعتل الآخر فيها (١٤١) - وكثافة الحروف الساكنة وشبه اللينة في كلماتها دون حروف الحركة التي تضمنتها . وإضافة تاء التأنيث في نهاية بعض أسماءها وصفاتها المؤنثة (مثل حررة بمعنى زهرة وحجسة بمعنى غزالة ونفرة بمعنى جميلة) .

واستخدام حرف الميم ضمن أدوات النفي فيها وفي بقية اللغات السامية .

وتشابه ضمير المتكلم المطلق فيها مع ضمير المتكلم عند الأكديين الساميين وأهل فلسطين ؛ (فهو عند المصريين أنك ، وعند الأكديين أناكو ، وعند المؤابيين وأهل التوراة أنج وأنوكي وأنونمي (١٤٢)) .

وتشابه ضمير جمع المتكلم المطلق فيها مع مثله في اللغة العربية حين تأكيده بالأداة إن ، فهو عند المصريين إنن وعند العرب إننا (١٤٣)

وتشابه بعض ضمائر الغائب والغائبة والغائبين فيها مع أمثالها عند أهل اليمن وعند الأكديين فضمير الغائب المذكر المفرد في حالة المفعول عند المصريين سو ، وعند المعينيين القداماء سو أيضا وعند الأكديين شو . . .

وضمير الغائبة المفردة في حالتى المفعول والإضافة عند المصريين س ، سى ، وعند المعينيين اليمنيين القداماء سا ، وعند بعض اليمنيين الحاليين س ، وسى ، وعند الأكديين شى . . .

وشجع هذا التشابه كورت زيته على الاعتقاد بأن الضميرين المصريين كانا ينطقان سو ، وسى ، كما نقول هو وهى في لغتنا العربية .

وضمير الغائبين عند المصريين سن ، وعند الأكديين شن أو شونو (١٤٤) (ولو أنه عند الليديين الحاميين سن أيضا) .

cf. K. SETHE, Das äg. Verbum; W.F. ALBRIGHT, in Rec. Trav., XL, 65; T.W. THACKER, The relationship (١٤١) of the Semitic and Egyptian Systems, Oxford 1954, 47 f.

G.A. BARTON, Semitic and Hamitic Origins, Philadelphia, 1934, Table I. (١٤٢)

cf. A. ERMAN, in OLZ XV, 452; Aeg. Gramm. 3rd. ed. § 84; A.H. GARDINER, Eg. Gr. § 64. (١٤٣)

G.A. BARTON, op. cit.; K. SETHE, in ZDMG, LXXVII, 155; ERMAN, op. cit. § 149. (١٤٤)

وتشابه كاف المخاطب المضاف إليه فيها مع الأكدية (كا، كو) ، والعبرية (كا) ، والأرامية (ك) ، والعربية (ك) ، والجعزية السامية (كا) (١٤٥) .

واعتبار حرف النون حرفاً أصيلاً في الضمير المتصل بالنسبة للجمع المتكلم فيها وفي بقية الفروع السامية ، في حالتى الفاعل والمضاف إليه ، مع تغيرات طفيفة بين لهجة وأخرى ، فكانوا يقولون سجعن كما نقول سمعنا ، ويقولون بنن كما نقول ربنا ...

ولحاق واو الجماعة بنهاية الفعل أحياناً ، فيقولون سجعوا ، كما نقول سمعوا .

واستخدام ياء الاضافة للتكلم فيقولون نيوتى ، كما نقول مدينتى (وإن كانت ياءهم أقرب إلى الجرّة) .

واستخدام ياء النسبة (فوصفوا معبودهم حور على سبيل المثال بأنه آختى أى مشرقى ، من آخت بمعنى مشرق ، وقالوا سحيتى بمعنى قروى أو مزارع من سحيت بمعنى مزرعة) .

ثم استخدام ما تستخدمه أساليب اللغة العربية الحالية من الإضافة المباشرة وغير المباشرة — ولحاق الصفة بالموصوف — واستخدام تمييز البعض من الكل — واستخدام الجملة الفعلية إلى جانب الجملة الاسمية — وتأکید الجملة الاسمية أحياناً ببدءها بحرف إن — وإضافة تاء المخاطب للذكر والمؤنثة المفردين في إحدى صيغ الفعل الماضى (وكانت تقوم عندهم مقام الحال الحالى) (١٤٦) .

وإضافة ميم المسكان وميم الأداة إلى بعض أسماءها وأفعالها لتأليف أسماء مركبة تجرى مجرى الأسماء العادية ، على غرار المتبع في اللغة العربية ، فكما نقول الآن مدرسة بمعنى مكان الدرس أو الدراسة ، ومفتاح بمعنى أداة الفتح ...

قال أجدادنا ”نحات“ بمعنى ميزان أو أداة الوزن من فعل حأى بمعنى قاس ووازن .

وقالوا ”مسكئة“ بمعنى وسيلة الغروب أو مكان الغروب ، من فعل سكى بمعنى غرب ، ويقصدون به المركب التى يستقلها رب الشمس حين الغروب .

وقالوا ”معنجة“ بمعنى وسيلة الإشراق أو مكان الإشراق ، من اسم عنجو بمعنى الشروق ، ويقصدون به المركب التى يستقلها رب الشمس حين الصباح .

وقالوا معجع بمعنى مكان التوقف ، من فعل عجع أى توقف ، ويقصدون به المقبرة .

G.A. BARTON, op. cit. (١٤٥) : ننة في اللغة المصرية مع أنت في اللغة العربية
وتن » » مع أنتم وأتن في اللغة العربية

A. ERMAN, in ZÄS XXVII, 65f.; ZDMG (1892) 26; K. SETHE, Verbum II, 14 f.; A.H. GARDINER, (١٤٦) op. cit., pp. 235-36 and notes; T.W. FRACKER, op. cit., 111 f.

ولم تشترك القواعد المصرية في خصائصها مع المجموعة السامية وحدها ، وإنما شاركها بعض هذه الخصائص جاراتها من فروع المجموعة الحامية ، فشاركها في إضافة حرف السين إلى بداية الفعل المتعدى :

فقال المصريون عنخ بمعنى حيي ، وسعنخ بمعنى أحيي .

وقال الليبيون دودو بمعنى خاف وارتعد—وسدودو بمعنى أخاف أو رعب .

وقال البجاويون نفير بمعنى كمل وجمال ومقبول—وسنفير بمعنى حمل وجعله مقبولا .

وشاركها في إضافة حرف النون إلى بدايات بعض الأفعال لتوكيدها أو لجعلها أفعالا عائدة أو لتحويلها من لازمة إلى متعدية :

فقال المصريون همهم ونهمهم ...—وقالوا : قد ، نمد ، نقد قد بمعنى نام—وقالوا جسجس ، بجسجس بمعنى طفا .

وقال الليبيون إاربن ، نربن ، بمعنى وسخ وآسخ (١٤٧) .

وشابهت معها في بعض ضمائها القديمة مع اختلافات محلية يسيرة :

فقال المصريون كو بمعنى أنتَ وقالها الليبيون كاي (١٤٨) .

وقالوا ثم بمعنى أنتِ وقالها الليبيون كم (١٤٩) .

وقالوا سن بمعنى هم وقالها الليبيون سن أيضا ، وقالها البجاويون أسنا (١٥٠) ...

ثم اشتركت معها ومع بقية المجموعة السامية في استخدام ياء الإضافة للتكلم—وكاف الإضافة للمخاطب مثل موتك في المصرية بمعنى أمك ، وإمك في الليبية بنفس المعنى .

* *

وانفردت اللغة المصرية من ناحيتها بخصائص وقواعد ميزتها عن لغات جيرانها ؛ وكان من ذلك على سبيل المثال أنها تضمنت بين حروفها المكتوبة حرف پ لم تتضمنه أبجدية جاراتها ؛ وتضمنت

G. LEFEBVRE, "Sur l'Origine de la langue égyptienne", dans Chr. d'Égypte, 1936, 280 ; E. ZYHLARZ, (١٤٧) op. cit.

cf. Wb. V, 357; E. ZYHLARZ, op. cit., 110. (١٤٨)

Wb. V 367; ZYHLARZ, op. cit., and see B. GUNN, Syntax, 46. (١٤٩)

G.A. BARTON, op. cit., Table I. (١٥٠)

شكائين لحرف السين بينهما فارق تعبيرى لا يكاد يحس ، ولم تشاركها هذه الظاهرة فيما أذكر غير حروف المسند اليمينية القديمة التى تضمنت بدورها شكائين لحرف السين لا يختلفان كثيرا فى نطقهما (١٥١) .

واحتفظت اللغة المصرية بتشبهاتها البيانية التى خدمت وجوه الحضارة الفكرية والمادية التى طرقتها دون جيرانها أو أكثر من جيرانها .

وعبرت من ناحيتها عن ضمير الغائب المنفصل فيها بلفظ "نتف" أو "انتف" ، وعبرت عن ضميره المتصل بحرف الفاء ، دون بقية أخواتها الساميات والحاميات . واستخدمت صيغة فعلية مرنة تزيد كثيرا وتختلف كثيرا عن صيغ الأفعال عند جيرانها ؛ فكان أدباؤها إذا كتبوا جملة بسيطة مثل « نرح جلالته » وجدوا من مرونة لغتهم ما يسمح لهم بأن يعبروا عن هذه الجملة القصيرة بنحو عشرين أسلوبا فى أزمتها الثلاثة وفى صيغتها الفعلية وصيغتها الإسمية ، فيقولون : (١٥٢)

پر حمف	،	پرن حمف	،	پر إن حمف
پرت حمف	،	پرت إن حمف	،	پرت بو ایرن حمف
حمف پر	،	حمف پرف	،	حمف حر پرت
عحن حمف پر	،	عحن پرن حمف	؛	عحنف پر حمف
پرنر حمف	،	پرکا حمف		
إن حمف پر	،	إو حمف پر	،	إو پرن حمف
وین حمف حر پرت	،	ون نر حمف حر پرت !		

* * *

فرعون والفراعنة :

وثمة أمر آخر ، ليس بجديد ، ولكنه لازم فى تصوير موضع المصريين القدماء بين جيرانهم وموضع مجتمعتنا الحالى بالنسبة إليهم ، وهو أمر فرعون ، وما ترتب عليه من تسمية المصريين أحيانا بالفراعنة ، وإغراق بعضنا فى استخدام هذه التسمية للفاخرة ، وإغراق بعض آخر فى استخدامها للقدح والتجريح .

فرعون لقب محدود الدلالة ، جمع بين صيغة مصرية قديمة ، وصيغة عبرية قديمة ، وصيغة عربية قديمة .

صيغته المصرية القديمة پرعا أو پرعو (وتشبهها الصيغة الآشورية برؤو أو برعو) .

cf. DRINKER, Semitic Writing from Pictograph to Alphabet, London 1954. (١٥١)

cf. A.H. GARDINER, Eg. Gram., p. 383. (١٥٢)

وصيغته العبرية « فرعو » بعد قلب الباء فاء (وتشبهها الصينية الإغريقية فاراو (φαραώ) (١٥٣) .
وصيغة العربية « فرعون » بعد إضافة نون أخيرة .

وصيغته المصرية عبارة تعنى البيت العالى ، أو البيت العظيم ، وكانت عبارة أشار المصريون بها منذ عصور الدولة القديمة إلى قصور فراعنتهم التى تركزت فيها السلطات العليا لدولتهم ، ثم شفَعوا بها عبارات دعاء تقليدية منذ عصور الدولة الوسطى ، وأصبحوا يقولون « پرعو عنخ وجاسنب » (١٥٤) بمعنى البيت العالى له الحياة والعافية والسلامة، (وبما يشبه هتاف من يهتفون عاش ونعم وسلم . . .) . ثم رمزوا باللقب إلى ملوكهم منذ عصور دولتهم الحديثة وأصبحوا يقولون پرعو خرج وحارب وانتصر . . . وهلم جرا . ويمكن تفسير منطقتهم ذلك بمنطق الأتراك العثمانيين الذين أعقبوهم بألاف السنين ، والذين اعتادوا على أن يسيروا إلى قصر الساطنة وإلى السلطان نفسه باسم « الباب العالى » ، وربما بمنطق الصحفيين المعاصرين أيضا ، حين يقولون فى أخبارهم نفى متحدث باسم البيت الأبيض كذا وكذا ، أو أعلنت مصادر البيت الأبيض خبرا فخواه كذا وكذا ، ويعنون بروايتهم الحكام المستقرين فى البيت الأبيض بطبيعة الحال ، وليس البيت الأبيض بجدران وأبوابه .

وشيئا فشيئا اعتاد المصريون وجيرانهم على أن يطلقوا لقب پرعو (ومترادفاته) على كل ملك مصرى إلى جانب اسمه الشخصى ، منذ القرن العاشر ق.م على وجه التقريب ، وذلك مما يمكن فهمه هو الآخر بتقريبه إلى ما اعتاده المؤرخون المسلمون حين عبروا عن كل حاكم حبشى بلقب النجاشى (وهو لقب يعنى الحاكم) ، وعبروا عن كل حاكم يزنطى بلقب قيصر ، وعن كل حاكم فارسى بلقب كسرى ، دون أن يجدوا ضرورة إلى تسمية شعوب أولئك الحكام بنفس ألقابهم ، فلم يطلقوا اسم النجاشيين على أهل الحبشة مثلا ، ولا اسم الأكسرة على كل الفرس ، وما كان لغيرهم أن يطلقوا اسم الفراعنة على كل أهل مصر ..

وهكذا لم تكن تسمية فرعون وفراعنة تدل على جنس بعينه ، ولم تكن تعنى كفاية معينة ، أو نقيصة معينة ، ويترتب على ذلك أنه إذا كانت أغلب مفانصر القديمة قد تمت باسم الفراعنة ، فليس الفراعنة بمعنى الملوك هم أصحاب الفضل وحدهم فى إقامتها ولكنهم المصريون وفيهم الفراعنة . . . وإذا كان القرآن الكريم من ناحية أخرى قد وصف الفرعون الذى عاصر موسى بالطغيان والجبروت وتجاوز عن ذكر اسمه ، فعلينا أن نؤمن بكل ما وصفه به وقاله فيه ، ولكن ليس من المنطق إطلاقا أن نعدم صفات هذا الفرعون على كل الفراعنة المصريين ، فالحكام فى كل مجتمع وزمان وأيا كانت ألقابهم ، يظهر منهم الصالح والطالح ، والعاقل والظالم ، والبارز والحامل ، وهكذا كان شأن الحكام المصريين وغير المصريين .

cf. PSBA XXIII, 72; ZÄS LIII, 130; A.H. GARDINER, Eg. Grammar, 75. (١٥٣)

Pap. Kahun, XXXVIII, 17g (١٥٤)

ج - روابط المجتمع المعاصر بالمجتمع القديم

لا تزال لبانة المجتمع المصرى الحالى هى لبانة المجتمع المصرى القديم من حيث الدم والهئية والقامة ولون البشرة مع كل ما فيها من فوارق ضمنية فى الخلقة بين فرد وآخر، وأسرة وأخرى ، وفوارق لاقليمية بين البحاروة والصعايدة وأشباه النوبيين فضلا عن فوارق الطابع بين أهل القرى وأهل المدن . وإذا كانت قد تعاقبت على أرضنا عهود قديمة احتلها فيها فرس وإغريق ورومان وبيزنطيون ومن لف لفهم وعمل فى خدمتهم ، فالذى لا شك فيه هو أن الاختلاط الجنسى بين أولئك الدخلاء وبين المصريين كان محدودا للغاية ، سواء نتيجة لغرور الأجانب المحتلين الذين اعتبروا أنفسهم سادة حاكمين ، أو لتباعد أغلب المصريين عنهم اتقاء لغرورهم وعتوهم واختلاف جنسهم وغرابة لغتهم واختلاف عقائدهم ومذاهبهم ، فيما خلا القلة النليلة من الموظفين الكبار وأشباه الكبار الذين عاشروهم فى المدن وشاركوهم نصيبا من السلطة التنفيذية ، ثم البلة القليلة من أهل العصور المسيحية (ونعنى بهم المصريين عامة قبل الإسلام ولا نعنى طائفة بعينها) الذين وجدوا فى نصرانية بعض الأجانب المنبشرين معهم فى الريف والمستقرين فيه ، ما شجعهم على الاختلاط بهم والتراوج معهم ومبادلتهم أسماءهم بأسمائهم .

ونزل العرب مصر فى بداية ظهور الإسلام ، ونقلوا الدين الجديد واللغة العربية إليها ، ولم يكونوا بعيدين تماما عن المصريين وإنما شاركوهم فى تكوينهم الجنس القديم ، وفى تراثهم اللغوى البعيد ، وإن اختلفوا عنهم فى اللهجة والموطن والعادات والتقاليد ، ولن نجد غضاضة إطلاقا فى أن نذكر حقيقة واطعة ، وهى أن أهل البداوة منهم ظلوا قليلي التراوج مع المزارعين المصريين ، على نحو ما كانوا قليلي الاختلاط بأصحاب الحرف وأهل الحضر المستقرين فى شبه الجزيرة العربية نفسها ، واقتصر تأثيرهم الجنسى وتأثرهم الجنسى على من شاركوهم معايشهم من البدو المصريين دون أهل الحواضر وأهل الريف .

وهكذا تجنبت مصر انقسام الشخصية حين آمنت بالمسيحية وحين آمنت بالإسلام، وظل كل من نزلوها أعدادا مضافة إلى لباتها دون أن يكونوا عوامل تغيير فى قوميتها .

وغلبت اللغة العربية على اللغة المصرية القديمة باعتبارها لغة القرآن الكريم ، ولكنها لم تجبها تماما ، وظلت بقية من مفردات لغتنا القديمة قائمة حية فى مجتمعنا المعاصر ، تصل أهلنا بماضيهم ، وتجرى على ألسنتهم فى أسماء قراهم ومدنهم وأسماء شهورهم انزراعية ، وتختلل أحاديثهم فى شؤون حياتهم اليومية .

فقد استمرت المسديات المصرية القديمة فى أسماء مدن وقرى معاصرة كثيرة، ولكن فى آخر تطوراتها اللفظية التى سجلتها الكتابة القبطية ، ومع إضافة أدوات التعريف العربية إليها أحيانا ، وإضافة كلمات

كوم وتل وحجر وغيرها من الكلمات التي عبرت عن قدم أماكنها وعن وجود الأكوام والأحجار الأثرية فيها . ونستشهد فيما يلي بعدد من أسماء هذه المدن والقرى ، وترك للخواشي تفصيل أهمية كل مدينة منها في تاريخ مصر القديمة وحضارتها . وهي من الجنوب إلى الشمال على عادة أجدادنا في ترتيب مدنهم (١٥٥) :

أسوان : عن أصل قديم يعنى السوق (١٥٦) .

(كوم) امبو : عن أصل قديم يعنى الذهبية (١٥٧) .

ادفو : (= ثبوى النصوص القديمة وإتبوى النصوص القبطية) (١٥٨) .

الكاب : عن كلمة نخب أو انخاب (١٥٩) .

Main references for the mentioned sites:

(١٥٥)

H. GAUTHIER, Dictionnaire des noms géographiques contenus dans les textes hiéroglyphiques, t. 1-7, Le Caire 1925-1931.

K. SETHE, Urgeschichte und älteste Religion der Ägypter, Leipzig, 1930.

A.H. GARDNER, Ancient Egyptian Onomastica, I-II, Oxford, 1947.

P. MONTET, Géographie de l'Égypte Ancienne, t.I, Paris 1957.

and Partly :

W.E. CRUM, A Coptic Dictionary, Oxford 1929 f.

H. Kees, Das alte Ägypten..., Berlin 1958.

(١٥٦) هو اسم متأخر يرجع الى عصر الاسرة العشرين على وجه التقريب ، وكتب حينذاك سونو (SwNW) . وتحور في القبطية الى سوان وسويان COTAN وأصبح في الاغريقية سوينى وسيينى $\Sigma\upsilon\eta\eta\eta$ ودل بمعناه على دور منطقته في التبادل التجارى بين الصعيد ومصر عامة وبين النوبة وما ورائها من بلاد السودان .

وسميت الجزيرة المقابلة لاسوان باسم « أبو » بمعنى (جزيرة) العاج الذى كان يرد اليها من الجنوب ويباع فيها ، ثم اطلق الاغريق عليها اسم الفنتينى Ἐλεφαντινῆ بمعنى جزيرة الفيل . (SETHE, Urg. 152).

(١٥٧) ذكرت في النصوص القديمة نبى ونبيه (Nby) - وفي القبطية انبو وامبو $\text{b}^{\text{e}}\text{e}\text{e}\text{h}\omega$ (?) $\text{S}^{\text{h}}\omega$ - وكان من معبوداتها معبود سماه اصحابه سوبك ورمزوا اليه بهيئة التمساح .

(١٥٨) سميت في النصوص القديمة جبا $\text{D}b\text{a}$ ثم حورت فيما يبدو الى جبر ، واصبحت في القبطية ثبو واتبو $\text{S}^{\text{h}}\omega$ $\text{b}^{\text{a}}\text{T}^{\text{h}}\omega$ - واشتهرت باسم آخر وهو بحدة ، وهو اسم يرى كورت زيته انه يعنى العرش ، عرش معبودها حور الرموز اليه بالصقر . (Urg. 146 f; 150 f., also Wb. I, 470) ثم سماها الاغريق مدينة أبولو $\text{ἀπολλωνος πόλις μεγάλη}$ ويعتقد هرمان كيس انها بدأت دورها السياسى والدينى منذ ما قبل العصور التاريخية أى في اواخر الالف الرابع ق.م ، ثم استأنفت شهرتها الدينية بعد زمن طويل في اواخر العصور الفرعونية ، ولا زالت تحتفظ بمعبد ضخم رائع يعتبر من اكمل المعابد المصرية في العصور المتأخرة من حيث بنيانه ومن حيث نصوصه التى تضمنت ثروة طيبة من شعائر العبادة واساطير السياسة والدين .

(١٥٩) وكانت مدينة ذات شهرة دينية قدس أهلها معبودة رمزوا اليها بهيئة العقاب ونسبوا اليها مدينتهم فسموها نجبة واعتبرها الفرعانة من امهاتهم وتبركوا بالانتساب اليها والتماس حمايتها . راجع ص ٢١١ .

- إسنا : عن أصل قد يعنى أرض العبور (؟) . (١٦٠)
- أرمنت : عن أصل قديم يصف البلدة بأنها « أون » مدينة المعبود « مونتو » رب الحرب القديم (١٦١) .
- طيبة : ربما بمعنى الحرم أو الحرم للمعبود آمون (١٦٢) (وإن ظل اسمها قاصرا على الكتابة التاريخية دون اللغة الدارجة العادية التي أحلت محلها اسم الأقصر) .
- قوص : (= جوصى فى النصوص القديمة وكوس فى النصوص القبطية) .

(١٦٠) كان اسمها القديم Iwawy - ويعتقد كورت زيتانه اسم قلدت به اسم مدينة اونو الشمالية اى عين شمس الحالية منذ ما قبل العصور التاريخية (Urg. 142 f.) ، ثم سميت تاسنى ، وسنى ، وكتبت اسمها فى النصوص القبطية $\text{SCHN}^b \text{EENH}$ - واطلق الاغريق عليها اسم لاتو بوليس λατιόπολις - واحتفظت هى الاخرى بمعبد كامل صغير من عصورها المتأخرة ، لولا ان رغبة اصحابه فى استغلال كل شبر فيه للزخرفة وكتابة النصوص حرمته من روح البساطة التى امتازت بها معابد العصور الفرعونية الزاهرة .

(١٦١) تشابه اسمها القديم هى الاخرى مع اسم اونو (عين شمس) ، فسميت اونى (Iwni (Cairo 20001) - ووصفت بأنها اونو الصعيد ، ونسبت الى معبدها مونتو رب الحرب ، وكان يرمز اليه بهيئة الصقر فسميت اون مونتو Iwn-Mnt - وظلت حاضرة الاقليم الطيبى حتى القرن الحادى والعشرين ق.م على وجه التقريب .

وتحور اسمها فى النصوص القبطية الى ارمونت $\text{P}^b \text{EPEEONT}$. وفى الاغريقية الى $\text{EPM}^w \text{ON}^b \text{THS}$ (١٦٢) اسم طيبة اسم متأخر لمدينة الاقصر الحالية ، سبقه الى الوجود اسم « واسة » ، وتوفرت لها بهذا الاسم « واسة » مكانة اقليمية قديمة سمحت لها بان تطلق اسمها على اقليمها كله ، ثم غلبتها مدينة ارمنت على زعامة اقليمها فى ظروف غير معروفة ، ولكنها استعادت مكانتها منذ القرن الحادى والعشرين ق.م ، واصبحت عاصمة سياسية ودينية لمصر كلها فى مرحلتين ، مرحلة قصيرة خلال عصور الدولة الوسطى ، واخرى طويلة خلال عصر الاسرة الثامنة عشرة واولائل الاسرة التاسعة عشرة ، ثم احتفظت بزعامتها الدينية فى بقية العصور الفرعونية . ولا زالت معابدها ومقابرها تعتبر اروع منشآت ظهرت فى العالم القديم المعاصر لها من حيث ضخامتها ورفى عمارتها وتقوشها وتمائيلها وثناء كنوزها .

ونسبت « واسة » الى ربها آمون ، رب الدولة منذ ايام الدولة الوسطى ، فسميت « نوت آمون » او « نة آمون » اى مدينته ، وتحور اسمها فى العبرية الى نو (آمون) ، وفى الاثورية الى Ni^i نىاي - وفى القبطية الى نه NH^b - وترجم الاغريق عن شهرتها الدينية باسم « ديوس بوليس ماجنا » بمعنى مدينة الرب الكبرى ، ثم ذكروها باسمها الشائع طيبة (حرفيا Θηβαί) منذ عهد هوميروس (Hid. 9, 381) وهو اسم لم يتضح اشتقاقه الصحيح حتى الان ، ويحتمل انه نسبها الى معبدها الذى كان يسمى باسم « ايبة » او « اوبة » بمعنى المدود والتميز والحرم والحريم ، وكانت تقصده مواكب آمون ويقام فيه عيد الاكبر خلال شهر بابه ، وكان (المبد) يوصف عادة بأنه الجنوى « رسى » تمييزا له عن معبد الكرنك الذى يقع الى الشمال بالنسبة اليه .

(cf. K. SETEN, in ZÄS XLV, 5; WOLFF, Das schöne Fest von Opet, Leipzig 1931.

ومن احتمال اشتقاق اسمها الاخر من اسم مدينة طيبة الاغريقية . see, A.H. GARDINER, op. cit., No. 335f.

- قنط : = جبتوى فى النصوص القديمة ، وقبط وقنط فى النصوص القبطية (١٦٣) .
- دندرة : عن الأصل القديم « تاترة » بمعنى « أرض المعبودة » حتجور (١٦٤) .
- ربا : عن أصل قديم يعنى "المعبد" (١٦٥) .
- هو أو حو : بمعنى القصر .
- أبو طشت : عن أصل قديم يعنى بيت الرأس (١٦٦) .
- أخميم أو أخمين : عن أصل قديم يعنى "وجه" المعبود "مين" أو واجهة معبده، وكان مين ربالها ولمدينة قنط ، وحاميا للقوافل وربا للسيول فى الصحراء الشرقية (١٦٧) .
- جرجا : (= جرجه) ربما بمعنى المنشية أو المؤسسة أو العزبة (١٦٨) .
- قاو (الكبير) : عن أصل قديم يعنى الجبل العالى ، و ذكرتها النصوص القبطية باسم قو .
- شطب : (= شاحوتب ، وشاس حوتب) (١٦٩) .

Eg.: Gbtywy; Gbtzy(?); Gbtyw. — Copte: ^SΚΗΗΤ, ^BΚΕΥΤ. — Gr. Κόπτως (١٦٣)

ظلت لمدينة قنط أهميتها الاقتصادية طوال العصور القديمة لوقوعها على بداية الطريق الى محاجر الصحراء الشرقية ومناجمها والى ميناء القصر على ساحل البحر الأحمر ، وكان معبدها الأكبر هو «مين» حامى القوافل ورب أخميم والصحراء الشرقية وأحد رعاة الاخصاب والسيول . وتوفرت لها أهمية سياسية قبيل بداية العصور التاريخية وفى أواخر الدولة القديمة .

وعلى الرغم من تشابه لفظ « قنط » مع تسمية القبط، وكتابة اسمها بلفظ « قبط » فعلا فى اللهجة البحرية القبطية ، إلا أنه لا سبيل الى تحديد الصلة بينهما فى ضوء الوثائق المعروفة حتى الآن ، إلا اذا افترضنا أن نشاط الاغريق والرومان فى مناطق الناجم القريبة منها جعلهم على صلة وثيقة بها فطلقوا اسمها على المصريين المسيحيين كلهم ، وهو فرض ليس من دليل صريح يؤيده .

(١٦٤) سميت دندرة فى عصورها القديمة « أونة » Iwnt (Pyr. 1066) — وكانت ثالث مدن الصعيد التى تبركت باسم أونو (مين شمس) وتسمت به (K. SETHB, Urg. 144-145) — ويقوم فيها معبدها الضخم الذى يضارع معبد ادفو فى روعته واكتماله ، وهو متأخر فى الزمن مثله .

CRUM, Dict., 298 b. (١٦٥)

(١٦٦) كتبت فى النصوص القديمة « پرجاچا » وحررت فيما يعتقد الآن جاردنر الى يوحج ، ونشت فى النصوص القبطية (A.H. GARDINER, Onomastica II, p. 35.)

(١٦٧) كتب الاغريق اسمها : خميس ^SΧΕΜΙΣ (Herod. II, 91) وبانوبوليس ΠΑΝΩΝ ΠΟΛΙΣ (Strabo, XVII, 141) وكتبت فى النصوص القبطية : ^SΧΕΜΙΝ, ^BΜΕΡΙΝ

(١٦٨) يقال جرجة فلان بمعنى مؤسسة فلان ، ومثل جرجة بتاح حوتب وجرجة أوزير (cf. Wb. V, 188, 14f.) واذكر ترجمة المنشية من الدكتور جرجس متى .

cf. K. SETHB, Urgeschichte, 56. (١٦٩)

- أسسيوط : عن أصل قديم يعنى المحروسة أو المحمية (١٧٠) .
- منقباد : ذكرتها النصوص القبطية باسم "مانكابوت" .
- التفوسية : ذكرتها النصوص القديمة باسم "قيص" ربما بمعنى الرابطة أو المترابطة (١٧١) ،
وذكرتها النصوص القبطية باسم "قوص قام" .
- حنسوب : بمعنى دار الذهب أو قصر الذهب .
- الأشمونين : عن نحون أو شمون بمعنى (بلد) الثمانية ، مع إضافة أداة التعريف إليها وتثنيتهما
للدلالة على جانبيها (١٧٢) .
- مير : عن كلمة مير في النصوص القبطية بمعنى الشاطئ أو الجرف أو الجسر (١٧٣) .
- هور : عن أصل قديم يعنى "الصقر الكبير" أو الوجه الكبير "حرور" .
- تونة : عن أصل قديم يعنى أرض الأرنبة (١٧٤) .

(١٧٠) ترجمها هرمان كيس « الحارسة » (H. KEES, Das alte Ägypten, 51) "Wache"

وترجمها احمد بدوى : مكان الحراسة أو المرقب (A. BADAWI & H. KEES, Handwoerterbuch, 199).

وأطلق الاغريق عليها اسم لوكو بوليس $\Lambda\upsilon\kappa\omicron\upsilon\beta\omicron\lambda\iota\varsigma$ و $\Lambda\upsilon\kappa\omicron\upsilon\beta\omicron\lambda\iota\varsigma$ ، أى مدينة الذهب أو مدينة ابن
أوى نسبة الى معبودها « وبواوت » فاتح الطرق الذى رمز اتباعه اليه بهيئة ابن أوى Ann. S. XXVII, 33f.
ولعبت أسسيوط دورها السياسى قبيل بداية العصور التاريخية وخلال عصر الانتقال الاول ، ولكنها فى الحالى
كانت حليفة لمدن أخرى أقوى منها ، مثل نخن وثنى قبل بداية الاسرة الاولى ، واهناسيا خلال عصر الانتقال
الاول .

cf. Wb. V, 17-18; R. WEILL, op. cit., 338. (١٧١)

A. H. GARDINER, op. cit., II, 79 f. (١٧٢)

لعبت الاشمونين هى ومدينة اخرى قريبة منها تسمى « ونو » دورهما الدينى وربما السياسى أيضا منذ
ما قبل بداية العصور التاريخية ، وخرج أهل الفكر فيها بلذهب الثامون فى تفسير نشأة الوجود ، وهو
مذهب رد نشأة الوجود الى تزواج ثمانية عناصر طبيعية يتشابه كل اثنان منها ،
see K. SETHE, Amun and die Acht Urgötter; Urg. 163 f.; A.H. GARDINER, op. cit., II, 82.
وراجع عبد العزيز صالح : « فلسفات نشأة الوجود فى مصر القديمة » - انجلى العدد ٢٦ ، فبراير ١٩٥٩
ص ٢٧ - ٣٩ .

وأكبر أرباب الاشمونين هو « تحوتى » رب الحساب والحكمة ورب القمر ، وقد شبهه الاغريق بمعبودهم
هرمس رسول الالهة ، وأطلقوا على مدينته اسم هرموبوليس Ἡρμούπολις ، ولا زالت بقايا معابد
تحوتى قائمة فيها حتى الآن .

CBUM, Dict. 180 a (١٧٣) وفى المصرية القديمة مرية أو مرية .

(١٧٤) هى منطقة تونة الجبل الحالية ، وكان اقليمها كله يسمى اقليم ونة أى اقليم الأرنبة ، فاحتفظت باسمه
مع اضافة أداة تعريف مؤنثة اليها وهى حرف التاء ، ثم نسبت الى الجبل باعتبارها جبانة ، ويرى هنرى
جوتيه أنها سميت باسم آخر وهو « حصرة » وكتب فى النصوص القبطية حاسرو Ḥasro
(H. GAUTHIER, Do géog IV 42 f., CBUM, in J.E.A. XXVIII, 23, n. 3.)

وتجرى تحت أرض تونة سراديب عميقة طويلة احتفظ فيها كهنتها بالنذور التى كانت تقدم اليهم باسم ربهم
تحوتى على هيئة قروود وطيور ابى منجل باعتبارها رمزين له أو كائنين محبين اليه .

- المنيا : عن أصل قديم قد يدل على المرعى أو الأرض أو المرعى .
- طحنا : عن الأصل القديم "تادهنة" بمعنى الجبهة .
- اهناسيا : عن الأصل القديم « حون نيسو » بمعنى (مدينة) أبناء الملك ، أو « حوت ن نيسو » بمعنى " (قصر) ابن الملك " ، وذكرتها النصوص القبطية باسم " حنيس " ، (١٧٥) .
- دهروط : بمعنى أرض المعصرة (١٧٦) .
- اللاهون : عن أصل قديم يعن فم البحيرة (١٧٧) .
- الفيوم : بمعنى التيم أو البحيرة (ياييم أو يايوم في النصوص المتأخرة ثم فيوم في النصوص القبطية وأخيرا الفيوم بعد إضافة أداة التعريف العربية إليها) .
- ديمة : عن كلمة مصرية تعني " المدينة " ، أو عن كلمة إغريقية تعني الحى (؟) .
- بياهمو : = أرض الملح (؟) (١٧٨) .
- السنتاة : نسبة إلى شجرة السنط أو نسبة إلى الكلمة المصرية سنتة بمعنى مشروع .
- ميدوم : = مرتوم ، وقد تكون لها صلة بالمعبود أتوم الذى نسب المصريون إليه خلق العالم .
- اطفيح : عن أصل قديم يصف معبودتها حتحور بأنها رأس البهم وانذبت ، " تب إيحو " في النصوص القديمة ، و " بتديح " في النصوص القبطية (١٧٩) .
- منف : عن عبارة " من نفر " ، وهى عبارة قديمة عبرت عن رأى أصحابها فى ملكهم پي مرى رع أكبر نراعة الأسرة السادسة وعن أمنياتهم لهرمه ، فوصفنه بأنه

(١٧٥) اسمها القديم « ن نيسو » ثم أضيفت اليها كلمة حوت بمعنى قصر فأصبحت « حوت ن نيسو » ، وكانت حاضرة الاقليم العشرين من اقاليم الصعيد ، وعاصمة للوك الاسرتين التاسعة والعاشره من اواسط القرن الثانى والعشرين الى اواسط القرن الحادى والعشرين ق . م ، وشهدت نهضة أدبية واسعة فى عصرهم . ثم اطلق الأغريق عليها اسم هيراكليوبوليس Ηρακλειούσης Πόλις بمعنى مدينة هرقل . see SETHE Unters. III, 62 وكتب الدكتور محمد جمال الدين مختار رسالة عنها لم تنشر بعد .

CRUM, Dict., 704 b. (١٧٦)

(١٧٧) اسمها القديم راحنة اوراخنو (cf. J.E.A. XXIX, 39 f.) وشهدت منطقتها أقدم مشروع معروف لتخزين جانب من مياه الفيضان فى منخفض الفيوم ، منذ القرن التاسع عشر ق . م .

ΠΙΣΙΕΩΣ, see G. SOBHY, Common words in the spoken arabic of Egypt, of Greek or Coptic origin, (١٧٨) Cairo 1950, p 6.

(١٧٩) رمز أهلها الى معبودتهم حتحور بهيئة البقرة (هم وغيرهم من المصريين) ، وسجلت النصوص الرسمية رمز المدينة على هيئة سكنين ، باعتبارها حدا يفصل بين نهاية اقاليم الصعيد وبداية اقاليم الوجه البحرى .

”خالد خير“ وقالت عن هرمه ”دام جمبلا“، ثم أطلقها خلفاؤهم على عاصمة
الحكم في الدولة القديمة، وأحلوها مثل اسمها القديم ”إنب حج“ (١٨٠).

سمتارة : نسبة إلى المعبود ”سكر“، وكان من رعاة عمليات الزراعة والحارث، ورعاة
الصياغة، وسكن تحت الأرض نأد بج راعيا لمن يستنون تحتها في منطقتة
وهم موتى سقارة .

ميت رهينة : بمعنى طريق الكباش (١٨١)، ويبدو أنه كان يخترق مدينة منف أو يؤدي إليها.

طره : عن الأصل القديم ”راو“، و”تراو“ .

أثر النبي : عن أصل قديم قد يعنى ”معبد ححي“ إله الفيضان (١٨٢) .

بابلون : عن أصل قديم قد يعنى ”دار ححي الأوني“ (١٨٣) أى إله الفيضان المنسوب
إلى مدينة أونو وهى عين شمس الحالية أو قربها .

بولاق : ربما بمعنى الجزيرة الأخيرة .

تكرور : ربما بمعنى بلد الضفدع .

شبرا منت : بمعنى المزرعة (؟) الغربية .

شبراخيت : بمعنى المزرعة (؟) الشمالية (البحرية) .

شبرا ريس : بمعنى المزرعة (؟) الجنوبية (القبليّة) (١٨٤) .

(١٨٠) افترح نافييل وشيبليرج تفسيراً آخر لعبارة « من نهر » وهو « المقر الجميل » رهر تنسب مقبول ، ويمكن أن
يضاف إليه تفسير ثالث وهو « المقر الأخير » لولا أن التفسير الذى ذكرناه فى المتن أكثر قبولا وشيوعا منهما
See NAVILLE, Rec. 1r. XXI, 111; SPIEGELBERG, ZAS, XLIX, 129.

راجع عن منف عاصمة الدولة القديمة وأهميتها السياسية والفكرية واسمها القديم - الفصلين السابع والثامن

and see : K. SETHE, Untersuchungen III, 121 f.; Urgeschichte, 10 f., 42 f., 107 f. etc...

H. KEES, Art Memphis, bei Pauly-Wissowa; und Das alte Ägypten, 1958, 80 f.

A. BADAWI, Memphis, Kairo 1948;

A. H. GARDINER, op. cit., II, 122 f.

عبد العزيز صالح - المقال السابق ص ٣٩ - ٤١

(١٨١) شاعت كلمة « ميت » بهذا المعنى ، معنى « طريق » فى أسماء قرى مصرية كثيرة ، وكتبت فى النصوص
القطبية مويث $\overline{\text{mwt}}$

K. SETHE, Urg., 109; A. H. GARDINER, op. cit., II, 131 f.; J.E.A. XXX, 33 f. (١٨٢)

وثمة تفسير قديم لاسم أثر النبي وهو اتره نوب بمعنى مفسورة الذهب ، ولكن ليس هناك ما يزيه .

$\text{Pr-H}^{\text{c}}\text{py-n-Wn} = \text{P-hpu-l-on} = \text{Βαβυλών}$ (١٨٣)

cf. SETHE, op. cit., 109; W. SPIEGELBERG, Demotische Chronik, 143.

W. E. CRUM, op. cit., 827 a; G. SOBHY, op. cit., p. 16. (١٨٤)

- منوف : : ربما عن عبارة مانوفة بمعنى المقام الجميل (١٨٥) .
- صنفت : : نسبة إلى كلمة سبتى بمعنى سور ، أو نسبة إلى معبود يسمى سويد (١٨٦) رمز أصحابه إليه بهيئة الصقر .
- سبك : : نسبة إلى معبود يسمى سوبك رمز أصحابه إليه بهيئة التمساح .
- بواسطة : : أو تل بسطة عن الأصل القديم برباستة ، وكانت باسطة معبودة رمز أصحابها إليها بهيئة القطة . ونسبوا اسمها إلى مدينتهم « باست » فأصبح « باسطة » ثم طادوا وأطلقوا هذا الاسم الأخير على المدينة .
- أبو صير : : عن الأصل القديم برأوزير أو بأوزير بمعنى دار المعبود أوزير (أوزيريس) .
- سمنود : : عن الأصل القديم " ثب نثر " بمعنى كبش الإله (١٨٧) .
- بهيت : : عن الأصل القديم " برحبت " (١٨٨) .
- بلامون : : عن أصل قديم يعنى جزيرة أمون (١٨٩) .
- هواره : : عن الأصل القديم " حت وعرة " (١٩٠) .

(١٨٥) p. 10. Echy op ويرى سيج أن كلمة ما بمعنى مكان تداخلت في أسماء ملوى ومنفلوط وغيرها .

(١٨٦) Sethe, Urg. 19.

(١٨٧) كان الكبش رمزا لها - وكتب اسمها في النصوص القبطية جمنوتى Ⲫⲉⲛⲛⲟⲩⲧⲏ وحوره الاغريق الى (cf. Wb. V, 361; Sethe, op. cit., 15). Ⲭⲉⲃⲧⲧⲩⲩⲟⲩⲥ

(١٨٨) بمعنى دار العيد (Sethe, op. cit. 103) وكانت من المواطن الرئيسية لعبادة الربة ايسة (إيزيس)

وربما كانت أقدمها . cf. R. WEILL, Recherches sur la Ire Dynastie et les temps Prépharaoniques,

Le Caire 1961, I, p. 264, p. 268.

(١٨٩) Pt iw n Imn - وترتب على نسبتها الى الاله أمون أن اطلق أهل العصور المتأخرة عليها اسم

واصة الدلتا ، تشبيها لها بواصة الصيد أى طيبة مدينة أمون الرئيسية ، واطلق الاغريق عليها اسم

مدينة الرب السفلى (see A. H. GARDINER, in J.E.A., XXX, 4f.).

(١٩٠) حت وعرة تسمية يصعب تفسيرها بتفسير محدد ، فهى قد تعنى قصر الربوة ، أو حصن الناحية ، أو دار

الساق . . . وهجر الاغريق عنها باسم أفاريس وكانت عاصمة للهكسوس وربما للرعامة أيضا

وراجع الهامش التالى . see.P.C. LABIB Die Herrschaft der Heksos in Agypten und ihr Sturz, 1936)

صان (الحجر) : عن الأصل القديم جعن في النصوص القديمة وچانى في النصوص الببطية ، ولو أن النصوص الأثورية ذكرتها بالصاد فكاتبها صانو مثل نطقها الحالي (١٩١) .

مشتول : عن أصل قديم يعنى الحصن (١٩٢) .

صا (الحجر) : عن الأصل القديم " ساو " (١٩٣) .

دمهور : عن أصل قديم يعنى مدينة المعبود حور الذى رمز المصريون إليه بهيئة الصقر (١٩٤) .

سندهور : عن أصل قديم قديعى مشروع المعبود حور أو مؤسسة المعبود حور (١٩٥) .

*
* *

ولايزال الزارعون يحتفظون لشهور السنة الزراعية بأسماء ربط أسلافهم بينها وبين أرباب قدسوها وأعياد كانوا يحتفلون بها ، ثم دونوا أسماءها متفرقة في نصوص متباعدة من عصور الدول - اديثة ، وبدأوا يسجلونها متتابعة في عصورهم المتأخرة منذ القرن السادس ق . م فصاعدا .

(١٩١) رجح جاردنر وآخرون أن اسم جعن هو الاسم القديم لمدينة حت وعرة (هواره) ، وأنه تعاقب على المدينة نفسها أو على جوارها القريب منها اسمان آخران ، وهما اسم « برميسيس » (حرفيا : برعمسو أى دار رميسيس) وذلك منذ أصبحت عاصمة مصر السياسية في عصر الرعامسة ، ثم اسم تانيس $\tau\alpha\nu\nu\iota\varsigma$ في عصور البطالمة .

A. H. GARDINER, in J.E.A. XIX, 122 f; Onimastica, II, 171 f. ; 199 f; R. WEILL, in J.E.A. XXI, 17 f. ; H. JUNKER, in ZÄS LXXV, 83 f. P. MONTET, in Kemi, IV, 199 f.

ورأى محمود حمزة تعيين موضع بر رميسيس عاصمة الرعامسة في قنتر الحالية وليس في صان الحجر (هواره) .

M. H. HAMZA, in Ann. S. XXX, 31f., also HAYES, in J.E.A. XXV, 120 f.

(١٩٢) كتبت في النصوص القبطية « مشتول » ، وكتبت في النصوص القديمة « مكر » أو « مكتور » ، تحريفا عن الأصل السامى مجدل أو مجدول بمعنى الحصن أو البرج . (CRUM. Diet. 214 b).

(١٩٣) كانت مسقط رأس فراعنة الأسرة السادسة والعشرين ، فنسبت أسرهم إليها وسميت اصطلاحا باسم الأسرة الصاوية .

G. SOBBY, op. cit., p. 16; and see Crum, Diet., 346 a (١٩٥)

K. SETHE, Urg., 85. (١٩٤)

انظر ايضا طنودة (قرب دسوق) بمعنى « أرض المعبودة وة » وكانت معبودة رمز أصحابها اليها بهيئة الحية واعتبروها حامية لاراضى الدلتا واحدى الربتين الحاميين للموكهم (GARDINER, Onomastica II, 193. ZÄS XXXV, 81f.) وانظر كذلك مدينتى الحدود : الفرما أو فرماو برما ، عن « ير أمون » بمعنى دار أمون ؟ ويثوم بمعنى « دار (المعبود) ائوم » ؟

ولازال تفسير الأصول القديمة لهذه الشهور يحوطه التردد والحذر (١٩٦٦)، ولكنه ترددلا يختلف في شيء عن التردد في تعليل معانى شهور السنة الهجرية أو الميلادية وتحديد مناسباتها الأولى .

وتتابعت الشهور القمرية الزراعية المصرية ذلى النحو التالى :

- توت : نسبة إلى المعبود تحوتى رب القمر والحساب والحكمة (١٩٧) .
- بابه : نسبة إلى عيد إبه أو أوبه ، وكان عيداً مشهوداً يحتفل الكهنة والحكام به فى معبد الأقصر وفيما بينه وبين معبد الكرنك .
- هاتور : نسبة إلى المعبودة حتحور .
- كيهك (وكيحك ويكك) : نسبة إلى عيد كاحركا (؟) بمعنى روح على روح أو اجتماع الروح مع الروح (١٩٨) .
- طوبة : وقد كتب اسمه فى نصوص الأسرة الثامنة عشرة "شف بده" ثم "شف بوتة" وتحور بعد ذلك إلى طوبة فى العصور المتأخرة نذيجة لسبب غير معروف (١٩٩) .
- أمشير : نسبة إلى مشير (أو منخير) أحد مردة الزواج (٢٠٠) .
- برمهات : نسبة فيما يحتدل إلى عيد الفرعون أمنحوتب الأول ، وهو زرعون توفرت له منزلتة الأولياء عند خلفائه .
- برمودة : نسبة فيما يبدو إلى الحصاد وربته « رنوتة » .
- بشنس : نسبة إلى المعبود خنس (أو خنسر) رب القمر الذى مثل دور الابن فى ثالوث مدينة الأقصر .

cf. H.A. PARKER, The Calendars of Ancient Egypt, Chicago 1950; "The Problem of the month-names", (١٩٦) in Revue d'Egyptologie, XI, 85f.; "The Lunar Dates of Thutmose III and Ramses II", in J.N.E.S., 1957, 39 f.; A.H. GARDINER, "The Problem of the month-names", in Rev. d'Ég. (1955), 9 f.; S. SCHOTT, Altägyptischen Festdaten.

(١٩٧) ذكرته نصوص المرسوم باسم « نخي » ، وهو لقب أو اسم آخر للمعبود تحوتى . (A.H.GARDINER, op. cit., p.25) ويعتقد جاردر أن المصريين اعتبروا هذا الشهر ثانى شهورهم فى بعض عهودهم وذكروا قبله شهر مسرى (مسورى) ، ثم عادوا واعتبروا توت أول الشهور ومسرى آخرها .

A. H. GARDINER, "Mesore as first month of the Egyptian Year", in ZÄS, XLIII, 136 f.

(Ibid. II, 292) وربما قابله اسم آخر للعيد نفسه وهو « نخب كاو » خلال عصر الأسرة الثامنة عشرة (Ibid. II, 292)

Ibid., II, 131, 13-14. (٢٠٠)

Wb. IV, 454-455. (١٩٩) بمعنى جمال الحنطة (؟)

- بؤونة : نسبة إلى عيد الوادى فى غرب الأقصر .
- أبلب : نسبة فىما يحتفل إلى المعبودة إبلب (؟) (٢٠١) .
- مسرى : عن أصل يعنى مولد رع (مسرع) أو مولد الشمس (٢٠٢) .

* * *

وتتداخل فى تعبيراتنا الدارحة الحالية ألفاظ كثيرة نستعملها كما استعملها أجدادنا مع تحويرات يسيرة .

وذلك مثل قولنا :

مأ وماأ عينه بمعنى نظر وأطال النظر — وإدى وإدبنى بمعنى إعط وإعطى .

وأفعال الأصوات الطبيعية مثل : نف — وتف — وتفتف — ونش — وكاكا (جاجا) . وأنعال : نط (وهى فى الأصل بد وفد) — وسك بمعنى ضرب — ودمس — وعم (بمعنى أكل) — ووحوح — وككح — وبطبط — وقرقر بمعنى ضحك عالياً — وعفاً بمعنى أمسك (تحريفاً عن خفع) — وتخ (حتى) تحتخ أى شرب حتى فقد توازنه — وبع بمعنى انتهى ونهاية (٢٠٣)

ومثل قولنا فى الأسماء والصفات :

ست بمعنى سيدة — وننه بمعنى طفل صغير — وننى بمعنى بلح صغير — وخم بمعنى جاهل — ومأهور (= مأور) بمعنى حزين — ومدب بمعنى كثير العثرات (من دبا بمعنى سقط) (٢٠٤)

وكلمات : شونة — ودميرة — وطوبة — وطمى — ونبارى — وويية (إيبة ثم ويية) — وعفوفة — ويبة (بمعنى برغوث) — وور (أى أبو فصادة) (٢٠٥) .

Ibid., II, 141; A. H. GARDINER, in ZÄS, XLIII, 136 (٢٠٢)

Wb. I, 69. (٢٠١)

Wb. II, 7; 464 f; 419; II, 252; V, 297, 300; II, 337; V, 157; I, 501; IV, 312; V, 369; I, 183; III, 272; (٢٠٣)
I, 351; V, 67; 323, 328; I, 533.

Ibid. III, 406; II, 212, 272; III, 272; II, 30; V, 435. (٢٠٤)

(٢٠٥) Ibid., IV, 510; V, 223f. (СРУМ, Dict. 56a); Wb. V, 3; I, 78; II, 249; I, 70; 182; 494 (?); 326.

وكرور بمعنى ضفدع - وحتوسة (= حتاسو بمعنى سحلية) - وزى - وإيش - وبرش -
وصهد - وهوب بمعنى درس الجبوب في عبارة هوب هوب يا شغل النوب بمعنى الدرس الدرس يا شغل
الذهب (٢٠٦) .

وتو بمعنى الريح - ومريسى بمعنى (ريح) الجنوب - وشوب (= شابة) بمعنى زوبعة - وسله
أى سلاية - ومريسة وهى نوع من الخمور الرخيصة - وواوا (من واى) بمعنى ألم أو ورم الأطفال -
وحريرة بمعنى الزهرة وشواشى الأذرة - وكانى بمعنى دسم حلو (في عبارة كانى ماني) - وفول (٢٠٧) .

وسومى بمعنى خضار (من غير لحم) - وسمك بورى ورمروم (وكان يسمى رم) - وحرارة (عن خارو
وفي القبطية حير (ة) ، ولو أنها تستعمل في العربية أيضا) - وحبايص بمعنى ثياب ومفردها حبوص
أوحبوس (٢٠٨) - وستو بمعنى اللعبة الثانية - ودأو بمعنى اللعبة الخامسة (٢٠٩) .

وأسماء الأعلام: بيومى بمعنى البحرى أو النيل - وأوسة وييسة (نسبة إلى المعبودة أوسة أو إبسة التى
كتب الإفریق اسمها لإيزيس) (٢١٠) - وونيس - وياخوم بمعنى الصقر - وبسادة بمعنى نور (من كلمة بسج
المصرية القديمة) - وياهرر أى المنسوب إلى المعبود حور (حرفيا بتاع حور) - ويانوب أى المنسوب
إلى المعبود انوب أو إنبو - وبشأى بمعنى عيد أو حظ (أو بتاع العيد وبتاع الحظ) - وشنودة بمعنى
حى هو الرب (٢١١) .

*
* *

Wb., V, 61; III, 122; 424; I, 246, 123; 532; IV, 224; II, 485. (٢٠٦)

لا تزال كلمة نب أو نوب بمعنى ذهب باقية في اسم حنتوب ، وربما في اسم النوبة أيضا

Wb. II, 200; 453; IV, 410; 190; II, 112; I, 249; III, 149; V, 40; I, 531. (٢٠٧)

كلمة فول في المصرية القديمة هي « بر » أو « بور » ثم قلبت الى فول ، وفي القبطية φελ, φελι

Wb. IV, 119; I, 465; II 416. (also, J.E.A. XIV, 24f); II, 416; III, 232; 3f. (also Bull. de l'Inst. (٢٠٨)
ég., XI 106).

G. SOBHY, "Miscellanea", in J.E.A. XVI, 3f. (٢٠٩)

انظر أيضا احتمال اشتقاق الكلمة الصعيدية بيب بمعنى مقبرة من الكلمة القديمة بابا او باب بمعنى حفرة
أو فتحة (Wb I, 419) ويرى الاستاذ جورج صبحي أنها كانت أصلا لتسمية بيبان الملوك في غرب الاقص
بمعنى مقابر الملوك

Wb. IV, 18 and see K. SETHE, Urgeschichte, 102, 3. (٢١٠)

see also G. SOBHY, Common words in the spoken arabic of Egypt, of Greek or coptic origin, (٢١١)

Cairo 1950, 17.

واحتفظت النصوص القبطية بمفردات كثيرة شاعت في اللغة الدارجة القديمة ولم تهتم بها النصوص الأدبية والرسمية الأولى ، ولكنها لا زالت تستعمل في لغتنا الدارجة حتى الآن مع تلوين دخيل بسيط ترتب على اتصال أهل الأسواق بمن نزلوا أرضهم من الإغريق وغيرهم ومشاركتهم إياهم في مجالات التجارة ، كما ترتب على تأثر أهل الدين الأقباط بالكلمات الإغريقية التي دخلت لغة الأناجيل .

ومن الكلمات التي يرجح طابعها المصري في هذه النصوص :

مش (أداة نفى) - صير - قلة - زير - ما جور - لبش - بقوطى - شوشة - ضبة - شراقى - قنقيل - طورية - هاجة بمعنى أثنى الضفدع - سمك شلباية - وراى (للملوحه) (٢١٢) .

ولفظ (= لسلس) - وبوش (في عبارة طلع بوش) - وتوت بمعنى اجتبعوا (في عبارة توت حاوى) - ولكلك (؟) بمعنى عجن (٢١٣) - وشن - واشلشل (؟) - ونقنق (في كلمة منقق أى مريض أو متضايق) - ومناى (فى الصعيد) بمعنى من هنا - ومناو (فى الصعيد أيضا) بمعنى من هناك - وم - وامبو (فى الحديث إلى الأطفال) (٢١٤)

وحلولى بمعنى طفلى أو يا صغير - وحللو بمعنى عجوز - وننوسة بمعنى جميلة أو ما أجملها (٢١٥) .

ولا زالت آثار قواعد اللغة القديمة باقية في بعض أساليبنا الدارجة مع اختلاف الألفاظ ، مثل : قام كتب ، وحايكتب ، ورايح يكتب ، وهو يكتب ، وعمال يكتب ... ، وكلها صيغ غير معروفة في العربية الفصحى .

وعبارات أخرى وألفاظ كثيرة تشيع في الرف وفي الصعيد بخاصة ، ولا زالت تتطلب جيودا طويلا في جمعها وتفسيرها وردها إلى أصولها (٢١٦)

W. E. CRUM, A Coptic Dictionary, 201b; 780b; 104a; 353b; 759b; 137b; 122a, 127a; 800a; 576b (ZAS (٢١٢)

XIV, 42); 103a; 425a; 134b.; A. KAMAL, dans Bull. de l'Inst. égyptien, X, 162.; J.E. A. XIV, 24 f.

W. E. CRUM, op. cit., 138b; 47b; 447b-448a; 138b. (٢١٣)

G. SOBHY, op. cit., (٢١٤)

اهتم المرحوم أحمد كمال باشا والاساذ جورجى صبحى بتقصى الكلمات المصرية القديمة في اللغة المصرية المعاصرة ، وظهرت لهما ابحاث قيمة في موضوعها ، ومن الكلمات الطريفة التى استشهد بها الاستاذ جورجى صبحى في بحثه المشار اليه ، كلمات : فوطه وجلابية وشبورة وورد ودرفس وبرسيم ومعديه ودهبية ... وكلمات أخرى كثيرة ، ولو انه يصعب ردها الى اصول مصرية قديمة .

• (٢١٥) CRUM, op. cit., 669 a, b; 227 a (العنب) .

(٢١٦) من الالفاظ التى تغلب عليها صفة القدم وتطلب البحث ، الفاظ اصحاب الحرف والصناعات القديمة مثل الزراع والنساجين والفخرانية والمراكبية وبنائى اللبن والحجر فى الصعيد ، ثم الالفاظ المعيرة عن اصناف الخبز ، وقد تضمنت النصوص القديمة منها ما لا يقل عن خمسين اسما ، وحاول المرحوم أحمد كمال باشا ان يتعرف منها على اسم بتاو على اعتبار ان تا فى المصرية القديمة كانت تعنى الخبز على وجه العموم ، ولو انه من المحتمل انها كانت تنطق « ت » أو « تو » ، انظر ايضا اسم سن واحتمال اشتقاقه من «بن» المصرية القديمة ... ، وكلمة « عككة » ودلائها على الكلمك .

وسوف نتناول روابط العادات والتقاليد وروابط الروح والطابع بين المجتمعين القديم والحديث في كتاب آخر ، ويكفى أن نذكر الآن منها أن مبصرنا القديمة لاتزال حية في مجتمعاتنا المعاصرة وفي أوساطه الشعبية والريفية على وجه الخصوص، بروحها وعاداتها، وجلدها وإيمانها، وأخلاقها وطباعها ، وبساطتها وتسامحها ، ولا تزال على تقاليدها القديمة من حيث تفضيل الزواج المبكر ، وأوضاع الزوجين في الأسرة (في الريف خاصة) ، ومعاني الألفاظ التي تعبر عن الزوجة ، ومن حيث الرضى بكثرة الأولاد والانتكال على الخالق الذي يخلق كلاً منهم برزقه ، ومن حيث عادات الوضع في الأوساط الشعبية وعادات التطهر والختان ، ومعاني أسماء الأطفال ، وألعاب الأولاد والبنات ، ومن حيث إصرار الأب على سلطانه على أبنائه ، ومن حيث استمسك الطبقات الوسطى بمظاهر الحشمة أكثر من طبقات العامة الكادحة رجالها ونساءها ، وأكثر من الطبقات الثرية بترفها ونعيمها ، ثم من حيث الميل إلى التدين والسماحة وخوف الحساب ، والتوكل على الخالق والتماس كرامات الأولياء (٢١٧) .

د - مراحل التاريخ الحضارى لمصر القديمة

بدأت معالم التاريخ الحضارى المصرى القديم منذ بدأ النشاط البشرى على أرض مصر ، ومرت تطوراته فى ثمان مراحل زمنية اعتبارية استمرت آلافا طويلة من السنين ، واختلفت كل مرحلة من مراحلها عن الأخرى فى طول أمدها ، وفى طاقتها البشرية ، وفى مستوياتها الحضارية ، وفى أوضاعها السياسية ، وفى مدى التشابه أو التمايز بين أقسامها الفرعية ، وفى طبيعة العوامل التى بشرت ببدايتها وطبيعة العوامل التى آذنت بنهايتها .

واتصلت كل مرحلة من مراحل تاريخنا الحضارى القديم بسابقتها ومهدت للاحقتها ، وتتابع فيما بينها دون حدود قاطعة على الصورة التقريبية التالية :

أولا - دهور ما قبل التاريخ : وهى دهور بدأت منذ بدأ المصرى الأول يصنع شيئا بيده فى زمن يصعب تعيينه عن يقين ، واستمرت معه آمادا طويلة تقدر بعشرات الآلاف من السنين ، وظلت حضاراتها البدائية حضارات شلمة فى مجزأ ، ثم ظهرت فى آخرها ، ونما يسمى اصطلاحا بالبحر الداربخ ، بواكير الاستقرار المعيشى ، (راجع الفصل الثانى) وتتبعته خلال محاولات الوحدة السياسية بين أهل الصعيد وأهل الدلتا ، وتفجرت نيه غايات الفكر الدينى إلى حد ما (راجع الفصول الثالث والرابع والخامس). وانتهت هذالدهور عند خرايم الألف الرابع قبل ميلاد المسيح حين بشرت مساعى أهلها بعصر حضارى وسياسى جديد .

ثانيا - عصر باية الأسرات : وهو عصر بشر ببدايته إصرار زعمائه الأوائل على تحقيق المركزية السياسية الكاملة فى (ظنهم ، ونجاح أعوانهم فى ابتداء علامات كتابية كان لابد منها لإقامة حامة نظامية مسنقرة ، ولما خطا هؤلاء وهؤلاء خطواتهم الأولى ترنبا على جبرودهم أن استقرت وحدتهم النومية ، وتقاربت أشنات عنصرهم الحضارية ، وتشابهت عنفاتهم الدينية ، وتضمن عصرهم فى سياقه عهد الأسرتين الحاكمتين الأولى والثانية منذ أواخر الألف الرابع ق . م . إلى أوائل القرن الثامن والعشرين ق . م على وجه التقريب . (راجع الفصل السابع)

ثالثا - عصور الدولة القديمة : وهى عصور بدأت بعصر الأسرة الحاكمة الثالثة فى أوائل القرن الثامن والعشرين ق . م ، وانتهت فى أواخر عصر الأسرة الحاكمة السادسة فى أوائل القرن الثالث والعشرين ق . م أو أواسطه ، وامتازت عن العصور اللى سبقتها باتساع مواردها الداخلية واتساع آفاقها الفكرية ونضوج كفايات أهلها ، وتبلورت خلالها مبادئ الحكم المركزى وادارة الإقليمية ، واستقرت فيها خصائص الطابع المصرى فى فنون النحت والنقش وأساليب العمارة العامة ،

وانضحت فيها معالم الدين على الصورة التي طبته بظاهرها فيما تلاها من عصور ، وبقيت كفاية أهلها ماثلة في الأهرام والمعابد والمقابر والنقوش والتماثيل وأدوات الترف التي حفلت بها أرض سقارة ودهشور وميدوم والجيزة وأبوصير ، وبقى تراثها الديني فيما يسمى اصطلاحا باسم متون الأهرام .
(راجع الفصل الثامن)

رابعاً — عصر اللامركزية الأولى أو عصر الانتقال الأول : وهو عصر بدأ بانهيار مظاهر الحكم القديم رويدا رويدا في أواخر عصور الدولة القديمة نتيجة لعوامل ضعف داخلية وعوامل ضغط خارجية ، وظلت الحياة فيه ذات وجهين ، فعلى حين غلبت روح اللامركزية والزعزعة الإقليمية على حياته السياسية واقتصرت مساعي حكامه على شئونهم الداخلية دون ما وراء حدود أرضهم ، انتشرت فيه روح الفردية والحرية الدينية ، وانتعشت فيه أحوال أهل الطبقة الوسطى ، واستمر منذ نهاية عصر الأسرة السادسة حتى نهاية الأسرة العاشرة في أواسط القرن الحادى والعشرين ق . م (راجع الفصل التاسع) ، وحينذاك آذنت ظروف البلاد بتحول جديد .

خامساً — عصور الدولة الوسطى : وهى عصور بدأت بنجاح أنصار الأسرة الحادية عشرة في استعادة وحدة دولتهم السياسية منذ أواسط القرن الحادى والعشرين ق . م ، فاستأنفت بلدهم في ظلهم استقرارها الحكومى واستقرارها الدينى بعد عهود اللامركزية السابقة ، وعادت نشاطها الاقتصادى الواسع القديم ، ثم تطلعت في ظل خلفائهم إلى مزيد من التأثير في حياة جيرانها الشرقيين ، وأنتج أدباؤها روائع لا يفة في فن النقصة ، وأنتج فناؤها ومهندسوها تراثا رائعا في فنون العمارة والهندسة والنحت والنقش ، نشره في نواحي الأقصر ودندره والفيوم وعين شمس .

واستمرت عصور الدولة الوسطى نحو ثلاثة قرون ، ثم انتهت بتلك وحدة بلدها السياسية مرة أخرى خلال عصر الأسرة الثالثة عشرة ومنذ أواسط القرن الثامن عشر ق . م على وجه التقريب . (راجع الفصل العاشر عن عصر الأسرة الحادية عشرة ، ويبحث في بقية عصور الدولة الوسطى والعصور التالية لها — الجزء الثانى من هذا الكتاب) .

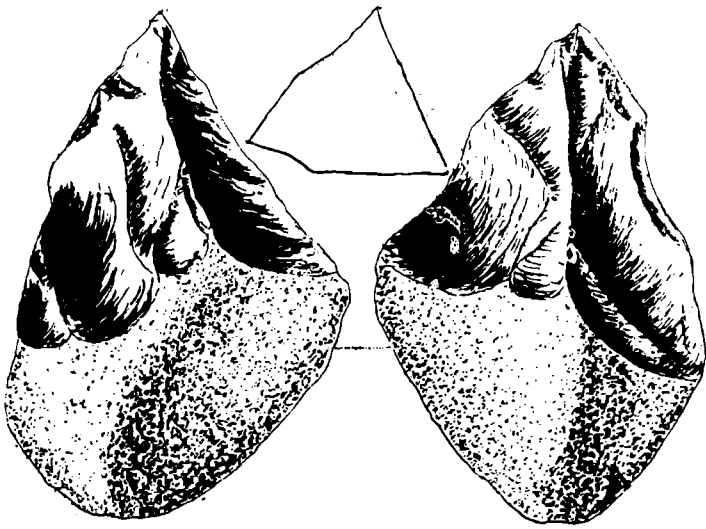
سادساً — عصر الانتقال الثانى : وهو عصر لا زال غامض المعالم بالنسبة إلى العصور التي سبقتة والعصور التي أعقبته ، وقد غلب التدهور على سياسة حكامه وحضارة أهله ، وبدأ كما ذكرنا في أواسط القرن الثامن عشر ق . م ، وتضمن في سياقه عهود الهكسوس بأدرانها وشقائها ، واستمر حتى أوائل القرن السادس عشر ق . م ، حين جاهد زعماء الأسرة السابعة عشرة الوطنية وأنصارهم في أن ينتشلوا وطنهم من الهوة التي تردى فيها وحاولوا أن يعيدوا إليه استقلاله القديم .

سابعاً — عصور الدولة الحديثة : وبدأت بعودة استقلال مصر السيامى وإجلاء الهكسوس عن حدودها القريبة والبعيدة في بداية عصر الأسرة الثامنة عشرة ، ثم تميزت بالانطلاق الواسع الهادف في مجالات الحرب والسياسة وال عمران والرقى بعقائد الدين ، فالتسعت بمحدودها السياسية حتى أطراف الفرات ،

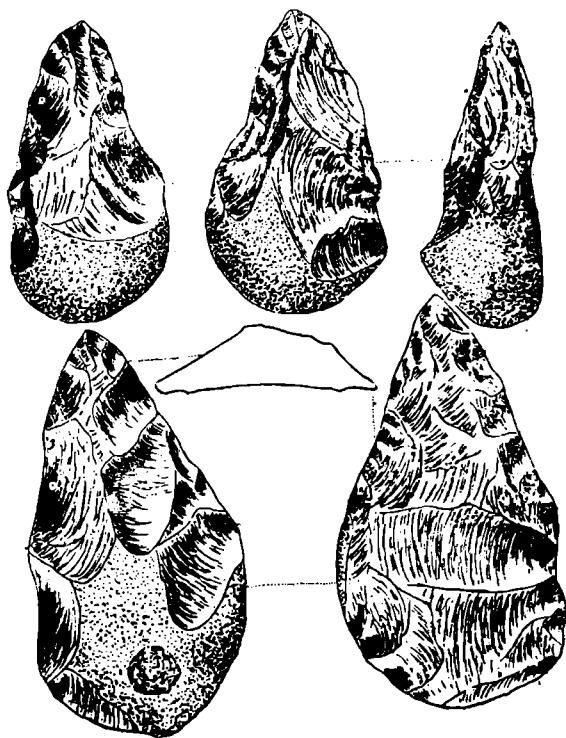
وارتقت بدينها حتى مرحلة الوجدانية ، وتركت روائعها الأثرية في طول البلاد وعرضها ، لا سيما في منطقة الأقصر بمعايها ومقابرها وكنوز فراعتها وأثرياتها ، واستمر ازدهارها الحضارى والسياسى زهاء خمسة قرون ، ثم خَفَّت نورها شيئا فشيئا وذلت حضارتها بنهاية عصر الأسرة -المادية والعشرين في أواسط القرن العاشرق . م ، بعد أن استنفذت معظم إمكانياتها ، واستهلكت أغلب مواردها وبعد أن آذن ميزان القوى في العالم القديم بانقلاب جديد .

ثامنا — خواتيم العصور الفرعونية : وهذه بدأت بالقرن العاشرق . م ، واستمرت أحوال مصر خلالها بين مد وجذر في المجالات الداخلية والخارجية وفي مجالات السياسة والحروب ، وشهد المصريون خلالها تذبذب ميزان القوى في الشرق القديم والغرب القديم ، وشاركوا في أحداث دنياهم فكالفوا الأشوريين والبابليين والفرس وتعاملوا مع الإغريق ، ثم انتهت عصور حكمهم القومى القديم بنهاية الأسرة الثلاثين في أواخر القرن الرابعق . م .

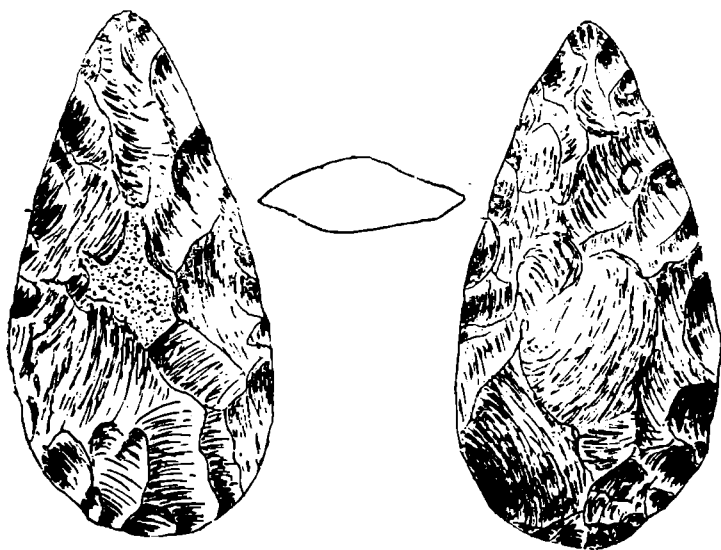
دهور ما قبل التاريخ



شكل ١ - فهر شيلي مخروطي



شکل ۲ - (۱) فھر شیلی
(ب) فھر آشولی



شکل ۳ - فھر آشولی بیضی متطاور

الفصل الثاني

١ - مقدمة

تعبير ما قبل التاريخ تعبیر زمني اصطلاحی مرّن، يطلق عادة على الدهور البعيدة التي سبقت عصور معرفة الكتابة وطرق التاريخ في حضارات الشعوب القديمة، ويرادفه تعبیر حضاري اصطلاحی آخر، يقل عنه امتداداً في الزمن، وهو تعبیر «الدهور الحجرية»، ويقصد به الدلالة على الدهور التي بدأت خلالها تباشير الحضارات الإنسانية الأولى، والتي لم تستخدم أهلها معادن مصنوعة على الإطلاق، وشكلوا خلالها أدوات حجرية بدائية متواضعة تفحصهم في أغراض الدفاع عن النفس وفي التغلب على الحيوان وتحصيل القوت، واستخدموا معها أدوات متفاوتة الأحجام والأشكال من فروع الشجر وعظام الحيوانات وقرونها وأنيابها الضخمة، ومن الأصداف البحرية الكبيرة، وربما استخدموا معاً ما كانت السماء تسقطه على أرضهم من حديد اليازك والشهب ويجدونّه عفواً من حين إلى حين، ولم يشدوا عن ذلك إلا في خواتيم دهورهم الحجرية حين اهتموا إلى معرفة استخلاص معدن النحاس من أخلاطه الطبيعية في أواخر الألف الخامس ق. م.

ومحصول الحضارة في دهور ما قبل التاريخ التي استمرت عشرات الآلاف من السنين، محصول متواضع ضئيل لا يقنع به غير المتخصص، ولكنه مع ضآلته لا يمكن تجاهله إلا إذا تنكرت البشرية لأصولها الأولى أو تجاهلت شقاء أسلافها المبكرين الذين واجهوا وحشية البيئة القديمة، وواجهوا جبروت كائناتها العديدة، على الرغم من أنهم كانوا لا يزالون قلة وأشباه عزل إلا من عقول طفلية وتجارب متعثرة قليلة، وبدوا تجاربهم بصناعة أدوات حجرية متواضعة استفاد العالم القديم منها فكرة السهام والحراب والسكاكين، واهتموا بعدها إلى إيقاد النار ووزنوا خلفاءهم دفئاً ومنافعها، ثم استأنسوا الحيوانات وربوها ورعوها، وابتدعوا حرفة الزراعة، وبدأوا الادخار لضمان القوت، ونحتوا لكل شيء رأوه إسماً وصفة، وجعلوا لكل شيء فعلوه كلمةً وتعبيراً، وهدتهم تجاربهم الطويلة إلى فكرة الكساء والوظء والغطاء والسكن، وحاولوا أن يسعوا على سطح الماء كما سعوا على سطح الأرض فاخترعوا القوارب وأشباهها، واهتموا في أواخر دهورهم الحجرية إلى استخلاص المعادن من أخلاطها، وبشروا بصناعات النجارة والصابغة وبواكير الرسم والنقش وصناعة التماثيل، وربما بدأوا بما لا نعلمه من وسائل التطبيب وتخيروا بعض العقاقير من أعشاب الأرض وثمار الشجر ومن الزيوت والشحوم.

*
**

بحث في دهور ما قبل التاريخ إلى جانب فروع الآثار والحضارة والتاريخ علوم عدة ، مثل الجيولوجيا وعلم الأحياء والأنثروبولوجيا ، والجغرافيا الطبيعية والجغرافيا التاريخية . . . ، وبحثها كل علم من هذه العلوم من زاويته الخاصة ، ورجع بها إلى ما قبل نشأة الإنسان بملايين السنين ، وتخبرها أسماء وتعريف تناسب دراسته ونفى بأغراضه .

وتستعين الصفحات القليلة التالية ببعض ما انتهت إليه العلوم السابقة في تصوير البيئة الطبيعية التي خضع المصريون الأوائل لظروفها وإيجاءاتها ، ثم تعاملوا معها حين تكاثفت أعدادهم تكاثفا نسبيا ووضحت حاجتهم إلى استغلالها .

افترض الجيولوجيون عدة أزمنة قديمة متصلة قَدروها بملايين السنين ، واعتبروا آخرها وأقصرها هو الزمن الرابع الذي ظهر الإنسان في أوله أو فيما قبله بقليل .

وظهرت على سطح القطر المصري فيما قبل الزمن الرابع ، أي فيما قبل ظهور الإنسان ، تكوينات صخرية نارية ومتحولة ، أهمها فيما بقي حتى الآن: الجرانيت والديوريت والدوليريت والشست والبازلت والسيق والنيس ، ثم تكوينات رسوبية ومتحولة ، أهمها فيما بقي حتى الآن أيضا الحجر الرملي والحجر الرملي النوبي والحجر الجيري والأباستر والكوارتزيت ، فضلا عن الأخشاب المتحجرة وما إليها^(١) .

ولم تكن هذه التكوينات أو تلك تعني المصري الأول في شيء ، ولم يكن يستطيع أن يؤثر فيها بشيء ولكنه أخذ يحس آثارها المختلفة منذ انتقل إلى حياة الجماعة ، ومنذ بدأ يضع قدميه على لم الحضارة ، ومنذ لحظ أن المناطق الصخرية الصلبة أقل استعدادا من غيرها لإيواء جماعته ، وأقل استعدادا من غيرها لمعاونته على التطور بحضارته ، على العكس من الهضاب الحجرية التي ظلت بوديانها وما كسا مسطحاتها المنخفضة من حبيبات التربة والرمال ، أ كثر انبساطا وأقل تعقيدا في سبيل تحركات جماعته وأكثر صلاحية لنمو النباتات ونشاط حيوانات الصيد . وترتب على هذا التباين أن سلك المصريون سبلا كان لا بد لهم من أن يسلكوها ، فاكتفى القرييون منهم من المناطق الصخرية بأن امتعناوا بما فتته عوامل الطبيعة من ضحورها الصغيرة وشكلوا منها أدواتهم المتواضعة ، وانتشروا في مناطق الهضاب الأخرى ما وسعهم الانتشار، واستفادوا من موادها الأولية ومن أحجارها الصغيرة، وظلوا أكثر استفادة من أحجارها الجيرية التي انتشرت بين إسنا والقاهرة خاصة ، بعد أن لحظوا في ثناياها عقداً صغيرة وكبيرة وعروقا طويلة من حجر أحر صلب ، فاتح ظاهره قاتم باطه ، دقيق الحبيبات ، هو حجر الظران أو الصوان Flint ; Silx ، وهو حجر هدتهم تجار بهم إلى تفضيله عن غيره حيثما وجدوه نظرا

(١) راجع من تفاصيل التكوين الجيولوجي :

W.F. HUME, Geology of Egypt, II, 1-17; K. S. SANDFORD and W.J. ARKELL, Palaeolithic Man and the Nile Valley, II (1933), 82 ; III (1934), 1, 3 ; IV (1939), 92-93.

محمد متولى : وجه الأرض - ص ٢٨٧ - ٢٩٧ ، ابراهيم زرقانة : الحضارات المصرية في فجر التاريخ ص ٧٥ - ٨٦

لسهولة تشكيله على الرغم من صلابته ، وسهولة شطف حوافه شطفا حادا قاطعا ، وسهولة فصل شظايا سايمه منه ، فضلا عن سهولة الحصول عليه في مناطقه بفضل عوامل الطبيعة التي خلصته من الصخور الجيرية وتركته مبعثرا على سطوح الهضاب على هيئة زلط كبير أو د غير في أغلب الأحوال (٢) .

*
* *

وكانت للبحر المتوسط القديم قصته مع أرض مصر قبل ظهور الإنسان فيها ، فطنى عليها وانحسر عنها عدة مرات ، ووصلت خلبانه في مراحل طغيانه الأخيرة إلى شمال غرب الفيوم حيناً ، وحتى منطقة إسنا في نلب الصعيد حيناً آخر ، ووقفت في بعض مرات تراجعها عند شمال القاهرة ، وحيث بدأت الدلتا الحالية .

ولم يكن انغيان البحر القديم أو انحساره صلة مباشرة بتاريخ المصريين الأوائل في أرضهم ، إلا إذا افترضنا أنهم استفادوا بما تركه البحر بعد انحساره الأخير من مخلفات أصداف المحار والصدف وعظام الحيوانات المائية ، وهي مخلفات انتشرت بقاياها حول الدلتا حتى العهد الذي زار المؤرخ الإغريقي هيرودوت مصر فيه في أوائل القرن الخامس ق . م (٣) ، ولا زالت آثارها باقية في جروف الوديان الممتدة بين الهضاب الغربية وبين مجرى النيل (٤) .

وتأخر دور مناطق البحر الأحمر عن دور خلبان البحر المتوسط ، ولما ظلت أشد تأثراً منها في حياة مصر الطبيعية والجنسية ، بعد أن أدى تكوين أخدود البحر الأحمر ، وظهور المعبر الأرضي الشمالي بينه وبين البحر المتوسط منذ نهاية الزمن الثالث (٥) إلى رسم خطوط الاتصالات الجنسية بين مصر وبين جيرانها الآسيويين ، و بعد أن أدى ارتفاع جبال البحر الأحمر الغربية إلى وفرة أمطارها وقدرتها على دفع هذه الأمطار عبر الهضاب الشرقية وتكوين الوديان بها ثم انسيابها حتى مجرى النهر القديم قبل أن تصله موارد المناخ الجنوبية بزمن طويل ، و بعد أن لحظ المصريون أن هذه المناطق الجبلية والهضبية هي المصدر الرئيسي لثروتهم المعدنية منذ أن عرفوا المعادن وعرفوا استخلاصها في أواسط دهرهم الحجري الحديث .

*
* *

(٢) الظران أو الظران ، وواحدهما ظر أو ظرد (المخصص لابن سيده - جزء ١٠ ص ٩٤) ويختلف لون باطن الظران بين الرمادي والأسود والأسمر والأصفر الفاتح ، ويبلغ طول عقده الكبيرة نحو ٤٥ سم . (راجع ابراهيم رزقانة : الآلات الحجرية - ص ١١ - ١٢) .

(٣) HERODOTUS, II, 14.

(٤) و . ف . هيوم جيولوجية مصر - جزء ١ ص ٤

(٥) SANDFORD & ARKELL, op. cit., IV (1939), 92-93. - ومحمد متولى : المرجع السابق ص ٢٩٤ - ٢٩٧

وبدأت للنيل قصته هو الآخر قبل ظهور الإنسان على أرض مصر وفي بداية ظهوره ، وكانت قد سبقته إلى الوجود مجموعة نهريّة قديمة جرى الاصطلاح على تسمية أكبر أنهارها باسم UṚ-Nīl أى النيل العتيق أو ما قبل النيل ، وهو نهر جرى في بعض أجزاءه هو وبعض أنهار مجموعته إلى الغرب من مجرى النيل الحالي ، وكان يصب في شمال غرب الفيوم عند ساحل البحر القديم أو عند نهاية خليجه ، وتخلفت من معالم دلتاه رواسب بالغة السمك والعمق وبقايا حيوانات منقرضة مثل أجداد الفيلة وأشجار متحجرة ناسبت البيئة حينذاك وجرف النهر بعضها من جانبيه وأرسبها في الخليج الذي صب فيه (٦) .

وبدأ النيل الحالي يأخذ مجراه في دهر الميوسين الأعلى ، منحرفا ناحية الغرب أيضا ، ورجح ساندفورد وأر كل حدوث حركات دفع أرضية قديمة في دهر الميوسين أظهرت على جانبيه جدارين صخريين عالين في الصعيد الأعلى ، حددا اتجاهه وحددا اتساع واديه . واستمر النيل يشق طريقه حتى انخفضت اليابسة أو ارتفع البحر في أواخر الزمن الثالث (وقبل أواسط دهر البلايوسين) فطنخى البحر ثانية على مجرى النيل الجديد وعلى الوديان القريبة منه بارتفاع تراوح بين ١٧٠ مترا و ٢٠٠ متر ، وامتد منه حينذاك خليج طويل بلغ إسنا ووصلت آثاره حتى غرب إدفو الحالية ، ولكن النيل عاود عملية إرسابه ببطء واستطاع أن يدخل الخليج من ركنه الجنوبي الشرقي ، وأخذ يردمه شيئا فشيئا بما كان يصله من الحصباء ورمال الكوارتز مع مياه روافده الشرقية والجنوبية الشرقية خلال دهر البلايوسين الأعلى ، وربما عاونه على ذلك أن ارتفعت اليابسة آنذاك لآخر مرة وانخفض البحر كذلك لآخر مرة (٧) .

ومضى النيل في طريقه إلى الشمال بين نحت وإرساب طوال أواخر دهر البلايوسين وأوائل دهر البلايستوسين ، وأخذ يستخلص دلتاه من البحر شيئا فشيئا وبينها برواسبه ، واشتد نشاطه منذ ازدادت مناسيب الأمطار على منابع روافده وزادت قدرتها على جرف الرواسب من المرتفعات الجنوبية والشرقية ، وكانت رواسب خشنة في مجملها ، فاستعان بها على تعميق مجراه ، واستخدمها في بناء مدرجات رسوبية خشنة واسعة متعاقبة دلت على اتساعه القديم وارتفاعه القديم ، ومال بها إلى الانخفاض والضيق بتوالي الزمن ، فبدأ بها على ارتفاع يبلغ متوسطه نحو مائة مة وعشرة نوق مستوى سهلها الحالي ، واتمى بها إلى ارتفاع يبلغ متوسطه نحو ثلاثة أمتار نوق مستوى سهلها الحالي (٨) ، وتأثرت هذه المدرجات في انخفاضها باستمرار نشاط النيل في تعميق مجراه وازدياد قدرته على استيعاب فيضاناته عوضا عن ارتفاعها وانسيابها إلى مسافات بعيدة على جانبيه ، كما تأثرت بالانقلابات المناخية الواسعة التي حدثت خلال الزمن الرابع وما ترتب عنها من اختلاف مناسيب الأمطار واختلاف مدى الجفاف من دهر

(٦) SANDFORD & ARKELL, op. cit. II, 23-24, 62, 83; III, 121.

وراجع محمد عوض محمد : نهر النيل - ص ١٣٦ وما بعدها .

(٧) SANDFORD & ARKELL op. cit., I (1929), 7; II, 82; III, 4, 122; IV, 94.

(٨) Ibid., II, 83-84; III, 122-123, 126; IV, 70-71.

إلى دهر (٩) . وبدأ النيل أهم مراحلها أثرآ في حضارة أهله منذ تفتحت له آفاق النحت والنقل من رواسب الجنوب في أواخر الدهر الحجري القديم الأوسط ، فحمل الغرين اللبسم منها ، وغطى به الحصباء والرمال الخشنة القديمة في واديه ودلتاه شيئا فشيئا ، وردم به مناطق واسعة صادفته في الصعيد وجعلها مهياة للعمران والسكنى (١٠) .

للزمن الرابع دهران ، دهر البلايستوسين Pleistocene وهو دهر بعيد طويل ، تبلغ الفروق الزمنية بين النظريات المختلفة في توقيته عشرات الآلاف من السنين . ودهر الهولوسين Holocene الذى بدأ فيما يحتمل منذ أواخر الألف السادس ق . م ، وامتد بعدها إلى العصور التي نعيش الآن في ظلها .

شغلت دهر البلايستوسين والفرات التي سبقتها في أواخر البلايوسين أو البليوسين Pliocene في أور بأربعة عصور جليدية كبيرة تخللت بين كل عصر منها وآخر فترة متوسطة دفيئة طويلة . وربط الأثريون بين عصر الجليد الأربعة، نترات الدفء التي تخللتها من ناحية ، وبين حضارات بشرية بدائية حجرية وجدوا مخلفاتها بين وديانها وركاماتها من ناحية أخرى ، وأطلقوا على هذه الحضارات اصطلاحا أسماء القرى التي عثروا فيها على آثارها لأول مرة (١١) .

واختلفت الظروف المناخية التي شهدتها مصر ، خلال دهر البلايستوسين (والفرات التي سبقتها من أواخر البلايوسين) ، عن الظروف المناخية التي شهدتها أوربا ، تبعا لاختلاف العروض بينهما واختلاف اتجاهات الرياح ومصادرها ، وفر عليها ، هي والمناطق الأفريقية والآسيوية المحيطة بها فيما يعتقد ساندفورد وأركل عصر مطير طويل جدا أعقبه مطير جفاف تدريجي ، وفيما يعتقد سليمان حزين عصران مطيران عظيمان ، ترسبتهما فترة جفاف نسبي شديد ، وأعقبتهما نتره جفاف شديد (١٢) ، وأخذ فيما يلي بهذا الاعتقاد الأخير .

(٩) see, S. HUZAYYIN, The Place of Egypt in Prehistory, Cairo 1941, p. 155.

(١٠) SANDFORD & ARKELL, op. cit., I, 84; III, 124.

(١١) رتب هذه العصور والحضارات من الأقدم الى الأحدث على النحو التالي مع اختلافات واسعة بين نظرية وأخرى :

(أ) عصر جليد جنز Günz — ثم فترة دفيئة طويلة جدا .

(ب) عصر جليد مندل Mindel — ثم فترة دفيئة طويلة تؤكد ظهور الحضارات الشيلية البدائية والشيلية العادية فيها .

(ج) عصر جليد رس Riss — ثم فترة دفيئة طويلة تعاقبت فيها حضارات شيلية راقية ، وأشولية أولية ، وأشولية راقية ، ثم مستيرية أولية .

(د) عصر جليد فرم Würm — واستمرت فيه الحضارات المستيرية والليفوازية ، وكان آخر العصور الجليدية في دهر البلايستوسين .

see O. MENGHN, Welt Geschichte der Steinzeit, Wien 1931, 21-23; HUZAYYIN, op. cit., 167 f.

(١٢) SANDFORD & ARKELL, op. cit., II, 83f; HUZAYYIN, op. cit., 94-95, 112, 329 f.

وصاحبت العصر الأول من العصرين المطيرين ، فترة باردة ، ثم فترة دفيئة ، وأخيرا فترة باردة ثانية ، وطال زمنه آمادا طويلة ، وتراوحت مناسيب أمطاره بين الارتفاع والانخفاض . وشابهه العصر المطير الثاني في بعض مظاهره، ولكنه كان أقل أمدا منه، وأقل منه في كثافة أمطاره ، وأكثر تذبذبا منه في مناسيب أمطاره (١٣) .

وعاصر الإنسان في صورته الأولى ، دهر البلايستوسين وعاش تقلباته المناخية المتباعدة ، وربما سبقه في الظهور ونشأ قبله في أواخر دهر البلايوسين ، في منطقة لازال الجغرافيون وعلماء الأجناس يذهبون بشأنها مذاهب ثلاثة : مذهباً اعتقد فيه H. J. Fleure أن موطن الإنسان الأول لم يتعد غرب آسيا وشمال أفريقيا ، ومذهباً رأى فيه Arthur Keith أن نشأة الإنسان بدأت في أفريقيا دون آسيا ، ومذهباً رجع فيه Paul Rivet نشأة الإنسان الأول في جنوب شرق آسيا (١٤) . . .

وترك العصران المطيران في دهر البلايستوسين آثارهما في مصر والأقاليم المحيطة بها ، وأوضح هذه الآثار نيمياً يعتقد الجيولوجيون والجغرافيون :

(١) تكوين وديان مائية طويلة عميقة ، لاتزال مجاريها القديمة تمتد مئات الكيلو مترات في قلب الهضبتين الشرقية والغربية بعد جفافها ، وتمتد في قلب الصحراء الكبرى ذاتها (١٥) .

(ب) تكوين بعض مدرجات وادي النيل من الرواسب الخشنة التي حملتها الوديان الشرقية معها من جبال البحر الأحمر ومن مناطق النوبة ، وهي مدرجات تراوحت متوسطات ارتفاعاتها بين ٥٠ متراً ، و ٣٠٠ متراً ، و ١٧٠ متراً ، خلال العصر المطير الأول ، وبين عشرة أمتار ، وسبعة أمتار خلال العصر المطير الثاني (١٦) .

(ج) تكوين بحيرة ضخمة في منطقة الفيوم بلغت مساحتها قدر مساحة بحيرة قارون الحالية أربع عشرة مرة، وتراوح مستوى مائها بين أربعين متراً وثمانية عشر متراً فوق مستوى سطح البحر الحالي (١٧) .

HUZAYYIN, op. cit., 143, Table XII. (١٣)

H. J. FLEURE : الجماعة البدائية وأصول الأجناس - الفصل الخامس من تاريخ العالم (هامرتون) . (١٤)

A. KEITH, A New Theory of Human Discovery, London 1948; P. RIVET, L'Origine de l'Homme, 1954.

HUZAYYIN, op. cit., 70 f. (١٥)

Ibid. Table IX (١٦)

(١٧) أو بين ما هو أكثر من ٣٥ متراً وبين ٢٢ متراً . ولم يتأت هذا المنسوب للبحيرة عن طريق الأمطار وحدها ، وإنما عن طريق اتصالها بالنيل في بعض عصورها أيضاً . وتعتقد GARDNER بوجود منخفض الفيوم منذ بداية البلايستوسين بينما يعتقد ساندفورد ، وأركل أنه تكون خلال دهر البلايستوسين وليس قبله من Sandford & Arkel, op. cit., I, 70 f. in G.J. LXXIV, No. 6, 578 f. وأضاف ساندفورد وأركل أن مستويات البحيرة تعاقبت ارتفاعاتها خلال العصور الحجرية بما يوازي ٢٧٨ ، ٢٥٩ ، ٢٣٩ ، ٢٢٢ ، ٢٠٦ من الأقدام فوق مستواها الحالي (Ibid., 73)

(د) وجود بقاياها لكل حيوانات ضخمة متحجرة قديمة تألف كثرة الماء والنبات في رواسب عدة مناطق ، أصبحت الآن صحراوية شديدة الجفاف . وكانت هذه الحيوانات نوعين : نوعا أفريقيا ، ومنه الفيلة والجاموس الوحشي الكبير وأفراس النهر . ونوعا أوربيا أسويبا ، ومنه الأيائل والدببة . ولم تصل حيوانات النوعين إلى مصر وما حولها ، وتعيش فيها بطبيعة الحال إلا حين وجدتها ووجدت سبل الهجرة إليها وفيرة الأمطار والنباتات مناسبة المناخ (١٨) .

وتغيرت ظروف المناخ وأنواع النبات والحيوان تغيرا واسعا خلال فترتي الجفاف ، أي الفترة التي توسطت بين العصرين المطيرين ، والفترة التي أعقبتهما . جففت في الفترة الأولى وديان الصحراء الشرقية وانقطعت موارد النيل منها ، وجفت بحيرة الفيوم الواسعة أو جف معظمها .

وتكررت الظروف نفسها خلال فترة الجفاف الثانية ، ولكنها اتخذت مظهرا أشد وأعنف . فتحولت المناطق الداخلية إلى بيئات شبه صحراوية ، ثم انقلبت رويدا رويدا إلى صحراوات جدهاء شديدة الجفاف . وجفت وديان الصحراء الشرقية ، ولم يعد يصل وادي النيل من مواردها إلا ما تجرفه السيول القليلة في طريقها ، من الحصباء والرمال والطين الحشن . وقل معين ينابيع الواحات المصرية رويدا رويدا ، حتى جفت تماما ثم تجحرت ، واختفت آثار الحيوانات الضخمة التي اقترن وجودها القديم بوفرة النبات و غفابة الأمطار ، وحلت محلها حيوانات صحراوية صغيرة خفيفة الحركة (١٩) .

For discussion and references, see HUZAYYIN, op. cit., 60 f., 64 f., 72 f. (١٨)

Ibid., and Table IX (١٩) ويرى ساندفورد واركل أن الجفاف زحف من الجنوب الى الشمال وأنه كان بطيئا تدريجيا بحيث احتفظت الهضاب المصرية بالأحوال نصف الصحراوية زمنا طويلا .

(op. cit., II, 85-86 ; III, 125-126).

ب - بواكير النشاط البشرى فى الفجر الحجري :

بدأت الدراسات العلمية لحضارات ما قبل التاريخ منذ قرن ونصف قرن تقريباً . وصدرت هذه الدراسات أول ما صدرت عن غرب أوروبا . وترتب على ذلك أن أصبحت أغلب مصطلحاتها العلمية المعبرة عن مراحل التطور فى حضارات ما قبل التاريخ ومراحل التطور فى حياة أهلها ، مصطلحات أوروبية ، تطلق على آثار الحضارات المشابهة فى الشرق القديم والغرب القديم ، على حد سواء .

وتراوحت الآراء منذ القرن الماضى حول افتراض ما بين أربعة دهور ، وستة دهور حضارية عتيقة ، تطورت فيها تجارب أهل ما قبل التاريخ وأفكارهم وأدواتهم . واختلف كل دهر من هذه الدهور عن الآخر فى امتداده الزمنى ، وفى طاقته البشرية ، وفى ظروفه المناخية ، ولكن اختلافاتها لم تمنع الأثريين من أن ينسبوا أسماءها جميعاً الى لفظة ليثوس lithos اليونانية بمعنى حجر ، رغبة منهم فى الدليل على غلبة استخدام الأدوات الحجرية خلالها .

وتعاقبت الدهور الحضارية الحجرية المقترحة من الأقدم إلى الأحدث على النحو التالى :

الفجر الحجري أو الدهر الإي لبي Eolithic

الدهر الحجري القديم الأسفل Lower Palaeolithic

Middle Palaeolithic الأوسط « « «

Upper Palaeolithic الأعلى « « «

Mesolithic الوسيط « « «

« « « الحديث Neolithic - ويتضمن هذا الدهر الأخير فى خواتمه عصرًا متميزًا

يسمى العصر النحاسى الحجري Chalcolithic

واشدد جندل المؤرخين حزل الدهرين الأول والخامس من هذه الدهور ، أى الفجر الحجري ، والدهر الحجري الوسيط ، واعترف بوجودهما فريق دون فريق .

فاستشهد القائلون بوجود الفجر الحجري بقطع حجرية غليظة ، انتشرت فى مواطن الحياة البشرية العتيقة ، ولم يظهر على سطوحها من علامات الصناعة غير تكسرات خشنة أدت إلى تقليل سمكها ولى تشكيل جوازها ورؤوسها تشكيلا غير منتظم ، وأكدوا أن تكسراتها تم عن أقدم المحاولات التى بذلها البشر الأوائل للاستفادة من الأحجار الغفل التى وجدوها فى بيئاتهم واستخدموها فى أغراض الصيد

والدفاع عن النفس ، وأن محاولاتهم معها على الرغم من نظريتها وترددها هي التي مهدت السبيل لتطورها في الدهر الحجري الذي تلا دهرها (٢٠) .

وعثر G. Schweinfurth على مجموعة كبيرة من هذه الأحجار في مصر، لا سيما على سفوح مرتفعات الأتصر الغربية ، ونقل عددا منها إلى متحف الداهر (٢١) .

وأنكر المعترضون على تسمية « الفجر الحجري » وجوده ، تفسيرات أصحاب الرأي السابق ، ورجحوا أن الكسرات الخشنة في القطع السائنة الذكر ، تنجبت في أغلب أحوالها عن تأثير العوامل الطبيعية العادية مثل اندفاعات السيول واختلاف درجات الحرارة، أو نجت عن ثقل أقدام الحيوانات القديمة الضخمة التي كانت تطؤها عفواً ، أكثر مما نجت عن فعل يد الإنسان ، وأكدوا أن غياب التجانس بين كسراتها يدل على انعدام القصد في صناعتها ويحول بالنسبة إلى دهر خاص ذي حضارة حجرية متميزة أو صناعة حجرية مشتركة. وأضاف بعضهم أنه إذا وجدت مخلوقات شبه عاقلة في الدهر الذي نسبت إليه هذه الأحجار سواء أكان في أواخر الزمن الثالث أم في أوائل الزمن الرابع ، فهي مخلوقات أدعف في بنيتها من الإنسان الحالي ويصعب على أفرادها تشكيل أدوات حجرية كبيرة واستعمالها ، ولم يكن مثل هذا الاستعمال يتسرف في رأيهم إلا بعد ظهور أشباه البشر في أوائل دهر البلايستوسين أو فيما بعدها بقليل (٢٢) .

ولا زال المذهب السابقان متقابلين حتى الآن (٢٣) ، ويمكن الخروج من قرائنها بأن الإنسان الأول ، كان عليه أن يستعين حين نشأته الأولى في الدفاع عن نفسه، وفي صيد الحيوانات الصغيرة، وفي إسقاط النار، وفي اقتلاع جذور النبات، بما كانت تصل يده إليه عفواً ، وتهديه تجاربه إلى صلاحيته من عظام الحيوانات والأصداف وفروع الأشجار (٢٤) ، فضلاً عن قطع الأحجار التي تناسب قدرته سواء بما التها الذفل التي ييدها عينا، أو بعد أن يجبطها في الأرض الصلبة خبطة أو خبطات عشوائية سريعة، كلما عثر له أن يستخدمها في مطالبه الطارئة ، وذلك بغير أن يلتمز بتشابهها على شكل ثابت ودون أن

(٢٠) For references, see, O. MENGHIN, op. cit., 88.

(٢١) G. SCHWEINFURTH, "Steinzeitliche Forschungen in Oberägypten" in Zeit. f. Ethn. XXXVII, 798 f.; XXXVI, 766 f; also A. Rutot, in Bull. de la belge de géol. XIX 260 f; SELIGMAN, in Journal of Royal Anthrop. Inst. 1921, 115 f.; CURRELLY, Stone implements (Cat. Gen. du Musée du Caire) 1913, pl. I.

(٢٢) DE MARGAN, L'Humanité préhistorique, 35 f.; SANDFORD & ARKELL, op. cit. II, (1933) 15-17.

(٢٣) See for discussion and references: HUZAYYIN op. cit., 164-165.

(٢٤) عن احتمال الاستعانة بالأدوات الحجرية أكثر من الاعتماد على الأحجار في حضارات أولية قديمة: (٢٠) see, MENGHIN, op. cit., 89 f.

يحرص على الاحتفاظ بها لفترة طويلة ، ودون أن يهتم باستخدامها أكثر من مرة واحدة أو مرات متقاربة قليلة ، طالما ظلت قريبة منه وفي متناول يده .

وإذا كان لنا أن نستعين ببعض ما أتى به علم الأجناس ، فليس من شيء مؤكد حتى الآن عن ضعف الإنسان المبكر أو قدرته ، وكل ما يصوره المتخصصون لـ حتى الآن هي صفات يفترضونها في حيطة كبيرة لإنسان جاوة وإنسان الصين ، وهي صفات جمعت لكل منهما قائمة تميل إلى العصر ، وقدرة على الانتصاب مع ميل الرأس قليلا إلى الأمام ، واتساع في حجم المخ عن حجم مخ القردة العليا مع نقصه في الوقت ذاته عن حجم مخ الإنسان الحديث ، وتراجع الفك ، ووزن عظام احاجيبين وغلظها واتصالها ببعضها ، مع تطور الجهة من الضيق والتراجع الكبير شأن جباه القردة في إنسان جاوة إلى البروز الخفيف في إنسان الصين (٢٥) .

بيد أنه مهما يكن من ضعف الإنسان الأول أو قوته بالنسبة إلى حفيده الحالي ، فالصورة المحتملة التي يمكن تخيلها لحياته منذ سعى على الأرض ، هي أنه ظل ضعيفا إزاء بيئته ، وظل يخضع خضوعا قهريا لظاهرة البقاء للأقوى ، سواء في كفاحه مع غيره من بني جنسه أم في كفاحه مع حيوانات بيئته ، فقد ظل هؤلآ وهؤلآ ينازعونه المكان وينازعونه الطعام ، وكدن عليه أن يشق طريقه باستمرار في سبيل البحث عن الثمار واقتلاع جذور النباتات ، واقتناص الأسماك كلما استطاع ، وجمع القواقع من السواحل ، وملاحنة حيوانات الصيد المناسبة حيثما كانت ، فإذا سلم بنفسه واكتسب قرته آوى بصفاره إلى حمى الأشجار أو حمى الصخور ، وباتوا في العراء في الظروف العادية ، أو التجأوا إلى الكهوف في ظروف البرد والصقيع ، وليس لهم غطاء في الأغلب غير شعر البدن وأوراق الشجر ، ثم الجلود الكبيرة حينما تقدم بهم الزمن .

*
* *

ج - في الدهر الحجري القديم الأسفل (*) :

تعتبر أدوات الدهر الحجري القديم الأسفل ، أقدم لإنجاز يدوي اطمأن المارخون إلى توقيت الحضارات البشرية الأولية على أساسه، وقد استمرت هذه الأدوات بمظاهرها الرئيسية آلاف طويلة من السنين (٢٦) ، وتشابهت خصائصها الجوهرية في أغلب بقاع العالم القديم المسون ، وسار التطور فيها ببطء شديد ، وتميزت من مراحل تطورها في مصر ، ثلاث مراحل متداخلة متعاقبة طويلة ، نابت مراحل الحضارات الشالوسية ، والشيلية ، والأشولية ، في أوربا .

وبدأت الأدوات الأساسية في الحضارتين الشالوسية (أو ما قبل الشيلية) والشيلية ، بأداة بسيطة خشنة تسمى اصطلاحا باسم الفهر ، أو البلطة اليدوية (Hand - axe ; Coup de poing ; Faustkeil) وأفضلها عبارة عن زلطة غليظة من الطران (أو ما يقوم مقامه) ، كان الإنسان يحاول حين يتبرها أن تكون قاعدتها مناسبة لقبضة يده ، ويترك هذه القاعدة بشكلها الطبيعي ، ما دامت ملساء لا تؤذي كفه ، ثم يشكل قمتها وجوانبها بما يسمح له بأن يستخدمها في دفاعه عن نفسه ، وفي مواجهته لحيوان الصيد وتقطيع لحمه ، وتمشيم عظمه ، وساخ جلده ، وفي استخراج ما يستطيع أكله من جذور النبات ، وفي اقتلاع وتهذيب ما يود أن ينتفع به من فروع الشجر .

وظلت صناعة الفهر صناعة بسيطة لآماد طويلة ، وجرى الاصطلاح على تسميتها باسم صناعة النواة Core-industry للدلالة على أن أصحابها كانوا ينتفعون أساسا بنواة الحجر ، أي جملة الزلطة ، أو أضخم جزء منها ، دون أن ينتفعوا بالشظايا التي تتطاير منها حين تسكباها ، انتفاعا مقصودا لذاته (٢٧) .

وعلى الرغم من بساطة هذه الصناعة ، صناعة النواة ، أمكن التمييز بين مرحلتين طويلتين للتطور في أدواتها :

مرحلة بدائية اكتفى أصحابها بفصل شظايا غليظة مائلة من الأطراف العليا للزلطة ، بحيث كانت تبدو بعد تشكيلها على هيئة شبه مخروطية ، أو هيئة شبه هرمية ذات ثلاثة جوانب . وتلك هي

LOWER PALAEO LITHIC (*)

(٢٦) تراوحت نظريات الجيولوجين والجغرافيين في تقدير هذه الآلاف من السنين بين ٣٥٠ ألف سنة وبين ١٠٠ ألف سنة !! .

(٢٧) سميت الشظايا البدائية التي تخلقت عنهم باسم الشظايا الكلاكتونية - وعن مظاهرها راجع رزقانة : الآلات الحجرية - ص ٥٥ - ٥٦ ، ٥٨ - اشكال ٢١ - ٢٢

المرحلة التي أطلق عليها في بداية الأمر اسم مرحلة الصناعة الشالوسية ، ثم سميت بأسماء أخرى مثل ما قبل الشيلية ، والشيلية المبكرة ، والشيلية البدائية ... إلخ .

ثم مرحلة أخرى متطورة بعض الشيء ، حاول أصحابها أن يقللوا فيها سمك أدواتهم وأحجامها ، بحيث تبدو في نهاية أمرها ذات سطحين وحواف حادة . وهذه هي مرحلة الصناعة الأبيقيلية أو الشيلية ذات الوجهين (Bifacial) ، التي نسبت اصطلاحا إلى قرية Abbeville في شمال فرنسا ، وإلى ضاحية Chelles sur-Marne بالقرب من باريس تارة أخرى (٢٨) .

وعلى الرغم من فوارق التطور بين الصناعتين ، ظلت أدواتهما تتشابه في ثلاث صفات مشتركة ، وهي : قبة تنوعها ، وتعرض حوافها ، وبقاء جزء بير من القنطرة الحجرية الملساء على قواعدها .

وتعاقبت عد ذلك عصور طويلة ، تطوّر خلالها هل العالم القديم المسكون في مصر وغيرها ، بأحجام الأفهار وأشكلها ، وسمك أطرافها . فقللوا أحجامها ، ربما عن رغبة منهم في تيسير الاحتفاظ بأكبر عدد مناسب منها . ورققوا سمكها . وشذبوا أطرافها ، وجعلوها حادة قاضعة غير معرجة ، ربما لتيسير قذفها على مسافات بعيدة ، أو لتيسير تثبيتها في فروع الشجر القصيرة ، بحيث تؤدي أغراض أسنة المزاريق أو أسنة الحراب البدائية . ثم نسقوا هيئاتها ، وجعلوها تشبه هيئة البيضاوي الكامل .

ومنذ هذه المرحلة لم يعد الإنسان القديم يكفي بتشكيل أدواته الحجرية لأغراض خشنة طارئة مؤقتة ، وإنما أصبح يعبرها من متاعه الخاص ، وغدا يهذبها عن قصد ويطلع إلى ما يشبع ذوقه فيها ، ويحتمل أنه كان يستعين في تهذيبها بمطارق خاصة من الحجر أو الخشب الصلب ويستعين على تهذيب أطرافها بمدببات من العظام (٢٩) .

وخطا الإنسان خطوة أخرى ، وفطن إلى نفع الشظايا التي تتطاير من جوانب الفهريين صناعته ، فأصبح يدفع بها عن قصد بعد أن كان يهملها أو يقصر في استعمالها ، وغدا يفصلها عن نواة الحجر بعناية ، ويشكلها بأشكال مختلفة ، بحيث إذا حدد جانبيها استخدمها كالمدية ، وإذا حدد أحد جانبيها

(٢٨) عن صناعة النواة واختلاف فروعها - راجع رزقانة المرجع السابق ص ٥٠ - ٥٤ .

ومن الأشكال المعهودة للفهر ، الهيئة الكثرية بقاعدة كروية وطرف مدبب والهيئة البيضية بحيث يكون فيها اقرب الى الاستدارة في قاعدته وقمته ، وهيئة ذات قاعدة مستديرة وطرف طويل يشبه طرف الازميل .

(٢٩) مصطفى عامر ، تاريخ الحضارة المصرية - المجلد الاول - القاهرة ١٩٦٢ ص ٤٥ ، وراجع رزقانة المرجع السابق ص ٣٣

دون الآخر استخدمها مبشرا (Scraper) ينشر به الجلود . وإذا دبب أحد طرفيها استخدمها مثقابا أو مخرازا (Borer) . ولم يعد بذلك صانع نواة فحسب ، وإنما أصبح كذلك صانع شظايا أو أصبح في عرف العلم الحديث من اصحاب الحضارة الأشولية ، وهي الحضارة التي نسبت اصطلاحا إلى ضاحية (Saint Acheul) في وادي السوم بشمال فرنسا ، والتي احتسب لها (Abbé Breuil) عدة مراحل تطورية فـريعة تصل في رأيه إلى سبع مراحل (٣٠) .

وثمة ثلاث ظواهر تستوجب التعقيب فيما يتعلق بالدهر الحجري القديم الأسفل في مصر وأدواته وناسه ، وهي :

أولا — أنه عثر على أغلب الأدوات الشالوسية والشيلية والأشولية المصرية ، في مناطق متفرقة من سطوح الهضبتين الشرقية والغربية ، بينما عثر على أقلها على مدرجات رسوبية قديمة تحف بنهر النيل وفروعه وروافده القديمة ، وترتفع عن مستوى واديه الحالي بنحو ٣٠ مترا و ١٧ مترا على التوالي .

فعر عليها في الهضبة الشرقية في صحراء العباسية ومنطقة الجبل الأحمر وجبل المقطم والغابة المتحجرة وقرب جبل السلسلة في أقصى الصعيد وقرب أسوان ... إلخ .

وعثر عليها في الهضبة الغربية على سفوح مرتفعات الأقصر ، وفي الطرق البرية المؤدية من ضفاف النيل إلى أقاليم الواحات ... ، وفي كوم أو شيم وديمة ودهشور وقرب سقارة ... إلخ .

وعثر عليها كذلك في مدرجات وادي قنا ، وكوم امبو ، وبني عدى وسوهاج ... إلخ (٣١) .

أصبحت مناطق الهضبتين الشرقية والغربية ، جافة صحراوية ، كما هو معروف ، ولكن العثور فيها على المخلفات الشالوسية والشيلية والأشولية ، يرجح أنها لم تكن كذلك خلال الدهر الحجري القديم الأسفل ، ويرجح أنها كانت صالحة لنشاط الإنسان ، وانتشار الحيوان ، لاسيما في مناطق العيون الطبيعية وفي قيعان الوديان وحول المجارى المائية القصيرة ، خلال فترات طويلة رطبة معشبة ، هي فترات العصر المطير الأول فيما يرجح (٣٢) .

ويمكن تعاليل وجود القليل من الأدوات نفسها ، على مدرجى النيل ، بأحد فرضين ، وهما أن بعض أجزاء المدرجات القريبة من النيل كانت صالحة للإقامة والسكنى بالفعل ، وذلك على الرغم من

(٣٠) مثل الكلاكتونية المتطورة والتاياسية والميكوية والمسيينية .

(٣١) من نتائج أبحاث H. DE MORGAN; LEGRAIN; SCHWEINFURTH وبعثة كمال الدين حسين وما تلاها من أبحاث BOVIER-LAPIERRE, L'Egypte préhistorique, Le Caire, 1931, 23; في هذه المناطق ، راجع et dans Bul. Inst. d'Egypte XII, 125; see also, HUZAYYIN, op. cit. 151 f.; 187 f., 190; and E. MASSOULARD, Préhistoire et Protohistoire d'Egypte, Paris 1949, 9-11.

(٣٢) ويبدو ان الجماعات البشرية كانت تفضل سكنى المنحدرات والوديان التي تتجمع فيها مياه الامطار من سكنى المرتفعات نفسها . (cf. HUZAYYIN, op. cit. 179.)

أن ضفاف النيل كانت لا تزال في مجملها ذات طبيعة خشنة ، كثيفة الأجرح ، كثيرة المنافع . أو أن المصريين كانوا يضطرون إلى الالتجاء إلى هذه المدرجات اضطرارا من حين إلى آخر ، في إثر حيوانات الصيد التي تعيش فيها ، وخلال فترات قلة الأمطار ، لا سيما في نهاية العصر المطير الأول وأعقابه ، حتى إذا تم الصيد ، أو عاد المطر ، عادوا أدراجهم إلى مواطنهم المرتفعة فوق الانضاب ليكونوا على مبعده من أجرح النيل ومناقعه وبأمن من فيضاناته وحيواناته المائية الكبيرة (٣٣) .

ثانيا - أدي استخراج الرمال والحصى لأعمال البناء من سهل العباسية الصحراوى إلى النزول في طبقاته إلى عمق يتراوح بين خمسة وعشرين مترا وثلاثين مترا . واستغل هذا العنق كل من الباحثين T.C. Statham & P. Bovier-Lapierre ، فاتضح من دراستهما لمستوياته أن طبقاته السفلى التي يبلغ سمكها أكثر من عشرين مترا تكوّنت من رمال كثيفة ترسبت في منطقتها حين كانت لا تزال لسانا ممتدا من البحر المتوسط في أواخر دهر البليوسين وملت هذه الطبقات من مخلفات الإنسان وأدواته تماما . ثم تلتها طبقة من الرواسب النيلىة تراوح ارتفاعها بين ثمانية أمتار وعشرة أمتار حتى سطح السهل الحالى ، وتضمنت آثار الإنسان وأدوات الدهر الحجري القديم الأسفل متعاقبة من أسفل إلى أعلى ، فظهرت في جرنها الأسفل حصيات وأدوات شيلية بدائية كبيرة نوعا ذات هيئة مخروطية ، خلال طبقة يبلغ سمكها نحو خمسة أمتار ، وظهرت فوقها مختلطة مع بقايا قليلة منها أدوات أشولية مستوية الجوانب ارتفعت طبقتها إلى ما قبلها ديسمترات قليلة من سطح السهل .

ولم تكن أدوات سهل العباسية من مخلفات أهله الأوائل وحدهم ، وإنما انضافت إليها أدوات أخرى قديمة من الجرانيت والسماق (البروفير) والصخر البلورى والشب المتحجر، نقلها النيل وروافده القديمة من الصعيد ومنطقة البحر الأحمر وغابة المقطم وأدارها التيار معه مسافات طويلة وأكثت الدوامات المائية أطرافها الحادة وجعلتها أقرب إلى الانحناء والاستدارة (٣٤) .

ثالثا - تشابهت المظاهر العامة للأفهار الشالوسية والشيلية والأشولية في مصر وما أحاط بها من شمال أفريقيا وصحاريه الواسعة ، وما جاورها من مناطق غرب آسيا وشرق أفريقيا ، وما بعد عنها من مناطق غرب أوروبا وجنوب أفريقيا .

وذهب الباحثون في شأن هذا التشابه ثلاثة مذاهب : مذهبا أرجع أصحابه تشابه الأفهار في العالم القديم المسكون إلى تقارب وسائل التفكير البدأى القديم ، وتقارب وسائل الإنسان في استغلال

Huzayyin, op. cit., Ibid. 194. (٣٣)

P. BOVIER-LAPIERRE, "Le Paléolithique Stratifié des environs du Caire", dans l'Anthropologie, XXXV (٣٤)

(1925), 37-46; "Les gisements paléolithiques de la plaine de Atassié", dans Bull. Inst. d'Égypte

VIII (1926), 257-7.; SANDFORD and ARKEL, op. cit., IV, 95.

أقرب المواد الطبيعية إلى تناول يده في بيئته ، فضلا عن تشابه الأغراض التي كان يستخدم أدواتها فيها ومن أجلها . ومذهبا استبعد أصحابه أن يتأتى تشابه الأدوات عن مصادفة محضة ، وافترضوا لذلك وجود منطقة أصيلة للنواة (Kernel-Zone) تتركز فيها على صناعة الفهر وتطوروا به ثم هاجروا به منها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا في تحركات بطيئة متفرقة طويلة . ومذهبا وسطا جمع أصحابه بين الرأيين السابقين وافترضوا وجود عدة مناطق أصيلة نشطة تتركز فيها على صناعة النواة (Kernel Zones) دون افتراض منطقة أصيلة واحدة ، ثم اشتركوا مع أصحاب الرأي الثاني في افتراض شروط معينة كان ينبغي أن تتوفر للمناطق النواة الأصيلة ، ومنها أن تشمل مخلفاتها على كل مراحل التطور التي شهدتها حضارات الدهر القديم الأسفل ، وأن تتصف بموقع متوسط بالنسبة إلى أكبر عدد من مناطق العالم القديم الصالحة للسكنى ، وأن تتمتع بسطح منبسط لا يعرقل نشاط أهلها ، وأن تتميز بمداخل ومخارج طبيعية تسمح للهجرات البشرية والحيوانية بأن تنتقل منها وإليها بسهولة ، وأن تتمتع بموارد نباتية مناسبة وأحوال مناخية مناسبة تخفف وطأة العجز على إنسانها البدائي وتشجعه على الحركة والتفكير في تطوير حياته وأدواته .

و شاء حظ أفريقيا الشمالية أن تصبح في مقدمة المناطق الأصيلة المقترحة لصناعة النواة وتطويرها فقد انحصرت حلقات التطور الحجرية الكاملة فيها وفي غرب أوروبا دون بقية المناطق الأخرى . ثم تميزت من جانبها على غرب أوروبا في بقية الشروط الأخرى . بتيسر اتصالها بجنوب أوروبا وغربها ، فيما يعتقد الجغرافيون ، عن طريق معبرين قديمين ، معبر جبل طارق ، ومعبر كان يصل بين شمال تونس وبين صقلية و جنوب إيطاليا . وتيسر اتصالها ببقية القارة الأفريقية عن طريق الهضبة الوسطى المنبسطة التي كانت لا تزال تتمتع بنصيب من الأمطار والحشائش والنباتات ، وعن طريق ساحل البحر الأحمر . كما تميزت من جانبها بمناخ معتدل ، جنبها موجات البرد والجليد القاسية التي شهدتها أوروبا ، و جنبها ظروف الحر الشديد والرطوبة العالية التي شهدتها أغلب بقية المناطق الأفريقية الأخرى (٣٥) . أما اتصال هذه المنطقة بغرب آسيا وهو الاتصال الذي يخص مصر أكثر من غيرها عن طريق برزخ السويس ، فلا يزال موضع جدل حتى الآن (٣٦) .

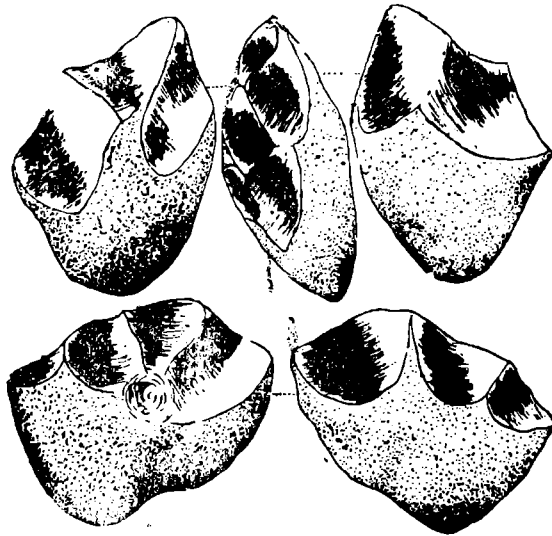
ومرة أخرى ليس من شيء مؤكد معروف عن الأجناس البشرية التي عاشت وتطورت خلال الدهر الحجري القديم الأسفل ، ولكن يذهب الاحتمال إلى أن سلالات جاوه والصين استمرت في تطورها وظهرت معها سلالات جديدة عبر عنها في أوروبا لإنسان هيدابرج الذي ظل يتصف باتساع عظمة الصدغ وقوة عضلات الرجة المتصلة بعمالية المضغ ، وغلظ الفك وتراجع من ناحية الذقن ،

(٣٥) of. HUZAYYIN, op. cit., 203. f, 172 f. - و ابراهيم زرقانة : في مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة

ثم بحججة كنت (أوسوانسكومب) وبحججة تل جالى فى انجلترا ، وقد عثر مع كل منهما على أدوات أشولية .

وذهب الاحتمال من جهة أخرى ، وهذا هو الأهم ، إلى أن بعض السلالات البشرية اهتدت فى أواخر هذا الدهر ، إلى طريقة إيقاد النار اهتداء عفويا ، واهتدت إلى استخدامها فى أغراض الدفئ وطهى اللحم ، وكان اهتداؤها إلى النار مبشرا بأول انقلاب فعال فى تاريخ البشرية ، انقلاب ارتفع الإنسان عنه طريقة عن مصاف آكلات اللحوم ، وأصبح أثر اطمئنانا على نفسه وعلى صفاره من قسوة البرد والصقيع ، سواء بات فى العراء أو بات فى الكهوف ، وأصبح أثر اطمئنانا إلى عدم فساد لحم صيده بسرعة ، ولم يتطلب فكه وأسنانه المجهود الذى كان يبذل فى أكل اللحم النيء .

وسواء بدأت معرفة إيقاد النار فى الشمال أم فى الجنوب ، وفى منطقة واحدة أم فى مناطق متعددة ، فقد كان أهل الشمال أثر حاجة إليها ، وأثر محافظة عليها لمواجهة البرد والصقيع فى بيئتهم .



شكل ٤ — حصاة من مهل العباسية (من فجر الحجر أو من الصناعة الشيلية البدائية)

د - في الدهر الحجري القديم الأوسط *

اتجه التطور الصناعي البدائي خلال هذا الدهر إلى الاستزادة من استخدام شظايا الطران وتنويعها مع قليل من الاستعانة بأشكال الفهر القديمة وتطويرها .

وكان أهل الدهر القديم الأسفل قد بدأوا الاستفادة من الشظايا منذ عهود الحضارة الأشولية كما أسلفنا وأرضاهم منها سهولة تشكيلها وسهولة الاحتفاظ بها وسهولة التنويع في هيئاتها وأغراضها ، فقلدهم أحقادهم فيما بدأوا به وزادوا عليه وبلغ من حدتهم في صناعة أدواتهم أنهم أصبحوا يحددون هيئة الشظية على نواة الحجر ثم يفصلونها عنها بضربة واحدة حادة سريعة ، أو يسددون سنا صلبة مديبة في زاوية من زوايا النواة ويضغطون عليها حتى تنفصل الشظية المطلوبة . ولا زالت شواهد الطريقتين واضحة في صناعات بعض الجماعات البدائية المعاصرة^(٧) .

نسبت أدوات هذا الدهر بوجه عام إلى كهف (Moustier) في حوض الدردن بفرنسا ، وسميت صناعتها اصطلاحا باسم الصناعة الموستيرية . ويذهب الظن إلى أن مراحلها الأولى بدأت في منطقة واسعة من منطقة الاستبس الأوراسية القديمة التي اختلط فيها أهل أوربا بأهل آسيا . ثم نشرها أصحابها على دفعات متلاحقة بطيئة طويلة إلى بقية المناطق المسكونة في العالم القديم^(٣٨) .

ومن المحتمل أن تكون مصر قد عرفت الصناعة الموستيرية بخصائصها العامة في أوائل دهرها القديم الأوسط وأخذت بها^(٣٩) ، ولكننا حاولت بعد أمدم أن تبدأ تخصصها الحضاري بخطى متواضعة ، فنهجت نهجا إقليمي في صناعة شظاياها ، وهو نهج ظرله شبيه بعيد في ضاحية (Levallois Parret) بالقرب من باريس فأطلق H. Breuil اسمها عليه تجاوزا ، وسمى صناعته باسم « الصناعة الليفلوازية المصرية »^(٤٠) .

(٣٨) MIDDLE PALAEOLITHIC - وبداه Peake بما قبل ١٣ ألف سنة ، وبداه A. Keith بما قبل ٢٠ ألف سنة ، وذكر رزقانة بدايته بما قبل ٢٥٠ ألف سنة //

(٣٧) عن الوسائل المحتملة لصناعة الشظايا - راجع رزقانة : المرجع السابق ص ٥٨ ، ٦٢ ، ٦٦

(٣٨) see HUZAYYIN, op. cit., 217 f., 225, 227 and notes.

(٣٩) E. VIGNARD, in B.I.F.A.O., XX 66; MASSOULARD, op. cit., 13, 14.

وقل حزين من مدى تأثر مصر بالصناعات الموستيرية وكاد ينفيه

HUZAYYIN, "Some New Light on the Egyptian Civilization" in Bul. Soc. de Géogr. d'Égypte XX, 210-212

(٤٠) H. BREUIL, l'Afrique préhistorique, 1931, 71; MASSOULARD, op. cit., 13.

وشاعت في الصناعة المصرية نصال طويلة ضيقة Blades ، وأدوات فهرية ضخمة نوعاً مستوية الوجه محدبة الظهر تشبه ظهر السلحفاة ، أعدها أصحابها بشكلها الخاص ليفصلوا شظايا مستوية منها وربما استخدموها في بعض عمليات الدق أيضاً (٤١) .

وتمثلت الفوارق الرئيسية بين المستيرية العامة وبين الليفلوازية المصرية ، في أن أصحاب المستيرية العامة اعتادوا على شطف جوانب أدواتهم وتهذيبها دون كبير اهتمام بتهذيب سطوحها ، على حين اهتم المصريون في صناعتهم الليفلوازية بتسوية سطوح أدواتهم ، وتخليصها تماماً من قشورها الطبيعية ، وشكلوا رؤوسها بما اتفق مع أغراضهم منها ولم يبذلوا غير جهد قليل في شطف جوانبها وتهذيبها (٤٢) .

ويفترض حزين من العوامل التي منعت الصناعة المستيرية من أن تغطي على الصناعة الليفلوازية المصرية أن أصحابها الذين نزلوا بها من مواطنهم الأوربية آسيوية وبلغوا بها غرب آسيا وجدوا من ظروف المناخ الرطب في منطقة فلسطين ما شجعهم على الإقامة فيها ولم يضطروهم إلى تجاوزها إلى وادي النيل، وكان في ذلك ماسح للصناعة المصرية بأن تسلك طريقها الخاص دون تدخل خارجي كبير (٤٣) .

وجدت أغلب الأدوات المصرية الباقية من الدهر القديم الأوسط على سطوح الهضاب وجوانب الوديان عارية على السطوح، إلا حيث تراكت المواد الرسوبية فوقها وغطت عليها ، وعثر عليها في أغلب المناطق التي شغلها حضارات الدهر القديم الأسفل قبلها . فوجدت مختلطة بها في زوايا متفرقة من محاجر الجبل الأحمر ومحاجر « أبو النور » في نجح حمادى (٤٤) . ويمكن أن يستنتج من اختلاطهما في هذين الحجرين (ولابد أنه كانت هناك محاجر مختلطة أخرى غيرها) أكثر من فرض واحد، فقد يدل اختلاطهما على صلاحية المناطق القريبة من الحجرين لاستقرار تجمعات مناسبة من السكان خلال العصور المتقاربة من الدهرين واستجابة أولئك السكان للاستقرار طالما توفرت لهم بعض أسبابه . أو يدل على بداية اهتمام أهل الدهرين باختيار مناطق معينة يتوازر فيها الحجر الجيد ويسهل قطعه منها أو العثور عليه فيها ، والتجاءهم إليها كلما مروا بها أو عادوا من تجوالهم إليها بين حين وآخر . أو يدل على راية الاحتراف الصناعي بين المصريين ، أى احتراف بعض الأفراد لعملية انتقاء القطع الحجرية المناسبة وتشغيلها على هيئة أسلحة وأدوات ، ثم المبادلة بها بثمرة أو جلد حيوان . أو هو يدل أخيراً على استمرار صناعة الدهر القديم الأسفل مع صناعة الدهر القديم الأوسط في آن واحد . وكل فرض من هذه الفروض مقبول محتمل .

SELIGMAN, op. cit., 129; MASSOULARD, op. cit., 46, pl. III, 5; VIGNARD, op. cit., pl. X, XV; HUZAYYIN, (٤١)
The place of Egypt, pl. IX, 2,

وتختلف النصال (blades = lames) عن الشظايا (flakes = éclats) بطولها وقلة عرضها وقلة سمكها .

Ibid., 221-222; MASSOULARD, op. cit., 14. (٤٢)

HUZAYYIN, *Some New Light*, 210-211. (٤٣)

VIGNARD, dans B.I.F.A.O. XXII, 39f. (٤٤)

ووجدت أدوات من الدهر القديم الأوسط تالفة لأدوات الدهر القديم الأعلى على سطح الأرض في طبقات سهل العباسية، وذلك مما يعنى تعاقب عصرهما (٤٥) .

ووجدت منفصلة عنها وقريبة منها على سفوح مرتفعات طيبة وطرق الواحات ، وعلى سطوح مناطق متفرقة من الصحراء الشرقية في الصعيد ومصر الوسطى (٤٦) . ودل توزيعها في هذه المناطق جميعها على أن حضاراتها عاصرت في بعض مراحلها إن لم يكن في مراحلها كلها عصرا مطيرا كثير العشب والنبات شابه العصر المطير الأول في بعض أمره ، وسمح لأهلها وحيوان صيدها بالمعيشة والتجول في مناطق أصبحت الآن صحراوية جافة تصعب الإقامة المستمرة فيها ، وكان ذلك العصر هو العصر المطير الثانى .

وعلى نحو ما حدث في الدهر القديم الأسفل ظلت ضفاف النيل تجذب إليها بعض سكان الهضاب من حين الى حين، ولسبب أو أكثر من سبب . فعثر على أدواتهم الليثلوازية في مناطق متفرقة من الضفاف القديمة في الصعيد ومصر الوسطى وعلى سطوح مدرجين يرتفعان عن مستوى السهل الحالى بعشرة أمتار وثلاثة أمتار على التوالى (٤٧) .

*
* *

كان صاحب النشاط الحضارى في الدهر الحجري القديم الأوسط من جنس الإنسان النياندرتى (نسبة إلى وادى نياندر بألمانيا)، وهو جنس صورته بقاياها كاله جسم ممثلى علم يكتدل انتصاب قامته، ورأس كبيرة تميل قليلا إلى الأمام ، وجمجمة ضخمة عريضة سميكة العظام، وحاجبين شديدي التقوس سميكي العظام، ونك ضخم بارز، ولكنها ميزته على الرغم من ذلك بتناسق أطرافه تناسقا نسبيا واتساع حجم مخه اتساعا زاد أحيانا عن متوسط حجم مخ الإنسان الحالى . ووجدت بقايا هذا الجنس حيثما وجدت الأدوات المoustيرية في غرب أوروبا (فيما خلا الجزر البريطانية) وجنوب سيبيريا وفلسطين وشمال أفريقيا وظهرت له سلالات عدة تنوعت خصائصها المحلية باتساع انتشارها في القارات الثلاث القديمة .

وأباحت الظروف الأوروبية الباردة أهلنا خلال هذا الدهر الى سكنى الكهوف الكبيرة ، فاعتادوا في ظل حياة الجماعة فيها على عادات جديدة ، مثل عادة دفن الموتى في أركان قبية منها ، وعادة التدرج بالجلود لانتقاء الصقيع ، فضلا عن زيادة الانتفاع بالنار لإنضاج الطعام وافتاء الزمهرير ، وقد عثر في كهوفهم على كثير من رماد الوقود (٤٨) .

(٤٥) BOVIER-LAPIERRE, dans B. I. d'Egypte VIII, fig. 8.

B. I. d'Egypte XII, 125 f; XVI, 127 f; Man 1931, 77 f; Mitt. Kairo, I, 3 f., II, 39 f; VANDLER, (٤٦) op. cit., 41 f.

SANDFORD & ARKELL, op. cit., 114-115, Figs 25, 29, 38f. (٤٧)

(٤٨) راجع كذلك : ابراهيم رزقانة : الانثروبولوجيا - ص ٢٤ - ٢٣

هـ - في الدهر الحجري القديم الأعلى^(٤٩):

كان إنسان الدهر الحجري القديم الأعلى هو الإنسان العاقل (Homo Sapiens) جد الإنسان الحالي^(٥٠)، وظهرت في بقايا هياكله المصرية المتأخرة التي عثر عليها في منطقة قنا وقاوا الكبير وكوم أمبو، وجوه شبه جنسية قريبة من خصائص الهياكل المصرية التي تختلفت من عصر ما قبل الأسرات في الألف الرابع ق. م^(٥١)، وذلك مما يعني استمرار العمران والاتصال الجنسي في مصر بين العصرين .

وعاشت جماعات هذا الإنسان في ظروف مناخية تختلفت في بعض أمرها عن الظروف التي عاش فيها أسلافه . فعلى حين احتفظت العهود الأولى من الدهر الذي عاشوا فيه بنصيب من الرطوبة الخفيفة وقليل من الأمطار في أواخر العصر المطير الثاني، بدأ الجفاف يزحف بعدها على العروض الوسطى ويبدأ ويبدأ بما لم يكن يزحف به عليها من قبل ، ثم اشتد وأحال مناطق واسعة من أفريقيا الشمالية وآسيا الغربية إلى أشباه صحراوات وصحراوات فقيرة .

وترتب على هذا التطور المناخي أن قنت موارد الماء وقلت النباتات البرية إلا حيث توفرت الجبارى المائية التي تتلقى معينها من مناطق بعيدة كثيرة الأمطار ، وقلت أنواع الحيوانات التي ألفت غزارة الأمطار وكثافة النباتات ، وحلت محلها حيوانات أخرى خفيفة الحركة سريعة العدو تتحمل الجفاف وتوابعه .

وبدأت الصناعة الحجرية المصرية في هذا الدهر على صلة قريبة بالصناعة الليفلوازية السابقة لها واتصفت بأنها إقليمية مثلها^(٥٢) ، ثم اتجهت بخطى بطيئة متلاحقة في تطورها الطبيعي نحو تنويع أدواتها وتقليل أحجامها ، فبدأت بأدوات تسمى اصطلاحا باسم الأدوات الليفلوازية المتواضعة أو المتضائلة (Diminutive Levalloisian)^(٥٣) ثم انتهت بأدوات ضئيلة بسيطة تسمى اصطلاحا باسم الأدوات القزمية (Microlithic) .

(٤٩) UPPER PALAEOLITHIC - تراوحت النظريات في تعيين بدايته بما بين ١١٠٠٠ ق. م وبين ١٥٠٠٠ ق. م.

(٥٠) هناك احتمال بوجود سلالات الإنسان العاقل منذ المصور التي وجدت فيها سلالات نياندرتال لولا أنها ظلت مستضعفة بجانبها ، وثمة احتمال آخر بانحدارهما مما من إنسان جاوة القديم !
for references, see HUZAYYIN, op. cit., 272.

(٥١) SANDFORD & ARKELL, op. cit., III, (1934), 86.

(٥٢) عن اتساع الفروق التفصيلية بينها وبين الصناعات الحجرية في بقية العالم القديم المسكون المعاصر لها ، راجع HUZAYYIN, "Some New Light..." 211.

(٥٣) يرى حزين أن هذه المرحلة بدأت منذ أواخر الدهر الحجري القديم الأوسط (Ibid., 208 and Plate I.)

وظهرت للأدوات المصرية في هذا الدهر ثلاثة مراكز إقليمية تمايزت فيها خصائص الصناعة الليثولوازية المصغرة وما تفرع عنها ، وهي : منطقة تركر عرانا في حوض كوم أمبو بالصعيد وسميت أدواتها باسم الأدوات السبيلية نسبة إلى قرية سبيل القريبة من مدينة كوم أمبو الحالية . ومنطقة شمالت الواحة الخارجة وانتشرت صناعتها فيما يليها من المنطقة الممتدة إلى قنا وما حولها . ثم منطقة نالته انتشرت صناعتها في شمال مصر الوسطى وأطراف الدلتا (٥٤) .

وظلت أدوات الصناعة السبيلية أكثر تطورا مما عداها ومرت في تطورين أو ثلاثة تطورات (٥٥) . وكثرت فيها أدوات شكلها أصحابها على هيئة الأقراص وشطفوا سطوحها من جهتين متقابلتين ، وأدوات أزال أصحابها منها منطقة البصلة وجدعوا قواعدها وشذبوها لتصبح شبه مسقمية عوضا عن استدارتها القديمة ، وقطعوا جوانبها قطعاً مائلاً لتصبح أقل عرضة للكسر والتآكل حين استعمالها (٥٦) .

واستمر أهل كوم أمبو في تطويرهم لصناعة الشظايا إلى جانب صناعة النواة القديمة ، حتى بلغوا بها مرحلتها القزمية وأشاعوا فيها أشكلاً شبه هندسية تشبه المثلثات والأهلة وأشباه المنحرف ، وأشاعوا فيها مناخات قزمية رقيقة صغيرة micro-burins وبلغ إنتاجهم من هذه المناخات حداً من الكثرة شجع مكتشفها Ed. Vignard على أن يعتبرها أصلاً لصناعة المناخات القزمية في العالم القديم المسكون كله (٥٧) . وقد كانت هذه المناخات تستخدم في تشكيل الأدوات الصغيرة من العظام والقرون ، فضلاً عن استخدامها فيما يؤدي أغراض المخارز والمكاشط .

وليس من اليسير تحديد الدوافع التي وجهت أهل الدهر الحجري القديم الأعلى إلى تصغير أدواتهم إلى حد القزمية ولا تحديد الأغراض التي استخدموها من أجلها ، فقد تراوحت أطوال هذه الأدوات بين سنتيمترين وعشرة سنتيمترات ، وكل ما يمكن تقديمه عنها هو استعراض عدد من الفروض المحتملة

ED. VIGNARD, "Une Nouvelle industrie lithique : le Sébilien", in B.I.F.A., XX, 1 f.; XXV, 200 f; (٥٤)
CATON-THOMPSON, in Mar 1932, No. 158, 129 f; CATON & GARDNER, in G.J., LXXX (1932), 193 f;
H. ZAYYIN, op. cit., 210, 211 ; The Plece of Egypt, 261 f.

(٥٥) VIGNARD, op. cit., 66 f.; MASSOULARD, op. cit., 18 f. لوحظت كثرة الأدوات المصنوعة من الديوريت ، والكوارتز في مرحلة التطور الأولى ، وكثرة الشظايا فيها دون النصال لصعوبة فصل نصل طويل من الديوريت ، ثم زادت أدوات الظراف والنصال خلال المرحلتين الثانية والثالثة .
ورأى ساندفورد وأركل من دراستهما لرواسب المنطقة أنه فصل بين المرحلتين الثانية والثالثة زمن طويل (op. cit., II, 84).

VIGNARD, op. cit., pl. XVI, 10-16, XX, 15, 21. (٥٦)

VIGNARD, "Les Microburines Tradenoisiens du Sébilien Fabrication, Explois. Origine du Microburin", (٥٧)
dans Congrès Préhistorique de France, 1934, 66 f., 100 f. ورأى شارف ومنجن أن السبيلية تأثرت بالقفصية في شمال إفريقيا (SCHARFF, Grundzüge, 15; MENGHIN, Weltgeschichte, 34, 174) ولكن
R. VAUFREY اعتبر السبيلية أسبق من القفصية وقد تكون أصلاً لها (in L'Anthropology 1933, 481f)

بشأنها ، ومن هذه الفروض أن الأدوات التي وضعت آثار الصناعة المقصودة فيها كانت تثبت في أيد خشبية وتستخدم قواطع ومخارز ، كما تستخدم لاستخراج المواد الطرية من داخل القواقع ، وتستخدم استخدام رؤوس النبال ، أو تستخدم لتحديد رؤوس السهام ، وأن القطع التي لم تتضح آثار الصناعة المقصودة فيها لم ترد عن كونها مجرد نفايات تخلقت عن صنع أدوات أكبر منها . ثم فرض آخر اعتقد فيه Vignard مكتشف الأدوات السبيلية أن ظهور الأدوات القزمية في مصر ، ارتبط بتغير المناخ فيها نحو الجفاف منذ أواخر العصر المطير الثاني وتغير مطالب الحياة وأنواع حيوانات الصيد تبعا لذلك (٥٨) .

وظهرت ضمن مخلفات السبيليين أحجار مسطحة سمكية اعتقد Vignard أنها كانت مراحي استخدمها أصحابها في جرش الحبوب البرية بعد أن فطنوا إلى قيمتها الغذائية وعرفوا طريقة الاستفادة منها (٥٩) . واختلفت عن هذه الأحجار السمكية ، أحجار سبيلية أخرى مسطحة صغيرة حفرت في سطوحها دوائر خشنة صغيرة ، وترسبت في بعض هذه الدوائر آثار لون أحمر ، وذلك مما دعا Vignard إلى الظن بأن أصحابها استخدموها في صنع المغرة الحمراء وغيرها من الأحجار الملونة واستخدموا مساحيقها في أغراض يصعب تحديدها بالدقة حتى الآن . وتبقى من مخلفات الحضارة السبيلية شيء آخر لم يتعمده أصحابها عمدا ، ولم يحسنوا الاستفادة به إلا بعد آمامد طويلة ، فقد تركت مواقعهم تحتها رقائق من الطين الصلب المحروق ، وأصبحت هذه الرقائق الصلبة من الأسباب المباشرة التي وجهت خلفاءهم إلى صناعة الفخار من طين الأرض بعد حرقه (٦١) .

يرى الجغرافيون أنه يسر لأصحاب الصناعة السبيلية الإقامة الطويلة في إقليم كوم أمبو على الرغم من جفاف المناخ التدريجي حوله ، أن النيل شهد ارتفاعا كبيرا في منسوب مائه في أوائل الدهر الحجري القديم الأعلى وانتشرت فيضاناته على مساحات واسعة من أرضهم على هيئة برك ومناقع دلت عليها كثرة بقايا أفراس النهر والأسماك في مخلفاتهم . ولاكنهم اضطروا إلى الهجرة من إقليمهم في أواخر الدهر نفسه لعاملين وهما : نشاط النيل في تعميق مجراه وانصراف مياه البحيرات التي كانت تغطي أرضهم إلى قاعه ، ثم ازدياد الجفاف العام في المناخ وهجرة الحيوانات التي تألف كثرة الماء إلى الأقاليم المطيرة في السودان من ناحية ، وفي أوروبا من ناحية أخرى . وهنا أضاف Vignard أن السبيليين اضطروا إلى الهجرة من جفاف أرضهم وجفاف مناخهم في إثر حيوانات الصيد إلى الشمال والجنوب ونشروا صناعاتهم ،

VIGNARD, dans B.I.F.A., XX, 70-71 and 25 f., 57 f. MASSOULARD, op. cit., 19. (٥٨)

Ibid., 56, 65 (٦١)

Ibid., 24-25 (٦٠)

VIGNARD, op. cit., 24 (٥٩)

والمحتمات القزمية منها خاصة ، حيثما حلوا في جهات شتى من أفريقيا وآسيا بل وأوروبا أيضا ، فيما يشغل أواخر الدهر القديم الأعلى المصرى وفي أعقابه (٦٢) وقد لا يستقيم رأى Vignard ولا يبرأ من مبالغة لا تبرأ منها آراء أى مكتشف آخر لحضارة جديدة ، ولكنه يكفى للدلالة على تقديره لأهمية صناعة السبيلين .

وسلكت حلقات التطور في منطقة الواحة الخارجة وما امتد منها إلى أجزاء الوادى في شمال الصعيد وجنوب مصر الوسطى ، اتجاهات تختلف بعض الشيء عن الاتجاهات السبيلية ، فبدأت بأدوات تسمى اصطلاحاً باسم ليلوازية الخارجة ، وكانت فيما يدل عليه اسمها أكثر ارتباطا من الأدوات السبيلية بخصائص أدوات الدهر القديم الأوسط ، وسميت تبعا لذلك باسمير آخزين هما : شبه الليفوازية - epi-Leval-loisian ، وما قبل السبيلية Pre-Sebylian (٦٣) .

ونزلت الواحة الخارجة هجرات أفريقية شمالية متتابعة أشاعت فيها ثلاث صناعات حجرية جديدة هي : السبيلية والعاطرية والقفصية . وامتازت الصناعة السبيلية بنصال مسطحة ذات وجهين وامتازت العاطرية - التى نسبت إلى دير العاطر في شمال أفريقيا - بأدوات مدببة ذات ألسنة كان أصحابها يثبتونها في عصي قصيرة ويستخدمون بعضها فيما يملأ رؤوسا للسهام ، وأدوات شكلها أصحابها على هيئة ورق الصفصاف (٦٤) . أما الصناعة الثالثة وهى الصناعة القفصية Capsian (نسبة إلى قفصة في إقليم قسطلية شمال شط البحر يد بتونس) فعدت ذات تأثير واسع في شمال أفريقيا كله ، وميزتها نصال رفيعة ذات هيئة شبه منحرفة ، وأدوات قزمية ذات أشكال شبه هندسية . وكان أصحاب هذه الصناعة يستخدمون بيض النعام استخدام الأواني ويزينونه أحيانا برسوم وخطوش تخطيطية تشبه الأشكال الهندسية (٦٥) .

(٦٢) VIGNARD, in Congrès Préh. du France, 1934. ويرى حزين احتمال نزوح السبيلين مع اشتداد الجفاف مع النيل جنوبا في اتجاه وادى حلفا (The Place of Eg., 263, 264). ولو أن ساندفور وركل يعتقدان أن الحفاف بدأ من الجنوب وجعل الاستيطان بأرض النوبة من الصعوبة يمكن (op. cit., I, 84).

(٦٣) يعتقد حزين أن هذه البداية اقتصر على منطقة الواحة الخارجة ولم تستمر في تطورها ، وذلك مما يعنى وقوعها تحت ضغط صناعة دخيلة جديدة (op. cit., 265 f.) وعلى العكس من ذلك رأت كيتون طومسون أن الأدوات شبه الليفوازية ظهرت في الواحة الخارجة كمرحلة من مراحل التدهور المحلى بعد وفود صناعتين دحيلتين عليها وهما الصناعة العاطرية والصناعة السبيلية (in Man 1931, 77 f; 1932, 130 f)

(٦٤) HUZAYYIN, op. cit., pl. XIII. يحتمل نزوح بعض أصحاب الصناعة العاطرية من شمال أفريقيا إلى إسبانيا ، حيث انتشرت صناعتهم منها إلى فرنسا وأصبحت أساسا للصناعة السولترية ، بينما نزح بعضهم الآخر إلى الشرق وبلغوا الواحات المصرية وأشاعوا أدواتهم فيها على حساب صناعاتها القديمة . (see VANDIER, Manuel, I, 42.)

واعتقد بعض الباحثين باستمرار مظاهر الحضارة القفصية القديمة بين جماعات البوشمن الحاليين الذين ازوروا في صحراء كلها رى بعد أن هاجر بها اليهم فرع من القفصيين القدماء واسقروا بينهم وعجزوا عن التطور منها إلى ما هو أرقى منها، واعتمد أصحاب هذا الرأى فى رأهم على تشابه الخصائص الجنسية بين البوشمن الحاليين وبين الهياكل البشرية القفصية القديمة ، وهى خصائص سلكتهم جميعا فى صفوف المنقرضين (Pygmoids) ، وشيوع أدوات حجرية قزمية تشبه الأدوات القفصية بين البوشمن المعاصرين ، ثم تشابه رسوم البوشمن ونقوشهم مع الرسوم القفصية القديمة التى صورها أصحابها على صخور شمال أفريقيا ، وهى رسوم ونقوش تكشف — رغم بدائها — عن تمتع أصحابها بالاطالة بالغة الدقة حين تصوير حركة الحيوان ولفاته (٦٦) .

انتشرت الصناعة النائية لحضارة الدهر القديم الأعلى فى مصر فى نواحي الفيوم والحيزة وأطراف الدلتا حول عيون حلوان ووادى الطميلات ووادى العنجبية (جنوب طريق القاهرة — السويس) . وظلت أدوات هذه الصناعة أقل تطورا وأشد اتصالا بحضارة الدهر القديم الأوسط من أدوات الصعيد، من حيث صناعتها ومن حيث تنوع أشكالها، وكثرت النصال بين أدواتها عنها فى الصعيد حيث كثرت الشظايا . وتأثرت بدورها بالحضارة القفصية ولكن كانت لها صلات أخرى بالحضارة الناطوية الفلسطينية (نسبة إلى غار الناطوف بجبل الكرمل)، وظهر من قرائن هذه الصلات اشتراك المنطقتين فى صناعة أهلة حجرية صغيرة مشدبة من وجهيها، وصناعة مكاشط رقيقة تشبه هيئة الصدفة أو المروحة (٦٧) .

عاصرت الحضارات المصرية فى الدهر القديم الأعلى خمسة وجوه حضارية فى أوربا ، وهى الشاتلرونية (Chatelperronian) والأورينياسية (Aurignacian) والحراثيتية (Gravettian) والسولترية (Solutrean) والمجدلينية (Magdalenian)، واختلفت كل منها عن الأخرى فى مدى أصالتها ومدى استمرارها ومدى التنوع والتطور فى أدواتها ، ولكن جمع بينها أنها اعتمدت على النصال بأنواعها أكثر مما اعتمدت على الشظايا (٦٨)، على عكس الصناعة السبيلية المصرية التى اعتمدت على الشظايا بأنواعها أكثر مما اعتمدت على النصال، وامتد الزمن بها أطول مما امتد بالحضارات المصرية الحجرية التى تحولت عن طريق الصيد إلى طريق أخرى جديدة وهى طريق الزراعة .

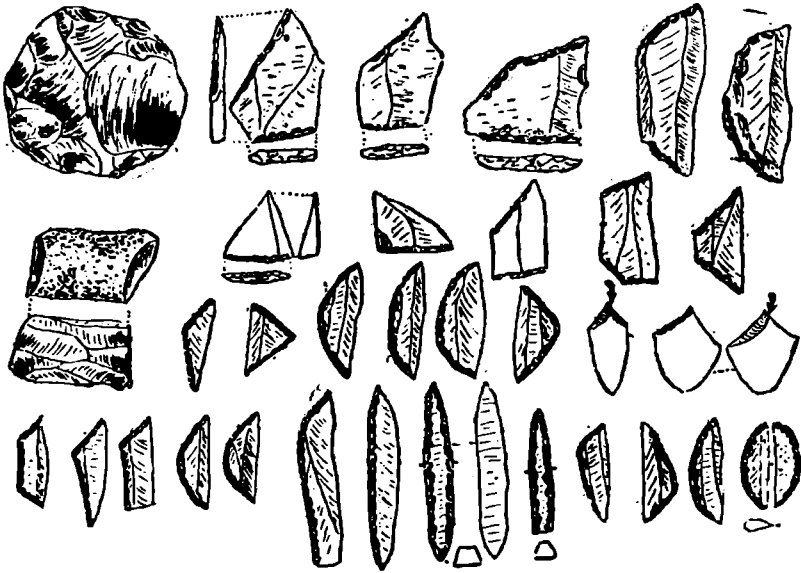
(٦٦) ولو أنه من المحتمل أن ترجع الرسوم القفصية فى شمال أفريقيا إلى ما يوازى العصر الحجرى الحديث فى مصر وليس إلى الدهر القديم الأعلى (see, HUZAYYIN, op. cit., 277 f. and references.)

(٦٧) Ibid., 257 f., 289 f. pl. XII, 45, XVII, 17;

cf. A.D.E. GARBOD, "The Natufian of Palestine" in T.R.A.I., LXII, 257 f.; in Antiquity VIII, 133 f; GARBOD and BATE, Palestine Caves, 137. ولا يستبعد حين أن تكون منطقة شمال شرق مصر هى المؤثرة فى الصناعة الناطوية وليس العكس (Some New Light, 225).

(٦٨) راجع من تفاصيل الصناعات الحجرية فيها : إبراهيم زقانة : المرجع السابق ٨٨ - ٩٣ .

وامتازت الحضارات الأوربية في عهودها الطويلة بكثرة أدواتها من العظام والقرون، وبصناعة تماثيل نسوية بدائية من العظم والحجر، وامتاز أهل المواهب الفنية فيها بمقدرة ملحوظة في نقش ورسم صور الحيوانات ومناظر الصيد بألوان عدة، على جدران المغاور الكبيرة، وكانت بعض هذه الجدران جدراناً داخلية مختفية أو منزوية قليلة الضوء^(٦٩)، وذلك مما دعا مؤرخي الفنون إلى ربط رسومها بطقوس فطرية كان أصحابها يمارسونها أمامها ويتمنون معها أن تساعدهم على نجاح الصيد بسهولة. واختلفت مواضع هذه الرسوم عن رسوم شمال أفريقيا وما امتد منها إلى شرق أسبانيا (دون شمالها)، فقد رسمت هذه الأخيرة على سفوح صخرية ظاهرة فوق سطح الأرض، ربما لاعتدال مناخ بيئتها وعدم اضطراب أهلها إلى سكنى المغاور في جوف الجبال.



شكل ٥ — أدوات قزمية سيلبية (مناحت وأقراص وأهلة...)

و - في الدهر الحجري الوسيط :

اعترف بالدهر الحجري الوسيط فريق من الباحثين دون فريق ، ونسب إليه القائلون بوجوده في غرب أوروبا بقايا الحضارات الأزليّة والكهنيّة والناردنوازية (٧٠) ، وكان ممن اعترفوا بوجوده في مصر A. Scharff & Baumgärtel ، بناء على أدوات حجرية متميزة عثر عليها Seton-Karr في مجموعتين بمنطقة وادي الشيخ شرق مغاغة (٧١) .

واختلفت هيئات هذه الأدوات وخصائص صناعتها اختلافا واسعا عن هيئات وخصائص الأدوات القزمية والأفهار الصغيرة التي شاعت في الدهر الحجري القديم الأعلى ، فهي ضخمة بعض الشيء ، بعضها خشن الصناعة إلى حد كبير ، وبعضها يتألف من جزئين (؟) أو هكذا عثر عليه ، ويحتمل أنه كان يستخدم على هيئة بلطة ذات حدين (؟) ، ورأى ألكسندر شارف أن أصحابها استخدموها في قطع الأشجار التي جف عودها وأصبحت عديمة الجدوى خلال الظروف الصحراوية التي انتهت بها عهود الدهر الحجري القديم الأعلى ، واعتقد أن أسلوب صناعتها وصل مصر عن طريق فلسطين وبدأ منذ نهاية الألف الثامن ق . م (٧٢) .

ووجدت أشباه لبلط وادي الشيخ في وديان متفرقة أخرى من وديان الصحراء الشرقية (٧٣) ، واتجه الرأي إلى أنه ليس ما يمنع من احتمال استخدامها في نفس الأغراض التي اقترحها شارف ، أي أغراض التخلص من الأشجار وقطعها ، ولكن خلال الدهر الحجري الحديث الذي اهتدى أصحابه إلى الزراعة واضطروا معها إلى تهذيب الأرض الخصبية التي يمكن زراعتها واستغلالها ، وقطع الأشجار التي تعترض نموها ، دون الدهر الحجري الوسيط الذي لم يرأغب الباحثين مبرا قويا للاعتراف بوجوده ، والذي لم يكن فيه ما يدفع أهله إلى توسيع رقعة الأرض وقطع أشجارها .

وهكذا فضل فريق من الباحثين ، ومنهم من المصريين كل من الأستاذين عامر وحزين ، عدم الاعتراف بوجود الدهر الحجري الوسيط في مصر ، أو الاعتراف به على أساس اعتبار صناعاته امتدادا للصناعات القزمية في مثل عيون حلوان وغيرها من مناطق أطراف الدلتا . ولم يستبعد حزين أن تكون

MENGHIN, op. cit. 137 f. (٧٠)

A. SCHARFF, Die Altertümer, I, 7-8; E. BAUMGÄRTEL, in Prehistorische Zeit. 1928, 101 f.; (٧١)

CH. T. CURBELLY, Stone Implements, pl. XII, XVI, XIX.

cf. VANDLER, op. cit., 63 (٧٢)

SCHARFF, op. cit., 30 f. (٧٣)

أدوات وادى الشيخ من أواخر عصر ما قبل الأسرات أو من أوائل عصور الأسرات نفسها (٧٤) ، وأضاف عامر أن أواخر الحضارة السيلية يمكن أن تسلك في الدهر الحجري الوسيط ، وأخذ برأى فينار عن قرب الشبه بين أدواتها القزمية وبين الأدوات التاردنازية التي يحتمل أنها دخلت أوربا من جنوبها ، أى من شمال أفريقيا ، وربما من مصر بالذات (٧٥) .

بيد أن الاعتراف بالدهر الحجري الوسيط في مصر أو إنكاره لا يحل ظاهرة سوف يلمسها القارئ في نشاط أهل الدهر الحجري الحديث الذى تلاه والذي تحتمل بدايته في مصر منذ أواسط الألف السادس قبل الميلاد .

فقد قطع أهل الدهور الحجرية حتى ذلك التاريخ التقريبي ، أى أواسط الألف السادس قبل الميلاد آلافًا طويلة من السنين تتراوح في مذاهب المتخصصين بين عشرات الآلاف ومئات الآلاف ، جاهدوا خلالها جهادا طويلا لا يمكن تصويره إلا عن طريق الحدس والخيال ، ضد قسوة الطبيعة ووحشية البيئة وضراوة الحيوان ، وشحذت الشدائد والتجارب أذهانهم فأوقدوا النار وطهوا الطعام وتثروا بالجلود ، وحصدوا الحبوب البرية وجرشوها ، ووسدوا موتاهم تحت التراب عوضا عن تركهم في العراء أو في ظل الصخور ، وطؤروا أسلحتهم حتى انتهوا بها إلى الرمح والقوس والسهم ، وطؤروا أدواتهم حتى وفروا فيها الأزاميل (المناحت) والمقاطع والمكشط والمخارز ... إلخ .

وابتدأوا يستمتعون بفن الرسم لمتعة النفس وخدمة السحر في بعض مناطق العالم القديم ، وربما هدتهم التجارب إلى معرفة ما يخفف أمراضهم ويساعد على إلتئام جروحهم وجبر الكسور في عظامهم ، من أعشاب الأرض وثمار الشجر وما إليها . ولكن ظلت قدرة الإنسان على الابتداع على الرغم من ذلك محدودة ، لا تتعدى مطالبه الفردية المتواضعة إلا بجهود جهيد ، ولا يميل معها إلى التفكير في تغيير أدواته بأدوات جديدة إلا تحت ضغط شديد ، ولا يميل معها إلى تقليد الأدوات والوسائل التي يستخدمها غيره إلا ببطء شديد ، وذلك إلى الحد الذى تخيل معه « فلنדרز بترى » أن ألاف عام من حياة أهل الحضارة السيلية لا تكاد تعادل في محصولها الفكرى والحضارى ما كان يتم من تطور فكرى وحضارى خلال عمر شخص واحد في العصور التاريخية القديمة (أو عصور البحيرات على حد قول) ، وأما كان يتم خلال أعوام قلائل من حياة الإنسان في عصوره التاريخية القريبة ، وذلك دون حاجة بطبيعة الحال الى تخمين ما يعادل هذه الفترات في دنيا الفكر والإبداع في عصرنا الحديث (٧٦) .

(٧٤) HUZAYYIN, op. cit., 307 n. 2.

(٧٥) مصطفى عامر : المرجع السابق ص ٥ (and see VIGNARD, op. cit., 66 f.)

(٧٦) فلنדרز بترى : « الكشف عن الماضى المجهول » في تاريخ العالم (هامرتون) - معرب بالقاهرة - ص ٢٥ - مع شيء من التصرف .

ولكن ،وهنا بيت القصيد ، وبعد بخرة غامضة ، قدرها الكسندر شارف بنحو ثلاثة آلاف عام فيما بين نهاية الحضارة في السبيلية وبداية العصر الحجري الحديث ، (وقدراها هرمان كيس وبعض الباحثين المحدثين بثمانية آلاف عام أو تسعة آلاف عام) (٧٧) . دخلت حياة أهل العصور الحجرية في مصر وبعض مناطق الشرق القديم روح نشطة جديدة بدأت أحوالهم تبديلا ملموسا ، وأسرعت معها خطاهم الحضارية ، ونشطت مقدرتهم الفكرية ، وأصبحوا أكثر فاعلية في بيئتهم وأقل خضوعا لها عما كانوا عليه في دهورهم القديمة ، كما ستبين ذلك في الصفحات التالية .

فقد كان من الطبيعي أن يترتب على ظهور أى فترة ممطرة أو رطبة معتدلة ، بعد ظروف الجفاف القاسية التي انتهت بها الدهر الحجري القديم الأعلى ، تحول واسع في أنواع النباتات والحيوانات ، وفي مستقبل الجماعات البشرية التي تزايدت أعدادها وتزايدت خبراتها ، وتم ذلك التحول في العالم القديم فعلا منذ أواسط الألف السادس ق . م على وجه التقريب ، ومنذ بدأت تبشير دهر الهولوسين الذي امتاز مناخه في أوائله باعتدال الحرارة واعتدال الرطوبة (٧٨) .

وانتفع باعتدال الهولوسين ، كل من البيئة وأحيائها ، فحدث بالنسبة إلى مصر أن استعادت بحيرة الفيوم كيائها واحتفظت بمستوى مائى يتراوح منسوبه بين عشرة أمتار فوق مستوى سطح البحر ، ومترين تحت مستوى سطح البحر ، واعتمدت على كميات الأمطار المحلية أكثر مما اعتمدت على فيضانات النيل (٧٩) . وتلقت الواحات نصيبا مقبولا من الأمطار ومن المياه الجوفية ، واستعدت لأن تستقبل سكانها البدو من جديد (٨٠) . وعاودت الحيوانات القديمة نشاطها بعد هجراتها وبعد انقراض بعضها خلال عصور الجفاف الشديد (٨١) .

SCHARFF, op. cit., 30f; S. PASSARGE, "Die Urlandschaft Ägyptens", in Nova Acta Leopoldina, IX, (٧٧) 105 f; H. KEES, Das alte Ägypten, 1958, 2.

HUZAYYIN, The Place of Eg., 75 f., 142-143, Tables VIII-IX.; G. CATON-THOMPSON & E.W. (٧٨) GARDNER, The Desert Fayum, I, 17, 84.

(٧٩) يرى حزين وكيتون طومسون و ١ . و . جاردنر أن مياه البحيرة بلغت مستوى ١٨ مترا قبيل بداية العصر الحجري الحديث نتيجة لاتصالها بالنيل ، ثم انقطع الاتصال بينهما ، وحدث انخفاض مستوى الماء فيها بعد بداية الالف الخامس ق.م بقليل ، وتوقف عند أربعة أمتار زمننا طويلا . (see, HUZAYYIN, op. cit., 83-84, 104.)

CATON & GARDNER, in G.J. LXXX, No. 5 (1932), 371-372. (٨٠)

HUZAYYIN, op. cit., Table, VIII-IX. (٨١)

وأدت بعض العوامل الجيولوجية والفسيو جرافية قبيل أوائل هذا الدهر على مساعدة النيل في ترسيب الغرين الدسم الذي أخذ ينقله في مواسم فيضانه العالية من هضبة الحبشة (٨٢). ولما اكتسى سطح الوادي بهذا الغرين الدسم فوق طبقات الحصباء والرمال والطمى الخشن التي حملها النيل من موارده المائية الأولى ، أصبح مهيباً لأن يتلقى طفرة حضارية جديدة ، يتقل أهلها من حياة الجمع والالتقاط والصيد إلى حياة الإنتاج والادخار والاستقرار ، أو بمعنى آخر إلى حياة الزراعة .



شكل ٦ — بلط من وادي الشيخ

Ibi., 152-153. (٨٢) ويقدر ساندفورد واركل للفترات التي مرت منذ ارساب هذا الطمس بنحو عشرة آلاف عام (op. cit., IV (1939), 97).

الفصل الثالث

فجر التاريخ

أو الدهر الحجري الحديث

١ - مظاهره الحضارية العامة :

كان الدهر الحجري الحديث أقصر الدهور الحجرية زمنا ، ولهذا فليس من بأس في أن يعتبر « عصرا » ، للتمييز بينه وبين ما سبقه من دهور حجرية طويلة .

وجرى الاصطلاح على تعريف هذا الدهر أو هذا العصر بتعريفات ثلاثة : تعريف زمني يسميه « العصر الحجري الحديث » ، وتعريف حضارى يجعله « عصر بداية الإنتاج » ، وتعريف تاريخي يعتبره « عصر فجر التاريخ » .

وتابعت مظاهر التطور الحضارى خلال العصر الحجري الحديث في مرحلتين طويلتين : مرحلة نيوليتية (Neolithic) أى مرحلة حجرية حديثة خالصة ، ومرحلة كالكوليتية (Chalcolithic) أى مرحلة نحاسية حجرية .

وبدأت المرحلة النيوليتية في مصر منذ أواسط الألف السادس ق.م على وجه التقريب^(١) ، وارتبط ظهورها حين ذلك بعاملين : تغير مناخى جديد ، ونشاط بشري جديد .

أما التغير المناخى فقد أسلفنا من مظاهره حلول فترة رطبية جديدة محل الظروف الصحراوية القاسية التى انتهت بها الدهر الحجري القديم الأعلى ، وأسلفنا أن تأثير هذا التغير في أنواع النبات وأنواع الحيوان ومناطق إقامة الإنسان كان تأثيرا غير قليل^(٢) .

وأما النشاط البشرى الجديد ، فقد أتجه المصريون فيه إلى تنوع أسباب الرزق ، والرقى بالصناعة الحجرية القديمة وابتداع صناعات أخرى مستحدثة ، وظهرت لهم في هذا السبيل تسعة مجالات ، وهى :

(١) S. HUZAYYIN, The Place of Egypt, 319, 328;

ويرى شارف أن ظهور حضارة العصر بخصائصها لا يسبق ٥٠٠٠ ق.م (Altertümer, 30f.)

(٢) يحتمل امتداد تأثير هذه الفترة الرطبة حتى أواسط الألف الثالث ق.م ، وبقي من الشواهد الدالة عليها وجود آثار حياة شجرية في بعض جبانات فجر التاريخ التى أصبحت الآن جافة صحراوية .
(HUZAYYIN, op. cit., Mond & Myres, Arment, I, 7.)

استثناس الحيوان وتربيته ، والاهتداء إلى زراعة الأرض والاستقرار بجانبها ، وصقل الأدوات الحجرية والارتقاء بهما وتعديل هيئتها ، والاهتداء إلى صناعة الفخار وتنوع أشكال الأواني وألوانها ، وبداية الترس على عمل الحصير والسلال وتصفير الحبال وغزل الكتان ونسجه ، ومحاولة صنع الأواني الحجرية الصغيرة ، ووضوح الاهتمام بأدوات الزينة والبحث عن وسائل الاستمتاع ، ووضوح الاهتمام بالمساكن في حدود الإمكانيات البسيطة المتيسرة ، وبداية الاهتمام بمدافن الموتى وقرابينهم .

وجمعت بين الخمسة المجالات الأولى ، أو الخمس الحرف الأولى ، أي تربية الحيوان ، وزراعة الأرض ، وصقل الأدوات الحجرية ، وصناعة الفخار ، وصناعة الكتان والحصير والسلال ، خصائص عامة ، اشتركت فيها المواطن الحضارية التي شهدتها أرض مصر خلال عصرها الحجري الحديث ، مع فروق محلية قليلة ، بينما ظلت المجالات الأربعة الأخيرة ، أي صناعة الأواني الحجرية ، وأدوات الزينة ، وبناء المساكن ، والمقابر ، ذات خصائص إقليمية متواضعة اختلفت فيها كل منطقة حضارية عن أختها ، اختلافا ليس بالقليل .

ونبدأ فيما يلي بالخمسة الأولى :

١- تربية الحيوان ورعيه :

يذهب الظن إلى أن تربية الحيوان في العروض المدارية (والمعتدلة) لم تظهر طفرة واحدة خلال المرحلة النيوليتية ، وإنما مهدت لها مرحلة قديمة سبقتها في أواخر الدهر القديم الأعلى وخلال الدهر الحجري الوسيط ، وهي مرحلة أسر الحيوانات البرية من آكات العشب واستئناسها ، وذلك على أساس أنه ترتب على الظروف شبه الصحراوية والصحراوية التي انتهى بها الدهر القديم الأعلى ، أن تضاءلت أراضى العشب والحشائش ، وتضاءلت معها أعداد حيوانات الصيد وأنواعها ، إلا حيث توفرت المجارى المائية التي تتلقى مواردها من بلاد مطيرة بعيدة مثل مجرى النيل ، أو تتلقى مواردها من السيول المقطعة من حين إلى حين مثل وديان الصحراء الشرقية .

وحدث خلال تلك الظروف أن تعمد بعض مهرة الصيادين أن يأسروا ما تيسر لهم صيده من حيوانات بيتهم التي اعتادوا أكل لحومها ، واحتفظوا بها دون قتلها أو ذبحها بغية أن تتوالد عندهم وبغية أن تصبح عندهم بمثابة احتياطي حى من اللحم للظروف التي يعز عليهم فيها الصيد^(٣) .

وبعد أن اطمأن أهل الجماعات القديمة إلى هذه الوسيلة واعتادوها ، بدأوا يستأنسون أقل الحيوانات ضراوة وأكثرها نفعا ، لا سيما ذوات الظلف التي أمدتهم باللبن ولم توجههم إلى ضرورة قتلها من أجل الانتفاع بها ، وعملوا على تربيتها وتكثيرها وتعهدوها بالرعى والرعاية ، وربما بدأوا معها استئناس بعض أنواع الكلاب .

(٣) see also HUZAYYIN, op. cit., 321, n.2.

وبدأت المرحلة الأولى - أي مرحلة الأستر - منذ أواخر الدهر القديم الأعلى فيما يرجح حتى الآن ، أما المرحلة الثانية ، وهي مرحلة الاستئناس والتربية والرعي فقد اتضحت مظاهرها في المرحلة النيوليتية نفسها^(٤) .

ورجح الباحثون أن استئناس الحيوان في القارتين الآسيوية والأوربية ، ظهر في بداية أمره في منطقة "أناو" في التركستان وما يليها غربا من مناطق الاستبس ، ثم انتشر منها شرقا وغربا ، ومن حججهم في ذلك أنه لم تظهر آثار الماشية البرية في أفريقيا ، بينما ظهرت لها ثلاثة أواع في آسيا^(٥) ، ولو أنه ليس من سبيل إلى معرفة ما إذا كان هذا الانتشار قد بلغ وادي النيل وأفريقيا الشمالية من مصدره التركستاني ، أم اهتدى أهل أفريقيا الشمالية إلى استئناس الحيوانات ورعيها من تلقاء أنفسهم^(٦) .

وعلى أية حال ، فقد تأكدت معرفة المصريين باستئناس الحيوان وتربيته منذ النصف الأول لمرحلته النيوليتية ، أي منذ أوائل الألف الخامس ق . م على وجه التقريب . ووجدت أقدم مخلفات ماشيتهم وأغنامهم وخنازيرهم في منطقة الفيوم ١ ومنطقة مرمدة بنى سلامة على الأطراف الغربية للدلتا .

يسد أنه على الرغم من اهتداء المصريين إلى استئناس الحيوانات وتربيتها منذ ذلك العصر البعيد ، لم تستطع حرفة الرعي أن تلعب دورا رئيسيا في وسائل معاشهم ، ولم تقض على حرفة الصيد القديمة ،

(٤) يعتقد O.Meng in ان حرفة الاستئناس والرعي ترجع الى جهود الصيادين الاوائل ، بينما ترجع معرفة حرفة الزراعة الى ابتكار الجماعات التي اعتمدت في بداية أمرها على جمع والتقاط الثمار واعتمادت على الاستفادة من النباتات الطبيعية واكل جذورها (see, Weltgeschichte, 302 f.) بينما يرى Childe وآخرون ان حرفة الزراعة سبقت حرفة استئناس الحيوان ، وأن استقرار المزارعين الاوائل هو الذي شجعهم على استئناس الحيوانات والاستفادة منها (V.G. CHILDE, New Light on the Most Ancient East, London 1952, 24 f.)

(٥) Ibid., 26.

(٦) لم يفصل في هذا الأمر بعد ، وقد دلت بقايا الكلاب في منطقة المادى (في أواسط فجر التاريخ) على أنها كانت من نوع نصف مستأنس ، وتعتقد باومجرتل أن أنواع الأغنام والماعز التي وجدت بقاياها في منطقة البدارى (خلال فجر التاريخ) لم تكن من أنواع اغنام شمال افريقيا ، وليس لها اسلاف برية في مصر وما حولها ، وتفترض لهذا انها استؤنست أصلا في منطقة خارجية مثل غرب آسيا ، وتشير الى أن أقدم اغنام شمال افريقيا كانت قصيرة اللبول ويحتمل انها كانت من ايران أصلا ... ، وظهرت في رسوم نقادة اغنام طويلة السيقان تراها باومجرتل من غرب آسيا أيضا ..

E. BAUMGARTEL, The Cultures of Prehistoric Egypt, London 1947, 23-24.

وذلك مع ملاحظة أن باومجرتل كثيرا ما تغالى في تصوير تأثير الحضارات الآسيوية والإبرانية خاصة على مصر ، وراجع الحاشية التالية .

أو تنافس حرفة الزراعة الحديدية ، فظلوا يجمعون بينها وبين صيد الماء بجوار النيل والمناقع ، وظلوا يجمعون بينها وبين الزراعة باعتبارها حرفة مساعدة لها معتمدة عليها ، وظلوا يتابعون جهودهم فيها بخطوات بطيئة حتى عصورهم التاريخية نفسها (٧) .

٢- الزراعة :

بدأ المصريون انقلابهم الحضري الواسع منذ اهتموا إلى حرفة الزراعة ، ومنذ استفادوا بما ترتب على اشتغالهم بها من تمتعهم بالاستقرار في المعيشة والسكن ، وتعودهم على ادخار حبوب الزراعة ومحاصيلها ، واضطرارهم إلى التعاون في سبيل استصلاح الأرض واستغلالها ، واتجاههم إلى التجمع لحماية الأرض ومزروعاتها ومحاصيلها ، وسعيهم إلى تكوين القرى الصغيرة وتأمينها ضد أخطار الفيضان وأخطار الحيوانات البرية ، فضلاً عن أخطار الأعراب والأعداء ، ثم ما ترتب على اشتغالهم بها من زيادة انتفاع أرباب الأسر بمجهود أسرهم في أعمال المزارع ، وحرص القوادين منهم على تأكيد ذاتياتهم وتأمين مستقبل أبنائهم عن طريق حيازة مساحات مناسبة من أرض الزراعة وتربية ما تتطلبه من حيوان الزراعة ، واتجاههم في الوقت ذاته إلى التماس الأمن لأنفسهم ولأسرهم والملكياتهم الزراعية وسط الجماعة وفي حماية المجموع .

لم يهتد المصريون إلى الزراعة في مرحلتهم النيوليتية اعتباراً دون مقدمات ، وإنما سبقت اهتدائهم إليها ومهدت له أربعة عوامل على أقل تقدير ، وهي :

(١) معرفة أجدادهم الأذنين بفوائد الحبوب البرية وطريقة حصادها وعملية جرشها ووسائل إعدادها للأكل . وهي معرفة دلت عليها بقايا المراحي التي خلفها أصحاب الحضارة السبيلية ،

(٧) استولد المصريون مائتة قصيرة القرون واستأنسوا الكلب السلوتي في عصر ما قبل الاسرات (أى في أواخر الألف الرابع ق.م) وحاولوا استئناس الضباع والفهود ، لاستخدامها في أغراض الصيد خلال عصور الدولة القديمة (أى خلال النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد)

E.O. Orenander, in Sphinx, XXII (1931), 8 f.; M. HILZHEIMER, in Antiquity, XI (1932), 411 f.

وظلوا يؤثرون تقديم العلف بأيديهم لبعض حيواناتهم دون رعيها بالمعنى الواسع ، حتى عصور الدولة القديمة . J.H. BREASTED, in Scientific Monthly, November 1919, 416 f.

وظلت مناطق الدلتا صالحة للرعى حتى عصور الدولة الحديثة

cf. A. ERMAN, Die Literatur, 82; Urk IV, 72; Pap. Horris I, 10, 7-11.

ودلل هرمان كيس على أهمية الرعى فيها بما اعتاده أهلها من تصوير الاغنام والماشية والماز في رموز أقاليمهم، H. KEES, KULTURGESCHICHTE, 18f.; Götterglaube 75f, 210; Das Alte Ägypten, 9f.

وذهب كيس الى ما هو أبعد من ذلك ، فرأى أن المعبودات التي رمز أهل الصعيد والدلتا إليها بصور الثيران والابقار والكباش ترجع الى قوة تأثير مذاهب أسلافهم الرعاة في عقائدهم الدينية ، ورأى أن حياة الأسلاف الرعاة والصيادين تركت آثارها في ملابس أهل العصور التاريخية ورموزهم ، مثل لبس النقبة (أى اللباس النصفى الذي يمتد من تحت السرة الى ما فوق الرقبة) وارتداء الملوك ذيل فحل أو ذئب في حفلات أعيادهم .. (Das alte Agypten, 15)

غير أنه ليس من الضروري التسليم باستنتاج كيس كله ، فالفحول والابقار والكباش قد تتصل صورها بعقائد الزراعة كما تتصل بعقائد الرعاة ، واللباس القصير قد يكون أصلح للمزارع في الحقل منه للرعى أو الصائد، وذيل الفحل أو ذيل الذئب قد يكون ارتداؤه من ابتكار المحارب زارعا كان أم صائدا أم راعيا ...

دلت عليها أشباه المناجل التي خلفها أهل عيون حلوان منذ دهرهم القديم الأعلى ، وذلك فضلا عن معرفتهم العفوية بظواهر الإنبات الطبيعية عن طريق ما كانوا يشهدونه من خروج النبات من الحبوب والبذور الصغيرة التي تلقىها المصادفات أمام أعينهم فوق سطح الأرض ، كلما أصابها البلل أو المطر .

وكانت أكثر الحبوب البرية انتشارا في المناطق الحصبة من سطوح الهضاب القديمة وجوانب النيل ووديان الصحراء هي الحنطة البرية (*Triticum Vulgare or Triticum* (Dicocum or *Triticum spelta* var. *Saharae*) والشعير البري (*Hordeum Vul-gare vel hexastichum or Hordeum Spontaneum*)^(٨) .

(ب) ما يراه الجغرافيون من ازدياد نشاط النيل في تعميق مجراه خلال فترات الجفاف الطويلة العنيفة التي سبقت المرحلة النيوليتية ، وما ترتب على ذلك النشاط من ازدياد قدرة مجراه على استيعاب مياه فيضاناته السنوية ، وتقليل انسيابها على ضفتيه ، وإتاحة الفرصة لمياه المناطق المنتشرة على جانبيه للانصراف إليه^(٩) . وأدت هذه العوامل والعمليات كلها إلى أن أصبحت ضفاف النيل ، أكثر قابلية لل عمران والسكنى ، عما كانت عليه في عصورها الأولى ، وأصبحت أرضها أكثر صلاحية لاستقبال الزراعة وتجاريها عما كانت عليه في حالها الأولى .

(ج) اضطراب جماعات كثيرة من أهل الهضاب الشرقية والهضاب الغربية وما وراءها إلى النزوح عن مواطنهم القديمة والنزول إلى ضفاف النيل التماسا لمائها ونباتها وحيواناتها بعد أن طالت عليهم موجات الجفاف فوق الهضاب في أواخر الدهر القديم الأعلى .

ولم يكن نزول المصريين إلى ضفاف النهر حينذاك هو الأول من نوعه ، فلم يكن من المعقول إطلاقا أنهم وأسلافهم من قبلهم كانوا يستطيعون أن يتجاهلوا جريان النيل المارد الجبار في أرضهم ، أو يعافوا كثرة الخيرات الطبيعية على ضفافه وكثرة الأسماك في مياهه ، وإنما هم في أغلب الظن كانوا يتهيبون حيواناته الكبيرة المائية والبرية ويتهيبون كثافة الأبراج على ضفافه ومزالق المناطق والبرك المنتشرة على شواطئه المنخفضة ، ويكتفون لذلك بالإقامة بعيدا عنها على سطوح المدرجات النيلية القديمة المرتفعة . بل إن أسلافهم الغارقين في القدم كثيرا ما اضطروا إلى ترك مدرجات النيل المأمونة العالية وهبطوا إلى مدرجاته الواطئة كلما اشتدت عليهم موجات القحط والجفاف الطارئة منذ الدهر القديم الأسفل نفسه ، كما مر بنا في أكثر من مناسبة سابقة (ص ٦١ ، ص ٦٧) .

(٨) G. CATON-THOMPSON & E. GARDNER, *The Desert Fayum*, I, p. 46 f; R. CIFERRI, "I frumenti etiopici nelle oasi del Sahara", in *Quartaer* IV (1942), 187f.

(٩) HUZAYYIN, op. cit., 320-321; SANFORD & ARKELL, op. cit. III (1934), p. 125.

وكان كل ما اختلف به أهل أواخر الدهر القديم الأعلى عن أسلافهم ، هو أنهم أصبحوا أشد تصميمًا على الإقامة الطويلة في سهول النيل وترعه الطبيعية بعد أن يتسوا من زوال القحط والجفاف من هضابهم الواسعة ومدرجاتهم العالية .

(د) نوع من الخبرة الفطرية ترسب عند أهل الهضاب قبل أن ينزلوا إلى أرض الزراعة ويستقروا بها ، عن العوامل الظاهرية لنمو النباتات البرية والعوامل الظاهرية لجفافها . فليس من شك في أنهم كانوا يتلمسون النباتات على سطوح الهضاب في أرض دون أخرى ، ويلحظون نموها في الوديان ذات التربة اللينة أكثر مما يلحظونه في الأرض الصخرية الصلبة ، ويتوقعون نموها في أعقاب الأمطار ، ويأسون من نموها في سنوات القحط العجاف ، ويتبنون اخضرار أوراق الشجر وتفتح الزهر ونضوج الثمر في فصول بعينها ، ويلحظون جفافها وضورها في فصول أخرى بعينها .

وفي ظل الظروف البيئية والمناخية السابقة ، ونتيجة للاستعانة بالخبرات القديمة التي اكتسبها المصريون في دهورهم القديمة الطويلة ، اطمان أغلب أهل الهضاب والمدرجات إلى الإقامة في سهول النيل ووديانه ، وصالت إقامتهم فيها ، وطالت استفادتهم من نباتاتها وحيواناتها ، وجمعوا بين خبرتهم الفطرية القديمة بأسباب نمو النباتات على الهضاب وفي أعقاب مواسم الأمطار ، وبين معرفة أخرى جديدة صحيحة تأتت إليهم من إدراك ظواهر النمو السوي المطرد لنباتات السهل النيل ، بعد أن لحظوها تنمو في أرض السهل السوداء دون رمال الصحراء القريبة منها ، ولحظوها تنمو في أرضه المنخفضة أكثر مما تنمو في أرضه العالية القريبة منها ، ولحظوها تنمو في الأرض العالية في أعقاب كل فيضان مرتفع يستطيع أن يصل إليها ويرويها ، وتقل أو تنعدم كلما عز على الفيضان المنخفض أن يبلغها ويرويها ، ولحظوها تزكو كلما كانت قليلة الكثافة صحيحة العيدان ، وتبور في المناقع والبرك ووسط الأراج .

واستوعب المصريون هذه المعارف والمشاهدات على مر الزمن ، وحاولوا أن يستفيدوا منها فائدة عملية ، وبمعنى آخر حاولوا أن يتحكموا في عملية نمو النباتات بأنفسهم ، وأن يصبحوا متحججين لغذائهم متحكمين فيه بأنفسهم^(١٠) ، وتقدمت محاولاتهم في ظروف لا نعرفها ، قد ترتبط بتدثر أعدادهم وإحساسهم بضرورة استيلاء الأرض أكثر مما تنتجه لهم ، أو ترتبط بامتاع الفيضانات العالية عنهم في دفعات متقاربة وإحساسهم بأثر انخفاضها على نبات بيتهم ، أو ترتبط بنزول هجرات جديدة نشطة إليهم ، أو ترتبط بنحروج أجيال ذكية مبدعة من أصلابهم .

(١٠) عن ترجيح نشأة الزراعة نشأة محلية في مصر - راجع كذلك S. HUZAYYIN, op. cit. 321 سليمان حزين : تاريخ الحضارة المصرية - القاهرة ١٩٦٢ المجلد الاول ص ١٥ - ١٦

على أنه مهما يكن من أمر هذه الفروض والظروف كلها ، وسواء طالت تجارب المصريين ومحاولاتهم خلالها أو قصرت ، فقد نجحوا منذ أكثر من سبعة آلاف عام في معرفة سبيل الزراعة ومارسوها قبل غيرهم من جماعات العالم القديم المسكون ، أو قبل أغلب جماعات العالم القديم المسكون إن آثرنا الحيلة وافترضنا شيئاً من الصحة لما يعتقد أنصار حضارة بلاد النهرين وأنصار حضارة إيران وأنصار حضارة سوريا وفلسطين من أن كلا منها اهتدت إلى الزراعة في عهد قريب من العهد الذي اهتدت مصر فيه إلى الزراعة^(١١).

ولم يكن من المنتظر أن تشهد أجزاء وادي النيل حياة الزراعة والاستقرار دفعة واحدة ، وإنما المعقول أنها شهدت على مراحل بطيئة متتابعة ونتيجة لتقليد بعض أهلها لبعض ، ونتيجة لتقلباتهم فيها من مكان إلى مكان .

ولسنا ندرى شيئاً عن الصورة التي تمت بها هذه الانتقالات ، سواء أكان أصحابها أمراً متفرقة أم جماعات متكاتفة ، وإنما المسلم به هو أن أصحابها حاولوا خلال تقلباتهم أن يتخيروا لأنفسهم مواطن مناسبة تيسر لهم زراعة أرضها ويتيسر لهم إقامة أكوأخهم فوق المناطق المرتفعة المجاورة لها ، حتى يأمنوا على مساكنهم فيها من ضرر رطوبة الأرض وأخطار الفيضانات وحتى يوفروا بها أرض الزراعة للاستغلال والإنتاج .

يدعونا الحديث عن الزراعة إلى استعراض عبارة شائعة ردها المؤرخون عن هيكتيوس الميليبي الذي زار مصر في أواخر القرن السادس ق.م ، وهيرودوت الهاليكارناسي الذي زارها في أواخر القرن الخامس ق.م ، وأكدوا فيها أن مصر « هبة النيل »^(١٢) . وهي عبارة صوّرت نصف الحقيقة ولم تصوّر الحقيقة كلها . فهي صادقة على اعتبار أنه لولا النيل وفيضاناته وطيبه الخصب الدسم لأصبحت مصر بقعة قاحلة من بقاع الصحراوات التي تحيط بها من الشرق ومن الغرب ، ولولاه لما شهدت أرضها من أعداد السكان ما شهدته في قديم عصورها وحديثها . بيد أنه يرجح من ناحية أخرى أن ضفاف النيل كانت في بداية أمرها زاهرة بالأحراج مليئة بالمناقع والبرك ، وكانت نباتاتها تغلب عليها الكثافة وتغلب فيها سيقان البوص وأعواد البردي ، ولعلها كانت تشبه بيئة السفانا الحالية

(١١) عن احتمال معرفة اصحاب الحضارة الناطوقية في فلسطين للزراعة

PEAKE, The Origins of Agriculture, London 1928, 54-55; The Beginnings of Agriculture, 1931, 102 f.; HUZAYYIN, op. cit., 225, 230, 289. n3.

ولو أن هنري فرانكفورت يعتبر المناجل التي مثر عليها في الكهوف الناطوقية شاهداً على استخدامهم الحقول الطبيعية ، وشاهداً على اقامتهم شبه المستقرة في الكهوف دون ضرورة الى اعتبارها شاهداً على معرفتهم بالزراعة . H. FRANKFORT, The Birth of Civilisation, p.; see also, HUZAYYIN, op. cit., 289 n3.

وظهرت آراء أخرى مسرفة حاولت أن ترد معرفة الزراعة الى جنوب غرب آسيا أو سهول التركستان منذ الألف الثامن ق.م.

HERODOTUS, II, 5. (١٢)

وأجمت البردى في مناطق السودان بأعلى اليل ، ولم تكن فيضانات النهر هادئة نافعة دائما ، وإنما كانت تظنى أحيانا فتدمر ما بذل المزارع فيه جهده وأنفق فيه عرقه ، وتشح أحيانا أخرى فيعز على المزارع أن يستفيد منها إلا بعد جهد جهيد (١٣) .

وكان على المصريين الزراعين الأوائل أصحاب الإمكانات المحدودة أن يحففوا من خشونة هذه الأوضاع على أرضهم وأهلهم ، وأن يفهموا أن حياتهم على ضفاف النيل حياة يطول فيها التحدى ، تحد بين رغبتهم في الارتفاع بنحيرات بيئتهم الخصبه وفيرة الماء وفيرة الإنتاج ، وبين وحشية هذه البيئة واحتياجها إلى جهد طويل وتهذيب وسيطرة (١٤) . وبدأ المصريون تحديهم حينذاك على حذر ، فتخبروا مواطن إقامتهم بادئ ذى بدء على مناطق الحواف ، الحواف الزراعية والحواف الصحراوية ، ثم تجرأوا على ردم المناقع والبرك القريبة من النيل كلما استطاعوا إلى ذلك من سبيل ، ولما تقدم الزمن بهم عرفوا كيف يحفرون الترع لتوصيل مياه الفيضان إلى أقصى ما يستطيعون استغلاله من الأرض السوداء الخصبه ، وكيف يشقون المصارف لتصريف ما يزيد عن حاجة أرضهم من المياه الزاكرة . ولم تغنهم خصوبة أرضهم دائما عن بذل مجهود شاق كل عام ، يدركه من يعملون في الزراعة حتى الآن ، في سبيل حرث الأرض وتقليبها وتمهيدها وردم شقوقها تمهيدا لبزرها وزرعها ، لاسيما وأنهم كانوا في عصورهم الأولى بالفؤوس الحجرية الصغيرة وحدها .

وليس من شك في أن المصريين القدماء لم ينفردوا بين شعوب العالم القديم بمحاولة التغلب على خشونة بيئتهم الطبيعية ومحاولة استغلالها وتحضيرها ، ولكن المرجح هو أنهم كانوا من أقدم من بدأوا الخطوات العمليه في سبيل تهذيب الأرض وتوليدها بين شعوب العالم القديم (١٥) ، وكانوا أكثرها جلدا ومثابرة ، وكانوا لذلك من أكثرها تعلقا بأرضهم ومواطنهم .

وليس من شك كذلك في فضل النيل فيما أواء به على أرض مصر من رى دائم وخصب متجدد ، وفيما كفله لأهله من سهولة الأسفار والاتصالات ، وفيما أتاحه لهم من فرص التعاون والتجمع على ضفافه ، ولكن ذلك كله لاينفى أن مصر الزراعية المتحضرة كانت ثمرة من ثمرات الجهد المصرى الأصيل ، كما كانت هبة من هبات النيل الكريم في آن واحد .

(١٣) راجع عن آراء مشابهة الى حد ما EHEBBERG, Zu Herodot, Klio XVI, 318-331.

وسليمان حزين : المقال السابق ص ١٧

(١٤) عن اثر التحدى في خلق الحضارات القديمة - راجع ارنولد توينبى : مختصر دراسة للتاريخ - مصر بالقاهرة ١٩٦٠ - الجزء الاول - الفصل الخامس

(١٥) لم تبدأ حرفة الزراعة في اوربا الا بعد بدايتها في مصر والشرق القديم بنحو الفى عام .

ونعود الى هيرودوت ، فنجده يقول في كتابه الثاني :

«يذكر المصريون في عرض حديثهم عن قدمهم وقدم حضارتهم عن حضارات العالم كله، أن مصر ظلت حتى أيام ملكهم منى ، فيما خلا إقليم طيبة ، عبارة عن مستنقع ، ولم تكن اليابسة قد ظهرت أسفل بحيرة موريس بينما يفصل بينها وبين البحر الآن مسافة سبعة أيام عن طريق النهر . والواقع أن المصريين على حق فيما ذكروه ، وفي وسع من لم يسمعه منهم أن يستنتج (من تلقاء نفسه) إذا شاهد أرض مصر ، فالأرض الممتدة أسفل بحيرة موريس (أى شمالها) هي أرض مستحثة وهي هدية النهر» . «ويدولى ، وكما أخبرنى الكهنة أن أغلبية البلد أرض استخلصها سكانها» .

وعقب هيرودوت على جهود المصريين الأوائل في إقامة الجسور وشق الترع ، بأن مشكلة الأرض والفيضان ظلت مشكلة الحياة أو الموت بالنسبة إلى أرضهم^(١٦) .

وهكذا لم يختلف ما ذكره هيرودوت عن مصر وأهلها والنيل عما اتهمنا إليه في شيء كثير، على الرغم من استشهد كثير من الكتاب بعبارة مبتورة من حديثه دون حديثه كله .

٣ - تطور الأدوات الحجرية :

ظلت الأدوات الحجرية هي الأدوات السائدة خلال المرحلة النيوليتية ، ولكن كان لابد لأصحابها أن يتطوروا بصناعتها وأحجامها وأشكالها بما يلائم حياتهم الجديدة وحرفهم الجديدة . وكان خير ماأضافوه إلى أسلوب صناعتها هو أنهم صقلوا سطوحها صقلا كاملا ، وشطفوا حوافها شطفا كاملا وذلك إلى الحد الذى دفع بعض الباحثين إلى تسمية عهدهم « عصر الحجر المصقول L'age de la pierre polie^(١٧) . غير أن أسلوبهم الجديد في الصناعة لم يؤد إلى اختفاء الأساليب التى ورثوها عن أسلافهم فاستمروا يجمعون بينه وبينها ، واستمروا يشطفون بعض أدواتهم دون صقلها ، ويصقلون بعضها دون شطفها^(١٨) .

رأينا أن ظروفنا جديدة طرأت على معاش المصريين ، فاشتغل أغلبهم بالزراعة وتربية الحيوان وصيد الماء على ضفاف النيل ووديانه وعلى مناطق الحواف ، واستمر أهلهم يعتمد على صيد البر

(١٦) HERODOTUS, II, 4, 10. - وقصد هيرودوت بالاقليم الطبيعى معناه الواسع الذى عرف به في العصور المتأخرة ، أى بما يمتد من اقصى الصعيد حتى بداية مصر الوسطى ، وقصد بحيرة موريس بحيرة قارون الحالية في الفيوم .

(١٧) c.f. JUNKER, Merimde-Beni-Salame, II, pl. VII; G. CATON-THOMPSON & E.W. GARDNER, The Desert Fayum, pl. VIII; G. BRUNTON, Mostagedda and the Tasiatic Culture, London 1937, pl. XXXVI. G. Brunton, Matmar, London 1948; pl. VI.

(١٨) CATON & GARDNER, op. cit., p. 19 f.

ورعى الحيوانات فيما سمحت به الفترة الطيبة الحديدية من عشب وفير ونبات مناسب على مناطق الحواف أيضا وعلى سطوح الهضاب .

وتطلبت حياة الزراعة في الوادي أدوات جديدة ليست من نوع الأدوات الصغيرة والأدوات القرمزية التي انتهت إليها تطورات الصناعة الحجرية في الدهر القديم الأعلى ، ولكنها أدوات أخرى مناسبة من حيث أحجامها ومن حيث أشكالها .

وكانت أكثر هذه الأدوات الحديدية انتشارا هي رؤوس الفؤوس ورؤوس القواديم وأسنان المناجل . وكانت رؤوس الفؤوس ذات أحجام صغيرة بالنسبة إلى أحجام رؤوس الفؤوس الحالية (١٩) ، ويحتمل أنهم كانوا يثبتونها في أيد خشبية بطريقة من الطرق التي استخدمها أحفادهم في عصورهم التاريخية ، أو طريقة من الطرق التي لا تزال الشعوب البدائية تتبعها حتى الآن ، ومن هذه الطرق أن تثبت رأس الفأس في يد خشبية مشقوقة وتشد معها بأربطة من الجلد غير المدبوغ ، فاذا جف الجلد انكش وظلت الرأس واليد مرتبطتين ارتباطا لايسهل فكها (٢٠) .

وكانت أسنان المناجل عبارة عن قطع مشرشرة صغيرة من الظران ترص الواحدة منها بجانب الأخرى في تجويف يمتد بطول يد خشبية طويلة ، وتثبت فيه بمادة لزجة مثل الصمغ أو الراتنج (٢١) .

ولم يكن الصيد جديدا في حياة أهل المرحلة النيوليتية ، ولكن الصيد على ضفاف النيل تطلب أدوات وأسلحة جديدة حيث امتلاء النهر وفروعه بالتماسح وأفراس النهر فضلا عن الأسماك ، واستخدم المصريون لمطالهم الحديدية خصوصا من العظم والقواقع (٢٢) ، وأسنة حراب قوية حادة بعضها ذات أسنة قاعدية تثبت في قنى طويلة ، وبعضها تشبه هيئة أوراق الشجر (٢٣) .

واستخدموا لصيد حيوانات الحواف الصحراوية سريعة العدو وحيوانات الهضاب ، رؤوس سهام جديدة بعضها ضيق وبعضها مفرطح وبعضها ذولسان قاعدى وبعضها مقعر القاعدة وبعضها مشرر الحواف (٢٤) .

CATON & GARDNER, op. cit., pl. VIII-IX, XXII, 1-5; JUNKEB, Westdelta, pls. II-IV. (١٩)

ويحتفظ المتحف المصرى برؤوس فؤوس مما قبل الأسرات صنعت من الشب الاخضر الجميل ومن الشست - ولو ان نفاستها تدعو الى الشك في استعمالها لاغراض الزراعة والتجارة العادية
see, CURRELLY, Stone Implements, Cairo 1913, pl. XLIII.

(٢٠) جورج سارتون ، تاريخ العلم - ج ١ ص

CATON & GADNER, op. cit., p. 45 pl. X, 33-53; XXII, 12-18; XXVIII, 1-2; XXX, 1, XL, 1-21. (٢١)

JUNKEB, Merimde, (1932) 65, Fig. 5.

BRUNTON, Mostagedda, pl. XIII, 13-15; XXIII, 6g,h,m,q. (٢٢)

CATON & GARDNER, op. cit., 20-21; pl. XL, 22-39; JUNKEB, Merimde 1929, 220, Fig. 5; 1930 p. IV, (٢٣)
. 4 f, pl. VI, b.

CATON & GARDNER, op. cit., p. 21, 38, pl. X, 1-10; XXI, 28-34; XXXVIII, 1f. (٢٤)

ووفر المصريون لصناعاتهم وفنونهم الصغيرة المستحدثة أدوات حجرية جديدة ، فصنعوا مناشير دقيقة من الظران لنشر العظم وقطع الخشب الصغيرة (٢٥) وصنعوا مخارز وإبر طويلة رقيقة من العظم والظران لتثقب الخرز وتشبيك ملابس الجلد والسكان (٢٦) ، وذلك بطبيعة الحال إلى جانب الأدوات القديمة من سكاكين ومكشط ومناحت وما إليها .

ولم يحمل أهل هذه المرحلة أدوات القتال ووسائل دفاع الإنسان ضد أخيه الإنسان ، فاستخدم أهل الدلتا مقامع للقتال (أى دبابيس القتال) ، وتألفت المقدعة عندهم من جزأين : يد قصيرة غليظة من الخشب ، ورأس مثقوبة كثرية الشكل أو كرية الشكل من الحجر (٢٧) .

٤ — صناعة الفخار :

ليس من المستبعد أن يكون الإنسان القديم قد هيا لنفسه منذ الدهر القديم الأعلى أوعية بدائية يسيرة يحتفظ فيها بقوت يومه ويأكل فيها جويبه المجروشة ويشرب فيها الماء واللبن . وإذا صح هذا الظن ، صح التساؤل معه : وكيف وفر المصري الأول أوعيته ، وكيف كانت هيئتها ؟ هناك احتمالان للإجابة على هذا السؤال وهما : أن يكون الإنسان قد اتخذ أوعيته حينذاك من بيض النعام على نحو ما فعل أصحاب الحضارة القفصية وأهل الواحة الخارجة (٢٨) ، أو يكون قد صنع أواني الطعام من ألياف النخيل والدوم ، واتخذ أواني الشراب من جيوب الجلد التي تشبه السقاء على نحو ما تفعل بعض الجماعات البدائية المتخلفة حتى الآن (٢٩) .

ومنذ استقر المصري القديم على ضفاف النيل استقراره الطويل ، اهتدى إلى صلاحية الطمي لصناعة الأواني ، وصلاحية أوانيه للاستعمال بعد حرقها . ومرة أخرى يصح التساؤل عن المقدمات التي سمحت للمصري بأن يتبين خواص الطمي وإمكان حرقه ، وفي تخمين هذه المقدمات احتمالان أيضا ، وهما : أن يكون قد لاحظ صلابة الطمي واحمراره تحت مواقد النار التي عرفها منذ دهوره القديمة (ص ٧٠) ، وأطال ملاحظته لما حتى أدرك أثر الحرارة في هذه الصلابة وذاك الاحمرار ، ثم تعمد أن ينتفع بهذا الأثر في حياته العملية وجربه في صناعة أواني الفخار حتى أتقنها . أو أنه اعتاد على أن يغشى

JUNKER, Westdelta, pl. V, XV ; Merimde, 130, 68; 1932, 64f. (٢٥)

JUNKER, Merimde, 1930, pl. XI ; CATON & GARDNER, op. cit. 22, 23, 78 pl. XII, 6-16 ; XLVII, 1f. (٢٦)

JUNKER, Merimde, 1929, 224, Abb. 5 f. ; 1930, 69, Taf. IV; 1932, 67; CATON & GARDNER, op. cit. . 3, (٢٧)

pl. XXIX

وراجع ص ٩٧

CATON-THOMPSON, in Man, XXXII (1932) 131 f., Fig., 3. (٢٨)

وراجع ص ٧١

H. FRANKFORT, Studies in early Pottery, 1924, p. 12; J. Meyers, in Cambridge Ancient History, I, 79. (٢٩)

أوعيته اللببية القديمة بغشاء خفيف من الطمي يسد مسامها ، ثم لاحظ بعد مررات ومرات ، أن أوعيته إذا تعرضت لحرارة الشمس جفت ، وإذا تعرضت لحرارة النار احترقت أليافها واحرطمبها أو اسودت وتماسك ، فلما أطال الملاحظة في هاتين الظاهرتين أدرك أنه يستطيع أن يستغنى عن استعمال اللبف في صناعة أوانيه ، ويستطيع أن يكتفى في صناعتها بالطين وحده (٣٠) .

يتكون الطمي كيميائياً من عدة عناصر، أهمها مركبات الحديد والقلويات والرمل والمواد العضوية وكربونات الكلسيوم فضلاً عن الماء . وإزاء غلبة نسبة بعض هذه العناصر على بعض يتحدد نوع الطمي ويتحدد مدى جودته (٣١) . وعلى هذا الاعتبار يمتاز من الطمي المصري نوعان : نوع تملف من رواسب النيل وساد أغلب أرض الصعيد والدلتا ، وتضمن المواد السابقة كلها فيما خلا كربونات الكلسيوم التي إن وجدت به وجدت بنسبة ضئيلة . وإذا أحرق هذا النوع تحول لونه الأسمر إلى لون بني أو أحمر . ونوع آخر شديد النعومة تزداد فيه نسبة كربونات الكلسيوم التي جرتها السيول من الهضاب الجيرية وأرسبتها عند مصبات الوديان القديمة مثل وادي قنا ، وإذا احترق هذا النوع قليلاً اصطبغ بلون قرنفلي أو أحمر خفيف ، وإذا ازداد حرقه اختلف لونه باختلاف شدة النار وتحول إلى اللون السنجابي أو الرصاصي أو الأرجواني أو الرمادي الضارب إلى الخضرة (٣٢) .

وظل المصريون يصنعون أوانهم الفخارية بأيديهم طوال المرحلة النيوليتية . وكان الصانع يبدأ فيما يبدو بتنقية الطمي من الشوائب العالقة به ، ويعجنه بالماء بقدميه، ويضيف إليه أحياناً بعض التبن الدقيق الخفيف أو الروث المسحوق، ليقبل به لزوجته ويزيد تماسكه ، ثم يشكل آنيته ويسوى سطحها بيده المبللة حتى يقلل من سعة مسامها ، ويجففها في حرارة الشمس قبل أن يحرقها حتى لا تؤثر النار المتوهجة على شكل عجنتها الطرية أو تعمل على تغيير مائها بسرعة فتشقق جوانبها .

وكانت هذه الخطوات تكفي لصناعة الأواني العادية قبل حرقها ، فإذا شاء الصانع أن يزيد عنابته بها غشياً سطوحها قبل أن تجف بغشاء خفيف من صلصال ناعم فاتح ، ليسد مسامها ويقلل رشحتها ويجعل سطوحها ملساء تصلح للرسم والزخرفة . وإذا شاء أن يصقلها ، حكها قبل تمام حرقها بصدفة أو حصاة ناعمة ، حتى يزيد تماسك مسامها ويقلل خشونة سطحها ويجعلها أكثر قابلية لتلون بعد حرقها في النار (٣٣) .

(٣٠) J. MEYRES, op. cit., 70.

(٣١) الفريد لوкас : المواد والصناعات عند قدماء المصريين - ص ٥٩٦

(٣٢) نفس المرجع ص ٥٩٧ - ٦١٩

(٣٣) نفس المرجع ص ٥٩٧ - ٦٠١

يتأثر لون الفخار عادة بنوع الصلصال كما أسلفنا ويتأثر بمدى تعرضه للنار^(٣٤). وكان أكثر أنواع الفخار القديم شيوعاً وأكثرها رخصاً ، فخاراً بلباً خشناً يعرض حين حرقه لنار هادئة فتتحول المواد العضوية في طميه إلى لون بني وتصبغه به ، وقد تظهر عليه بقع سوداء كما أصابه دخان خلال الحريق^(٣٥) . وإلى جانب هذا النوع الشائع الرخيص ، صنع أهل المرحلة النيوليتية أربعة أنواع أخرى ، وهي الأواني السود all black pottery والأواني الحمراء ذات السطوح المصقولة polished-red وكانت كلتا هما أكثر شيوعاً في مناطق الوجه البحري ومصر الوسطى عنهما في الصعيد . ثم الأواني الحمراء ذات الشفاه السوداء black-topped ، والأواني السود ذات الرسوم المحفورة black-incised . وكانت كلتا هما أكثر شيوعاً في مناطق الصعيد عنهما في غيرها .

ويعتقد من زولوكاس أن الأواني السود تبت بلونها في بداية أمرها عن طريق الصدفة ، ونتيجة لحرقها عفواً في نار كثيرة الدخان لونت داخلها وخارجها بالسواد . لما ضى الصانع المصري بلونها الجديد ، تعمد في صناعته واعتبره وسيلة ناجحة للتخصر من البقع السوداء في الفخار العادي ، وأصبح يعرض بعض أوانيهِ في أواخر عملية حرقها لدخان كثيف عن عمد^(٣٦) .

وينج الفخار الأحمر عادة نتيجة لحرق أوانيهِ في نار قوية صافية من الدخان . واعتقد لوكاس مرة أخرى أن الصانع المصري عرف هذا النوع عدواً ، نتيجة لوضع بعض أوانيهِ قريبة من بيرة النار الملتببة الصافية من الدخان ، فلما تبين صفاء لون هذه الأواني عن بقية أوانيهِ ذات اللون البني والبقع السوداء ، أصبح يعتمد صناعتها عن قصد ، ويعتمد ودهما في النار القوية الصافية عن قصد^(٣٧) . وتلبت الأواني الحمراء ذات الشفاه السوداء عناية أكبر ، ويبدو أن الصانع كانوا يبدأون بحرقها حرقاً عادياً حتى تكتسب لونها الأحمر ، ثم يغرسونها في كومة من الرمال وهي لا تزال ساخنة بحيث لا تظهر منها غير شفاها ، ويحيطون هذه الشفاه بمادة ملتببة تسبب الدخان مثل الزيت أو غيره ، ويقفون بعضها في جوفها حتى تسود شفاهاً وبطنها في آن واحد . أو يفعلون العكس ، بمعنى أنهم كانوا يجعلون فوهات الأواني إلى أسفل ويغرسون حوافها في الوقود الرقيق ، وهو من التبن أو العصافنة فسود شفاهاً وبطنها دون سطوحها^(٣٨) .

صنع المصريون أوانيهم في أوائل مرحلتهم النيوليتية بأشكال بسيطة معدودة ، تتناسب مع مطالب حياتهم المحدودة ، وشكلوها على هيئة الصحاف والطواجن وقدر الطبخ وقدر الخزين ، والأقداح

(٣٤) عن وسائل حرق الفخار ونماذج القمائن القديمة - راجع لوكاس المرجع السابق ص ٦٠١

(٣٥) نفس المرجع ص ٦٠٢

(٣٦) يلاحظ لوكاس أن لون هذا الفخار ليس أسود بالمعنى المفهوم ، ولكنه رمادي قاتم جداً . ويذكر عدة وسائل لحدوث الدخان الكثيف ويناقشها في تفضيل - ص ٦٠٢ - ٦٠٨

(٣٧) يزداد اللون الأحمر في الفخار بازدياد نسبة أكسيد الحديد في طميه ، ولما استحب المصريون لونه كانوا يعتمدونه أحياناً بطلاء أوانيهم بالمغرة الحمراء قبل حرقها . (راجع لوكاس المرجع السابق ص ٦٠٨ - ٦١٠)

(٣٨) نفس المرجع ص ٦١٠ - ٦١٥

ذات القواعد وغير ذات القواعد ، والمغارف ذات المقابض الطويلة والقصيرة ، وظلت هذه الأشكال البسيطة غالبية على أواني الاستعمال العادى فى البيوت ، ثم اتجه مهرة الصناع إلى إدخال عنصر الزخرفة والذوق السليم على أواني الزينة ، وتفاوتت براعتهم وأذواقهم فى صناعتها من منطقة إلى أخرى ، مما سوف نتبينه بالتفصيل فى الصفحات التالية .

٥ - نسج الكتان والحصير وجدل السلال والحبال :

مهدت لصناعة النسيج فى بفر التاريخ صناعات السلال والحبال والحصير . واعتمدت أولاها على جدل خوص النخيل والدوم وتصفيره ، وقليلًا ما اعتمدت على تصفير نبات الحلفا وألياف البردى وعيدان الكتان (٢٩) .

واستخدم المصريون السلال فى بداية أمرهم على هيئة الزنانيل لخزن الحبوب وعلى هيئة أطباق من الخوص للمأكولات الجذانة ، اتخذ بعضها هيئة القوارب . ثم خدمت السلال أغراضا أخرى خلال بفر التاريخ ، فصنعها أصحابها من ألياف البردى وعيدان البوص على هيئة توابيت صغيرة لدفن الأطفال (ص ١٠٩) ، وعلى هيئة صناديق صغيرة لحفظ الأدوات المنزلية (٤٠) .

وشاركت صناعة الحبال صناعة السلال قدمها ، واعتمدت بدورها على جدل ليف النخيل وألياف الحلفا والكتان والبردى والحشائش الطويلة الصلبة (٤١) ، واستخدمت فى الربط والحزم والحمل وفى تصفير حزم البردى المستخدمة فى صناعة القوارب .

واعتمدت صناعة الحصير فى بداية أمرها على البوص والحشائش المفتولة أو المجدولة ثم على السمار (٤٢) ، وخدمت أغراضا كثيرة فى حياة أهلها ، فكانوا يتخذونها فراشا وغطاء فى البيوت والمقابر ، ويكسونها بها الجدران الداخلية فى البيوت وجوانب مطاير الغلال وجوانب حفر الدفن ، واستعملوها لتسقيف الأكواخ والمسكن الخفيفة ، ثم فى ستر مداخل البيوت الصغيرة . وكانوا ينسجونها على أنوال أفقية ولا تزال كذلك حتى الآن .

واستفادت صناعة النسيج من هذه الصناعات الثلاث ، وزادت عليها مرحلة الغزل والتشيط واستخدام الفلاكة والمغزل فضلا عن النول . واعتمدت أساسا على صناعة الكتان (٤٣) ، وإذا كانت

(٢٩) لوکاس : المرجع السابق ٢٢٤ - ٢٢٦

(٤٠) W.F. PETRIE and J.E. QUIBELL, Nagada and Ballas, p. 26.

(٤١) لوکاس ، المرجع السابق ص ٢٢٩ - ٢٣٠

(٤٢) المرجع نفسه ص ٢٣١

(٤٣) CATON & GARDNER, op. cit., pl. XXVIII, 3;

JUNKER, Merimde, 1933, 72, 74; Chronique d'Egypte 1946, Fig. 1-12-13; Ann. Serv. 1948, pl. III, 1; VI, 1

ومن رؤوس المغازل ما كان أصلا لعلامة hsf فى الكتابة المصرية القديمة

see, JUNKER, Westdelta, 21, pl. XVIIa; Merimde, 1932, Taf. V.

طريقتها حينذاك هي نفس الطريقة التي صورتها مناظر العصور التاريخية ، فإن مراحل الإعداد لها كانت تبدأ باقتلاع سيقان الكنان من جذورها وتجميعها وربطها في حرم وترتها تجفيف ، ثم تمشيظها وتعطينها حتى يابن لحاؤها ، وطرقها بالمطارق و شط اللحاء عنها ، ثم تنديتها أليافها وفنلها أو غزلها بالفلكة وأخيرا نسيجها (٤٤) . وكانوا يستخدمون لها أنوالا أفقية يجلس الصانع أمامها على الأرض جلسة القرفصاء ، كما يجلس نساجو الحصير حتى الآن ، أو يجفرون أمامها خندقا مستطيلا ضيقا يثبتون قوائمها فيه ويجلس الصانع أمامه ويدلى رجله فيه ، ووجدت أمثال هذه الخنادق في حفائر المعادى ولا تزال أمثالها موجودة في مصانع النسيج البلدية الصغيرة في منطقة نقادة بمديرية قنا ، وذكر Menghin أنها ظلت موجودة عند أهل التيرول حتى عهد قريب ، ولا يستبعد الأستاذ مصطفى عام أنهم كانوا يدعون أنوالهم بعظام سيقان أفراس النهر ، بحيث تسندها وتصلح للفيخوط الغزل عليها (٤٥) .

وليس من شك في أن هذه الخطوات ، وخطوة النسيج خاصة ، تطلبت من أجل طويلة من الملاحظة والتفكير والتقليد والتحسين ، ولم تنشأ بسهولة . وليس من شك كذلك في أن صناعة النسيج وربما صناعة الحصير أيضا كانت تعتبر في بداية أمرها من الكليات وعلامات الترف ، وظلت كذلك فترة طويلة ، حتى اعتادها الناس ورتبوا حياتهم على استعمالها ، وانفس السبل أمامهم لتنويعها وتحسينها ، واستحدثت ما هو أفضل منها .

ب — المواطن الحضارية

أسلفنا أن المصريين بدأوا تحديهم للنيل على حذر ، وبدأوا يقيمون قراهم على مناطق الحواف ، حواف الأرض السوداء وحواف الصحراء ، وكشفت البحوث الأثرية خلال القرن الحالى عن بقايا متواضعة من أربع قرى من قرى الحواف التي عاشت خلال المراحل الناصجة من العصر الحجري الحديث ، أى المراحل التي أتت بعد التجارب الأولى الغامضة في الرعى والزراعة وتعدد الحرف ، ونسبت إلى كل منها حضارة محلية متميزة وهي :

- ١ — حضارة مرمدة بنى سلامة في جنوب غرب الدلتا .
- ٢ — حضارة حلوان (١) عند رأس الدلتا القديمة (وقرب حلوان الحالية) .
- ٣ — حضارة الفيوم (١) في نهاية مصر السفلى .
- ٤ — حضارة دير تاسا في قلب الصعيد .

(٤٤) ادولف ارمان ، مصر والحياة المصرية القديمة ، تعريب عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال - القاهرة
ص ٥١٩ - ٥٢٠

(٤٥) عن حديثه ، خاص مع الأستاذ مصطفى عامر .

وأخذت كل حضارة من هذه الحضارات الأربع بالخطوط العريضة لحرف عصرها واتجاهاته ، ولكنها اختلفت فيما بينها في تفاصيل الصناعة وعادات الدفن . وتفاوتت معرفة التاريخ بكل واحدة منها تبعاً لاختلاف مدى التنقيب في أرضها ، فقد كشف التنقيب في كل من مرمدة بنى سلامة والعمري عن بعض آثار المساكن والمقابر ، على حين كشف في منطقة الفيوم عن جزء من منطقة المساكن وحدها ، وكشف في منطقة دير تاسا عن جزء من منطقة المدافن وبضعة أروام قريبة منها .

ولازالت بقية مناطق الحواف تنتظر إمطة اللثام عنها ، أما المناطق القريبة من مجرى النيل ، فقد طمس الطوى عليها . وقيل إنه وجدت كسر فخارية من العصر الحجري الحديث ، جرفها تيار النيل معه حتى دماط وأرسب فوقها ما لا يقل عن أربعة وعشرين متراً من الطوى المتراكم . (٤٦)

١ - في مرمدة بنى سلامة

تقع قرية مرمدة بنى سلامة في منطقة من مناطق الحواف في جنوب غرب الدلتا قرب قرية وردان إلى الشمال الغربي من القاهرة بنحو واحد وخمسين كيلومتراً ، وكانت قرية كبيرة نسبياً ، تزيد مساحتها عن ستير فدانا ، وإن لم يتكشف منها حتى الآن غير القليل (٤٧) .

كشفت التنقيب في مرمدة عن ثلاث مراحل للعدران ، مرحلة قديمة ضاعت آثار مساكنها انسيطة ودلت عليها آثار مواقد قليلة ، ومرحلة ثانية دلت على بقايا مساكنها تقوَّب الأوتاد التي كانت تسند - وانها وتحمل سقفها (؟) ، ثم مرحلة ثالثة أمكن ترسم حدود مساكنها البيضية المتواضعة ومطامير غلالها بوضوح (٤٨) ، على الرغم مما جرفته الرياح وأضاعه السباحون من آثارها .

واستمرت مساكن المرحلتين الأخيرتين جنباً إلى جنب ، فكان منها نوع بناه أصحابه بجواليص الطين واستخدموه أساساً للبيت في ليالى القتر ، ونوع آخر شادوه من البوص الكبير وفروع الشجر ، واستخدموه للبيت في ليالى الصيف ومواسم الحصاد وللاجتماع إليه من هجير الحر خلال أوقات الراحة من النهار .

(٤٦) cf. E. MASSOULARD, Préhistoire et Protohistoire d'Égypte, Paris 1949, p. 31.

(٤٧) نشأت القرية الحالية إلى الشرق قليلاً من القرية القديمة وتولى التنقيب في هذه الأخيرة بعنة من أكاديمية العلوم في فيينا ومن متحف ستوكهلم ، ونشر أغلب نتائج الحفر فيها هرمان يونكر :

H. JUNKER, Bericht über die von der Akademie der Wissenschaften in Wien nach dem Westdelta entsendete Expedition, Wein 1928.

H. JUNKER, "Vorläufiger Bericht über die Grabung der Akademie der Wissenschaften in Wien auf der neolithischen Siedlung von Merimde-Benisalame", in Anzeiger der Ak. der Wiss. in Wien, Phil.-hist. Klasse, 1929, 156-248; 1930, 21-83; 1932, 36-100; 1933, 54-97; 1934, 118-132; 1940, 3-25.

JUNKER, Merimde 1934, 122, Abb. 1, 123 Abb. 2; 1940, 10f. Taf. I. (٤٨)

واتخذ كل مسكن من مساكن النوع الأول هيئة بيضاوية في أغلب أحواله ، وكان يبنى داخل حفرة واسعة ، ويقع جزء منه فيها تحت مستوى سطح الأرض ، رغبة في ضمان ثبات جدرانها (باعتمادها على جوانب الحفرة) ورغبة في حماية ساكنه من هبات الريح الباردة (٤٩) .

وتبدأ عملية تشييده بتقوية أركان أرضية الحفرة بكسر الدبش والعظم والفخار ، ثم تبنى الجدران داخلها من جواليص الطين وترتفع عن سطح الأرض أكثر من المتر بقليل (٥٠) . ويسقف المسكن عادة بمحصير من البوص ، أو بجلد كبير ، تنسدل أطرافه على جوانب الجدران ، أو يبسط على عصوين طويلين من الغاب يثبتان في أرضية الحفرة ، بحيث تميل أطرافه على جانبيهما على هيئة أطراف الخيمة (٥١) .

ولم يكن من شأن سقوف الحصير والجلد أن تحول دون سقوط قطرات الماء داخل المساكن خلال مواسم المطر ، وعالج أهل مرمدة هذه المشكلة بطريقة بسيطة ، ولكنها تعتبر طريقة بارعة بالنسبة إلى عصرهم البعيد ، فعمدوا أن ينحدروا بأرضية كل مسكن انحدارا خفيفا ، وغرسوا في الجانب المنخفض منها وعاء تستوى فتحته العليا مع مستوى الأرضية حتى تتحد المياه إليه بسهولة ، ويمكن تفريقها منه خارج المسكن بسهولة أيضا (٥٢) .

وظلت مساكن مرمدة صغيرة في مجملها تتراوح مساحتها بين ١,٥ × ١ متر وبين ٣,٢٠ × ٢ من الأمتار (٥٣) . ولم تكن لها مداخل جانبية ، وإنما كان أصحابها يستعينون في النزول إليها والصعود منها بدرجة صغيرة يبنونها بجواليص الطين أو يتخذونها من ساق فرس النهر أو قطعة من ساق شجرة يثبتونها في الأرض مائلة على السطح الداخلي للجدار أحيانا ، ومائلة على سطحه الخارجي أحيانا أخرى (٥٤) .

وكان خير ما تدينه هرمان يونكر في هذه المساكن هو أن طائفة منها التزمت صفيين شبه مستقيمين يفصل بينهما طريق يبلغ طوله نحو ٨٠ مترا . ويعتبر ذلك فيما يغلب على الظن أقدم تخطيط عرف للقري حتى الآن وأقدم دليل على نشأة نوع من الوعي الجماعي أو الاجتماعي عند أهله ، وربما دل كذلك على وجود سلطة في القرية استجبت لفكرة التنظيم وأشرفت على تنفيذها (٥٥) .

(٤٩) لا زالت بعض الخيام المسكوية والكشفية تنصب في المناطق الصحراوية المكشوفة داخل حفر نسعة حتى لا تجرفها الرياح أمامها .

(٥٠) JUNKER, op. cit. 1930, 46 Abb. 4; 1932, 48 Abb. 2, Taf. II; 1940, 11f. (٥٠)

cf. J. VANDIER, op. cit., fig. 74. (٥١)

JUNKER, op. cit., 1932, 47 Abb. 1. (٥٢)

Ibid., 1932, Taf. II; 1940, 10f. (٥٣)

Ibid., 1932, 46; 48, Abb. 1,2; 1933, 80; 1934, 125 Abb. 3. (٥٤)

Ibid., 1933, 58f. (٥٥)

ودلت على مساكن النوع الثاني مجموعات من ثقبوب وجفوات ضيقة متقاربة حفرها أصحابها على سطح الأرض ؛ وتختلف بها قطع صغيرة من البوص . وألفت كل مجموعة منها شكلا شبه يضاوي يفتح من ناحية الشرق أو الجنوب الشرقى ، أى من الناحية التى لاتهب الرياح منها^(٥٦) .

ولم تكن هذه المساكن أكثر من شئ وسط بين الكوخ والدروة^(٥٧) ، يشيد كما أسلفنا من البوص وفروع الأشجار ، ويشبه الخصوص التى يشيدها المزارعون قرب المزارع فى مواسم الحصاد حتى الآن .

وادخر أهل مرمدة غلالهم فى منطقة المساكن الأولى فى زناويل كبيرة من الخوص والقش المجدول يتراوح قطر الواحد منها بين القدم وبين ما هو أكثر من السنة أقدام ، وتراوح سعة عمقه بين القدم والقدمين ، وادخروها كذلك فى قدور وجرار كبيرة من الفخار الخشن بلى ارتفاع بعضها نحو ثلاثة أقدام ، وكانوا يضعون كلا من الزناويل والجرار فى حفر على سمعتها ثم يغطونها بالطين ، ويلبسون جوانب بعض حفر الزناويل من الداخل بالطين الطرى حتى يثبت الزناويل فى مواضعها ويحول دون تسرب الرمال من جوانب الحفرة إليها^(٥٨) .

وظل لأصحاب كل مسكن مطمورتهم الخاصة ، زنيلا كانت أم جرة ، يخترنونها داخل مسكنهم أو بجواره ، وذلك على خلاف ما اعتاده أهل مناطق أخرى مثل منطقة الفيوم ، كما سنرى بعد صفحات قليلة .

وتضمنت أغلب مساكن المرمديين حفرا أخرى صغيرة ، دعم أصحابها جوانبها بكسر الدبش والفخار والعظام ولبسوا جوانبها الداخلية بالطين ، واستخدموا بعضها مدقات لدق الحبوب ، واستخدموا بعضها الآخر لتثبيت الأواني الكبيرة فى أماكنها .

ووجدت لهم بجوار مساكنهم النباتية الخفيفة أجران لتذرية الغلال ، كانت عبارة عن حفر مستديرة متسعة ذليلة العمق تغطى جوانبها بالخصير ويبلغ قطرها نحو أربعة أمتار وتعتبر أصلا لرمز « سب » أو « سبة » فى الكتابة الهيروغليفية^(٥٩) .

ومارس المرمديون صناعة الفخار كما مارسها غيرهم من أهل عصرهم ، واقتصروا فى زحرتها على عمل خدوش محفورة مائلة على سطوحها تشبه خطوط خوص النخل ، وعمل تنوءات حول حوافها لحنها منها وتحليتها ، وميزوا بعض أوانهم بمقايض أو آذان جانبية ، وقواعد ، وجعلوا لبعضها الآخر

JUNKER, op. cit., 1933, 67f. Abb. 2,3. (٥٦)

Ibid., 1932, 52f, Taf. III (٥٧)

Ibid., 1929, 21f; 1930, 44, 1933, 53, 1934, 70f. 126f. (٥٨)

وبلغت سعة احد الزناويل ٤٠ × ٢٤٠ سم ، وكانت بعض الجرار تستخدم لتخزين مأكولات جافة وإدوات منزلية عادية .

Ibid., 1930, 41; Taf. IIIb, Abb., 3. (٥٩)

تقوباخشنة في حوافها لتعليقها منها . وصنعوا مواعين صغيرة لطيفة مزدوجة أى ذات عينين (٦٠) تشبه مواعين الملح الحالية .

وفتح أهل الفن البدائيون منهم مجالات جديدة لتشكيل الفخار والأحجار ، وعثر لهم على جزء من آنية صغيرة شكلت قاعدتها على هيئة قدم بشرية دقيقة ، وقدم أخرى يمتثل أنها كانت جزءا من آنية مماثلة ، وقطعة من الصلصال المحروق يمتثل أنها مثلت الجذع الأعلى لسيدة ترتدى قلادة (في بداوة كبيرة بطبيعة الحال^(٦١)) ، وتعتبر هذه النماذج أقدم الخطوات المعروفة لتشكيل التماثيل المصرية الصغيرة في بخر التاريخ .

وعثر لهم على نموذج صغير من الفخار لقارب يغاب على الظن أن نازبه الأصيل كان يصنع من حزم البردى ، ويعتبر بدوره من أقدم الشواهد على اعتياد أهل الفترات الأولى من العصر الحجري الحديث ركوب الزيل آمنين^(٦٢) . وعثر لهم على رأس صغيرة نحتها صاحبها من حجر البازلت^(٦٣) ، وتعتبر من ناحيتها من أقدم الأواني الحجرية المعروفة ، ويزيد أهميتها صلابه الحجر الذى نحتها مئة صاحبها .

تفرد أهل مرمره بعادات دفنهم ، فكانوا يدفنون موتاهم بين مساكينهم ، وليس في جبانات منعزلة كما جرت عادة أهل المناطق المصرية الأخرى ، ولم يشاركهم في هذه العادة غير منطقة أخرى قرب حلوان الحالية (راجع ص ١٠٢) . وكان القبر في مرمره عبارة عن حفرة بسيطة بيضاوية يوسد المتوفى فيها على جانبه الأيمن في أغلب الأحوال (٨٥٪) بحيث تنثنى ذراعه إلى صدره وينثنى ساقاه إلى بطنه ، ويتجه بوجهه ناحية مسكنه الذى يوجد بالنسبة إليه ناحية الشرق أو الشمال الشرقى في أغلب الأحيان (٦٠٪)^(٦٤) .

JUNKER, op. cit., 1930, 80, Abb. 10; 1929, Taf. 11a; 1930, 73; 1932, 78; Abb. 9; 1929, 232, Abb. 8; (٦٠)

Westdelta, Taf. XX-XXV; O. MENGHIN, op. cit., Taf. XLI, 2, 26.

Merimde, 1932, Taf. V, Abb. 6; 1934, 131; Mitt. Kairo III, 169; KRIMER, in Ann. S. XXXV, 162 f. (٦١)

Fig. 1,3.

Merimde, 1933, 82c. (٦٢)

وراجع نماذج القوارب في الغيوم أيضا من الفخار والخص .

Merimde, 1929, Taf. 7, 1; Westdelta, Taf. 17a. (٦٣)

Merimde, 1929, 194 f. Taf. II, Abb 1; 1933, 72 f.; Westdelta, Taf; IV, 51, 57; VI, 59, 62, 67. (٦٤)

واعتبر شيرنى توجيه وجوه موتى مرمره ناحية الشمال أصلا للعقيدة التى ظهرت في المصور التاريخية

واعتبرت الجانب الشمالى من السماء مقرا لارواح الفراعنة والابرار .

J. Černý, Ancient Egyptian Religion, London 1957, 161

ولكنه رأى مستبعد .

ولم يزود المرمديون موتاهم بقربان خاص ، فيما عدا حفنة من الحبوب كانوا يضعونها أحيانا قرب أفواههم ، ربما عن اعتقاد منهم بأن دفنهم بين المساكن يغنيهم عن القربان ويسمح لأرواحهم بأن تشارك أهلها الأحياء ما يطعمونه ويشربونه في دنياهم مشاركة تناسبها وتناسب العالم الذي انتقلت إليه (٦٥) .

وحاول هرمان يونكر أن يعال انفراد أهل مرمة بعادات دفنهم هم وبعض أهل منطقة حلوان ، فردهم إلى جنس مهاجر من أهل البحر المتوسط وصل شمال أفريقيا في أواخر عهود الحضارة الفصية ، على حد قوله ، وامتد في شمال البحر وغربه حتى وصل الجزر البريطانية ، واحتفظ بعاداته في دفن الموتى بين المساكن حيثما حل واستقر . وزكى يونكر رأيه بقريئة أخرى وهي استخدام أهل مرمة لمقاع قتال ذات رؤوس حجرية كمثوية الشكل لم يعثر على أمثاله حتى الآن في أطلال القرى التي عاصرت مرمة في مرحلتها النيوليتية ، بينما شاع استعمالها في مناطق أخرى من حوض البحر المتوسط مثل فلسطين والأناضول وكريت (٦٦) .

والواقع أنه ليس من داع لاستبعاد صلات منطقة الدلتا التي قامت مرمة على حافتها بشعوب البحر المتوسط ، ولكن ينبغي أن يقدر بجانبها أمر آخر ، فقد اتضح لمن فحصوا الخصائص الجنسية للهيكل البشرية لأهل مرمة (مثل Derry) أنها وإن كانت ذات قامة أطول وجمجمة أطول ورأس أعرض من هيكل المصريين في عصر ما قبل الأسرات ، أى في الألف الرابع ق . م ، إلا أنها لا تكشف عن جنس معين بالضرورة ، وقد لا تخلو من تشابه مع هيكل أهل دبرتاسا المعاصرين لها في الصعيد (٦٧) .

وخرج يونكر بإزاء هذا الغموض برأى آخر (٦٨) وهو أن الجماعات البشرية مرت في ثلاث مراحل حضارية منذ اهتمت بموتاهم وشملتهم برعايتها . فعاشت في مرحلتها الأولى حياة نصف مستقرة

(٦٥) Merimde, 1929, 188f; 1930, 50 f; 1933, 74 f.

ووجدت شواذ لهذه العادة قد تكون مقصودة أو غير مقصودة ، عثر فيها على مظام حيوانات وأدوات حجرية بسيطة داخل مقابر قليلة . Ibid. 1929, 194-195; 1933, 77.

وتساءل يونكر عما اذا كانت هناك صلة بين فكرة وضع الحبوب بجانب موتى أهل مرمة وبين فكرة وضعها في مقابر العصور الفرعونية المتأخرة حين أصبحت ترمز إلى المعبود أوزير رب البعث وتشبهه بالحبوب والبدور التي تغفل نمو النبات وتجده في الأرض على الدوام ، وترمز في الوقت نفسه إلى ما رجاه المصريون لموتاهم من بعث ونشور . ولو أن يونكر عاد واستبعد وجود صلة بين حبوب مقابر مرمة وحبوب مقابر العصور المتأخرة وهو الرأي الصواب . (Ibid., 1930, 51).

(٦٦) Ibid., 1929, 197 f; 1930, Taf. IX, 1932, 67-8; A. Scharff, Die Altertümer, I, 10 f, 78.

ولا يستبعد فأنديه صلة أهل مرمة بسكان الواحات الليبية الذين نهضوا بحضارتهم خلال العصر الحجري الحديث وعرفوا النسيج وسجلوا رسومهم البدائية على الصخور ، في مثل الواحة الخارجة . وكان فنكلر قد سماهم « الواحات الأوائل » . (f. VANDIEB, op. cit., p. 106, p. 18)

ولكن يونكر عارض فكرة الربط بين المرمدين وبين الليبيين . (in Anzeiger d. phil. hist. Kl. d. Oesterreichischen Ak. d. Wis., XXI (1949), 487).

DERRY, in Merimde 1930, 53 f; 1932, 60 f. (٦٧)

Merimde, 1929, 196 f. (٦٨)

ولم يكن يعنى أهلها حينذاك أن يدفنوا موتاهم وسط قراهم ، ما داموا لا يستقرون بها على الدوام ، ولذلك اكتفوا بدفن موتاهم في أماكن متقاربة من بعضها البعض ما أمكن مع تزويدهم بما تيسر لهم من القرابين المتواضعة . وانتقلت الجماعات البشرية بعد ذلك إلى مرحلة أخرى زاد فيها استقرارها وطمع أهلها في أن يستقر موتاهم بين ظهرانيهم ، فدفنوهم وسط مساكنهم ، واعتقد يونكر أن أهل مرمدة كانوا من هذا الفريق بالذات .

وانتهت الجماعات البشرية إلى مرحلتها الثالثة حين تزايدت أعداد أهلها وتأكد استقرارهم في قراهم ، ورأى رؤسائهم أنه من الحكمة أن يعزلوا موتاهم في جبانات بعيدة على حواف الصحراء ، ليتركوا أرض القرية لأحيائها المتزايدين ويتركوا الأراضي القريبة من المزارع لما هو أجدى على أهلها وأنفع ، وعلى هذا الرأي الأخير عاش المصريون منذ فجر تاريخهم ، فيما خلا أهل مرمدة وبعض أهل حلوان .

لا يخور رأى يونكر من منطق مقبول ، ولأنه يصعب التسليم بافوارق التي يراها بين حياة المرمديين وحياة الاستقرار الكاملة التي عاش عليها بقية المصريين المعاصرين لهم ، بعد أن شهد لهم ، أى لأهل مرمدة ، باتساع قريتهم وتنوع مساكنهم وانتظام صفوفها ، وشهد لهم بتعدد حرفهم بين الزراعة وتربية الحيوان والصيد وصناعة الفخار وأواني الأحجار ، أى شهد لهم بمقومات الاستقرار كلها (٦٩) .

(٦٩) see also, VANDIER, op. cit., 106-107. — رأى الكسندر شارف رأيا آخر ، واعتبر عادة الدفن بين المساكن في مرمدة مظهرا من مظاهر الاستقرار الزراعي لأهلها ، بينما اعتبر اتجاه أهل حضارات الصيد المعاصرة لها إلى دفن موتاهم في جبانات مستقلة دليلا على أنهم كانوا من الرعاة الرحل وزاد فاعتبر أهل حضارة البداري وأهل حضارة نقادة في الصيد من الرعاة أيضا ، على الرغم من أنهم عاشوا بعد عصر مرمدة بصورة طويلة وقطعوا بعدها أشواطاً حضارية كثيرة .

واعتبر شارف أهل الوجه البحري وأهل الصيد في العصر الحجري الحديث مجموعتين من الحاميين ، عاشت أحدهما في الدلتا على الزراعة المستقرة واختلطت بجنس البحر المتوسط ، شأنها في ذلك شأن القبائل الحامية التي تعيش حتى الآن في جبال أطلس بشمال أفريقيا . وعاشت المجموعة الثانية في الصيد ، بما فيها البداريون والنقاديون ، على الرمي ، وعلى صلة ببقية الحاميين الليبيين ، وكان شأنهم في ذلك شأن قبائل البشاريين والصوماليين الحاميين الذين يشتغلون بالرعي في صحاروات النوبة حتى الآن . (الكسندر شارف ، تاريخ مصر من فجر التاريخ - تعريب عبد المنعم أبو بكر . ص ١٥ - ١٦)

وتدعو آراء شارف إلى أكثر من تساؤل : فهل عرفت الدلتا الزراعة حقاً واستقرت عليها قبل الصيد على الرغم من كثرة مناقعها وكثرة تعرضها للفيضانات ؟

وهل كان لصلة أهلها بجنس البحر المتوسط أثر في معرفتهم بالزراعة على الرغم من أن هذا الجنس لم ينتشر بالزراعة في جنوب أوروبا وغربها إلا بعد ألف سنة أو أكثر ؟

وإذا وصلت الصيد هجرات حامية رعوية كما يعتقد شارف ، فما الذي وقف دون انتشارها نحو مناطق مصر الوسطى والوجه البحري مع أن هذه المناطق ظلت أصلح للرعي من مناطق الصيد ؟

وهل يمكن أن تنسب الحضارات المتطورة في دير تاسا والبداري ونقادة إلى قوم من الرعاة الرحل أو نصف المستقرين ؟

ولم لم تكثر صور حيوانات الرعي في رسوم البداري ونقادة الأولى إذا كان أصحابها من الرعاة حقاً ، وشاعت بدلها رسوم شبه هندسية ؟

وذهب هرمان كيس إلى عكس ما ذهب إليه شارف ، فأكد أن سكان مرمدة كانوا بدوا نصف مستقرين يربون حيواناتهم المنزلية ويزرعون حبوبهم في مواسم إقامتهم . (H. Kees, op. cit., 4)

وتتبع ظاهرة أخيرة سجلتها مقابر مرمدة ، وهي أن معظم الهياكل التي وجدت بها هياكل نساء وأطفال ، بينما لم يوجد بها من هياكل الرجال البالغين غير القليل النادر ، وإذا أخذت هذه الظاهرة على علاتها كان فيها تأكيد لرأى يونكر بأن أهل مرمدة كانوا نصف مستقرين وأن بعض رجالها كانوا يموتون خلال تجوالهم ويدفنون خارجها ، ولكن يلاحظ إلى جانب ذلك أن القرية لم يكشف منها حتى الآن غير أطلالها ، وقد يؤدي إتمام الكشف عنها إلى العثور عن مدافن خاصة للرجال البالغين أو تتضح مقابر أخرى تجمع بين البالغين من الجنسين معا (٧٠) .

ولم يترك أهل مرمدة شيئا يدل على عقائدهم ، ولكن يونكر رأى في بقايا فئسار أفراس النهر التي وجدت قرب مداخل مساكنهم ما يحتمل معه أن أصحاب المساكن وضعوها بلحمها قربانا لأربابهم وشكرا لهم على توفيقهم إياهم في صيد أفراس النهر التي كانوا يصيدونها للحومها وعظامها وأسنانها وجلودها (٧١) .

جمعت بين مرمدة بنى سلامة وبين منطقة حلوان طريقة بناء المساكن وعادات الدفن ، وجمعت بينها وبين سلالات البحر المتوسط فيما يعتقد يونكر ، عادات الدفن أيضا ورؤوس مقامع القتال الكثيرة الشكل ، سواء عن طريق الصلة الحضارية المباشرة أو غير المباشرة ، وجمع بينها وبين منطقة الفيوم في نفس العصر تشابه الأدوات الحجرية وبعض أنواع الفخار ، وذلك مما جعل أكثر من باحث يسلكهما في مجموعة حضارية واحدة وينسبهما إلى مرحلة زمنية واحدة وهي المرحلة النيوليتية (٧٢) .

وعارض هذه النتائج كل من باومجرتل ودى بونو ، ورد كل منهما حضارة مرمدة إلى العصر الكالكويتى أى العصر الذى بدأت مناطق الصعيد تعرف فيه استخلاص النحاس واستعمالا إلى جانب استعمال الحجر منذ أواخر الألف الخامس ق م ، أو إلى الفترة السابقة لقيام الأسرات التاريخية مباشرة في أواخر الألف الرابع ق.م. واحتجت باومجرتل بأن منافع الدلتا ونباتاتها المتكاثفة لم تكن تسمح بقيام حضارة مبكرة في أرضها ، كما احتج دى بونو بأن السر في عدم معرفة أهلها للنحاس خلال العصر

وأدلت باومجرتل بدلونها ، فاعتبرت اتجاه أهل الصعيد إلى دفن موتاهم في جبانة مستقلة دليلا على رقيهم عن أهل مرمدة الذين وقفوا عند تقليد أسلافهم الأقدمين أهل الدهر الحجري الوسيط في دفن موتاهم بين مساكنهم (مع أنه ما من شيء معروف عن مقابر أهل الدهر الحجري الوسيط أو مساكنهم ! (op. cit., 21) ومن تضارب هذه الآراء ، تتضح صعوبة تقرير شيء قاطع عن لون الحياة التي عاشها أهل فجر التاريخ ، وصعوبة تقرير شيء قاطع عن مدى السامية أو الحامية فيهم . (cf. VANDIER, op. cit., 102-103.) ويلاحظ أن عادة دفن الأطفال الصغار في البيوت ظلت تتبع من حين إلى آخر خلال فجر التاريخ ، وخلال العصور التاريخية نفسها ، وبما إثارا لعدم الكلفة ؛ أو اعزازا للأطفال واطمنئانا إلى أرواحهم البريئة المسالمة .

(٧١) Merimde, 1933, 80.

(٧٢) Ibid., 1929, 180f.; CATON-THOMPSON & GARDNER, The Desert Fayum, I, 89, f. O. MENGHIN, in Merimde,

1932, 83 f. Scharff, Altertümer,

الكالكوليتي في الصعيد ، هو أن ذلك المعدن تيسر لأهل الصعيد في صحرائهم الشرقية أكثر مما تيسر لأهل الدلتا سواء في غربها أى في مرمدة ، أو في شرقها ، أى في منطقة حلوان (٧٣) .

ولا تخلو هذه الاعتراضات من وجهة ، ولكن يلاحظ إلى جانبها ، أن حضارة مرمدة قامت على حافة الدلتا ولم تنشأ في الدلتا نفسها ، وأن قرب مدن العراق الجنوبية من نقطة التقاء الدجلة والفرات ومن مناطق المناقع القديمة لم يمنع قيام حضارات زاهرة فيها سبقت عصور الحضارة السومرية (٧٤) ، وأن مرمدة لم تكن بمعزل عن بقية مواطن التجمعات في القطر، ولم يكن أهلها على حال كبيرة من الخمول بحيث يقال إنهم تأخروا عن ركب الحضارة في العصر الكالكوليتي وظلوا يعيشون خلاله على حضارة العصر النيوليتي ، وأن اقتصاء دة دفن الموتى بين المساكن عليهم وعلى بعض أهل حلوان يدل على أنهم عاشوا في عصر بعيد لم تكن عادات الدفن المصرية قد استقرت فيه في صورتها النهائية (وإن كان دى بونو و باو مجرتل يردان على ذلك بأنه من المحتمل أن يكونوا قد ورثوا عادات الدفن بين المساكن عن أسلافهم) (٧٥) .

وجعل الكسندر شارف حضارتى مرمدة والفيوم معاصرتين لحضارتى ديراتسا والبدارى في الصعيد أو قريبتين منهما ، وتخير عام ٤٠٠٠ ق.م تاريخا عاما للجميع ، ولو أنه ليس من السهل بطبيعة الحال الأخذ بمثل هذا التحديد الزمنى والتعميم الحضارى بالنسبة إلى قضايا التاريخ القديم (٧٦) .

٢ - في حضارة حلوان

امتدت منطقة حلوان النيوليتية بين حلوان الحالية ونهاية وادى حوف أو مصبه ، وهو واد قديم كان يجرى بالسيول إلى النيل ثم جف من زمن طويل . واتسعت هذه المنطقة لمجموعتين من السكان ، كانت لكل مجموعة منها عاداتها في بناء المساكن والمقابر . مجموعة نزلت إلى الشرق في منطقة العمرى الحالية ، وأخرى سكنت إلى الغرب قريبا منها . وكشف عن أطلال القرية الأولى كل من Bovier-Lapierre ومساعده أمين العمرى ، ثم كشف عن أطلال القرية الثانية F. Debono في موسم متقطعة بين ١٩٤٣ و ١٩٥٢ .

BAUMGÄRTEL, op. cit., 25. (٧٣)

(٧٤) استشهد بهذه القرينة الاخيرة الاستاذ فلاديمير فيكتيفي في مناقشة خاصة .

(٧٥) وراجع هامش ٧٠ عن رأى باومجرتل .

A. SCHARFF, "Neues zur Frage der ältesten ägyptisch-bab ylonischen Kulturb eziehungen", in ZÄS (٧٦)

LXXI (1935), 89 f; "Die Bedeutungslosigkeit des sogenannten ältesten Datums", in Hist. Zeit. 1940,

30; Die Frühkulturen Ägyptens und Mesopotamiens, 1941, 38. "

وذلت عمليات الكشف الأولى على أن أهل الناحية الشرقية من المنطقة تعمدوا أن يهدوا لأكرائهم جانبا من هضبة مجاورة ترتفع قليلا عن مستوى سطح الوادى، واستطاعوا أن يجعلوه مستويا بعض الشيء، وذلك مما يشهد لهم بأمرين، وهما : وجود نوع من التعاون المشترك بينهم على نحو ما وجد نوع من التنظيم الاجتماعى بين جيرانهم أهل مرمدة، ثم حرصهم على أن تصبح أكوأخهم بآمن من السيول التى كانت تجرى فى الوادى خلال مواسمها السنوية وبآمن من اعتداءات من كانوا يحيطون بهم من أهل القرى الأخرى أو أهل البادية (٧٧).

لم يعثر بوقيه ومساعدته على هذا الجانب من الهضبة على مساكن أو أكوأخ ظاهرة، وإنما دلته عليها حفر المواقد وبقايا أدوات الاستعمال اليومي. وكانت المواقد مواقد خاصة، يتوسط كل موقد منها مسكنا أو يقوم بجواره. وعثرا حول المواقد وداخل منطقة السكن على كثير من بقايا أواني الفخار والمراحي والحصير والقش المجدول والليف المجدول والإبر العظمية وودع القلائد وما إلى ذلك من أدوات الاستعمال اليومي المعتادة.

ورتب بوقيه على ما وجده من الأفهار والشظايا والمطارق الحجرية تيجتين، فهو قد وجد بعضها مصنوعا وبعضها لا يزال غفلا، ووجد أقلها داخل منطقة المساكن ووجد أكثرها فوق مساحة مرتفعة خارج منطقة المساكن، فاستنتج من ذلك أن صناعة الأدوات الحجرية كانت تجرى داخل المساكن أحيانا، وتجرى خارجها أحيانا أخرى (٧٨)، وبمعنى آخر كان كل رجل يستطيع أن يشكل بعض أدواته بنفسه داخل كوخه، كما كان يستطيع أن يحصل عليها عن طريق المبادلة من صناع محترفين يصنعونها خارج حدود القرية فى محجر مناسب.

وعثر بوقيه وزميله لأهل الناحية الشرقية على جبانة مستقلة تخبرها خارج منطقة مساكنهم، ووصلوا بينها وبين مقابرهم بطريقين مهيدين بعض الشيء، ووضعوا فوق كل مقبرة من مقابرهم بضعة أحجار صغيرة تدل عليها وتحدد مكانها. وقد ظهر لهذه الطريقة المتواضعة فى تحديد مواضع المقابر ما يشبهها فى عصورها قبل الأسرات وفى المقابر الفقيرة لبعض العصور التاريخية نفسها (٧٩). وكانوا يضعون رأس المتوفى ناحية الجنوب ويوجهون وجهه ناحية الغرب فى أغلب الأحوال.

BOVIER-LAPIERRE, "Une Nouvelle Station Néolithique", Compte rendu du Congrès international de Géographie du Caire 1925 (t. IV 1926), 272.

Ibid., 272-273 (٧٨)

BOVIER-LAPIERRE, in Chr. d'Ég. 1932, p. 60; 1936, p. 54. and see also, Ann. S. XLVIII, 564, pl. III, 2 (٧٩)

وفى العادى وعين شمسى. Chr. d'Ég. 1950, 233 f., Ann. S. 1954, 625f.

Ann. S. 1961, 59f. والقصر

وتخبر أهل العمري مرتفعا قريبا من منطقة المدافن ومهدوا فوقه مساحة متسعة أورتبوا في هذه المساحة أحجارا على هيئة الأكوام الصغيرة ، وأحجارا أخرى على هيئة الدوائر ، وخصصوها فيما يظن بوقبه لإقامة شعائر الدين وشعائر الموتى^(٨٠) .

وعثر F. Debono في الناحية الغربية من القرية على آثار نوعين من المساكن يشبهان مساكن مرمدة ، نوع يبني في حفر شبه مستديرة وآخر خفيف يتخذ هيئة البيضاوي وتدعم جوانبه بأوتاد . وتختلف في مساكن النوع الأول بقايا حصير كان يغشى جوانب الحفر ويساعد على تحديدها وتسويتها ويحول دون تسرب الرمال والحصى منها^(٨١) . ووجد مطاير تشبه مطاير مرمدة ، حفرها أصحابها في باطن الصخر أحيانا وفي الرمال والحصباء أحيانا أخرى ، داخل منطقة المساكن نفسها^(٨٢) . وجرى أغلب أهل المنطقة الغربية على عادة أهل مرمدة في دفن موتاهم ، فدفنهم داخل المساكن أحيانا وفيما بينها أحيانا أخرى^(٨٣) ، بينما اتبع فريق منهم عادة أهل المنطقة الشرقية فدفنوا موتاهم خارج منطقة السكن^(٨٤) .

اتسعت منطقة حلوان إذون في مرحلتها النيوليتية لحضارتين بدائيتين لم يتفق حتى الآن على تعيين أقدمهما ، ولا على مدى معاصرة إحداهما للأخرى ، ولم يتفق كذلك على توقيت عهد الحضارتين بالنسبة إلى بقية القرى المصرية النيوليتية ، واتجه الظن حتى الآن إلى اعتبار المنطقة الشرقية هي الأقدم ، ولهذا يرمز إليها عادة باسم حضارة حلوان (١) أو حضارة العمري ، وأن المنطقة الغربية كانت لاحقة لها ولذلك يرمز إليها عادة باسم حضارة حلوان (ب) .

على أن أطرف ما ينسب إلى أهل حلوان هو أنه عثر على عصا قصيرة بسيطة في يد أحد موتاهم ، ويحتمل أنها كانت من شارات الحكم ، وأنها كانت تلف بكمكان أو غيره وتزخرف بما يليق بمكانة صاحبها . أما توقيت الحضارتين مع فاتجه الظن كذلك إلى اعتبارهما متأخرتين في الزمن عن بقية القرى النيوليتية التي كشف عنها حتى الآن ، وهي مرمدة والفيوم ودير تاسا ، وإن كانت أكثر اتصالا بحضارة مرمدة عما سواها . لكن دي بونو ذهب مذهبا جديدا لا يزال يتمثل الشك ، فاعتبرهما متأخرتين عن المرحلة النيوليتية كلها وجعلنهما معاصرتين لعصر نقادة الأولى الصعيدية في المرحلة النحاسية الحجرية ، وإن لم يهتد أهلها إلى استخدام النحاس كما اهتدى إليه أهل نقادة وأهل البداري من قبلهم^(٨٥) (راجع ص ١١٣ وما بعدها) ، ولكنه لم يقدم أدلة كافية لإطلاقا لتأييد رأيه .

(٨٠) لا يتمسك بوقبه بهذا الظن ، ولكنه لاحظ الى جانبه وجود منطقة صغيرة زادت فيها بقايا الاواني الفخارية ومخلفات الوقود وعمليات الطبخ ، وتساءل عما اذا كانت مطبخا عاما للقرية ، ام كانت مكانا مخصصا لتجهيز القرابين ونحر الاضاحي (op. cit., 274)

(٨١) Ann. S. XLVIII, 563, pl. I, 1, II, 2; Chr. d'Eg. 1946, Fig. 9,10.

(٨٢) Chr. d'Eg. op. cit., Fig. 6; Bull. Inst. d'Egypt, 1955, 333.

(٨٣) Ibid., :30; Chronique, op. cit., 51, Fig. 6-7; Ann. S. op. cit., 564-65, pl. II, 2-3; III, 1

(٨٤) F. Debono, dans Bull. de l'Inst. d'Egypte, op. cit., 324, 338.

(٥) Ibid., 339.

٣ - في الفيوم

تشغل الفيوم منطقة من مناطق الحواف ، ولكن يسرت لها حياتها وعوضتها عن بعدها عن النيل في عصورها القديمة ، بحيرتها الكبرى التي كانت عذبة الماء كثيرة الأسماك تستهوى صنوفا عدة من الحيوانات (ومنها الفيلة) ، وتتصل بالنيل بفروع مائية تصب فيها في أغلب الأحوال ، وتصرف ماءها إليه في أقلها (٨٦) ، وذلك فضلا عن خصوبة مدرجاتها التي سمحت بنمو النباتات الطبيعية فيها وصلاحيتها للزراعة .

وجرى الكشف الأثرى حتى الآن في منطقة صغيرة من الفيوم القديمة ، تختصر في بقاع متفرقة من قصر الصاغة وديمة وكوم أو شيم ، وتوزع العمل فيها ونقلا لاعتبارين وهما : اختلاف مستوى المدرجات التي ترك أهل بحر التاريخ آثارهم عليها منذ انكشفت مساحة البحيرة وانخفض ماؤها انخفاضاً تدريجياً وترك حول شاطئيه مدرجات متتالية من رواسبه . . . ، وهي مدرجات رقت ترقيا اصطلاحيا تبعا لارتفاع مستوى كل مدرج منها عن سطح الماء .

ثم اختلاف الأكوام التي تراكت فيها مخلفات أهل بحر التاريخ، وهي أكوام رمز إلى كل كوم منها برمز هجائي اصطلاحى ، مثل كوم (A) ، كوم (B) ، كوم (W) . . . إلخ .

وشهدت منطقة الفيوم في العصر الحجري الحديث حضارتين متوازعتين متعاقبتين شأنها في ذلك شأن منطقة حلوان . حضارة عاش أهلها فوق مدرج متسع عاصر المرحلة التي بلغ ارتفاع مستوى ماء البحيرة فيها عشرة أمتار فوق مستوى سطح البحر أو نحو ١٨٠ قدما فوق مستوى مائها الحالى ، وجرى الاصطلاح على تسمية حضارتهم باسم حضارة الفيوم^(٨٧) .

وحضارة أخرى أعقبت الأولى وعاش أهلها فوق مدرجين متسعين عاصرا مرحلتين بلغ ارتفاع مستوى ماء البحيرة فيهما أربعة أمتار و مترين على التوالى فوق مستوى سطح البحر أو نحو ١٦٠ قدما فوق مستوى مائها الحالى ، وجرى الاصطلاح على تسمية حضارتهم باسم حضارة الفيوم ب .

حضارة "الفيوم أ" :

كشفت في مدرج هذه الحضارة عن منطقة السكن وحدها دون منطقة المقابر ، ولم يعثر فيها على أطلال مساكن ظاهرة ، وإنما عثر فيها على مواقع المواعد التي كانت تتوسط البيوت ، وعلى عدد كبير

(٨٦) راجع ص ٥٤ من مستويات البحيرة وانساماتها - وراجع من عظام فيلة ونباتات متحجرة حول البحيرة

G. Caton-Thompson & E.W. Gardner, The Desert Fayum, London 1934, p. 14, 34, pl. II, 3, 6.

(٨٧) Ibid., pl. III, 4, XXI, XXXII; Huzayyin, op. cit., 296, 298.

من الأقدام (حتى عام ١٩٢٩) I, 73. SANFORD & ARKEL, op. cit.,

من أدوات الاستعمال اليومي مثل الأواني الفخارية ومراحي الحبوب وأدوات الزينة المتواضعة وأدوات الزراعة والصيد ، شأنها في ذلك شأن منطقة السكن في منطقة حلوان ١ .

شارك أهل الفيوم أهل عصرهم في صناعة الفخار ، واستخدموا مسحوق المغرة الحمراء في تلوين أوانيتهم ، وصنعوا أواني ذات قواعد تشبه السلطانية الحالية ، وأخرى ذات ثلاثة قوائم صغيرة مثلثة ، وصحافا وأحواضا (؟) على هيئة القارب ، ولكن ظلت أوانيتهم الفاخرة أقل جودة وتنوعا من أواني أهل الحضارات الأخرى التي عاصرتهم (٨٨) .

ومارسوا الزراعة ، شأنهم في ذلك شأن معاصريهم أيضا ، ولكن لوحظ في عاداتهم الزراعية أنهم لم يستخدموا الأجران المستقلة ، واعتادوا على ضرب الحبوب وتذريتها في مواضعها من الحقول ، ويحتمل أنهم استخدموا لها مضارب خشبية على هيئة العصي القصيرة (٨٩) ، وخرجوا بمطامير غلالهم عن منطقة المساكن وحفروها فوق روبة عالية بعض الشيء بعيدة عن مساكنهم ، ورتبها في ساحتين ترتفع إحداهما عن مستوى الأخرى (٩٠) . وحفروا كل مطمورة فيها على هيئة مستديرة تفاوت قطرها بين القدم والأربعة أقدام ، وتفاوت عمقها بين القدم والثلاثة أقدام . وكسوا قاعها وجوانبها بأغشية من الخوص والقش والحصير وأعواد الأثل ، كانوا يلصقونها بها في أغلب الأحوال بملاط من الطين (٩١) . واحتفظت مطاميرهم بقايا نادرة من القمح والشعير وبذور الكتان وبذور نباتات أخرى تفحم بعضها ويبقى بعضها الآخر بحالة مقبولة حتى الآن (٩٢) . ونسب الجدل حول مطامير الفيوم على اعتبارين وهما :

(٨٨) CATON & GARDNER, op. cit., pl. XV, 1-3; XVI, 12; XVIII; XX, 48.

(٨٩) Ibid., pl. XXIX, p. 45-46.

(٩٠) ارتفع أحد المستويين عن الآخر بنحو تسعة أمتار ، وتضمننا نحو ١٨٣ حفرة خصص أغلبها للفلال ، وتضمن أقلها أصناف الخزين الأخرى مثل أواني الفخار وقطع الخشب والنسيج والقواقع والأدوات الحجرية . (Ibid. p. 41f. pl. XXV, 2).

(٩١) Ibid., pl. XXV, 3-6; XXXVI, 3,6,7. ووجدت في بعض الحفر سلال كبيرة ، وألحقت بإحدى المطامير حفرة صغيرة أخرى وضعت فيها جرة . (Ibid., p. 44, 46, pl. XXVI, 2,5) وكانوا يغطون بعض مطاميرهم بقطع مستديرة من القش المضفور . ولا زال بعض أهل قرى الجزائر يختزنون غلالهم في مطامير مشابهة يضعون الحبوب فيها بين طبقتين من القش ويلبسون الطبقة العلوية منهما بالطين . (cf. VANDIER, op. cit., I, 83)

(٩٢) CATON & GARDNER, op. cit., pl. XXXI. 1-14.

ودلت بقايا شعير الفيوم على أنه كان من نوع شعير شمال أفريقيا المحلى وليس من صنف الشعير الآسيوي ، وذلك مما يعني أن المصريين هجنوه وحولوه من حالته البرية إلى حالته الزراعية في أرضهم . وأضاف Jackson ،

أن شعير الفيوم لا يختلف عن الشعير المصري الحالي ، وذلك مما يعني أن زراعته القديمة قطعت مرحلة طويلة سبقت المهد الذي وجدت بقاياه خلاله في الفيوم ، وأنه تحول في هذه المرحلة من خصائصه البرية إلى خصائصه الزراعية وبلغ فيها مرحلة من النضج راها أهل المصور التاريخية نفى بمطالبتهم ولم يجدوا داعيا

معا لتغييره . see his report, in The Desert Fayum, p. 46f.

أنها تجمعت مع بعضها البعض في منطقتين متقاربتين ، وأنها استقلت بنفسها عن منطقة السكن .
وذلك على خلاف مطامير مرمدة وحلوان ١ التي عثر عليها فردية متفرقة وعثر عليها بين المساكن أحيانا
وداخل المساكن نفسها أحيانا أخرى ..

وحاول هزمان يونكر أن يفسر أسباب الاختلاف بين مطامير الحضارتين ، مطامير الفيوم ومطامير
مرمدة وحلوان ١ ، فكان من رأيه أن اجتماعها مع بعضها في الفيوم يدل على شيوع الملكية الزراعية بين
أصحابها ، في حين يدل تفرقها في مرمدة وحلوان ١ على استقلال كل فرد من أصحابها بملكيتها الزراعية
ومحاصيلها (٩٣) ، أو بمعنى أصح يدل على استقلال كل أسرة من أسرها بملكيتها الزراعية ومحاصيلها .

ولا يخلو رأى يونكر بالنسبة إلى الفيوم من غلو ، فمن الصعب فيما يبدو أن تخيل رقى المشاعر
والتعاون في ذلك العصر البعيد إلى حد الرضا بشيوع الملكية وتأميم المحاصيل (٩٤) .

وزجت كيتون طومسون برأى آخر رأت فيه أن أهل الفيوم اضطروا إلى الابتعاد بمطاميرهم عن
منطقة السكن خوفا عليها من رطوبتها وانخفاض مستوى أرضها وقربها من شواطئ البحيرة (٩٥) ، وهو
رأى أكثر منطقية وعملية من رأى يونكر ، ويمكن أن يضاف إليه أن أهل الفيوم تعمدوا جمع مطاميرهم
في مكانين متقاربين لتسهيل عليهم حراستها .

والغريب أنه على الرغم من كل هذا الجدل عن مطامير الفيوم لوحظ أنها بسيطة نسبيا ، وأنها أقل
سعة وأقل عددا من مطامير مرمدة ، وذلك مما يعنى أن أصحابها لم يعتمدوا على الزراعة اعتمادا كبيرا .
ولأنما اعتمدوا إلى جانبها على أسماك البحيرة وما كان يرد إلى شواطئها من الحيوانات البرية (٩٦) ،
ويندوا أنهم لم يهتموا كثيرا بتربية الحيوانات ورعيها ، حيث دلت على قلة أهميتها في حياتهم قلة البقايا
المتخلفة عنها في قريتهم ، ويحتمل أنه صرفهم عن الاهتمام الكبير بها كثرة الحيوانات البرية والمائية
التي كانت تشكل خطرا عليها عند شواطئ البحيرة .

ولم يعثر على مقابر أهل الفيوم ١ حتى الآن في منطقة مساكنهم على خلاف ما كان الأمر عليه في
مرمدة وحلوان ب ، فزبل كان ذلك لأن عاداتهم في الدفن كانت مختلفة وكان شأنهم فيها شأن أغلب
أهل حلوان ١ ؟ أم أن رطوبة منطقة مساكنهم هي التي أجبرتهم على فصل مدافنهم في منطقة جافة
شأنها شأن مطاميرهم ؟ (٩٧)

(٩٣) Merimde, 1933, 5 f.

(٩٤) see also, VANDIER, op. cit., 185, n.4.

(٩٦) Ibid., 89.

(٩٥) CATON & GARDNER, op. cit., 91.

(٩٧) Ibid., 91.

أرخت كيتون طومسون حضارة الفيوم ١ بأوائل الألف الخامس ق.م ، واعتبرتها أقدم قليلا من حضارة مرمدة ، ووافقها حزين واعتبر تاريخها تاريخا مبنيًا على أسس جيولوجية سليمة (٩٨) ، ولكن عارضها كل من منجن وشارف وياومجرتل (٩٩) . ورأت كيتون في أدواتها الحجرية ونفاها ما يرجح اتصالها بأهل مرمدة ، وإن ظلت حضارتها ، أقل رقيًا منها ، سواء في صناعة الفخار ، أو في عدم معرفة استخدام المغارف ، أو في عدم معرفة الملاخيت الذي كان يستخدم لتزجيج العيون وزينتها (١٠٠) ، ولو أنها امتازت من ناحيتها باستخدام القواقع والعظام وقشر بيض النعام لأغراض الزينة (١٠١) ودلت كثرة الأصداف التي وجدت في مدرج ١٠ على اتصال أهلها ، فيما تعتقد كيتون بمناطق البحر الأحمر والبحر المتوسط (١٠٢) (اتصالا غير مباشر؟) ، وكان من هذه الأصداف ما يستخدم استخدام الملاعق والمغارف والشصوص ، فضلا عن أغراض الزينة . وظهرت آراء أخرى حاولت أن تربط بين حضارة الفيوم وأهلها وبين حضارات بعيدة عنها ، فإول فلندرز يرى أن يربط بينها وبين حضارة قوقازية قديمة على أساس ما رآه من تشابه بعض الأدوات فيها ، وهي محاولة مسرفة اعتمدت على شواهد قليلة لا يعتد بها . وحاولت ياومجرتل بدورها أن تربط بين أهل الفيوم وأهل النوبة باعتبارهم جميعا من الحاميين (١٠٣) وكانت محاولتها محاولة مفتعلة هي الأخرى ، لاسميا أن لم يعثر حتى الآن على هياكل لأهل الفيوم يمكن نسبتها إلى حاميين أو ساميين (*)

HUZAYYIN, op cit., p. 295. (٩٨)

(٩٩) أراجع منجن حضارة الفيوم ١ الى حوالي ٤٠٠٠ ق.م O. MENGHIN, Merimde 1932, 83f., Maadi, I, (1932), 53f. ووافق الكسندر شارف A. SCHARFF, Frühkulturen, 38. (مع ملاحظة ان شارف من انصار تقصير آمد

التواريخ المصرية القديمة الى أقصى حد) .

CATON, op., cit., p. 89, 91-92, and in Ancient Egypt 1928, III, 70f. (١٠٠)

ووافق يونكر على تشابه الادوات الحجرية في الحضارتين ، ولكنه اشار الى اهمية الفوارق في صناعة فخارهما (Westdelta, 27; Merimde 1929, 180f.)

ورأى شارف أن نواحي التماثل والتشابه بين الحضارتين تجعلهما بنتى من تنتميان الى فصيلة واحدة (Altertümer, I, 14)

وسلكها منجن تحت اسم واحد ، ولكنه رأى أن رقى الادوات المرمدية النسبي يدل على انها قطعت قبل ذلك مرحلة قديمة تسبق مرحلة حضارة الفيوم . ولهذا أرجع هذه الحضارة الأخيرة الى بداية الألف الرابع ق.م. (راجع هامش ٩٩)

واكد حزين صلة الفيوم بمرمودة من ناحية وبالبدارى من ناحية اخرى (٤) (op. cit., 296)

(١٠١) ووجدت بين أدواتهم عظام مجوفة يحتمل أنهم كانوا يحفظون فيها الابر العظمية والحجرية الدقيقة ، او يحفظون فيها مسحوق اللون الأحمر .

عن الادوات العظمية وخرز الفلسبار والتماثل والاصداف

CATON, op cit., pp. 22, 32f, 40, 78, 85, pls. VII, 3, XII, XXXI, XLVII.

Ibid, 34, 76-88. (١٠٢)

BAUMGÄRTEL, op. cit., 49 (١٠٣)

- ويبدو أنها اعتمدت في رأيها على العثور مصادفة على جمجمة زنجية هناك

(London Illustrated News, 5 February, 1938, 212)

استمرت حضارة "م" في الفيوم أمدا طويلا وأعقبت صناعتها صناعة أخرى متدهورة فأرختها كيتون طومسون بما بين ٤٥٠٠-٤٢٠٠ ق . م ، وأطلقت عليها اسم حضارة "ب" ، وهي حضارة أسلفنا أن أصحابها عاشوا على مدرجين يرتفعان بنحو أربعة أمتار ومترين عن سطح السهل الحالى على التوالى ، وعادوا بأدواتهم لأمر ما إلى مرحلة القزمية^(١٠٤) واقترضت كيتون طومسون في سبيل تفسير تدهور حضارتهم وصول هجرة جديدة إليهم من أصحاب الحضارة القفصية الذين كانوا لا يزالون يعيشون في صحراء شمال أفريقيا على أدواتهم القزمية التي عرفوها منذ الدهر الحجري القديم الأعلى ، ووصلت هذه الهجرة في رأيها إلى منطقة الواحة الخارجة ومنطقة الفيوم وغلبت أهلها على أمرهم وفرضت عليهم عقليتها وأدواتها^(١٠٥)

ولكن حزين لاحظ وجود فوارق بين الصناعتين القفصية والفيومية ، ومنها غياب الأشكال شبه الهندسية والمحتات القزمية من الصناعة الفيومية دون القفصية ، ورأى في أدوات الفيوم القزمية شها بأدوات حلوان ووادى العجبية في الشمال الشرقى ، وأدوات سيوة في الشمال الغربى ، وونان في الجنوب ، وافترض لذلك أن أصحاب الصناعات القزمية الجديدة وفدوا من جنوب الصحراء اللبية إلى الخارجة ثم إلى الفيوم وإلى غيرها من المواطن الضعيفة التي استطاعوا النزول فيها وربما امتدت هجرتهم حينذاك حتى فلسطين .^(١٠٦)

٤ - في دير تاسا

تعتبر الحضارة الناسية نموذجاً راقياً لحضارات الصعيد في مرحلته النيوليتية ، وهي حضارة تكفل بالكشف عن آثارها كل من الأثريين ج . برنتون وسامى جبره ، في منطقة تشمل قرى دير تاسا ونزلة المستجدة والحوالد ، وكلتا قرى صغيرة متجاورة تقع على حافة الصحراء وحافة الأرض الزراعية في مقابل أسبوط ، وتتخلل أرضها أودية قديمة صغيرة ، واعتمد البحث عن آثارها على محتويات المقابر وأكوام قليلة متفرقة تضمنت من أدوات الاستعمال اليومي نفس ما تضمنته المقابر^(١٠٧) ودلت المقبرة الناسية على عدة جوانب من عقائد أهلها في الموت وما بعد الموت ، فكانت في أغلب أحوالها عبارة عن حفرة صغيرة بيضاوية الشكل ذات أركان ملفوفة يبلغ عمقها نحو المتر أو أكثر بقليل ، ويبلغ قطرها العريض

CATON & GARDNER, op. cit. 58f. (١٠٤)

ولم يعثر بين مخلفاتهم حتى الآن على اوان فخارية (بمحض الصدفة ؟) أو أدوات نحاسية على الرغم من احتمال بداية معرفة النحاس حينذاك في الصعيد

cf. HUZAYYIN, op. cit., 298; Some New Light, 232, 235;

CATON & GARDNER, op. cit. 55, 90. (١٠٥)

HUZAYYIN, op. cit., 223-34; The Place of Egypt, 296f. (١٠٦)

S. GABRA, "Fouilles du Service des Antiquités à Deir Tasa", Ann. S. XXX, 147f.; G. BRUNTON, (١٠٧)

Mostagedda and the Tasián Culture, London, 1937; Some Tasián pottery in the Cairo Museum, in

Ann. S. XXXIV, 94 f.

أكثر من متر مربع متر بقليل . وامتازت في كثير من أحوالها بوجود دخلة أو فجوة غائرة في جدارها الغربي يضع أصحابها فيها آنية صغيرة أو كبيرة (١٠٨) . وكان أصحابها يوسدون المتوفى فيها على جانبه الأيسر على هيئة الانثناء ، بحيث تتجه رأسه إلى الجنوب ويتجه وجهه ناحية الغرب على نحو ما اعتاد بقية المصريين في أغلب عصورهم القديمة (١٠٩) ، ولكن على خلاف وضع المتوفى في مقابر مرمدة وحلوان .

ومن بين المقابر الناسية النموذجية التي يمكن التعقيب على محتوياتها ، مقبرة رقمها برنتون رقم ٢٤٨٠ (١١٠) ، وهي مقبرة دفنت فيها سيدة تحتضن طفلها الرضيع ، ووضع أهلها رأسها على كومة من القش تشبه الوسادة ولفوا جسدها بحصير (وقد تحلل القش والحصير إلى حد كبير) . وجاورت رأس المرأة لوحة صغيرة مستطيلة من الألباستر ظهرت على أحد وجهيها آثار مسحوق أخضر ، وظهرت على وجهها الآخر آثار مسحوق أحمر، ووضعت معها حصة صغيرة من الزلسبار، كانت صاحبها تستخدمها في صحن اللونين الأحمر والأخضر ، وخرزة كبيرة من الألباستر على هيئة المنشور ، وملقعة عاجية صغيرة ، وآنية من الفخار وضعها أهلها قرب ركبها ، بنوا ووضعوا على جسد طفلها ملقعة من العاج ومجموعة من الودع (عددها ١٨ ودعة) سلكوها في خيط طويل . ووجدت وسط الرديم الذي ملأ الحفرة عصا مدببة صغيرة من العاج .

ونعقب فيما يلي على عادات الدفن الناسية السابقة ، وعلى محتويات مقبرة السيدة وطفلها خاصة بما يصور حياة أهلها وعاداتهم :

ففي توسيد المتوفى على هيئة الانثناء ظهرت آراء ثلاثة: رأى قديم افترض أصحابه أنه كان وضعا مقصودا لذاته قلد المصريون به وضع الجنين في بطن أمه . (على أساس أن المقبرة تشبه بطن أم يخرج المتوفى منها إلى حياته الثانية) . وهو رأى لا يخلو من غلو كبير ولا يخلو من فلسفة راقية يصعب افتراضها لأهل ذلك العصر البعيد ، وإن لم يكن من بأس إطلاقا في افتراضه لأهل العصور التاريخية أصحاب الحضارات الناصجة . ورأى آخر قال به . ج . برنتون ورأى فيه أن وضع المتوفى على جانبه في وضع الانثناء يشبه وضع النائم العادي حين يستغرق في نومه ، وأن المصريين أكدوا هذا التشابه بوضع وسادة تحت رأس المتوفى تشبه الوسادة التي يستخدمها الأحياء في نومهم (١١١) ، وهو رأى مقبول . غير أن هناك رأيا ثالثا يحتمل معه أن

BRUNTON, Mostagedda, p. 5f. (١٠٨) ووجدت الاواني في ٤٢ مقبرة من ٥٢

(١٠٩) يعتقد شيرني أن توجيه المصريين لوجوه موتاهم ناحية الغرب ، تأتي من أن صحراءهم الشرقية كانت مطروقة وكانوا يعرفون أنها تنتهي عند البحر الأحمر ، وذلك على العكس من الصحراء العربية التي تفرب الشمس ناحيتها والتي لم يعرفوا حدودها لها (شأنها في ذلك شأن الابدية التي لا حدود لها) .

J. ČERNÝ, Ancient Egyptian Religion, p. 16

BRUNTON, op. cit., pls. XII, 46; XIII, 16-19. XXII, 25. (١١٠)

Ibid., p. 26 (١١١)

أغلب أهل فجر التاريخ اضطروا إلى إيثار وضع الانثناء لموتاهم نتيجة لضيق مساحة الحفرة التي كانوا يستطيعون حفرها بأدواتهم المتواضعة في طبقات الحصباء والرمل أو في الصخر نفسه، ثم اعتادوا على هذا الوضع بمرور الأجيال واعتبروه وضعا تقليديا عاديا، ولم يروا ضرورة ملحة للتخلي عنه حتى بعد أن ارتقت أدواتهم واستطاعوا أن يحفروا بها مقابر متسعة . وذلك مع تقدير أن العادات إذا تأصلت في أهلها أغنتهم في أغلب الأحوال عن ضرورة تحكيم المنطق والتماس التفسير والتعليل .

أصبح تكفين الجسد من العادات التقليدية الثابتة منذ عهد الحضارة الناسية ، إن لم يكن مما سبق عهدها من عهود وأصبح يرتبط بثناء المتوفى وثناء أهله ، بمعنى أن المتوفى لم يكن يكفن بالحصير وحده كما كفت صاحبة هذه المقبرة ، وإنما قد يكفن بجلد وحصير ، أو كتان وحصير ، أو كتان وجلد وحصير . . . ، و كان الجلد أو الحصير يحتوى المتوفى وأدواته معه في أغلب الأحوال ، وعثر برتون في إحدى مقابره المتميزة على عجوز وضعت على جثتها سبعة أو ثمانية جلود طويت أطرافها عند رأسها وقدميها وتحت جنبها ، ووضعت معها آنية صغيرة ثم غطيت العجوز وجلودها وآنياتها بفراء كبش كبير (١١٢) .

وليس من شك في أن وجود الحصير والجلود والكتان في المقابر الناسية ، يدل ضمنا على أن ثلاثتها كانت تستخدم في حياة أهلها الدنيا ، فيستخدمون الحصير لفرش أرضية المسكن وكساء جدار أو أكثر من جدرانها ، ويستخدمون الكتان في الملابس ، ويستخدمون الجلود كدثار للدفة . ويمكن أن يضاف هنا أنه عثر في بضع مقابر ناسية على ما يمكن أن يعتبر بداية التطور إلى التوابيت، وفيها كان الطفل يوسد فيها أحيانا فيما يشبه سلة مستطيلة من البوص والأغصان يغطيها حصير (١١٣) .

جاورت صاحبة المقبرة لوحها الصغيرة المستطيلة وحصاتها الصغيرة وقد أصبحت هذه اللوحة منذ المرحلة النيوليتية من الأدوات الضرورية لزينة المرأة ، ويمكن تسميتها اصطلاحا باسم الصلاةية . وكانت تصنع في الحضارة الناسية من الحجر الجيري والألباستر (١١٤) ، وتستخدم هي وحصاتها في صحن الدهنج الأخضر ، أى الكحل الأخضر ، لترجيح العيون وتقليل تأثرها بوهج الشمس وأمراض الرمد (١١٥) ، وتستخدم لصحن المغرة الحمراء أيضا ، وهى مادة حمراء كانت النساء يستعملنها للزينة ويستعملها الرجال

Ibid., pl. VI, 5, 8. (١١٣)

BRUNTON, op. cit., Tomb. 464, pl. XI. (١١٢)

Ibid., pl. XIII. (١١٤) وصنعت واحدة منها من الشست

راجع محمد أنور شكرى ، الصلايات ، تطور أشكالها ونقوشها ص ١ - ٢

(١١٥) ووجدت الصلايات في مقابر رجال ونساء ، وذلك مما قد يعنى ان استخدام الكحل كان شائعا للجنسين .

F. PETRIE, Prehistoric Egypt, 37, 47.; The Making of Egypt, p. 16; BRUNTON, op. cit., 6, :0,34;

BAUMGÄRTEL op. cit., 21.

في تلوين أواني الفخار (١١٦) . وجاور السيدة من متاع دارها ملعقة العاجية ، وهي ملعقة صغيرة لطيفة حلى طرف مقبضها بجوز طولية قليلة ، ودلت على الرغم من بساطتها عن ارتقاء أذواق أهلها وميلهم إلى اقتناء المصنوعات الثمينة ، ومنها الملاعق التي كانت لا تزال تعتبر حينذاك من أدوات الترف والزينة .

وتخلّفت للمرأة من زينتها خرزتها المنشورية الكبيرة، التي كانت فيما يبدو جزءاً من قلادة ، وتخلّفت من زينة ولدها حلقتة العاجية التي تشبه الإسورة ، ثم قلادة القواقع التي يحتمل أن أمه أعدتها له لترين وسطه بها أو أعدتها لنفسها لتتقلد بها حول جيدها ، ثم وضعها أهلها على جسد طفلها .

وتضمنت بقية المقابر التاسية عددا لا بأس به من الحلى الشبيهة بحلى صاحبة المقبرة السابقة وولدها، صنعها أصحابها من العظم والعاج والقواقع وحصيات الحجر الصغيرة ، وكان يتزين بها الرجال والسيدات والأطفال على السواء (١١٧) . واعتادت بعض الأمهات التاسيات على تزيين رؤس أولادهن بالريش القصير ، لكن هذه العادة ما لبثت حتى اختفت مظاهرها من المقابر منذ أوائل العصور التاريخية على أقل تقدير .

ويتبقى من متاع المرأة آنية الفخار ، وقد أصبحت هذه الآنية وأمثالها من ضروريات متاع المقابر يضعها أهل المتوفى عند ركبته كما وضعوها عند ركبتى صاحبة المقبرة ، أو يضعونها معه تحت الحصر كما وضعوها للسيدة العجوز التي ذكرنا أنها غطيت بسبعة جلود ، أو يضعونها داخل الفجوة الجانبية التي ذكرنا أنها كثيرا ما وجدت في الجدار الغربي لأغلب المقابر التاسية .

والواقع أنه ليس من سبيل إلى تحديد غرض التاسيين من وضع الأواني مع موتاهم، فضلا عن الحلى وأدوات الزينة وأدوات الصيد وما إليها ، في عصر لم تتضح فيه عقائد الدين نفوسا كفايا ولم تتضح فيه وضوحا كفايا ، والاحتمالات الثلاثة المقبولة لتفسير هذا الغرض ، هي :

أن إعزاز أهل المتوفى له كان يدعوهم إلى التضحية من أجله ببعض متاعه أو بعض متاعهم ، دون أن يرتبوا على ذلك ضرورة انتفاعه بهذا المتاع في دالم أكيد آخر . وذلك على نحو ما زدودوا جثة الطفل الرضيع بحلى كبيرة الحجم لم يلبسها في حياته ، ولن يستطيع أن يتنفع بها بعد وفاته . وعلى نحو ما وضعوا أسلحة حجرية تتعدى مطالب الحياة المنزلية في مقابر بعض نسايتهم (١١٨) وذلك مع ملاحظة أن أواني

(١١٦) PETRIE, Preh. Egypt, 37; BRUNTON, op. cit., 30, 57; 109.

(١١٧) راجع : محمد أنور شكرى ، الحلى وأدوات الزينة في عصور مصر الأولى - ص ٢

(١١٨) ووجد في مقبرة سيدة من العمرة نموذج فأس كبيرة نوعا من العاج (RANDALL MACIVER, El Amrah, p 41)

الفخار كانت لا تزال في ذلك العصر البعيد مما يعتد به من صنوف المتاع . أو أنهم كانوا يستخدمون الآنية التي اعتادوا على وضعها مع موتاهم في شعيرة من شعائر الدفن الأولية ، كأن يسكبوا منها ماء مطهرا أو سائلا معيناً على جسد المتوفى لتطهيره ، أو يثروا منها ماء في مكان دفنه بعد أن يتلو كاهنهم أو ساحرهم تعاويذه عليه ، ثم يتركوها مع المتوفى في قبره . أو أنهم بدأوا يؤمنون حينذاك بحياة أخرى ، يحيا المتوفى فيها حياة تناسبه ، ويحتاج فيها إلى وعاء يأكل ويشرب فيه ما يتكرم أربابه به عليه ، أو ما يضعه أهله معه من ماكولات وحبوب يطعمون أن تركوعنده وتريد ، بفضل ما يتلونه عليها من دعوات وتعاويذ (١١٩) .

على أنه مهما يكن من أمر فقد أصبح وضع الأواني مع المتوفى ضرورة لا بد منها ، واستمرت أعداد الأواني وأنواعها تزداد تبعا لزيادة ثراء أصحابها ، واستمرت أغراضها تزداد باتساع الفكرة عن عالم ما بعد الموت ، من عصر إلى عصر .

أخذ أهل دير تاسا بالزراعة كما أخذ بها أهل عصرهم ، وعثرين مخلفاتهم على عدد كبير من مراحي الحبوب كما عثر على كمية من الحبوب نفسها . وصنعوا بعض رؤوس فؤوسهم الكبيرة من الحجر الجيري (١٢٠) وصقلوها ، على خلاف المعتاد من صناعتها من الأحجار الصلبة الأخرى .

وشارك التاسيون أهل عصرهم في صناعة الفخار ، وبزوم في زخارفه ، فزخرفوا سطوح بعض أوانيمهم بتموجات خفيفة لطيفة عمودية أو مائلة يحتمل أنهم كانوا يحدثنونها بأمشاط صغيرة أو بقطع من الليف (١٢١) .

وصنعوا كؤوسا تشبه كؤوس زهرة التوليب من فخارهم الأسود المصقول ، وحفروا هيئة المثلثات والمستطيلات والخطوط المتموجة على سطوحها حفرا بسيطا قبل حرقها بطريقةتين ، فحفروا بعضها على هيئة خطوط وحزوز مستقيمة ومائلة وملأوها بجائن بيضاء تشبه عجينة الجبس الأبيض (١٢٢) ، وصوِّروا بعضها الآخر بنقط مشفورة متجاورة ، ثم ملأوها هي الأخرى بالجائن البيضاء نفسها ، ففرجت الكؤوس من تحت من أيديهم تشهد لهم بمهارة مقبولة وذوق سليم لطيف على الرغم من بعد عصرهم . وبلغ من حرصهم عليها أنهم كانوا يصلحونها إذا تشققت أو انكسرت ، بأن يثقبوا

(١١٩) See also cf. VANDLER, op. cit., I, 178.

S. GABRA, in Ann. S. XXX, 151, 156; BRUNTON, op. cit., 32, pl. XXXVI. (١٢٠)

ووجدت بعض رؤوس هذه الفؤوس في المقابر ، وأعتبرتها باومجرتل أقدم نماذج رؤوس الفؤوس المعروفة !
BAUMGARTEL, op. cit., 20

(١٢١) راجع : محمد أنور شكري ، الفخار في عصور مصر الأولى ، ص ١٠ ، ١٣ وهامش ،

BRUNTON, op. cit., 25, 27f.; Badarian Civilisation, 20, pl. XXIV,4; A. SCHARFF, Die Altertümer, I, 17f.;

SAMI GABRA, op. cit., 152.

BRUNTON, Mostagedda, pl. XII, XXVI; J.E.A., XIV, pl. XXVI, 1; Ann. S. XXXIV, 94f., pl. I. (١٢٢)

حول الجزء المكسور أو المشدوخ ، تقوبا ويشدونها إلى بعضها بخيوط من الكتان البدائي وشعر ذبول البقر (١٢٣) ، حتى إذا جفت تقلصت وضممت معها الجوانب المشدوخة .

ظهرت في توقيت الحضارة الناسية آراء ثلاثة ، رأى يراه أغلب الباحثين ومنهم برنتون وكيون طومسون ويعتقدون فيه أنها عاصرت حضارتى مرمدة والفيوم في مصر السفلى ومهدت للحضارة البدارية التالية لها ، وهو رأى مقبول ، وإن كان لا يبعد أنها تأخرت قليلا عن مرمدة والفيوم ، وأنه سبقها في الصعيد مرحلة حضارية أخرى مؤدت لها ولم يكتشف أمرها حتى الآن .

ورأى ناصرته Baumgärtel (١٢٤) وأكدت فيه أن الحضارة الناسية كانت أقدم حضارات الوادى في مرحلته النيوليتية ، وهو رأى لا يبرأ من إسراف كبير وشك كبير ، بجوانب الرقى النسبي التي بلغها النسيون في صناعة فخارهم وأدوات زينتهم وأدوات ترثهم ، يصعب أن تصور أنهم بلغوها بفاة وبدأوا بها حضارة عصرهم ، أو أنهم بلغوها في ركنهم القصى شرق أسبوط في وقت كان بقية أهل الوادى يغطون فيه في سبات عميق . وإنما المقبول أنهم بلغوها بعد مراحل تجريدية سبقتهم ، وبلغوها في نفس العهد الذى خطا فيه بقية أهل الوادى خطاهم في سبيل حضارات قريبة منها ، تمتاز عنها في بعض نواحيها ، وتختلف عنها في نواحي سواها .

ورأى ثالث ناصرته Debono واعتمد فيه أن الحضارة الناسية كانت تعاصر حضارة البدارى في الصعيد ، وهو رأى لا يخلو من شك كذلك ، فأهل البدارى وهم جيرانهم الأقربون قد عاشوا في عصر بدأوا فيه باستخدام النحاس كما سنتين بعد قليل ، وما كان أهل ديراتاسا ليتخلفوا عنهم في الاستفادة من اكتشاف النحاس الحديد الذى لم يوجد في مقابرهم على الإطلاق ، وهم على ما كانوا عليه من نشاط حضارى مقبول (١٢٥) .

ويبدو أن الصناعة الناسية استطاعت أن تتعدى حدودها المحلية ، فقد وجدت بعض نماذجها في منطقة الفيوم ، وفي النوبة (١٢٦) ، وإن يكن وصولها إلى النوبة قد حدث في زمن متأخر عن المرحلة النيوليتية . ولو حظ بعض التشابه بين خصائص رؤوس بلطها الحجرية وبين خصائص بلط الواحة الخارجة وذلك مما يعنى نوعا من الاتصال بينهما ، قد تكون ديراتاسا هى المؤثرة فيه وليس العكس (١٢٧) ، وإن اختلفت بعض صناعاتها الحجرية مع صناعة الوجه البحرى وصناعة حضارة البدارى التالية لها (١٢٨) .

BRUNTON, Mostagedda, pl. XI, 31, 33; XII, 40; also Badarian Civilization, p. 25. (١٢٣)

BAUMGÄRTEL, op. cit., 20 (١٢٤)

(١٢) راجع كذلك اختلاف المقابر بين الحضارتين ص ١١٦ ، ولا يتناقف هذا مع استمرار بعض العناصر الناسية خلال الحضارة البدارية (See BRUNTON, op. cit., 8, 32)

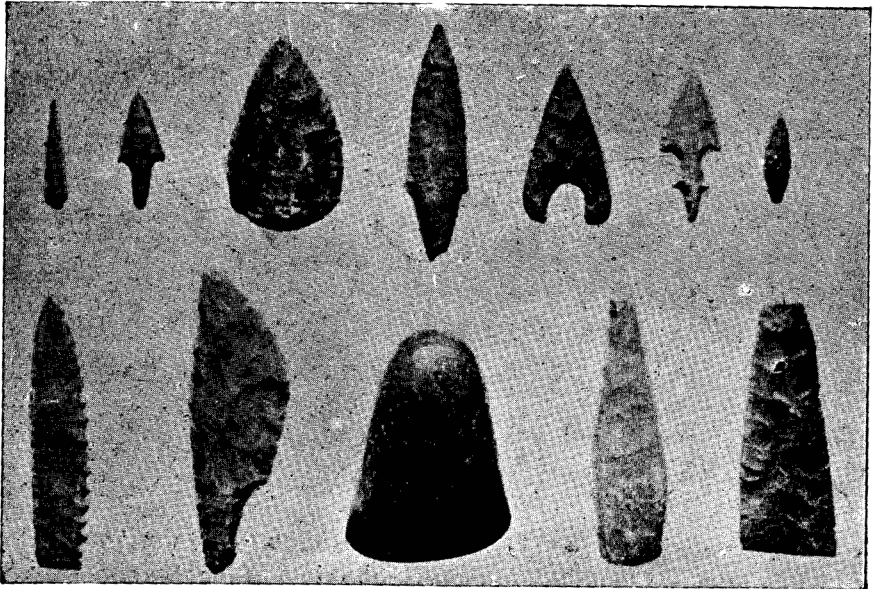
CATON & GARDNER, op. cit., 32, 40 (١٢٦)

HUZAYYIN, op. cit., 304-5 and n.2; S. GABRA, op. cit., 151, 156; BRUNTON, op. cit. 22. (١٢٧)

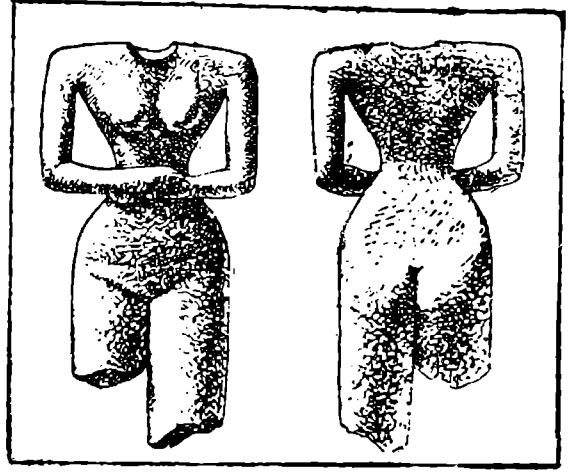
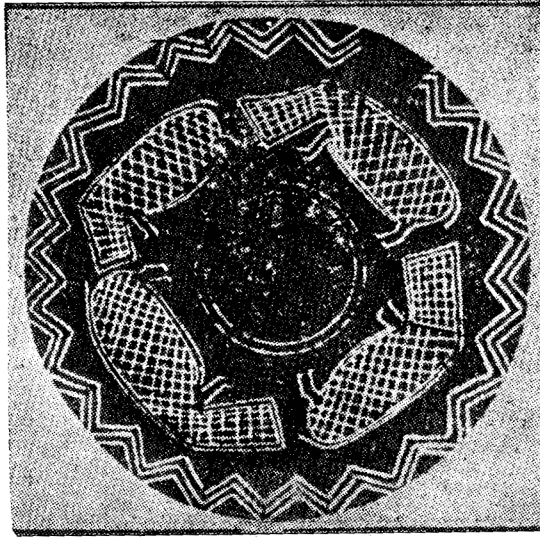
Ibid. 7f. (١٢٨)



شكل ٧ — بطل ذات رأسين (؟) من وادي الشيخ (ص ٧٤)

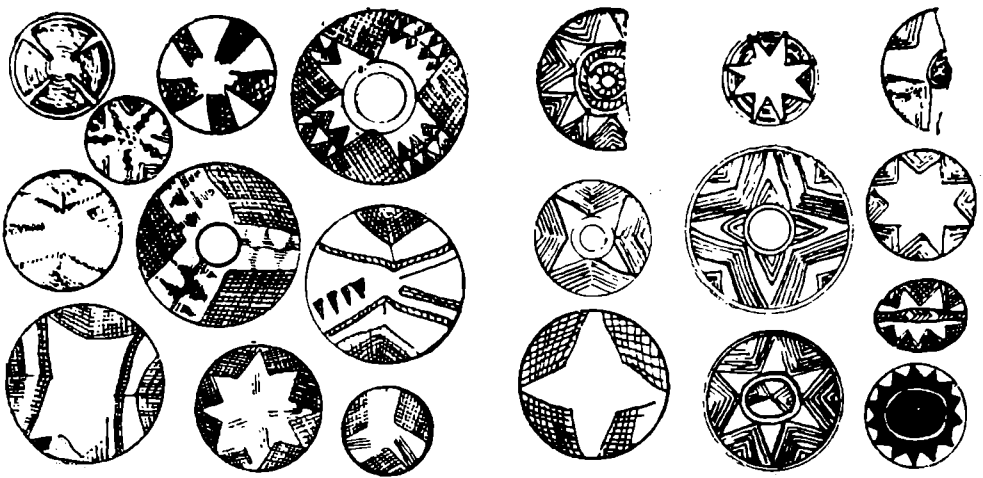


شكل ٨ — مهام متنوعة ورؤوس فزوس ومناجل ومناشير من العصر الحجري الحديث (ص ٨٧)



شكل ١٠ — دائرتان كدمتان وإطار من حرف وأربعة
أفراس نهر تخطيطية من قاعة الأولى

شكل ٩ — غادة من البدارى (ص ١٢٤)



شكل ١١ — زخارف تخطيطية من قاعة الأولى (ص ١٣٤)

الفصل الرابع

الحضارات النحاسية الحجرية

(أو عصر بداية المعادن) (*)

استمر أهل بحر التاريخ في تطوير مجتمعاتهم وتطوير أدواتهم هونا فهونا ، وكانت خطوتهم الرئيسية بعد معرفة الزراعة ، هي معرفة استخراج معدن النحاس من أخلاطه الطبيعية ، واستخدامه في صناعة الأدوات الصغيرة جنبا إلى جنب مع الأدوات الحجرية القديمة ، ودعا الجمع بين الأدوات النحاسية والحجرية الى تسمية عصرهما بالعصر الكالكوليتي أى عصر النحاس والحجر ، أو عصر بداية المعادن كما يسمى أحيانا ، وهو عصر بدأ منذ أواسط الألف الخامس ق . م على وجه التقريب وامتد في الاصطلاح التاريخي حتى بداية عصور الأسرات في نهاية الألف الرابع ق . م .

وظهرت آثار العمران والحضارة خلال هذا العصر في منطقة البدارى بأسبوط ومنطقة نقادة والعمرة وماحولها في قنا وسوهاج ، ومنطقة أبي صير الملق وجزرة عند مدخل الفيوم ، ومنطقة المعادى وطرة وعين شمس عند رأس الداتا القديمة ، ولا زالت بقية آثاره لم تتناولها يد التنقيب حتى الآن .

توفر النحاس في مصر في بعض مناطق شبه جزيرة سيناء مختلطا بكر بوناته الخضراء، وهي مادة الدهنج (أو الملاخيت أو التوتيا الخضراء)، وكر بوناته الزرقاء وهي مادة الأزوريت، وسليكاتة وهي مادة الحريسوكولا، وكلها مواد سطحية يمكن تحصيلها بأدوات بسيطة ويمكن صهرها بمجهود يسير^(١) . ويبدو أنه شجع المصريين على ارتياد مواطن وجوده في مناطق يتوفر معه فيها حجر آخر كانوا يستحبونه لزيئتهم وهو حجر الفيروز^(٢) .

(*) CHALCOLITHIC PERIOD ويطلق الفرنسيون عليها أحيانا اسم العصر الانبوليتي ENÉOLITHÉ

(١) تتوفر خامات النحاس في وادي مفارة وسرابوط الخادم وجبل أم رغا ووادي سمارة ووادي مالحة ووادي خارج ... في شبه جزيرة سيناء ، كما تتوفر في الصحراء الشرقية في وادي عربة وجبل عطوى ودارا وأمحميد وايبو سيال .. W.F. HUME, Geology of Egypt, Cairo 1934, Ch. VIII.

الفريد لوكاس : المواد والصناعات عند قدماء المصريين - تعريب زكى اسكندر ومحمد زكريا غنيم - القاهرة ص ٢٣٠ - ٢٤٢ ، ٢٤٣ - ٢٤٥

(٢) المرجع نفسه ص ٢٤٩

وليس من المستبعد أن يكون المصريون قد اهتمدوا الى استخلاص النحاس في بداية أمرهم عفواً ، وذهب الظن في تصوير مناسبات اهدائهم إليه إلى عدة فروض ، ومنها أن الأفران التي كانوا يحرقون فخارهم فيها كانت تتضمن قطعاً من أخلاط النحاس عن غير قصد أحياناً ، فلما تعرضت للحرارة الشديدة خلص النحاس منها وظهر بريقه فالتفت الأنظار إليه ، وأن ربات البيوت كن يتركن قطعاً من دهنج الكحل بجوار المواقد عن غير قصد ، فإذا اشتدت نار المواقد وصهرتها خلصتها من لونها الأخضر وأبقت منها رواسبها المعدنية البراقة . وذهب ألفريد لوкас إلى ما هو أبعد من ذلك ، فافترض أن حرص أهل ذلك العصر على إيجاد بديل رخيص للفيروز الثمين دفعهم إلى صناعة عجائن من الدهنج والنطرون ومسحوق الكوارتزيت ثم تعريضها لنار قوية ، ولما كان الدهنج من الأخلاط الغنية بالنحاس ، فقد كان من المنتظر أن يلحظ المصريون رواسبه النحاسية البراقة بعد تعريضه للنار الشديدة^(٣) .

ولما تكررت هذه الظواهر أو بعضها ، والتفت الأنظار إليها ، وظهر من المصريين من أدركوا مسيبتها ، أصبحوا يكرونها عن قصد ويحثون عن أخلاط النحاس في مواطنها القريبة والبعيدة ثم يصهرونها بوسائلهم البدائية اليسيرة .

١ - في البدارى

بدأ أهل البدارى باستخراج النحاس أو هذا على الأقل هو مادلت عليه الكشوف الأثرية حتى الآن^(٤) ، وبدأوا في استخراجها ببداية متواضعة فصنعوا منه مثاقب رقيقة حادة طويلة لتثقب حبات الخرز الطبيعي وصنعوا منه دبابيس طويلة لتشبيك الملابس والجلود ، وشكلوا منه خرز القلائد على هيئة أنابيب صغيرة مطوية وعلى هيئة أشرطة ملفوفة بطريقة حلزونية^(٥) .

انتشرت الحضارة البدارية في النصف الثاني من الألف الخامس قبل الميلاد في نفس المناطق التي شغلها الحضارة الناسية في مديرية أسيوط ، فعثر على بقاياها قرب قرى المستجدة والهامية والبدارى وقاوا الكبير (فضلاً عن نجوع صغيرة مثل الشيخ عيسى والشيخ علم الدين) ، ووجدت مثلها في مقابر وأكوام وعلى حواف وديان صغيرة على حافة الأرض الزراعية ، وأدت ظاهرة الحوار بين الحضارتين (الحضارة الناسية والحضارة البدارية) ، إلى رأيين في توقيتهما ، رأى ناصر دى بونو ومرجريت مرى ورأيا فيه

(٣) لوкас : المرجع السابق ص ٢٨١ - ٢٨٢ ، ٢٤٦ ، Coghlan, in J.E.A. XXXI, 96-97; Man, July 1939.

(٤) G. BRUNTON, A. H. GARDINER and W. F. PETRIE, *Qau and Badari*, 3 vols. 1927-1930; G. BRUNTON and CATON-THOMPSON, *The Badarian Civilisation...*, 1928; G. BRUNTON, *Mostagedda...*, 1937, 33-63.

() BRUNTON & CATON, op. cit., 7, 27, 33, 41, pl. XXVI.

لوкас المرجع السابق ص ٢٢٧ ، محمد انور شكرى : الصناعات المعدنية في عصور مصر الاولى - ص ٢

وانتفع البداريون بميراث أسلافهم أهل العهود النيوليتية ، في الملبس والمسكن والزينة، فدلّت جثثهم التي احفظت بملابسها الدنيوية تحت أكفانها ، على أنهم استخدموا نوعا خشنا من الكنان يختلف عن الكنان الحالي (١١) وصنعوا منه أثوابا قصيرة ، وكانوا يلفون رؤسهم حين النوم (١٢) ، ويتدثرون فوق الكنان بجلد أو جلدين من جلود الماعز أو الغزلان، ويعملون شعورها من الخرج أحيانا ومن الداخل أحيانا ، سواء في مناسبات خاصة أو عند اشتداد البرد (١٣) . وتزينوا بزينة أسلافهم وزادوا عليها بما يتناسب مع الرق النسبي الذي بلغوه في عصرهم (١٤) ، ويحتمل أنهم استخدموا الزيوت النباتية في تدليك بشرتهم وأجسامهم (١٥) .

ولم يعثر على آثار ظاهرة لمساكن البداريين ، وذلك قد يعلّل بحض الصدفة، أو بأنها كانت لاتزال تبنى من مواد خفيفة سريعة التلف، أو بأن أهل العصور التالية لها قد أزالوها تماما لبناء مساكنهم مكانها . غير أن برنتون لاحظ أن مواطن إقامتهم كانت لاتزال عالية عن حافة الأرض الزراعية ، وذلك مما يعنى أن ضفة النيل كانت لاتزال حاذلة بالمناقع والأحراج ، كما لاحظ وجود حواجز من الدبش قرب ضفاف الوديان الصحراوية الصغيرة واقترض أنها كانت جدرانا بدائية لحظائر الأغنام أو الماشية (١٦) .

ظلت أغلب المقابر البدارية على نفس الهيئة البيضاوية التي عرفتها المقابر الناسية، ولكنها أصبحت أكثر منها تنوعا وسعة وتطورا ، ويمكن إجمال تطوراتها فيما يلي :

أ — أنها تخلت عن الكوة الصغيرة الجانبية في جدارها الغربي (١٧) .

ب — أن قلة منها اتخذت هيئة الاستدارة سواء عن قصد (١٨) أو عن غير قصد .

ج — أن قلة أخرى منها بدأت تتخذ هيئة الاستطالة ولو أن أركانها ظلت ملفوفة مدورة (١٩) .

ولا يبعد أن اتجاهاها إلى الاستطالة صحب اتجاها آخر في تطور أشكال بيوت أصحابها من هيئة الأكواخ البيضاوية أو ذات الهيئة المستديرة القديمة ، إلى الهيئة المستطيلة (٢٠) .

(١١) see BAUMGARTEL, The Cultures of Prehistoric Egypt, 23.

(١٢) بنى برنتون هذا الرأى على أساس ملاحظه من لف رؤوس الرمي بأقمشة مستقلة عن الاكفان المادية BRUNTON & CATON, op. cit., 40.

(١٣) لوحظ أن بعض الجثث غطيت بفراء نام فوق الجلود المادية ، وخن برنتون أن يكون فراء تطلت كبيرة (Ibid., 19).

BRUNTON & CATON, op. cit., 41 (١٥)

(١٤) راجع ص ١٢٢

Mostagedda, p. 44 (١٧)

Ibid., 40 (١٦)

Tombs No. 5397, 5716, 5803 (١٩)

BRUNTON & CATON, op. cit., pl. IX, 5-6 (١٨)

cf. VANDLER, op. cit., 182 (٢٠)

د — أن الفتحة العليا للمقابر البيضاء ظلت أكثر اتساعاً في قيعانها بحيث تميل جوانبها إلى أسفل في تدرج (٢١) ، ولعل ذلك كان يناسب حفرها في الرمال والحصباء دون الصخر ويساعد على عدم تهديم جدرانها .

ه — أن أصحابها غشوا جدرانها من الداخل بقطع من الحصير ثبوتها في أوضاعها بعصى غرسوها في أرضية الحفرة ، ونمت هذه التغطية عن رغبتهم في حماية الجثة من انهيار الرمل عليها ، كما نمت عن رغبتهم في تحميد جوانب المقبرة ، وكانت الرغبتان قد ظهرتتا بصورة مصغرة في مساكن أهل حلوان ب وفي مطامير الفيوم (٢٢) ، وتطورتا إلى الرغبة في تبطين المقبرة بالخشب وتحديدها باللبن فيما تلا الحضارة البدارية من عصور .

و — أن مسطح الأرضية الذي وضعت عليه الأواني في بعض المقابر ظل أكثر ارتفاعاً من المسطح الذي وضعت عليه جثث أصحابها ، وقد يكون هذا التمييز بين المسطحين بديلاً عن الكوة الجانبية التاسية ، ومرحلة أولية في سبيل فصل مكان الأواني عن مكان الجثة (٢٣) .

ز — عثر في أرضيات بعض المقابر (البدارية) على ثقب احتفظت ببقايا خشبية، وعصى طويلة متفرقة (٢٤) وقطع كبيرة من الحصير وأغصان متشابكة، وظهرت في تعديل الربط بين هذه البقايا جميعها ثلاثة فروض : فرض رأى أنه كانت تتألف منها جميعها لوحة عريضة أو طاولة منخفضة يوسد المتوفى عليها. وفرض أضاف أن اللوحة العريضة كانت قاعدة لتعريشة تحمى الجثة من انهيار الرديم فوقها وتصنع دعائمها من العصى ويصنع سقفها من الحصير ، وتعتبر بذلك مرحلة من مراحل التور نحو صناعة التوابيت . وفرض رأى أن العصى والأغصان والحصير كانت تستخدم في تسقيف القبر كله بسقف واحد خفيف قد يساعد في رفعه قائم بدائى يرتكز على أرضية المقبرة (٢٥) . وظهرت للمقابر البدارية ثلاث ظواهر أخرى يصعب التعقيب عليها إلا بعد أن يتم الكشف عن بقية منطقتها ، ومن هذه الظواهر أن أغلب المقابر البدارية كانت مقابر فردية (٢٦) وذلك مما يحتمل تعليقه بأن وسائل أهلها كانت لاتزال محدودة وتحول دون حفر مقابر جماعية متسعة ، وأنه وجدت إلى جانب الجنازات المختلطة التي تضمنت مقابر رجال ونساء ، جبانات أخرى تعاقبت فيها مقابر الرجال

BRUNTON & CATON, op. cit., p. 18 (٢١)

راجع ص ١٠٢ ، و ص ١٠٤ (٢٢)

BRUNTON & CATON, op. it., p. 25 - وراجع ص ١٧٧ (٢٣)

بلغ طول بعض هذه العصى ٧١ سم وقطرها ٥ سم (Tomb 1646) (٢٤)

BRUNTON & CATON, op. cit., p. 18, 20 (٢٥)

Ibid., p. 19 (٢٦)

والأطفال مع بعضها ، على حين تعاقبت مقابر النساء مع بعضها (٢٧) ، وكان لهذه الظاهرة الأخرى بعض الشبه بما قيل عن غلبة مقابر النساء والأطفال التي عثر عليها بين مساكن مرمدة دون مقابر الرجال .

وظلت أوضاع الموتى في المقابر البدارية على ما كانت عليه قبل عهدها : فظل أغلبهم يوسد على جانبه الأيسر ويتجه برأسه إلى الجنوب ووجهه إلى الغرب ، بينما وسد أقلهم على جانبه الأيمن واتجهت رأسه إلى الشمال ولكن وجهه ظل يتجه إلى الغرب ، واختلف الوضع في استثناءات قليلة أخرى اتجه وجه المتوفى فيها ناحية الشرق (٢٨) . وحاولت مرجريت مرى أن تستنتج من أوضاع الموتى نتيجتين ، وهما أن اتجاه وجه المتوفى ناحية الغرب قصد به أن يستقبل روحه حينما تعود إليه من عالم الغرب ، وهو عالم الموتى في العقائد المصرية القديمة . وأن اتجاه أصحاب الاستثناءات القليلة إلى الشرق يعني أنهم كانوا من غير البداريين ومن جماعات أخرى عبدوا الشمس وحرصوا على توجيهه وجوه موتاهم إلى ناحية شرقها (٢٩) .

والواقع أنه يصعب التسليم بآراء مرى كما يصعب إنكارها ، ولكن يلاحظ معها أن مساكن البداريين كانت تقع إلى الغرب من مقابرهم شأنها في ذلك شأن مقابر التاسيين ، وذلك مما يحتمل معه أن توجيه وجوه موتاهم ناحية الغرب كان يقصد به توجيههم ناحية قريتهم وعالم الأحياء فيها وليس عالم الموتى ، وكان الأمر كذلك فيما أسلفناه عن أهل مرمدة الذين وجهوا وجوه موتاهم ناحية مساكنهم أي ناحية الشرق والشمال الشرق .

أما اعتبار أصحاب الاتجاه الشرقي من عبدة الشمس ، فهو اعتبار لايسهل رفضه أيضا ، لعبادة الشمس من العبادات القديمة ، ولكن لايبعد أن اتجاههم ناحية الشرق تأتي عن خطأ ممن تولوا دفنهم ، خرجوا به عن مألوف عادات قومهم عن غير قصد ولا رغبة ، لاسيما وأن الاستثناءات لم تتجه إلى الشرق وحده ، وإنما وجدت حالات اتجهت وجوه أصحابها ناحية الشمال والجنوب أيضا .

مرربنا أن تزويد المقابر التاسية بالقليل من الأواني والقليل من المقتنيات الشخصية يدعو إلى احتمال أمل أصحابها في حياة أخرى بعد الموت إلى جانب ما انترضاها من احتمالات أخرى ، وازداد هذا الاحتمال بعض الشيء في البدارى على أساسين ، وهما تزويد بعض مقابرها بتماثيل نسوية صغيرة

(٢٧) Brunton and Caton, op. cit., Cemetery 5300-5400 and 5700

(٨) لوحظ في ١٤٨ مقبرة أن ٨٤٪ منها تتجه رؤوس أصحابها إلى الجنوب ، و١٦٪ تتجه رؤوسهم إلى الشمال (Ibid., 18-19).

(٢٩) أشار برنتون إلى هذا التفسير ، (Ibid, 42) ثم جعلته مرجريت مرى حقيقة مسلما بها

(M. Murray, in J.E.A., 1956, p. 89)

من الطين والفخار والعاج . كان بعضها من المقتنيات الشخصية لأصحابه ، ورمز بعضها الآخر إلى أمل أصحابه في اصطحاب الإماء والحواري معهم إلى عالمهم الآخر (٣٠) . ثم العثور على قدور واسعة غرستها أصحابها قائمة في الأرض بجوار مقابرهم ، ويغلب على الظن أنهم كانوا يستخدمونها في إنضاج طعامهم حين يترددون على المقابر في مواسم زيارتها لياً كلوا بعضه ويتركوا بعضه الآخر قربانا طازجا باسم موتاهم (٣١) ، وذلك فضلا عن أوان أخرى وجدت داخل المقابر عثر فيها على بقايا التريد (٣٢) .

ورأى برنتون في تزويد موتى ذلك العصر بالقرايين ما ينم عن رغبة أهليهم في دفع أذى أشباحهم عن طريق إرضائهم بها (٣٣) ، وعارض يونكر هذا التفسير ورأى أن تزويد الأحياء للوتى بالقرايين كان عملا أساسه الحنان والتعاطف دون الخوف والرغبة في دفع الشر (٣٤) . وذهب فاندبييه إلى تفسير ثالث اعتبر فيه تقديم القرايين (الموسمية) للوتى نوعا من رغبة أهليهم في استمرار الصلة بينهم وبينهم (٣٥) . والآراء الثلاثة على الرغم من تباعدها عن بعضها مقبولة في مجملها .

ونمت عقائد الدين عند البداريين مع نمو عقائد الآخرة ، ونسب برنتون إليهم عادة تكفين بعض الأبقار والماعز والخراف والكلاب بالحصير والكتان ، شأنها شأن بنى الإنسان (٣٦) . ورأى Vandier في تكفين البداريين لحيواناتهم ما يدل على عبادتهم لها ، ورأى أن اهتمامهم بالأبقار كان

(٣٠) راجع هامش ٢٨ ، ومن بين ٢١٢ مقبرة في المستجدة لوحظ ان ٧٦٪ منها تتجه وجوههم ناحية الغرب ، و ١١٪ تتجه وجوههم ناحية الشرق ، و ١٠٪ تتجه وجوههم ناحية الشمال ، ٣٪ تتجه وجوههم ناحية الجنوب ، ووسدوا جميعهم على الجانب الأيسر ، هذا ٢٧ منهم وسدوا على الجانب الأيمن ، وظلت الاختلافات في اتجاهات الرؤوس والوجوه ملحوظة في مقابر فجر التاريخ حتى أواخر ما قبل الاسرات (SCHARFF Abusir, 1٥) وراجع ما ذكره شيرني من ربط الغرب بالعالم الآخر اللانهائي منذ الحضارة الناسية - وصعوبة قبول رايه أو رفضه .

(٣١) BRUNTON & CATON, op. cit. 42. ووجدت حول القدور بقايا حطب (الاسل) وقش الوفود ، ولاحظ برنتون ملاحظة غريبة ، وهي كثرة هذه القدور في المنطقة التي تختلط فيها مقابر النساء والرجال ، منها في المنطقة التي تكثر فيها مقابر الرجال غير المتزوجين !

Ibid., 42 (٣٣)

Ibid., p. 25. (٣٢)

VANDIER op. cit., 107. (٣٥)

H. JUNKEB, Merinde 1929, 199f. (٣٤)

BRUNTON & CATON, op. cit., 42. (٣٦)

أكد برنتون هذه المادة منذ : أريين وذكر أنهم دفنوا حيواناتهم في مناطق متميزة من جبانتهم بين مدافنهم الخاصة ، ولكن الغريب أنه حين وصف تفاصيل مدافن الحيوانات (pp. 91-94) نسب هذه المدافن إلى عصور نالية لعصر البداري فنسبها إلى أواخر فجر التاريخ وأواخر الدولة القديمة والعصر الروماني (. .) ولم يستبعد أن تكون تقليدا متبعا من عصور قديمة ترجع إلى أوائل ما قبل الاسرات ! ومدعجها في المتن على أساس ما ذكره عنها (P 42) وعلى أساس الشائع عنها عند من كتبوا عنها من المؤرخين . (انظر الهامش التالي) .

أساساً لتقديس المعبودة حتحور التي كانوا يرمزون إليها بهيئة البقرة ، وأن اهتمامهم بالخراف كان أساساً لعبادة المعبود خنوم الذي رمز أهل العصور التاريخية إليه برأس الكباش (٣٧) . وسوف نصل في بحثنا للعنايد الدينية في تحاب آخر إلى أن تقديس الحيوانات لم يؤدي إلى تقديس المعبودات ، بل العكس هو الصحيح ، بمعنى أن تقديس المصريين للقوى الربانية الخفية التي تبينها في دنياهم وفي بيئاتهم هو الذي وجههم إلى إظهار الود نحو مخلوقاتنا الظاهرة التي وهموا فيها آيات من قِدة أربابهم وتخلوا فيها صفات تتفق مع تصوراتهم عن أربابهم (٣٨) . ويعني الآن من أمور البداريين أنه إذا صح أنهم كانوا يكفنون حيواناتهم نعلا ، سواء على الوجه الذي نذكره فأنديبه أو الوجه الذي افترضناه ، فإنه يمكن أن يضاف إلى جانب ذلك أن الحيوانات التي كفنوها كانت ذات صلالة وثيقة بمهنتهم الزراعية المستقرة التي نقلت حياتهم ونقلت معاش أسلافهم من حال إلى حال ، ولا يبعد أن تكفينهم لها تأتي عن مجرد الرغبة في التعبير عن قيمتها لديهم واعتزازهم بها وغلو قيمتها عندهم (٣٩) ، وربما عن أملهم في أن ينفعوا بها في عالمهم الآخر على نحو يناسب الحياة فيه ، وليس من المستبعد مرة أخرى أن يكونوا قصرروا التكفين والدفن على ما كان ينفق منها ويموت حتف أنفه (٤٠) أو ما كانوا يقدمونه منها قربانا بأسماء أربابهم في مناسبات خاصة (٤١) . وتختلف في مقابر البداريين ثلاثة أشكال صغيرة من العظم والعاج ، شكلوا إحداها على هيئة رأس وعل أو رأس غزال ، وشكلوا أخرى على هيئة فرس النهر (٤٢) ، وشكلوا الثالثة على هيئة رأس فرس النهر . وجعلوا لكل منها ثقباً لتعليقها منه . ومرة أخرى دعت هذه الأشكال الحيوانية إلى التساؤل عما إذا كانت ذات صلالة بتقديس فرس النهر والوعل أو الغزال (٤٣) ، أم أنها كانت مجرد تمائم سحرية توهم أصحابها

(٣٧) J. VANDIER, op. cit., 187.

(٣٨) راجع مؤقتنا: عبد العزيز صالح ، « قصة الدين في مصر القديمة » ، المجلة - نوفمبر ١٩٥٨ - ص ٥٠

(٣٩) لوحظ من شواهد دفن الحيوانات تحت تأثير الاعتزاز بها وتحت تأثير الأمل في أن تعود الحياة إليها مع أصحابها في دنياهم الثانية ، أنه عثر في شمال أيبديس على مقبرة من أواخر فجر التاريخ ، تضمنت كلباً دفنه أصحابه في صندوق ووضعوه لدى أقدام سيده ووضعوا فوق صندوقه بضعة أوان خصصوها لصاحبه (G. BRUNTON, Matmar, London 1948) كما عثر بجانب مقابر أثرياء الأسرة الأولى في منطقة أيبديس على نصب صغير خصصها أصحاب المقابر للكلابهم. (PETRIE, Royal Tombs, I, pl. XXXII, 10-12)

(٤٠) ومن هذا القبيل ما يذكره برنتون عن حفرة في البداري تضمنت عظام كلاب كثيرة وضع أصغرها إلى أسفل وأكبرها إلى أعلى وذلك مما يدعو إلى الظن بأنها كانت كلبة وأجراها ماتت معهم عقب ولادتها ، وأشار برنتون إلى ما لاحظته من عدم وجود آثار القتل العمد فيهم. (BRUNTON & CATON, op. cit., 94)

(٤١) قد يشهد بذلك وجود عظام حيوانات كثيرة من نوع واحد في حفرة واحدة. Ibid., 92 f., see also, M. MURBY, op. cit.

(٤٢) وجدت أولاهها في مقبرة بالغ ووجدت الثالثة في مقبرة طفل
see BRUNTON & CATON, op. cit., p. 27 pl. XXIV, 14-15; Mostagedda, pl. XXXIX, 21A 2.

BRUNTON & CATON, op. cit., 27, 42. (٤٣)

ويرجح برنتون أن المشكلة منها على رأس الغزال كان صاحبها يضعها حول رسغ قديمه. (Ibid., p. 27)

أنها تجلب المنفعة وتذنع الضرر (٤٤) ، أم كانت مجرد حل لمشكلة يزينون بها قلائد هم . وليس من سبيل لا تسف إلى ترجيح أحد هذه الفروض دون غيره في ضوء المعلومات المعروفة عن البداريين حتى الآن ، ولو أنه لا يبعد أن أصحابها فكروا فيها جميعها في آن واحد ، وذلك على نحو ما تشتري الأم الريفية لولدها في عصرنا الحاضر حلية من مولد من موالد الأولياء ؛ وتعتبرها حلية لولدها وتميمة له من الحسد وبركة من بركات الولي الذي اشتريتها من رحابه ، في آن واحد .

استمرت صناعة الفخار في طريقها عند البداريين وزاد إنتاجها (٤٥) واستفاد أصحابها من أشكال الفخار الناسي ، وجددوا عليها شكل قدر مستطيلة منفتحة الجوانب تشبه هيئة سقاء الجلد (٤٦) ، واستطاعوا أن يبلغوا بجوانب أوانيهم من الرقة حدا جعلها من روائع الصناعة في عصرهم على الرغم من بساطة أشكالها (٤٧) ، واستفادوا من زخارف الفخار الناسي طريقتين ، طريقة تحلية السطوح الخارجية للأواني بتموجات وخدوش خفيفة ، وطريقة زخرفة الأواني بالأشكال شبه الهندسية المتجانسة ، ولكنهم زادوا على هذه الطريقة الأخيرة أربعة تجديدات ، فاستخدموها في تحلية قيعان الأواني المتسعة من الداخل ، بعد أن كانت تستخدم في معظم أمرها في تحلية الكؤوس من الخارج ، واستخدموها في تصوير سنابل الغلال ونسيج الحصير (٤٨) وما يسمى اصطلاحا باسم الصليب الملطي (٤٩) وأضافوا إلى خطوطها المستقيمة والمائلة والمتوجة خطوطا أخرى لينة على هيئة أوراق الشجر وغصون النباتات (٥٠) ولفات الجبال (٥١) ، وقللوا غور الرسوم المحفورة على سطوح فخارهم الدقيق واكتفوا بأن حفروها في عمق مسطح بسيط تكاد العين لا تفرق بينه وبين سطح فخاره المصقول إلا بعد تدقيق ، ثم أحاطوا بعض رسومهم بإطارات تناسب هيئة الأواني التي رسموها عليها (٥٢) . وبدأ

(٤٤) Ibid., p. 42 — محمد أنور شكري ، الحلى وأدوات الزينة في مصور مصر الأولى القاهرة ١٩٥١ - ص ١

(٤٥) راجع عن التفاصيل وعن أماكن العثور عليها Brunton & Caton, op. cit., 20-27, pl. XII-XV.

(٤٦) Ibid., pl. XIV, 10 f.

ومن الأواني المتميزة الأخرى أواني ذات مقابض في منتصفها لحملها منها. (Ibid., pl. XIV, 7-10; XXVI; p. 24.)

ولو أن فكرة المقابض ظهرت قبلها منذ المرحلة النيوليتية .

(٤٧) Ibid., 20f.; Baumgartel, op. cit. p. 22.

وراجع أنور شكري : الفخار في عصور مصر الأولى - ص ١٢

(٤٨) Brunton & Caton, op. cit., pl. XIV, 3 D, 15 E.H, Mostagedda, pl. XVI, 13D.

(٤٩) Brunton & Caton, op. cit., pl. XIII, 49f.

(٥٠) Ibid., pl. XIV, 15, M, 15 P, 30 E.; Mostagedda, pl. XVI, 3 a.

(٥١) Ibid. pl. XVI, 4M.

(٥٢) Ibid., pl. XVI, 3 a, pl. XVIII, 19.

وراجع عبد العزيز صالح : « الفن المصري القديم » - في تاريخ الحضارة المصرية - المجلد الأول - القاهرة

١٩٦٢ ص ٢٧٤

البداريون النقش البارز المجسم على نطاق ضيق متواضع ، فحسبوا على جوانب بعض أوانيهم الفخارية أشكالاً ساذجة يصعب تحديد نوعها . وشغفوا بوسائل الزينة البدائية أكثر مما شغف بها أسلافهم الناسيون ، ولم يقتصر هذا الشغف على نسائهم وصغارهم ، وإنما اعتاد وجاهلهم كذلك على أن يتزينوا بالأساور في المعاصم والدمالج وربما زينوا الخصور والأرساغ أيضاً (٥٤) .

ويبدو أن زينة الرجال في العصور القديمة لم ترتبط ارتباطاً لازماً بمرحلة حضارية معينة أو أسلوب حياة معين ، فعلى نحو ما حرص المترفون عليها في الجماعات البدائية حرص عليها المترفون المصريون في عهود دولتهم الحديثة (التي بدأت في أوائل القرن ١٦ ق.م) وحرص عليها المترفون الرومان في أرقى مراحل حضارتهم القديمة وكانوا يتزينون بها في أوقات الحرب وأوقات اللهو على حد سواء .

استحب البداريون الأصداف والحرز في زينتهم وصنعوا حبات الحرز من أحجار لطيفة متنوعة ، فصنعوها من العقيق الأحمر واليشب الأحمر والأخضر والمرو الأحمر وجر الدهن الأبيض والرمادي والزلط الملون ، وتركوها بألوانها الطبيعية فيما خلا خرزات المرو وجر الدهن فقد استطاعوا تغشيتها بطلاء زجاجي أزرق وأخضر وكان نجاحهم في هذه التغشية هو المرحلة الأولى من مراحل التطور التي اتبعها خلفاؤهم حتى اهتموا إلى صناعة القاشاني في عصورهم التاريخية (٥٥) .

ويفترض Lucas قصة طريفة لاهتداء البداريين مصادفة إلى الطلاء اللامع وهي أن تطلعهم إلى إيجاد بديل للحلى عن خرزات النيروز الثمينة النادرة جعلهم يقظين إلى كل ما ينتج لونا يشبه لونها الأزرق البراق ، وكانت حصيات المرو البيضاء التي اعتادوا على أن يصححوا بها مساحيقهم فوق صلايات الكوارتز والكوارتزيت والإردواز غالبا ما تعلق بها ذرات الدهنج الأخضر حين صحته ، فإذا تصادف أن استخدموها بعد ذلك في كسر قطع النظرون التي كانوا يستخدمونها في النظافة والتطهير اختلطت عليها ذرات الدهنج مع ذرات النظرون ، حتى إذا تصادف مرة أخرى أن تعرضت لنار شديدة لسبب من الأسباب ، انصهرت ذرات الدهنج الحاوية للنحاس وذرات النظرون الحاوية لكريونات الصود يوم واستحالت إلى قشرة زرقاء لامعة ، فلما تكررت هذه الظاهرة ولحظها البداريون وعرفوا مسبباتها أصبحوا يخلطون مساحيق المواد الثلاث المرو (أو الكوارتز أو الكوارتزيت) والدهنج والنظرون عن قصد ثم يصهرونها وينفشون بها خرزاتهم وحليهم الصغيرة (٥٦) .

(٥٣) Mostagedda, pl. XVIII, 41.

(٥٤) BRUNTON & CATON, Bad. civil., p. 27, 28, 30, 40-41. pl. XXIII; XLIX.

انور شكري : الحلى وأدوات الزينة - ص ٢

(٥٥) لوكاس ، المرجع السابق - ص ٢٨٢ - انور شكري : صناعة القاشاني في أقدم عصور مصر - ص ٣ - ٤

(٥٦) لوكاس المرجع السابق ص ٢٨٢ - ٢٨٣ ، ويرفض لوكاس نظريات أخرى لفلندرز بستري واليوت سميت (ص ٢٧٨ - ٢٨١)

سلك البداريون خرزاتهم في خيوط الكتان وشعر البقر واستخدموها قلائد وأساور ووصعوا بها أساور العاج^(٥٧) وترينوا معها بقليل من الخواتم العاجية والعظمية وشنوف الآذان والأنوف^(٥٨) ، وصنعوا أمشاطهم من العظم والعاج بأسنان طويلة وتفننوا في هيئاتها وشكلوا أجزاءها العليا على هيئة رؤوس الطير^(٥٩) ، وصنعوا لإبرهم من النحاس فضلا على العظم والعاج واهتدوا الى طريقة ثقبها ، ولم يكن ذلك الاهداء بالأمر الهين في شئون حياتهم اليومية على الرغم من بساطته^(٦٠) .

ولعل أمتع ما خلفه البداريون من أدوات البيوت الرقيقة الغالية هي ملاعق العاج فقد صنعوها بأشكال لا تكاد تختلف عن أشكالها الحالية ، ونوعوا تجاويها بين هيئة المستطيل والبيضاوي والمربع ، وشكلوا مقابضها بأشكال حيوانية وحلزونية طريفة^(٦١) ، وكل ذلك على الرغم من أنهم عاشوا قبل عصرنا الحاضر بأكثر من ستة آلاف عام !

استخدم البداريون عصا الرماية Boomerang في صيد الطيور المائية ، وهي عصا خشبية معقوفة الطرف ، ظل المصريون المترفون يستخدمونها في رحلات صيد الطيور طوال عصورهم التاريخية القديمة . ووجدت اثنتان منها في البداري^(٦٢) ، وشاعت المصائدات ألا يعثر على غيرها في المقابر المصرية قبل عصر الأسرة الثانية عشرة على الرغم من كثرة تصويرها في مناظر الصيد خلال عصور الدولة القديمة . وليس ما يعرف يقينا عن طريقة استعمال المصريين لها ، ولكن يقال إن شعوبا بدائية ظلت تستعملها في الصيد والقتال بمهارة عجيبة حتى عوود قريبة ، وأن الاستراليين تعودوا أن يقذفوها إلى أعلى بنحفة وسرعة ، فتدور في المنحنيات سريعة ثم تعود إلى راميا فيتلقفها وهو لا يزال في موضعه .

كان من الطبيعي أن تنطلق أذواق البداريين الى محاولة التمرس على الفن التشكيلي ؛ أي فن التماثيل ، وقد تشلفت في مذابرهم سبعة تماثيل نسائية صغيرة ، أربعة من الصلصال واثان من الفخار ، وسابع

BRUNTON & CATON, Bad. Civil., XXIII, 14 (٥٧)

Ibid., p. 30, pl. XXIII, 24, XXIV, 7-12, 13; Mostagedda, pl. XXV, 12, 13, 33 (٥٨)

Bad. Civil., pl. XXIV, 4, 18; Mostagedda, pl. XXIV, 2. (٥٩)

Ibid., pl. XXV; Bad. Civil., p. 32-33 pl. XX, 16, XXIII, 26-28; XXVI, I, XXIX, 4 (٦٠)

وكان اهل مرمدة بنى سلامة يشقون الابر في جزئها العلوى ليلسكوا فيها خيوط الكتان او شعر ذبول البقر .
JUNKEB, Merimde, 1932, 82.

ويرى برنتون أن البداريين استخدموا الأبر العظمية لخيطة الجلود والسلال ، واستخدموا الأبر النحاسية لخيطة المنسوجات .

BRUNTON & CATON, op. cit., pl. XXII; Mostagedda, pl. XXIV. (٦١)

٢) عثر عليها احدها فوق الاخرى قرب يدى صاحب المقبرة ، وقد تحلل خشبهما ولكنه رمم ، ويرى برنتون انه أصابها كسر مقصود خلال شعرة دينية ، وكانت احدها مزخرفة بمثلثات صغيرة ونقط كثيرة متجاورة مطعمة بالخرز .
BRUNTON & CATON, Bad. Civil., p. 32, pl. XXIII, 29, XXIV, 1,2. pl. XXIV

من العاج . واختلفت صناعتها بين البداوة وبين الإتقان باختلاف مهارة صناعتها واختلاف أغراضها واختلاف المواد التي صنعت منها . وأبرع هذه التماثيل تمثال من الفخار الملوّن لفتاة عارية بلغ تناسق جسمها حدا كبيرا من الإبداع لولا بروز عجزها الذي يحتمل أنه قصد لذاته ، ولولا عدم تشكيل كفيها . وكان تماثلها فيما يغلب على الظن واحدا من التماثيل التي اقتناها أصحاب الذوق السليم لوجه الفن وحده ، وقد ضاعت للأسف رأسه وجزء من ساقيه . وتمثال العاج لفتاة عارية أيضا ، كانت عيناه مرصعتين بمادة أخرى مثل المحار الأبيض أو قشر بيض النعام ، وحاول صاحبه أن يظهر تفاصيله الدقيقة مثل فتحتي الأنف وإنساني العين وفارق الشعر من الخلف (٦٤) . وقد نرى في صناعة البدرايين لبعض تماثيلهم من العاج ما يدل على رخاء مجتمعهم رخاء نسبيا ، وما يتفق مع رقى أذواقهم الذي كشف عنه ما تخلف لهم من الملاعق والأمشاط ، لولا أن تماثيلهم العاجي الباقي تنقصه سلامة النسب التي ظهرت في تمثال الفخار ، ويتصف بضخامة الرأس وضخامة الأنف واتساع مجرى العينين بالنسبة الى بقية جسمه . وقد يرجع ذلك الى قرب اشتغالهم بنحت العاج .

أما تماثيل الصلصال الثلاثة ، فإثنان منها لا يعدوان عرائس الطمي التي يشكلها الأطفال ويلعبون بها ، وقد كسر أحدهما عن قصد في مقبرة صاحبه (٦٥) ، ربما انتقاما ممن يمثلها أو لتموت صاحبه موتا رمزيا وتصبح من أهل العالم الآخر شأن صاحب المقبرة . ووجد التمثال الصغير الثالث ملفوفا بقطعة من الكنان داخل آنية أو على حد تعبير برنتون وجد مكفنا ومدفونا في مقبرة رمزية تناسبه ، وشكل بدوره تشكيلا متواضعا برأس مستديرة صغيرة وأنف تشبه منقار الطير وبغير ذراعين ولا ساقين ، وبفخذين ممتلين وعجز بارز ، ومثل حول عنق صاحبه ما يشبه القلادة (٦٦) ، ويبدو أنه كان يرمز في مجمله إلى سيدة ناضجة يرتجى أن ينتفع صاحب المقبرة بوجودها معه ، سواء باعتبارها زوجته أو جاريته (٦٧) .

وقلد البداريون هيئة الحيوان كما قلدوا هيئة الإنسان ، ونسب برنتون إليهم آنية صغيرة ممتعة من العاج شكلوها على هيئة فرس النهر وجعلوا فتحتها فوق ظهرها (٦٨) . واستنلوا العاج ، ويحتمل أنه عاج فيلة

Bad. Civil. p. 28 pl. XXV, 6-7 (٦٣)

Ibid., p. 29, pl. XXV, 3-4. (٦٤)

محمد انور شكرى - تماثيل الانسان في فجر تاريخ مصر القديم من ٨ - ٩

Mostagedda, p. 56. (٦٥)

BRUNTON & CATON, op. cit., pl. XXIV, 3. (٦٦)

(٦٧) راجع ص ١٢٨ - ١٤٠

Mostagedda, pl. XXIV, 33. (٦٨)

كانت لاتزال تغشى أرضهم ، في صناعة أواني صغيرة عادية ، بعضها أسطوانى وبعضها كرى ، وبعضها مستطيل ، وبعضها مزخرف بصفين من الحبيبات البارزة الدقيقة (٦٩) ، وكانت أمثالها تعتبر في غير شك من أواني الزينة وصنوف الترف وتخصص لحفظ المساحيق والمعاجين الثمينة .

وليس ما يعرف عن مدى جراءة البداريين على تشكيل الحجر ، ولكن برنتون نسب إلى عصرهم بضع أوان من البازلت وجد إحداها سليمة ووجد قطعاً من الباقيات ، وقد زخرفت إحداها بخطوط مائلة تشبه هيئة المثلثات (٧٠) .

ظهرت في شأن موطن البداريين واتصالاتهم بجيرانهم آراء عدة ، بعضها مسرف وبعضها مقبول. فردهم فلنדרز پترى إلى أصل أسبوى وربط بينهم وبين القوقازيين (٧١) ، ثم ادعى مع B. Stoessiger أن خصائصهم الجنسية تشبه خصائص الدراقيدين والقيديين سكان الهند الأوائل ، من حيث الرأس الطويلة الضيقة والقامة القصيرة والجسم النحيل ، وأنه يحتمل أن يكونوا جميعاً من أصل واحد مشترك (٧٢) ، وكان في هذا الرأي من الإسراف والخيال ما فيه . ولم يدفع B. Stoessiger إلى القول به إلا اعترافها ببعده خصائص البداريين الجنسية عن خصائص جنس البحر المتوسط الخالص ، وعن خصائص الجنس الزنجى الخالص ، ورغبتها في ربطهم بسلالة ما قريبة الشبه بسلاتهم .

واقترض شارف أن البداريين خرجوا من جنوب غرب آسيا وعبروا البحر الأحمر إلى بلاد النوبة وأقاموا زمنها ثم انتقلوا منها إلى مصر ، وزكى رأيه بتشابه فخار البدارى المموج ذى الشفاه السوداء مع فخار النوبة (٧٣) . ولكن أضعف رأيه أن الفخار ذا السطوح المموجة لم يظهر في المناطق الآسيوية التي افترض أن البداريين خرجوا منها سواء في عصر البداريين أو قبل عصرهم ، وأن نفس هذا الفخار لم يظهر في بلاد النوبة إلا في عهود تأخرت كثيراً عن عهد البدارى ، فالأولى إذن أن يقال إن فخار البدارى هو الذى انتقل إلى النوبة أو إنتشر في الصعيد حتى النوبة ، وليس العكس .

(٦٩) Mostagedda pl. XXIV; BRUNTON & CATON, op. cit. p. 28, pl. XXIII

(٧٠) Ibid., p. 28, pl. XXIII, 9-11; Mostagedda, pl. XXIV, 15.

(٧١) W. F. PETRIE, in Ancient Egypt, 1923, 46.

(٧٢) PETRIE, "The Peoples of Egypt" in Anc. Egypt, 1931, p. 78; The Making of Egypt, p. 6-7;

B.N. STOEISSIGER, op. cit.,

(٧٣) A. SCHARFF., Altertümer, I, 18, 23.

ورأى Breuil أن البداريين اشتقوا حضارتهم من حضارة الفيوم ، وأيد رأيه بوجود نوع من التشابه بين الأدوات الحجرية في الحضارتين (٧٤) .

وعارضت كيتون طومسون هذا الرأي ورجحت أنه لم يتكرر من عشرين نوعا من أدوات الفيوم الحجرية في البدارى غير ستة فقط ، وأن نوعى الفخار المميزين لصناعة البدارى وهما الفخار ذو التمججات والفخار ذو الزخارف الداخلية لم يظهر شبيه لها إطلاقا في الفيوم (٧٥) .

وأضافت كيتون طومسون من ناحيتها أن البداريين استخدموا الحصى السطحي الخشن ، أى الزلط الذى وجدوه على سطوح الصحراء والهضاب في صناعة أدواتهم الحجرية دون عروق الطران وعقده الجيدة التى توفرت في المحاجر القريبة منهم ، وتساءلت عما إذا دل ذلك على أن البداريين خرجوا من منطقة لا يتوفر الطران في محاجرها فترتب على ذلك أن استمروا على غير دراية بأنواعه الجيدة ، وأضافت أنه لما كانت محاجر الطران (أو بمعنى أصح محاجر الحجر الجيري التى تتوفر فيها عروق الطران) تختفى من الأقصر حتى حدود النوبة فإن منطقة البداريين الأصيلة قد تكون في أقاصى الصعيد أو في النوبة (٧٦) .

ومهما يكن من أمر الآراء السابقة كلها ، فالذى لا شك في صحته هو أن حضارة البداريين تطورت في أرضهم بجوار أسبوط ، واستفادت من الحضارة الناسية السابقة لهم في أنواع الفخار وزخارفه وفي عادات الدفن وفي الشغف بالحلى وأدوات الترف ، ولم تختلف عنها اختلافا ملحوظا في غير صناعتها الحجرية (٧٧) ، ثم في نواحي الطور الطبيعية التى ترتبت على فوارق الزمن بينهما .

ويبدو أنه لم يعوز البدارى التأثير في مناطق الصعيد القريبة منها والتي وجدت فيها آثار قريبة من آثارها ، مثل المحاسنة ونقادة وأرمنت وشمالى أدفو .

ويحتمل أن أهلها جلبوا البازلت الذى صنعوا منه أو أنهم من منطقة ما جنوب رأس الدلتا ، بل ويحتمل برتتون امتداد صلاتهم حتى سوريا أيضا ، على أساس دراسته لبعض أنواع الفخار في المنطقتين (٧٩) ، وزاد Wainwright على ذلك فقال إنهم استخدموا أشجار الصنوبر وجلبوها من سوريا (٨٠) .

غير أن هذه الصلات الأخيرة إن صححت يغلب أنها كانت صلات غير مباشرة وعن طريق الوسطاء سواء أكان هؤلاء الوسطاء من أهل الوجه البحرى وجنوب فلسطين أم من غيرهم .

H. BEBUIL, l'Afrique Préhistorique, p. 84-85. (٧٤)

CATON-THOMPSON, in J.E.A. XII, (1926), 309, 319 (٧٥)

CATON THOMPSON, in Bad. Civil., p. 75. see also, E. BAUMGARTEL, op. cit., p. 22. (٧٦)

BRUNTON, in Antiquity, III, Dec. 1929, 466 ; Mostagedda, p. 32 f; S. HUZAYYIN, The Place of Egypt, p. 305. (٧٧)

MASSOULARD, op. cit., p. 130, and see HUZAYYIN, op. cit., p. 307. (٧٨)

BRUNTON & CATON, Bad. Civil., p. 41. (٧٩)

WAINWRIGHT, in J.E.A. XX, p. 3. (٨٠)

ب - فترة ما قبل الأسرات

جرى الاصطلاح على تسمية الفترة التي توسطت بين عصر البدارى وعصر الأسرة الفرعونية التاريخية الأولى ، باسم فترة ما قبل الأسرات ، فضلا عن اعتبارها فترة من فترات العصر النحاسى الحجري (الكالكوليتى) من ناحية ، وفترة من فترات بحر التاريخ من ناحية سواها ، ولم يشذ عن هذا الاصطلاح غير القليل من المؤرخين^(٨١) .

بدأ الكشف المنظم عن آثار هذه الفترة فى التسعينات من القرن الماضى وفى وقت لم يكن الباحثون قد درسوا فيه من الآثار المصرية غير آثار العصور الفرعونية التاريخية وحدها .

ز پترى أعمال التنقيب سنة ١٨٩٤ فى منطقة نقادة بمديرية قنا بجوار قرى البلاص والأبغادية وغيرها ، ولما تبين غرابة الآثار البدائية الصغيرة التى أسفر التنقيب عنها فى الجبانات المجاورة لهذه القرى عن الآثار المصرية الكبيرة التى عرفها الأثريون قبل عهده ، أخطأ فى بداية أمره فى تحديد عصرها وتعيين أهلها ، فاعتبرها آثار شعب دخيل استعمر منطقة قنا فى أواخر الدولة القديمة وأباد أغلب أهلها وحل محلهم وأرغم من بقى منهم على النزول الى مستوى حضارته البدائية البسيطة . لكن پترى مالبت حتى تبين بمعاونة أبحاث دى مورجان وشتيندورف وفيدمان خطأ هذا الظن واتضح له أن آثار نقادة آثار مصرية عتيقة سبقت آثار عصور الأسرات الفرعونية بآماد طويلة .

تخبر پترى من حائزها فى منطقة نقادة وماحولها ٩٠٠ مقبرة قديمة ، لحظ فى محتوياتها أنها على الرغم من بدائتها وبساطة صناعتها لاتخلو من تنوع كبير ، وذلك مما يعنى أنها استمرت زمنا طويلا ومرت فى عهود حضارية مختلفة ، ودعت هذه الظاهرة إلى محاولة ترتيبها ترتيبا زمنيا مقبولا ، واستعان فى محاولته بملاحظة وجوه التطور فى أكثر محتوياتها ومصنوعاتها استمرارا وتنوعا ، وهو الفخار ، بعد أن تبين أنه مامن مقبرة منها خلت من الفخار ، وأنه مامن صناعة من صناعاتها يمكن أن تعبر عن التطور المستمر أفضل من الفخار . وقسم پترى أنواع الفخار التى وجدها الى تسع مجموعات أساسية ، ورمز إلى كل مجموعة منها بحرف اصطلاحى معين على النحو التالى :

- B الفخار ذو الشفة السوداء Black Topped Pottery ورمز إليه بحرف B
P الفخار الأحمر المصقول Polished Red ورمز إليه بحرف P
F الفخار ذو الأشكال الخيالية Fancy Forms ورمز إليه بحرف F

(٨١) راجع هامش ٨١

see, W.F. PETRIE, "Sequence in Prehistoric remains", in J.R.A.I., XXIX (1899), 295f; Diospolis (٨٢)

Parva, London 1901, 4 f.; Prehistoric Egypt, 3 f., 44 f.

(أى الأشكال غير البسيطة مثل الأواني المزدوجة والثلاثية وذات البربوز والمشكلة على هيئة الحيوانات ... الخ) .

C	White Cross lined Pottery	ورمز اليه بحرف C	الفخار ذو الرسوم البيضاء المتقاطعة
N	Black Incised Pottery	ورمز اليه بحرف N	الفخار ذو الرسوم المحفورة
W	Wavy Handled Pottery	ورمز اليه بحرف W	الفخار ذو المقابض المتموجة
D	Decorated Ware	ورمز اليه بحرف D	الفخار ذو الزخارف (أو ذو الرسوم الحمراء)
R	Rough Pottery	ورمز اليه بحرف R	الفخار الخشن
L	Late Pottery	ورمز اليه بحرف L	الفخار المتأخر (أى الأحدث)

خصص بترى لكل مقبرة بطاقة كبيرة ، وقسم كل بطاقة تسعة أنهر ، أثبت فيها نصيب مقبرتها من أنواع الفخار التسعة ، وبعد أن استكمل البيانات في البطاقات جميعها قارنها ببعضها البعض ، وسلك في هذه المناقشة ١٨ خطوة تجريبية تختير منها الخطوات التالية :

تبين بترى من بطاقاته أنه ما من مقبرة تضمنت فخارا ذا خطوط بيضاء متقاطعة (C) وفخارا ذا مقابض متموجة (W) في آن واحد ، فخلص من هذه الظاهرة إلى أن أحد النوعين ظهر وانتهى قبل أن يظهر الآخر . ولاحظ أن فخار (W) ظهر في مقابر الأسرة الفرعونية الأولى دون فخار (C) فخلص من ذلك أيضا إلى أن فخار (W) هو الأحدث وأن فخار (C) ظهر قبله وانتهى قبله .

وتتبع بترى تطورات النوع الأحدث أى فخار (W) ذا المقابض المتموجة بطريقة عكسية منذ الأسرة الفرعونية الأولى إلى ما قبلها ، فتبين له وجود عدة أنواع وعدة طرز اختلفت فيها هيئات الأواني وهيئات مقابضها ، فوجد منه على سبيل المثال أواني صحمة مكورة الشكل توسطت سطحها الخارجى مقابض بارزة متموجة ، وأواني بيضاوية الشكل أقل اتساعا منها انتربت مقابضها من أجزائها العليا وقل بروزها ، وأواني أسطوانية الشكل قل فيها بروز المقابض شيئا فشيئا حتى أصبحت مجرد خطوط أحاطت بحوانها ، ثم أواني أسطوانية أخرى صغيرة اختلفت منها ظاهرة المقابض تماما .

ولاحظ بترى أن تطور الأواني لم يقتصر على أشكالها وأشكال مقابضها وإنما شمل محتوياتها أيضا ، فوجد طائفة منها مملوءة بمادة دهنية عطرة غطاها أصحابها بالطين ، وأختموا عليها بالطين ، ووجد طائفة ثانية قلل أصحابها نسبة الدهن فيها وزادوا فيها نسبة الطين ، ووجد طائفة ثالثة ملأها أصحابها بالطين وحده .

وخلص بترى الى ترتيب التطور في هذه الأواني على أسس ثلاثة ، وهى :

١ - أن تقليد الشيء يظل عادة أقل إتقاناً من صورته الأصلية لاسيما إذا بعد عنه في الزمن .
وتمثل أفضل الإتقان في رأى بترى في الأواني الكروية أكثر من غيرها ، وتمثلت مظاهر التقليد في رأيه في الأواني الأسطوانية أكثر من غيرها ، وعلى ذلك نحن أسبقية الأولى عن الثانية .

ب - أنه من المستبعد أن يكون المصريون قد ابتدعوا أو انهم ذات المقابض الجميلة ليملاًؤها بالطين وحده ، وإنما المقبول أنهم اعتزوا بها في بداية ظهورها واعتبروها من مقتنياتهم النادرة واستخدموها في حفظ المواد العطرية لأغراض الدنيا والآخرة . فلما تقادم طرازها وتطوروا منها الى ما هو أحدث منها قللوا نسبة الدهن العطر فيها وقللوا أحجامها ، واستمروا على ذلك حتى ملأوها بالطين بديلاً عن الدهن ، ونقلوا الدهن الى أواني أخرى جديدة ذات طرز حديثة اعتبروها أبجل منها وأمتع ، ولاحظ پتري أن الدهن ازدادت نسبته في الأواني الكرية وقلت نسبته في الأواني الأسطوانية ، فخلص من ذلك الى مثل استنتاجه السابق وهو أن الأولى سبقت الثانية .

ج - أن الأغراض العملية في الصناعات القديمة كانت تسبق أغراض الزينة في أغلب الأحوال ، ولما كانت مقابض الأواني الكروية مقابض كبيرة يستطيع أصحابها أن يستفيدوا منها فائدة عملية في رفع أوانيها ، على حين أصبحت مقابض الأواني الأسطوانية مقابض زخرفية للزينة لا يسهل على أصحابها أن يستفيدوا منها في رفع أوانيها ، انتهى پتري الى نفس استنتاجه السابق ، وهو أن الأولى ظهرت قبل الثانية .

ونتيجة لهذه الدراسة الأولية للأواني ذات المقابض الموجة اعتبر پتري أضخم الأواني الكرية وأضخم المقابض طرفاً أول ، واعتبر أصغر الأواني الأسطوانية وأصغر المقابض طرفاً آخر ، ورتب ظاهرة التطور بين الطرفين في ١٣٩ شكلاً اختلف كل شكل منها عن الآخر في كثير أو قليل ، ثم رتب البطاقات التي احتوت على الفخار ذي المقابض الموجة على أساس ترتيب هذه الأشكال ، وبمعنى آخر رتب عهود مقاربا ترتيباً زمنياً على أساس ترتيب التطور في هذه الأشكال .

وانتقل پتري من هذه الدراسة الى دراسة أخرى رتب فيها أواني الفخار المتأخر (وهي أحدث أنواع الأواني التي عثر عليها) ، ترتيباً يتفق مع مظاهر التطور فيها ، ثم استخدمها أساساً لمراجعة ترتيب الأواني ذات المقابض الموجة التي اشتركت معها في مقاربا .

وكرر پتري دراساته على ثلاثة أنواع أخرى صاحبت الأواني ذات المقابض المتوجة في مقاربا . وإن كانت قد ظهرت قبلها بفترات طويلة ، وهي الأواني ذات الشفاه السود (B) ، والأواني الحمراء المصقولة (P) والأواني الرخيصة الحشنة (R) .

وعقب پتري على ذلك بترتيب أواني الفخار ذات الخطوط البيضاء المتقاطعة (C) تبعاً لتطور هيئاتها وتطور العناصر الزخرفية في رسومها ، واتبع نفس الوسيلة في ترتيب الفخار ذي الرسوم الحمراء (D) ... وهلم جرا .

وعندما أتم تقسيمات الفخار استعان على مراجعتها بملاحظة تطور المصنوعات الأخرى التي اشتركت معها في مقارنها ، لاسيا الأواني الحجرية والصلديات ، وأشركها كلها في تقسيمات مقاربة (٨٣) .

وانتهى بترى من تجاربه إلى تقسيم مراحل التطور في آثار نقادة إلى خمسين مرحلة ، وأطلق على تقسيمه اسم التابع الزمني أو التوقيت المتتابع : Sequence of Date or Sequence Dates

وبدأ مراحلها بالرقم ٣٠ وانتهى بها إلى الرقم ٧٩ ، وترك ما قبل الثلاثين لما يمكن أن يستجد الكشف عنه من حضارات سبقت حضارة نقادة ، واعتبر الرقم ٧٩ بداية للتطور الحضارى فى الأسرة الفرعونية الأولى . وقصد من تقسيماته أن تكون تقسيمات موضوعية أكثر منها تقسيمات زمنية ، ولم يكن يستطيع أن يفعل أكثر مما فعل (٨٤) . وأصاب بترى فى ترك ما قبل المرحلة الثلاثين لما يستجد الكشف عنه من حضارات قديمة سابقة ، إذ كشف التنقيب بعد ذلك عن آثار البدارى ، وملا برنتون بتطوراتها المراحل ٢١ - ٢٩ ، ثم كشفت تنقيبات أخرى عن آثار المرحلة النيوليتية التي شغلت بتطوراتها العشرين مرحلة الأولى .

رتب بترى الأواني ذات الشفاه السود بين المراحل ٢١ إلى ٧٥ ، ثم أظهر البحث بعده أنها ظهرت منذ الحضارة الناسية القديمة . ورتب أواني الفخار الأحمر المصقول بين عهد البدارى وأوائل الأسرة الأولى ، ثم أظهر البحث بعده أنها بدأت منذ أيام مرمدة والقيوم . ورتب الأواني ذات الأشكال انحليالية أو الأشكال غير البسيطة بين المراحل ٣١ - ٧٣ ثم أظهر البحث بعده أنها ظهرت منذ حضارة مرمدة . وجعل الأواني السوداء ذات الرسوم المحفورة تشغل كل مراحل التوقيت النقادى ، ثم أظهر البحث بعده أن تابشيرها بدأت منذ الحضارة الناسية . ورتب الأواني ذات المقابض الموجة منذ المرحلة ٤٠ ومدتها حتى العصور التاريخية . ولا يزال هذا الترتيب مأخوذا به حتى الآن . وأكد أن الأواني ذات الرسوم البيضاء انتشرت أساسا بين المراحل ٣١ - ٣٤ ، ثم قل انتشارها شيئا فشيئا

(٨٣) ولكن راجع من مدى التباين بين ترتيب هذه المصنوعات وتطوراتها وبين ترتيب الأواني الفخارية وتطوراتها

E. MASSOULARD, Préhistoire et Protohistoire d'Égypte, Paris 1949, p. 65f.

(٨٤) وظهرت بعد ذلك محاولات لتقدير فترات زمنية مناسبة لكل مرحلة من المراحل الخمسين ، ومن هذه المحاولات ما افترضه von BISSING, A. SCHARFF, and R. WEILL من اعتبار متوسط المرحلة بين عشرين عاما وخمسة وعشرين عاما بالنسبة الى مراحل التوقيت المتتابع ٢٠ - ٦٠ واقتراض حد أقصى ١٥ عاما لكل مرحلة من المراحل ٦٠ - ٨٠ ، وذلك مما يؤدي فى رأيهم الى استمرار المراحل كلها الف عام ، يخص مراحل ٢٠ - ٦٠ منها نحو ٧٠٠ عام ، ويخص المراحل ٦٠ - ٨٠ منها نحو ٢٠٠ عام .

SCHARFF, Abusir el Meleq., 72 f.; R. WEILL, Recherches sur la Ire Dynastie et les Temps Prépharaoniques, Le Caire, 1961, II, 273 f.

حتى اختفت في المرحلة ٣٧ أو بعدها بقليل . ورجح أن الأواني ذات الرسوم الحمراء شغلت الحضارة الجزرية بين ٣٨ - ٦٠ ، ثم رتب النخار المتأخر بين المرحلة ٧٠ وأوائل العصور التاريخية .

أدخل پترى على بطاقاته وتقسيماته تعديلات شتى حتى اطمان إلى رجحانها ، وقسم مراحل الخمسين إلى ثلاث مجموعات كبيرة ، فصل بين كل مجموعة وأخرى انقلاب جديد وهجرة جديدة ، على حد قوله . ونسب كل مجموعة من هذه المجموعات إلى أهم مكان تركت آثارها فيه ، وانتهى في ذلك إلى تسمية المراحل ٣٠ - ٣٧ (أو ٣٠ - ٣٨) باسم حضارة العمرة (جنوبي جرجا) ، وتسمية المراحل ٣٨ - ٦٠ (أو ٣٦ - ٦٣) باسم حضارة جرزة (عند مدخل الفيوم) ، وتسمية المراحل ٦١ - ٧٨ (أو ٦٤ - ٧٦) باسم حضارة سماينة (غربي قنا) ، وتبدأ بعدها هذه الحضارة مباشرة حضارة الأسرة الأولى الفرعونية (٨٥) .

استفاد أغلب الباحثين من تقسيمات پترى الخمسين وأخذوا بها أو أخذوا ببعضها ، وعاب بعضهم عليه فيها أنه اعتمد أساسا على آثار الصعيد دون أن يعنى بالوجه البحرى إلا من حيث اختياره اسم جرزة علما على حضارة العهود المتوسطة لما قبل الأسرات (٨٦) وعارضه بعض آخر في تبويباته الإيجابية الثلاثة فخرج شارف بتقسيم إيجابي آخر تحلى فيه عن تسميات العمرة وجرزة وسماينة ، ورأى فيه أن الحضارة الثالثة التي افترضها پترى وهى حضارة سماينة ، لم تكن غير امتداد طبيعي للحضارة السابقة لها . واكتفى بنسبة آثار ما قبل الأسرات إلى منطقة نقادة ، وميز فيها بين عهدين حضاريين كبيرين ، عهد شغل المراحل ٣٠ - ٤٠ من مراحل التوقيت المتتابع ، وسمى حضارته باسم حضارة نقادة الأولى ، وعهد ثان بدأ بتحركات بشرية أوسياسية جديدة وشغل بقية مراحل التوقيت حتى بداية عهد الأسرة الأولى ، وسمى حضارته باسم حضارة نقادة الثانية . ولا يزال تبويب شارف هو المأخوذ به حتى الآن . وشفع م. سولار رأى پترى ورأى شارف برأى آخر اقترح فيه تبويب آثار ما قبل الأسرات في أربع مجموعات : مجموعة شغلت المراحل ٣٠ - ٤٠ من مراحل التوقيت المتتابع سماها باسم الحضارة القديمة ، لما قبل الأسرات Prédynastique Ancien ومجموعة أخرى شغلت المراحل ٤٠ - ٦٠ أطلق عليها اسم الحضارة الوسطى لما قبل الأسرات Pred. Moyen ، ومجموعة ثالثة شغلت المراحل ٦١ - ٧٦ ، اعتبرها الحضارة الحديثة لما قبل الأسرات

(٨٥) PETRIE, Preh. Egypt., 46f., Making of Egypt., p. 9; also Abydos I, p. 22; Tarkhan, p. 3.

(٨٦) cf. SCHAEFF, Abusir, 71 f; M. SOULARD, op. cit., 23; T.E. PEET, in J.E.A. XIX, 62 f.

(٨٧) او على التحديد اعتبرها ثمرة اختلاط حضارة جرزة التي كانت دخيلة على الصعيد بحضارة العمرة الاصلية فيه . SCHAEFF, Grundzüge, 17 f., 38 f.




وتردد پترى نفسه في اعتبارها حضارة مستقلة ولم يجد بأسا في اعتبارها امتدادا لحضارة جرزة .

(in Anc. Egypt 1931, 80, n.6; Making of Egypt., 55.)

Pred. Recent ، ومجموعة رابعة شغلت المراحل ٧٧ - ٧٨ وراها مهدت لحضارة الأسرة الأولى ثم واصلت تطورها خلال عهود الأسرتين الأولى والثانية ، وسمى عصرها باسم بواكير عصر الأسرات Proto-dynastique ^(٨٨) . وربما أصاب ماسولار في التخلّي عن التسميات الإقليمية التي ابتدعها بترى وهي العمرة وجرزة وسمانية ، والتسميتين الإقليميتين اللتين رجحهما شارف وهما نقادة الأولى ونقادة الثانية ، ولكن آراءه لم تلق شيوعا كبيرا وظل تقسيم شارف هو المعمول به حتى الآن . ^(٨٩)

وتستفيد المواضع التالية من مجهودات بترى مدلولات مراحل الخمسين ، وتستفيد من آراء شارف تسمية حضارة نقادة الأولى وندادة الثانية، وتبحث مع هاتين الحضارتين حضارة ثالثة توسطت بينهما في الزمن ومثلت جانبا من حضارات الوجه البحري ، وهي حضارة المعادي ، وذلك مع تدبير ملاحظه أغلب الباحثين من تداخل المراحل التطورية بعضها مع بعض ، وتداخل خصائص الحضارات بعضها مع بعض ، واستمرار المصنوعات القديمة إلى جانب المصنوعات المستحدثة في أغلب الأحوال .

*
* *

لم تكن نقادة التي نسبت الحضارتان الأولى والثانية إليها مركزا عمرانيا في إقليمها ، وإنما كانت مجرد جبانة لمدينة متحضرة كبيرة ابتعدت عنها شمالا بنحو سبعة كيلومترات ، وهي مدينة أطلق المصريون القدماء عليها اسم نبت أو نوبت ربما بمعنى الذهبية نظرا لقربتها من مصادر الذهب في الصحراء الشرقية ، وكان إسما يكتب فعلا بعلامة الذهب  ، ثم سماها الإغريق أمبوس ^(٩٠) . وقامت على أطلالها بلدة طوخ الحالية على الضفة اليسرى للنيل في مديرية قنا وفي مواجهة مدينة قفط . وليس من شيء مؤكد عن الأوضاع السياسية والدينية في مدينة نوبت خلال عهود حضارتها الأولى ، وكل ما يعرف عنها حتى الآن هو أن الأساطير القديمة احتفظت لمعبودها ست أوسوتخ النوبي   بذكرى واسعة واعتبرته ربا للصعيد كله ، وذلك مما يحتمل معه أن أقاليم الصعيد أو أغلبها اعترفت بزعامة نوبت وسيادة معبودها في فترة من فترات القديمة

(٨٨) MASSOULARD, op. cit., 67.

(٨٩) اعتبر ر . فيى بداية فترة ما قبل الأسرات من المرحلة الستين للتوقيت المتتابع واطلق عليها اسم الفترة نيوليتية الثانية واطلق على ما قبلها وعلى ما يمتد منها الى بداية عصر نقادة الأولى اسم الفترة الأنيوليتية

R. WEILL, op. cit., p. 278, 280, etc...

الأولى .

(٩٠) Wb. II, 242; A. H. GARDINER., Anc. Eg. Onomastica II, 28 ; H. KEES, Das alte Ägypten, 66

البعيدة^(٩١) على أنه مهما يكن من أمر الأوضاع السياسية والدينية في نوبت فإن جانبنا من الأهمية الاقتصادية التي اكتسبتها هي وجيراننا في عصورها الأولى يرجع إلى صلاحية أوضاعها الطبيعية ، فهي بموقعها في ثنية قنا توسطت بين وادي الحمامات شرقا والطريق المؤدية إلى الواحة الخارجة غربا ، واستطاعت أن تحصل على المواد الدولية من الاتجاهين بسهولة ، فاستخرجت النحاس وربما الذهب أيضا من الصحراء الشرقية ، واتفعت بمحاجرها الصلبة ، كما اتفعت بمحاجر الأحجار الجيرية في الصحراء الغربية ، واستغلت موقعها على النيل في تيسير اتصالاتها بجيرانها ، واستغلت طمي بيتها في صناعة أنواع الفخار الجيدة التي كانت من أهم صناعات عصرها ، ويحتمل أنها بدأت اتصالاتها ببلاد الشرق القديم عن طريق وادي الحمامات والبحر الأحمر .

ج - مواضع الرسوم ودلالاتها الحضارية في عهد نقادة الأولى^(*)

عبر أهل نقادة الأولى برسومهم البيضاء على سطوح أوانهم عن جوانب من حياتهم وخصائص حضارتهم ، وعبر بترى عن أكثر أنواع فخارهم شيوعا باسم *White Cross-lined Pottery* بمعنى الفخار ذي الخطوط البيضاء المتناطعة ، وهو فخار انتشر نوعه في الكهف دون الوجه البحري^(٩٢) ، وبلغ غايته في التطور والانتشار خلال المراحل ٣١ - ٣٤ من مراحل التوقيت المتتابع^(٩٣) ، ثم قل انتشاره تدريجيا حتى اختفى تماما أو كاد منذ المرحلة السابعة والثلاثين . وصنع النقاديون أوانهم منه على أساس صناعة الفخار الأحمر المصقول أو الفخار البني الضارب إلى الحمرة وغشوها بالمغرة الحمراء أحيانا ، ثم رسموا رسومهم السطحية عليها بمحلول الطفل ومعجونه^(٩٤) ، فظهرت ألوانها بيضاء أحيانا وصفراء أحيانا أخرى ، تبعا لاختلاف أنواع الطفل في الصعيد من تربة إلى أخرى^(٩٥) .

(٩١) K. Sethe, *Urgeschichte*, § 86 f. - وراجع ص ١٧٩

(*) هي حضارة العمرة في تقسيمات بترى ، وكشف عن آثارها حتى الآن في أرمنت وخزام وفاو الكبير ونقادة والبلاص وحو (ديوس بوليس بارفا) وأبيدوس والحاسنة والهمامية ، وعثر في أحد أكوام الهمامية على ثلاث مستويات طبقية ، تضمن أقدمها آثارا بدارية وتضمن أوسطها آثارا لها خصائص حضارة نقادة الأولى ، وتضمن أحدثها آثارا لها خصائص حضارة نقادة الثانية ، وذلك مما يرجح تماثل الحضارات الثلاث

(Bad. Civilis., II, 73 f.) and see, PETRIE-QUIBELL, *Naqada and Ballas*, 1896; PETRIE, *Diospolis, Parva*, 1901; *Preh. Eg.*, 1920; *Corpus*, 1921; RANDALL-MACIVER and MAOE, *El Amrah*, 1902; AYBTON and LOAT, *Mahasna*, 1911; CATON & BRUNTON, *The Bad. Civil.*, 1928; L. KEIMER, in *Ann. S.* XXXV, 161f.; MOND - MEYERS, *Arment*, 1937.

(٩٢) وراجع ص

(٩٣) *Preh. Eg.*, p. 14

(٩٤) *Arment*, I, 182, 184, 185. ووجدت قطعة منه في الحاسنة - *Mahasna*, p. 12 - أو من الجبين

Naqada, p. 13. - أو من كربونات وسلفات الجير *MASSOULARD*, p. 78

(٩٥) *SCHARFFE, Altertümer I*, 113.

وكانت رسوماتهم رسوماً سطحية يمكن أن يزيها الماء وتلفها الحرارة ، ويدل ذلك على أنهم اعتبروا أوانيها من أواني الزينة دون أواني الاستعمال اليومي المعتادة ، وأخرجوها رسوماً تخطيطية في مجملها اعتمدوا فيها على الخطوط المستقيمة والمائلة وملاًوا فراغاتها بخطوط أخرى بيضاء متقاطعة ، وعلى أساس هذه الخطوط الأخيرة تخير يترى تسميته السابقة أى White Cross-lined Pottery .

صنع أهل نقادة الأولى أوانيهم ذات الرسوم على هيئات عدة ، صنعوا أغلبها متسعة قليلة العمق مثل الطواجن والصحون ، وصنعوا بعضها عميقة ضيقة مثل الأكواب والكؤوس ، وصنعوا بعضها بشعبتين وثلاث شعب ، وبعضها بأربعة قوائم ، وبعضها بقاعدة مرتفعة على هيئة الكأس أو حرف Y (٩٦) وصوروا رسوماتهم على ما يناسبها من سطوح هذه الأواني ، صوروها على السطوح الداخلية للأواني المتسعة ، وصوروها على السطوح الخارجية للأواني الضيقة (٩٧) ، وتعمدوا أن يصوروها على السطوح الداخلية والخارجية للأواني المتسعة في آن واحد أحياناً أخرى (٩٨) .

استأنف أهل نقادة مراحل التطور في الرسوم التي سبقتهم ، وانتفعوا بالطريقة التخطيطية التي بدأها أصحاب الرسوم التاسية كما انتفعوا بالخطوط اللينة التي استحبها أصحاب الرسوم البدارية ، ثم ارتقوا بهذه وتلك وصوروا بهما طائفة من حيوانات بيئتهم وطائفة من مجالات نشاطهم البشري وطائفة من التكوينات الزخرفية اللطيفة ونماذج من قواربهم . فصوروا أسماك النيل وتماسيحه وأفراسه ، وصوروا البقرة والكلب والحمار والفيل والوتل والزرافة والثور الوحشي والعظاءة والعقرب وسلحفاة الماء والنمس والثعلب وابن آوى (٩٩) ، في أشكال مختصرة سريعة ولكنهم أخرجوها في حيوية مقبولة . واستغلوا خطوطهم وزواياها الحادة في تصوير أعداد من أفراس النهر ، وبقي من مجموعاتها الناجحة ما يصور أربعة منها تدور خلف بعضها حول دائرة في قاع الإناء ، أو تدور خلف بعضها حول أربع ، أسماك أو تتعاقب بعد بعضها في إطار الإناء (١٠٠) .

وانتفع النقاديون بالخطوط اللينة في تصوير بعض عاداتهم الاجتماعية تصويراً بدائياً ، فصوروا راقصين وراقصات يرقصون فرادى وجماعات ويؤدون حركات تشبه حركات التمثيل ، ويتوج رجالهم فيها رؤوسهم بريش طويل (١٠١) . ولكن ظل نجاحهم في تقليد ملامح الإنسان أقل من نجاحهم في تصوير هيئة الحيوان ، فظلوا يجهلون عن رأس الإنسان بنقطة بيضاء تكاد لا تتضمن شيئاً من التفاصيل غير تصوير الشعر القصير للرجل وتصوير الشعر المرسل للأُنثى ، وعبروا عن الجذع العلوي للرجل بما يشبه

(٩٦) Preh. Eg., pl. X, 7, XV, 51, 54-55, Corpus, pl. XX, 14, XXIV, 81, XXV, 91.

(٩٧) محمد أنور شكرى ، الفخار في عصور مصر الأولى - ص ١٦

(٩٨) Preh. Eg., XVI, 62; Corpus, XXIII, 50, 71,

(٩٩) SCHABERF, Altertümer I, 118.

(١٠٠) Preh. Eg., pl. XVIII, 71-72; J.E.A. XIV, Fig. 1, p. 261.

(١٠١) Preh. Eg. pl. XVIII, 74; J.E.A. XIV, pl. XXVIII; BAUMGARTEL, Cultures, p. 30, 64.

هيئة المثلث المقلوب ، وعبروا عن ساقيه بخطين متجاورين (١٠٢) . وكان عجزهم عن تصوير تفاصيل الجسم تصويرا سائما يشبه عجز أهل العصور البدائية في الحضارات القديمة كلها عن تصوير أنفسهم . وعالج النقاديون هذا العجز بتوضيح الخطوط العامة في صورهم وتميز كل صورة عن أختها .

وصور النقاديون مناظر صيد الأسماك وأفراس النهر تصويرا ساذجا ، وبقي من مناظرهم الكثيرة منظر (١٠٣) يمثل صيادا ضرب أنثى فرس النهر بخطاف ربطه في جبل طويل وعقد الجبل حول وتد ثبته في أرض الشاطيء . وصور الرسام بجانب أنثى فرسى النهر وليدها ، ثم كرر المنظر على جانب آخر من الآنية ، ولكن بعد أن استغنى فيه عن تصوير الصياد ووليد فرس النهر لضيق مساحة الرسم ، وصور أسفل منظره خطوطا متقاطعة تعبر عن الماء وصور أعلاه خطوطا أخرى ترمز إلى تلال بعيدة على صرحى البصر .

وصوروا صيد البر (١٠٤) ومن أطرف ما يستشهد به من مناظرهم ، منظر صغير في قلب صحفة يصور صيادا يحمل قوسه ويشد خلفه أربعة كلاب وينطلق في سبيله لصيد الطباء ، وجمع الرسام النقادى في تنفيذ هذا المنظر الصغير بين خطوطه الحادة وخطوطه اللينة ، واتضح له خلاله عدة محاولات لتوضيح مفردات رسمه ، فرتب الكلاب الأربعة في صف رأسى حتى يظهر كل كلب منها بصورته كاملة ، عوضا عن رسمها على حالها في الطبيعة يختلط بعضها ببعض ويخفى بعضها بعضا . وعبر عن بيئة الصيد بوسائله البسيطة فصور في محيط منظره مثلثات صغيرة تعبر عن التلال ، وصور في طريقه فروعا نباتية صغيرة تعبر عن الأشجار ، وحاول أن يظهر أكبر قسط من جسم الصياد ، فصوره من زاويتين ، ورسم صدره وكتفيه من الأمام ، ورسم بقية جسمه من الجانب (١٠٥) .

وجرت أغلب الرسوم النقادية على المنوال نفسه ، في تصوير الإنسان والحيوان ، فظلت تصور مفردات رسمها مستقلة عن بعضها ، الواحد منها فوق الآخر ، أو بجانب الآخر ، دون أن يخفيه أو يقاطعه ، واعادت على أن تصور ذوات الأربع من الجانب فيما خلا القرنين إذا كانا مقوسين مثل قرون الثيران فقد اعتادت على تصويرهما من الأمام (١٠٦) .

وعلى الرغم من بساطة هذه الوسائل ، أصبح بعضها من مستلزمات الرسم المصرى في أغلب عصوره ، فظل الرجل يصور من أكثر من زاوية واحدة ، وظل الرسامون يحرصون على إظهار مفردات رسمهم مستقلة بعضها عن بعض ، عن طريق ترتيبها خلف بعضها أو تصويرها على مبعدة من بعضها .

(١٠٢) محمد انور شكرى ، رسوم وصور نقادة الاولى والثانية - القاهرة ١٩٥١ ، ص ٨ - ٩

(١٠٣) Mahasna, pl. XXVI, 13.

(١٠٤) Ibid., pl. XXVII, 13; Preh. Eg., pl. XXIII, I; PEET, Abydos II pl. XXVII

(١٠٥) ZÄS, LXI, 21, Taf. II, 2 - وراجع محمد انور شكرى ، المرجع السابق ص ١١ - ١٣

(١٠٦) J.E.A. XIV, pl. XXVIII; Corpus, pl. XXV. - ص ٧

وحاول النقاديون أن يصوّروا مجالات الصناعة ، ولكن لم يعرف لهم فيها غير تصوير واحد ، رسم أحدهم فيه رجلين ينسجان حصيرا أو يقيان سياجا وصور بجانبها نولا لعمل الحصير أو لنسج الكنان (١٠٧) .

وصور أهل نقادة برسومهم الخطية أحد عشر نوعا من نباتات الماء وسعف النخل والصبار (١٠٨) ، وبدأوا تصوير الدوائر المنتظمة في زخارفهم ، وارتقوا برسم الإطارات حول صورهم (١٠٩) . وامتاز بعضهم بدقة الملاحظة وبراعة التسجيل في تصوير قواربهم ، و بقيت من صور هذه القوارب صورة قارب رسمه صاحبه بمجازيفه في وضع جانبي كامل ، وصورة قارب آخر رسمه صاحبه بمجازيفه في مسقط أفقي كامل (١١٠) بعد أن وقف فوق الشاطئ ورسم أجزاء الظاهرة فوق الماء دون أجزائه الخفية تحته ، ولم يكن تصوير مثل هذه المساقط بالأمر الهين بالنسبة إلى أهل عصره .

وظهرت أغلب قوارب نقادة بسطح مقوس ومجازيف جانبية ومقدمة يتساوى ارتفاعها تقريبا مع المؤخرة ، ولكن ظهرت بينها في أواخر عصرها قوارب تميزت بخصائص سيكون لها شأنها في العهود التالية لها ، ومنها وجود مقصورة أو مقصورتين فوق سطحها ووجود جريدة نخل في مقدمتها ، وارتفاع مقدمتها عن مؤخرتها (١١١)

وارتقى أهل نقادة بالخطوط المستقيمة والمائلة التي بدأها أهل دير تاسا وألقوا منها زخارف جديدة على هيئة النجوم وخطوط الزجراج الحادة واستعاضوا عن حفرها على سطوح الفخار برسمها بخطوطهم البيضاء التي تملأ الخطوط المتقاطعة فراغاتهما .

وذهب كل من بترى وكبار وفرانكفورت إلى أن النقادين أرادوا أن يقلدوا بهذه الزخارف زخرفة القش والحوص التي كانوا يمارسونها في صناعة السلال (١١٢) ، ويمكن قبول هذا الرأي فعلا بالنسبة إلى زخارف الأواني المنسقة التي تشبه السلة في شكلها العام (١١٣) . ولكن يصعب قبوله بالنسبة إلى زخارف أخرى لا تظهر فيها رغبة التقليد ، بقدر ما تبدو فيها رغبة الصانع أو الرسام في تنفيذ زخرفة يتدعها بنفسه (١١٤) ، وذلك مع ملاحظة أنه على الرغم من كثرة الأشكال شبه الهندسية التي تضمنتها هذه الزخارف فإن التشابه بينها قليل ، أي أنها لم تكن تخضع بالضرورة لنماذج بعينها ، على عكس السلال التي تقل

Bad. Civil, pl. XXXVIII, 70 k, and p. 54 ; VANDLER, Manuel, I, 286; BAUMGÄRTEL, op. cit., p. 30. (١٠٧)

Preh. Eg., p. 15. (١٠٨)

Ibid., pl. XVIII, 72, XX, 10, 12; XXI, 35, XXII, 36, 41; STEINBOEFF, Die Kunst, 265a. (١٠٩)

راجع عبد العزيز صالح : الفن المصري القديم (في تاريخ الحضارة المصرية) - القاهرة ١٩٦٢ - ص ٢٧٤

Preh. Eg., pl. XXIII, 2, XV, 49. (١١٠)

An. S., XXXV, Fig., 10-11, Preh. Eg., pl. XV, 49, XXIII, 2; Mostagedda, pl. XXXVIII, 4. (١١١)

Preh. Eg., p. 47; Diospolis, p. 14; CAP. RT, Debuts, p. 100-102; FRANKFORT, Studies, p. 94. (١١٢)

Preh. Eg., pl. XI, 14, 18, 19; XII, 24, 25. (١١٣)

Ibid., pl. XI, 15; XV, 51, 59; also VANDIER, Manuel, I, 266-267. (١١٤)

نماذجها وتشابه زخارفها إلى حد كبير^(١١٥). وأضافت باو مجرتل إلى ذلك أن بعض الزخارف النقادية تقلد زخارف الجلد ، وأن بعضها يحمل معنى سحرى أو دلالة رمزية ، مثل الخط الزجراج الذى يعبر فى رأيا عن الماء أو السائل الذى يحتويه الإناء^(١١٦) .

على أنه مهما يكن من أمر هذه التفسيرات كلها ، فالذى لا شك فيه هو أن الزخارف النقادية التى امتاز أغلبها بالتناسق والذوق اللطيف ، تشهد برقى أذواق أصحابها وتتم عن نوع من الرخاء النسبى جوزى الصانع فيه على ما بذله فى عمله من جهد ووقت ، وتشجع به على أن ينتقل بأسلوب رسمه إلى سطوح أخرى مثل بيض النعام^(١١٧) .

استحب أهل نقادة هيئة المعين فى صناعة الصلايات ، واستغلوا سطوحها للتطور بالرسم المحفور الذى ورثوه عن جيرانهم أصحاب الحضارة النابية والحضارة البدارية ، إلى فن مستحدث جديد ، وهو فن النقش على الحجر ، فنقشوا وخذشوا على بعض سطوحها هيئات الفيلة والتماسيح وغيرها ، نقشا غائرا أوليا متواضعا^(١١٨) . وواصلوا الخطى البسيطة البطيئة التى بدأها أهل البدارى فى سبيل النقش البارز والمجسم ، فحسوا هيئات أفراس النهر والتمايح والعظايا الكبيرة على جوانب بعض أوانيم الفخارية وعلى أغطيتها ، وعلى الأطراف العليا لبعض صلاياتهم^(١١٩) . ويبدو أنهم حملوا بعض هذه المجسمات عقائدهم الدينية ، ومن خير ما يستشهد به منها أنية طويلة حمراء شفافة سوداء جسمت على جانبا رأس وقرنا بقرة وذراعا بشريان يقدمان ثديين ، ورأت باو مجرتل فى هذا التجسيم رمزا لربة الخصب عند النقادين^(١٢٠) ، ورأى جيكييه فى هذه الربة رفيقة للعبود ست رب نوبت ، وتمثلها فى معبودة قديمة سميت فى بداية أمرها باسم النوبتية ، أى المنتسبة إلى مدينة نوبت ، ثم اعتزلت رفيقها ست وانضمت إلى منافسه حور بعد أن تغلب عليه ،

(١١٥) Bad. Civil., p. 63. ولا زال أهل ارميت يزخرفون فخارهم برسوم تخطيطية شبه هندسية ، ويجرى الكبايل فى مرتفات الجزائر على الأسلوب نفسه فى زخرفة فخارهم .

of., Preh., Eg., p. 14; K. KEIMER, in Ann. S. XXXV, 181, Fig. 19-20.

BAUMGARTEL, op. cit., p. 57, 59 f; Preh. Eg., pl. XI, 15. (١١٦)

(١١٧) عن بيضة نعام رسمت على سطحها رسوم تشبه رسوم الفخار ، وضمنت وعلا يتبعه كلب وزرافتين وفصنا نابيا وعلامات مختصرة رأينا كانتور اختصارا لهيئات حيوانات أو طيور . KANTOR, in J.N.E.S., 1948, 6.

Preh. Eg., pl. XLIII, 7 M; XLIV, 91 M., CAPART, Débuts, Fig. 58-59; Bad. Civil., pl. LII, 4. (١١٨)

J.E.A. XIV, pl. XXVII, 2, 4; Mahaana, pl. XI; Archaic Objects, pl. 24 No. 11570; ZAS., LXI, (١١٩)

Taf. XI, I; Mostagedda, pl. XLIII, 3-4; Preh. Eg., pl. XLIII, 4 R. XLIV, 91 T, U; Corpus, pl. LVIII.

BAUMGARTEL, op. cit., p. 31, pl. 3. (١٢٠)

واحتوت اسمه في اسمها فأصبحت تسمى حتحور وأصبح أتباعها يفسرون اسمها القديم النوبتية بمعنى جديد وهو الذهبية^(١٢١) (وكان الذهب يسمى باسم نب أونوب في اللغة المصرية القديمة) .

واعتماد أهل نقادة على أن يميزوا بعض أوانهم بعلامات مفردة مخصصة تمثل حيوانات ونباتات وخطوط مسنقمة ومقاطعة، ورمزت أغلب هذه العلامات إلى أصحاب الأواني وصناعتها^(١٢٢)، ورمز بعضها إلى معبودات أصحابه^(١٢٣)، ونم بعضها عن الأوضاع السياسية في عصره، فحسم هيئة تاج الوجه البحري على سطح آنية^(١٢٤) لأول مرة في الآثار المصرية، وصور صقرا ينهض فوق إطار مستطيل^(١٢٥) أصبح رمز في العصور التالية، فيما يعتقد پتري، إلى واجهة قصر الملك الحاكم .

استمرت صناعة التماثيل الصغيرة من الصلصال والفخار في حضارة نقادة، وظل أغلبها للنساء، ربما لأن صناعتها الرجال كانوا يؤثرون تمثيل الجنس الآخر شأنهم شأن كل فنان مبتدئ، أو لأن عقائد ما بعد الموت تطلبتها كما تطلبتها منذ حضارة البداري، فظلت ترمز إلى الزوجات والجواي اللأئي يمتنى المتوفى أن يكفلن له الذراري في حياته الثانية، وترمز إلى الراقصات اللأئي يمتنهن المتوفى لمتعته في الآخرة، وترمز إلى الربات اللأئي يمتنى المتوفى أن يسبغن عليه الحماية حين يبعث ثانية. وشكل البداريون طائفة بدائية الصنع من تماثيل الرجال والنساء المواضعة برؤوس صغيرة مدببة تشبه رؤوس الطير ومثلوا العينين عليها باللون أحيانا^(١٢٦)، وشكلوا إلى جانبها طائفة أخرى أكثر إتقاناً ووضوحاً منها برؤوس مستديرة، وشكلوا ملامح وجوهها في الصلصال تارة ورسموها عليه باللون تارة أخرى^(١٢٧)، ولكنهم لم يبلغوا فيما عثر عليه حتى الآن من تماثيلهم درجة الإتقان التي بلغها فنان البداري في تماثيله الفخارية ولا تماثيله العاجي^(١٢٨). وصورت بعض تماثيل النوعين نساء بدينات بأرداف غليظة اعتبرهن پتري إماء من جنس قديم اتصف ببروز العجز وعاصر الحضارة السولترية في الدهر الحجري القديم الأعلى، وحاول أفرادها أن يستقروا في جماعات صغيرة في حوض البحر المتوسط ولكنهم عجزوا عن الاستيطان بين أهلهم، فظلوا مستضعفين مشردين حتى ارتحلوا إلى النوبة ثم إلى نواحي الصومال

(١٢١) JEQUIER, Considerations sur les religions égyptiennes, p. 193 f. - وراجع ص ٢٠٧ - ٢٠٨

(١٢٢) Naqada, pl. LI-LVII; Preh. Eg., p. 48; SCHAEFF, Altertümer, I, 102, 169

(١٢٣) CAPART, Débuts, Fig., 77; MASSOULARD, op. cit., pl. 38, 2.

(١٢٤) WAINWRIGHT, in J.E.A. IX, 26 f.

(١٢٥) PETRIE, The Making of Egypt, p.

Ibid., pl. III (١٢٧)

Preh. Eg., pl. IV-VI (١٢٦)

(١٢٨) Ibid., pl. XLV, 29, 30, p. 7. وشكلوا بعض تماثيلهم الفقيرة بالصلصال حول أحواد البوم الصغيرة

- وقد ترجع بساطة تماثيلهم المروفة حتى الآن إلى محض الصدفة، وراجع محمد أنور شكرى، تماثيل

الإنسان في فجر تاريخ مصر القديم - ص ٢

واستقروا بها حتى عصور الدولة الحديثة ، ثم نزحوا منها جنوبا حتى اتهم المطاف بهم الى جنوب أفريقيا وعاشوا منطوين فيه حتى الآن (١٢٩) .

وخرج G. D. Hornblower برأى آخر أكثر منطقية من رأى بترى ، لاحظ فيه أن بدانة تماثيل نقادة تكسو الجسم كله ولا تكسو الأرداف وحدها ، وذلك أمر لا يقتصر على جنس معين دون جنس آخر (١٣٠) . وهكذا يمكن أن يقال بأن بدانة هذه التماثيل إذا كانت قد قصدت لذاتها ، فهي أقرب إلى أن تكون تضخيمًا لمظاهر الأنوثة وتأكيذاً لقدرة صاحباتها على الإنجاب . ومن أطرف تماذج هذه التماثيل ما يمثل أثنى جالسة تضع يدها على رأسها وأخرى تقدم نديها بيديها (١٣١) .

وكثيرا ما كانت ذراعا الأثني تمثل مرفوعتين إلى أعلى ، وأدى هذا الوضع إلى فرضين ، فرض رأى أصحابه أن التماثيل تمثل راقصات لإمتاع المتوفى في آخره (١٣٢) ، وهو فرض يزكيه أن رفع الذراعين إلى أعلى ظل من أوضاع الرقص المستحبة في رسوم الفخار خلال العصر نفسه وخلال عصر نقادة الثانية (١٣٣) ، وفرض آخر رأى فيه G. D. Hornblower أن رفع الذراعين إلى أعلى يعبر عن الحماية التي تسبغها الأم أو الآلهة الأم على المتوفى ، وذلك بما يتفق مع بعض الأغراض التي تعبر عنها علامة الكال في الكتابة المصرية القديمة (١٣٤) وهو فرض مقبول من الناحية النظرية على أقل تقدير ، وقد جمع هورنبلاور فيه بين ظاهرة رفع الذراعين وامتلأء الثديين وسمى هذه التماثيل باسم تماثيل الأم .

ولوحظ أن أغلب هذه التماثيل الصغيرة صحت بغير أقدام أو أكف ، وربما بغير ذراعين أحيانا ، أو اكتفى صانعها بالتعبير عن ذراعها بتوعين قصيرين يبرزان من طرفي الكفين . وعلل هرمان كيس هذه الظاهرة بفرض سمحى استهدف أصحابه أن يمتنعوا التماثيل من الهرب من خدمة المتوفى (١٣٥) ، وهو تعليل لا يخلو من شك ، وإذا صح قبوله لتفسير عدم تمثيل القدمين صعب قبوله لتفسير عدم تمثيل الذراعين والكفين . وخرج شكري برأى آخر ، علل فيه عدم تمثيل الأطراف باكتفاء الصانع أو الفنان البدائي بتمثيل الهيئة الإنسانية في أبسط صورة ، دون اهتمام بتفاصيلها ، ودون اهتمام بتمثيل الأطراف التي يعرف سرعة تعرضها للتلف نتيجة لصناعتها من الصلصال الهش (١٣٦)

(١٢٩) ربط بترى بينها وبين تماثيل نسوية تشبهها عشر عليها في مخلفات الحضارة السولترية بفرنسا واخرى في تراقيا والبنانيا وكريت . Preh. Eg., p. 9, 47; Naqada, p. 34.

(١٣٠) G.D. HORNBLOWER, in J.E.A., XV, 30, 42.

(١٣١) Preh. Eg., pl. III, 3, V, 6.

(١٣٢) J.E.A. XIV, pl. XXVIII

(١٣٣) CHARAF Altertümer, II, 32.

(١٣٤) Totenglauben, 43 f.

(١٣٥) J.E.A. XV, 3 f.

(١٣٦) محمد أنور شكري - المرجع السابق ص ٦ ، وربطت باومجرل بين التماثيل غير ذات الاذرع وبين تماثيل تشبهها في مناطق حوض البحر المتوسط (op. cit., p. 23)

ولونت بعض تماثيل النساء باللون الأحمر ورسمت على جسومها ورؤوسها من الأمام والخلف فلاتدها وخطوط بسيطة وزخارف متناسقة ، ورسوم ترمز إلى نباتات وحيوانات ، ورأى پترى وكابار وشارف أنها خطوط ورسوم تعبر عن الوشم (١٣٧) ، وعارضهم هورنبلاور وشتيندورف وكيمر على أساس أن الوشم لم يكن له شأن في مصر القديمة ولم يظهر على الجثث ما يؤكده ، وربطوا بينها وبين الرسوم التي اعتاد أهل عصرها على أن يرسموها على سطوح أوانيهم (١٣٨) ، سواء لأغراض سحرية كما يعتقد هورنبلاور ، أو لغرض الحلية .

وصنع أهل نقادة تماثيل بدائية أخرى لرجال، مثلوا فيها أسرى قيدت سواعدهم خلف ظهورهم (١٣٩) واستغلوا ليونة الصلصال وسهولة عمل الفخار في تشكيل مجموعات صغيرة متواضعة تمثل ما يقوم به الخدم والأتباع (١٤٠) ، وبقى مما صنعوه منها نماذج صغيرة لزوارق بركابها (١٤١) ، وجزء من نموذج حصن يقوم على حراسته رجلان (؟) (١٤٢) ، ورجل يضع يديه في دن يهيء فيه طعاما أو شرابا، وامرأة تعد البجعة في دن، وذلك فضلا عن تماثيل أخرى صغيرة لنساء متجاورات وحيوانات متجاورة قد يمثل الأربعة منها جنبا إلى جنب (١٤٣) .

ونتهى من تماثيل الصلصال في نقادة بأمرين مرجحين، وهما : أنها حين وضعت مع المتوفى في قبره كان يقصد بها بطبيعة الحال أن تحقق بعض الفوائد لصالحه في العالم الآخر ، وأن أغلبها يمثل أتباعا للمتوفى أكثر مما يمثل المتوفى نفسه رجلا كان أو امرأة ، لاسيما وأنها جميعها ذات حجم صغيرة وأغلبها بدائي الصنع . وأن ما مثل منها أشخاصا مشوهي الحلقة لا يمكن أن يعبر عن أصحاب المقابر ، كما أن ما مثل الأسرى المقيدين منها يرجح أنه كان يرمن إلى أعداء للمتوفى يرجو لهم العجز في حياته الثانية (١٤٤) .

Preh. Eg., pl. VI; Naqada, p. 34, 45 f.; Débuts, p. 22-23; Altertümer, II, 32, 36. (١٣٧)

وتظهر على وجوهها أحيانا خطوط تشبه علامات تشرية الوجه عند السردانيين .

J.E.A., XV, 33; Mem. de l'Inst. d'Egypte, LIII, 2 f. (١٣٨)

يرمز الى خطوط الجلد البشري . ووجدت مثل هذه الخطوط على تمثال من الصلصال من البدارى

Bad. Civil., pl. XXIV, 3.

J. DE MORGAN, Recherches, Fig. 372; SCHARFF, Altertümer, II, 34. (١٣٩)

(١٤٠) محمد أنور شكرى ، المرجع السابق ص ٧ - ٨

Preh. Eg., pl. VII, 17; Altertümer, 36 f. 41 f, Taf. XII, 56-58; XIV, 64. (١٤١)

Diospolis, pl. VI B, 83, p. 32. (١٤٢)

Altertümer, X, 49-50; XI, El Amrah, IX, I. (١٤٣)

(١٤٤) راجع أيضا محمد أنور شكرى - المرجع السابق ص ٨

ومارس النقاديون فنهـم التشكـلي بأسلوب آخر ، فشكـلوا بعض صلاياتهم على هيئة أفراس النهر والسلاحف والأسماك ، واكتفوا في تشكيلها بتحديد الخطوط العامة للحيوان التي تمثلها^(١٤٥) . وشكـلوا قطعـا صغيرة رقيقة من الإردواز وحجر الدهن على هيئة بشرية ، ربما باعتبارها تماثـم^(١٤٦) ، واستخدموا أو انبهم الفخارية للرمز إلى هياث معبوداتهم ، فشكـلوا منها آنية على هيئة أثنى ممثلة العجز والفضدين والثديين رمز فيما تعتقد باومجرتل إلى إاحدى ربـات الإخصاب والأمومة عندهم^(١٤٧) ، وهو اعتقاد لا بأس به .

وزخرف النقاديون أنياب فرس النهر وقطعا من عاج الفيلة بنقط وخطوط شبه هندسية محفورة ، وأخرى تشبه القلاووظ ، وجعلوا لكل واحد منها حزاميـقا يحيط بجزئه العلوى ويكاد يقسمه قسمين : قسما علويا صغيرا يمثل الرأس ، وقسما سفليا كبيرا يمثل الجسد^(١٤٨) . ولاحظ پترى وبرنتون أنهم اعتادوا على وضع ناب من هذه الأنياب المزخرفة مع ناب آخر غير مزخرف في المقبرة الواحدة ، ورأت باومجرتل في ذلك أنهم أرادوا أن يرمزوا بالناب الغفل إلى الرجل والناب المزخرف إلى الأثنى ، وأنهم هدفوا من الجمع بينهما إلى تأكيد القدرة على الإخصاب ووفرة النسل لصالح المتوفى^(١٤٩) . وقد لا يكون من بأس في قبول هذا الفرض ، ولكن يلاحظ إلى جانبه أن لبعض هذه الأنياب ثقبا في أعلاه ، وذلك مما يعنى أنه كان يعلق في قلادة باعتباره تميـمة تنفع الأحياء والمتوفى على السواء^(١٥٠) ، وأن أقدم ماء عليه منها ، وقد يعود إلى عصر البدارى ، عثر في داخله على أثر مسحوق الدهنج^(١٥١) ، وذلك مما يعنى أنه كان يستخدم لحفظ مساحيق الزينة . وقد النقاديون الأنياب بزخارفها في قطع تشبهها من الحجر الجيري والفخار والأبـستر^(١٥٢) .

واستخدموا أنياب العاج لما هو أهم من ذلك ، فحتوا منها تماثيل رجال ونساء تبدو ملامح وجوههم أكثر وضوحا من أمثالها في تماثيل الصلصال ، وتمتاز التماثيل النسوية منها باختلاف أوضاع أيديها ، فقد تكون اليـدان على الجانبين أو تحت الثديين أو تسترـان العورة في حياء لطيف^(١٥٣) . غير أن النسوية

Corpus, pl. LII, 8 A, 14 D, G; pl. LIV. (١٤٥)

Preh. Eg., p. 9, pl. I, 9-10. (١٤٦)

Diospolis, pl. V, B 83; BAUMGÄRTEL, op. cit., p. 31. (١٤٧)

Preh. Eg., pl. XXXII-XXXIII. (١٤٨)

Naqada, p. 19; Bad. Civil., p. 59; BAUMGÄRTEL, op. cit. p. 35-36. (١٤٩)

Preh. Eg., pl. XXXII, 14, 17, 25. (١٥٠)

Mostagedda, p. 53, pl. XXIII, 1A; XXIV, 16-17. (١٥١)

Débuts, Fig. 116-117 (١٥٣)

Preh. Eg., pl. XXXIII. (١٥٢)

منها والرجالية تتصف في مجملها بالنعافة والاستطالة ، ربما بما يناسب قطع العاج المستطيلة التي صنعت منها ، كما تتصف بالتصاق الساقين بحيث لا يفصلهما في أغلب أحوالهما غير خز طويل أو شق ضيق ، رغبة فيما يبدو في تقليل تعرضهما للكسر^(١٥٤) . والطريف أنه وجدت لبعضها قواعد دقيقة يحتدل منها أنها كانت تثبت في أشياء أخرى كبيرة مثل العصى الضخمة وما يشبهها . وطعم النقاديون عيون بعض تماثيلهم بخزات ملونة من حجر الدهن وقطع المحار الأبيض وقشر بيض النعام^(١٥٥) وصوروا قلائدها على أجسامها بالألوان واستخدموا بعض الأنياب بعجمها الطبيعي وكانوا يشكلون طرفها الدقيق أحيانا على هيئة رأس رجل بلحية طويلة مدببة ويتكون طرفها العريض مجوفا ، ويزودونها في أعلاها بعروة عاجية مثقوبة قد تدل على أنها كانت تعلق في قلائد أو نحوها ، وقد يشكلون على رأس صاحبها هيئة القدر عوضا عن العروة المثقوبة ، ويخزون على نهاية تمثاله خطوطا دائرية قد تبعد عن نهاية ثوبه الطويل^(١٥٦) ، وناقشت آراء كثيرة أغراض هذه الأنياب ومصدرها :

فأرى شارف أنها كانت تمائم، وأن رؤوسها الملتحية تمثل معبودات وكائنات محورية اعقد النقاديون فيها قدرة خارقة^(١٥٧) . وذهب دى مورجان وهورنبلاور إلى رأى مخالف ، فرأيا أن تجويها يدل على أنها كانت تستخدم لحفظ مساحيق الكحل والبخور والعقاقير البدائية^(١٥٨) ومع بساطة رأيهما وإمكان قبوله واعتبار الرؤوس الملتحية مجرد حلقة إلا أنه لم يعثر داخل الأنياب على أثر لمادة ما من الكحل أو البخور أو غيرها . ولو أنه يضاف من ناحية أخرى ما أسلفناه عن أن أقدام الأنياب المحوفة الصغيرة التي عثر عليها في البدارى ، وجدت بداخلها آثار مسحوق الذهب ، وأنه عثر في مقبرة من مقابر جرزة على قطعة من الفخار شكلت على هيئة قرن أو هيئة ناب عاجي ، وشكلت رأسها على هيئة رأس البقرة ، أمسكها المنوفى بين يديه وقربها من أنفه^(١٥٩) ، مما يدل على أنها قلدت نابا أو قرنا يخوى على مادة عطرية مستحبة .

ولم تنحصر المشكلة في أغراض الأنياب وحدها ، وإنما تعدتها إلى أسلوبها ، إذ لوحظ أن هيئات وجوهها وطريقة تمثيل لحاها وثيابها الطويلة^(؟) ، تختلف بعض الشيء عن هيئات التماثيل المصرية المعتادة

(١٥٤) محمد أنور شكرى ، المرجع السابق - ص ١١

(١٥٥) Preh. Eg., p. 9, pl. II, 20, 22.

(١٥٦) Ibid., pl. I; XLVI, 1; Débuts, Fig. 140; Altertümer, Taf 18, 45; J.E.A. XIII, 240 f.

(١٥٧) Altertümer, 27 f.

(١٥٨) J. DE MORGAN, Recherches, p. 63; J.E.A. XIII, 243.

وراجع محمد أنور شكرى ، المرجع السابق ص ١٤ - ١٥ ، حيث يستعرض آراء أخرى لبتري وكابار برجان فيها فرض البحر ... ، ويستشهدان معها بظهور الرأس الملتحية على أمشاط ومقامع قتال وصلابات وأواني حجرية ، وذلك مما يعنى أنه توفرت لها دلالة خاصة عند أصحابها ، وقد وجدت أمثالها في جزيرة كريت ، وذلك مما يعنى في رأى آرثر ايفانس وجود صلات قديمة بين البلدين .

(١٥٩) Gerzeh, pl. VII, 13, p. 23.

في عصرها وفي غير عصرها ، وقد يرجع ذلك إلى عدم استقرار الأسلوب المصري في نحت التماثيل حينذاك ، أو يرجع إلى تأثير صناعتها بأسلوب خارجي لا ندرى مصدره وإن كان هورنبلاور يراه من بلاد النهرين (١٦٠) .

وشابهت الأنياب المخلقة على هيئة الإنسان لوحات صغيرة رقيقة من العاج والعظم والحجر شكلها أصحابها على هيئة التماثيل النصفية ، برأس الإنسان وصدرة ، وجعلوا لها ذقونا مدببة اعتبرها پتري لحي طويلة ، واعتبرتها باومجرتل مجرد ذقون طويلة لرجال ونساء . ومثلت على بعض صدورها هيئات القلائد بالخطوط والنقط ، وزود بعضها بثقوب سفلية ، ورأى پتري في هذه الثقوب ما يدل على أنها كانت تعلق في قلادة (١٦١) ، بينما رأت فيها باومجرتل رمزا إلى أنوثتها صاحباتها (١٦٢) .

واستخدم النقاد يون قطع العاج والعظام لتمثيل أشكال قريية من أشكال الصلصال والفخار ، مثل أشكال الأقدام ومشوهى التكوين والأسرى الخثاة المقيدن (١٦٣) وشكلوا هيئات حيوانية صغيرة من الصلصال والفخار والعاج والأحجار الرقيقة (١٦٤) ، كانوا يتخذونها فيما يغلب على الظن تماثم لحلب منفعة أو دفع ضرر أو دفع حسد إلى جانب غرض التزين بها ، وكانت أكثرها شيوعا هيئة رأس البقرة وهيئة فرس النهر ، ولكل منهما صلته بمظاهر الأمومة والإخصاب . ومن أطرف الأشكال الحيوانية قطعة ناب صغيرة شكل صاحبها رأسها على هيئة رأس قرد ، وحفر على جسمها خطوطا دائرية جعلته كما لو كان ملفوفا في ثوب كاس طويل (١٦٥) .

وهكذا تعددت مجالات الإنتاج أمام صناع التماثيل الأوائل في نقادة ، وإذا كان المعروف من إنتاجهم حتى الآن لا يصل إلى حد الإجابة ، فإن ذلك قد يرجع إلى الصدفة وحدها ، وقد تؤدي الكشوف المستقبلية إلى معرفة المزيد من وجوه نشاطهم . والمرجح أن تعدد مجالات إنتاجهم في الكاليات كان يقابله نشاط مماثل في إنتاج الضروريات ، يتناسب مع مجتمعهم .

وترسم بعض الباحثين علاقات نقادة بجيرانها في مصر وخارجها ، فاستدج Wainwright من تجسيم هيئة التاج الأحمر على الآنية النقادية ، استمرار الصلات بين نقادة في الصعيد وحضارات الوجه البحري ووحداته السياسية (١٦٦) ، وكان سبيل الاتصال ميسرا بينهما عن طريق النيل الذي كانت تسلكه زوارق الفريتين ، ورأى هورنبلاور في التماثيل العاجية النقادية شها بتماثيل الحضارات الأولى لبلاد النهرين ودليلا على قيام الصلات بينهما (وإن سمي هذه الحضارات خطأ باسم الحضارة السومرية) ،

J.E.A. XIII, 240 f. (١٦٠)

BAUMGARTEL op. cit., 34-35 (١٦٢)

Preh. Eg., pl. I, 9-10, II, 1-4. (١٦١)

(١٦٣) راجع محمد انور شكري ، المرجع السابق ص ١١ - ١٢

(١٦٦) راجع حاشية ١٢٤

Ibid., pl. I, 3 (١٦٥)

Preh. Eg., p. 10 f. (١٦٤)

واستشهد على صواب اعتقاده بتصوير مركب ذات مقدمة مرتفعة على آنية نقادية^(١٦٧)، وكانت المراكب ذات المقدمات المرتفعة مراكب عراقية في رأيه، وقد لا تستقيم حرفية هاتين القرينتين^(١٦٨)، ولكن يلاحظ إلى جانبهما أن سبيل الاتصال بين مصر وبين الحضارات الآسيوية القريبة كان ممكنا عن طريق وادي الحمامات والبحر الأحمر بالنسبة إلى أهل الصعيد وعن طريق برزخ السويس بالنسبة إلى أهل الوجه البحري. واعتبر فنكسر رسل هذا الاتصال من الجانب المصري جماعات من سكان الصحراء الشرقية سماهم باسم أهل الجبال المحليين وتمثلهم في أجداد العابدة والبشاريين الحاليين وعقد الأواصر بينهم وبين أهل حضارة العمرة على أساس ظهورهم في صورهم يرتدون قراب العورة مثلهم^(١٦٩).

واستشهد بترى وماسولار بوجود خرزات من السبج (الأوبسديان) واللازورد والفضة في المقابر النقادية على قيام اتصالات بين نقادة وبين مصادر هذه الأحجار والمعادن التي تمتد في رأيه جنوبا حتى الحبشة وشمالا حتى بحر إيجه^(١٧٠)، ولو أنه يغيب على الظن أن المقابر التي وجدت بها هذه الخرزات تنتمي إلى عصر نقادة الثانية وليس إلى عصر نقادة الأولى. واحتمل برنتون وتشيلد أنهم استوردوا الأخشاب من سوريا والذهب من النوبة^(١٧١). وإن يكن هذا الاحتمال لا يبرأ من الشك.

وذهبت باومجرتل إلى ما هو أبعد من ذلك، فعقدت الأواصر بين زخارف الزجاج والمثلثات المتعاقبة والمثلثات المتدايرة (أى التي يقابل رأس أحدها قاعدة الآخر) على نغار العمرة وبين ما يقابلها على نغار سوسة الإيرانية، وخرجت بأنه لما كانت حضارة سوسة هي الأقدم، في رأيها، فهي المؤثرة في حضارة العمرة، وعقدت مقارنة مشابهة مع دورة الصياد المصري صاحب الكلاب وصوره صياد سوسى يشرع قوسه^(١٧٢). ولكن آراءها لا زالت بعيدة الاحتمال، وقد عارضها فأننديه بأن زخارف الزجاج والمثلثات والخطوط المتموجة زخارف بسيطة يمكن احتمال نشأتها مستقلة في كل من الحضارتين على حدة، وأن الصياد المصري ظهر في صورته يرتدى قراب العورة دون الصياد الإيراني، ووضع على رأسه ريشة واحدة بينما وضع الإيراني على رأسه ريشتين، وأمسك قوسه بيد ومحب مقود كلابه بيده الأخرى، بينما شرع الصياد الإيراني قوسه بيديه اليمينيتين. وعقب فأننديه بأن تاريخ الحضارة السوسية الأولى في إيران لم يقطع بصحته ولا يسبق لتاريخ العمرة، وأنه يمكن تأكيد الأصالة والإقليمية في نغار العمرة من حيث الصناعة ومن حيث الزخرفة^(١٧٣).

استخدم النقاديون مقامع للقتال، اختلفت هيئات رؤوسها عن رؤوس مقامع أهل الوجه البحري، واتخذت هيئة القرص وهيئة المخروط، وكانت تثبت في أيد خشبية وتشد إليها بسور من جلد متين

(١٦٨) راجع صفحة ١٨٦ و ١٨٩

(١٦٧) see also Mostagedda, pl. XXXVIII, 4, p. 84.

(١٦٩) WINKLER, Rock Drawings of Southern Upper Egypt, 1938; MASSOULARD, op. cit., p. 93.

(١٧٠) Preh. Eg., p. 48; MASSOULARD, op. cit., 168 f.

(١٧١) BRUNTON, Mostagedda, 83-84; CHILDE, New Light, 73.

(١٧٣) VANDIER, op. cit., 291 f.

(١٧٢) BAUMGARTEL, op. cit., 54 f.

مثل جلد فرس النهر . وصنعوا إلى جانب رؤوس المقامع الحقيقية رؤوسا أخرى رمزية من الصلصال ومن أحجار خفيفة يحتمل أنها كانت تستخدم في مراسم دينية وسحرية ، أو توضع بجانب المتوفى لينتفع بها انتفاعا يناسبه في حياته الأخرى . وكانوا يلونون مقابضها بخطوط ملونة أحيانا ، أو يصنعونها من العاج والقرون (١٧٤) .

وصنع النقاديون في أواخر عهدهم ، خناجر لا تختلف عن خناجر العصور التاريخية في شيء كثير ، سواء من حيث هياتها المسلوقة أو تثبيتها في مقابض تناسب قبضة اليد أو حفظها في قراب من الجلد ، لولا أن أصحابها ظلوا يصنعون أغلب نصالها من الطران ، ولكنها لم تعد كنصال الطران التي صنعها أسلافهم حتى عصر البدارى ، وإنما أصبحت نصالا ينطق لها صناعتها المحترفون أجود أنواع الطران عن قصد ويسوونها ويرققونها بعناية كبيرة . وصنعوا مع الخناجر سكاكين رقيقة جميلة على هيئة المعين يحتمل أنهم خصصوها للاستعمال المنزلى في مناسبات خاصة ، وبدأوا يصنعون سكاكين أخرى ذات أطراف مقوسة تقويسا قليلا وسطوح موجهة على هيئة أوراق الشجر (١٧٥) .

حاول فلندرز بترى أن يصور حياة أهل حضارة العمرة أو حضارة نقادة الأولى ، كما استنتجتها من مخلفات مقابرهم (١٧٦) ، فصورهم فيما يعاصر المرحلة الثلاثين من توقيته المتتابع على حال متواضعة دل عليها فقر مقابرهم ، وهى مقابر لم تزد الواحدة منها عن مجرد حفرة دائرية قليلة العمق ، يدفن المتوفى فيها على جنبه في وضع المنكش على نفسه ، ويلف بجلد ما عز تشابك أطرافه بدبوس نحاسى ، ولا يوضع معه فيها غير كأس واحدة من الفخار الأحمر ذى الشفة السوداء ، وقليل ما وضعت معه فيها صلاية على هيئة المعين . وتوافدت على هؤلاء الأقوام ، فيما يعتقد بترى هجرات ليلية حملت معها فكرة الفخار ذى الرسوم البيضاء المتقاطعة الذى تشبه زخارفه زخارف السلال ولا زالت بقاياها موجودة حتى الآن في مرتفعات الجزائر ، وأضافت إليها على حد رأيه استعدادات فنية راقية ظهرت في كثرة تصويرهم للحيوانات والنباتات بما يدل على روح عشقت الطبيعة وكائناتها ، وظهرت فيما أنتجوه من تماثيل العاج التي مثلت أصحابها دون إسراف (في مقابل تماثيل الصلصال التي مثلت النسوة ذوات الأرداف الغلاظ) وظهرت في صناعة حبات الخرز المغشاة بلون أخضر أو أزرق براق ، وظهرت في تعدد أشكال الفخار وفي صناعة أواني الحجر والعاج ، وفي إتقان أسنة الحراب ذات الشوكتين والسكاكين الحادة الرقيقة .

(١٧٤) Preh. Eg., p. 22, pl. XXV; El Amrah, p. 36, pl. XII, 1 محمد انور شكرى ، دبائيس القتال - ص ٢ - ٣

(١٧٥) بدأ بترى صناعة الخناجر والسكاكين الرقيقة بما بين المراحل ٣٦ - ٤٠ من توقيته المتتابع ، وأضاف الى اسلحة العصر رؤوس حراب تنفرج في نهايتها بشعبتين على هيئة ذيل السمكة ، وجعل السكاكين الرقيقة ذات الطرف المقوس من انتاج عصر نقادة الثانية . وذهب ما سولار الى العكس ، فرد بداية ظهور السكاكين ذات الطرف المقوس الى عصر نقادة الاولى ، وجعل رؤوس الحراب ذات الشعبتين من انتاج نقادة الثانية .

see Preh. Eg., p. 25; Mostagedda, p. 9; Bad. Civil., pl. XXIX, 3; BAUMGARTEL, op. cit., 28; HUZAYYIN,

محمد انور شكرى ، الاسلحة والادوات من الطران ، ص ٦ - ٧ The place of Egypt, 311, n.3.

Preh. Eg., pp. 47-48. (١٧٦)

وأضاف پتري أن قوما هذا إنتاجهم ، لاشك في أن بيوتهم كانت على حال موازية من الرقي ، فزئوج أواسط أفريقيا الحاليون الذين لم يبلغ إنتاجهم الفني مبلغ النقاديين الأوائل ، لا تخلو بيوتهم من تنسيق وجمال .

وكان النقاديون على نصيب من النظافة والوجاهة ، اكتفى رجالهم بارتداء قراب العورة ، وحلق بعضهم شعورهم بشفرات من الطران وارتدوا فوقها شعورا مستعارة . وغطت نساؤهم خصورهن حتى ما بعد العورة بأثواب كنانية ذات أهداب ، ومشطن شعورهن الطويلة بأمشاطهن العاجية المزخرفة ذات الأسنان الطويلة ، وثبتن فيها دبابيس شعر تزخرفها أشكل حيوانية ، وزججن عيونهن بالدهنج الأخضر ، وتحلين هن ورجالهن بأساور وخواتم من الأصداف والعاج . . ، واقتنى النقاديون في بيوتهم صناديق مستطيلة صغيرة من الفخار كانوا يزخرفون سطوحها برسوم تشبه رسومهم على الفخار (١٧٧) .

ودلت العلامات التي رسموها على أوانيمهم لتعيين صناعها وأصحابها على نمو روح الفردية في مجتمعهم ، كما دل اختلاف اتساع قبورهم واختلاف محتوياتها بين القلة والكثرة والرقي والبساطة ، على اختلاف مستويات الثراء بينهم ، وعلى شيوع الأمل في حياة أبدية ثانية بين أغنيائهم وفقرائهم على السواء .

لم يخل تصوير پتري لحياة النقاديين الأوائل ، أهل حضارة العمرة ، من طرافة وبراعة ، ولكنه لم يخل كذلك من وجوه ضعف ترتبت على أمرين وهما : أن پتري كتب وصفه لحضارة النقاديين قبل اكتشاف حضارات العصر النيوليتي ، وذلك مما دعاه إلى الظن بأن انتقال المصريين من حياة الدهر الحجري القديم الأعلى ، أو من عصر الحضارة السولترية كما يسميه ، إلى رقي الحياة في نقادة لا يمكن أن يتأتى دون تأثيرات خارجية (١٧٨) ، ثم اعتقاده حتى أواخر أيامه بأن مصر القديمة ظلت أرضا خصبة نمت فيها حضارات خارجية وفدت عليها ، ولكنها لم تكن إطلاقا موطننا لحضارة محلية أصيلة (١٧٩) ، ودفع به هذا الاعتقاد إلى ماراه من رد حضارة نقادة الأولى إلى هجرات ليدية ورد حضارة نقادة الثانية إلى هجرات أسوية (١٨٠)

والواقع أن عناصر الحضارة النقادية الأولى لم تعدم أصولها القديمة في حضارات العصر النيوليتي وبداية العصر الحجري النحاسي ، فالرسوم التخطيطية البيضاء عرفها أهل الصعيد منذ الحضارة التاسعة ، وتنوع أشكال الفخار ورقعة صناعته كلاهما يرجع إلى الحضارة التاسعة والحضارة البدارية ، ونحت

(١٧٧) Diospolis, pl. XVI, 73; Débuts, p. 124 f. وظهرت أمثالها خلال عصر نقادة الثانية ورسم على

بعضها بلون أسود يشبه الكربون . El Amrah, p. 42, pl. XII, 10-13.

(١٧٩) Petrie, The Making of Egypt, p. 161.

(١٧٨) Preh., Eg., p. 47.

(١٨٠) راجع ص ١٦٣ وما بعدها

التماثيل من العاج والعظام فضلا عن تشكيلها من الطمي والفضار ، يرجع كذلك إلى الحضارة البدارية إن لم يكن مما قبلها ، وتغشية جبات الخرز الحجرية بدأت منذ الحضارة السدارية ، والأمل في الحياة الأخرى يضرب بجذوره إلى الحضارة التاسية . وهكذا لم يكن من ضرورة إلى ما ظننه بترى من رد الحضارة النقادية إلى عنصر دخيل إطلاقا .

والواقع أن بترى لم يذهب مذهبه وحده ، وإنما وافقه موريه على اعتبار أهل نقاده الأولى من الليبيين^(١٨١) ، بينما سلك كل من فنكلر وشارف مذهبا آخر ، فربط فنكلر بينهم وبين جماعات من سكان الصحراء الشرقية على أساس ظهورهم في رسوم الصخور يرتدون قراب العورة مثلهم ، وسماهم باسم أهل الجبال المحليين ، واستنتج شارف من قصر منتجات نقادة الأولى على الصعيد أن أهلها كانوا من الحاميين الذين وفدوا إلى مصر من جنوب شبه الجزيرة العربية عن طريق البحر الأحمر^(١٨٢) .

وليس ما يضاف إلى ما ذكرناه عن إسراف هذه الآراء ، إلا أنه لا الليبيون ولا أهل الجبال الشرقيون ولا الحاميون ، قد تركوا في بلادهم حضارة تعاصر الحضارة النقادية وتدانيها بحيث تعقد الروابط بينها وبينهم . ولا نغني بذلك أن أهل مصر كانوا بمعزل عن هؤلاء وهؤلاء ، فقد اختلطوا بهم جميعا اختلاطهم الجنسي واللغوي الذي أسلفناه في الفصل الأول من هذا الكتاب ، ولكن المرجح حتى الآن هو أن الساميين والحاميين المحيطين بوادي النيل لم يكونوا أرقى حضارة من أهلها بحيث يترتب على هجرتهم إليه ارتقاء حضارته .

أما عن اعتقاد بترى بأن مصر لم تكن موطننا لحضارة داخلية أصيلة ، فهو اعتقاد مردود من أساسه ، وذلك على أساس ما أجهلناه الآن ، وما أسلفناه من قبل عن بداية التخصص الحضاري الإقليمي في مصر منذ الدهر الحجري القديم الأوسط نفسه ، فضلا عما سوف يتضح من اصالة حضارات العصور التاريخية الطويلة أصالة كاملة .

وقد يكون تخمين بترى عن رقى مساكن النقاديين على أساس الرق النسبي في إنتاجهم الصناعي والفني ، تخمينا مقبولا ، ولو أنه لم يتبين من مساكن النقاديين حتى الآن آثار ذات بال ، وإنما وجدت كيتون طومسون في الهامية أطلال مساكن فقيرة تشبه مساكن مرمدة ، بناها أصحابها من الطين وكسر الدبش على هيئة شبه دائرية وهبطوا بجزء منها تحت سطح الأرض ، وليسوا جدرانها من الداخل بالطين وكسوها بالبوص وقطع الحصير ، ولم تسمح الأجزاء الباقية منها بمعرفة هيأتها العامة من الخارج ولا هيئة سقفونها ولا طريقة الدخول إليها والتزول فيها ، ولكن لوحظ أن جدرانها تميل إلى التقوس في أجزاءها العليا ، ربما لتضيق مساحة سقفها الذي كان يغطي في الغالب بمواد خفيفة كالبوص وفروع الأشجار^(١٨٣) .

A. MORET, Histoire de l'Orient, 61 f., 81 f. (١٨١)

(١٨٢) راجع الكسندر شارف ، تاريخ مصر من فجر التاريخ - تعريب عبد المنعم أبو بكر - ص ١٦

Bad. Civil., 82 f., 44 f., pl. LXVI-LXVII (١٨٣)

وعثر جار ستانج في قرية المحاسنة على أوتاد دقت في الأرض على مسافات متقاربة كانت تدعم جدران أكواخ بسيطة تشبه دراوى مرمدة وحلوان (١٨٤). وليس من المستبعد أن تكون الصدفة وحدها هي المسئولة عن عدم الكشف عن آثار أخرى أكثر رقيا من هذين النوعين .

اتخذت أغلب مقابر نقادة الأولى هيئة دائرية أو بيضاوية أو شبه مستطيلة ، وكان المتوفى يلف فيها بجلد يشبه جلد الماعز ، وقد يكفن تحته بكتان ، ويوسد على حصير يلف به ، أو يوسد بحصيره فوق وطاء من الخوص المجدول ، وقليلًا ما كان يوسد فوق لوحة خشبية (١٨٥) .

ولوحظ في مقابر نقادة أمران، وهما: أن بعضها تضمن أكثر من جثة واحدة بحيث وجدت في إحداها خمس جثث (١٨٦)، وأن بعض موتاها تعرضت عظامهم لعمليات تفكيك مقصودة أو غير مقصودة ووضعت في غير نظام (١٨٧) .

ويمكن أن تؤدي إلى تعدد الجثث في المقبرة الواحدة ثلاثة عوامل، وهي: ازدياد الروابط الأسرية في المجتمع، وزيادة خبرة الحفارين بحفر مقابر واسعة يمكن استغلالها لدفن أكثر من فرد واحد، ثم عوامل الفقر التي تجبر أصحابها على استخدام المقبرة لأكثر من مرة واحدة . . .

أما تفكيك العظام فيمكن أن تؤدي إليه هو الآخر ثلاثة عوامل إذا كان تفكيكا غير مقصود، وهي: استخدام المقبرة لأكثر من مرة واحدة واضطرار أصحابها إلى تكويم عظام المتوفى القديم حيثما اتفق بحيث تشغل أقل حيز ممكن ، أو نهب المقبرة وبعثرة عظام صاحبها خلال البحث عن حليه التي لبسها أو وضعها أهلها معه في الحصير الذي غطوه به . . . ، أو اعتداء وحوش الصحراء على الجثة حين تجتذبها رائحتها عقب دفنها .

وأضاف وينريت وغيره أن فصل عظام الموتى كان يحدث أحيانا عن قصد قبل الدفن نتيجة لعادة قديمة من عادات أكلة لحوم البشر Cannibalism على حد قولهم ، أو باعتباره شعيرة من الشعائر الدينية (١٨٨) . وربط أصحاب هذا الرأي بين رأيهم وبين مجموعتين من متون الأهرام ، مجموعة زعمت أن الملك الموفى يقتات في أنحراه على أجساد أسلافه وأربابه ويستخدم عظامهم في إيقاد ناره (١٨٩) . وأخرى كانت تمنى للمتوفى أن تكتمل له عظامه وتتصل رأسه بجسده ، فنقول له ” انهض وخذ

El Amrah, p. 7-8, 32, pl. IV, 2. (١٨٥)

GABSTANG, Mahasna, pp. 6. - 7. Pl. IV (١٨٤)

Ibid.; Diospolis Parva, p. 33. (١٨٦)

El Amrah, op. cit. ; Ballas, Cemetery VII. (١٨٧)

WALKWRIGHT, Gerzeh, p. 11 f., also El Amrah, p. 7; Medum, III, 15, 19, 20. (١٨٨)

Pyr. 393 a. (١٨٩)

رأسك وضم إليك عظامك“ وتؤكد له أن الربة نوت ربة السماء سوف تعينه على ذلك وتثبت له رأسه وتجمع له عظامه وتضم إليه أعضاءه وتعيد قلبه إلى بدنه (١٩٠).

والواقع أنه لا يسهل تفسير فصل العظام والأعضاء عن قصد ، إن صح القصد فعلا ، في أيام نقادة الأولى ، تفسيراً مرضياً ، ولكن ذلك لا يحول دون استبعاد عادة أكل لحوم البشر عن آفاق المصريين ، وهم من حرصوا الحرص كله على رعاية موتاهم منذ أوائل عصرهم النيوليتي على أقل تقدير ، وذلك مع ملاحظة أنهم لم يجرموا الموتى الللائل الذين فصلوا أعضاءهم وعظامهم ، من متاعهم الأخرى المعتاد ، ودلوا بذلك على رضاهم بأن تتوفر لهم حياة أخرى يطعمون فيها ويشربون ويستمتعون فيها استمتاعاً غير منقوص . ولاحظ كل من Maciver and Mace وجود مادة سوداء تشبه القار فوق عظام شخص متوفى في إحدى مقابر العمرة ، ولم يستبعدا أن تدل هذه المادة على إحدى وسائل أهل عصرها لحفظ جثث موتاهم (١٩١) . ولو حظ في بعض مقابر العصور التاريخية نغمها أن أعضاء الجسم كانت تفصل بعضها عن بعض أحيانا ، ولكن ليلف كل عضو منها بالكنان على حدة ، ثم تجمع كلها مع بعضها مرة ثانية ، واتبعت هذه العادة في أكثر أحوالها بالنسبة إلى الأحشاء التي كانت تستخرج من البدن وتلف منفصلة في أربع لفائف مستقلة ثم تقمر في مواد التحنيط .

وليس من ضرورة إطلاقاً إلى اتخاذ المجموعة الأولى من متون الأهرام وسيلة للقول بعادة قديمة لأكل لحوم البشر ، فهذه المتون لم تشأ فيما يبدو إلا أن تبالغ في جبروت ملكها الذي زاد عن جبروت أسلافه وأربابه ولهذا بدأت بوصف الاضطراب الذي يجتاح السماء وأهلها حين تهل عليهم طلعتة ، فقالت ” غامت السماء وأظلمت النجوم واهترت الأقواس وارتعد الأرباب . . . حين شاهدوا الملك يتجلى في هيئة الروح . . . “ ، أو هي أرادت أن ترمز فيما يعتقد جيمس هنرى برستد إلى أن ابتلاع الملك لأسلافه وأربابه يعنى هضمه لحكمتهم وسحرهم وبأسهم القديم . . . (١٩٢) .

وهكذا كان شأن المجموعة الثانية من متون الأهرام ، فهي قد ترتبط بما كان يلحظه المصريون القدماء من التفكك الطبيعي في عظام الموتى في عهد لم يعرفوا فيها التحنيط ولم يحسنوا فيها حفظ الجثة ، أو ترتبط بتشبيه الملك المتوفى بالمعبود أوزير الذي روت الأساطير أن أخاه فتك به وقطع أوصاله وابعده بين بعضها وبعض ، ولكن قدرة الروبوية والسحر أعادتها سيرتها الأولى وأعدت الحياة لصاحبها (١٩٣) .

El Amrah, p. 11 (١٩١)

Pyr. 7:5 b, 835. (١٩٠)

(١٩٢) جيمس هنرى برستد : فجر الضمير - تعريب سليم حسن - ص ١٠٦

Pyr. 572, 623. (١٩٣)

ولوحظ غياب الرأس في بعض المقابر القليلة التي فصلت عظامها ، وحلول قدر أو بيضة نعام محلها ، وفسرت مبرجريت مرى ذلك تفسيراً طريفاً ، فرأت أن الرأس قد تكون لرجل صالح أو رجل عظيم رأى أهل بلده أن يتبركوا به فاحتفظوا برأسه عندهم بعد وفاته وقدموها ، أو تكون لرجل شرير رأى أهل بلده أن يتقوا أذاه إذا ردت الروح إليه ، فحرموه رأسه وأبعدوها عن جسده (١٩٤) .

ومع طرافة هذا التفسير إلا أنه يصعب التسليم به تماماً ، ويمكن أن يضاف إليه أن أصحاب المقابر الأسرية كانوا يفاجأون أحياناً حين يعيدون فتح الحفرة لدفن ميت جديد بغياب رأس الميت القديم وبعض عظامه نتيجة لاعتداء لص أو اعتداء وحش عليها ، نيسامون بالأمر الواقع ويجمعون ما بقي من عظامه ويضعون له القدر مكان رأسه (١٩٥) .

(د) في الوجه البحرى

ظلت مناطق الوجه البحرى أقل حظاً من مناطق الوجه القبلى فيما بقي من آثارها الحضارية القديمة ، يستوى في ذلك حظها من آثار فجر التاريخ وحظها من آثار العصور التاريخية نفصمها . وترجع أسباب هذه القلة إلى الظروف الطبيعية والبيئية التي أحاطت بالدلتا القديمة من حيث انخفاض أرضها ، وكثرة فروعها المائية ، وشدة طغيان الفيضانات عليها ، وكثرة ترسيب الطمي فيها ، وانتشار المنافع في مناطقها الشمالية ، وما ترتب على ذلك كله من ارتفاع نسبة الرطوبة في تربتها وسرعة تحلل الآثار فيها .

ويبدو أن ظروف الدلتا القديمة كانت ذات شقين ولم تكن شراً كلها ، فليس من المستبعد أن كثرة تعرض أراضيها لأخطار الفيضان كانت حائزاً لأهلها على مداومة الكفاح والرضا بأسباب التعاون والتقارب لدرء هذه الأخطار عن أراضي الزراعة وأراضي المساكن . وليس من شك في أن هذا الحافز كان متوفراً في الصعيد أيضاً ، ولكنه كان أزم في الدلتا وأكثر ضرورة . وليس من المستبعد كذلك أن طمع بدو الصحراويين الشرقية والغربية في خصوبة أرضها كان دافعاً لأهلها على التعاون لدرء شرهم ، وحافزاً لهم على التجمع في وحدات سياسية مبكرة متكاتفه .

ويبدو أن قلة المواد الأولية في الدلتا كانت دافعاً ثالثاً شجع أهلها على التعاون لتيسير الحصول عليها من مواطنها ، مثل الطران من جنوب الدلتا ، والنحاس من شبه جزيرة سيناء ، والأحجار الملونة من جبال البحر الأحمر ، والأصداف من سواحل البحر الأحمر والبحر المتوسط (١٩٦) ، وكان طريق القاهرة

M. MURRY, in J.E.A., 1956, p. 92. (١٩٤)

(١٩٥) وجد مثل قديم لهذه الظاهرة في مقبرة سيدة عجوز بالبدارى (Tomb. 5766)

see also, Bad. Civil., p. 42; VANDIER, Manuel, I, 194.

(١٩٦) وعن آراء أخرى تعارض هذه الاحتمالات

see, BAUMGÄRTEL, op. cit., 3f, 8, 18; H. KEES, Das alte Ägypten, II, etc. ...

والسويس الحالى وطريق وادى الطميلات من سبلهم الرئيسية التى سلكوها فى طريقهم إلى سواحل البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء وما ورائها .

وثمة عوامل نظرية أخرى ارتآها بعض الباحثين ، ونستشهد بها على حذر ، ومنها أن اتساع رقعة أراضى الدلتا وانفساحها أديا إلى نوع من رحابة أفق التفكير عند أهلها ، بعكس أراضى الصعيد الزراعية الضيقة التى تحدها التلال والجبال ، وأن سهولة اتصال الدلتا ببقية حوض البحر المتوسط كانت من دوافع تقدمها على عكس الصعيد قليل الاتصالات (١٩٧) ، (وإن كنا نعلم من جهة أخرى أن حضارات الدلتا والصعيد ظلت أكثر رقا من حضارات البحر المتوسط خلال فجر التاريخ) .

وإلى جانب مناطق العمران التى نشأت على أطراف الدلتا فى أوائل العصر الحجري الحديث ، فى مرمدة بنى سلامة وحلوان ، أدى البحث الأثرى إلى الكشف عن مناطق عمران أخرى عند رأس الدلتا القديمة فى عين شمس والمعادى وطرة ، وكانت ثلاثها فيما يغلب على الظن نقطا متصلة فى سلسلة من مناطق العمران لاتزال أغلب آثارها دفينه فى الأرض حتى الآن (١٩٨) ، وكانت المعادى أهمها .

المعادى

اكتسبت حفائر المعادى بعض الأهمية نظرا لوجودها عند رأس الدلتا قليلة الآثار، وقيام البحث فيها فى منطقة المساكن ، وقد كشف فيها عن قرية تناثرت مساكنها فيما لا يقل عن أربعين فدانا (١٩٩) .

ولم تكن مساكن المعادى فريدة فى نوعها بطبيعة الحال ، فقد كشفت قبلها وبعدها مناطق سكنية ترجع إلى العصر النيوليتى وعصر ما قبل الإسرات ، ولكن منطقة العمل الأثرى فى مساكنها كانت أكثر اتساعا مما سواها .

ويصف أستاذنا مصطفى عامر خصائص الموقع بالنسبة إلى قرية المعادى وصفا شائقا وإن كان كثيرا عليها بعض الشيء ، فىقول إنها قامت عند قمة الدلتا وعلى ربوة ضيقة يمتد طرفها الغربى حتى نهاية السهل الفيضى ، وأشرفت من ناحية الشمال على وادى التيه ، ومن ناحية الجنوب على وادى دجلة ، وحمتها من الشرق هضبة مرتفعة من الحجر الجيري ، وانفتح الطريق أمامها من ناحية الشرق حتى ساحل خليج السويس وشبه جزيرة سيناء (٢٠٠) .

(١٩٧) أوبك بيب : فى تاريخ العالم (هامرتون) - معرب بالقاهرة ص ٥١٠ - ديوتون وفاندييه : مصر - تعريب

عباس بيومى - ص ٤٧ - ٤٨

(١٩٨) see also VANDIER, Manuel, I, 531.

(١٩٩) بدأ العمل حولها الاستاذان يوثيه لايير والفريد لوكاس، ثم عمل فيها الاستاذان منجن ومصطفى عامر باسم الجامعة المصرية منذ عام ١٩٣٠

(٢٠٠) تاريخ الحضارة المصرية - المجلد الاول - القاهرة ١٩٦٢ - ص ٦١ - ٦٢

تشابهت آثار المستويات الطبقيّة في قرية المعادي (٢٠١) ونم ذلك عن أنها تهدت وجها حضاريا واحدا يمكن تعيين عهده على وجه التقريب بأواسط ما قبل الأسرات، بدليل وجود الأدوات النحاسية فيها، ونتيجة لتأثرها بالخصائص المبكرة لحضارة نقادة الثانية (راجع ص ١٥٦) .

عثر في المعادي على آثار ثلاثة أنواع من المساكن الموضحة وهي : آثار طفيقة لمساكن خفيفة ذات محيط شبه بيضى يتفتح من ناحية الجنوب (٢٠٢) وتعتبر شيئا وسطا بين الكوخ والدروّة، ودل عليها وجود فجوات القوائم الغفل التي كانت تحدد أركانها فضلا عن وجود بقايا من القوائم نفسها، وكانت تتخذ في أغلب أحوالها من أشجار الأثل أو من فروعها الغليظة (٢٠٣) . ويرجع أسلوب هذا النوع من المساكن إلى عهد مرمدة والعمرى ، واستمر عند المزارعين الفقراء بعد عهد المعادي بعصور طويلة .

ونوع آخر من المساكن يقع جزء كبير من كل مسكن منها غائرا تحت مستوى سطح الأرض الرملية ، وينزل إليه أهله بدرج بدائي يتكون من أحجار صغيرة متناثرة على غير نظام ثابت . ووجدت بأرضيات بعض هذه المساكن فجوات صغيرة متجاورة ألقت في مجموعها هيئة بيضاوية حيناً، ومستديرة حيناً ، ونصف مستديرة حيناً آخر، وتتوسطها عادة فجوة أكبر منها . ويبدو أن الفجوات المتجاورة كانت تخصص لتثبيت قوائم بسيطة تسند جوانب المسكن أو تسند جوانب الحصير الذي يكسوها ، يبن تخصص الفجوة الوسطى لحمل سقف من غصون النبات يتخذ هيئة تشبه هيئة القبة (٢٠٤) . ولا زالت صورة هذا النوع من المساكن قرينة الاحتمال وحده . ولكنها مقبولة على أساسين، وهما أن النزول بأرضية المسكن إلى ماتحت مستوى سطح الأرض كان معروفا منذ عهد مرمدة والعمرى ، وإن كانت مساكن المعادي أكثر تطورا وسعة وأكثر عمقا تحت سطح الأرض . وأن هيئة السقف النباتي القريبة من هيئة القبة ظهر لها ما يشبهها في نقوش أواخر عصر نقادة الثانية وما بعدها (٢٠٥) .

كانت مساكن النوع الثالث أكثر تطورا من النوعين الأولين ، وترجع أهميتها إلى اتخاذها هيئة شبه مستطيلة . ويبدو أن بناءها كان يبدأ بحفر أربعة خنادق ضيقة في الأرض الرملية بحيث تتصل ببعضها وتتوالف في مجموعها هيئة تشبه هيئة المستطيل ، ثم يملأها بالطين ، ويثبت في الطين سوق الغاب

O. MENGHIN AND M. AMER. The excavations of the Egyptian University in the neolithic (٢٠١) site at Maadi, I, 9, 15

Ibid., I, pl. IX-X, p, 15 f. ; II, pl. XIII. (٢٠٢)

(٢٠٣) احتفظت بعض القوائم الشجرية بقشرتها واعوجاجها دون تهذيب ، ولكنها شطفت من أسفلها شظفا مائلا سلاح نحاسي لتيسر تثبيتها في الأرض ، وكانت تدعم أحيانا بحجرين أو توضع داخل آنية بغير قاع . (مصطفى عامر : بعض نتائج الحفر في المواسم الخمسة الأولى بالمعادي - ١٩٣٦ - ص ١٤)

(٢٠٤) of. ALEX BADAWY, Le Dessain Architectural chez les Anciens Égyptiens, 8-9 ; (٢٠٤) في الأرض على هيئة الكهوف (مصطفى عامر : المرجع السابق ص ٩ ، ١٦ ، شكلا ٣ - ٤) ويشير حزين - الى تشابهها بعض الشيء مع كهوف السكن الطبيعية في فلسطين . The place of Egypt, p. 303.

CAPART, Débuts, Fig. 154 ; PETRIE, Royal Tombs, II, pl. IV, 11. (٢٠٥)

الغليظة أو سيقان الأشجار الصغيرة التي يحدد بها جوانب المبنى ، ويصل بين هذه السوق بأغصان متشابكة يلبسها بالطين ويكون منها جدران المبنى (٢٠٦) .

والواقع أنه لم يقطع بعد باعتبار هذه المباني مساكن بالمعنى المفهوم ، فقد شابه تخطيطها تخطيط حظيرة للماشية نقشت صورتها على مقمعة للملك نعرمر (٢٠٧) ، وكانت أساسا لكتابة حرف الهاء في حروف الهجاء المصرية ، ولكن تشكيها على هيئة المستطيل كان في حد ذاته خطوة حضارية جديدة ، أدت فيما يحتمل إلى حفر المقابر على هيئة المستطيل أيضا عوضا عن شكلها البيضاوى القديم .

تضمنت أرض المعادى إلى جانب بقايا المساكن حفرا كثيرة ، بعضها متسعة تتسع للخزين ، وبعضها متوسطة تستخدم للواقد ، وبعضها صغيرة تستخدم للدفقات التي تدق فيها الحبوب .

واستخدمت بعض حفرا الخزين كما هي ، وتضمن بعضها الآخرجارا متسعة تودع فيها الحبوب وجارا صغيرة تحفظ فيها المأكولات والأدوات المنزلية (٢٠٨) .

ووجدت أغلب الحفر داخل البيوت ، ولكن لوحظ أن عددا كبيرا منها تجمع مع مجموعة من المواقد المتسعة لدى الأطراف الشمالية والجنوبية من القرية وهي أطراف قلت فيها أعداد المساكن . ولكن وجدت فيها أطلال قليلة لمبان متواضعة ذهب الظن إلى أنها كانت مخازن مسقوفة ومسورة بسور من الدبش وجواليص الطين (٢٠٩) ، وأنها تضمنت حفرا للخزين داخلها ، وخضعت لسلطة ما أشرفت على القرية وأشرفت على عمومها (٢١٠) .

وجدت المواقد في منطقة المساكن بالمعادى بأعداد كثيرة ، وحفر بعضها داخل المساكن بعيداً عن مهب الريح ، وحفر بعضها الآخرجارج المساكن . وكانت في مجملها ذات أشكال وأحجام بسيطة ، وأمكن التمييز فيها بين خمسة أنواع متواضعة ، تألفت من حفر بسيطة يوضع الوقود مباشرة فيها ، وحفر ليست جوانبها بالطين ، وحفر تحدد محيطها بقطع من الدبش على هيئة البيضاوى الناقص ، وحفر تضمنت كل واحدة منها قاع جرة قديمة كبيرة ، ثم موقد كانت تنصب فوق سطح الأرض وتحدد جوانبها بالدبش والطين (٢١١) .

Maadi, III, Fig. 1, p. 112 (Mitt Kairo V, 1934). (٢٠٦)

QUIBELL, Hierakonpolis, I, pl. XXVI B (٢٠٧)

Maadi, I, pl. XV, XVII, XIX (٢٠٨)

Maadi, II, pl. XIX, XXXV ; Maadi III, XIXa (٢٠٩)

(٢١٠) وجدت بهذه المخازن بقايا حبوب ورؤوس منازل وأدوات حجرية ومظام حيوانات وبقايا أسماك وأوانى صغيرة وكسر فخار وبقايا لحم مطبوخ .

Maadi I, pl. XIII, XIV, 2 ; II, pl. XV, XVII (٢١١)

وانتشرت أمثال هذه المواقف المتواضعة في بقية مواطن السكن خلال بحر التاريخ وعند الطبقات الفقيرة في العصور التاريخية ، ولكن تميزت دونها في موقاد المعادى ، موقاد متسعة نسبيا بلغت سعة واحد منها نحو مترين طولاً ومتر ونصف متر عرضاً ويحتمل أنها كانت تستخدم لحرق الفخار (٢١٢) .

وانتشرت في المعادى حفر أخرى صغيرة دعمت جوانبها الداخلية بقطع صغيرة من الدبش وكسر الفخار وليست بالطمي حتى أصبحت شبه ملساء ، واستخدمت لدق الحبوب ولتثبيت وحفظ الأواني ذات القواعد المدببة والكروية التي يصعب إقامتها على الأرض الملساء وحدها (٢١٣) . وعرف المصريون المدقات المحفورة منذ عهد مرمدة بنى سلامة ، واستخدمها أهل المعادى وأضافوا إليها هـ وأصحاب الحضارات المعاصرة لهم مدقات حجرية أخرى تشبه الجرن أو الهاون الذي تستعمله البيوت الشعبية حتى الآن (٢١٤) .

ولم تختلف صناعة فخار المعادى عن غيرها في شيء كثير ، من حيث اللون والنوع . فقد شاع فيها اللون الواحد سواء أكان أحمر أبيض (مع اختلاف درجات الاحمرار) أم أسود مصقول . وصنع أصحابها أواني ذات مقابض (آذان) وأواني زخرفها في أجرائها العليا بخدوش متواضعة وخطوط محفورة (٢١٥) وأخرى بارزة تشبه زخارف أواني مرمدة وصنع أهل المعادى أواني ذات قواعد تختلف بعضها بعض الشيء عن الأواني ذات القواعد التي صنعها أهل نقادة الأولى في الصعيد ، ويشبه بعضها هيئة السلطانية (٢١٦) (وسبقها أمثلة قريبة منها في الفيوم) .

واختلف أهل المعادى بزخارف فخارهم ولونه عن زخارف الفخار النقادي ، فطلوا فخارهم بلون أصفر رمادي قبل الرسم عليه ، واكتفوا بزخارفه بخطوط عريضة سريعة ، وأخرى شبه هندسية ، وأقواس متصلة قلدوا بها هيئة الشباك ، ورسوم مختصرة قلدوا بها هيئة الإنسان (٢١٧) واستخدموا النحاس كما استخدمه أهل عصرهم ، وانتفعوا بخصائص موقع أرضهم على حافة الصحراء الشرقية ، كما انتفعوا بالطرق المؤدية إلى خليج السويس ومنطقة سيناء في التبادل واستخراج النحاس وجلب الأحجار الصالحة لصناعة الأواني التي صنعوا منها مجموعة راقية لطيفة (٢١٨) ، ويحتمل أنهم اتصلوا

(٢١٢) لاحظت بها أحجار ظهرت عليها آثار الحريق ، وتضمنت رمادا كثيفا تراوح سمكه بين ١٥ و ٣٥ سم ، ووجدت قرب جزئها الأوسط كتلة طين محروق بلغ سمكها ٢٠ سم ، ووجدت تحتها وتحت طبقة الرماد أواني سليمة see Chronique d'Egypt, 1934, p. 67. مصطفى عامر : المرجع السابق - ص ١٩

(٢١٣) نفس المرجع ص ١٥ - Maadi, I, pl. XIX, 2, XX, 1.

(٢١٤) Ibid., I, pl. XLIV-XLVII

(٢١٥) Ibid., I, pl. XXXII, XXXV, XXXVIII-XXXIX; II, pl. XXXIV, 1, XLII

(٢١٦) Ibid., I, pl. XXI, 7-8; II, XXXI; III, XX.

(٢١٧) Ibid., I, pl. XLI-XLII; II, pl. XLIX, 2; III, pl. XX.

(٢١٨) صنعوا أغلب أوانيهم الحجرية من البازلت والحجر الجيري. Ibid., I, pl. XLIV, XLVII; II, pl. XIX.

بجنوب فلسطين اتصالا مباشرا أو غير مباشر ، وهو اتصال زكاه تميز نفاهم بأشكال قليلة الشبوع في مصر وكثيرة الشبوع في فلسطين (٢١٩) ، والعثور في مساكنهم على قطع من قار منطقة البحر الميت في فلسطين (٢٢٠) ، وصناعتهم محنات ومكاشط مروحية من الطران قريبة الشبه من أمثالها في تيلات الغسول (٢٢١) .

ودفن أهل المعادى بعض موتاهم داخل قريتهم ، ودفنوا بعضهم الآخر في جبانة مستقلة تطل على وادى دجلة ووادى التيه ، ويميزوا بعض مقابرهم بأحجار غفل مرصوصة يكوّن بعضها هيئة المستطيل أو هيئة المكعب (٢٢٢) ، وهى طريقة بدأها قبلهم أهل حضارة حلوان الأولى . ودفنوا أطفالهم الصغار في قدور داخل بيوتهم أحيانا (٢٢٣) ، ووجدت فتحان بإحدى هذه القدور في مقابل العينين ، وإذا كان ذلك حدث عمدا فإنه يعتبر سلفا بعيدا لما اعناده المصريون في أواخر الدولة القديمة من تصوير عينين على جانب التابوت ، ليطل الموتى عن طريقها على العالم الخارجى وعلى مقدمى القرابين ، ولو أن انقطاع هذه العادة فيما بين عهد المعادى وبين أواخر الدولة القديمة يبعث على التشكك إحداث الفتحين عن قصد .

وليس من شىء معروف عن عقائد المعاديين ، ولكن لوحظ أنهم دفنوا كلابا وغزلانا في جرار على أطراف جباتهم (٢٢٤) (كما فعل البداريون) ، ووجدت في منطقة مساكنهم عظام لسيمان أفراس النهر غرسوها في الأرض ودمموها بقطع من الدبش كما فعل أهل مرمدة (٢٢٥) ، ويحتمل وجودها في مساكنهم تفسيرين دنيويين وتفسيرا دينيا ، فن المحتمل أنهم استخدموها مدارج للنزول عليها داخل مساكنهم الفائرة تحت سطح الأرض ، أو اعتبروها مساند لأنوال النسيج ووسيلة للف الخيوط المغزولة عليها . كما يحتمل أنهم وضعوها بلحمها باعتبارها قربانا لمعبوداتهم ، بمناسبة نجاحهم في صيد أفراس النهر (٢٢٦) . واستخدموا التائم شأنهم شأن أهل عصرهم وصنعوا بعضها من عظام أنياب الخنزير البرى على عادة أسلافهم أهل مرمدة ، واتخذوا بعضها فيما يظن من عظام الموتى (٢٢٧) .

(٢١٩) see KANTOR, in J. N.E.S., 1942, 205.

(٢٢٠) مصطفى عامر : المرجع السابق ص ٢٢

(٢٢١) Maadi, I, pl. XLIX. 1, LXX, 1-2 HU AYYIN, op. cit., 301-2

ابراهيم رزقانة : الالات الحجرية - ص ١٢٥ - ١٢٦

(٢٢٢) BOVIER-LAPIERRE, in Chronique d'Egypte, 1932, 60 ; 1936. 54 n. 1.

(٢٢٣) مصطفى عامر - المرجع السابق ص ١٠ - ١١ شكل ١٠ - ١١

(٢٢٤) Maadi, I, pl. XIV, 1-2 - ووجدت في المعادى عظام الحمار الأفريقى وذلك مما يعنى حداثة مهدها

من عهد نقادة الأولى حيث يذهب الترجيح الى أن الحمار دخل مصر من الجنوب واستؤنس لأول مرة

في عهد نقادة الأولى (MENGHIN, Merimde und Maadi, 1933, 88) - ووجدت فيها عظام

كلب يذهب الظن الى أنه كان نصف مستأنس وأنه أفريقى الاصل .

(٢٢٥) see also, JUNKER, Merimde 1932, 47.

(٢٢٦) MASSOULARD, op. cit., 260

(٢٢٧) Maadi, II, 24-25.

لا يزال توقيت حضارة المعادى ، موضعا للجدل حتى الآن ولكن الاتجاه المرجح هو أنها كانت ذات صلة بجذبتها البعيدة في مرمدة في سلامة، من حيث تفضيل الأواني ذات اللون الواحد وتخليتها بخدوش محفورة وتغطيتها بكسر الفخار ، واستخدام أوعية كبيرة من صلصال غير محروق ، وتربية الخنازير واستخدام أسنانها تمامًا وقلائد . وكانت ذات صلة أيضا بجذبتها الأخرى في منطقة المعادى، وذلك من حيث المساكن المحفورة التي كسيت جوانبها بالحصير ، ومن حيث الدفن في جبانة مستقلة ، وتميز بعض المقابر بأحجار متراصة فوق سطح الأرض .

وتطورت المعادى بتراث جذتها البعديتين ، فاستخدمت النحاس ، واستحدثت أشكالاً جديدة في الفخار ، وتوسعت في اتصالاتها بجيرانها ، وعاصرت فيما برجح أواخر عصر نقادة الأولى (٢٢٨) واخلفت رسوم فخارها من حيث ألوانها وزخارفها عن أمثالها في الصعيد ، واشتركت في لون رسومها الحمراء مع حضارة ناهضة في الوجه البحري ، تها لها أن تذهب إلى أبعد مما ذهبت هي إليه وأن ترقى برسومها الحمراء مع مواضعها وأسايلها ، وأن تغزوها الصعيد نفسه ، حيث عززت فيه اد طلاحا باسم حضارة نقادة الثانية .

(هـ) في نقادة الثانية

اتسعت مجالات العمل الإقليمي في نوبت (أونبت) وما حوذا في عهدها الثاني اتساعا نسبيا ، وانتشرت تقاليدها الصناعية والفنية بين جيرانها في الشمال وفي الجنوب حتى بلغت النوبة . واتسعت اتصالاتها ببلاد الشرق القديم اتساعا نسبيا كذلك وأخذت منها وأعطت لها ، وتختلف حتى الآن من شواهد تعاملها معها تعاملًا مباشرًا أو غير مباشر ، قطع من السبج (الأوبسديان) الأسود الثمين الذي يحتمل أنه وصلها من الحبشة ، وقطع من اللازورد الأزرق الذي يحتمل أنه وصلها من الحبشة أيضا أو من أعلى الفرات ، وخرزات من السنبادج والفضة والذهب تختلف الآراء فيما إذا كانت معادنها من مصر أم من خارجها . فضلا عن أدوات صغيرة عثر عليها في ميناء جبيل (بيلوس) بلبنان تشابهت خصائصها مع خصائص الأدوات المصرية ، ويمكن أن يفهم منها قيام التبادل المباشر أو غير المباشر بين مصر وشمال الشام (٢٢٩)

(٢٢٨) اعتبرها بوفيه لايبر قرية من بداية الاسرات (Chronique d’Egypte 1932, 57, f.) واعتبرها منجن وعامر معاصرة لواخر عصر جزرة اى نقادة الثانية (Maadi, I, 56 f; Mitt. Kairo V, 118) واعتبرتها ليكليرك مبكرة من ذلك
MLLE LECLERQ, in Cheton. d’Egypte 1933, 229
see also, MASSOULARD, op. cit., 61 f.; 511 f.; HUZAYYIN, op. cit., 303

PETRIE, Preh. Egypt., 41, 43, 44; Naqada, 45, 48; Diospolis, pl. IV; SCHABFF, Grundzüge, 36; (٢٢٩)
WAINWRIGHT, in Anu. Egypt, 1927, 77f., H. KANTOR, in J.N.E.S. 1942, 201.

وراجع الفريد لوкас : المرجع السابق - الفصل الحادى عشر والفصل السادس عشر .
وراجع عن العلاقات الخارجية المحتملة القديمة ص ١٦٦ ، ص ١٦٧ .

وتوسع النقاديون في استخدام النحاس في صناعاتهم المحلية ، فصنعوا منه ملاعق ومسدى وأواني صغيرة وأغطية لبعض القدور وأزاميل ورؤوس فؤوس وخناجر ورؤوس حراب ، ونسبت إلى عصرهم رأس فأس نحاسية تزن نحو ثلاثة أرطال (٢٣٠) .

وعاد نشاط العهد الجديد على أهله برخاء مناسب ظهر أثره في ثراء مقابرهم بعض الشيء عن مقابر العهود السابقة لهم ، وظهر أثره في ارتقاء أذواقهم وتطور مهاراتهم في الرسم والنقش وصناعة التماثيل الصغيرة وصناعة الأسلحة وبناء المساكن والمقابر وابتداع وسائل مهذبة لشغل أوقات الفراغ .

صنع أهل نقادة الثانية أوانيهم الفخارية الفاخرة من صلصال نقي متماسك ، وصنعوها ملساء ذات لون سنجابي أو قرنفلي (٢٣١) ، وميزوا رسومهم على سطوحها عن رسوم نقادة الأولى في ألوانها وموضوعاتها وأساليبها ، فصوّروها بالمغرة الحمراء الضاربة إلى السمرة عوضاً عن محلول الجبس الأبيض القديم ، وقللوا فيها من الأشكال التخطيطية شبه الهندسية ، وزادوا فيها صور الأحياء والنباتات والمراكب ، واستعاضوا فيها عن الخطوط المستقيمة والمائلة بخطوط لينة صوّروا بها زخارف حلزونية وتموجة بدأت بواحدة ثم زادت أعدادها ، وخطوط متموجة مفردة أو متشابكة ، عرضية وطولية ومائلة ، وزخارف صغيرة تشبه هيئة حرف S وحرف Z ، وملاؤوا فراغات المثلثات باللون الأحمر عوضاً عن الخطوط البيضاء المتقاطعة التي اعتاد أسلافهم عليها .

استخدم النقاديون وحدات رسومهم في أغراض الحلية والزخرف ، وفي أغراض أخرى حاول الأثريون أن يستشفوا كنهها . فرأى شارف و باوجرتل أنهم رمزوا بالخطوط المتموجة إلى المشروبات التي كان من المفروض أن تحتويها الأواني لمصلحة أصحابها في حياتهم الثانية ، أو هم رمزوا بها إلى رغبتهم في أن يظل الشراب موفوراً في أوانيهم على الدوام (٢٣٢) ، وهو تفسير يمكن قبوله بالنسبة إلى التموجات الأفقية والفردية ، أما الخطوط المتموجة الرأسية المنشابكة فيحتمل أنهم قلدوا بها جدائل القش والحبال التي تشبه الشباك الواسعة والتي كانوا يحملون الأواني الثمينة فيها .

(٢٣٠) راجع محمد انور شكري : الصناعات المعدنية في مصور مصر الأولى من ٢ - ٣ لوكاس : المرجع السابق من ٢٢٧ وما بعدها .

(٢٣١) و قليلا ما فشوه بلون آخر - (لوكاس : المرجع السابق من ٦١٨ - ٦١٩)

PEET, The Cemeteries of Abydos, II, 12; FRANKFORT, Studies, I, 96; MEYERS, Armant, 50;

BRUNTON, In Ann. S. XXXIV, 153.

(٢٣٢) A. SCHAEFF, Die Altertümer, I, 143; BAUMGARTEL, op. cit., p. 59 f. و راجع محمد انور شكري :

الفخار في مصور مصر الأولى - ص ١٥

ورأى پتري وشيفنورت وفرانكفورت أنهم قلدوا بزخارفهم الحلزونية الكبيرة قطع الليف التي كانوا يضعونها على جوانب الإناء^(٢٣٣) حين يرفعونه اتقاء لخدشه أو اتقاء لسخونته. ورأى شارف أنهم قلدوا بالزخارف الحلزونية الصغيرة هيئة التعاريق الطبيعية في أواني الألباستر^(٢٣٤). ورأى پتري أنهم رمزوا بزخارفهم التي تشبه حرف S وحرف Z إلى صور الطيور المحلقة في الجو كما قلدوا بها النعمة الطبيعية في أواني الألباستر^(٢٣٥). وانبثق تقليدهم لتعاريق الألباستر ونمتمته عن رغبتهم في إشباع أذواق الطبقات التي لا تستطيع أن تقتنى الأواني الحجرية الفاخرة، وأملهم في أن تكتسب الأواني الفخارية صلابة الأواني الحجرية في دنياهم الثانية. ورأى پتري أنهم رمزوا بالمثلثات الصغيرة إلى صفوف التلال والهضاب^(٢٣٦).

استمر النقاديون في عهدهم الثاني يصورون الرجال والنساء في هيئات تخطيطية مختصرة تشبه الهيئات التي صورها لهم أهل نقادة الأولى، فظلوا يعبرون عن رأس الأنثى ببقعة مستديرة ملونة، وصوروا جذعها الأعلى على هيئة مثلث مقلوب ياتهي بنحصر دقيق للغاية، وصوروا جذعها الأسفل على هيئة مثلث عادي ينتهي بساقين ملتصقين، ولم يلتزموا بتشكيل قدميها إلا في القليل النادر، ولكنهم أضافوا إليها ظاهرة جديدة وهي تصفيف شعرها على هيئة مستديرة عوضاً عن تركه طويلاً مرسلاً خلف رأسها، والتزموا بأساليب نقادة الأولى في رسم الرجل، فصوروا كتفيه وصدرة من الأمام، وصوروا بقية جسمه من الجانب، ولكنهم أضافوا تقليدين جديدين عبروا بهما عن نشاط الرجل في حياته العملية، فحرصوا على تقديم إحدى ساقيه عن الأخرى (والساق اليسرى خاصة)، على عكس ساق الأنثى المتجاورتين، واعتادوا على تصوير يده اليسرى تهبض في أغلب أحوالها على عصا أو قوس أو رمح أو مجذاف^(٢٣٧).

وعلى نحو ما رمز النقاديون إلى نواحي النشاط العملي عند الرجال، صوروا للنساء بعض وجوه نشاطهن، فصوروهن في مجالات الرقص الديني والديني، وكانت الأنثى ترفع يديها حين الرقص فوق رأسها أو تضع يديها على خاصرتها، أو تضع يدا على خاصرتها وتماسك بالأخرى مع زميلها أو زميلاتها، وترقص منفردة أو مع رفيقاتها ورفاقها، وترقص بغير أصوات تصاحبها أو ترقص على أصوات المصفقات

PETRIE, *Preh. Eg.*, p. 18; SCHWEINFURTH, *Ornamentik der altesten Ägyptens*, 397-98 (٢٣٣)
FRANKFORT, *Studies*, I, 97.

SCHARFF, *op. cit.*, 143. (٢٣٤) PETRIE, *Preh. Eg.*, 21, 23 (٢٣٥) - وزاد كبار أنها قد تكون اختصاراً
لهيئة صفوف النعام! (Débuts. p. 116)

PETRIE, *op. cit.*, 16; but see SCHARFF, *op. cit.*, 143. (٢٣٦) راجع محمد انور شكري: المرجع السابق
ص ٢٠ - ٢١

H. SCHAFER, *Von aeg. Kunst*, 260; PETRIE, *Arts. and Crafts*, Fig. 66; CAPART, *op. cit.* Fig. 85; (٢٣٧)
BAUMGÄRTEL, *op. cit.*, pl. IX, 3-4, p. 81 Fig. 29. محمد انور شكري: المرجع السابق ص ٢١ - ٢٢

التي يصفق بها رجال ونساء ، وترقص على البر أو ترقص على سطح مركب أو داخل قمرتها (٢٣٨) .

واهتم النقاديون في عهدهم الثاني برسم الحيوانات الأليفة الصغيرة أكثر مما اهتموا بتصوير الحيوانات الكبيرة الكاسرة ، فرسموا الماعز والكباش والغزلان ، ونجحوا في تصوير ملاحمها وحركاتها أكثر مما نجحوا في تصوير ملاح الإنسان وحركاته .

وأخرج الرسام النقادي من صورته الممتعة النابضة منظرين ، منظرًا مثل راعيا يسوق قطيعا من الماعز الجبلي رسمه الرسام حول مسطح آنية لا يزيد أوسع قطر لها عن ستة سنتيمترات ، والتزم في تصوير قطيعه خاصة ترتيب المفردات التي التزمها فنان نقادة الأولى ، فصور الماعز تسير واحدة منها تلو أخرى على الرغم من سيرها في الطبيعة جنبًا إلى جنبًا أو مختلطة ببعضها في غير نظام (٢٣٩) .

ومنظرًا آخر لسبشين أقرنين واجه كل منهما الآخر في تحفوف حيوية ممتعة ووقفًا معا فوق رتبة داخل نطاق الصورة تثبت الأشجار فوقها ، وصور الرسام على مبعده منهما عنزة صغيرة فوق خطي تمثل الأرضية التي تقف عليها ، عوضًا عن رسمها في الفراغ على نحو ما اعتاد أغلب الرسامين في عهده (٢٤٠) .

وظهرت في رسوم نقادة إلى جانب حيواناتها الأليفة طيور مائية مديدة الرقبة طويلة الساقين ، وهي طيور النحام أو البشروش (Flamingo) التي لا تزال تعيش بإعداد وفيرة عند بحيرة المنزلة ، وصورها أصحابها في خطوطها العامة دون تفصيل ، وفي وضع الوقوف دون الحركة أو الطيران ، ولأنهم صوروها في مجموعات متجاورة ومتتابعة متناسقة ، والتزموا في بعض صورها برسم خطوط تمثل الأرضية التي تقف فوقها (٢٤١) .

PETRIE, Corpus, pl. XXXIV, 46 D; Diospolis Parva, pl. XX, 11 B; EDGERTON, in (٢٣٨)

A J S L., XXXIX, Fig. 6-8; SCHARFF. op. cit., I, 142 f; VANDIER, op. cit., 350 f.

تخمن باومجرتل أن رفع الأنثى ليدبها فوق رأسها يتعلق بحفلات خاصة أو طقوس خاصة ، وتشير إلى أوضاع مماثلة تتخذها الراقصات في رفصة تسمى رفصة البقرة في السودان (op. cit., 81-82) .

ونمة منظر ظهر فيه ثلاثة أشخاص برؤوس غريبة قد يكون منها رأس طائر وراس فرد ، ووقع كل منهم يديه إلى أعلى في هيئة الرقص أو هيئة الدماء (Corpus, XXXVII, 77) — ويفترض فأندييه أن يكونوا

كهنة مقننين بأقنعة ترمز إلى معبوداتهم ، وإذ صحت هذا الفرض ، كان منظرهم أقدم منظر من نوعه . (VANDIER, op. cit. 351-352).

PETRIE, Abydos I, p. 23, pl. L. (٢٤٠) NAVILLE—PEET, The Cemeteries of Abydos, I, pl. V. (٢٣٩)

PETRIE, Preh. Eg., p. 20; Corpus. pl. XXXIII, 41 M; XXXIV, 45 M, 46; XXXV, 51 K, (٢٤١)

53 b, 54; SCHARFF, op. cit., I Abb. 49; KEIMER, in Ann. S. XXXIV, 190 f.

محمد انور شكري : المرجع السابق ص ٢٢

وأضاف القاديون إلى صور الإنسان والحيوان ، صور النباتات ، لا سيما الصبار ، وصوّروه في شيء من الصرغ فرسموه بنمو أحيانا داخل إصيص وتتفرع أوراقه حوله . وصوّروا نباتا قيل إنه كان ينمو في المناقع ويؤكل لباب ساقه وينمو في الحبشة حاليا ويعرف باسم *Musa Ensete* (٢٤٢) .

ورأى پترى في كثرة تصوير الصبار عند النقادين ما ينم عن أنهم اعتبروه رمزا لطول البقاء نظرا لاحتفاظه بخصرته فترة طويلة (٢٤٣) ، وهو رأى محتمل يزيه حرص الطبقات الشعبية حتى الآن على زراعته بجوار القبور وتعليقه على واجهات الدور .

ورسم القاديون أشكالا تكوينية صغيرة يصعب تحديد نوعها ، ومنها ما يشبه تعريشة نباتية على هيئة القبة ، وما يشبه سعف النخيل الهندى العريض (٢٤٤) (؟) وما يشبه الشراع أو الجلد المشدود على سارية صغيرة (٢٤٥) . واستخدموا زخارف تخطيطية أخرى تخدم أغراض الخلية وحدها ، ومنها تقسيم سطح الآنية إلى مربعات يتعاقب فيها لوان .

زاد تصوير المراكب على أواني الفخار في عهد نقادة الثانية ، ونم ذلك عن زيادة حاجة أهلها إليها وكثرة استخدامهم لها ، واستخدمت في أغراض السفر في النيل وترعه ، وأغراض نقل المتوجات ، فضلا عن نقل الأفراد ونقل رفات الموتى من ضفة إلى أخرى (٢٤٦) وأضاف F. Petrie, Ch. Boreux and H. Kantor وغيرهم ، أنها بدأت تستخدم منذ ذلك الحين في الملاحة البحرية أيضا (٢٤٧) .

واحتفظت مراكب نقادة بخصائصها القديمة ، فاحتفظت كل مركب منها بقمرتين أو (كابيتين أو خصين) من سيقان الغاب والنباتات المجدولة (٢٤٨) . واختلفت هيئات سقوف هذه القمرات بين

PETRIE, Preh. Eg., p. 18, pl. XIX, 41 U.; Corpus, pl. XXXIII, 36; SCHWEINFURTH, op. cit., 391 f; (٢٤٢)

KEIMER, in Ann. S. XXXIV, 189, n. 1; and see Ann. S. LI, 299-311.

Preh. Eg., p. 19 (٢٤٣) — وافترضت باومجرزل من تصويره مع بعض مناظر الرقص وتصويره أحيانا مع اشكال تفترض أنها أماكن عبادة ، أنه كان ذا صلة بطقوس الرقص وطقوس العبادة . (op. cit., p. 82)

Preh. Eg., pl. XIX, XX. (٢٤٤) — وهي اشكال غريبة رآها شارف تمثل حلى على هيئة مروحة (op. cit. I, 330 f.) — ورآها بسنج تمثل فراشات (Aeg. Kunstgesch. I, 15) — ورآها كبار وناثيل وكايبر اشجارا ، أو ادغالا أو شيئا وسطا بينهما (Ann. S. 1934, 188 f. Début, p. 112; Preh., Eg., p. 14; (op. cit., 345) ورآها فاندبيه اشجار جميز

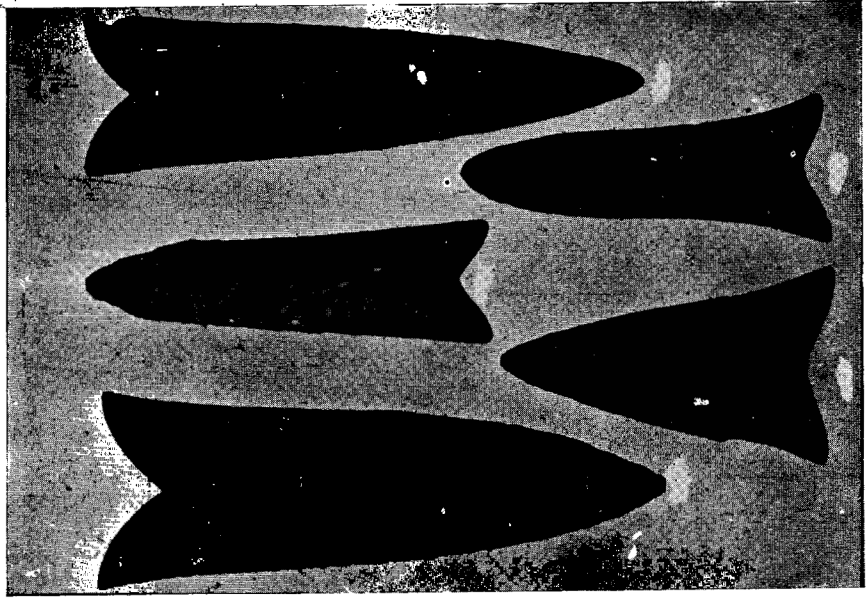
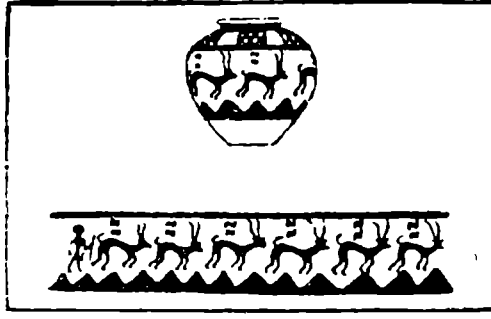
Preh., Eg., p. 21, pl. XIX; Corpus, pl. XXXIII, XXXV. (٢٤٥)

HORNBLLOWER, in J.E.A. 1930, 10 f.; ČEBNY, Anc. Eg. Religion, p. 16. (٢٤٦)

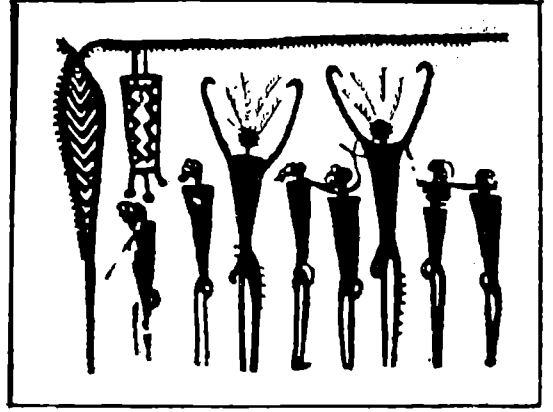
PETRIE, Preh. Eg., p. 20; (٢٤٧)

(٢٤٨) ويبدى فاندبيه شكه في امكان اقامة قمرات فوق مراكب البردى ، ويفترض ان تصويرها قد يكون مجرد تقليد وتخليد للكرى سفن كبيرة قديمة وقد بها مهاجرون بأسرهم . (op. cit., p. 342) . ولكن من اى مادة صنعت تلك السفن الكبيرة القديمة ؟ وى مستوى غير هادى بلغه أولئك المهاجرون فى صناعة سفنهم ؟ see also ALEX. BADAWY, Le dessin architectural chez les anciens égyptiens, Le Caire, p. 4 f.

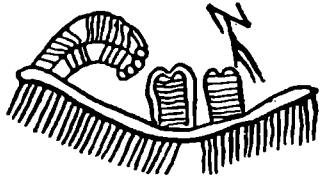
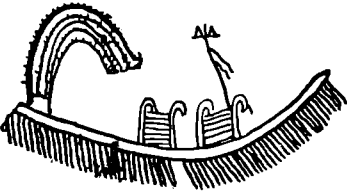
(شكل ١٢ - راع وقطيع من
الماعز الجليلي من نقادة
ص ١٥٩)



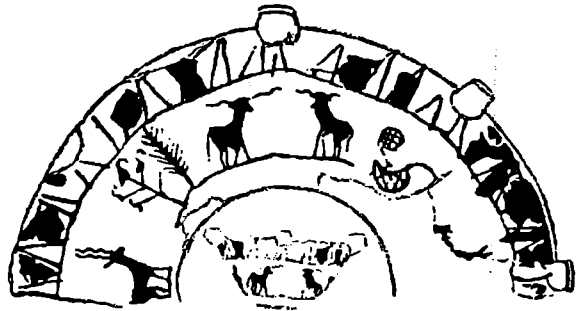
شكل ١٣ و ١٤ - خناجر وأسنة رماح نقادية من الطران الرقيق (ص ١٤٥ و ١٦٩)



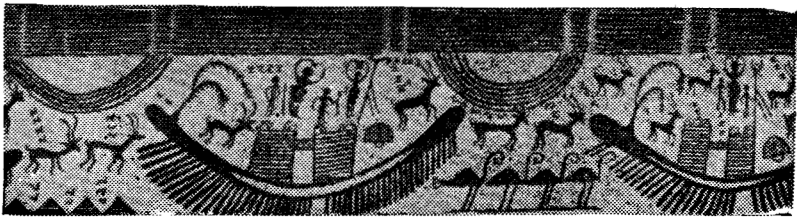
شكل ١٥ — رقص صعيدى لرجال ونساء من نقادة
(ص ١٥٨)



شكل ١٧ — نماذج لمراكب
نقادية بقمراتها ورموزها ومجاذيفها
(ص ١٦٠ — ١٦١)



شكل ١٦ — كبشان متحفزان من نقادة
(ص ١٥٩)



شكل ١٨ — مراكب نقادية برجالها وراقصاتها وعزاتها ونحامها (ص ١٦٠)

مسطحة ونصف دائرية على هيئة القبة، وبرزت فوق سطوحها العليا أحيانا أطراف عيدان البوص المتداخلة في بناء جدرانها، والأطراف المنحنية للجريد الذي يدعم أركانها (٢٤٩)، وكثيرا ما فصل بين كل قمرتين منها مرضيق مسقوف أو غير مسقوف يستخدمه أصحاب المركب طريقا للنزول إليها والصعود منها .

واحتفظت كل مركب بجريدة نخل طويلة تراوحت أعداد فروعها من فرع واحد إلى خمسة فروع وابتغى أصحابها منها أن تضيئ نصبيا من الزينة الموضوعة على مراكبهم، وأن تميز بين كل مركب منها وأخرى، وأن تضيئ الظل على ملاح المركب الذي يجلس تحته فوق مقعد متواضع صغير .

وزادت في مراكب نقادة الثانية ظاهرتان جديدتان فاستندت على القمرة الخلفية لكل مركب منها صار طويل يرفع فوق قمته رمزا غيرا مشكلا على هيئة فيل أو طائر أو نبات أو خطاف أو أشكال مثلثة تشبه التلال، أو مقمعة حربة أو سهمين متقاطعين، أو يتخذ هيئة رجل يرفع يديه، أو يكون مجرد علامة اصطلاحية غير ذات موضوع طبيعي، ويرمز فيما يغلب على الظن إلى صاحب المركب أو يرمز إلى بلده ومعبودها (٢٥٠) .

وذكر النقاديون على جانب كل مركب خطوطا مائلة كثيرة، اذت أحيانا عن الأربعين خطا واعتبر F. Petrie, Ch. Boreaux and J. de Morgan وغيرهم هذه الخطوط مجاذيف فعلية، وذكر بترى أن كثرتها تدل على أن مراكبها كانت تستخدم للملاحة في البحر الأحمر لاسيما بين السويس والقصور، وأضاف بوريو أنه يزكى اعتبارها مجاذيف، وأن سكان أواسط أفريقيا وجنوبها لا يزالون يستخدمون قوارب كبيرة من البردي تزيد مجاذيفها عن الخمسين والستين مجذافا، وأن المراكب الطويلة لم تكن غريبة عن دنيا المصريين، بحيث ذكرت حوليات سنفروفي أوائل عصر الأسرة الرابعة أخبارا عن مراكب بلغ طول كل واحدة منها مائة ذراع أي اثنين وخمسين مترا ونصف متر (٢٥١) !!

وأنكر باحثون آخرون أن الخطوط تصور مجاذيف على الإطلاق، بل وتشككوا في أن تكون مراكبها مراكب على الإطلاق. فرأى C. Torr, Loret and Ed. Naville أن الصور التي أتجه الظن إلى أنها مراكب بقمرات ومجاذيف ليست أكثر من صور قرى بأبواب ذات صروح حصينة أقيمت فوق مرتفعات طبيعية وصناعية

PETRIE, Preh. Eg., pl. XIX, 41 c, 41 N; XX, 44 D.; Corpus, pl. XXXIV, 46 D; pl. XXXVII, 77; (٢٤٩)

Diospolis, pl. XX, 113; Naqada, pl. XLII, 14; CH. BOREAUX, "Etude de nautique égyptienne", dans M.I.F.A.C., L, p. 20 f.; A. BADAUWY, op. cit., 5 f.

PETRIE, Preh. Eg., p. 18-19; BOREAUX, op. cit., 17 f. VANDIER, op. cit., 340-341. (٢٥٠)

ومن رموز المعبودات المعروفة رمز نيت ربة ساو (سايس)، ورمز مين رب قفط وأخميم، وما يحتمل أن يمثل قرص الشمس ويرمز إلى ربها ؟ .

— BOREAUX, op. cit., p. 18 f. (٢٥١) ولو أن استشهاده بمراكب سنفرو قريب فالفارق بعيد بين امكانيات عصره، عصر الأهرام، وعصر نقادة الثانية عصر الأواني الفخارية !

وتصدرتها صوراً ذات رموز وأحاطت بها شياجات، ورمزت الخطوط المرسومة بجوارها إلى تموجات الرمال حولها (٢٥٢). وقبل رأيهما إلى حد ما Boreaux and Baumgärtel فاعتبروا القمرات أقرب إلى أكواخ السكن منها إلى كبائن المراكب، وأضاف بور يوفوكار أن بعض هذه القمرات كان عبارة عن مقاصير وهياكل للعبادة (٢٥٣).

ولم يقدر الشيوخ لهذه الآراء الأخيرة لأسباب عدة ، أهمها أن الحصون ذات الصروح والدور ذات الأسوار ومقاصير العبادة المقامة فوق المراكب لم تكن من الشيوخ والتشابه في ذلك العصر بحيث تصور بالكثرة التي صورت بها على سطوح الأواني الفخارية . وأن المركب القديمة التي صورها فنان نقادة الأولى بمسقطها الرأسي وبسبعة عشر مجدافاً لا تحمل شكا في حقيقة ما تمثله على الرغم من بساطة الدور الذي لعبته المراكب في حياة أهل عصرها . وأن رسوم الصخور المعاصرة لنقادة الثانية في الصحراوين الشرقية والغربية تضمنت أشكالاً تشبه الأشكال المرسومة على الفخار ويمكن ترجيح تمثيلها لمراكب فعلية . وأن النقادين تركوا نماذج قرارب من الصلصال ذات قمرات (أو كبائن) تشبه القمرات المصوّرة على الفخار (٢٥٤).

وفي ضوء هذه القرائن لا بأس من افتراض أن رسام نقادة الثانية كان يبدأ برسم المجاذيف الفعلية المحدودة العدد عند نهايتي الجانب الظاهر لكل مركب في مجموعتين منفصلتين ويكتفى برسم أجزائها الظاهرة على هيئة الخطوط دون أجزائها العريضة المخفية تحت سطح الماء ، ثم يشغل ما بقى من الفراغ بين المجموعتين بخطوط أخرى تشبهها لغرض الحلية وملء الفراغ . ولم يصور الرسام النقادي مجاذيف المراكب على جانبيها في غير حالة واحدة يحتمل أن تكون متأخرة في الزمن بعض الشيء (٢٥٥).

أما القمرات فيغلب على الظن أنها كانت تستخدم فيما استخدمت له قمرات العصور التاريخية، بمعنى أنها خصصت لأصحاب المراكب في المراكب الخاصة، ولجور الشخصيات في المراكب العامة، وللبنائين الثمينة في مراكب النقل. وليس ما يمنع من أن يكون أسلوب تشييدها قد قلده أسلوب تشييد مساكن البر ومقاصير العبادة فعلاً ولكن دون أن يؤدي غرضهما (٢٥٦).

CECIL TORR, in Anthropologie IX, p. 32 f, LORET, in Revue égyptologique X., p. 91; Annales du Musée Guimet, XIX, 174 f.

BOREAU, op. cit., p. 20-21, G. FOUCART, in C. R. A. I., I, 262; BAUMGÄRTEL, op. cit., p. 82. (٢٥٣)

see also, EDGERTON, in A.J.S.L., XXXIX, 109 f; PETRIE, Proh. Egypt, 18-19; in Anc. Egypt., 1917, (٢٥٤) p. 27; DE MORGAN, Preh. Orient, II, 127 f; KEIMER, in Ann. S. XXXV, Fig. 11; WINKLER, Rock.

Drawings, Fig. 1.

WINKLER, op. cit. هي صورة مركب على صخرة بوادي عباد (٢٥٥)

(٢٥٦) وثمة ظاهرة نبهني إليها منظر عادي صور فيه هرمان كيس مركباً نيلية حديثة تحمل عصابة شعر (أي تينا) ضفطت فوق بعضها حتى ظهرت على هيئة هرم ناقص أو تل مسطح ، وأصبحت لا تخلو من شبه مع صور بعض قمرات نقادة الثانية ، فهل يمكن عقد الصلة بين هذه وتلك ؟

صنع أهل نقادة الثانية رؤوس مقامعهم على هيئة كثرة الشكل (٢٥٧) ، وطغت مقامعهم الجديدة ورسومهم ذات اللون الأحمر والخطوط اللينة وصور المراكب الكثيرة المتطورة ، طغيانا كبيرا على المقامع ذات الرؤوس المخروطية والارضية وعلى الرسوم التخطيطية والخطوط البيضاء المقاطعة التي انتشرت في عهد نقادة الأولى ، وأوحت هذه الظواهر برد إنتاج العهدين إلى حضارتين خلف مصدر كل منهما عن مصدر الأخرى اختلافا كبيرا ، واستطاعت أحدهما أن تفرض نفسها على أولاهما فرضا .

وتسعت آراء المؤرخين عن أصحاب الحضارة الأخيرة وعن موطنهم الأصلي وعن الطريقة التي فرضوا بها حضارتهم على أهل الحضارة الأولى . وخرج پترى مكتشف الحضارتين بعدة آراء ، بعضها يمكن قبوله ، وبعضها لا . من قبوله ، فن آرائه المقبولة رأيان ، رأى ربح فيه أن أصحاب الحضارة الثانية وفدوا على منطقة زادة من منطقة أخرى غريبة عنها ، ومهدوا لأنفسهم باتصالات تجارية طويلة مع أهلها وهجرات وتسيلات سلمية إلى أرضها (٢٥٨) . وزكت هذا الرأي عدة أوان فخارية جمعت بين أساليب الحضارتين ورسوم الحضارتين ، وعدة رؤوس مقامع قرصية وكثيرة وجلت جنبا إلى جنب في بعض مقابر الفترة الأخيرة من عهد نقادة الأولى (٢٥٩) ، وذلك مما دل على أن كلا منهما عاصرت الأخرى بعض الوقت وتعاملت معها بعض الوقت أيضا .

ورجح پترى في رأيه الثاني أن أصحاب الحضارة الثانية بعد أن مهدوا لأنفسهم باتصالاتهم وهجراتهم البسيطة وفدوا على منطقة نقادة في هجرة كثيفة أو غزوة قوية فيما بين الفترات ٣٨ و ٤٠ من التوقيت المتتابع ، وزكى رأيه بأن الرسوم البيضاء اختفت تماما منذ هذه الفترات واخفت معها رؤوس المقامع المخروطية والقرصية ، وتقبل كثير من المؤرخين هذا التعليل على اعتبار أنه لم يكن من الطبيعي أن يتفق أهل نقادة الأولى على ترك رسومهم ورؤوس مقامعهم فجأة دون ضغط خارجي فرضه الغزاة أو المهاجرون عليهم .

وذهب پترى في تعيين الوطن الأصلي لأصحاب الهجرة الجديدة مذهبا يصعب التسليم بصحته على الرغم من حجته ، فأكد أنهم وفدوا على منطقة نقادة من منطقة جبلية قريبة من وادي النيل وليست فيه بالذات ، كجبال البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء أو شمال الحجاز ، واعتقد أنهم حين وصلوا إلى شمال الدلتا اتخذوا هيئة طائر النحام عنصرا من عناصر زخارفهم ، وسلكوا سبيلهم إلى بقية الأقاليم المصرية حتى بلغوا منطقة نقادة واستقروا فيها وسجلوا ذكرياتهم عن بيئتهم التي وفدوا منها على سطوح فخارهم ، فصوروا الصبار والزخارف الخلزونية والأياكل والوعول منذ المرحلة ٤٠ من التوقيت المتتابع ، وصوروا

Ibid., p. 16 and 44 f. (٢٥٨) PETRIE, *Preh. Egypt*, p. 22, pl. XXVI. (٢٥٧)

SCHARFF, in *J.E.A.*, XIV, 263-4 pl. XXVI, Fig. 2; ALBERTÜMER, I, 26; PETRIE, *Corpus*, pl. XXXI, (٢٥٩)

10G, 13W; XXXII, 27 G, 29A; XXXVII, 81 a; El-Mahāsna, p. 27, 32 f; pl. XII, 2, XX, 3;

BAUMGÄRTEL, op. cit., pl. VI, 11.

المراكب منذ المرحلة ٤٥ ، وصوروا النعام وسلاسل الجبال منذ المرحلة ٤٦ ، ومارسوا عادات خاصة في دفن موتاهم ، ففضلوا المقابر الفردية على المنابر الأسرية التي اعتادها أهل نقادة الأولى ، واستحبوا استخدام التمائم على هيئة رأس الثور والصقر والذبابة ، وصنعوا أعلق الجبهة من الحجر ثم من الأصداف بعد فترة طويلة من استقرارهم في الصعيد .

وزكى پترى رأيه بعدة قرائن ، ذكر منها أن اتجاه أهل نقادة الثانية إلى تقليد هيئة الأواني الحجرية وتقنيدهم لتعاريق الألباستر في زخارف الأواني الفخارية يدل على أنهم وفدوا أصلاً من منطقة تتوفر فيها الأحجار ويقل فيها طمي الفخار ، وأن كثرة تصويرهم للثلاث على أواني الفخار تدل على رغبتهم في تقليد هيئة التلال والجبال التي عاشوا بين جنباتها في أرضهم الأولى ، وأن ملابسهم كانت طويلة (٩) وذلك يعنى في رأيه أنهم اعتادوا عليها في بيئة مرتفعة باردة ، وأضاف أنهم كانوا أصحاب شعور قصيرة ولهذا انصرفوا عن استخدام الأمشاط ذات الأسنان الطويلة التي استخدمها أهل نقادة الأولى وزينوا بها شعورهم الطويلة ، واستخدموا أمشاطاً أخرى قصيرة ، وصنعوا في بداية أمرهم ملاعق حجرية ثم عن بيتهم الأولى ثم استخدموا الملاعق العاجية التي اعتاد عليها أهل نقادة الأولى (٢٦٠) .

وأخذ برأى پترى جماعة من باحثي الجليل الماضي والجيل الحاضر وجمع R. Weill آراءهم في كتابه الأخير وذكر معها أن المهاجرين وصلوا مصر في المرحلة الأربعين من التوقيت المتتابع ، وكانوا أسويين من أتباع المعبود حور وأدخلوا معهم إلى مصر عبادة أرباب الطبيعة الكبار مثل عبادة الشمس وعبادة أوزير رب الخضرة وعبادة الصقر حور رب السماء ، وأدخلوا معهم اللغة السامية ومذاهب نشأة الوجود ، وكونوا طبقة أرستقراطية وبدأوا ما سماه باسم العصر الانبوليتي الثاني ، ولكنهم ظلوا متفرقين حتى اتحدت كلتهم وقويت شوكتهم في المرحلة الستين من التوقيت المتتابع وبدأوا حينذاك ما سماه باسم عصر ما قبل الأسرات (٢٦١) .

عارض آراء پترى وأنصاره الكثيرين فريق آخر من الباحثين كان على رأسهم K. Sethe and P. Newberry ومع شئ من التردد A.-Scharff ، وافترضوا أن أصحاب الهجرة الجديدة أو الغزوة الجديدة

PETRIE, *Proh. Egypt*, 16 f., 47 f., in *Anc. Egypt*, 1931, 79 f; *Making of Egypt*, p. 47. (٢٦٠)

ويلاحظ أن پترى لم يلتزم بأرقام مراحل تصوير المراكب والنعام والتلال في كل كتاباته ، وان باومجرتل ترى ان ما اعتبره اباتل اقرب الى ان يكون من المامر الجبلى . (op. cit., p. 72) . وانه متر على امشاط كثرية ذات اسنان طويلة بجانب الامشاط قصيرة الاسنان التي اشار اليها LXIII; *Proh. Eg.*, pl. XXIX, 4-7; 12-13, 20). وان صور اهل نقادة الثانية التي عبروا بها عن انفسهم ، اظهرتهم باردية) نصفية ونقبا قصيرة وليس بملابس طويلة كما يقول پترى .

R. WEILL, *Recherches sur la 1re dynastie et les temps Prépharaoniques* Le Caire, 1961 (٢٦١)

II, p. 279-280.

كانوا من أهل الوجه البحرى ، أى من أهل مصر نفسها ، وبدا فرضهم أكثر ترجيحاً من آراء پترى وأصحابه على الرغم مما أسلفناه عن حبيكتها ، وزكت فرضهم القرائن التالية :

أولاً - أنه إذا صح أن أهل نقادة الثانية رمزوا بأشكال المثلثات التى صوروها على فخارهم إلى هيئة التلال فعلاً ولم يكتفوا فيها بغرض الزخرف وحده كما ظن پترى ، فإن التلال تتوافر على جوانب وادى النيل وفى الهضاب التى تحف به كما تتوافر خارجه ، وقد سلك المصريون طرقاتها لأغراض الصيد وقطع الأحجار الصغيرة واستخراج النحاس قبل عهد نقادة الثانية بزمان طويل (٢٦٢) ، وبدأوا تصويرها من تلقاء أنفسهم على فخار نقادة الأولى ، دون أن يرتبط تصويرهم لها حينذاك بهجرة جبلية أو غير جبلية .

ثانياً - أن صناعة الأواني الحجرية لم تكن جديدة على مصر ، فقد بدأت منذ حضارة مرمرية فى الوجه البحرى وربما فى حضارة الفيوم أيضاً ، وخلال الحضارة البدائية فى الصعيد ، وزادت عدداً فى عهد نقادة الأولى ، ثم مضت فى تطورها الطبيعى وازدادت رقياً وشيوعاً فى عهد نقادة الثانية ، واستمرت تصنع من الأحجار المحلية (٢٦٣) ، غير أنها ظلت غالية القيمة ، ولهذا قلد الصناع ألوانها وتعاريفها الطبيعية على أواني الفخار ليجعلوها بديلاً رخيصاً عنها ، وليرضوا بها أذواق أصحاب الإمكانيات المحدودة ، ومعنى ذلك أن تطورها فى مصر وتطور تقليدها على الفخار ، كلاهما كان تطوراً داخلياً وتطوراً طبيعياً ، وليس من ضرورة إلى ربطه بغزوة خارجية عن مصر أو هجرة خارجية عن مصر .

ثالثاً - أن وفرة تصوير القوارب والطيور المائية على فخار نقادة الثانية ، تتم عن صلوات أصحابها بمنطقة كثيرة البحيرات والفروع المائية وليس بمنطقة جبلية ، وتطبق مظاهر هذه المنطقة على الوجه البحرى دون المناطق البعيدة التى افترضها پترى . وقد احتاط پترى لرأيه ، حين ذكر أن المهاجرين نزلوا الوجه البحرى قبل أن يصلوا الصعيد ، وأن نسايتهم فى مناطقهم الجبلية جعلتهم يلحظون التباين بين بيئتهم الوعرة القديمة والبيئة السهلية الجديدة فنصروه . ولكنه لم يقدم تفسيراً مقبولاً لتأخير تصويرهم للمراكب على فخارهم حتى المرحلة ٤٥ ، وتأخير تصويرهم النحام حتى المرحلة ٤٦ على حد قوله ، وكان من المفروض أن ينسوا بيئة المراكب والنحام مادامت طارئة عليهم شأنها شأن البيئة الصعيدية الجديدة التى انتقلوا إليها .

(٢٦٢) راجع مناقشة أخرى تفصيلية : محمد أنور شكرى ، رسوم وصور نقادة ٤ من ٢١ - ٢٢

(٢٦٣) يلاحظ ألفريد لوکاس أن ٨٥٪ من أحجار أوانى فترة ما قبل الاسرات هى من أحجار وادى النيل الخالص وبخاصة الفيوم وأسوان ، وأن ١٥٪ منها فقط يمكن رد أحجارها الى أحجار مناطق البحر الأحمر والصحراء الشرقية التى أشار إليها پترى وبعبه فى رأيه منها كل من :

A. Scharff, H. Frankfort; H. Peake and H.J. Fleure

and J.E.A. XVI, 200 f.

راجع ألفريد لوکاس : المرجع السابق ٦٧٥ - ٦٨٤

وراجع أيضاً : محمد أنور شكرى ، الأوانى من الساج والحجر فى فجر تاريخ مصر القديم - القاهرة ١٩٥١

أوانيتهم كانت تجاوبف متسعة تسمح باستخدامها للسوائل بعكس الأواني الإيرانية ، وأن صناعتهم لها كانت أسبق من صناعتها في سوريا بقرون عدة (٢٦٨) .

وإثر جدل مشابه حول الأواني ذات البربوز ، والأواني ذات المقابض ، فقد وجدت أمثالها في فلسطين ، وافترض بترى أن القطرين عرناها عن أصل واحد (٢٦٩) ، بينما رأى الباحثون تشيلد وفرانكفورت ومنجن وكانتور أن المصريين كانوا يستوردونها بزبوتها من سوريا ثم قلدوها (٢٧٠) . وعارض هؤلاء وهؤلاء باحثون آخرون ومنهم Junker & Albright ، وأكد يونكر من ناحيته أن فكرة الأواني ذات البربوز وفكرة الأواني ذات المقابض نشأتا في مرمدة بنى سلامة وظهرتا بصورة مصغرة في أوانيتها ، وأضاف أنه إذا كانت مراحل تطورها قد اختلفت حتى عهد نقادة الثانية ، فهي قد اختلفت في رأيه تحت أرض الدلتا التي لم يكتشف منها غير النذر اليسير ، ومعنى ذلك أنها بعد أن نشأت في الدلتا وتطورت فيها انتشرت منها إلى جنوب سوريا من ناحية وإلى الصعيد من ناحية أخرى (٢٧١) .

وقد لاتصح نظرية يونكر بانتشار أساليب هذه الأواني من مصر إلى جنوب سوريا بخذايرها ، لإسما بعد أن ظهر عدد كبير من مراحل تطورها الفلسطينية في حفائر مجدو وأريحا (٢٧٢) . ولكنها تكفى على أية حال لتزكية ما دلت عليه بقية القرائن من أن عناصر الحضارة النقادية الثانية ازدهرت في الدلتا قبل الصعيد وضربت بجذورها فيها حتى أوائل عهدها النيوليتية الناضجة .

ونتهى من القرائن الثمان السابقة إلى أن كلا من حضارتى نقادة الأولى ونقادة الثانية كانت مصرية الأصل ، وأنه على نحو ما تطورت الأولى في الصعيد عن حضارة البدارى وما سبقها ، تطورت الثانية في الوجه البحرى وامتدت بجذورها البعيدة إلى حضارة مرمدة بنى سلامة نغمها ، وإن اختلفت عنها في أساليب مساكنها وعقائدها دفن موتاها فضلا عن نواحي الرقى التي اكتسبتها نتيجة لبعده الزمن بينها وبينها .

S.R.K. GLANVILLE, in J.E.A. XII, 62 f; J. VANDIER, op. cit., 314 f. (٢٦٨)

محمد انور شكرى : المرجع السابق ص ٥ - ٨

PETRIE, Diospolis, p. 15; Naqada, p. 39 f. (but see BAUMGARTEL, op. cit. 40 f.) (٢٦٩)

CHILDE, op. cit., FRANKFORT, op. cit., 19, 104 f., 114 f. MENGHIN, in Mitt. Kairo V, 114 f.; (٢٧٠)
KANTOR, in J.N.E.S., 1941, 177 f.

H. JUNKER, Merimde, 1929, Abb. 9 K.L., Abb XI; Westdelta, 18-19, Abb XX; ALBRIGHT, in Ann. (٢٧١)
of Amer. School of Oriental Research, XII (1930), 1 f.

WRIGHT, The Pottery of Palestine from the Early Bronze Age, 1937; 56 f; KANTOR, op. cit. (٢٧٢)

وتردد شارف من ناحيته أكثر من مرة بين تأكيد الأصل المصرى لهذه الأواني وبين تأكيد أصلها الفلسطينى ، ثم انتهى إلى القول بأصلها الفلسطينى (Grundzüge, 32; Abusir, 18; Altertümer, I, 25; ZÄS LXXI, 91)

ولا ينفي هذا إطلاقاً أن مناطق الوجه البحرى ، والمناطق الشرقية منها خاصة ، ظلت تتلقى حتى ذلك العصر هجرات من شمال شبه الجزيرة العربية وجنوب الشام عن طريق حدودها الشمالية الشرقية المفتوحة ، وهى هجرات أكدت الصبغة السامية فى لغة المصريين ودمائهم ، ولكنها لم تكن من الحضرة الواضح بحيث تغير مقومات حضارتهم المادية والفكرية فى كثير أو قليل. أما ما ذهب إليه دى مورجان وفي وغيرهما من أنها أتت إلى مصر بعبادات أرباب الطبيعة الكبار ، رع وأوزير وحوور ومذاهب نشأة الوجود ، فذلك مردود من أساسه ولا دليل لها يقدمانه على صحته إلا قرائن متأخرة تعاصر عهود الدولة الحديثة المصرية أى بعد فجر التاريخ المصرى بعشرات القرون .

ومضت كل من الحضارتين الصعيدية والبحيرية فى سبيلنا ، وتطورت كل منهما بما يناسب بيئة إقليميها وثور أرضها ، ومدى الاتصال والتراب بين أقاليمها ، ومدى توفر المواد الأولية عندها أو عن قرب من أرضها ، حتى حل عهد انتظمت فيه الأحوال السياسية لأهل الحضارة الشمالية وتجمعت سلطاتها أو سلطات أكبر أقاليمها فى يدمت تتوج بناج أحرذى شك خاص ، واستحب دناع مملته أن يصوروا تاجه على بعض أوانيمهم الفخارية ، ووصلت هذه الأوانى إلى مناطق الصعيد نفسها . ثم ازداد التفوق الحضارى والسياسى لأهل المملكة الشمالية ، وشجعهم هذا التفوق على أن يروجوا لمنتجاتهم فى الصعيد ، وأن يحاولوا مد نفوذهم إليه ، وسنحت لهم الفرصة فى ظروف لا نعرفها ، فاندفعت بعض جماعاتهم القوية إليه ، وبسطوا نفوذهم على أهله وسودوا حضارتهم على حضارته ، واتخذوا عاصمته نوبت مركزاً رئيسياً لنفوذهم الحضارى والسياسى (٢٧٣) ، وعندما استقرت أمورهم اشتركوا مع أصحاب الحضارة النقادية الأولى فى تطوير حضارتيهما ، وشاركوهم بعض ميراثهم القديم واختلفوا عنهم فى بعض آخر (٢٧٤) .

(٢٧٣) عن التفسيرات المحتملة لهذه التطورات ، ولما كان يقابلها من تطورات سياسية فى الصعيد ، راجع صفحات ١٩٧ وما بعدها .

(٢٧٤) see also MASSOULARD, op. cit., 236-237. وكان هرمان كيس قد رجح رأى القائلين باعتبار أهل نقادة الثانية أصحاب المراكب غزاة شرقيين ، وأنهم صوروا مراكبهم على صخور وادى الحمامات الذى سلكوه فى طريقهم إلى مصر (Götterglaube (1939), 492 f.) — ولكنه عاد وعدل عن هذا الرأى فى كتابه الآخر واخذ برأى شارف فى اعتبار التطور الحضارى بين نقادة الأولى والثانية تطوراً اقتصادياً داخلياً ، واعتبار من صوروا المراكب على صخور وادى الحمامات مصريين خلاصاً كانوا يجوبون الصحراء للبحث عن معادنها واستغلال أفضل مجارها .

A. SCHAEFF, Die Frühkulturen Ägyptens und Mesopotamiens, 1941, 48.

H. KEES, Das Alte Agypten, Berlin 1958, 12-13.

بلغت صناعة الأسلحة من الطران ذروة رقيها في عصر نقادة الثانية^(٢٧٥) ، وازدادت فيها السكاكين موجة السطوح ذات الطرف المقوس على هيئة ورق الشجر رقة وجمالا ، وكان بعضها يثبت في مقابض من العاج والخشب ، وقد ينقش المقبض بصور تناسبه ثم يغشى برقائق الذهب^(٢٧٦) .

واستخدم النقاديون رؤوس حراب أو رؤوس مزاريق مشرشرة الحواف تنفرج نهايتها في شعبتين على هيئة ذيل السمكة^(٢٧٧) .

واحتوت مقابره على عدد كبير من هذه الأسلحة ، وتعمدوا أن يكسروا بعضها ، ربما رمزا إلى موتها كما مات صاحبها ولتحرر روحه فتنبه في الآخرة نفعا يناسب العالم الذي انتقل إليه ، أو رغبة في إلحاق العيب بها حتى لا تسرق من قبره ، أو رغبة في كسر حدتها حتى لا تؤذيه بصورة من الصور^(٢٧٨) .

واستعاض أصحاب الإمكانيات المحدودة عن أسلحة الطران الثمينة بنماذج تشبهها من الصلصال والفخار والخشب والعاج ، ولونوا بعضها بما يجعلها قريبة الشبه بما تمثله ، ولونوا نصالها أحيانا بلون الدم ، ورسموا على مقابضها خطوطا ترمز إلى أربطة الكنان التي كانوا يحفظون الأسلحة الحقيقية فيها^(٢٧٩) .

وسايرت الخناجر النحاسية صناعة الطران فيما يعتقد پترى منذ المراحل ٤٨ - ٥٤ من توقيته المتتابع وسارت في تطورها من القصر والاستعراض إلى الدقة والطول ، ولكنها ظلت أقل شيوعا من أسلحة الطران حتى أوائل العصور التاريخية على أقل تقدير^(٢٨٠) .

واصلت النقوش طريقها إلى جانب الرسوم في عصر نقادة الثانية ، وجمع صناع الفخار بينهما في رسوم محفورة استعادوا بها ميراث أسلافهم القدماء أهل ديرتاسا ، وارتقوا بها وطوروها وزخرفوا بها أواني وكؤوس من الفخار الأسود والبنى القاتم المصقول ، وملأوا تجاويفها بعجائن بيضاء على

(٢٧٥) اعتبر پترى أفضل أسلحة الطران في الصعيد من إنتاج الفترات ٥٧ - ٦٣ أو ٥٨ - ٦٦ ،

(Preh. Eg., p. 49; Anc. Egypt, 1917, 31 f.) - واعتبر شارف أفضلها من إنتاج الفترات ٦٠ - ٨٠

في مصر الوسطى (Abusir, 83).

M.C. CURBELLY, Stone implements, pl. XLV-XLVII; PETRIE, Preh. Eg., pl. XLVIII, 3-4; (٢٧٦)

Nagada, p. 57 f; Diospolis, p. 23 f; CAPART, Débuts, p. 66-67, Fig. 32.

محمد أنور شكري : الأسلحة والادوات من الطران - ص ٨

M.C. CURBELLY, op. cit., pl. LIX-LX; PETRIE, Preh. Eg., p. 25; Nagada, pl. LXXIII, 61, 62; (٢٧٧)

MASSOULARD, in Rev. d'Eg. II, 135 f.

(٢٧٨) راجع أيضا : محمد أنور شكري - المرجع السابق ص ٩

PETRIE, Preh. Eg., p. 25, pl. XXVIII, 12 f, XLVI, 21-22; QUIBELL, Hierakonpolis, II, 51, pl. LXVII. (٢٧٩)

PETRIE, op. cit., p. 25. (٢٨٠)

عادة الناسين ، كما قلدوا بعضها زخارف السلال (على عادة أهل نقادة الأولى) ، وبلغوا بها في الحالين غاية عالية من سلامة الذوق ورقة الصناعة بل وبلغوا حد الإعجاز في صناعة أوانيها الصغيرة وزخرفتها (٢٨١).

وما لبثت النقوش حتى طغت على الرسوم واحتلت مكاتها في إشباع أذواق أهلها وفي التعبير عن أفكارهم وأساطيرهم ، وقلت إلى جانبها رسوم الفخار منذ المرحلة الستين من التوقيت المتتابع ثم مالت إلى الاختفاء رويدا رويدا ، ولم يرتبط اختفاؤها حينذاك بهجرة جديدة من أهل الوجه البحري أو من أهل الصعيد ، وإنما حدث فيما يرجح نتيجة لأمرين ، وهما انصراف أذواق الطوائف الثرية والمتوسطة عن أواني الفخار المرسومة إلى أواني الحجر إيثارا لمئاتها وبعد أن اكتسب صناعها خبرة وأفية فصنعوها بوفرة وإتقان ، وأن الأواني الحجرية الجديدة لم تكن بحاجة إلى التحلية بالرسم وكانت يكفيا جودة الحجر وجودة الصقل وسلامة الذوق ، وقد أبدع صناعها في نماذجها الغالية بالفعل ، وصنعوها من الأحجار دقيقة الحبيبات ذات التموجات متعددة الألوان مثل البرشيا والاردواز والألباستر والسماق والديوريت والبازلت وحجر الطلق والسر بنين ، وشكلوها على هيئات اسطوانية وشبه بيضية وشبه كرية ، وهيئات تشبهها هيئات القناني الحالية ، وهيئات الحمام والأسماك والسلاحف والفيلة وأفراس النهر والكلاب (٢٨٢) ، وربما على هيئة الجمل المبارك أيضا (٢٨٣).

وكان لابد لوسائل التعبير التصويرية أن تتاهس سيلا آخر غير سطوح الفخار وسطوح الأواني الحجرية ، وقد وجد لها أحجامها مسطحات تناسبها على سطوح أمشاط عريضة فآخرة من العاج كانوا يزخرفون بعض رؤوسها على هيئات الطيور والحيوانات ووجه الإنسان ، وعلى سطوح مقابض عاجية صغيرة كانوا يشنون خناجرهم فيها ، وعلى سطوح الصلايات الاردوازية الرقيقة ، وعلى سطوح رؤوس مقامع القتال الكبيرة .

PETRIE, Corpus, pl. XXVI-XXVII. (٢٨١)

PETRIE, Preh. Eg., pl. XXXIV-XLII, CAPART, Débuts, p. 92f., Fig. 67-70; GLANVILLE, in J.E.A. XII. (٢٨٢).

pl. XII-XIII. — محمد انور شكري : الأواني من العاج والحجر في فجر تاريخ مصر القديم - ص ٤ ، ص ٨

(٢٨٣) لم يستخدم المصريون الجمال الا في اواخر عصورهم التاريخية القديمة ، وربما في اوائل العصور البطلمية ، ولكنهم كانوا على معرفة بهيئاتها لاحتكاكهم بجيرانهم البدو ، ووجدت الآنية المشار اليها في ابي صير الملق ، وصنعت من الحجر الجيري ، ويرى شارف أن صانها قلدها بها هيئة الجمل عن نموذج سوري (Abusir, Taf. XXIV, 209) ولكن جلافلر لاحظ أن هيئة الجمل لم تظهر في الفن السوري الا في القرن الحادي عشر ق. م ، أي بعد العهد النقادي بالآلاف السنين (op. cit.) ولهذا يصعب تخمين الاصل الذي استوحاه الصانع المصري .

ووجدت رأس من الفخار الملون في المادى تشبه رأس الجمل الى حد ما (Maadi, pl. XX, 2-3)

وجمع شارف ١٤ حالة لتمثيل هيئة الجمل في الفن المصري القديم ، وأرجع أحداها الى عصر الأسرة السادسة ، وثلاثة الى الدولة الحديثة ، وأرجع بقيتها الى العصور المتأخرة (op. cit., 40-41)

وأضاف فاندنيه اليها مثلا آخر من الأسرة الثانية عشرة (op. cit., 314,3)

وعبر الفنانون عن كفايتهم في النقش على سطوح الأمشاط والمقايض والصلابات ورؤوس المقامع تعبيرا يناسبها ، فنقش أحدهم ٢١٨ صورة دقيقة لحيوانات مختلفة في صفوف أفقية على مقبض سكين لا يتعدى عرضه سنتيمترات قليلة^(٢٨٤) . ونقش فنان آخر صورة فيل يطا ثعبانا ضخما ضمن مجموعة أخرى من الحيوانات ، فأظهر تفاصيل جسد الفيل في دقة بالغة وحيوية فياضة على الرغم من صغر مساحة السطح الذي نقش صورته عليه^(٢٨٥) .

وتعددت صور الحيوانات الأليفة والوحشية على الأمشاط ومقايض السكاكين وظهرت منها صور الفيل والأسد والضبع والفهد والغزال والوعل والتيل والزرافة وفرس النهر والثور والكلب وأبي منجل والرنة والبشروش والثعبان^(٢٨٦) ، وظهرت معها أحيانا صور نباتية شكلت على هيئة زخرفية مقبولة ، وذلك مما يعني أن صورها كانت تستهدف أغراض الحلية والزخرف ، وربما استهدفت معها أغراضا أخرى يصعب التعرف الآن عليها ، وارتأى بعض الباحثين في نقش صورها على مقايض السكاكين التي كانت تستخدم في الصيد ونحر الضحايا ما ينم عن أمل أصحابها في أن يوفقوا في صيدهم ويتمكنوا من قنص أجناس الحيوانات المصورة عليها^(٢٨٧) ، ورأى بعض آخرومنهم جورج بنديت أن صورها لم تكن غير صور طواطم أصحابها ، وعلى هذا الاعتبار ترمز صورة الفيل في رأيه ، إلى قبيلة كانت ترى الفيل الصورة المفضلة لجدتها الأعلى ، وإذا صور أحدهم الفيل يطا أفعوانا عنى بذلك غلبة قبيلته على قبيلة أخرى جعلت طوطمها على هيئة الأفعوان^(٢٨٨) . ولكننا سنرى من مناقشة تالية (ص ٢١٢ - ٢١٣) أن الطوطمية والقبيلية لم يكن لهما شأن واضح في المجتمع المصري القديم .

واصلت الصلايات أغراضها العملية والفنية في عصر نقادة الثانية ، وظلت تصنع من أحجار مخلفة ، ولكن أصحابها استحبوا لها حجر الإردواز الأخضر أكثر من غيره ، وشكلوها على هيئة أفراس النهر والسلاحف والأسماك والطيور والأغنام وهيئة الإنسان ، واكتفوا بتشكيلها في بعض أحوالهم على هيئة المستطيل والمربع والقرص ، مع استدارة أركانها وتحلية أطرافها العليا من حين إلى آخر بأشكال الطيور ورؤوس الحيوانات^(٢٨٩) . وخذشوا ونقشوا على سطوحها صوراً حيوانية تتفاوت بين البساطة وبين

G. BENEDITE, in J.E.A., V, pl. XXXIV. (٢٨٤)

Ibid., p. 3 f, pl. I, also pl. XXXIII. (٢٨٥)

(٢٨٦) نلص جورج بنديت الخطوط المريرة لترتيب هذه الحيوانات واسلوب تصويرها في مشر نقط بمقاله السابق (p. 225 f.)

(٢٨٧) راجع محمد أنور شكري : النقش على العاج في فجر تاريخ مصر القديم ص ٥

BENEDITE, op. cit., 237 f. (٢٨٨)

PETRIE, Preh. Eg., pl. XLIII-XLIV; Corpus, pl. LII-LVIII; R. Weill, op. cit., 248 f. (٢٨٩)

محمد أنور شكري : الصلايات ، تطور اشكالها ونقوشها وما توخاه فيها المصريون من اغراض ص ٥

الإتقان ، ومن أمتع ما صوروه منها صورة ظيين متقابلين يتناجيان ، صورهما الفنان في حيوية فريدة وخطوط ممكنة بسيطة (٢٩٠) . وصورة صائد (؟) يتعقب ثلاث نعلمات ، وقد تقنع بقناع يشبه رأس النعام ليضللها أو يطمئنها ، وأمسك عصا يسراه وسارت النعامات أمامه في غير خوف وكأنه يرعاها ، وصور صانع هذه الصلابة أشكله في غير تفصيل كبير ولا إتقان كبير ، ولكنه أزال طبقة من الأرضيات التي تتخللها فبدت هيئاتها ممتلئة بارزة واضحة ، وطعم عيونها بأصداف صغيرة ، وشكل حافة الصلابة فوقها على هيئة طائر عظيم مرتفع الجناح واضح الريش وطعم عينيه وريشه بأصداف أخرى صغيرة ، وذلك مما يرجح أنه استهدف من صلاته إشباع أغراض الزخرف والزينة (٢٩١) .

غير أن هذه الأغراض لم تكن هي المتحركة وحدها في نقوش الصلابات ، وإنما شاركتها أهميتها أغراض الدين ، فنقش أصحابها عليها (موزر بأبهم الجبار مثل رمز الإله مين رب الصحراء الشرقية وجبال البحر الأحمر وحامى القوافل وأحد من نسب أتباعه إليه التحكم في الأمطار والسيول (٢٩٢) .

واختلطت أغراض الزخرف والدين وأغراض أخرى غامضة في منظر نقشه فنان من الفيوم خلال عصر نقاده الثانية على صلابة بيضاوية ، وصور فيه الخطوط الرئيسية لرأس بقرة كبيرة بقرنيها ، ووزع حولها خمسة نجوم نحاسية ، وطعم عينها بإداة ضاعت معالمها (٢٩٣) . ورأى Wainwright في هيئة رأس البقرة سلفا بعيدا لرأس المعبودة تحتحور ، وسلفا بعيدا لتصويرها بوجه بشري وأذني بقرة على صلابة الملك نعرمر في بداية العصور الأريخية ، كما رأى في صور النجوم دلالة فلكية (٢٩٤) . ولكن للغريب أنه على الرغم من ضخامة الأهمية التي رتبها وينزيت على رأس البقرة ونجومها ، احتفظ ظهر صلاتها بآثار الدهنج الأخضر الذي كان يصحن عليها ، وذلك مما يعني أنها استخدمت لغرض عملي داخل أحد المعابد على أقل تقدير .

استمر الفنانين النقاديون يعتبرون عالم الحيوانات والنباتات مجالا خصبا للتعبير عن أفكار عصرهم وأحداثه وخيالاته وأذواقه . فكروا نقش صور النخل والزراف على الصلابات (٢٩٥) ، وتفننوا في تصوير آكلات اللعوب بشراستها وبطشها ، وتصوير آكلات العشب في مرحها وفي حالات فزعها وضعف حيلتها (٢٩٦) ، وأضافوا إليها من نبات أفكارهم كائنات خرافية توهموها نقشى الفيا في الواسعة المحيطة

PETRIE, Preh. Eg., pl. XLIII, 2 (٢٩٠)

EL AMBAH, pl. VIII, 2, p. 37-38 (٢٩٢)

W.M. CROMPTON, in J.E.A. V, 57 f., pl. VIII. (٢٩١)

Gerzeh, p. 22. (٢٩٤)

Gerzeh, pl. VI, 7; Grundzüge, 36, 37, Abb 5 h. (٢٩٣)

BENEDITE, in Monuments Piot, pl. XI; SCHARFF, Altertümer, II, 74 f, 76 f, Abb. XXII, 54, 107. (٢٩٥)

LEGGE, "the Carved Slates...", in P.S.B.A., XXII, pl. III; BENEDITE, op. cit., Fig. 3-4, pl. XI. (٢٩٦)

بوادبهم ، وتخليلوها بجسوم الأسود والفهود ورقاب الزراف والثعابين وأجنحة العقبان ، وتخليلوها
كائنات مخيفة تروع حيوانات بيئتهم ، وكائنات أخرى حارسة أحاطوا بصورها إطارات الموضوعات
التي نقشوها على صلاياتهم .

واختلفت خطوط أولئك الفنانين فيما أتموه من أعمالهم ، من حيث مدى وضوح الفكرة في لوحاتهم ،
ومدى إضفاء الحيوية على صورها ، ومدى الترابط بين موضوعاتها ، ومدى الصدق في التعبير عن جوانب
الحياة في عصرها ، ومدى استغلال مفردات الصور ومجموعاتها في تأليف زخارف مقبولة ، ومدى
تحقيق التناسق والتماثل في توزيعها .

وظلت أكثر الخطوط والصور شيوعا في لوحاتهم هي تصوير حيوانين خرافيين حول بؤرة الصلاة
يحيطانها برقبتهما الطويلتين وتنعتق رأساهما فوقها (٢٩٧) . وتصور حيوانين قوين حول إطاري
الصلاة بحيث يطلان برأسيهما فوق حاقبتهما وكأنهما يجمان مناظرها (٢٩٨) .

ويبدو أن كفايات الفنانين لم تكن هي المؤثرة وحدها في التمييز بين مواضع الصلايات وأساليب
نقشها وطريقة عرض أفكارها ، وإنما ميزت بينها كذلك تقاليد العهود المختلفة والمناطق المختلفة التي
نقشت فيها . وعلى هذا الاعتبار ميز هرمان رانكه بين طائفتين من الصلايات تميزا زمنيا وموضوعيا
وفنيا (٢٩٩) . فاعبر أقدمها هي الصلايات التي تظهر في نقوشها كثرة المفردات وكثرة الحشو وحرية
التوزيع وعدم التقيد بنقش الفواصل وخطوط الأرضية وعدم تركيز الاهتمام على صورة كبيرة واحدة
تهيمن على ما يجاورها من بقية الصور ثم عدم ظهور العلامات الكتابية فيها . واعتبر أحدث الصلايات
هي الصلايات التي تميل نقوشها إلى قلة المفردات وتحرص على رسم الفواصل وتركيز الاهتمام على صورة
رئيسية كبيرة وتسعين بالرموز الكتابية .

غير أنه لم يكن من المعتاد أن ينتقل الفنانون من تقاليد طائفة الصلايات الأولى إلى تقاليد
الطائفة الثانية طرفة واحدة وفي مرحلة زمنية واحدة ، ولهذا وقعت بعض نقوش صلاياتهم في منتصف
المسافة بين الطائفتين وجمعت بين خصائص العصرين ومثلت مرحلة الانتقال بين التقليدين .

وعلى نحو ما اختلفت كفايات النقاديين وتقاليدهم في نقش صلاياتهم اختلفت آراء الباحثين
المحدثين في تفسير أهدافهم من صورهم ، فإلى جانب الاعتراف بوضوح غرض الزخرفة في نقوش
الصلايات بوجه عام ، ظهرت تفسيرات أخرى تعتقد أن الصلايات التي غلبت موضوعات الصيد على

LEGGE, op. cit., pl. I., III. (٢٩٧)

Ibid., pl. III. (٢٩٨) — وقد يظهر أربعة حيوانات على حافتي الجانبيين بحيث يتدابرن كل اثنين منهما ويطلان على قمة
الصلاة وقاعدتها (BENEDITE, op. cit., pl. XI) أو يقبع حيوان فوق بؤرة الصلاة كأنه يحميها .

(CAPART, Débuts, Fig. 157).

H. RANKE, in Sitz. der Heidelberger Ak. d. Wiss., 1924-1925, V, 3 f. (٢٩٩)

نقوشها وقام الصيادون وكلاهما فيها بعمليات الصيد ، كانت تعبر عن أمانى أصحابها في توفير الحيوانات لصالحهم وصالح معابد أربابهم (٣٠٠) ، وأن الصلايات التي استثمرت الحيوانات الكسرة على الحيوانات الصغيرة في نقوشها ، تعتبر سجلات سجل الفنانين عليها مارتسب في أذهان قومهم عن حياة الصحارى وأهوالها قياسا إلى حياة الزراعة وأمنها . وأن الصلايات التي شاع قتال الحيوانات لبعضها في نقوشها رمزت بموضوعاتها إلى عهود مضطربة بعيدة طغت جماعاتها القوية على جماعاتها الضعيفة ، وأشاع بدو الصحارى الاضطراب والفرع في حياة أهلها (٣٠١) .

كان من الطبيعي أن يسير رقى النقاديين النسبي في الصناعة والفن رقى آخر نسبي في بناء مساكنهم وحفر مقابرهم ووسائل التسلية والترفيه في مجتمعهم .

فقد عثر في قبر بالمحاسنة على نموذج صغير من الصلصال الجفاف لمسكن مستطيل الشكل مبنى من اللبن أو من جواليص الطين (٣٠٢) ، يذهب الظن إلى أن بعديه الحقيقيين كانا ٨ أمتار طولاً و ٥,٧٠ من الأمتار عرضاً . وكانت واجهته مائلة الجوانب يزداد اتساعها في أسفلها عن اتساعها في أعلاها لمساعدة رضات اللبن على الثبات وتخفيف الضغط العلوى عليها ، وتوسطها مدخل ضيق صنع قائمها الجانبيان وعقبه العلوى من الخشب وظهرت له شراعة علوية لدخول النور، وأثبتت تحتها طبلية أسطوانية من الخشب يبدو أن أصحاب المسكن كانوا يلفون عليها حصيرا يجذبونه إلى أسفل لستر المدخل وليقوم فيه مقام الباب . وتوسطت الجزء العلوى من الواجهة الخلفية للمسكن نافذتان ضيقتان دعمت كل منهما بعارضة سفلية وعارضة علوية من الخشب . وكان داخل المسكن عبارة عن فناء وبضع حجرات جانبية، وربما قامت في حجراته مساند خشبية طويلة للمساعدة في حمل سقفها المسطحة .

وكان تشييد المساكن من قوالب اللبن المنتظمة الشكل مرحلة تقدمية واسعة في حياة أهلها . وظلت قوالب اللبن هي المادة المفضلة للمساكن العادية خلال العصور التاريخية نفسها ، لرخص تكليفها وتوفير موادها الأولية ولأثرها فيما يقال في حفظ الحرارة الداخلية للبيوت في الصيف والشتاء وتخفيف حدة الحرارة والبرودة على حجراتها .

واستمرت المساكن القديمة المشيدة من البوص وفروع الأشجار تحدد أغراضها إلى جانب البيوت اللبنية ، ولكنها لم تقتصر على أشكالها المتواضعة التي عرفت لها في مرمدة والمعادي والهامية ، وإنما

(٣٠٠) من الصور الطريفة التي ظهر الصيادون عليها ، صورة صائد استخفى في جلد حيوان (ذئب ؟) وتتنع براسه، وامسك نصبة طويلة يزم بها ليخدع الحيوانات أو يجتذبها اليه . (CAPART, op. cit. Fig. 156) . ويشبه فيها هيئة الصائد الذي تمقب النعامات الثلاث (ص ١٧٢) .

(٣٠١) راجع مناقشة وافية لهذه الآراء : محمد انور شكري : المرجع السابق - ص ٢٤ - ٢٧ .

(٣٠٢) عثر عليه في مقبرة يحتمل ردها الى ما بين المرحلتين ٤٤ و ٦٤ ، ولم يعثر فيها على عظام أصحابها (El Amrah, p. 22, 42, pl. X, 1-2) . وراجع بداية ظهور الشكل المستطيل لمسكن المعادي أو حظائرنا من

ظهرت معها مساكن مربعة المساحة مرتفعة مسطحة السقوف صوّرت واحدا منها نقوش مقبض سكين فآخرة، فظهر بثلاثة مداخل، وتداخلت في تكوين واجهته ألياف البردى مع سيقان الغاب طولا وعرضا على هيئة نسج الحصر، وبرزت الأطراف العليا لسيقان الغاب عمودية فوق الواجهة بشكل منسق لطيف (٣٠٣) .

ونسب فلنדרز بترى إلى أهل نقادة صورا طريفة من الرق الفكرى قد لا يبرأ بعضها من الشك والنقد ، فهو يعتقد على سبيل المثال أن العلامات التي خطوها على أوانيمهم الفخارية لتكون رمزا إلى أصحابها أو صانعها (٣٠٤) ، لم تكن مجرد رموز عشوائية ، وإنما كانت علامات كتابية تخطيطية ، بدأت شخصية ثم استطاع بعضها أن يتعدى صورته الشخصية وشاع حتى أصبح أداة خطية من أدوات التفاهم بين أهله . وظهرت ٣٠ علامة من هذه العلامات فيما يرى بترى ، خلال عصر نقادة الأولى ، ثم اندثرت ست منها في عصر نقادة الثانية وحلت محلها ١٤ علامة جديدة .

وعلى حين استخدم بعض أهل نقادة الثانية هذه العلامات التخطيطية في تفاهمهم الكتابي ، اتجه بعضهم الآخر إلى التعبير عن أغراضه برسم تصويرية مثل صورة قرص الشمس وهيئة الذراعين المرفوعين إلى أعلى وهيئة التلال الثلاثة المتجاورة ، وظهروا بهذه الصور منذ المرحلة ٣٩ من مراحل التوقيت المتتابع ، واستمرت صورهم الكتابية في طريقها حتى طغت على العلامات التخطيطية وأصبحت أكثر قبولا عنها وأكثر شيوعا منها ، ثم جدت عاينها علامات هجائية منذ أواخر عهد نقادة الثانية ، وورثتها العصور التاريخية فيما ورثته من تراث العصور السابقة لها .

غير أن العلامات التخطيطية لم تخف تماما على الرغم من ازوائها ، وإنما اقتصر استعمالها على الطبقات العادية وبلغ عددها خلال عصر الأسرة الأولى ٥٣ علامة ، واستمرت بين أهلها فيما يعتقد بترى حتى عصور الدولة الوسطى على أقل تقدير ، وظهرت معها في تخطيطات الأسرة الثانية عشرة ثلاث علامات جديدة ، وكتب بها رجال المناجم في شبه جزيرة سيناء ، ثم فارقت هذه العلامات موطنها المصري شيئا فشيئا ، واحتضنها الكنعانيون الذين تعلموها من نصوص سيناء وتعلموا معها النظرية المصرية في استخدام شكل معين للتعبير عن أول حرف هجائي من ٤٥٣ ، ثم خرجوا مما تعلموه باثنتين وعشرين علامة هجائية كتبوا بها نصوصهم وتعلموها عنهم أهل جنوب شبه الجزيرة العربية ، كما اقتبس بعضها منهم قداماء الأغريق وطعموها بها كتابهم المقطعية القديمة (٣٠٥) .

W.C. HAYES, The Scepter of Egypt, New York 1953, Fig. 21. (٣٠٣)

(٣٠٤) لحظ بترى أن اوانى المقبرة الواحدة تحمل علامات مشتركة ، وذلك مما يبنى أن علاماتها كانت تخدم غرضا واضحا عند أصحابها (44) (Naqada, p. 44)

PETRIE, The Wisdom of the Egyptians, London 1940, 41f.; see also, J. CAPART, Débuts, 135f.; (٣٠٥)

A.H. GARDINER, in J.E.A. III, 1f.; COWLEY, in J.E.A. III, 17f.

وقدم پترى عدة أحجار صغيرة مثلثة وأسطوانية ومستديرة ملفوفة الأطراف ، وجد بعضها في حفائره اشترى بعضها الآخر من باعة الآثار ، ووجد إحداها ملفوفة في قطعة جلد بين يدي المتوفى ، واستبعد أن تكون من قطع الزينة ، ورجح أنها صنجات تشبهها في أوزانها وحدة وزن الذهب في العصور التاريخية ، ووحدة "بقا" الفلسطينية ، وظهر لها ما يشبهها فيما يمتد بين مصر وبين موهنجودارو في الهند على حد قوله ، وقدم أحجارا أخرى تماثل وزنها وحدة الشقل العراقية ، وأضاف قضيبا مستطيلا من الحجر الجيري ثقب في منتصفه وطرفيه ، واعتبره قب ميزان من عصر نقادة ، وذكر أنه وجد على بعض الأواني النقادية رسوما تشبه الأعداد وأخرى تشبه الكسور أراد أصحابها أن يعبروا بها عن سعة الأواني التي كتبوها عليها (٣٠٦) .

والواقع أنه يصعب التسليم بنسبة كل هذا التطور في الأوزان والمكاييل والحساب لأهل نقادة ، كما يصعب نفيه في الوقت نفسه ، فقد لا تكون للأحجار الصغيرة صلمة بالأوزان ، لاسميا وأن پترى قرب بينها وبين أوزان ظهرت بعدها بقرون طويلة في الشام والعراق ، وقد تكون رسوم الأعداد والكسور إضافات متأخرة كما شك پترى نفسه ، غير أنه يلاحظ من ناحية أخرى أنه حين بدأت العصور التاريخية المصرية كان أصحابها قد عرفوا نظام العد فعلا حتى ألف الألف أي المليون وعبروا عن العشرة ومضاعفاتها الكبيرة بعلامات وصور كتابية ثابتة (راجع ص ٢٣٣) .

وكشفت حفائر المحاسنة عن لوحة من الطين استخدمها صاحبها للعب الدامة (أو السيجة) ، وقسم سطحها إلى ثلاثة صفوف ، وقسم كل صف إلى ستة مربعات ، ووضعها فوق قوائم طينية منفصلة (٣٠٧) ، وأضاف پترى إلى هذه الوسيلة المتراضعة للتسلية ، قوائم مستطيلة صغيرة وجدها في المقابر ، وصنعها أصحابها من الكوارتز والألباستر والسياق والعقيق الأحمر والحجر الجيري ، وعددا من الكرات الحجرية الصغيرة (تشبه البلي) وقطعا حجرية صغيرة شكلت على هيئة الأواني المصمتة (وتشبه قطع الشطرنج) واعتبرها جميعها تؤلف لعبة راقية تنصب فيها ثلاثة قوائم على هيئة البوابة وترص القطع الصغيرة التي تشبه الأواني وراءها ، ثم يرمى اللاعب بالكرات من أمام البوابة الصغيرة ليسقط عددا معيناً من الأواني في المرة الواحدة (٣٠٨) . ولا تخلو هذه الصورة التي رسمها پترى لأذواق أهل نقادة ووسائل تسليتهم من شك كبير ، ولو أنه يبدو أنه ما من سبيل لتخمين الغرض منها على غير النحو الذي تخيله لها .

تنوعت أساليب مقابر نقادة الثانية ، كما تنوعت أساليب بيوتها ، فظلت المقابر العادية على حالها القديم ، لا تدنو حفرة قليلة العمق بيضية أو دائرية أو شبه مستطيلة ، يكفن المتوفى فيها بكتان بسيط ويوسد

PETRIE, Preh. Eg., p. 27f; The Making of Egypt, London 1939, p. 18. (٣٠٦)

El-Mahasa, pl. XVIII, 1 (٣٠٧)

PETRIE, Preh. Eg., p. 32; Ballas, pl. VIII, p. 14, 19, 20. (٣٠٨)

على حصير من البوص ويلف به ، أو يوسد على حصير ويغطى بأخر، ويحال عليه رديم الحفرة أو تسقف عليه بسقف خفيف من البوص وفروع الشجر يليس بالطين . ولم تختلف هذه المقابر العادية عن أمثالها في عهد نقادة الأولى في غير تخصيصها لمتوفى واحد في أغلب الأحوال (٣٠٩) ، والإقلاع فيها عن عادة فصل عظام المتوفى في غير القليل النادر (٣١٠) ، وتقليل تكفين أصحابها بالجلود، ثم في رغبة تخصيص أكبر حيز منها للجثة والتميز بين موضعها وبين موضع المتاع الموضوع معها بقدر الإمكان . واتبع أصحاب المقابر في سبيل تنفيذ هذه الرغبة ذات الشقين ست وسائل على أقل تقدير، وهي . ترتيب الأواني الكبيرة في خط طولى يقابل الجثة عوضا عن تكويمها بجانبها (٣١١) . والانهفاض قليلا بأرضية الجزء الذي ترقد الجثة فيه عن الجزء الذي ترتب فوقه الأواني الكبيرة بحيث يشبه هذا الأخير هيئة الرف العريض (٣١٢) . وإقامة حاجز (أو قاطوع) من البوص القصير يفصل بين الجزئين (٣١٣) . وحفر كوات صغيرة في أحد جوانب الحفرة لوضع الأواني فيها . وحفر مشكاة أفقية مستطيلة في أحد جوانب الحفرة لوضع الجثة نفسها فيها (٣١٤) . ثم وضع الجثة في تابوت صغير من الصلصال أو الفخار أو الخشب (٣١٥) ، وترويدها فيه بأدواتها الخاصة الصغيرة ، مع ترك الأواني الكبيرة خارجه . وقد يكون التابوت مجرد جرة متسعة ، لاسميا إذا كان لطفل صغير (٣١٦) .

وسلك التطور سبيلا آخر في المقابر الأثرية نوعا والمتأخرة في الزمن نوعا ، واتجه أكثر ما اتجه نحو تحديد جوانب حفرة المقبرة وتقويتها ، واتبع أصحاب المقابر في سبيل تنفيذ هذا الغرض وسائل كثيرة،

(٣٠٩) Preh. Eg., p. 48. — ومن الاستثناءات دفن الأم ووليدها في مقبرة واحدة إذا ماتا معا .

(٣١٠) لحظ WAINWRIGHT وجود كسور مقصودة في عظام الموتى في ١٨ حالة في منطقة جرزة ، ومنها ١٢ حالة مؤكدة ، ولحظ أن الكسر كان يصيب جزءا واحدا أو جزئين من أجزاء الجسم ، ويربط هذه الظاهرة بشعيرة دينية (Gerzeh, p. 11f.) — ولكن لا يكون هؤلاء من قتلى الحرب مثلا ؟
وأضافت مرجريت مري أن بعض الجماجم الجزرية ملئت بالرمل عن قصد ، وملئت ذلك بأن أهلها أرادوا حفظها من التعمق والتحلل فنزعوا منها بعض أجزائها الداخلية وملأوا فراغاتها بالرمل ثم أعادوها إلى أماكنها ، وذكر أنها مارسوا العملية نفسها في سابقين أيضا (M. MURBY, in J.E.A., 1956, 93-94)

(٣١١) El-Amrah, p. 9, pl. V, 2

(٣١٢) Ibid., pl. IV, 3. — راجع ص ١١٧

(٣١٣) Ibid., pl. IV (Tombs b35, 186, 216).

(٣١٤) وتطورت هذه المشكاة وازدادت عمقا واسما حتى أصبحت بمرور الزمن تشبه القبو وتمثل الجزء الرئيسي من المقبرة . (Ibi, 9)

(٣١٥) AYTON-LOAT, El Mahasna, pl. VII, 38; SCHAEFF, Abusir, pl. I, VIII.

(٣١٦) El-Amrah, p. 10-11, 25; pl. II, 2-3. — ووجدت جرار قليلة دفن فيها أشخاص بالنون (Ibid., p. 11)

وشامت مادة الدفن في الجرار في النوبة ، ووجدت مقبرة في أبي صير دفن صاحبها في جرة ، وخمن شارف من طراز محتوياتها القليلة أن صاحبها كان نوبيا دفنه أهله في مقبرة قليلة العمق ووضعوه في جرة على عادة قومهم (Abusir, pl. Ib).

منها تكسية جدرانها الداخلية بطمي سميك^(٢١٧) ، أو تكسيته بالطين ثم بالبوص أو الحصير، أو تكسيته بالأواح خشبية خشنة^(٢١٨) ، وقد يجعلون هذه الألواح ملاصقة للجدران الأربعة ، أو ملاصقة لثلاثة منها وبعيدة بعض الشيء عن رابعها بحيث ترك بينها وبينه ممرًا ضيقًا يستغلونه في حفظ متاع المتوفى وأوانيهِ الكبيرة^(٢١٩) . وتتابعت بعد ذلك الخطوات لتدعيم جوانب الحفرة عن طريق تحديدها من الداخل بجواليص الطين^(٢٢٠) أو قوالب اللبن على هيئة جدران ترتفع إلى حافة الحفرة أو تقل عنها^(٢٢١) ، ثم كساء الجدران نفسها بالأواح خشبية أحيانًا^(٢٢٢) . وأفضت هذه الخطوات إلى تحويل الحفرة أو أكبر جزء منها إلى حجرة ، وهنا قد يسقف الحجرة أصحابها بقوالب اللبن^(٢٢٣) ، أو بعوارض خشبية ، أو بأخشاب وبوص وأغصان متعارضة يلسون سطحها العلوى بالطين^(٢٢٤) . وقد يجعلون السقف يعتمد على أطراف التكسية الداخلية^(٢٢٥) ، أو على أفاريز تفصل بينه وبين حواف الحفرة عند مستوى سطح الأرض ، أو يسيّدونه من عوارض طويلة تعتمد على إطار خشبي منتظم مستطيل^(٢٢٦) .

وغاد النقاديون الأواخر فاستحبوا تقسيم الحجرة المبذبة باللبن تحت سطح الأرض إلى حجرات ، وبدأوا تقسيمها قبيل بداية العصور التاريخية حجرتين ، حجرة كبيرة للجنّة وحاجياتها الثمينة ، وأخرى صغيرة للأواني العادية^(٢٢٧) . وانتقلوا من ذلك إلى تقسيم الحجرة الصغيرة نفسها إلى حجرتين ، فأصبحت حجرات المقبرة ثلاثًا^(٢٢٨) .

El-Mahasna, pl. IX (٢١٨)

Abusir, pl. 3c. (٢١٧)

BRUNTON, Matmar, London, 1948, p. 17 (٢٢٠)

Ibid., pl. VIII, 42, IX, 46, 47. (٢١٩)

M. DE MORGAN, Recherches, p. 138; El-Amrah, p. 11f, p. 25, pl. III, 3-6 IV, 5; Hierakonpolis, II, (٢٢١)
pl. LXVII, A-B

El-Amrah, pl. II, 5; El-Mahasna, pl. X. (٢٢٢)

(٢٢٣) . وقد تحمل هذا السقف دعائم خشبية من اللبن أو من جذوع الأشجار . El-Amrah, p. 12, 18, 34.

Ibid., p. 12, 34, pl. II, 4 (٢٢٤)

Abusir, pl. 46. (٢٢٥)

Ibid., pl. 46, 50 (٢٢٦)

El-Amrah, pl. III, 2, 4, IV, 6. (٢٢٧)

وترى مرجريت مرى أن توزيع الأواني في مقابر نقادة كان يخضع لتقاليد أو عادات خاصة ، فتوضع أواني الهنيم الكبيرة التي كان يتراوح عددها بين ثمان أو اثنى عشر آنية ، كانت توضع في الناحية الشمالية من المقبرة ، وتتضمن بقايا نباتية ورمال ، وقليلًا ماتضمنت عظامًا حيوانية ، ويحتمل أن هذه البقايا كانت تستخدم في التنظيف أو يستخرج منها نوع معين من الدهون أو الزيوت . (M. Murry, in J.E.A. 1956, p. 94)

El-Amrah, IV, 7. (٢٢٨)

— وعثر في أبي صير الملق على حفر متاخرة مستطيلة قسمت بقواطع عرضية من اللبن والخشب إلى أربيع حجرات أو خمس ولم يثر فيها على عظام موتى ، وإنما مثر فيها مصادفة على عظام طفل وعظام حيوانات ، كما مثر فيها على صلايات ودبابيس شعر وما يشبهها ، ويحتمل أنها كانت أرضحة لأصحابها (٢) . Abusir, pl. V, and see VANDIERE, op. cit., p. 256.

وراجع من فكرة الأضرحة في بداية المصور التاريخية ص ٢٨٦

الفصل الخامس

في سبيل الوحدة

١ - المراحل الأولى

شهدت مصر تجمعات السكان الصغيرة على أرضها منذ دهور الالتقاط والصيد ، أى منذ الدهور الحجرية القديمة نفسها . ونمت عن نشأة تلك التجمعات ، نفايات الأدوات الحجرية المصنوعة وغير المصنوعة التي وجدت في أكوام صغيرة متقاربة في محاجر الكوارتزيت والظران المطروقة في الصعيد والوجه البحرى . وتأكدت التجمعات وزادت أعدادها زيادة نسبية وطال استقرارها طولاً نسبياً منذ عهود معرفة الزراعة في أوائل العصر الحجري الحديث، ومنذ وفد أصحابها على ضفاف النيل في موجات متتالية متقاربة ومتباعدة، ومنذ أخذت كل موجة تقلد سابقتها في حرفة الزراعة وتشهد لنفسها موطناً مناسباً للزراعة والسكن .

وازدادت الروابط الأسرية في ظل المواطن الزراعية الجديدة حين شعر المزارع بحاجة إلى مجهود أولاده في مهته الجديدة بعد أن كانوا عبئاً عليه في مهنة الصيد القديمة ، وازدادت الروابط الاجتماعية بين الأفراد نتيجة لتعدد الحرف وحاجة أصحاب كل حرفة إلى الاستفادة من إنتاج أصحاب الحرف الأخرى ، وازدادت فرص الملايعة أمام الأفراد والأسر نتيجة لإمكانية الاستحواذ على مساحات مناسبة من أرض الزراعة البكر وادخار مقادير مناسبة من محاصيلها وتربية أعداد مناسبة من حيوانات الإنتاج والاستهلاك على خيراتها . وازدادت الروابط المكانية بين كل جماعة وبين أرضها وبينها وبين جيرانها نتيجة لطول الاستقرار واتصال الجوار وتشابك المصالح .

ونمت سيطرة الناس على بيئتهم ومعرفةهم بها نتيجة لطول خبرتهم بها ، واتصال استقرارهم عليها، وازدياد أعدادهم فيها ، وازدياد حاجتهم إلى تنمية خيراتها، وازدياد إمكانياتهم المادية في استغلالها . وازدادت فرص التدين المحلى نتيجة لارتباط الجماعات ببيئات محدودة تمتاز كل بيئة منها بإيحاءاتها وخيالاتها ونوع مصادر الرهب ومصادر الطمأنينة فيها ، ونتيجة لازدياد الاستعداد للتفكير الجماعى والانفعال الجماعى بينهم عوضاً عن الحياة الفردية الخشنة القلقة القديمة، ونتيجة لسهولة تقليد الأفراد لعقائد بعضهم البعض داخل الجماعات ذات المصالح المتشابهة والخاوف والآمال المشتركة. وازدادت فرص التطلع إلى الحياة الأخرى ، بعد أن رضى الناس رضا نسبياً عن حياتهم الدنيا وطمعوا في استمرارها وعز عليهم فراق ذويهم فيها فراقاً لارجعة فيه ، وبعد أن نما أملهم في أربابهم وطمعوا في أن يرعوهم بعد الموت

كما رعوهم في دنياهم ، وبعد أن تعهدوا موتاهم بالحفظ عن قصد واعتادوا على التردد على مقابرهم إبقاء على صلاتهم بهم ، وبعد أن قلدوا بعضهم بعضاً في تزويد مقابرهم بأدوات العمل وأواني الطعام والشراب وأدوات الزينة ثم أملوا في أن يستفيد موتاهم منها بطريقة ما ، وبعد أن طالت ملاحظاتهم لعوامل التجدد والاستمرار في بيئتهم واتجهت آمالهم إلى القوى الخفية التي تجدد فيضان النيل وتجدد خصوبة الأرض وتجدد نمو النبات ، عساها تتولاهم بتجديد مماثل وحياة دائمة . وبعد أن لاحظوا أن رمال الصحراء الجافة تحفظ جثث موتاهم سليمة فترة طويلة ثم طمعوا من أربابهم أن يكفلوا لها هذه السلامة إلى أبد الأبدن .

لم تكن مواطن الاستقرار الزراعي الأولى أكثر من قرى متواضعة متفرقة على مناطق الحواف ، لا تدرى عن تصريف الأمور فيها إلا ما دلت عليه ظاهرة تنظيم بعض المساكن في مرمدة من انفعال أهلها بالوعي الجماعي واحتمال خضوعهم لسلطة في القرية استجبت التنظيم وأوصت تنفيذه . وما دلت عليه مساكن خلوان القديمة من اشتراك أهلها في تمهيد منطقة مساكنهم فوق ربوة يأمنون فيها على أنفسهم من أخطار السيول ويأمنون فيها من غارات جيرانهم . واحتفاظ أحد موتاهم بعصا خشبية قصيرة في يده ، يحتمل أنها كانت من شارات الحكام ، وأنها كانت تلف بكتان أو غيره وتزخرف بما يليق بمكانة صاحبها وتقوم مقام الصولجان في العصور التاريخية . وما دلت عليه مطاير الفيوم من اطمئنان أهلها إلى تجميع محاصيلهم في منطقة واحدة يتعاونون في حراستها أو يعهدون بحراستها إلى رؤسهم وأعوانه ثم ما دلت عليه مخازن غلال قرية المعادي من احتمال وجود سلطة في القرية أشرفت على تموينها وحمى محاصيلها .

ولم يكن من شأن القرى المصرية الأولى أن تستمر متفرقة عهداً طويلاً ، وإنما المرجح أنه شجعها على التقارب من بعضها البعض وانضمام بعضها إلى بعض ، عوامل المصالح المشتركة التي تفرضها البيئات الزراعية على أهلها ، وعوامل الرغبة في تبادل المواد الأولية التي تتوفر في منطقة دون أخرى ، فضلاً عن تبادل المصنوعات النامية التي تجود في قرية أكثر مما تجود في أخرى ، ومناسبات الزواج والمهارة في بيئة قلت فيها موانع الاتصالات ولم يظهر فيها ما يدل على الطبقة المانعة أو العصبية الغالية ، وعوامل الرغبة في التحالف والتكاتف لدرء خطر عدو قريب أو بعيد ، وعوامل الرغبة في بسط النفوذ التي تراود الجماعات القوية وتدفعها إلى ضم الجماعات القريبة منها تحت زعامتها ، ثم عوامل الاشتراك في تقديس مظهر إلهي معين يتضح أثره في منطقة واسعة تشترك في سكناها أكثر من جماعة واحدة .

وليس من نصوص ولا مناظر قديمة تصور نتائج العوامل السابقة في حياة أهلها واحدة فواحدة ، وكل ما يمكن تقديمه بشأنها هي مجموعة احتمالات منطقية توأم البيئة المصرية ولا تنبؤ عن ذكريات أهلها عنها حين بدأوا يسجلونها في أواخر فجر تاريخهم القديم بالنقش والصورة .

فمن الاحتمالات المقبولة لتفسير انتقال الجماعات المصرية القديمة من الحياة القروية إلى الحياة المدنية ، أنه ترتب على انضمام بعض القرى إلى بعض أن نشأ عدد من الأقاليم ذات الحدود الاعتبارية والحدود

الطبيعية ، وتبياً للفريق الأقوى في كل إقليم أن يجعل قريته الكبيرة حاضرة لإقليمه ما دامت تتوفر لها الحصانة الطبيعية والمقومات المادية والثروة العددية ، كما تبياً له أن يسود كلا من حاكمه ومعبوده على بقية الجماعات المشتركة معه في نطاق إقليمه ، وهكذا أصبح لكل إقليم عاصمته ، وأصبح له معبوده الأكبر ، وأصبح له رمزه الذى يقوم عند أهله مقام اللواء والعلم ، وقد يكون هذا الرمز ذا صلة بصورة المعبود الأكبر في إقليمه ، أو ذا صلة بخصائص بيئته إقليمه ، أو ذا صلة بالمهنة الغالبة في مجتمعه ، أو ذا صلة بالصفات التي يعتقدها أهله في أنفسهم . واستمرت ذكريات هذه الرموز باقية فيما احتفظت به العصور التاريخية من شعارات الأقاليم ومسمياتها القديمة .

وأضاف الجغرافيون عاملاً بيئياً كان له أثره في تحول المجتمع المصرى القديم من الحياة القروية إلى الحياة الإقليمية ، ورأوا فيه أن تفرق القرى المصرية الأولى على مناطق الحواف كان تفرقا اضطرارياً ارتبطت بزيادة طارئة في منسوب النيل خلال المراحل الأولى من العصر الحجري الحديث وزيادة طارئة في مساحات المناقع المنتشرة على ضفافه ، وكان السبب في هذه الزيادة هو ازدياد أمطار الحبشة من جهة وارتفاع مستوى البحر المتوسط وقلّة المنصرف من النيل إليه من جهة أخرى، ولهذا اضطر أصحاب القرى القديمة إلى الابتعاد بمواطن إقامتهم عن قلب السهل الفيضى إلى مناطق الحواف المرتفعة قليلة الاتصالات ، وظلوا كذلك حتى عاد الانخفاض إلى مستوى البحر ومستوى النيل وأمطار الحبشة ، وابتدأت المناقع تنصرف إلى النيل ، وحينذاك عاد السكان إلى السهل الفيضى وتجروا على سكناه ، واستقروا بجوار مجرى النيل في مواطن صغيرة متقاربة ، ثم اضطروا إزاء ازدياد أعدادهم وازدياد زوح أهل الهضاب إلى جانبي النهر، إلى الاندماج بعضهم مع بعض وتكوين وحدات إقليمية كبيرة^(١) .

ويغلب على الظن أنه تكرر بين الأقاليم ما حدث بين القرى ، فبعضها نموا حضارياً سلمياً ، أى باستصلاح أراض زراعية جديدة، وبالتوسع في الإنتاج والتبادل ، والتوسع في الاتصالات والمحالفات، ونما بعضها عن طريق القوة وبسط النفوذ على حساب غيره من جيرانه المستضعفين . ثم أدى هذا الطريق وذاك إلى نشأة بضعة أقاليم كبيرة قامت في زمنها مقام الممالك الصغيرة .

وليس من أساس سليم مقبول يمكن الاعتماد عليه في تقدير كثافة السكان خلال تكوين تلك الأقاليم والممالك، وكان من المفروض أن تتم أعداد المقابر بشيء ما عن تلك الكثافة مادامت المساكن زالت كلها ولم تبق منها باقية، لولا أن لاحظ Randall Maciver and A. Mace أنه ما من جبانة من جبانات مدن بخر التاريخ زادت أعداد مقابرها عن ٥٠٠ مقبرة على الرغم من طول أمد العصور الحضارية التي مرت بها ، وذلك مثل جبانة العمرة التي ترجع أقدم مقابرها إلى أائل عهد نقادة الثانية وترجع أحدثها إلى عصر الأسرة الأولى^(٢) ، ولم يكن من المقبول بطبيعة الحال أن تقتصر حالات الوناة في المدينة الواحدة

(١) S. HUZAYYIN, *Some New Light*, p. 256-257 ; The Place of Egypt, p. 323, 153, n. 2 ; BRUNTON & CATON,

The Badarin Civilisation, p. 48 ; CHILDE, *New Light on the Most Anc. East*, 1934, p. 94 f.

(٢) El-Amrah, p. 50-52.

على هذا العدد خلال قرون طويلة تتراوح بين قرنين أو ثلاثة فيما يعتقد ألكسندر شارف^(٣) ، وما هو أكثر من ذلك بكثير فيما يعتقد غيره^(٤) ، مع العلم بأن مقابر الأطفال والنساء تشغل فيها عادة نسبة عالية^(٥) .

وأجرى فلندرز پتري إحصاء آخرين المقابر ، لاحظ فيه أن منطقة تمتد نحو سبعة أميال في جبانات نقادة تضمنت نحو ١٢٠٠ مقبرة من مقابر بجر التاريخ (مع قلة ملحوظة في مقابر الفترات ٤٠ - ٥٠) ، و٨٥٠ مقبرة من مقابر العصور التاريخية التي امتدت حتى العصر الروماني (مع قلة ملحوظة في مقابر الأسرات ١٩ - ٣٠) ، ولما كانت مقابر العصور التاريخية قد شغلت أكثر من ثلاثة آلاف عام ، ولما كان أهل بجر التاريخ أقل عددا من أهل العصور التاريخية بطبيعة الحال ، اقترض پتري أن الألف والمائتي مقبرة من مقابر بجر التاريخ شغلت فترات طويلة جدا تصل في رأيه إلى خمسة آلاف عام^(٦) ، واكتفى بهذا الاستنتاج دون أن يستتج شيئا منها بخصوص كثافة السكان .

وذهب R. Weill إلى عكس رأى پتري ، فاقترض أن الألف والمائتي مقبرة من مقابر بجر التاريخ شغلت عهدا أقل من العهود التي شغلها الثمانمائة والخمسون مقبرة في العصور التاريخية ، حيث أصبح الدفن في جبانات هذه العصور الأخيرة امتيازًا يخلعه الملوك على المقربين إليهم من كبار موظفيهم دون غيرهم على حد قوله^(٧) .

وحاولت مرجريت مرى أن تحل المشكلة بطريقتها الجريئة المعتادة ، فاقترضت أن مقابر ما قبل الأسرات كانت لعلية القوم ورؤساء الصناع وحدهم ، وربما ظلت مراسيم الدفن امتيازًا خاصًا بهم ، وأن منابر الأطفال خصصت لأطفال السراة والحكام ، أما من دونهم من فقراء الزراع والعمال وأطفالهم فكأنوا يلقون في النيل فينهبهم السمك شأن الحيوانات النافقة حتى الآن ، على حد قولها^(٨) .

ويصعب الأخذ برأى مرى مع ما نعلمه من حرص المصريين على موتاهم أغنياء وفقراء ، ويمكن التعبير عن مشكلة المقابر بصورة أخرى ، وهي أن مقابر الفقراء كانت قليلة العمق قريبة من مستوى سطح الأرض وقريبة بالتالي من متناول وحوش الصحراء ، ولم تكن تحتوى على أمتعة ذات بال بحيث يبقى منها ما يدل على وجودها .

(٣) A. SCHARFF, Die Bedeutungslosigkeit des sogenannten ältesten Datums, in Hist. Zeit., 1940, 3 f, 30.

(٤) اعتبرها R. MACIVER نحو الف عام - وكذا كورت زيته وغيره .

(٥) بلغ عدد مقابر الأطفال في كل من العمرة وجرزة نحو خمس عدد مقابرها الكلية .

(٦) PETRIE, Preh. Egypt, p. 4-5.

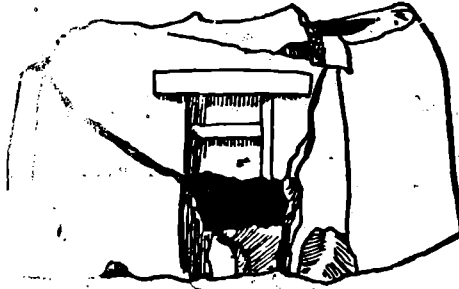
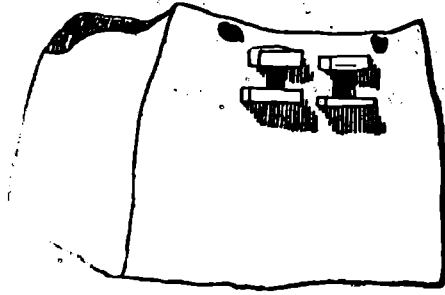
(٧) R. WEILL, "Ceux qui n'avaient pas de tombeau", dans R.H.R. CXVIII (1938), 26-28.

(٨) M. MURRY, in J.E.A., 1956, 86-87, 94.

ويمكن أن يفترض من ناحية أخرى أن أغلب الناس لم يكونوا يخرجون من إزالة المقابر القديمة في سبيل دفن موتاهم داخل منطقة الجبانة التي ورثوها عن أسلافهم وخلعوا عليها نصيباً من القداسة والاعتبار ، وكانت مقابر الأفراد العاديين هي الأكثر عرضة للإزالة بطبيعة الحال ، ولا زالت كذلك حتى الآن .

ويقفهم مما رواه الرحالة والمنقبون من القرن الماضي ، احتمال آخر بالنسبة إلى العصور التاريخية ، وهو احتمال وجود مدافن عامة للفقراء تتسع للمئات داخل سرايب عميقة (١) .

*
* *



شكل ٢٠ - نموذج لمنكن قنادى

مكتبة المصنفين الإسلاميين
مكتبة المصنفين الإسلاميين
مكتبة المصنفين الإسلاميين
مكتبة المصنفين الإسلاميين

(١) راجع مصادر هذا الرأي عند الفريد لو كاس : المرجع السابق ص ٤٤٩ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ .

ب - الفن في خدمة مراحل الوحدة

اعتاد المصريون على تصوير رسومهم بلون واحد على سطوح الفخار حتى أواسط عصر نقادة الثانية ، ثم خطوا خطوة جديدة عدلوا فيها وسائل الرسم ومسطحاته وموضوعاته ، وتجروا فيها على الرسم بألوان متعددة على جدران واسعة شيدوها من اللبن وكسوها بالملاط ، وبدأوا يعبرون على سطوحها عن أساطيرهم وأخبارهم وأفكارهم تعبيراً أكثر صراحة ووضوحاً من تعبير رسوم الفخار القديمة .

رسوم نخن :

واحتفظت قرية نخن المصرية (أوهيرا كونبوليس كما سماها الأغريق ، وهي قرية الكوم الأحمر الحالية شمالى إدفو بقليل) بناية صغيرة من اللبن تحت سطح الأرض ، اعتبرها كويل مقبرة رجل عظيم ، واعتبرها برنتون مسكناً أو مقصورة للعبادة^(١٠) . وكسا أصحاب هذه البناية جدارين على الأقل من جدرانها بطبقة من الملاط وصوروا عليهما مناظر قتال ومناظر صيد ومناظر أسطورية ومناظر ملاحية ، بألوان بيضاء وخضراء وحمراء وسمراء^(١١) ، ونجحوا في تصوير ملاح حيواناتها وحركاتها أكثر مما نجحوا في تصوير ملاح إنسانها وحركاته .

وتألفت مناظر القتال من مجموعات صغيرة متباعدة يتقاتل أفرادها بأسلحة عادية بسيطة ، كان الحديد فيها هو استخدام تروس مغطاة بجلد الفهد (؟) ، وارتداء بعض المقاتلين أردية من جلد الفهد أيضاً ، قد تعبر عن ملابسهم العادية أو تعبر عن دروع بدائية يتدرعون بها .

وأهم مجموعات القتال مجموعة صورت رجلاً بحجم كبير نسبياً ، يأخذ بقياد ثلاثة من الأسرى جثوا أمامه مقيدين صاغرين ، ويهم بأن يصرعهم بمقمعة القتال ، وأصبح هذا التصوير أصلاً فيما يرجح لما جرى عليه المصورون المصريون في عصورهم التاريخية من تصوير الفرعون بحجم يفوق أحجام المصورين حوله ، وتصويره يصرع بمقمعة أسيراً جاثياً يعبر عن جنس معين من الأعداء .

(١٠) J.E. QUIBELL, F.W. GREEN, Hierakonpolis II, p. 20-21, pl. LXVII; L. G. BRUNTON, in Studies presented to L. GRIFFITH, p. 272 f.

وتألف البناية من حجرة واحدة متسعة تنقسم الى جزئين بجدار فاصل نصفى منخفض ، وكانت فيما يرجح كويل مسقوفة بالخشب (أو جلود النخل) ، وكسيت أرضيتها بقوالب اللبن ، وسرنت محتوياتها قبل الكشف عنها بسنوات قليلة . ودعا كويل الى اعتبارها مقبرة وجودها في النهاية الجنوبية الشرقية من الجبانة وتشييدها داخل حفرة مستطيلة واسعة تحت الأرض .

Hierakonpolis, pl. LXXV-LXXIX; and see: H. SCHAEFER, Von g. Kunst, 158, 244; VANDIER, (١١) Manuel, I, 56 f.

محمد انور شكرى : رسوم وصور نقادة الاولى والثانية - ص ٢٧ - ٢٩

وصورت مناظر الصيد بيئة صحراوية وحيوانات سريعة من حيوانات الصحراء والحواف الزراعية ، كالغزلان والأسود والنعام والثيران الوحشية (٩) ، وأبدع فنانها في تصوير نحس ظباء علفت سيقانها بفخ كبير نصبه صائد ، وخلع روح الفن على صورته ، فرتب الظباء حول الفخ في دائرة كاملة وبعلمها تبدو كما لو كانت قد استسلمت لمصيرها وتمددت على جنوبها ، ولونها بألوان مختلفة ، وصور بعضها بثلاثة ألوان ، ولكنه لم يستطع أن يصور بيئة الصيد بصورتها الطبيعية الخالصة ، ودعته رغبة ملء الفراغ في لوحته إلى أن يصور بعض حيواناتها بين مجموعات من المراكب فبدت كأنها تعيش على سطح الماء وليس على سطح اليابس . وصور في المناظر نفسها إلى جانب الصيد بالفخاخ ، الصيد بالوهم ، والصيد بالسهم ، وصور الاستعانة بكلاب الصيد في مطاردة الغزلان .

وتضمنت المناظر الأسطورية مجموعتين ، مجموعة لبطل يواجه أسدين بمقمة حرب طويلة أو عصا ذات رأس كرية ، ومجموعة أخرى لبطل يحاول أن يفصل بين أسدين أو يحاول أن يصرعهما بيديه المجردتين . وليس من المستبعد أن تكون كل من المجموعتين ، والأخيرة منهما خاصة ، قد رمزت إلى نئين قويتين حاول أحد الزعماء الأبطال أن يفصل بينهما أو يخضعهما لسلطانه .

وتألفت مناظر الملاحاة من ست مراكب ، تساوى ارتفاع المقدمة والمؤخرة في نحس منها ، بينما ارتفعت مقدمة السادسة عن مؤخرتها ارتفاعا كبيرا .

واستغل الرسام تعدد الألوان للتعبير عن خصائص مراكب عصره ، من حيث تصوير تفاصيل القمرات والرموز وجريد النخل ومقعد الرابن . فصور لكل واحدة من الخمس الأولى قمرتين رئيسيتين وقررة أو قمرتين صغيرتين ملحقتين ، ورسم فوق إحدى القمرات مظلة مرتفعة ظهر تحتها شخص واقف وآخر نائم ، وأظهر المر الفاصل بين القمرتين الرئيسيتين مسقوفا مرة وغير مسقوف مرة أخرى ، ورسم المرساة الواصلة بين المروبين الشاطيء في وضوح . وأظهر في مؤخرة إحدى المراكب نوتيا يسبر عمق الماء بمدراة طويلة ، وصور فوق المراكب نفسها ولكن على مبعده قليلة من أرضية سطحها ، ثلاثة أشخاص يسطون أيديهم أفقيا في مستوى أكتافهم وكأنهم يلوحون بها ، وأدى تأكل الرسو إلى صعوبة تبين جنسهم ، فاعتبرهم Smith & Kantor ثلاث نادبات يندبن عزيزا نقل أهله جثته على المركب لدفنه ، واعتبرهم Vandier ثلاثة نوتية يؤدون حركات متفق عليها لتوجيه المركب في رحلتها (١٣) .

(١٢) see also L. KEIMER, in Bull. Inst. Eg. 1948 p. 117 f. وقارن كايمير بين فخ الصيد النقادى وبين الفخاخ التى على أقل تقدير (Corpus pl. XXV, 94) لا زال البشاريون والعبادة يستعملونها حتى الآن ، ويتكون كل منها من طارة مستديرة يجدلونها من الياف السنط ويعشقون فيها خوابير مديبة كبيرة تتلاقى أطرافها في مركز الدائرة ، ويضعون الطارة مسطحة فوق قاعدة مستديرة داخل حفرة كبيرة ، ويمقدونها بحبل طويل يربطون نهايته في وتد متين ثابت أو ساق شجرة حتى يموق الحيوانات من الفرار بالفخ بعد ان تعلق سيقانها فيه .

(١٣) SMITH, A History of Egyptian Sculpture and Painting, p. 124 ; KANTOR, in J.N.E.S. 1944, p. 117
J. VANDIER, Manuël I, p. 569.

وقد يركز الرأى الأول تصوير الأشخاص الثلاثة ، بلباس طويلة تمتد من أسفل الصدر إلى القدم (وغالبا ما تتميز النسوة بملابسهن الطويلة) ، وتصور أربع طباء مقيدة جائية على الشاطئ المواجه للمركب ، وكأنها الأضاحى المخصصة باسم المتوفى ، وإذا صح هذا التفسير امكن اعتبار الرجل الواقف تحت المظلة المرتفعة كاهنا من تلاميذ جثة المتوفى إلى مقره الأخير، ولا يضعف هذا الاحتمال إلا تصويره في حركة نشطة وكأنه يعدو ، مما لا يتفق مع ضيق القمرة التي صور على سطحها ويدعو إلى الحذر في تقرير صلته بها وعمله فيها .

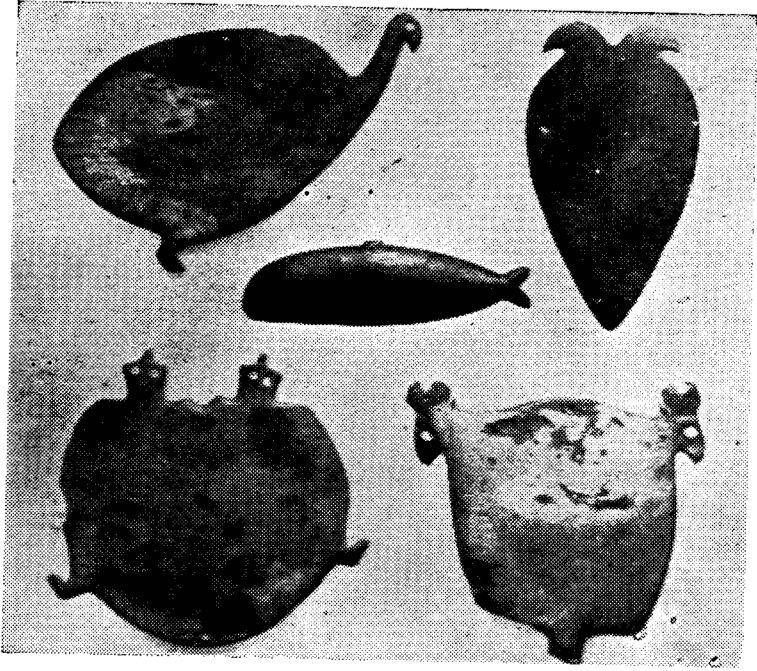
وأظهر الرسام لبعض مرآكبه صورة الدفة وحبل المرساة ووتدها ، وصور مقعدا صغيرا واضحاً لربان المركب تحت جريد النخل ، ولكنه تجاوز عن تصوير المجاذيف والخطوط الجانبية المائلة العديدة التي اعتاد قومه على أن يرسموها لمرآكبهم على سطوح الفخار ، على الرغم من ضخامة مرآكبه . وقد يرجع ذلك إلى رغبته في التوضيح بتصويرها عن قصد واستغلال أكبر مساحة من مسطح الرسم لتصوير مناظره المهمة الأخرى .

وأدى طراز المركب السادسة إلى كثير من الجدل ، وقد صورها الرسام بقدمه مرتفعة وصور لها دفتها في موضع وتد المرساة (الهلج) ورسم على سطحها مقصورة مقببة السقف من البوص والحصير يصل بينها وبين مقصورتين صغيرتين متجاورتين ممز مسقوف . وذهبت أغلب الآراء إلى اعتبار طرازها طرازاً دخيلاً يشبه طراز المراكب السومرية في عصورها التاريخية ويتعلق بغزاة أو مهاجرين من بلاد النهرين (راجع ص ١٨٩ ، ٢٦٢) .

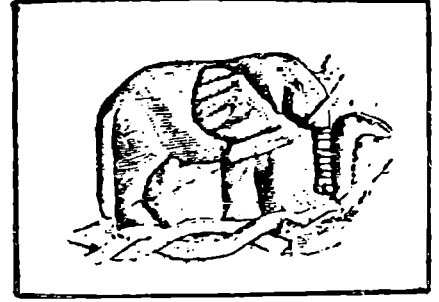
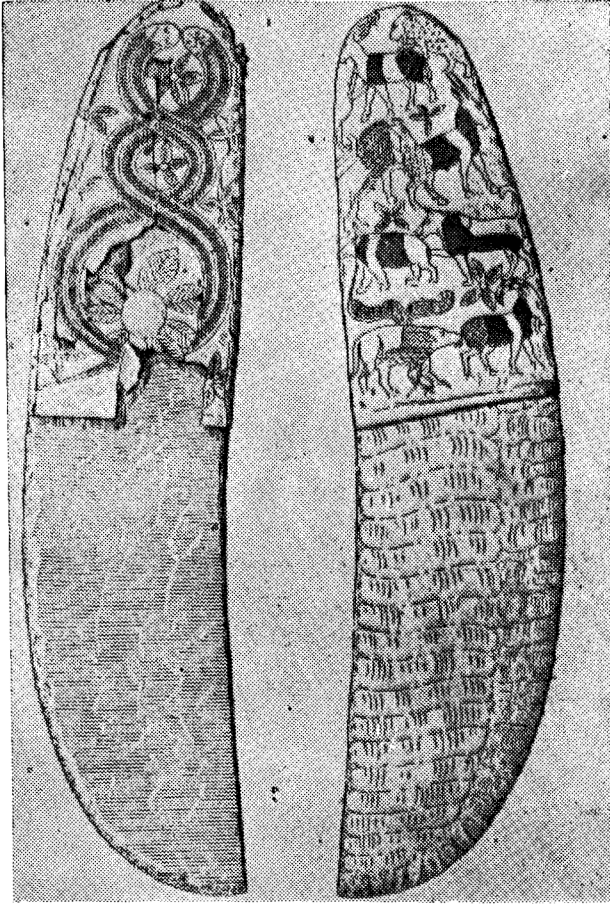
ولسنا نجد في غرابة هذا الطراز عن طراز مراكب الصعيد العادية في عصرها ، ولكنا نود الإشارة إلى ثلاث حقائق تتعلق بها ، وهي أن قمرتها أو (مقصورتها) مقببة السقف تشبه مقاصير بعض نماذج المراكب الصعيدية التي صنعها أصحابها من الصلصال ولم يصورها . وأن تصويرها بمفردها بين خمس مراكب مصرية ينبئ عن أصحابها صفة الغزاة الأغراب . وأن الحضارة السومرية لم تكن قد بدأت حينذاك في بلاد النهرين ، وإنما كان العراق لا يزال يعيش في حضارة الوركاء التي لا تدرى مدى صلاحية سفنها للبحار من العراق إلى مصر عن طريق الخليج الفارسي والمحيط الهندي ثم البحر الأحمر ... (١٤)

لون رسام نحن صور الرجال والنساء في لوحاته بلون أسمر يضرب إلى الحمرة وصور شعورهم بلون أسود يضرب إلى الزرقة ، وصور أغلب الرجال بشرط عريض معقود حول الوسط ليتبدل منه قراب العورة ، وصور بعضاً آخر من الرجال والنساء برداء أبيض طويل يصل من السرة حتى أسفل

(١٤) يرى كونتينو أن مصر حين بدأت عصورها التاريخية كانت العراق لانزال في مرحلة انتقال من حضارة الوركاء إلى حضارة جده نصر C. CONTENEAU, Manuel d'Archéologie Orientale, IV, 1947 على الرغم من أنه من القائلين بتأثير بلاد النهرين في الحضارة المصرية عن طريق الهجرة الجنسية على حد قوله ! 172 - 169 - see also Historie de l'Orient, 1936,



شكل ١٩ — صلايات تقادية مشكلة على هيات الطيور والأسماك والسلاحف (ص ١٧١)



شكل ٢١ — تفصيل دقيق لفيل يطلأ ثعبانا "نقش
على العاج من نقادة" (ص ١٧١)

شكل ٢٢ — سكين من الطران. لرقيق، ومقبض مزخرف مغشى برقائق الذهب (ص ١٧١)



شكل ٢٣ — جوانب من حياة القتال والملاحة و دنيا الصيد والأساطير على مقبض سكين جبل العركي (ص ١٨٧)

الساقين ، وصور بعض رجاله بلحي قصيرة مدببة وصور بعضاً آخر حليق اللحي ، وصور بعضهم بشعر قصير وصور بعضاً آخر بشعر طويل ، وحاول أن يتقن تصوير وجوه البعض منهم ، واكتفى بالخطوط العامة في تصوير وجوه بعض آخر . ولسنا ندرى للأسف إن كان قد عبر بهذا التنوع عن تنوع محلي في مجتمعه أم عبر به عن جنسين مختلفين في عصره .

ومن أكل صور الرجال الباقية صورتان كبيرتان لرجلين ، يحتمل أنهما كانا يسيران ضمن موكب من الشخصيات الكبيرة لم يبق منه غيرهما ، وقد صور كل منهما حليق الرأس ذا لحية قصيرة ، يثني ذراعه اليسرى ، ويمد ذراعه اليمنى إلى الأمام ويمسك بها عصا ووصولاً أو قوساً (بغير وتر) وسهما ، والترم الرسام في تصويرهما مبادئ الرسم التي ظهرت قبل عهده واستمرت بعد عهده ، من حيث تصوير العين والكفين والصدر من الأمام ، وتصوير الوسط من ثلاثة أرباعه ، وتصوير بقية الجسم والرأس من الجانب .

*
* *

سكين جبل العركي :

سابق فن النقش فن الرسم في خدمة أغراض قومه ، وتعدت نقوش مقابض السكاكين والخناجر ، تصوير صفوف الحيوانات إلى تصوير موضوعات أسطورية وتاريخية ، وأوضح ما يستشهد به في ذلك نقوش مقبض سكين وجدت في منطقة جبل العركي تجاه نبع حمادى فسميت اصطلاحاً باسمه ، وأرخت بالقبلة الستين من التوقيت المتتابع على وجه التقريب^(١٥) ، وصور فنانياً على أحد وجهي مقبضها معركة جرت على البر والماء بين فريق تميز أفرادها بشعورهم القصيرة واتخذوا الهيئة العامة للمصريين في صورهم على سطوح الفخار وغيرها ، وفريق آخر انسدلت جديلة من الشعر على جانب الرأس والصدغ لكل فرد من أفرادها ، وذلك مما قربهم إلى هيئة الليبيين التي صورهم المصريون عليها في عصورهم التاريخية . وظهر أفراد الفريقين بقراب يستر العورة ظهر به المصريون والليبيون أيضاً في بعض صورهم ، وتسليح أفراد الفريق الأول بالعصى والمقارع بينما ظهر أفراد الفريق الآخر عزلاً عداً واحداً منهم تسليح بسكين من الظران . وتقاتل الفريقان بالسلاح والأيدي ، ويبدو أن الغلبة كانت للمصورين على هيئة المصريين .

وصور الفنان في معركة الماء ثلاث مراكب على الطراز المصري المعتاد الذي صورت به مراكب عصره على سطوح الفخار^(١٦) ، وتعاقت هذه المراكب خلف بعضها ولكن أطرافها تداخلت مع بعضها ، وميز كلا منها برمز على هيئة رأس ثور فوق مقدمتها . ثم صور مركبين في صف مستقل على طراز آخر

(١٥) Louvre-E. 11517; G. BÉNÉDITE, in Mon. Piot. XXII, p. 1 f, pl. I; J.E.A. V, pl. XXXII.

J. VANDLER, op. cit., 533 f.; and for other references see: R. WEILL, Recherches..., 1961, II, p. 208 f.

وراجع محمد انور شكرى : النقوش على العاج في فجر تاريخ مصر القديم ص ٦ - ٩ .

(١٦) فيما خلا اختلافات تفصيلية ، مثل عدم تصوير المجاذيف (شأنتها في ذلك شأن مراكب نخن) ، وعدم تصوير الصواري ذوات الزهور وجريد النخيل ، وتصوير القبلة الرئيسية بسقف مائل مرتفع ، وتصوير قمرتين إضافيتين متجاورتين (١) إمامها .

مختلف ارتفعت فيه مقدمة المركب ومؤخرتها ارتفاعا كبيرا^(١٧)، وتشكل الطرف العلوي لمقدمة كل مركب منهما على هيئة هلال (؟) أو يد بشرية (؟) تمسك شيئا يضاوياً غير مخلق في كفيها^(١٨)، واستند على مؤخرة كل منهما صار مائل طويل ينتهي بشكل مستدير مقسوم بخط طولي في وسطه وقد يكون مدراة لتسيير المركب، وظهر داخل إحدى المركبين رمز مرتفع على هيئة الهلال فوق صار يستند على مقصورتها المركب الأمامية، وعصا قصيرة ذات طرف علوي على هيئة قرني البقرة على مبعده منه داخل المركب نفسها. ولا زالت هذه العناصر كلها غير واضحة المدلول ولا الاستعمال حتى الآن.

وعبر الفنان عن نتيجة المعركة بصور رجال غرقى صورهم في أوضاع مختلفة بين صفى المراكب.

ونقش الفنان على الوجه الثاني للمقبض موضوعات أخرى، بدأها في الصف العلوي بتصوير شيخ كبير ملتج يشبه هيئة الساميين والعراقيين القدماء، ويرتدى رداء كثيفا يمتد من وسطه حتى منتصف ساقه، ويلبس عمامة فوق رأسه^(١٩)، ويفصل يديه المجردتين بين أسدين ناهضين عظيمين أو يحاول إخضاعهما لسطوته، وصور تحته بيئة صيد كبيرة تضمنت حيوانات برية مثل اللبؤة والوعل والغزال والثور الوحشى وحيوانات أليفة مثل الكلب والليس^(٢٠)، وميز فيها صورة لبؤة وهي تهاجم مؤخرة الثور الوحشى من خلفه. ثم صور في نهاية المقبض كلب صيد مشدودا إلى مقود طويل كان يمسك بطرفه شخص ضاعت صورته في الجزء المفقود من مقبض السكين، وصور رجلا آخر يصيد وعل^(٢١) بالهوق.

هذا عن موضوعات مقبض السكين؛ أما دلالتها، فيغلب على الظن أن صاحبها أراد أن يعبرها عن أحداث قديمة وأفكار معينة، وإن ظلت هذه الأحداث والأفكار موضعا لتفسيرات شتى حتى الآن:

رأى أغلب الباحثين ومنهم بنديت وكوتينو ولا نجدون وفي وكيس، وضوح التأثير الآسيوى، والعراق خاصة، في أسلوب موضوعات مقبض السكين ودلالاتها، واستدلوا على ذلك بتصوير الشيخ ذى العمامة والرداء السميك، وفكرة الفصل بين الأسدين، ومهاجمة اللبؤة لفريستها من خلفها، وتصوير المركبين

(١٧) يختلف طراز المركبين من المركب الغربية المصورة في نحن، في انهما صورنا بنهائيتين مرتفعتين، وصورت هي بنهاية مرتفعة واحدة، ويختلف طرازهما كذلك من مراكب صورها أصحابها على سخود الصحراء الشرقية وسماها فنكلر مراكب غزاة الشرق، وهي مراكب ترتفع فيها المقدمة والمؤخرة ولكن الى ارتفاع قليل لا يتعدى نصف ارتفاع قامة الرجل. (WINKLER, Rock-Drawings, I, pl. XXII).

(١٨) اعتبر موريه الشيء غير المخلق الذى ظهر فوق مقدمة المركب زمنا للاقليم الثالث من اقاليم الدلتا (A. Moret, Le Nil... Paris, 1925, 124) واعتبره فى (op. cit. I, 334) سقرا يرمز الى المبود حور ووسط بينه وبين صورة لمركب من الوركاء ظهر فوقها طائر اعتبره زمنا لحور أيضا. غير أن تصويره لهيئة الصقر على المركب المصرية لا اساس له، كما أن طائر الوركاء يبدو كما لو كان مخلقا قرب مقدمة المركب وليس مستقرا فوقها على عادة الصقور المصرية.

(١٩) يذكر بنديت أن قديمه شكلا على هيئة مخالبا الطيور الجالحة (١٠)

(٢٠) يختلف نوع هذه الكلاب من كلاب المصور التاريخية النحيفة، وقد أحيطت رتبة واحد منها أو اثنين بطوق كحلية. ومن نوع هذه الكلاب 3. see VANDIER, op. cit. ; 535, and references n.3

الغريبتين عن الطراز المعتاد للراكب المصرية ، مع شيوع هذه العناصر كلها في الطراز العراقي خلال حضارات أوروك والوركاء وجمدة نصر وشومر^(٢١) ، ورأى باحثون آخرون ، ومنهم شارف ومورية تداخل العنصر الليبي في موضوعات النقوش ، واستدلوا على ذلك بصور المقاتلين أصحاب الجدايل ، وصور الحيوانات التي عاشت أمثالها في الصحراء الليبية سواء البرية منها أم الأليفة .

ونرى من ناحيتنا أن العنصر المصرى هو العنصر الغالب على نقوش المقبض من حيث الأسلوب ومن حيث الموضوع ، فأسلوب النقش فيها أسلوب مصرى صريح ، سواء في تصوير الإنسان أو تصوير الحيوان . والفريق المنتصر في معركة البر ومعركة المساء هو الفريق المصرى ، ولم يكن من المنتظر أن يصور نصر المصريين فنان غير مصرى . ورموز المركبين الغريبتين يمكن تقريبها إلى رموز مصرية مقدسة ، فالشكل البيضاوى غير الخلق الذى يظهر على صارية كل مركب من المركبين يمكن تقريبه إلى رمز المعبودين المصريين ”خنسو“ و ”دواو“ ، وهيئة الهلال والقمر التي تعلو الصاري المعتمد على مقصورة إحدى المركبين يمكن أن ترمز كذلك إلى المعبود خنسو ، الذى كانت له صلته بالقمر . ولكن إذا صح هذا التقريب هل يمكن أن نعتبر المركبين الغريبتين من مراكب السواحل المصرية الشمالية الغربية القريبة من الحدود الليبية ، والتي لم تبق من صورها باقية ، لاسيما وأن أحد الفريقين المتقاتلين على البر تغلب عليه الهيئة الليبية كما أسلفنا ؟ ذلك فرض محتمل ، وإن كنا لا نستطيع أن نصل به إلى مرحلة اليقين حتى الآن^(٢٢) .

وتتبقى صورة الشيخ ذى العمامة والحلقة والثوب الكثيف ، وهذه إذا صح أنها تشبه صور العراقيين أو الساميين الأوائل ، فلا بأس من أن نفترض أن الفنان المصرى استوحاها من أثر عراقي وصل إليه عن طريق التجارة غير المباشرة وقلدها على مقبض سكينه .

وشاعت فكرة الفصل بين الأشدين وطريقة مهاجمة الحيوان من الخلف في المناظر العراقية القديمة بالفعل أكثر مما شاعت في المناظر المصرية ، وذلك مما يوحي بنشأتهما في العراق أصلا وتقليد المصريين لهما ، ولكن يلاحظ إلى جانب ذلك أن الفكرتين لم يقتصر تصويرهما على هذا المقبض وحده وإنما تكررت أشباههما على آثار مصرية أخرى^(٢٣) . وأن مقابلة الأبطال المصريين للوحوش يدا بيد لم تقتصر على الأسود ، وإنما تعدتها إلى مصارعهم لأفراس النهر أيضا^(٢٤) وكانت هذه الأفراس حيوانات مصرية محلية . وأنه إذا ندر تصوير الفكرتين في عصور الأسرات المصرية ، فإنه يلاحظ أن

For references, see, A. SCHARFF, Die Fruhkulturen Ägyptens und Mesopotamiens, 1941; R. WEILL., (٢١) op. cit., 2e partie, 297 f.

(٢٢) يلاحظ أن السواحل الشمالية الغربية لم تخل من آثار تشبه آثار نقادة الثانية
See, O. BATES, "Archaic burials at Marsa Matruh", in Ancient Egypt, 1915, 158;
compare also, MOBET, op. cit.

NAQADA, pl. LI, 7; Hierakonpolis, I, XVI, 2; II, pl. LXXXV)LXXXVI; J.E.V., pl. XXXII; (٢٣)
Meir Thebian Tomb 93; SCHARFF, Fruhkulturen, 26-28.

PETRI, Royal Tombs, II, pl. VII, 6; L. BOCHARDT, Die Annalen..., 36, Abb. 6 (٢٤)

المصريين في عصورهم التاريخية صدفوا عامدين عن الاستمرار في بعض تراثهم الفنية القديمة بعد أن تبنوا أنها لا تتفق مع تحضرم المستمر^(٢٥) ، وقدم كيس وشكري عدة أمثلة لهذا الصدف ، ومنها أنهم لم يابوا تمثيل الأسود حتى عصر بداية الأسرات في حالة التوحش فاعرة أفواهما ، ولكنهم ما لبثوا حتى قللوا هذا التمثيل إلى حد كبير منذ عصر بداية الأسرات نفسه وآثروا تمثيلها رابضة هادئة دون أن يقلل هذوعها من مظاهر بأسها ، بعد أن لحظوا أن صور الوحشية لا تتفق مع تحضر بيئتهم التاريخية ولا تتفق مع حالة الطمأنينة التي يتوخونها لمحبي الفنون الذين اعتادوا على ترويد مقابهم بصور الحيوانات وتمثيلها^(٢٦) .

وأضاف R. Hamann تفسيراً طريفاً لموضوعات الوجه الثاني من المقبض ، فرآها تعبر عن سلسلة متصلة من عوالم الأرباب والحيوان والإنسان ، واعتبر الشيخ المتحنى لها للرعاة وحاميا لقطعانهم بعد أن استأنس الأسود الضارية وأخضعها لسلطانه ، واعتبر الكلاب المصورة تحته كلاب الأمانة على قطعانها ، واعتبر بقية المناظر تعبر عن بيئة الصحراء بما يعيش فيها من آكلات اللحوم وآكلات العشب وما يتداول فيها من خير وشر ، كما تعبر عن عالم الصيادين والرعاة بما يكتشفه من مآسب ومتاعب في سبيل تحصيل الرزق والقوت^(٢٧) .

ومضت نقوش الصلايات في تطورها وانتقلت من تصوير الرموز والأندكر الصغيرة إلى تصوير الأساطير والحوادث التاريخية بنقوش بارزة وغائرة تشغل وجهها كله أو وجهها كليهما ، واحتفظ أغلبها بالثورة المسدرة التي كان من المفروض أن يجمع منحوق الدهج فيها ، ولو أنه يصعب الظن بأنها ظلت تستخدم لسحق الدهج وغيره من الألوان فعلاً ، لا سيما إذا نشئت من وجهها ، وإنما يحتمل أنها أصبحت تحفظ في القصور والمعابد والمنابر الكبيرة باعتبارها لوحات تصويرية تذكارية تذكر الناس بمناسبةاتها وتشييد بفضل الأرباب والحكام ، أو أصبحت على أكثر تقدير تستخدم لصحن الألوان البسيطة الضرورية لزيينة تماثيل المعبودات في مناسبات الأعياد ، . . . ويطلق على هذه الصلايات عادة اسم الصلايات الفاخرة^(٢٨) ، ومن أهم ما يستشهد به منها حتى الآن ، دلايتان ترجعان إلى أواخر عصر نقادة الثانية ويطلق على إحداها اصطلاحاً اسم دلاية صيد الأسود وعلى الأخرى صلاية الأسد والعقبان .

(٢٥) انظر الكسندر شارف : تاريخ مصر منذ أقدم العصور - تعريب عبد المنعم أبو بكر - ص ٢٥

(٢٦) H. KEES, Das alte Ägypten, Berlin 1958, 7; ZAS., LXVII, 56 f. محمد انور شكري : انوريس قصة

الحضارة المصرية -- مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٤٧ ، ص ٢٦

(٢٧) R. HAMANN, Aeg. Kunst, 81 f. وعن أثر حياة الصيد القديمة في نصوص العصور التاريخية والقابها

واساطيرها ، راجع محمد انور شكري : المقال السابق ، و H. KEES, op. cit., 6-7.

(٢٨) see, BÉNÉDITE, in Mon. Piot. X. 17 f; J. VANDIER, op. cit. 1,599,

الكسندر شارف : المرجع السابق - ص ٢٥

محمد انور شكري : الصلايات - ص ٨

صلاة صيد الأسود :

اتخذت هذه الصلاة هيئة شبه بيضاوية تشبه هيئة القلب مع شيء من الاستطالة وصنعت من الشست وأرخت بما بعد المرحلة الستين من التوقيت المتتابع بقليل (٢٩) ، ونقذها فنائها من وجه واحد ، وصور عليها مجموعتين من الرجال انتظموا في صفين على حائتيها العريضتين وحملوا أساحة مختلفة عرف أسلافهم بعضها مثل الأقواس الشديدة من قرون التياتل والحراب ومنامع القتال والعصى المعقوفة وحبال الصيد ، وجددوا هم بعضها الآخر مثل البلط ذات الحدين والحراب ذات الرأسين ، والتروسن البيضاوية التي اتخذوها من ظهور السلاحف المائية (٣٠) ، وأظهر الفنان بين صفيهما ساحة صيد واسعة تفرقت فيها الوعول والنعام والأرانب البرية والأسود والثعالب وحيوانات أخرى صورها خياله ، ورضع عيون الرجال والحيوانات الكبيرة بمواد أخرى ضاعت معالمها .

نرج أحد رجال الصف الأيسر من صفى الصيادين للملاقاة أسد ضخيم بقوسه ومقمعة حربه ولكنه كاد يقع فريسة للأسد الهائج ، فسارع أقرب زملائه إليه وشرع قوسه وأطلق سهامه على الأسد فأصابه بسهمين في رأسه ، وشرع زملاؤه العشرة أسلحتهم استعدادا لنجده . وبدأ رجلان من الصف الأيمن بصيد الوعول بالوهق ، وصورهما الفنان في حركة نشطة ، يفرد أحدهما ساقيه فيها إلى أقصى اتساعهما ليلحق بفريسته قبل فرارها .

وفاقت الأهمية التاريخية والأسطورية لمناظر الصلاة أهميتها الفنية بكثير ، فقد ظهر من الفريتين ثلاثة رجال أو أربعة يحملون ألوية معبرة ، فرجع اثنان منهم لواءين تعلو كلاهما هيئة الصقر رمز المعبود حور ، وكان فيما يعتقد زيته ورائحة رمزا الأكبر أقاليم غرب الدلتا في فجر التاريخ ، ورفع واحد أو اثنان آخران رمزا يمثل حربا يتدلى منها شريط ويعترض جزأها العلوى عارض أفق ، وكان فيما يعتقد كورت زيته ورائحة أيضا رمزا الأكبر إقليم شرق الدلتا في العصر نفسه ، واستدل الباحثان من اجتماع الرمزين الكبيرين في صعيد واحد على اتحاد شرق الدلتا وغربها في مملكة واسعة خلال العهد الذي نقشت الصلاة فيه أو فيما قبله بقليل ، وأضاف رائحة أنه كان يحدث من حين إلى آخر خلال عهد هذه المملكة أن يخرج عطاء إقليمها الكبيرين في رحلة صيد تذكارية (٣١) ، وفسر سيجفريدشوت هذا الصيد تفسيراً خاصاً ، واعتبر نقوش الصلاة تسجيلاً لذكرى حادثة معينة عمل فيها

(٢٩) عثر على هذه الصلاة من ثلاث قطع ، انتقلت إحداها الى متحف اللوفر ، وانتقلت الأخرى الى المتحف البريطاني .
LEGGE, in P. S. B. A. XXI, pl. II, IX, BÉNÉDITE, op. cit., Fig. 5;
H. RANKE, "Lovenjaqd-Palette" in Sitzb. Heidel. Ak. Wiss., 1924-1925; VANLIER, op. cit. 584 f.

محمد أنور شكرى : المرجع السابق ص ١٠ - ١١

(٣٠) عن الأقواس والتروسن L. KEIMMER, in ZÄS., LXXII, 121 f., Bull. Inst. Eg. 1950, 76 f.

(٣١) أصبح الإقليم الغربي ثالث أقاليم الدلتا في تقسيمات العصور المتأخرة ، وأصبح الإقليم الشرقي هو الإقليم الرابع عشر في التقسيمات نفسها .

K. SETHE, in Nachr. Gott., 1922, 197 f.; Untersuch. V. 3, 32; H. RANKE, op. cit., 10 f.

رجال أحد الأقاليم على إبادة الوحوش التي كانت تهدد إقِيمهم ونحن أن يكون حاكمهم قد أمر بتخليد ذكرى هذه الحادثة على صلاية أو أكثر من صلاية ووهبها إلى معبد إله الأكبر (٣٢) ، وكان إلهها رمز إليه فإن الصلاية في أعلاها بهيئة فخل ذي رأسين ، رأس في مقدمته ورأس في مؤخرته ، وصور بجانبه معبدا بسيطا مقبى السقف على هيئة القبة ، شاده أصحابه من البوص وفروع الأشجار ودعموا أركانه بجدوع الأشجار ، واعتبره زيتة ، معبد مدينة به (أوبوتو كما سماها الأغرقيق وهي تل إبطوقرب دسوق الحالية) واعتبره أم لالمعبد الدلتا العظيم الذي ذكرته المصادر التاريخية باسم "برنو" ، وأضاف كإبار وزانته وفي أنه يمكن اعتبار هيئة الفحل ذي الرأسين علامة كتابية تصويرية (هيروغليفية) ذكرتها متون الأهرام باسم خنس Hns و بمعنى البوابة (ذات الدلفين) ، وأصبح هذا الاسم اسما لترعة معينة في غرب الدلتا (٣٣) ، وإذا صح هذا التخرج يمكن تعيين المعبد الذي تم الصيد بجواره ، أو أهديت الصلاية إلى معبوده ، "بمعبد برنو الدائم لدى (ترعة) خسر" وعين رانته وفي هذا الموضوع بكوم الحصن الحالي (٣٤) ، ولكن لازال أمره موضع جدل حتى الآن (٣٥) .

ظهر كل رجل من الرجال المصورين على وجه الصلاية بشعر مستعار ولحية مستعارة ونقبة نصفية نططت أو فصلت بما يشبه خطوط سعف النخل ، وتدل خلف ظهره ذيل أو ابن آوى ، وظلت هذه المظاهر الأربعة من الأمور التقليدية المستحبة التي اعتاد الحكم المصريون أن يظهروا بها في محافلهم الرسمية والدينية خلال عصورهم التاريخية وإن استعاضوا عن ذيل ابن آوى بذيل الثور أحيانا .

ووضع كل رجل من رجال الصلاية ريشة أوزيشتين فوق رأسه ، باعتباره من رجال الحرب ، وظلت هذه الريشة بدورها مما يميزه عن الجنود في العلامات الهيروغليفية خلال العصور التاريخية (٣٦) ، وكل ذلك مما يعني امتداد الصلة واستمرار العادات بين الحكام الذين نقشت الصلاية في عهدهم والحكم الذين قام عصر الأسرات على أكتافهم في أواخر الألف الرابع ق. م .

(٣٢) S. SCHOTT, Hieroglyphen, Weisbaden 1951, 18.

(٣٣) Pyr. 416, 1266; J. CAPART, in P.S.B.A, XXII, 141; DABESSY, in Ann. S. IV, 284 f.

H. RANKE, op. cit., 12,1; H. GAUTHIER, Dict. géog. IV, 177-178.

(٣٤) H. RANKE, op. cit.; R. WEILL, op. cit. I, 177 f.

(٣٥) رأى شارف وفاندييه انه اذا صح أن صورة الثور نت رمزا كتابيا فعلا ، وجب رد الصلاية الى زمن متأخر قبيل عصر الأسرات وهو العصر الذي ظهرت فيه تباشير الكتابة ، وأمكن أن يكون في ذلك ما يرجع بداية ظهور الكتابة في الدلتا قبل الصعيد ، ما دامت الصلاية تسجل أحداثا في الدلتا .

POSENER و اعترض SCHARFF, in Sitz. d. bayerischen Ak., 1942, 3, 65; VANDIER, op. cit., 579

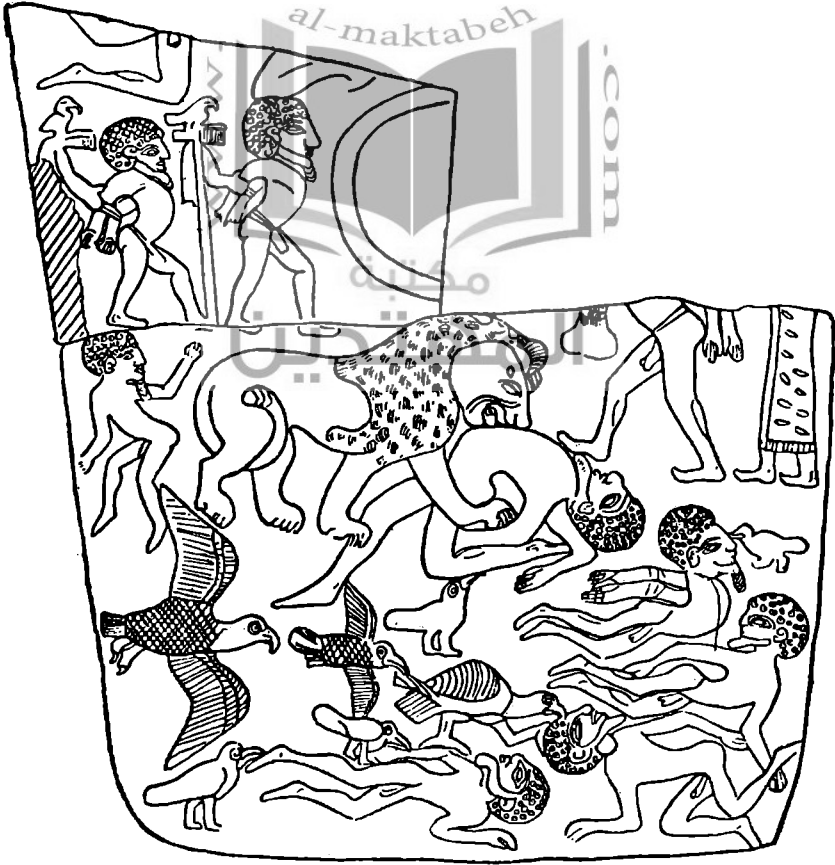
على اعتبار صورة الفحل علامة كتابية واعتبرها صورة لتمثال العبود في معبده صورها الفنان المصري خارجه على الرغم من وجود التماثيل داخله - ونسب كايا و فرانكفورت المعبد الى « الكرو » أحد الأرباب الذين احتفظت متون الأهرام بذكرهم (CAPART, op. cit., FRANKFORT, Birth of Civilization, p. 106.)

(٣٦) لحظ كل من HEWZEY, MASPERO AND GARDINER تصوير الإمراء الليبيين في المناظر المصرية التاريخية ببعض هذه المظاهر ، لا سيما الدق المستعارة والريشة ، وتسايل جاردرنهما اذا دل ذلك على أن ملك الدلتا فيما قبل الأسرات كانا ذوى صلة بليبيا ، أم أن الإمراء الليبيين هم الذين قلدها الحكام المصريين في مظاهر الرياسة التي تخيروها لأنفسهم .

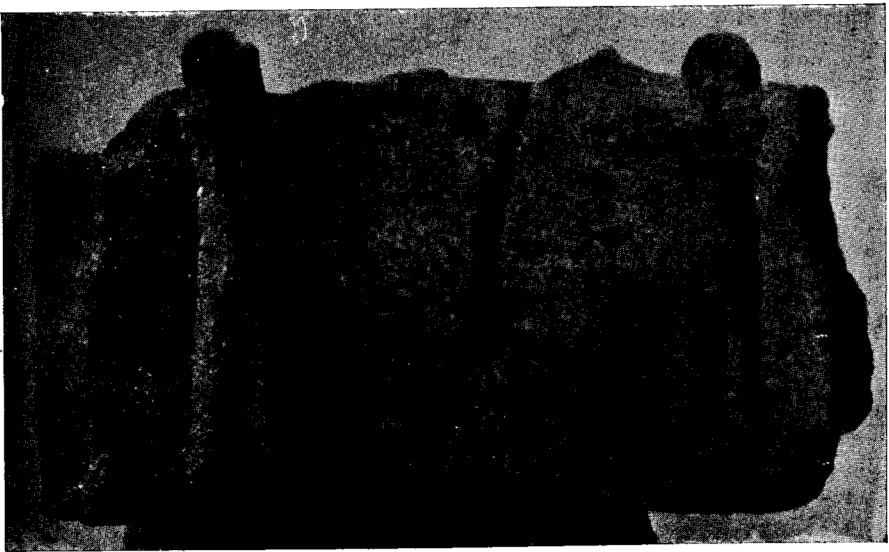
See, AH. GARDINER, Egypt of the Pharaohs, p. 394-95.



شكل ٢٤ — منقحات جيشة بالحركة على صلابة صيد الأسود (ص ١٩١)



شكل ٢٥ — أسد فاتك يرمن إلى حاكم مصرى على صلاية الأسد والعقبان (ص ١٩٣)



شكل ٢٦ — جدار حصن يجرسه رجلان (؟)

صلاة الأسد والعقبان :

نقشت هذه الصلاة من وجبها وظهرها ، ونقدت جانباً من جزئها الأعلى وبقى جزؤها الأسفل من قطعتين ، نقلت إحداها إلى المتحف البريطاني ، وانتقلت الأخرى إلى متحف أشموليان بأركسفورد (٣٧) . واختلفت مناظر كل من الوجه والظهر في مواضعها ، فصور أحدهما ختام معركة عنيفة ، وصور الآخر وحدة زحرانية خالصة ، وذلك مما يعنى أن الصلوات استمرت تؤدي لأصحابها أكثر من غرض واحد .

توسط وجه الصلاة ، أو بمعنى أصح توسط ساحة القتال على وجه الصلاة أسد ضخم غضوب يمزق صدر عدو عار يتلوى جسده على الأرض في قسوة بالغة ، وتوزعت حول الأسد وفريسته بقية مفردات المعركة ، فظهرت أمامه شخصية ذات مقام لم يبق منها غير نصفها الأسفل وردائها المرقش الطويل ، وقد تمثل معبودة مصرية كما يظن زيته أو أميراً ليبيا كما يظن فاندنيه أو المعبود إيخنة (أونوريس) كما يظن شوت (٣٨) ، وقد دفعت أمامها أسيراً عارياً إلا من جراب العورة وثنت ذراعيه خلف ظهره ، وبقى أمامه ، أى أمام الأسير جزء من علامة كتابية تصويرية كانت تعبر عن اسم بلده ، واقترح زيته قراءتها سثيو Stjw بمعنى آسيا ، أو تاستى Stjw بمعنى النوبة ، واقترح فاندنيه قراءتها تاحيت Stjw بمعنى أرض الدلتا (٣٩) ، ولو أنه ليس في هذه القراءات للأسف قراءة تفضل الأخرى (راجع ص ١٩٤) .

وظهر فوق الأسد من اليسار لواءان للمعبودين حور وتحوتى (أو جبعوتى) ، اعتلتهما صورة الصقر وصورة أبى منجل (؟) على التوالي ، وامتدت من كل منهما يدان بشريتان كجلتا أسيراً ذا لحية كثة وشعر مفلقل وضغطتا على ذراعيه حتى برز صدره إلى الأمام من فرط ألمه .

وترامى بجانب الأسد ومن تحته أفراد آخرون من نفس جنس الأعداء ، عراة بذقون طويلة وشعور مفلقلة ، وظهر منهم من تلوى جسده على الأرض وكأنه لا يزال يعاني سكرات الموت ، وظهر منهم من أسلم الروح وتمدد على الأرض جثة هامدة ، وانقضت على جثثهم جميعاً أسراب من كبار الجوارح وصغارها ، عبر الفنان عنها بعدد من العقبان وعدد من الغربان ، فأخذت تنهش أيديهم وأرجلهم وتفقا عيونهم وتنقر رؤوسهم . . .

LEGGE, op. cit., pl. VI ; BÉNÉDITE, op. cit., Fig 8-10 ; E. Peet, in J.E.A. II, 93, f. ; COTTEVIELLE- (٣٧)
GIRANDET, in B.I.F.A.O. 1933, pl. XIII ; VANDIER, op. cit. 584 f.

محمد انور شكرى : المرجع السابق ص ١٤ - ٢٠

SETHE, in ZÄS L11,59 ; VANDIER, op. cit., 586 ; SCHOTT, op. cit., 18Nr. 2. (٣٨)

SETHE, op. cit., VANDIER, op. cit. 587 (٣٩)

وهكذا جعل الفنان مصير الأعداء قسمة بين الأسد والمعبودين حور وتحتوت (أو جبعوتى) ، وبين العقبان والغربان ، فضلا عن الشخصية ذات الرداء الطويل ، لولا أن هؤلاء جميعهم لا يكاد نصيبهم يساوى نصيب الأسد في شدته وفي فكه بعدوه وفي ضخامة صورته بالنسبة إلى ما أحاط بها من بقية الصور ، وكان يرمز فيما يرجح إلى أمير أو ملك لاسميا وقد ظل المصريون طوال عصورهم التاريخية يصفون ملوكهم بالأسود و يصورونهم ويمثلونهم على هيئة الأسود (٤٠) .

جمع فنان الصلاة مفردات مناظره في وحدة تصويرية واحدة توسطها الأسد وفريسته ، دون أن يفصل بين جزء منها وآخر بفواصل أو خطوط ، على الرغم من أنه احتفظ لكل شكل فيها بفرديته واضحة ، واحتفظ لكل مجموعة صغيرة فيها بدلالاتها واضحة ، ونجح في التعبير عن قسوة الأسد في ملامح وجهه ، وعن ألم المنهزمين في توى أجسادهم ، وعبر عن فكرته في زعيم قومه أو ملك قومه أروع تعبير . وجعل صورته رسوما مقروءة تفهم العين مدلولها بأقل مجهود ، ولكنه لم يلتزم بالواقعية الخالصة في التعبير عن جنس ما يمثله ، فند صور الأعداء عراة بشعور مقلقة تترهبهم من النوبيين ، ولكنه ترك ملاحظهم وذقونهم قريبة من ملامح الليبيين وأبعد ما تكون عن النوبيين ، ولهذا تعددت الآراء في تعيين جنسهم وتعيين مكان المنتصرين عليهم من المصريين ، وأثر هذه الآراء قبولاً حتى الآن هو أن المنتصرين كانوا من إقليمين متحالفين عبد فيهما الإلهان حور وتحتوت (أو جبعوتى) في غرب الدلتا وحواف الصحراء الليبية ، وأن المنهزمين كانوا من أهل الحواف الشرقية للدلتا أو الصحراء الشرقية (٤١) ، وذلك في عهد تعرضت فيه وحدة الدلتا للتفكك بعد التناهم شملها في العهد الذي صورت فيه صلاة صيد الأسود السابقة .

وخصص فنان الصلاة وجهها الثانى لوحدة زخرفية كبيرة ألفت فيها بين النبات والحوان والطيور . فصور زرافتين تتناولان برأسيهما لتأكلا من سعف نخلة باسقة ، وجعل النخلة تتوسطهما لتكون محورا للوحة ، وأجاد التعبير عن رأس الظرافة وجسمها وسيقانها وظلفها في حيوية وواقعية لطيفة ، وأجاد تمثيل تقاسيم جذع النخلة ونورها ، ولكنه تصرف في تمثيل سعفها فوزعه على جانبيها في خطوط منحنية متماثلة ، وصور إلى يمين قمتها طائرا سمينا لم يلتزم بتصوير تفاصيل نوعه ، وتركه في حالة سكون كأنه واقف في الفضاء ، ويبدو أنه لم يقصد بتصويره إلا ملء الفراغ على بين النخلة ، كما يغلب أنه صور طائرا آخر على يسارها ليكفل التماثل كاملا في لوحته (٤٢) .

*
* *

(٤٠) راجع حاشية ٢٦

(٤١) SERHE, op. cit. ; SCHOTT, op. cit., 23 Anm. 3 ; JEQUIER, Considérations..., 142 f. ; VANDIER, op. cit., 587.

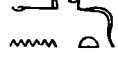
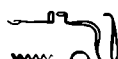
(٤٢) شاع أسلوب هذه الزخارف الشجرية والحيوانية في فن بلاد النهرين ، وأوحى ذلك باحتمال استيحاء الفنان المصرى لنموذج عراقى ، ولكن P. GILBERT دفع هذا الاحتمال بملاحظة أن الزراف الذى استحب المصريون تصويره على صلاباتهم حيوان افريقي غير اسبوى (Chr. d'Egypte, 1947, 37 f.)

ج - ممالك فجر التاريخ

حاول كل من كورت زيته وألكسندر موريه وإدوارد ماير وجميس هنرى برستد إكمال المراحل المحتملة لتطور الحياة الاجتماعية والسياسية المحتملة لتطور الحياة الاجتماعية والسياسية في فجر التاريخ ، بافتراض نحو تسع مراحل أنضت في نهاية أمرها إلى توحيد مصر في مملكة مستقرة (احدة (٤٣) .

واستعانوا في تصوير هذه المراحل بما دلت عليه نقوش الصلايات ومقارع القتال ، وما دلت عليه رموز الأقاليم المصرية وشعاراتها ، وما تضمنته القصص والأساطير الدينية والأدبية في عصورها التاريخية، وما تضمنته متون الأهرام من تلميحات بعيدة وعقائد عتيقة وأسماء زالت مسمياتها قبل تدوين أخبارها بآماد طويلة ، ثم ما جاءت به قوائم الملوك التي حاول كنية العصور التاريخية أن يسجلوا فيها تاريخ حكمهم القدماء بأسلوبهم الخاص، وما دلت عليه الألقاب التقليدية التي توارثها الملوك المصريون منذ بداية عصورهم التاريخية . وناقش فيما يلي قرائن هذه المراحل مع بعض الإضافة والتعديل :

بدأت أقاليم الوجه البحرى فضجها السياسى منذ تجمع أغلبها في مملكتين محليتين خلال مرحلة قديمة من مراحل ما قبل الأسرات :

مملكة في شرق الدلتا قامت في إقليم عنجحة  واتخذت عاصمتها في مدينة سميت بنفس اسم إقليمها ، قرب سمندو الحالية ، وجملت لواءها على هيئة الحربة ، وقدمت معبودها الأكبر عنجتي  الذى صورته متون الأهرام بصورة بشرية وميزته بريشتين فوق رأسه ومذبة أصبحت تعبر عن الصولحان وعصا معقوفة الطرف تشبه عصا الرعاة أصبحت بدورها رمزا للحكم والسلطان (٤٤) ، ووصفته بأنه سيد إقليمه وأنه على رأس الإقليم الشرقى أو أقاليم الشرق (٤٥) . ويحتمل أن هذه المملكة امتدت جنوبا حتى عين شمس الحالية (٤٦) .

see especially : K. SETHE, Beiträge zur Alttesten Geschichte Agyptens, Untersuchungen III, Leipzig (٤٣) 1905; Nachrichten der Kgl. Gesell. der Wis. zu Göttingen, 1922 197-252; Urgeschichte und älteste Religion der Aegypten, Leipzig 1930; ED. MEYER, Geschichte des Altertümer; A. MORET, Des clans aux empires, Paris 1923; Le Nil et la Civilisation égyptienne, Paris 1926.; J. H. BRAESTED, in B.I.F.O.A. XXX, 709 f.

A. MORET, Le Nile..., p.91, and see A. ABUBAKE, Untersuchungen über die ägyptischen Kronen, (٤٤) 1937, 38.

Pyt. 182, 183a, 220c, 1833d. and see SETHE, Urgeschichte, § 22, 79, 80; KEES, GÖTTERGLAUBE, 110 f. (٤٥)

ومملكة أخرى في غرب الدلتا ، اتخذت عاصمتها فيما يعتقد زياته في مدينة قامت على أطلالها مدينة دمنهور الحالية ، وقدست ربها الأكبر حور ورمزت إليه بهيئة الصقر ورنعت صورته فوق ألويتها ، ويحتمل أنها امتدت جنوبا حتى أوسيم الحالية (٤٦)* .

ولا يزال رأى زياته مقبولا في جنته ، لولا أن اعتقاده باعتبار مدينة دمنهور موطننا أصيلا للعبود حور على أساس تضمين اسمه في اسمها حتى الآن (دمى ن حور = دمنهور = مدينة حور) وعلى أساس الاستمرار على تصوير رمزه على ألوية الإقليم المحيط بها (وهو الإقليم الثالث من أقاليم الدلتا في العصور التاريخية) ، عارضه فيه كل من ألان جاردنر وهرمان كيس ، فأكد جاردنر أن موطن عبادة حور كان في مدينة سماجدة التي قامت على أطلالها قرية بلامون الحالية (٤٧) ، بينما أكد كيس أن أقدم موطن لحور كان في الصعيد ، في نخن أو أدفو أو قوص ، وليس في الدلتا على حد قوله (٤٨) ، ولم يخل هذان الرأيان بدورهما من آراء أخرى تعارضهما (٤٩) .

وتمت الخطوة السياسية الثانية فيما يرجح حتى الآن باتحاد مملكتي الدلتا في مملكة واحدة اتخذت حكماها عاصمتهم في مدينة ساو* (التي كتب اسمها في القبطية ساو) وكتبه الإغريق سايس ، ثم قامت على أطلالها قرية صا الحجر الحالية في غرب الدلتا . واعتبر أولئك الحكام المعبودة نيت أو "نت" حامية لهم ، وهي معبودة رمز أصحابها إليها بسممين متقاطعين حيناً وقوسين متشابكين حيناً وجعبة سهام حيناً آخر باعتبارها من رعاة الحرب والبأس ، ثم خلعت نصوص الدولة القديمة عليها لقب المرعبة . واتخذت حكام المملكة الجديدة صورة هيئة النحلة "بيت" شعارا لدولتهم سواء بصورتها أو بلفظها ، وتتوجوا بتاج أحمر

زكت هذه الخطوة قرائن عدة ، ومنها تجسيم هيئة التاج الأحمر على الآنية التي وجدت في الصعيد في أواخر عهد نقادة الأولى . واعتراف العصور التاريخية بصلته هذا التاج بمدينة ساو ومعبودتها نيت (٥٠) . وشدة اهتمام نصوص أوائل العصور التاريخية ومتون الأهرام بهذه المعبودة التي اعتبرها

(٤٦)* see, R. WEILL, Recherches, I, 321.



(٤٧) A. H. GARDINER, in J.E.A., XXX, 4 f, 23 f.

(٤٨) H. KEES, op. cit., 194 f, 197 f.

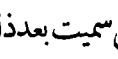
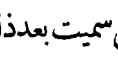
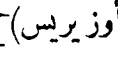
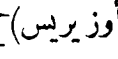
(٤٩) J. CERNY, Ancient Egyptian Religion, London 1957, 32.

(٥٠) KEES, Götterglaube, 178, 211 ; ABUBAKE, op. cit. 56 f.

الكهان واهل البلاط من رعاة العرش وأموات الأرباب ومرضعات الملوك^(٥١) . واعتبار أهل الدولة القديمة مدينة ساو من مدن الحج المقدسة. وتلقب كل ملك مصري بلقب "ببتي" أى المنسوب إلى النحلة "بيت" (فضلا عن ألقاب أخرى راجع ص ٢٠٩) ، ووجود دار بمدينة ساو سميتها النصوص "دار النحلة" على حد ترجمة زيته "ودار الملك" على حد ترجمة كيس^(٥٢) . وكل ذلك بالإضافة إلى ما دلت عليه صلاية صيد الأسود من اجتماع أصحاب لواء الصقر (رمز غرب الدلتا) ، ولواء الحربة (رمز شرق الدلتا) في صعيد واحد ، ولو أن صورة النحلة لم تظهر ضمن رموزهم، ولم يصور معهم معبد نيت في ساو، وإنما صور معهم معبد مدينة أخرى قد تكون مدينة به (ص ١٩٢) ، وهذان اختلافان قد يرجعان إلى أن عهد نقش الصلاية كان متأخرا عن عهد قيام المملكة، وأن نقوشها كانت مجرد تخليد لذكرى قديمة خلط الناقد فيها بين معبد المملكة القديمة ومعبد المملكة التي عاش في ظلها (انظر ص ٢٨٩) .

وقامت الخطوة الثالثة في الصعيد معاصرة للخطوة الثانية في الدلتا ، فاجتمع شمل أكبر أقاليم الصعيد تحت زعامة مدينة نوبت (أو نبت) وهن طوخ الحالية في مديرية قنا ، واعترف الصعيد بزعامة ربها ست (أو ستخ أو ستش)  CHT الذى رمز إليه أصحابه بجميوان خرافي  . واعتبروه من أرباب السماء والأمطار ووصفوه بأنه يهز الأرض هذا ويرسل العواصف وله صريح في السماء كأنه الرعد^(٥٤) . وازدهرت حضارة نقادة الأولى في ظل مملكة نوبت الناهضة ودل على عمرانها النسبي ورخائها النسبي كثرة مقابرها (التي تدل بالتالى على كثرة أهلها) ، ورقى أذواق الأدوات التي وجدت فيها .

واتصت سباب التبادل التجارى بين المملكتين ، مملكة الصعيد ومملكة الدلتا ودل عليها وجود أدوات تجمع بين خصائص حضارتيهما في نقادة .

وحدث لأمر ما أن انتقلت عاصمة الوجه البحرى من غرب الدلتا إلى شرقها أى من مدينة ساو إلى مدينة عنجبة القديمة التي سميت بعد ذلك باسم جدو  -  -  ، واعترف حكامها بزعامة أوزير (أوزيريس)  -  الذى خلعوا عليه ألقاب عنجتي وبعض صفاته ، ثم قدسوه عوضا عنه في مدينته (وترتب على ذلك أن نسب أهل العصور التاريخية المدينة إلى أوزير وسموها

Pyr. 606, 1375 ; PETRIE, R.T,II, pl, X, V, 11 ; ERMAN, Religion, 33, 77 (٥١)

SETHE, Urgeschichte, § 81 ; KEES, Götterglaube, 178 (٥٢)

ZÄS, XLVI, 90, L, 84, LXI, 18 ; P.S.B.A, XXVIII, 123 ; SETHE, op. oit., § 86 f.; AYRTON, Mahasna, (٥٣)

Pyr. 203 b, 204, 370 b وعنه زعامته للصعيد وعلو مكانته pl. XII, 2, XVII, 2 ; VANDIER, Religion, 27

وعن انتشار عبادته في أربع مدن أو خمس بالصعيد والواحات فضلا عن مدينته الرئيسية نوبت see, GARDINER, Onomastica, II, 31, 110 — 111, 116)

Pyr. 581, 1855, 308, 1150 ; Pap. Sall. IV, 13, 5 ; Book of the Dead, XXXIX, 14 — 15 ; Rhind Math. (٥٤)

Pap., No. 87b.

برأوزير ، وكتبوها في نصوصهم القبطية *Boortipi* ثم حوّر الإغريق هذا الاسم الأخير إلى بوزيريس ، وقامت على أطلالها واحتفظت باسمها بلدة أبوصير بنا الحالية) .

وحاول من أسلفناهم من الباحثين أن يفسروا الخطوة السياسية الرابعة ، أي خطوة انتقال عاصمة الوجه البحرى من غرب الدلتا إلى شرقها فافترضوا قيام نوع من التنافس بين مملكتى الصعيد والدلتا ، وافترضوا أن هذا التنافس تطور إلى نزاع حربى ، وأن الحرب انتهت بغلبة الوجه البحرى على الصعيد ، وأن حكام الدلتا اتجهوا إلى الانتقال بعاصمتهم بعد النصر إلى شرق الدلتا وتحت زعامة أوزير وسلطانة .

والواقع أنه ليس من أدلة مؤكدة على صحة هذه الخطوة الرابعة ، وليس لها فيما يبدو غير عدة قرائن نظرية وأسطورية ، وهى ما ذكرته القصة الأوزيرية الشهيرة فى عصورها التاريخية من أن أوزير كان أول من ولى عرش مصر من البشر المؤطرين ، وتصويره فى صورته وتماثيله التاريخية على هيئة ملك متوج بتاج مزدوج يجمع بين تاج الصعيد وبين الريشتين اللين ورثهما من عنجتي رب مدينة عنجة ، ثم ما يراه زيتة من أن اسم أوزير يمكن ترجمته كرسى العين أو مقلة العين ، وهى ترجمة تجعله قريبا من أسماء البشر دون أسماء الآلهة وتدعو إلى الظن بأنه كان زعيما بشرا قبل أن يكون إلها معبودا (٥٥) ، وما أكدته الأساطير ونصوص الدين من الربط بين طائفة من أرباب الدلتا ورباتها بأوزير وقصته ، ومنهم إيسة ونبت حت (أى إيزيس ونفتيس وحورس بتسمياتهم الشائعة) وحور وإنبو و وپاوت ، وهور بط ينم عن قيام نوع من التقارب السياسى بين مواطن عبادتهم وبين جدومدينة أوزير فى عهد توفر لها فيه من السلطان السياسى مادفع غيرها إلى التودد إليها والارتباط بها . وأدى هذا التقارب السياسى إلى عقد الصلات بين رها وأرباب المدن المتصلة بها ، لاسميا صلة الأخوة والزواج بين أوزير وبين إيسة التى يعتقد كورت زيتة أن اسمها مشتق من اسم أوزير وأنه يدل على معنى المقر أو العرش ، وكانت تعبد بمدينة رحبت التى قامت على أطلالها واحتفظت باسمها بلدة بهيت (الحجر) الحالية ، وأطلقت متون الأهرام عليها اسم ثرة بمعنى الإلهية أو المقدسة (٥٧) .

وثمة اعتراضان قدمها بعض الباحثين على هذه القرائن ، وهما أن وصف أوزير بصفات الملك لم يظهر فى غير الأساطير المتأخرة دون القصص المبكرة ، وأن متون الأهرام اكتفت باعتباره ملكا على الموتى ولم تهتم كثيرا بقصة اعتلائه عرش الأحياء (٥٧) .

cf. SETHE, Urg. § 79, 102, 103 ; Heroes and Hero-Gods (in Hastings Encycl.) 648 ; H. KEES, Götter, (٥٥)

256 f. ; see also MORET, op. cit., 99-100 ; CERNY, Anc. Eg. Rel. 84.

ERMAN, "Zum Namen des Osiris" ومن احتمال تفسيرات اخرى لاسم اوزير SETHE, op. cit. 79 (٥٦)

ZÄS XLVI, 93 ; BALLY, in J.E.A XVIII, 221.

J.E.A., XLVI, 102. (٥٧)

ورتب زيته و بورخارت وادوارد ماير على استقرار الأمور في دولة أونو الجديدة تقديماً حضارياً واسعاً ، فنسبوا إلى أهل الفكر فيها وضع القويم الشمسي وبداية توزيع الثمور الاثني عشر على أساسه منذ اتفق ظهور نجم الشعرى مع طلوع الشمس الباكر في سبأ أونو ليلة وصول تبشير الفيضان إليها في بداية عام من الأعوام ٤٢٤١ - ٤٢٣٦ ق . م ، وكان اقتران هذه المظاهر الثلاثة ، أي اقتران الشعرى بالشمس وبداية الفيضان في أونو ، لا يتكرر إلا كل ١٤٥٦ عاماً أو ١٤٦٠ عاماً (٦٢) . واستدل زيته على دور المدنية في هذا الكشف باحتفاظ كبار كهنتها خلال العصور التاريخية بألقاب تربط بينهم وبين علم الفلك أو علوم السماء ، ومن هذه الألقاب لقب كبير الرائيين في أونو ، ورأى أونو الأكبر ، ومن يرى سر السماء ، والمطلع على أسرار السماء ، وكبير رائي رع أنهم (إله أونو) (٦٣) .

ونسب زيته إلى الحكومة الجديدة الاهتمام برصد ارتفاعات فيضانات النيل ، واستدل على صحة رأيه باستمرار وجود مقياس النيل الكبير في منطقة الروضة القريبة من أونو، والتي سميت في عصورها القديمة باسم برحبي بمعنى بيت الفيضان أو بيت النيل (٦٤) .

وزاد زيته فنسب إلى فلاسفة المدينة الخروج بأقدم مذهب ديني لتفسير نشأة الوجود. وقد مر هذا المذهب بتطورات فكرية كثيرة ، وبدأ بصور مادية ثم مال إلى المعنويات شيئاً شيئاً ، ولم يسجله المصريون كتابة إلا بعد تأليفه بقرون طويلة ، وعندما اكتملت صورته الأخيرة ، رد أصحابه عناصر الكون وأسباب عمرانه إلى تسعة أرباب : أتو الذي أوجد نفسه بنفسه وعاش فريداً أمداً بعيداً حتى ذرأ من نفسه ذكراً وأنثى ، وهما شوروح الهواء والفضاء والنور ، وتفنوت روح الرطوبة والندى . وتولد عن اجتماع هذين العنصرين القديسين ، ذكر وأنثى آخران ، وهما جب رب الأرض ونوت ربة السماء ، وظل هذان متصلين حتى أذن ربهما بانفصالهما ، فرفع شو السماء إلى أعلى عليين وملأ ما بينها وبين الأرض بنوره وأنفاسه ، ولكن بعد أن تولد عن الأرض والسماء في فترة اتصالهما أربعة أبناء ، ذكران وأنثيان ، أوزيروست ، وإيسة ونبت حت (أو على حد التعبير الشائع أوزيريس وست ، وإيزيس ونفتيس) . وأصبح هؤلاء الأربعة يمثلون الرعيل الأول الذي جمع بين الألوهية والبشرية وبدأ به عمران الكون ، كما تم بهم كان التاسع الأكبر .

لم يجد أغلب المؤرخين بأساً في أن يقربوا بين عهد الوحدة الجديدة التي أكد زيته وجودها ، وبين عهد قيادة الثانية الذي نشأت حضارته في الوجه البحري ثم زحف بها أصحابها إلى الصعيد وصبغوا

SETHE, "Die Zeitrechnung der alten Aegypter" in Nachr. d. Ges., Gottingen 1919, 287 f, also Ed. (٦٢)
MEYER, Gesch. J, 2, 197 ; Chronologie Egyptienne, trad., par A MORET; L BORCHARDT, Altaegyptische
Zeitmessung, Berlin 1920.

Pap. Westcar, pl. XII ; PETRIE, Medum, pl. XIII ; GOLENSICHEF Onomasticon, 2,8 ; MARIETTE, (٦٣)
Mastabas C 18, p. 149 ; A. WEIL, Die Veziere, 24.

Urg. 108, also ZÄS, LXIV, 26 und Anm. 1. (٦٤)

حضارته بصيغتها وتطوروا بها في رحابه (٦٥) . غير أن تعيين عاصمة هذه الوحدة في مدينة أونو بالذات ورد ابتداءً التقويم الشمسي ومذهب التاسوع إلى أهلها ، كلاهما آثار جدلا كبيرا ، فقبلهما فريق من المؤرخين على تحفظ ورفضهما فريق آخر رفضا قاطعا . وما من بأس في استعراض آراء الجانبيين ثم استخلاص نتيجة مقبولة منهما .

فقد زكت أهمية أونو القديمة عدة أمور ، يمكن ترتيبها من مصادرها المتفرقة على النحو التالي :

أولا — حرص أهل العصور التاريخية على نسبة مذهب التاسوع إليها وبدء أفرادها برهبانها القديم أتوم واعتباره خالق الوجود .

ثانيا — عدم تضمين اسم المعبود حور في أرباب تاسوعها ، على الرغم من أنه أصبح إله الدولة الأكبر في عصر بداية الأسرات ، وذلك مما يعني أن أهلها ألفوا مذهبهم قبل أن تتضح شهرة حور في بداية العصور التاريخية ، أو هو يعني بعبارة أخرى أنهم ألفوه في عصر ما قبل الأسرات وليس في عصور الأسرات نفسها .

ثالثا — تصوير أهل العصور التاريخية للمعبود أتوم رب أونو القديم على هيئة ملك متوج بتاج مزدوج يجمع بين تاج الصعيد وتاج الدلتا ، وذلك مما يحتمل معه اعتراف الوجهين بالزعامة السياسية لاتباعه في فترة من فترات ما قبل التاريخ ، وليس في العصور التاريخية التي لم تلعب أونو خلالها دورا سياسيا هاما على الإطلاق .

رابعا — تصوير المعبود نفسه يسجل سنوات حكم الفراعنة على أوراق شجرة الخلد في مناسبات تتويجهم ، وذلك مما يحتمل معه اعترافهم بأثره القديم في تأييد الملكيات الأولى ورعاية أصحابها .

خامسا — غلبة أفكار المذهب الشمسي على عدد كبير من متون الأهرام التي جمعها كهنة الدولة القديمة وسجلوها في بطون أهرام ملوكهم منذ نهاية عصر الأسرة الخامسة ، بعد أن كانت متفرقة في صدورهم وعلى صفحات البردي والجلد وعلى أفواه السحرة والرواة ، وهي غلبة يعتقد زيتها وبرستد أنها ترتبت على قوة التأثير الديني والسياسي لمدينة أونو ، المدينة الرئيسية للمذهب الشمسي ، خلال عهد فجر التاريخ القديم .

سادسا — وضوح التشابه في رموز ومعبودات وأسماء بعض مدن الدلتا والصعيد ، وهو تشابه يعتقد زيته أنه أثر من آثار اتحاد سياسي قديم نرض فيه أهل مملكة أونو عقائدهم الشمالية على أهل الصعيد .

(٦٥) لا يكاد يشد عن ذلك غير هرمان كيس الذي رأى أن شيوع حضارة عامة في عصر نقادة الثانية ليس من الضروري أن يرتبط بوحدة سياسية عامة فيه ، ثم عاد مرة أخرى ولم يستبعد قيام هذه الوحدة خلاله ، ولكنه قصرها على الصعيد وحكامه دون الوجه البحري وحكامه Kees, Das alte Ägypten, 1958, 15

وساق زيته من شواهد تأثير أفكار أهل الوجه البحرى وعقائدهم وأسماء مدنهم ، على الصعيد ، عدة قرائن متفرقة يمكن استخلاص المقبول منها في قرينتين وهما :

(١) إطلاق إسم أونو على ثلاث مدن من مدن الصعيد الكبرى ، وهى إسنا وأرمنت ودندرة ، سواء تبركا بها أو إرضاء لحكامها .

(ب) اتجاه بعض النصوص المصرية العتيقة الى اعتبار أسوان أرضا نوبية على الرغم من وجودها في صلب الأراضى المصرية ، وهو اتجاه يعبر فى رأى زيته عن نظرة أهل الوجه البحرى إليها نظرا لبعدها القصى عنهم (٦٨) .

(و زاد زيته على هاتين القرينتين قرائن أخرى استشهد فيها بانتشار تقديس حور وحتحور وتحتوتى فى عبادات الصعيد ، على الرغم من أصلهم الشمالى القديم ، ورد هذا الانتشار إلى عهد سيطرة أونو ، وجر عليه هذا الرأى معارضة شديدة فى هرمان كيس وچيكيه ، وسوف نخالف فى الصفحات التالية كلا من رأى زيته وآراء معارضيه) .

سابقا — أشارت النصوص التاريخية بالفاظ التقديس والتعظيم إلى ” باو أونو “ أى أرواح أونو ويعتقد زيته أن هذه الأرواح المقدسة هى أرواح ملوكها القدماء الذين حكموا القطر كله فى فجر تاريخه القديم (٦٩) .

ثامنا — اعتراف أهل الثقافة فى العصور التاريخية لمدينة أونو بزعامة فكرية ودينية واسعة ، على الرغم من أنها لم تلعب دورا ذا بال فى عصورهم التاريخية ، ومن قرائن اعترافهم بهذه الزعامة ما أسلفناه عن رد مذهب التاسوع الكبير إليها ، وإشارة النصوص الدينية والأسطورية إلى قصر عتبق فيها سمته ” قصر الحاكم “ و ” القصر الكبير “ ، وتلميحها إلى عقد مجالس الأرباب فى رحابها فى مناسبات سياسية وقضائية حاسمة (٦٨) ، وإدماجها عند أهل الدولة القديمة ضمن مدن الحج المندسة التى حرص الأتقياء على زيارتها فى حياتهم وتمنوا زيارتها بعد مماتهم (٦٩) . ثم وضعها فى صف واحد مع العاصمتين التاريخيتين منف وطيبة حتى أواخر العصور القديمة . وكل ذلك مما يعنى أنه ترسبت فى أذهان المثقفين عنها ذكريات مجيدة عادت بها إلى عصور بعيدة عتيقة (٧٠) .

(٦٦) Urgeschichte, 46, 49

(٦٧) K. SETHE, Die Sprüche für das Kennen der Seelen der Heiligen Orts, 1915

(٦٨) cf. Pyr. 215c, 142, 622 b, 957 c, 1451 b, 1614 b; GAUTHIER, Dict. géogr. IV, 127-28; ZÄS. XLIV, 97; Urk. IV, 189.

(٦٩) J. JUNKEER, Giza II, 66 f.; H. KEES, Totenglaube, 160 f, 339 f.

(٧٠) see, Urgeschichte, § 89 f.

وعلى الرغم من منطقية الشواهد السابقة التي أخذ بها كل من الباحثين الأفاضل كورت زيته وإدوارد ماير وجيمس هنرى برستد وغيرهم، لم تخل الاعتراضات على زعامة أونو القديمة وحضارة أهلها من روح المنطق أيضا، وأهمها :

أولا - أن الكشف الأثرية لم تكشف عن عمران ذى بسبق العصور التاريخية في أونو وما حولها (٧١).

ثانيا - أن التوقيت الذى افترضه زيته وماير وبرستد لمملكة أونو فى النصف الثانى من الألف الخامس ق.م. ، توقيت مبكر جدا عن عهد النضج السياسى التى بلغها أهل الوجه البحرى قبيل قيام حضارة نقادة (وهذه يعتقد ألكسندر شارف أنها لم تسبق ٣٤٠٠ ق.م) (٧٢) .

ثالثا - أن الخروج بالتقويم الشمسى كان يتطلب مجهودا طويلا فى ملاحظة الظواهر الطبيعية وتدوينها ويتطلب نضجا عقليا كافيا لاستخلاص نظام ثابت لشهور السنة وأيامها ؛ ولم يكن مثل هذا النضج ليتوفر لأهل بحر التاريخ فى عهودهم المتواضعة البعيدة ، وإنما توفر فيما يعتقد المعارضون فى أوائل الدولة القديمة حوالى عام ٢٧٧٣ وفى بداية دورة شعرية تالية لبداية الدورة التى أشار زيته وأصحابه إليها .

رابعا - أن تأليف مذهب التاسوع وغلبة المذهب الشمسى على متون الأهرام ، يرجع كلاهما فيما يعتقد هرمان كيس وهرمان يونكر وسيجفريد شوت وألكسندر شارف ويواقيم شيدجل إلى أواخر عصر بداية الأسرات أو أوائل الدولة القديمة، نظرا لما كان يتطلبه تأليف المذهب من نضج عقلى وما تتطلبه غالبية المذهب الشمسى من وضوح عبادة رب الشمس التى لم تتضح فى رأيهم إلا فى أوائل الدولة القديمة (٧٣)

خامسا - يعتقد هرمان كيس أن تشابه العقائد وأسماء المدن ورموز الأقاليم فى الصعيد والدلتا، كان أثرا من آثار السياسة التى اتبعها أوائل ملوك العصور التاريخية للتقريب بين أهل الوجهين (فى أواخر الألف الرابع ق.م) وليس أثرا من آثار ضغط مملكة أونو على الصعيد (فى النصف الثانى من الألف الخامس ق.م) (٧٤) .

وإلى هذا الحد تتضح المنطقية فى الاعتراضات على زعامة أونو القديمة كما اتضح المنطقية فى شواهد زعامتها . ويمكن الخروج من الجانبيين، بأن شهرة أونو الواسعة فى عصورها التاريخية تشهد فعلا بزعامتها

E.L. BAUMGÄTEL, *The Cultures of Preh. Egypt*, Oxford, 1947, p. 3 f.; S. SCHOTT, in ZÄS, (٧١) LXXVIII (1942-1943), 1 f.

A. SCHARFF, "Neues zur Frager der ältesten ägyptisch-babylonischen Kulturebeziehungen," in ZÄS (٧٢) LXXI, 89 f. ولو ان شارف من اشد المعصبين لتقصير امد التاريخ المصرى القديم الى ادنى مدى - اى انه ليس من ضرورة للاخذ بحرفية توقيته .

see esp.: KEES, *Götterglaube*, 234 f, 240 f.; A. SCHARFF, *Die Ausbreitung des Osiris ...*, Munchen (٧٣) 1948, 19.

KEES, op. cit., 203 f. (٧٤)

الفكرية والسياسية في بحر التاريخ ، ولكنها زعامة لا ترجع بالضرورة إلى العهد البعيد الذي افترضه زياته ومايروبرستد لها ، وإنما ترجع على الأرجح إلى عهد أحدث منه يصعب تحديده في ضوء المعلومات الأثرية المعروفة حتى الآن . وأنه ما من بأس في إرجاع مذهب التاسوع إلى عهد زعامة أونو القديمة ، لاسيما بصورته الأولى التي غلبت الصبغة المادية عليه فيها (٧٥) ، ولكن ليس من الضروري نسبة فكرة التقويم الشمسي الناصجة إلى عهد زعامتها القديمة (راجع ص ٣١٥ - ٣١٦) .

أما عدم الكشف عن آثار عتيقة ذات بال في منطقتها ، فذلك قد يرجع إلى محض الصدفة وقلة التنقيب في أرضها الزراعية .

*
* *

تحدثت أساطير المصريين عن وقائع قديمة انتصر فيها أرباب أونو (عين شمس) ضد خصومهم ، ولا زال المؤرخون على خلاف في مدلول هذه الأساطير وأزمته حروبها .

ولعبت منطقة ملوى الحالية وما حولها دورا رئيسيا في مناوأة أونو وأربابها ، وإن ظل دورا غامضا إلى حد كبير . فقد تحدثت متون الأهرام عن قيام فتنة ضد أتوم رب أونو، في مدينة "ونو" قرب الأشمونين الحالية، وصورت نجاحه أو نجاح أنصاره بمعنى أصح ، في إخمادها ، وإحقاق الحق فيها محل الباطل على حد قولها (٧٦) .

وروى القصص المتأخرون أساطير أخرى عن رب الشمس رع الذي حل في أونو محل أتوم، أو تمثل فيه ، فرووا أن رع بعد أن اعتلى العرش وحكم ما أبدعه اعتلى ربوة عالية في مدينة "ونو" وأباد أهل التخاذل فيها (٧٧) . وأكدوا أنه استطاع أن يتخذ نفسه من أربعة أعداء تعاونوا ضده في "حتور" وهي بلدة هور الحالية قرب الأشمونين أيضا ، مع عدو خامس أقام في شمال "ونو" (٧٨) . ويبدو أن القتال دار هناك في منطقة أطلقوا عليها اسم جزيرة اللهب، أو في منطقة قريبة منها تدعى بحيرة السكاكين (٧٩) ، وانتهى لصالح رع على حد قولهم وترتب عليه أنه لم يعد هناك نائر من أهل الأشمونين أو من أهل ونو (٨٠) .

(٧٥) تتضح هذه المادبة في تصوير أتوم يبنى في يده ، وتصويره يتغل وينفخ أو يتمخط ليخلق ولديه ، وتصوير تماكب بقية تاسوعه من طريق تزواج كل ذكر وانثى فيه (Pyr. 1652, 1248, 1652 etc.)

وراجع من الصور الراقية للذهب

عبد العزيز صالح : « فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة » - المجلة - العدد ٢٦ - فبراير ١٩٥٦ ص ٢٢ - ٢٧ ، ٤١ - ٤٢

Pyr. 229, 265c ; SETHE, Komment, I. 190 f. ; Urg., 163 f. (٧٦)

GBAPOW, Religiöse Urkunden, 1915, 6-7 (٧٧)

PLYTE and ROSSI, Pap. Turin 118, 11. (٧٨)

cf. KEES, in ZÄS, LXXVIII, 41 f. (٧٩)

ANTHES, Felsinschriften, 23, 7 ; 24, 10 f. (٨٠)

وليس ما يعرف عن زمن هذه المواقع التي تحدثت الأساطير عنها ، ولكن يمكن أن يضاف إليها ظاهرة فكرية أخرى ، وهي أن فلاسفة الأشمونيين خرجوا بمذهب عن نشأة الوجود نافسوا به مذهب أونو (عين شمس) ، وأوهموها الناس فيه بأن ربها الذى اعتقد أنصاره أنه هو الإله الأول والإله الخالق لم يكن أكثر من كائن أوجده أر باب الأشمونيين الثمانية بأنفسهم (٨١) .

وعلى أية حال فإنه يبدو أن أمور دولة أونو التي تشيع أكثر من باحث لفكرة وجودها ، لم تسر هيئة دائما ، ولم تسلم من منازعات قامت في مدينة عين شمس نفسها ، وروت الأساطير هذه المنازعات بأسلوبها الخاص ، فزعمت أن قتالا دار بين رع وبين أحد أعدائه قرب شجرة مقدسة في عين شمس ، وأن عدوه تنكر له في هيئة أنعوان فاتك ، فتنكر له هو الآخر على هيئة قط نافر وقتك به . وليس من الضروري أن يكون هذا التصوير وليد الخرافة برمتها ، وإنما يحتمل إذا استبعدنا خرافة القط ، أن أتباع الشمس كانت لهم موقعة فاصلة مع أعدائهم قرب شجرتها المقدسة بالذبل ، فلما كتب لهم النصر وقتل زعيم أعدائهم تحت الشجرة ، ردوا ذلك إلى تأييد ربهم واشتراكه معهم على صورة خفية لا تمت إلى صورة البشر في قليل أو كثير (٨٢) .

وكان لابد لهذه المنازعات أن تؤدي إلى نهاية ، وقد أدت إلى غير ما أراد حكام الدولة المتحدة ، ففتنت وحدهم وزال ملكهم (٨٣) .


ويعود إلى الأساطير مرة أخرى فنجد أن بقاياها التي احتفظت بها متون الأهرام قد أكدت أن ضياع نفوذ زعماء الوجه البحرى لم يكن غير رد فعل في الدلتا ، وإنما ترتب عليه أن اتحد حلفاء أوزير القدامى ، أتباع إيسة ونبت حت و حور وتحوتى وإنبو ووبوات وغيرهم ، وابتغوا القصاص لمقتل أوزير وتمزيقه على حد قول الأساطير ، أو بمعنى أصح ابتغوا القصاص لضياح نفوذهم القديم وتمزيق وحدة دولتهم ، وصورت متون الأهرام مشهدا طريفا لبعض الوسائل التي اتبعها حلفاء أوزير لضم كافة المدن الكبرى إلى صفهم ، فذكرت أن أخته إيسة ونبت حت ظلنا تندبانه بين الناس ، فحركت الشفقة قلوب أر باب مدينة به (قرب دسوق الحالية) وهرعوا إلى أوزير ، وهم يتمايلون ويدقون على صدورهم ويضغطون على أذرعهم من الغيظ ويشدون شعورهم (٨٤) .

(٨١) راجع عبد العزيز صالح : المقال السابق ص ٢٧ - ٢٩

(٨٢) راجع عبد العزيز صالح : التاريخ في مصر القديمة (مفهومه - عناصره - بواعث القومية فيه) - القاهرة ١٩٥٧ - ص ٨ - ١٠
« قصة الدين في مصر القديمة » - المجلة العدد ٢٣ - نوفمبر ١٩٥٨ - ص ٥١

(٨٣) انظر من احتمال فتنة أخرى في نطق. MASSOULARD. Préhistoire et Protohistoire d'Égypte, Paris 1949, p. 434.

(٨٤) Pyr. 1004 e-f.

وتجمع الأحلاف، وكان لزعماء مدينة به نشاط كبير بينهم، وجعلوا زعامتهم الدينية والرمزية للعبود حور الذي زعم أتباعه أنه نشأ في مدينة خم قرب مدينة به وقرب مدينة دسوق الحالية^(٨٥)، وأعلنوه ولدا روحيا لأوزير من زوجته إيسة التي أصبح لها مزارها في مدينة به منذ ذلك الحين أو منذ ما قبله بقليل^(٨٦)، وأطلقوا على حور لقب نبح إنف (نبح حراتف) : بمعنى حامى أبيه أو المدافع عن أبيه أو المنتقم لأبيه ، واعتبروا زعماءهم وأر بابهم مرافقين له تحت إشراف أكبر دعاة الحرب فيهم « و بواوت » فاتح الطرق، وأطلقوا عليهم جميعا اسم ” شمسو حور “ () ؛ بمعنى أتباع حور .

وبدأوا جهودهم لتنفيذ رغبة القصاص وتوحيد البلاد تحت زعامتهم ، وطالت المواقع بينهم وبين أتباع ست رب الصعيد ، وظل النصر دولة بين هؤلاء وهؤلاء ، ويبدو أن كلا من الفريقين أضر بالفريق الآخر ضررا بلغا وحرمه من مناطق حيوية حساسة، وعبرت الأساطير عن هذا الضرر بتعبيرها الرمزي ، فادعت أن حور فقد عينه وأن ست فقد خصيته^(٨٨) ، وربما امتدت معاركهما إلى منطقة مصر العتيقة الحالية ، التي أطلقت النصوص عليها اسم نرعما ، بمعنى ساحة القتال^(٨٩) .

ولم يذم النزاع بين الفريقين إلى نتيجة حاسمة، وهنا تدخل زعماء منطقة ملوى الحالية بين الفريقين ، وكانوا قد اتخذوا موقفا مائعا بينهما ، فانضموا إلى فريق ست تارة^(٩٠) وإلى فريق حور تارة أخرى ، ثم شاءوا أن تكون لهم يد على الفريقين ، فتوسطوا بينهما ، ونجحوا في عقد هدنة بينهما ، وظلت الأساطير تردد أخبار هذه الهدنة بأن خلعت على رب الأشمونين (المجاورة لملوى) لقب الفاصل بين الأخين ، ومهدىء المتنازعين ... وما إلى ذلك من ألقاب^(٩١) .

ويبدو أنها كانت هدنة فعالة ردت على الفريقين المناطق الحساسة التي فقدوها خلال الحرب ، وشجعت أنصار حور على عرض الأمر كله على حكام البلاد ، أو أرباب البلاد كما ادعت الأساطير ، وانعقد مجلس القضاء في دار الأمير في أونو عاصمة الأمس ، وترأسه من مثل المعبود « جب » والدست وأوزير وجد حور ، وأقام حور الدعوى باسم أبيه وناصره تحوتى ، فاتهم القضاة ست أو ممثله بالاعتداء عليه وإلقاءه أرضا (أى هزيمته) ، ولكنه أنكر أنه بدأ بالشر ، وأكد أن أوزير هو الذى تمداه ونزل أرضه ، ثم أكد ثقته بنصره ، ولكن القضاة لم يأخذوا برأيه وعنفوه ، وبرأوا أوزير من تهمة البدء بالعدوان واعتبروه

Pyr. 2190 ; J.E.A. XXX (1944), 52 f. (٨٥)

Pyr. 309 a (٨٦)

Pyr. 462, 947, 175, 518, 921, 1245 ; K. SETHE, Unters. III, 15-16 ; Urgesch. § 191 ; MORET, op. cit. 107 (٨٧)

Pyr. 1463, 141d. (٨٨)

Pyr. 550 (٨٩)

Pyr. 163, 173, 175, 229, 306 ; SCHNEIDER, Kultur und Denken, 389 (٩٠)

Pyr. 229, 311, 315 ; Brit. Mus. Stela 190 ; B.D. 42, 17-19 ; P. BOYLAN, op. cit., 37 f. (٩١)

« ماع خرو » أى مبرأ أو صادق التعبير أو صادق الصوت على حد قولهم ، وقال جب كلته ، فتركهم ست أو ممثله ، وهنا زعمت الأساطير أن أنصار أوزير كانوا قد جاءوا ببدنه إلى قاعة القضاء ليكون شاهدا على ما حل به ، فلما صدر الحكم لصالحه ، أخذت أخاه إيسة ونبت حت بساعديه وسارا به ، وأصبح في نظر الناس كما لو كان رب السماء ورب الجنة فضلا عن اعتباره سيدا للقطر كله (٩٢) ، ووجدها تحوتى رب الأشمونين فرسه فأعلن حكم القضاء على السماء والأرض ، ففرح به أرباب الجنوب والشمال والغرب والشرق وأرباب الأقاليم والمدن ، على حد قول متون الأهرام (٩٣) .


وتشجع أنصار حور بهذا الحكم فعاودوا العمل على تأكيد نفوذهم على القطر كله ، ويبدو أن مسعاهم في هذه المرة لم يلق معارضة كبيرة ، وربما اكتفوا ببسط نفوذهم الدينى ، ونجحوا في هذا المسعى إلى حد كبير ، فأصبحت هيئة الصقر رمز حور علما على أرباب مدن صعيدية كبيرة مثل نحن وادفو وأرمنت وقوص وقفت وقا والكبير وبني حسن والعاولة ، ولو أنه مامن بأس لإطلاقا في أن نفترض أن شيوخها حينذاك ترتب على أكثر من سبب واحد ، فمن المحتمل أن بعض هذه المدن كانت ترمز إلى أربابها بهيئة الصقر فعلا منذ زمن قديم دون أن تربط بين هذه الهيئة وبين رمز حور ، فلما تهيأت السيادة لأتباع حور: لم تجد المدن بأسا من إعلان الرابطة بين رمزها القديم وبين رمز حور معبود المنتصرين ، ومن المحتمل كذلك أن مدنا أخرى لم يكن لها صلة بهيئة الصقر إطلاقا ولكنها احتضنتها سواء تقريبا من تلقاء نفسها إلى المنتصرين أو تحت ضغط منهم ، ويتضح هذا الاحتمال الأخير في مدينة قوص التي أحلت عبادة حور فيها محل عبادة ست وخلعت عليه لقب الصقر رب الصعيد، وفي إقليم قفت المجاور لها الذى جمع بين عبادة ست وعبادة حور في آن واحد ورمز إليهما بصقرين (٩٤) .

وبدأ عبدة الربات بدورهم يتقربون إلى حور معبود المنتصرين ، وكانت من رباتهم من تعتبر ربة السماء ، ومن تعتبر ربة للغرب ، والغرب هو عالم الموتى لدى المصريين وعالم البقاء ، ومن تعتبر ربة لبعض أنواع الشجر ، ومن تعتبر ربة لمباهج الدنيا وزينتها ، ومن تعتبر ربة للنسل والإخصاب . وكانت لهذه الربات أسماء وأنساب . أما الأنساب فلم يتبق منها إلا ما ينسب كلا منهن إلى موطنها الذى تعبد فيه ، فيقال ربة دندرة ، وربة نوبث ، وربة الجبلين ، وربة نفروسى (قرب الأشمونين) وربة الأرض المقدسة ، ورأس البهم . . إلخ . ، وأما أسماءهن فقد أخذت تخفى تباعا ، بعد أن استعاض عنها أتباعها باسم مشترك واحد وهو اسم حتحور ، وكان إسما ذا مدلولات واسعة ، يجعل من صاحبه سكنا (= حت) لحليفها حور رب المنتصرين ، وذلك بكل ما كان يحمله منطوق لفظ

السكن في اللغة المصرية القديمة وما أصبح يحتمله في اللغة العربية ، من معان واسعة تعبر عن الأمومة والزيجة والإقامة والطمأنينة جميعا (٩٥) .

وتبياً لأنصار حور من أرباب الدلتا نصيب من شهرته في الصعيد، فأصبح لراعي الحرب "وبواوت" مكانة كبيرة في أسبوت، وأصبح للعبود إنبوراعى الغرب مكانة أخرى فيما يمتد بين أسبوت وجرجا (٩٦)، و ربما بدأت أضرحة أبيه أوزير حينذاك في الظهور، وعندما توالى الزمن عليها أصبح أهمها وأقدسها هو ضريحه في أبيدوس أو البلبنا الحالية (٩٧) .

وظلت أكثر مدن الصعيد تشيعا للعبود حور ، مدينتان ، وهما نخن وأدفو ، وأطلق أهل أدفو على مدينتهم إسم بحدة وهو اسم مدينة حور الشمالية في البلامون على حد رأى جاردنر، ودمنهوور على حد رأى زيته (٩٨) .

وجر هذا النشيج على المدينتين عداء المتعصبين لعبادة ست رب الصعيد القديم ، واحتدم النزاع بين الفريقين ، وانحصر مدهاء في الصعيد هذه المرة (٩٩) ، وترتب عليه أن بدأ زعماء ادنو في نظر الناس كما لو كانوا يعملون في أرضهم باسم حور، ولإحياء مجد أونو القديم، كما ترتب عليه أن أصبح زعماء نخن يعرفون بين الناس بلقب شمسو حور  أى أتباع حور ، شأنهم في ذلك شأن حكام الدلتا سواء بسواء، وقد استمسك زعماء نخن بهذا اللقب وجاهدوا حتى أصبحوا زعماء الصعيد من غير منازع وأصبحوا على قدم المساواة مع حلفاء الأمس أتباع حور في الدلتا (١٠٠) .

لم تضع هيبة ست بين الناس على الرغم مما أصاب أتباعه ، واستمر أشياعه يتحدثون عن بأسه ، وسجلت متون الأهرام بعض آرائهم فيه ، فقالت تخاطبه في بعض أورادها بقولها " لقد أنجبك جب (رب الأرض) ياست، وأصبحت أكثر روحانية منه وأكثر مقدرة . وما كان لنطفة الرب أن تضع

(٩٥) راجع عبد العزيز صالح : « قصة الدين في مصر القديمة » - المجلة العدد ٢٣ في نوفمبر ١٩٥٨ - ص ٢٦-٥٠

(٩٦) عن نسبة وبواوت وانبو الى الوجه البحرى

Palermo vs I, 2; Pyr. 148, 220 b and SETHE, ZÄS XLIV, 25-26; Urg., 192; Daramat. Texte, 195

(٩٧) وجد أندم رمز معروف لأوزير في الصعيد مصورا على مدخل معبد حور في نخن في اواخر عصر بداية الاسرات Hierakonpolis I, Pl. II. - وعثر على نموذج لنفس الرمز في حفائر حلوان من نفس العهد او قبله بقليل ، ويلاحظ ان اكتمال صورته في الحاليين يدل على ظهوره في مرحلة سابقة قديمة .

(٩٨) راجع ص ٢٣ حاشية ٤ ، وتسمت بنفس الاسم مدينة اخرى قامت على اطلالها نجع المشايخ الحالية ، وفرق المصريون بين هذه وتلك بان اطلقوا على الاولى اسم بحدة القبليية وعلى الثانية اسم بحدة الشرقية See A.H. GARDINER, Onomastica, No. 351 A.

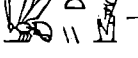
(٩٩) كان هذا النزاع سببا في معارضة هرمان كيس لاراء زيته واصراره على ان العداء الذى صورته الاساطير بين صور وست لم يكن اطلاقا بين صور الدلتا وست الصعيد وانما كان بين حور ادفو أو نخن او قوص وبين ست الصعيد .

MORET, op. cit. (١٠٠)

ولن تفتنى بانتسابك إليه . ثم خاطبت أوزير بقولها "أوزير ، لن يكون لك سلطان عليه ولن يكون لولدك سلطان عليه" ، ورددت العبارة نفسها على حور وقالت له "حور ، لن يكون لك سلطان عليه ولن يكون لأبيك سلطان عليه" (١٠١) .

وسلكت متون أخرى سبيلا وسطا ، فصوّرت ست زعيم الصعيد في حالات هدوئه سندا لأخيه أوزير في العالم الآخر ومعينا لولده حور على السعى لصالحه (١٠٢) .

وعلى أية حال ، فحسب هذه المتون والأساطير ، إذا نزعنا منها خيالات الربوبية وتجسيداتهما ، أنها جعلت الصعيد والدلتا أخوين من أب واحد وإن كنت عنهما باسمي معبوديهما الكبيرين ، وجعلت لحكما الوجهين القول الفصل في نزاعهما ، وإن كنت عن هؤلاء الحكماء بالأرباب .

عادت مصر بهذا الوضع مملكتين : مملكة في الشمال استقر حكمها في مدينتهم به ☉ ☽ التي قامت على أنقاضها قرية ابطو أو تل الفراءين قرب دسوق ، وقد سميت في الكتابة القبطية بوتو ποστο وعبر الإغريق عنها بنفس الإسم بوتو βουτώ (١٠٣) وكانت تسمى من قبل باسم جبعوت (١٠٤) ، ويذهب الاعتقاد إلى أن أصحاب المملكة الجديدة غيروا اسمها إلى "به" ليعبروا به عن معنى المقر أو العرش ، ونسبوا على هذا الاعتبار إلى معبودهم حور (١٠٥) الذي أحلوه فيها محل معبود آخر قديم نسبة أتباعه إلى مدينتهم وسموه جبعوتي (أى المنسوب إلى جبعوت) ، ورمزوا إليه بطائر البلشون ، واحتفظ الملوك الجدد بمراث مملكة غرب الدلتا القديمة التي قامت في مدينة ساو ، فتزوجوا بتاجها الأحمر (١٠٦) واتسبوا إلى رمزها المصور على هيئة النحلة ، لاتب كل منهم بلقب يتى  (١٠٧) . أما مملكتهم نفسها فاتخذت نبات البردى شعارا لها .

Pyr. 144 b - 145 c ; 146 a-b (١٠١)

Pyr. 141, 370, 390-391, 1612, 1613 and see FAULKNER, in Anc. Egypt, 1925- 5-10. (١٠٢)



(١٠٣) يحتمل تفسير هذا الاسم بعبارة « براجو » بمعنى دار الحية ، وكان اسم الحية ينطق في القبطية εϣω ثم خف نطقه الى اتو ثم تو ، See SPIEGELBERG ZÄS, LV 91 f; A. H. G RDI ER, Onomastica, II, 187 f. - ولو أنه ليس من المستبعد أن يكون المقطع بو في هذه الكلمة معبرا عن اسم المدينة القديمة به بمعنى عرش وليس عن اسم بو أوزير بمعنى دار - أنظر حاشية ٨٧



(١٠٤) SETHE, Urg., 170; KEES, Götter, 178 بويرى كيس أن كلمة جبعوت قد تبنى « (دولة) الاختتام » .



(١٠٥) Wb, I, 489; SETHE, Urg. ; KEES, Götter., 178 - ونسبتها الى حور نصوص من العصر الشني See, WEILL, I, 125 f. ونصوص من الدولة القديمة Medum IX-XIII ونصوص من الدولة الحديثة : وتقول عبارة في كتب الموتى « هل تعلم لم وهبت به لحور ؟ » BUDGE, B.D. (1898), 231, 4




(١٠٦) عن أسماء التاج وهيته . ABUBAKR, op. cit. 47 f.

(١٠٧) Pyr. 724; ZÄS, XXX, 113

وجاورت مدينة به ضاحية دينية تسمى "دب"  عبد أصحابها معبودة أطلقوا عليها اسم واجهة ورمزوا إليها بهيئة الحية  (١٠٨) فاتنسب الملوك الجدد إليها واعتبروها حاميتهم ووضعوا رمزها فوق جباههم تبركا به والتماسا لحمايته .

ثم مملكة الصعيد التي اسقر زعمائها في نخن (أو نخن)  -  وهي مدينة ترجم زيتها اسمها بمعنى الحصن، وترجمه كيس بمعنى طفولة (الرب) (١٠٩) ، وقامت على أطلالها قرية الكوم الأحمر الحالية شمالي أدفو، ويحتمل أنهم استمسكوا بها باعتبارها مسقط رأس كبارهم ، واحتفظوا بزعامتها الدينية للمعبود حور الذي رمزوا إليه بالصقر ، (وكان فيما يعتقد كيس وجيكييه معبودا أصيلا في مدينتهم) .

وكشفت التوقيعات الأثرية في أطلال نخن عن بقايا سور أقامه أصحابه على هيئة بيضاوية أو شبه مستديرة داخل المدينة ودعموه بأحجار غفل غير منتظمة الشكل تشبه الدبش ، وذهب الرأي حتى الآن إلى أنه كان يحيط بتل صناعي من الرمال شيد أهل المدينة فوقه معبد ربهم حور، وأن هيئته البيضاوية أو المستديرة كانت أصلا للعلامة الهير وغيلفية التي كتب أهل العصور التاريخية اسم المدينة بها ، وهي علامة  أو علامة  ، وأن الخطين المرسومين داخل هذه العلامة يرمزان إلى هيكل المعبد أو قدس أقداسه ، أو هما يعبران عن تقديس معبودين فيه (١١٠) .

وتتوج ملوك المملكة الجديدة بتاج أبيض طويل (١١١) واتخذوا نباتا يسمى "سوت"  رمزاً لهم ، وقد يكون من البوص أو الأستل أو الخيزران (؟) (١١٢) ، وانتسبوا إليه فأصبحوا يلقبون بين قومهم بلقب "سوتي" ولقب "نيسو"  -  ، أما مملكتهم نفسها فاتخذت زهور اللوتس والإيريس شعاراً لها .

Pyt. 1671, 1107 ; DAVIES, Ken-Amon pl. 45 ; PIEBET, Et. ég. 69. (١٠٨)

وخف نطق اسم الحية من واجه في النصوص القديمة الى اجه ثم اجو في النصوص القبطية . ويحتمل من بعض النصوص المتأخرة أن مدينتي به ودب كانتا متصلتين وربما قامتا على تلين قريبين DÜMICHEN, Géogr. Insch. I, pl. 73, 8 ; see GARDINER, op. cit. 188.

SETHE, in ZÄS, LIII, 55 f ; KEES, Götter, 178 and see GARDINER, Onomastica, No. 320. (١٠٩)

QUIBELL-GREEN, Hierakonpolis II, 3 f., SETHE, op. cit. ; Urgeschichte, 188. (١١٠)

ABUBAKR, op. cit., 25 f. عن أسماء التاج ووصفه (١١١)

Z.Ä.S. XLIX. 18. (١١٢)

ZÄS XLIX, 15 ; Rec. Trav. XXXVIII, 69. (١١٣)

وجاورت العاصمة نحن ضاحية دينية سميت نخاب 𐩠𐩢𐩣 قامت على أطلالها واحتفظت باسمها بلدة الكاب الحالية (راجع ص ٣٣) ، وعبد أصحابها ربة نسبوها إلى بلدتهم وسموها نخبة أو نخابة 𐩠𐩢𐩣 أي النخابية ولقبوها بلقب بيضاء نحن ورمزوا إليها بأشئ العقاب (١١٤) ، فاعتبرها ملوك المملكة الجديدة راعيتهم وحاميتهم (واعتبرها خلفاؤهم ملوك العصور التاريخية من أمهاتهم) .

وأشارت نصوص العصور التاريخية بألفاظ التقديس والتفخيم إلى باو نحن 𐩠𐩢𐩣 و باو به 𐩠𐩢𐩣 كانت أي أرواح نحن وأرواح به ، واعتقد كورت زيته وجيمس هنرى برستد أن هذه الأرواح كانت أرواح ملوك المدينتين ، وأضافا ما أسلفناه من أن تقديس حكام الملكتين للعبود حور جعل الناس يشيرون إليهم بعبارة شمسو حور أي أتباع حور ، وهي عبارة تردد ذكرها في سطور مدونة بالرمو أقدم مدونة تاريخية معروفة جمع المصريون فيها ذكرياتهم عن عهود ملوكهم الأوائل . وزكيا رأيهما بثلاث قرائن وهي : تصوير تسعة ملوك تتوجوا بتاج الوجه البحرى وحده في أول السطور الباقية في مدونة بالرمو ، وتصوير ستة آخرين أعقبوهم تتوجوا بالتاج المزدوج ، وذلك مما يرجح انفصال الملكتين قبل توحيدهما في بداية العصور التاريخية واعتراف كاتب المدونة بأن ملوك الوجه البحرى كانوا ملوكا شرعيين وعلى قدم المساواة مع معاصريهم ملوك الصعيد الذين لا بد أنه رمز إليهم بصور أخرى في سطر من السطور المفقودة من المدونة .

وتسمية ملوك الدلتا في متون الأهرام باسم « البيتو الذين في به » أي الملوك الذين تلقب كل منهم بلقب بيتى وأقاموا في مدينة به .

وأن عبارتى أرواح نحن، وأرواح به ، وردتا على بردية متأخرة تضمنت عبارات قديمة كتبها كاتبها بالخط الهيرواطيقى وكتب معها تفسيراتها بالخط الهيروغليفى ، وفسر الكاتب فيها عبارة أرواح نحن بأنهم « أتباع حور ملوك الصعيد » ، وفسر عبارة أرواح به بأنهم « أتباع حور ملوك الوجه البحرى » (١٥) .

ولا زال هذا التصوير لملكى الصعيد والدلتا مقبولا على وجه العموم ، لولا أن هرمان يونكر وهرمان كيس عارضاه مرة أخرى ، وفسر كيس عبارة « شمسو - ور » التي تكرر ذكرها في سطور مدونة بالرمو

see CARPART, Quelques observations sur la déesse d'El-Kab, Brussels, 1947 (١١٤)

– وعبر المصريون بهيئة أنشئ العقاب عن كلمة الام في كتابتهم الهيروغليافية ، واطلقوا على نخبة لقب بيضاء نحن المولدة ، وشبهها الاغريق على هذا الاعتبار بربة الولادة والمخادع عندهم ونسبوا مدينتها إليها في اسم 𐩠𐩢𐩣

K. SETHE, Unters. III, 1 f.; J.H. BREASTED, in B.I.F.A.O. XXX (1931), 709 f.; F.L.L. GRIFFITH, (١١٥)
Two Hieroglyphic Papyri, London 1889, pl. IX, 10.

بثلاثة تفسيرات تعود إلى مناقشتها في ص ٢٧٠، ونكتفى الآن بتفسيرين منها يرى فيهما كبس أنها تعنى أتباع حور الذين التفوا حول رايته بعد أن تمت وحدة البلاد فعلا في بداية عصر الأسرة الأولى ولانعنى أتباعه في بفر التاريخ (١١٦) .

تلك إذن هي الصورة العامة المحتملة لعوامل تكوين الوحدات السياسية القديمة في بفر التاريخ، ولو أن بعض الباحثين ومنهم لوريه وديفي وموريه وبنديت (١١٧) يرون رأيا آخر، اعتقدوا فيه أن الروابط الاجتماعية والسياسية في وادي النيل كان أساسها رابطة القبيلة ورابطة الطوطم ورأوا أن المصريين حين هبطوا من الهضاب والصحارى إلى وادي النيل كانوا عبارة عن قبائل متفرقة، انتسبت كل قبيلة منها إلى طوطم معين من عالم الحيوان والنبات، وآمنت بأن أصلها يرجع إليه وأن أفرادها يحملون صفاته، وعندما استقرت القبائل في حياتها الزراعية وتركت سلطاتها السياسية في أيدي رؤسائها، اعتبرت كل قبيلة رئيسها نسلا مباشرا لـطوطمها، وتكرر الأمر عندما تحولت مراكز القبائل إلى مراكز أقاليم، فظل كل إقليم يعتبر طوطمه رمزاً له ومعبوداً لقومه. وعندما اندمجت الأقاليم في مملكة واحدة أصبح طوطم قبيلة الملك طوطماً ومعبوداً لمصر كلها، واتخذ الملك شخصيته وتسمى باسمه واعتبره رمزاً لظنه، أما طواطم القبائل الأخرى فقد استمرت لها عبادتها المحلية داخل أقاليمها .

لم يلق مذهب القبيلة والطوطم شيوعاً كبيراً، وكان من أهم من عارضوه إدوارد ماير (١١٨)، وأضعفه أن الشرائع القبلية والطوطمية لم يكن لها أثر واضح في المجتمع المصري القديم .

فقد ظلت الأنساب في مصر القديمة أنساباً أسرية ومحلية، وقد ينتسب الفرد أحياناً إلى بلده، ولكن دون أن ينتسب إلى عشيرة أو قبيلة، على خلاف ما جرت عليه عادة المجتمعات القبلية القديمة .

وقضت الشرائع الطوطمية بتحريم التزاوج الداخلي بين أتباع الطوطم الواحد، وتحريم الاعتداء على ما يمثله الطوطم حيواناً كان أم نباتاً، واستحبت تسجيل صورة الطوطم على أجساد أهلها وملابسهم وشعاراتهم وأدوات حربهم .

ولكن مصر القديمة لم تعرف شيئاً من ذلك إطلاقاً، فقد شاع فيها التزاوج الداخلي والتزاوج

KERS, Horus und Seth als Gotterpaar, II, 29; Götterglaube, 278 f. ; H. JUNKEB, in Mitt. Kairo IX (١١٦) (1940-), 1f.

LOBET. "L'Égypte au Temps du Totémisme", dans Ann. du Musée Guimet, XIX, 151 f. ; G. BÉNÉ- (١١٧) DITE, in J.E.A. V. 237 f. ; A. MORET ET G. DAVY, Des Clans aux Empires, Paris 1923, 144 f. ; A MORET, Le

Nil et la Civilisation égyptienne, Paris 1926, 46 f.

ED. MEYER, Gesch. § 176 ; A. VAN GENNEP, L'état actuel du problème totémique, 1921. (١١٨)

الأسرى ولم يجد الملوك مانعا من التزوج بأخواتهن أحيانا . ولم تؤد الصلوة بين معبود مصرى قديم وبين هيئة حيوانية أو نباتية إلى تحريم استغلال جنس ما تمثله هذه الهيئة من الحيوان أو النبات في الأكل والذبح والصيد والضرب . ولم يهتم المصريون بتسجيل رموز أقاليمهم على أبدانهم ولا على ممتلكاتهم ومقتنياتهم ، بل وذهب بعض الباحثين إلى أن بعض هذه الرموز لم تكن أكثر من وسائل بدائية للتعبير عن أسماء أقاليمها ، أى أنها كانت تقوم مقام الكتابة قبل اختراعها . ولم تظهر في المجتمع المصرى القديم فوارق طبقية تعتمد على عزوة القبيلة وروابط الدم كما حدث في المجتمعات الرعوية القديمة ، وإنما ظلت فوارق الطبقات في مصر مجرد فوارق اقتصادية لا قاطعة ولا مانعة .

وحاول ألكسندر موريه أن يوفق بين هذه الحقائق وبين فكرة الطوطمية والقبيلية الأولى ، فاعتبر الحياة الزراعية حدا فاصلا بين هذه وتلك ، وأى أن استقرار القبائل أدى بها إلى نسيان تقاليدها الرعوية القديمة فيما خلا إثارات بسيطة استمسكت بها في مجتمعها الزراعى الجديد مثل رد النسب إلى الأم وغلبة نفوذ الأب وتفضيل الإبن الأكبر، ووجود فكرة النار الجماعى التى تمثلت في تسمية المعبود حور «نج إاتف» أى المنتقم لأبيه (٩) وجمعه الأنصار حوله ليشتركوا في الاقتصاص من قتلة أبيه أوزير (١١٩) .

ومع منطقية آراء موريه إلا أنه يلاحظ أن التجمعات السياسية في بخر التاريخ لم تتم إلا في ظل الحياة الزراعية فعلا ، أى أنها تشربت بلإحاءات بيتتها الزراعية منذ بدايتها ، وأن النسب إلى الأم لم يكن له شأن في الدولة القديمة على أقل تقدير إلا في حالات خاصة كأن تكون الأم من الأسرة المالكة وأورثت ابنها لقباً نبيلاً ، أو تكون ثرية وأورثت ولدها شيئاً ذا قيمة ، أو يكون الولد غير شرعى فلا ينتسب إلى أب (١٢٠) . وما من وثيقة حكومية ذكرت موظفاً ونسبته إلى أمه ، وما من قصة أدبية ذكرت اسماورده إلى أمه بل النسب في كل ذلك إلى الأب دائماً ، أما تمييز الإبن الأكبر في العصور التاريخية فكاد يقتصر في حقيقة أمره على نطاق إشرافه على أداء القربان وقيامه بتربية إخوته وإشرافه على أسرته بعد أبيه (١٢١) ، وأما فكرة النار الجماعى فلم يكن لها دور واضح في نصوص مصر القديمة ، على الرغم من وجودها في بعض الأسر الصعيدية حتى الآن .

وما من بأس من ترجمة عبارة نج إاتف أو نج حر إاتف التى وصف المعبود حورها بها بمعنى حامى أبيه أو المدافع عن أبيه ، وهو وصف لا يقتصر وجوده على مجتمع دون آخر . وأذكر للدكتور أحمد بدوى ترجمة أخرى طريفة للقب نفسه وهى نجى أبيه على اعتبار تشابه كلمة نجى في اللغة المصرية القديمة معها في اللغة العربية الحالية (١٢٢) .

A. MUBET, Le Nil et la civilisation égyptienne, pp. 110-112. (١١٩)

see, J. PIRENNE, Histoire des Institutions et du Droit privé de l'Ancienne Egypte, Bruxelles 1935, (١٢٠)

III, 382 f.

(١٢١) عبد العزيز صالح : التربية والتعليم في مصر القديمة - رسالة تحت الطبع قدمت عام ١٩٥٦ - الفصل الاول والفصل الثالث .

A. BADAWI - H. KEES, Handwoerterbuch, 133. (١٢٢)

د - عودة إلى الفن وتعبيراته

تركت التطورات السياسية أثرها في حياة أصحاب ما قبل الأسرات ، ووجدت الفنون مجالات طيبة في رحاب ملوكها ، فارتقت رقياً نسبياً من حيث الصناعة والذوق والمهارة وحسن اختيار المادة ، ووجدت في أخبار حروبهم ومشروعاتهم مادة دسمة لموضوعاتها .

فواصل فن التماثيل طريقه في حدود إمكانيات مجتمعه ، وتجراً أصحابه على نحت بعض تماثيلهم الصغيرة من الحجر ، اللين منه والصلب ، وكان الحجر أصلح المواد من غير شك لضمان خلود التماثيل ، وذلكوا صخر البازلت لصناعة تماثيل إنسانية صغيرة ، عثر على تماثيل منها بلغ طوله نحو ٤٠ سم ، مثل رجلاً واقفاً يلتحي بلحية مستعارة طويلة ، ويرتدى حزاماً يتدلى منه قراب سميك لستر العورة . ولم يستطع صانع التمثال أن يحقق التناسب في أعضاء تماثله ، ولكنه حاول أن يعبر عن تفاصيلها ، فنل عظام الركبتين وأظافر اليدين واستدارة الكتفين وبروز العجز بقدر ما سمحت له صلابة المادة التي نحت تماثله منها (١٢٣) .

وتطلع الما لون إلى الأحجار الكريمة ، ونحتوا من اللازورد تماثيل نسوية صغيرة رقيقة ، بقي تماثيلان منها لأنثى عقلت ذراعها أسفل صدرها ، ونض ثديها وبدأت ملامح وجهها واضحة في أحد التماثيل على الرغم من صغر حجم تماثله ، وكانت عيناها مطعمتين بمادة أخرى قد تكون هي العاج (١٢٤) .

واستغل الفنانون صلابة الظران ووفرته ، وشكوا قطعة العريضة الرقيقة على هيئات الطيور والأسماك والحيوانات ، واستخدموا قطع الإردواز للغرض نفسه (١٢٥) . ونجحوا في تشكيل الهيئات الحيوانية أكثر مما نجحوا في تمثيل هيئة الإنسان ، وبلغوا مستوى راقياً من دقة التعبير والتمثيل في نحت تماثيل صغيرة من الحجر الجيري لكلا ب وأسود وقرود عثر عليها في منطقة أبي صير الملق (قرب الفيوم) (١٢٦) ، وكانت تستخدم فيما يبدو لألعاب التسلية وتؤدي غرض التمايم فضلاً عن اعتبارها من المقتنيات الفنية عند أصحابها .

J. CAPART, Les Débuts de l'Art en Egypte, p. 44-45, Fig. 20 ; VANDIER, Manuel, I, 961-62 (١٢٣)

وراجع محمد انور شكرى - تماثيل الانسان في فجر تاريخ مصر القديم - ص ٢٦ - ٢٧

QUIBELL, Hierakonpolis, I, pl. XVIII, 3, p. 7, vol. II, p. 38 ; E.D. ROSS, The Art of Egypt through the ages 84,3. (١٢٤)

J. CAPART, op. cit., 147 f ; 106-108 (١٢٥)

A. SCHARFF, Abusir el-Meleq, Taf. 39. (١٢٦)

وختم فنانو ما قبل الأسرات محاولاتهم في نحت التماثيل بأن نحتوا ثلاثة تماثيل كبيرة من الحجر الجيري للمعبود مين رب السيول والإخصاب وحامى القوافل ، وعبروا فيها عن عظمة معبودهم تعبيرا بدائيا بأن نحتوها بأحجام ضخمة ، بحيث بلغ أطولها نحو ثلاثة أمتار ، ولكنهم شكلوها بخطوط عامة ، وحاولوا إظهار التفاصيل في مثل عظام الركبتين وزخارف حزام الوسط فلم ينجحوا غير نجاح ضئيل ، ولم يسطيعوا التعبير عن كفايتهم إلا في نقش صور معبرة على بدنه وحزامه لأدناف وأفيال وثيران برية كانت تعيش فيما يبدو في الطريق الممتد بين قفط والبحر الأحمر ، فضلا عن بضعة رموز دقيقة تخص المعبود مين نفسه (١٢٧) . وتعتبر هذه التماثيل أقدم تماثيل معروفة أظهرت المعبودات في هيئات بشرية (١٢٨) . وهكذا كان على تماثيل الإنسان والمعبودات أن تقطع خطوات أخرى طويلة حتى تبلغ مستواها الرفيع الذي امتازت به فنون النحت في عصور الأسرات .

* * *

استفادت نقوش العصر من خبراتها القديمة ، وتطورت بأشكالها ومواضعها على مقابض الخناجر والسكاكين الفاخرة وعلى سطوح الصلايات ورؤوس المقامع .

وأصبحت مقابض خناجر الزعماء وأهل اليسار تغشى بالذهب ، وكان لا يزال عزيزا حينذاك ، ومن نماذجها المتعة الباقية مقبضان مذهبان في متحف القاهرة ، وجد أحدهما قرب أبيدوس ووجد الآخر قرب الجبلين (١٢٩) ، ونقشت على وجه أحدهما حيتان عظيمتان متصبتان ، التفت كل منهما حول الأخرى فيما يشبه عدد 8 وتلاقت رأساهما ، واستغل الفنان الفراغات بين جسميهما فنقش فيها صور فاكهة وثمار وأظهر فيها تفاصيل أوراق الشجر في رقة لطيفة ، ونقش على الوجه الآخر للمقبض ثمانية حيوانات يتعاقب كل اثنين منها في صف تحت الآخر ويختلف اتجاههما في دفة ففهما عن اتجاه الصف الذي يتلوهما ، ويهاجم كل حيوان منهما مؤخرة الحيوان الذي يتقدمه . ورقش الفنان جسوم حيواناته بخطوط متقاطعة وملا ما بينها بصور الزهور ، وكل ذلك مما يعنى وضوح غرض الزخرفة في صناعته .

وظهرت على أحد وجهي المقبض المذهب الآخر ثلاث نساء رشيقات تتصل ذراع كل منهن بذراع الأخرى ، وتضع أولاهن ذراعها الثانية على خاصرتها ، بينما ترفع الثالثة بذراعها الثانية مروحة من ريش النعام ، وصور فنان المقبض النساء بخطوطهن العامة ، ولكنه أبدع في التعبير عن رشاقتهم وفيما يتم عن أنهم كن من المرفهات ولسن من صفوف الراقصات العاديات (١٣٠) .

PETRIE, Koptos, p. 7 f, pl. III-V, CAPART, op. cit, p. 216 f., Fig. 150-151; and see. BAUMGARTEL, in (١٢٧) Ann. S. 1948, 533 f.

(١٢٨) اعتبرها كبار من بداية العصور التاريخية (op. cit., 216 f.) ولو صح ذلك لكانت صورة حثرت بوجه انثى بشرية على صلاية نعرمر أقدم منها راجع ص ٢٢٤ ،

Cairo 64737=CURBELLY, Stone Implements, pl. XLVII, p. 251, E. PEET, in J.E.A. II, pl. XII, Fig.4. (١٢٩)

Cairo 64868; QUIBELL, in Ann. S. II, pl. I, 3,5, p. 131-132, ... CURBELLY, op. cit. pl. XLVII p. 272. (١٣٠)

See VANDIER, op. cit., Fig 238,9, 339. وظهرت للنسوة المرفهات صور قليلة أخرى على سطوح الفخار

أما الوجه الآخر للقبض فظهرت عليه مركب نقادية ذات مقعء ورتين ورمزين (وليس رمزا واحدا مثل المراكب المصوّرة على الفخار) .

واحتفظ المعبد العتيق في نحن بقطع مقوّسة من أنياب العاج شكلت أطرافها بما يدل على أنها كانت تعشق في شيء ما ، ويذهب الظن إلى أنها كانت تعشق في عصي قصيرة وتستخدم في أداء طقوس معينة ورقصات معينة (١٣١) ، وعثر معها على قطع تماثلها ولكنها ذات حواف مشرشرة قاطعة كانت تؤدي وظيفة السكاكين الفانحة (١٣٢) . وبلغت نقوش الطائفتين مرحلة عالية من الإبداع على الرغم من صغر أحجامها ، وصورت مجموعات من الطيور والحيوانات ، بعضها أليف وبعضها وحشي وبعضها خيالي ، تنظم في صفوف تارة وتوزع في غير تصنيف تارة أخرى ، ولكنها تدل في الحالين على صبر طويل من ناقشها وشغف بالفن عند أصحابها .

وخدمت نقوش رؤوس المقامع غرض الزخرف وغرض التسجيل ، فثلث رؤوس الثيران وأفراس النهر والتماسيح والأرانب ، وصورت صفوفًا من الأسود والكلاب (١٣٣) ، وصورت صفوفًا من الأسرى قيدت أذرعهم خف ظهورهم وشدت أعناقهم بالحبال (١٣٤) ، تعبيرا عما يرجوه صاحبها لنفسه من نصر على أعدائه أو تخليدا لما أحرزه من نصر على أعدائه .

آثار العقرب :

بدأت الصلايات تسجل أحداثا بعينها وتنقش بأسماء أشخاص بعينهم ، وأقدم المعروف منها في هذا السبيل ، نقوش رأس مقمعة لملك لقبه أتباعه بلقب العقرب .

صنعت رأس هذه المقمعة من الحجر الجيري على هيئة كثرة الشكل (وكان ارتفاعها الأصلي نحو ٣٢ سم . وبلغ أقصى قطر لها ٢٥ سم) ، وعثر على أجزاء منها في معبد نحن (١٣٥) ، وذلك مما يعني أن صاحبها قدمها إلى رب المعبد اعترافا بتأييده له فيما صورته نقوشها من نشاطه الداخلي والخارجي .

حاولت نقوش العقرب أن تصوره ملكا يولى مشروعات الزراعة والري حقها ، ويولى مشروعات الحرب والفتح حقها . فصورته في هيئة كبيرة فارعة يتوسط مناظر المقمعة بتاج الصعيد ورداء قصير يغطي كتفا واحدة ويصل حتى الركبة ، ويتبدل منه ذيل طويل ، وية قبض بيديه على فأس كبيرة بهم أن يشق الأرض بها في حفل افتتاح مشروع للري أو للزراعة . وصورت أمامه رمزين يتألفان

Hierakonpolis, I, p. 7, pl. XIII. (١٣١)

Ibid., pl. XVI; cf. R. WELLS, op. cit., p. 194 f. (١٣٢)

SCHARFF, Die Altertümer I. 81 f.; Hierakonpolis, I, pl. XIX, 6; II, pl. XXIII, LXVI. (١٣٣)

Ibid., I, pl. XII, 4. (١٣٤)

Ibid., I, pl. XXV, 2; XXVI, C (١٣٥)

من زهرة وعقرب. أما العقرب فيدل على لقبه الذي اشتهر به، وأما الزهرة فتدل فيما يعتقد فلندرز بترى وسيجفريد شوت على أقدم تصوير للقب "ملك الصعيد" (١٣٦).

ظهر أمام العقرب مجموعة من حاملي الألوية كانوا يتقدمون موكبه، وكاهن برداء قصير ذي حمالات قد يكون من جلد الفهد يتقدم إليه بمجموعة من سنابل الغلال وتاج يخني أمامه بمكثل من الخوص يحتمل أنه كان يتضمن شيئاً من البذور أو شيئاً من تراب الأرض، وظهر خلفه تابعان آخران من رجال بلاطه يرذعان مروحتين عاليتين لتخفيف حدة الحر أو حرارة الشمس عنه، ثم مجموعة إناث، جلست بعضهن في محفات، ووقفت الأخرى يصفين ويرقصن، مشاركة منهن في مراسم الحفل، وظهرت إلى جانبهن مجموعة من سيقان البردى.

وحاول الفنان أن يصور معالم البيئة الزراعية التي جرى الحفل فيها، فصور جزيرة يحيطها النهر بذراعيه ويعمل بها نفر من المزارعين، وأظهر فيها نخلة وكوخاً أو خصاً من البوص، رمزا لطبيعة الحال إلى عدد أكبر من الأكواخ والنخيل، وصور هبدين متباعدين على ضفة النهر (أوفوق جزيرتين أخريتين)، يعتبر تصويروهما من أقدم صور المعابد المصرية العتيقة المعروفة (فضلاً عن صورة المعبد على صلاية سيد الأسود).

وعلى نحو ما رمز فنان المقمعة بنقوشه إلى النشاط المدني لمولاه، رمز بها إلى جهوده الحربية، فصور في أعلاها مجموعة من حوامل رموز الأرباب تدل على تأييدهم له في حروبه أو تدل على تحالف أنصارهم تحت رايته، وتدل منها جبال غليظة علقت في بعضها طيور الزقراق (rhyt) وعلقت في بعضها الآخر مجموعة من أقواس الحرب.

وجمع بعض الباحثين بين دلالة الطيور المعلقة والأقواس المعلقة ونبات البردى والنساء القابحات في المحفات، واستنتجوا منها أن العقرب وإن ظهر في صورته الكبيرة خلال الحفل يتاج الصعيد وحده، إلا أنه قام في الوقت نفسه بحروب في مصر الوسطى والدلتا والصحراوات القريبة منهما وانتصر فيها، وذلك على اعتبار أن طيور الزقراق ترمز إلى جهات من مصر الوسطى، وأن نبات البردى يرمز إلى الدلتا، وأن الأقواس ترمز إلى أهل الصحراء (١٣٧)، وأن الجالسات في المحفات

F. PETRIE, in Hierakonpolis, I, p. 9 SCHOTT Hieroglyphen, 25,88 (١٣٦)

والغريب ان شوت لم يشر في كتابه الى رأى بترى، ويرى الزهرة التي اصبحت تدل في العصور التاريخية على كلمة حررة hrrt كانت ترمز في الوقت نفسه الى حور Hr. بمعنى الملك. وذهب فيى مذهباً آخر فاعتبر صورة العقرب شعار قوم الملك وليس اسما او لقباً للملك نفسه، واعتبر الزهرة معبرة عن كلمة «ون» المصرية، وقرا العلامتين على هذا الاساس «روح جماعة العقرب» او جوهر جماعة العقرب..
op. cit., I, 284, and see for "wn" Pyr. 901, 920, 1244.

see, A.H. GARDINER, Anc. Eg. Onomastica, 1947, I, 98 f. (١٣٧)

هن أميرات الوجه البحري الأثني انضممن إلى حريم الملك سواء عن رغبة أم عن اضطرار (١٣٨). ولا تزال هذه الاستنتاجات في مرحلة الاحتمال، ولكنها مقبولة على وجه الإجمال (١٣٩). وإن كان ثمة ما يضاف إليها فهو احتمال دلالة الأقواس على أهل الحرب عامة ودلالة طيور الزقراق على المدنيين أو الجمهور بوجه عام . وعلى أية حال فقد زكت امتداد نفوذ العقرب ناحية الشمال ، آثار حملت اسمة في منظمة طرة ، وذلك مما يعنى أن سلطانه كان يمتد حتى رأس الدلتا القديمة على أقل تقدير ، وتضمنت نقوشها أقدم تصوير معروف لنبات « سوت » رمز مملكة الصعيد (١٤٠) .

وحملت اسم العقرب آنية حجرية أسطوانية الشكل عثر عليها في معبد نخن ، ونقشت سطوحها الخارجية بنقوش بارزة تمثل هيئة الصقر وهيئة العقرب ، مكررتين عدة مرات ، ومن تحتهما قوسان شديدان وثلاثة طيور يتوسطها طائر الزقراق (١٤١). واعتبر سيخفريد شوت هذه المجموعة من النقوش صورا مقروءة تؤدي معنى « حور العقرب الذي أخضع الأجانب وأخضع أهل الدلتا » (١٤٢) وذلك على اعتبار أن هيئة الصقر ترمز إلى الملك نفسه باعتباره وريث المعبود حور ومثله على الأرض وصورة حية له ، وأن الأقواس تعنى غير المصريين ، وأن طير الزقراق يرمز إلى أهل الدلتا على حد ظن شوت .

لم نجد بأسا في الاستشهاد برأى شوت للدلالة على ما أسلفناه من سعة سلطان العقرب ، ولكنا لا نجد بأسا مرة أخرى من إظهار مواطن التقدير فيه ، فقد ظهر القوسان على جانبي الآنية شديدين وفي حجم كبير يتصلان بجبل غليظ طويل ويؤلفان معه إطارا أو حزاما يلتف حول الآنية ، وظهر طائر الزقراق طليعا غير مقيد بين طائرين آخرين لا دلالة لنوعيهما في الرموز المصرية ، وكل ذلك مما يحتمل معه أن الأشكال التي صورت تحت هيئة الصقر وهيئة العقرب خدمت غرض الزخرف وملأت فراغ مسطح الآنية

(١٣٨) اعتبرهن بترى امراء أسرى (op. cit) واعتبرهن جردسلوف اميرات من البيت المالك ومعهن القائم على تربيتهن (B. GRDSELOFF, in Ann. S. 1942, 107 f., 115 f) واعتبرهن شوت اولادا ملكيين على حد قوله ، وقربهم

الى صور امراء معائنين في معبد شمس نى وسرع (SCHOTT, op. cit, 24-25; Re-Heil. III, 36)

See also, PETRIE, The palace of Apries- (Memphis II) pl. X.

وقربهن نبي الى التكنو الذين صورتهم المناظر الجنائزية في العصور التاريخية قابعين على جارات ، باعتبارهم حملة خطايا الشخص المتوفى (Rev. d'Egypte 1946, 285) واعتبر الراقصات من الموداي المداحات او المداحين الذين يصحبون الجنائزات (Recherches - II, p. 27 and 36-39, 43) - راجع حاشية ١٨١

(١٣٩) يريد فاندييه أن الاجزاء المفقودة من رأس المقعة كانت تصور مرحلة من مراحل عيد السد وهو العيد الثلاثيني لتولية الملك ، ولا يستبعد أن يكون حضور الملك حفل افتتاح مشروع الري والزراعة مرحلة من مراحل العيد أيضا (op. cit, p. 602)

H. JUNKER, Bericht. über die Grabungen auf dem Friedhof in Turah, Wein (1912), X. 5 f.; H. MÜLLER, (١٤٠) Die formale Entwicklung der Titulatur der Aeg. Könige, 1938, 16, 47.

Hierakonpolis I, pl. XIX, 1; XXV, 2. (١٤١)

SCHOTT, op. cit., 14 (١٤٢)

يلاحظ أن كل صقر في هذا المنظر ظهر واقفا على خط مقوس قد يمثل فرع شجرة ، ولو أن ميلر وإيبري يعتبرانه قاربا مقدسا ، ويقربان الرمز كله على هذا الاعتبار الى رمز المعبود عننى (ذى المخالب) الذي كان يقصد قرب اسبوط

See, MULLER, Eg. Mythology, EMERY, Hor-Aha, p. 93-94

أكثر مما عبرت عن المعنى السيامي أو المعنى اللفظي الذي استتجه شوت ، بل إن تكرار هيئة الصقر وهيئة العقرب عدة مرات حول مسطح الآنية لا يخلو بدوره من أداء غرض الزخرف وملء الفراغ أيضا .
 كان العقرب ممثلا للمعبود حور الذي أخلص له قومه كما أخلص له أهل الوجه البحري سواء بسواء ، وكان أسلانه فيما يغلب على الظن حلفاء لحكام مدينة به عاصمة المملكة الشمالية ، فما الذي دعاه إذن إلى أن يتجه بحروبه إلى أرضهم ؟

ليس من إجابة مؤكدة على هذا التساؤل ، ولكن هناك احتمالين مقبولين وهما أن حواف الدلتا ومصر الوسطى تعرضت حينذاك لهجرات أو غزوات بدوية من الصحراويين الشرقية والغربية وماورائهما من الأراضي الآسيوية والأراضي الليبية وعجزت مملكة الشمال عن صد هذه الهجرات وحدها ، تخفف العقرب ملك نخن إلى استخلاص الأراضي التي انتزعت منها وتأديب من هادنوا المهاجرين من أهلها (١٤٣) ، ثم توحيد القطر تحت حكمه وحكم أسرته الصعيدية إن استطاع . وزكي هذين الاحتمالين أن رموز الأرباب التي صورت على آثار العقرب تضمنت ثلاثة رموز معبرة ، صور اثنان منها هيئة المعبود سترب نوبت ورب شطب (١٤٤) ، ودلا على أن ملوك نخن أنصار حورتنا سوا خصومتهم مع المتعصبين لعبادة ست وحالفوهم في سبيل وحدة أرضهم ومصالحها ، ثم رمزا ثالثا صور ثلاثة تلال فوق حامل طويل . وقرب زيته هذا الرمز إلى رمز المعبود « حور حا » رب أقصى الأقاليم الشمالية الغربية للدلتا ، وهو الإقليم المجاور لإقليم به ، وإذا صح هذا الرأي كان معناه أن العقرب حالف أصحاب هذا الإقليم وساعدهم على تخلص أرضهم من المتسللين إليها من الصحراء الغربية المجاورة لها ، وترتب على ذلك فيما يعتقد ريتون في أنهم قدسوا هيئة العقرب في إقليمهم وفي جواره القريب (١٤٥) .

خدم فنان مقمعة العقرب فنه كما خدم ملكه ، فصوره في هيئة فارعة متكاملة تعتبر السلف الصادق لهيئات الملوك المصريين في عصورهم التاريخية ، وأظهر أتباعه حوله في حيوية لطيفة ، وصوره وهم يؤدون أعمالهم تصويرا جانبا كاملا فيما خلا العين التي صورها كاملة . ولم ينس أن يعبر عن بيئة الحفل بما يعبر عنها من ماء وزرع ورقص ومسكن ومعابد ، على الرغم من صغر المساحة التي صورها عليها ، وعلى الرغم من قدم العهد الذي صورها فيه (١٤٦) .

ويبدو أن شهرة العقرب كانت شهرة عريضة في زمانه ، وأن صلته بمعبد نخن كانت صلة وثيقة ، إذ سجل الفنانون هيئة العقرب التي ترمز إلى اسمه في تماثيل صغيرة من الحجر الجيري ، كما سجلوها بنقوش غائرة ومجسمة على أوان وقدور احتفظت أطلال معبدهم الكبير بعدد منها (١٤٧) .

Compare : A. MOBET, op. cit., 132-133 (١٤٣)

PETRIE, op. cit., p. 9 ; SETHE, op. cit. § 56. (١٤٤)

(١٤٥) من صلة الربة سرقة الرموز اليها بالعقرب بمناطق الدلتا واربابها ، لا سيما نيت وايسة وأوزير
 See Pyr. 183, 582, 647, 1547, 1427.

(١٤٦) راجع مناقشة وافية للنواحي الفنية في نقوش القمعة : محمد انور شكري : دبائيس القتال ، أشكالها ونقوشها
 والفرس منها - ص ٥ - ٦

Hierakonpolis, I, pl. XVII, 1 ; XIX, 5 ; XXI, 4 ; XXXIV, 2c, 3, 5. (١٤٧)

وليس من شيء مؤكد حتى الآن عن قبر العقرب أو صلته بالملوك الذين أعقبوه وأتموا عمله السياسي فاستخلصوا البلاد لأهلها وحوذوها تحت طاعتهم وأسسوا الأسرة التاريخية الأولى. وكل ما يمكن تقديمه بشأن العقرب ، هو أنه عثر قرب مقمعه في معبد نحن على عدة أوان من الألباستر سجلت على بعضها صورة العقرب وصورة ذراعين أصبحت تعبر عن معنى الحماية في الكتابة المصرية القديمة ، وسجلت على بعضها الآخر صورة صقر فوق غصن وبجانبه صورة الذراعين أيضا (١٤٨). وعثر فلندرز پتري في المقبرة رقم ٧ بأيدوس على مختومات نقش فيها أسماء ملامية غامضة تبين في بعضها نفس صورة الذراعين ، وقرأها «كا» واعتبرها إسما لأحد الملوك الذين سبقوا الأسرة الأولى (١٤٩). وجمع كورت زيته وريمون في بين هذه العناصر كلها ، واعتبرا أن العترب والذراعين والصقر والذراعين في نقوش معبد نحن يعبران على التوالي عن معنى «العقرب المحروس» و «الصقر المحروس» ويرمزان إلى الملك ، وأن الاسم الغامض الذي قرأه پتري «كا» ليس غير اسم آخر للملك العقرب نفسه ، وأن المختومات التي وجدت باسمه في المقبرة رقم ٧ بأيدوس تدل على أنه دفن فيها ، ولما كانت هذه المنيرة تقع إلى جوار المقبرة المنسوبة إلى نعرمر رأس الأسرة الأولى ، فالعلاقة إذن بين الملكين علاقة مباشرة من حيث النسب ، ومن حيث الزمن ، ومن حيث مكان الدفن أيضا لاسيما وأن ختما لنعرمر تضمن صورة عقرب يمسك عصا ، وأن منظرا صغيرا آخر وجد في مقبرة عحا بسقارة صور عقربا يمسك فأسا أو مذبة وذلك مما يعنى صلته صاحبه بكل من نعرمر وعحا . وأضاف في صور أخرى لنفس العلامة الغامضة «كا» عثر عليها على صخور في الصحراء الشرقية شمال شرق أرمنت ونسبها إلى الملك نفسه (١٥٠).

استمرت حركات النضال التي اشترك العقرب فيها من أجل توحيد كلمة البلاد تحت زعامة ملوك الصعيد لخيرها وخير أهلها ، وتشملتها تضحيات ومقاومات وحوادث قتل وأسر وتخريب ، وإن كان من المحتمل أنه تخللتها كذلك خطوات سلمية لضم الصفوف عن طريق المحالقات . وصورت الآثار الباقية بعض هذه التضحيات والخطوات من وجهة نظر جانب واحد وهو الجانب المنتصر بطبيعة الحال .

صلاية الحصون والغنائم :

فقد بق جزء أسفل من صلاية تعرف اصطلاحا باسم صلاية الحصون والغنائم (١٥١) نقش من وجهيها ، وصور الفنان على أحد الوجهين سبعة حصون مسورة بأسوار من اللبن علا كل حصن منها رمز مقدس يعمل الهدم فيه بمعوله ، كما نمتا يجربه أو يفتحه ، وظهر داخل كل حصن رمز يعبر عن اسمه ولبنات متفرقة تعبر عن عملية تخريبه ، ولا زالت دلالة الرموز المقدسة وأسماء الحصون يحوطها

Royal Tombs, II p. 7; Abydos I, pl. I - III (١٤٨) Hierakonpolis., I. pl. XXXIV; II pl. XXX, 6 (١٤٨)

SETHE, in ZÄS LII, 57; WEILL, op. cit., I, 287 f.; NEWBERRY, art. "Menes" in Great ones of Anc. (١٥٠) Egypt; WI CKLER, Rock Drawings, I, XI, 2, 3. Emery, Hor Aha, p. 92 Fig. 92

CAPART, Débuts, Fig. 159-160; LEGGE, in P.S.B.A., XXII, pl. V. (١٥١) هي في متحف القاهرة

الغموض ، وقد رأى شتيندورف ووافقه جاردرنوفي أن الرموز تعبر عن الحلفاء الذين آزرُوا الملك الذي نقشت الصلابة في عهده على فتح حصون أعدائه ، وقد يكون هؤلاء الحلفاء من الأرباب ، وحينذاك تكون مساعدتهم له مساعدة خفية روحية ، أو يكونون من كبار أهل المدن الصديقة وحينذاك تكون مساعدتهم له مساعدة فعلية^(١٥٢) ، ورأى كورت زيته أن الرموز المقدسة تعبر جميعها عن الملك ، وقد بقي منها صقير يرمز إليه باعتباره حور أو وريث حور ، وحيوان خرافي من ذوات الأربع يرمز إليه باعتباره ست أو وريث ست ، وأسد غضوب يرمز إلى شدة بأسه (أم هي لبؤة ؟) ، وعقرب يرمز إلى اسمه ، وصقران يقفان على حاملين يمثلان لقباً جديداً له ، وهو لقب يقرأ عادة باسم نبوي أي السيدين أو الربين ويشير إلى انتساب الملك إلى ربي الصعيد والدلتا أو تقيمه شخصيتهما^(١٥٣) ، وأخذ سي جفريد شوت بهذا الرأي وجمع بين دلالات الرموز المقدسة وبين أسماء المدن المكتوبة فيها ، واعتبرها تؤلف نشيداً يصف انتصار ملك الصعيد على مدينة به عاصمة الدلتا ، ويلقبه معها بألقاب عدة على النحو التالي :

حور	الذي خرب مدينة البومة .
ست	» » » مالك الحزين (البلشون) .
العقاب	» » » الخصمين .
إنخرة	» » » الجعل .
اللبؤة (أو الأسد)	» » » الكا .
العقرب	» » » العرش .
الربان	اللدان خرباً » الدغل ^(١٥٤) .

ولا تخلو هذه القراءة رغم طرافتها من تعمل لا ضرورة له . ولا يمكن تصوره لأهل ما قبل الأسرات بسهولة .

وصور الفنان على الوجه الآخر للصلابة غنائم الحرب التي شنها ملكه ، فصور صفوفاً من الثيران والحمر والكباش وصور تحتها أشجاراً زيتية صمغية^(١٥٥) وكتب بجانبها علامة تصويرية تعتبر من أقدم العلامات الكتابية وتدل على كلمة ثمنو بمعنى أرض ليبيا ، أو على الأصح الأراضي الشمالية الشرقية من الصحراء الليبية المجاورة لحدود الدلتا^(١٥٦) .

STEINDORFF, in Aegyptiaca, Festschrift für G. Ebers, 123 (١٥٢)

SETHE, in ZÄS LII, 55f. (١٥٣)

SCHOTT, op. cit., 19 f. (١٥٤) - وعاد جاردرنوفي إلى رأي شتيندورف واعتبر الصقرين الآخرين رمزين

للقلم فقط وليسا رمزين ينسبان الملك إلى الربين - وحاول في بدوره أن يقرأ أسماء المدن المغلوبة المسجلة

داخل حصونها ، ولكن عز عليه أن يصل إلى رأي يقيني بشأنها ، وإن افترض أن أحدها يرمز إلى دير

الجزاوي وأن ثلاثة منها على الأقل كانت توجد في غرب الدلتا وجنوبها الغربي

L. KEIMER, in Bull. Inst. XXXI, 121 f. (١٥٥)

SETHE, in ZÄS LII, 56; GARDINER, Onomastica, I, 119. (١٥٦)

وهكذا قد يكون الملك شن حربين : حربا على حصون داخلية وأخرى على القبائل اللبية ، أو يكون شن حربا واحدة على الحصون اللبية وغنم غنائمها ، واستولى على ما كان يتبعها من مراعى الصحراء اللبية ومزارعها .

أما الملك نفسه فيتجه الظن حتى الآن إلى أنه قد يكون العقرب الذى صور رمزه ضمن الرموز المقدسة ، أو ملكا آخر تلاه مثل عجا أو نعرعر .

هذا عن الناحية التاريخية لصلاية الحصون والغنائم ، أما خصائصها الفنية فتقع فى وسط الطريق بين تقاليد الرسم والنقش فيما قبل الأسرات وتقاليد الرسم والنقش خلال عصور الأسرات . حيث أخذت من الأسلوب القديم تصوير الأسد فى حالة الغضب ناصبا ذيله فوق مؤخرة ظهره ، وتصوير الصقور مائلة إلى الأمام بذبول أفقية ، وتصوير الأشجار الزيتية فى صفين بغير فاصل بينها ، وأخذت من أسلوب العصور التاريخية بتصوير حيوانات الغنائم فى صفوف مرتبة يعلو كل منها الآخر ويفصل بينهما خط أفقى يمثل خط الأرضية ، كما صورت العلامة الكتابية التى أسلفنا أنها تعتبر من أقدم العلامات التصويرية المعروفة (١٥٧) .

صلاية الفحل :

وامتازت من صلايات الكفاح صلاية أخرى تسمى اصطلاحا صلاية الفحل (١٥٨) ، بقى جزء منها ، (نقل إلى متحف اللوفر) ، وتصدره فحل عنيف نفرت عروقه وهجم بقرنيه العظيمين على عدوه فألقاه على وجهه وضغط بحافره على نغذه ليشل حركته ويجبره على الاستسلام . وأبدع الفنان الصلاية فى تمثيل القوة البدنية للفحل وفى إظهار تفاصيل جسده وعضلات سيقانه ، ولكنه تصرف فى تشكيل رأسه وعينه ، فكسا وجهه ومقدمة رأسه بشعر مموج مرتب وأظهر خطوطا حول عينيه وأنفه توحى بأنه قد كسا وجهه بغطاء مزخرف ، شأنه شأن فحول الصور المتأخرة التى رمز أصحابها بها إلى بعض معبوداتهم وخلعوا عليها نصيبا من قداساتهم ، واهتموا بزيتها فى حياتها وماتها .

ولم يرمز الفنان بالفحل إلى ثور حقيقى أو معبود ، وإنما رمز به إلى ملكه الذى تخيله ذا بطش شديد وقوة تفوق قوة البشر ، وقد كانت الفحول ولا تزال أكثر الحيوانات الأليفة فى البيئات الزراعية نفعا حين هدوئها وأكثرها احتمالا حين عملها وأكثرها بطشا حين غضبها ، وظل تشبيه الملوك المصريين بالفحول منذ ذلك الحين قرينا لتشبيههم بالأسود (١٥٩) .

(١٥٧) ظهرت هذه الخصائص قبل عهد صلاية الغنائم ، ولكنها ظلت مترددة حتى استقرت فى بداية العصور التاريخية . انظر كذلك محمد أنور شكرى : الصلايات ص ٣٣ - ٣٥ .

(١٥٨) CAPART, op. cit., Fig. 165-166 ; LEGGE, op. cit., pl. IV ; BÉNÉDITE, op. cit., Fig. 6-7.

(١٥٩) لم يكن تشبيه الأبطال وكبار الشعراء بالفحول غربيا عن العقيدة العربية ، والطريف أن أهل كسلا فى السودان يمجدون أحد أولياء مدينتهم بقولهم « ياتور كسلا ياذا اللبن الأبيض » . ولو أن هرمان كيس يعتبر الفحول التى رمز المصريون بها إلى ملوكهم ثيرانا وحشية ، ويراهم من ذكريات عصور الصيد القديمة (KERS, Götter, 6 ; Das alte Ägypten, 5) . وراجع كذلك أنور شكرى - المرجع السابق ص ٢٩ - ٣٠ .

تصويب

لم تخل صفحات الكتاب من أخطاء مطبعية على الرغم من الجهود التي بذلت فيها ، ونكتفي فيما يلي بتصويب الأخطاء التي يمكن أن تؤثر في معاني كلماتها ، ونرجو القارئ أن يصحح الأخطاء الأخرى من سياق المعنى ، وهي أخطاء ترتب أغلبها على عدم وضوح الحروف المنقوطة وسقوط حروف أخرى من وسط الكلمات حين الطبع .

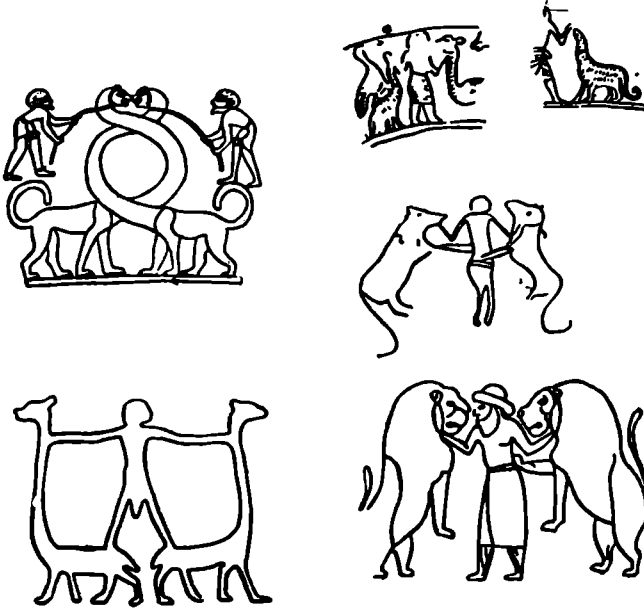
الخطأ	الخطأ	الخطأ	الخطأ	الخطأ	الخطأ	الخطأ	الخطأ
وإنما شاركها	وإنما شاركها	١	٢٩	مشتقات	مشتقات	٣	١
بمعنى جمل	بمعنى جمل	٦		بنفس التسمية	بنفس التسمية	٤	٦
نجسجس	نجسجس	١٠		الكتابة المصرية	الكتابة المصرية	١٣	٨
ثم الله	ثم الله	٩	٣٢	ραενπκηαε	حاشية ٦٦		١٢
فاقتصر	واقصر	١٦		ερμοχύμιος			
Ερμωνθις	حاشية ١٦١		٣٤	T.W. Thacker; T.W. Thac er,	٢٠		١٣
χρεπ- πρεπ	حاشية ١٦٧		٣٥	αππρεπκηαε	حاشية ٧٠		١٣
وهو تفسير	رهر تفسير	حاشية ١٨٠	٣٨	وإلى حد ما	وإلى حد	٦	١٥
مقصورة الذهب	مقصورة الذهب	حاشية ١٨٢		حيث تجاهلتها	وتجاهلتها المتون	١٢	١٦
(أوزيريس)	(أوزيريس)	٨	٣٩	المتون	في اللغة الأكدي	حاشية ٧٧	١٦
في النصوص		١	٤٠	في اللغة الأكدي	عبر أهل الدولة	سطر ٤	
القبطية				عبر أهل الدولة	القديعة	٣	١٨
الدولة الحديثة		١٠		القديعة	وجاح	٥	
وتتداخل في				وجاح	وهو لفظ	٩	
تعبيراتها		٤	٤٢	وهو لفظ	العبرانيون	١٥	
في عبارة هوب		٢	٤٣	العبرانيون	الحب	١٥	١٩
هوب				الحب	وارتأى	٦	٢٠
تشيع في الريف	تشيع في الريف	١٦	٤٤	وارتأى	والملابس الكانية	٧	٢٢
وروابط الروح	روابط الروح	١	٤٥	والملابس الكانية	في خطاها	١٢	
				في خطاها	من أوجه التشابه	١٨	

الخطأ	الخطأ	الخطأ	الخطأ	الخطأ	الخطأ	الخطأ	
في شمال فرنسا		٦-٥	٦٠	وهي دهور بدأت		٨	٤٦
تارة				حضارات محلية	حضارات محلية	١٠	
الصناعة الأبيقيلية	الصناعة الأبيقيلية	٤		وتفتحت فيه	وتفتحت فيه	١٢	
أهل العالم القديم		٩		نظامية مستقرة	نظامية مستقرة	١٧	
في مناطق متفرقة		٨	٦١	وتقاربت أشنات		١٨	
وفي الطرق البرية		١٣		عناصرهم			
وارتفع الإنسان		٦-٥	٦٤	الحضارية ،			
عن طريقه				وتشابكت			
أقل عرضة للتكسر		٩	٦٩	عقائدهم الدينية،			
المتقزمين		٥	٧٢	إلى أوائل القرن		٢٠-١٩	
وذلك إلى الحد		٢٠	٧٥	الثامن والعشرين			
الذي				ق . م			
هذا الطمي	هذا الطمس	٨٢ حاشية	٧٧	الحكم المركزي	الحكم المركزي	٢٤	
كما دلت عليها	دلت عليها	١	٨٢	والإدارة	وإدارة		
ولم تكن فيضانات		١	٨٥	بعد أن استنفذت			٤٨
كانوا يعملون في		١٤-١٣		وبدأوا تجار بهم	وبدوا تجار بهم	١٥	٤٩
عصورهم الأولى				في قلب الصعيد		٦	٥١
تلوّنت بلونها في		٩	٩٠	وظهور المعبر		١٤	
بداية أمرها عن				الأرضي			
طريق الصدفة				أو ما قبل النيل		٣	٥٢
و بين ما هو أكثر		٧	٩٥	بين بعض عصور	بين عصور الجليد	١١	٥٣
من الستة أقدام				الجليد و بعض	الأربعة فترات		
واقترضوا في		٢١		فترات الدفء	الدفء		
زخرقتها				أو الدهر الإيوليتي	أو الدهر الإيوليني	١٢	٥٦
حول حوافها		٢٢		ورجحوا أن		٦	٥٧
لجلها				التكسرات			
الحضارة القفصية		٦	٩٧	الخشنة			

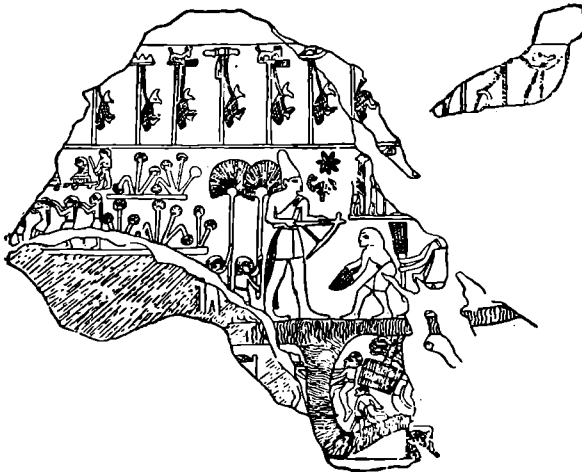
الخطأ	الخطأ	سطر	سطر	الخطأ	الخطأ	سطر	سطر
بيعت على التشكك في		١٠	١٥٥	إلى العنور عن	إلى العنور عن	٥	٩٩
Chron. d'Egypte	Cheton d'Egypte	١٥٦	١٥٦	والتعميم الحضارى		١٤	١٠٠
صوروا بها	صوروا بها	١١	١٥٧	باومجرتل	باومجرتل	٣	١٠٦
وخطوطا متموجة	وخطوط متموجة	١٢		باومجرتل	باومجودتل	١٢	
من التصرف	من الصرف	٢	١٦٠	على عجوز		١٠	١٠٩
ر بان المركب	ملاح المركب	٦	١٦١	لترين	لترين	٦	١١٠
أن سكان	وأن سكان	١٥		تزين رؤوس	تزين رؤوس	١٠	
وتصدرتها صوار	وتصدرتها صورا	١	١٦٢	وكر بوتاته	وكر بوتاته	١١	١١٣
فاعتبرا القمرات	فاعتبروا القمرات	٢		على اريتياد موطنه	على اريتياد موطنه	١٣	
(= سايس)	(= يس)	٨	١٦٦	ويطلق الفرنسيون	ويطلق الفرنسيون	*	
ومدى الاتصال		٩	١٦٨	عليه	عليها		
والترابط				من مراحل التطور		١٧	١١٧
أو سلطات		١١		عندالبدارين		١١٩	١١٩
أكبر أقاليمها				صفات تتفق		٦-٥	١٢٠
أوانى وكؤوسا	أوانى وكؤوس	١٩	١٦٩	تعتبر من غير شك	تعتبر في غير شك	٢	١٢٥
وكانت تكفيها	وكانت يكفيها	٩		ثم في نواحي التطور		١٥	١٢٦
واشترى بعضها	اشترى بعضها	٢	١٧٦	بدأ فلندرزيتري		٧	١٢٧
عن تلك الكثافة	عن تلك الكثافة		١٨١	واستطاعت أن	واستطاعت أن	٤	١٣٣
إلى فئتين	إلى فئتين	١٢	١٨٥	تحصل على المواد	تحصل على المواد		
وأدى تأكل		٢١		الأولية	الدولية		
الرسم				الأوانى المنسقة	الأوانى المنسقة	١٨	١٣٦
يتدلى	ليتدلى	٢٥	١٨٦	تمثلان مرفوعتين	تمثل مرفوعتين	٨	١٣٩
العين والكفتين	العين والكفتين	١٠	١٨٧	قد تمثل الأربعة	قد يمثل الأربعة	١١	١٤٠
مقصورتها	مقصورتها	٥-٤	١٨٨	أقدم ما عثر عليه		١٥	١٤١
الأمامية	المركب الأمامية			ودلت على روح	بما يدل على روح	٢٠	١٤٥
يقلل هدوؤها	يقلل هدوءها	٥	١٩٠	ينفتح من ناحية	ينفتح من ناحية	٥	١٥٢
ترعة خنس	(ترعة) خنس	١٠	١٩٢	الجنوب	الجنوب		
الرسمية	رسمية	١٥		وأشرفت على		١٥	١٥٣
				تموينها			

الخطأ	الخطأ	الخطأ	الخطأ	الخطأ	الخطأ	الخطأ	الخطأ
وجر هذا التشيع	وجر هذا التشيع	١٠	٢٠٨	وفي فتكه	وفي فكه	٣	١٩٤
فصورت ستا	فصورت ست	٤	٢٠٩	مع بعض الإضافة		٩	
порт		١٠	٢٠٩	والتعديل			
وأن منظرا صغيرا	وأن منظرا صغير	١٤	٢٢٠	واتصلت أسباب	واتصلت سباب	١٧	١٩٧
باعتباره ستا	باعتباره ست	٦	٢٢١	وبين الريشتين	وبين الريشتين	١٠	١٩٨
مع الوجه البحري	مع أهل الوجه البحري	١٥	٢٢٥	اللتين	اللئين		
معبد نحن	معبد نحن	١٨	٢٢٧	إيسة ونبت حت	إيسه ونبت حت	١٤	
وأشرفت عليه	وأشرفت ليه	٢٤-٢٣		وحور			
على صور	عن صور	٢٥	٢٢٩	ولإنبو ووبواوت	حور وإنبو ووبواوت	١٥	
واختصارا لهيئة	واختصار الهيئة	٣	٢٣٣	اعتراضان	اعتراضان قدمها	٢٢	
على سبيل المثال	على سبيل المال	٧	٢٣٦	قدمها			
التاريخ	التاريخ	١٠٠٦٩٦٦	٢٥٠	دولة الوجه	دولة واجحة	١	١٩٩
ولكن هذه النسبة		٤	٢٥١	البحري	البحري		
منصة التويج		١٥	٢٥٢	شرق الدلتا :	شرق الدلتا	١٠-٩	
ومقعدى				أنصار	وأنصار		
فقدته من أجزاءها	وبيان تتابعها	٥	٢٥٣	ربع أتوم	ربع أنوم	٨	٢٠٠
وبيان تتابعها	منى (؟) ونعمر	٧		أتوم	أتو	١٥	
واحتفظت	واحتفظت لآثار	٢٢		من هرمان كيس	في هرمان كيس	١٠	٢٠٢
الآثار		٣	٢٥٧	ولإنما يحتمل	ولإنما يحتمل إذا	٩	٢٠٥
أو يتقمص	أو يتقمص	٥		استبعدنا خرافة	القط		
شخصيتهما	شخصيتهما			واتهم القضاة ست	واتهم القضاة ست	٢٠	٢٠٦
الكتابة	الكتابة التخطيطية	١٠	٢٦٥	أخذت أخاه	أخذت أخاه	٣	٢٠٧
التخطيطية				ورب اللجنة	ورب اللجنة	٤	
من مراقبي	من مراقبي	٢٠	٢٧١	وربة نوبت	وربة نوبت	٢٢	
في عهود	في عود	٧	٢٧٣				

الصواب	الخطأ	سطر	رقم	الصواب	الخطأ	سطر	رقم
عن صدق	عن صد	٦	٣٤٨	باعتباره ولده	باعتباه ولده	٥	٢٧٤
B. Gunn	B. Junn	٤	٣٥٣	أضاف إليهما	أصاف إليهما	٨	٢٧٥
Σφινε		٤		وهي أساطين	وه أساطين	٢	٣٠٨
		٥	٣٦٤	لقب ورمآو	لقب مآور	١٢	٣١٤
أن يخفى	أن يخفى	١٩	٣٦٥	(أو مآور)			
أقزاما	أزاما	١٩	٣٧٠			١٢	
واشباح	واشباح	١٢	٣٧٢				
نخسو	نخسو	١٣	٣٨٨	()			
أن يتلقى	أن يتقى	٢	٣٩٠				
من عالم الأرواح	من عالم الأرواح	٩				٥	٣٢١
		١٣	٣٩٣	وسيفنسن سميث	وسيفنسن سميث	١	٣٢٢
واساثر	واساثر	١٠	٣٩٦	لأب حج	لأب حج	٢	٣٢٥
أنها استشارت	أنها استشارت	٢٢	٣٩٨	حوليات سنفرو	حوليا سنفرو	٥	٣٢٦
وعز عليهم		٢٣		G. Reisner	Y. Reisner	٢٠	٣٤٥



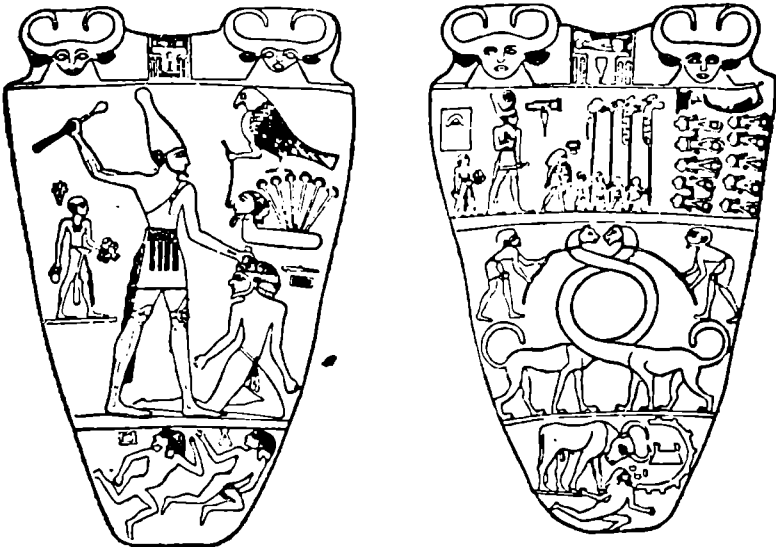
شكل ٢٧ — نماذج أسطورية لفكرة الفصل بين وحشين ومحاولة إخضاعهما (ص ١٨٩)



شكل ٢٨ — العقرب يفتح مشروعا للرى والزراعة (ص ٢١٦)



شكل ٢٩ — صلاة الفحل (ص ٢٢٢)



شكل ٣٠ — ذكريات الخطوة الأخيرة في مراحل الوحدة على صلاة نعرمر (ص ٢٢٤)

ولم يكن الخصم الذي طرحه الفحل أرضاً غير رمز جماعة أو رئيس لمنطقة من البادية أو من حواف الدلتا لا يبعد أن اسمها كان مرموزاً إليه بعلامة تصويرية إلى جانبه (١٦٠)، وظهر تحت الأسد وخصمه على أحد وجهي الصلاة خمسة ألوية مقدسة يعلوها رمزان للعبود وبقاوت (فاتح الطرق) ، ورمز للعبود تحوتى ورمز للعبود حور ورمز للعبود مين ، وامتدت من كل لواء منها يد بشرية واضحة التفاصيل ، وقبضت الخمسة الأيدي على حبل غليظ طويل كان يلتف من غير شك حول رقاب طائفة من الخصوم ضاعت صورهم فيما ضاع من جسم الصلاة ، ويحتمل أن فنان الصلاة أراد أن يعبر بالوية الأرباب عن مشاركتها للملكة في حربه وتأبيدها له في نصره ، أو أراد أن يعبر بها عن أتباعها الذين حالفوا الملك ضد خصومه .

وتكررت صورة الفحل الغضوب وخصمه المغلوب على الوجه الآخر من الصلاة وظهر تحتهما مسقط أفقي لخصن مسور توسطه صورة لبؤة وآنية ، ومن تحته مسقط أفقي آخر لخصن أدغر حجماً منه توسطه صورة طائر ، وكانت كل من الصورتين تعبر عن اسم حصنها أو رمز ألوية أصحابه (١٦١) . ولم يبق في الصلاة للأسف ما ينم عن اسم الملك الذي نقش في عهده ورمزت إلى نصره ، سواء أكان من أسلاف العقرب الأقربين أم من خلفائه الأقربين .

وثمة قطعة صغيرة من دلالية أخرى ، صورت خصماً من خصوم حكام الصعيد ، فـ ورته تصويراً بارعاً بلحية وشعر طويل وأنف كبير وثوب نصفى مزركش وهو تصوير يجعله غريباً بعض الشيء عن صور المصريين ، وصورت سهما ضخماً يخرق خاصرته من الظهر إلى البطن (١٦٢) .

وأدت نقوش الأختام الأسطوانية الميمة نفسها ، وكانت عبارة عن قطع أسطوانية صغيرة من العاج أو الحجر أو الخشب تنقش عليها صور وعلامات يتختم صاحبها بها على الطين فتؤدى غرض الختم ذى التوقيع (١٦٣) واستغل الفنانون بعضها فدخلوا عليها بعض أحداث عصرهم تسجيلاً يناسبها . وبقيت منها ثلاثة أختام نقشت على سطوحها صورة حاكم يأخذ بناصية أسير مقيد ويهم بضربه بمقمعته على أم رأسه ، وكررت الصورة على سطح كل ختم بحيث إذا ختم به ودار دورة كاملة طبع تسع صور أو اثنتي عشرة صورة من صورهِ . ويحتمل أن بعض مقابض دولجانات الحكام استغلت سطوحها للغرض نفسه (١٦٤) .

(١٦٠) يرى شوت وجود هذه المنطقة في الصحراء الشرقية ، ويتردد جاردنر بين اعتبارها في الصحراء الغربية أو في الوجه البحرى . SCOTT, op. cit., 23 Ann. 3 ; GARDINER, Egypte of the Pharaohs, 396.

(١٦١) يرى ثيبى مرة أخرى أن أحد هذين الحصنين يمثل دير الجبرارى

(١٦٢)

(١٦٣) وجد ختمان أسطوانيان من أواسط عهد نقادة الثانية ، أرخ أحدهما بالمرحلة ٤٦ وأرخ الآخر بما بين ٦٥ - ٧٦ ، ويذكر شارف أن مثل هذه الأختام عرفت في حضارة الوركاء بالعراق ، (Harageh, p. 14, pl. VI, 3).

وكانت تصاصر أواسط عصر نقادة على حد قوله ZÄS, 1935, 101, f.

Hierakonpolis, I, pl. XV, 1, 2, 4 ; p. 7 (١٦٤)

وهكذا لم تكن مهمة حكام الصعيد في توحيد حكم مصر تحت رايهم ، مهمة هينة ، وإنما كانت مهمة شاقة عليهم وعلى معارضيههم ، وكان ختامها على يد ملك من ملوك الصعيد ذكرته آثار عهده باسم نعرمر .

آثار نعرمر :

صورت آثار نعرمر مرحلتين متميزتين في عهده ، مرحلة واصل خلالها كفاح أسلافه ، وأخرى استمتع فيها بنتائج جهوده وجهود أسلافه بعد أن حقق وحدة البلاد كاملة تحت حكمه .

ويبقى نقش صغير من نقوش مرحلته الأولى ، حل اسمه فيه محل صورته ، وهو أول اسم معروف كتبه المصريون بمقطعين صوتيين ، وتآلف من صورة سمكة تسمى نعر ، وصورة إزميل (؟) يسمى مر . فظهرت السمكة (وهي المقطع الأول من اسمه) بيدين بشريتين تمسك عصا ضخمة وتهبط بها على رؤوس مجموعة من الأسرى الموثقين بالحبال . وسجل الفنان فوق اسم ملكه رمز المعبود ست رب الصعيد القديم ، ورمز المعبود حور رب الدولة القائمة ، ورمز المعبودة نخابة ربة الكاب ، ليؤكد التقارب بين المعبودات الثلاثة ويؤكد مؤازرتهم للملك في كفاحه (١٦٥) .

وسجلت صلاية نعرمر آخر مراحل كفاحه ونتائجها ، وهي من الصلايات الكاملة النادرة ، وقد وجدت في معبد نخن (١٦٦) واشتركت نقوش وجهها وظهرها في مناظر معينة واختلفت في مناظر أخرى . فظهر على الجزء العلوي لكل منهما اسم نعرمر داخل إطار مستطيل يرمز إلى واجهة قصره ويسمى عادة باسمه المصري القديم " سرخ " . وظهر على جانبي الاسم (في الوجهين) رأسان للمعبودة حتحور مثلها بوجه سيدة مليحة وقرني البقرة وأذنيها ، وكانت هي المرة الأولى التي رمز المصريون فيها إلى أربابهم بصورة تجمع بين البشرية والحيوانية ، فيما هو معروف حتى الآن (١٦٧) .

واختلف وجه الصلاية وظهرها في بقية المناظر ، ولكن مهدت مناظر أولها لمناظر الآخر ، فته درت نقوش الوجه صورة نعرمر في قوام فارغ وحجم كبير يزيد عن أحجام المصورين حوله ، تأكيداً لجلاله وعظم قدره ، وأظهرته بتاج الصعيد ، يأخذ بناصية زعيم خصومه ، ويهم بضربه بمقمعته ، وظهرت أمام الأسير علامتان كتائتان تعبران عن اسم منطقته ، ويحتمل أن يكون « وع » أو « وعش » أو شيئاً قريباً من ذلك (١٦٨) .

Ibid, p. 10, pl. XXIX (١٦٦)

Hierakonpolis I, pl. XV, 7. (١٦٥)

(١٦٧) وظهر تصوير آخر مماثل للمعبودة حتحور على صلاية ثانية قد تكون معاصرة لصلاية نعرمر (Gerzeh, pl. VI, 7) ويعتقد كيس أن حتحور ظهرت على صلاية نعرمر باعتبارها ربة السماء (Das alte Ag., 14) - ولكن دون دليل واضح . - وراجع عن تصوير البشرية في تماثيل المعبود مين ص ٢١٥ وحاشية ١٢٨

(١٦٨) تذهب بعض الآراء إلى اعتبار اسم وع أو وعش اسماً للأمير نفسه ، ولكن يلاحظ أن المصريين لم يسجلوا أسماء خصومهم على آثارهم حتى لا يتركوا لهم سبباً إلى الخلود ، فيما خلا مهاجمات متأخرة نادرة مثل نقوش معركة قادش التي ذكروا فيها اسم أخى ملك الحيثيين بعد أن وصفوه بالجبن . ولكنهم لم يجدوا بأساً من ذكر أسماء أقاليم خصومهم باعتبارها أسماء باقية شاءوا أم لم يشاءوا . وتآلف اسم منطقة الأسير من صورة خطاف وحوض ماء أو ترعة ماء . وظل الخطاف رمزاً لأقصى الأقاليم الشمالية الغربية للدلتا على حدود الصحراء الليبية .

وواجه الملك صقرعظيم يرمز إلى المعبود حور^(١٦٩) ، أخذاً في كفه البشرية اليمنى بنظام رأس كبيرة تخرج من أرض تنمو فيها سيقان البردى وترمز فيما هو شائع حتى الآن إلى أرض الوجه البحرى ، كأنه يقدمها إليه ويسلس قيادها من أجله .

وظهر أسفل الملك قتيلان يسجل الفنان مع كل منهما اسم مدينته بعلامة لم تقرأ قراءة مقنعة حتى الآن .
وظهر خلف الملك رجل من رجال حاشيته يتقلد بقلادة عريضة ، ويحمل له نعليه وقدرا تموى ماء الغسيل ، وظهر فوقه لقبه مكتوبا بعلامتين ، زهرة وقدر ، وقد يعنى " مطهر (قدمى) ملك الصعيد " (راجع ص ٢١٧)

ووفق الفنان توفيقا كبيرا في إظهار تفاصيل صورته ، لاسيما وجهه حتجور اللطيف وشفتيها المتلتئين البضتين وأذنيها ذواتي التفاصيل الدقيقة ، وريش الصقر المهييب ، وعضلات ساعدى الملك وساقيه ، وعظام ركبتيه ، وتفاصيل رداءه وهو رداء قصير يغطى كتفا واحدة ويصل إلى ما قبل الركبة ، مشدود إلى وسطه بحزام عريض مرقرش تتدلى منه حلقات على هيئة رؤوس حتجور بأهداب كنانية طويلة ويتدلى من خلفه ذيل طويل . وتختلف كفاية الفنان في هذه الصور عن الكفايات المحدودة التي سبقت عهدته ، لولا أنه راعى فيها الوقار وتمخلى عن تمثيل مظاهر الحركة فيما خلا صورتى القتيان اللذين تمددا على الأرض عارين وكأتما تفسخت أعضاؤهما .

وأكملت نقوش ظهر الصلاة قصة الفرعون مع أهل الوجه البحرى ، فصورته متوجا بتاجهم ، يسير في موكبه بمقمعته ومذنبته إشارة إلى اجتماع روح الحرب وروح السلام فيه ، ويتقدمه أحد عظام بلاطه ، ملقبا بلقب " ثت " وهو لقب كتبه الفنان بجرفين هجائين ، وهى المرة الأولى التي ظهرت فيها الحروف الهجائية فى كتابة المصريين ، وقد يكون ذلك العظيم ربيبه أو ولده أو كاتبه الخاص أو كاهنه^(١٧٠) ، وسار أمامه أربعة من حملة الألووية يحملون شعارات حور الصعيد (؟) وحور الدلتا (؟) ورواوت فاتح الطرق الذى رمز إلى كبير أتباع الملك ، ورمز آخر غامض المدلول قد يندل "دواو" أحد شعارات مدينة خم فى جنوب الدلتا أو يرمز إلى المشيخة المالكية ويعبر عن حق الوراثة الشرعى (؟) (١٧١)

(١٦٩) يراه بعض المؤرخين معبرا عن الملك نفسه (404) (See, GARDINER, op. cit., 404)

(١٧٠) عن اعتباره ربيبا . (16-17, 11; H. HELCK, Unters. zu den Beamtentiteln, 1954, 16-17. See K. SETHE, Kom. Pyr. I, 11 ;

ومن اعتباره موظفا اداريا : A.H. GARDINER, in J.E. A. XXIV (1938) 170-71 وعن اعتباره كاهنا :

PETRIE, in Hierakonpolis I, p. 9. واعتبره ثى ممثلا لكاهن سم واعتبر اللقب المكتوب

فوق لقبها رمزيا أو لغزيا ، وقرب بين هيئته وملابسه وبين رجل آخر يشبهه فى مناظر بنى حسن تلقب بلقب

(كاهن) سم (WEILL, op. cit., 30 ; (Beni Hasan, I, pl. XVII.)

(١٧١) WEILL, op. cit., I, 280 ; II, 24. واعتبر بترى هذا الرمز قطعة من اللحم ورمزا للاقليم السادس فى

الصعيد ، ولاحظ ملاحظة طريفة ، وهى ان حامل لوائه شاب بغير ذفن بينما يبدو حملة بقية الالوية رجلا ذوى

لحى ، وتكررت هذه الانتفرقة على اثر آخر للملك نمرمر نفسه . (Hierakonpolis I, p. 9, pl. XXVI, B, XXIX.)

وسار في معية نعمر، ومن خلفه حامل نعليه بقدره ولقبه وصورت فوفه علامة تشبه نصف الدائرة داخل إطار مستطيل ، تعبر بإطارها عن البناية التي خرج الملك منها ، وهي فيما يغلب على الظن حجرة خاصة تظهر الملك فيها وغسل قدميه (١٧٢) ، وخرج منها حافيا على الرغم من تاجه ووجانته إشارة إلى قداسة الحفل الذي يقصده .

وعبر الفنان قبالة الموكب عن غايته التي كان يقصدها بصور صغيرة، مثلت قاربا وصقرا وفرخا وبابا، واعتبر كورت زيته وشوت هذه الصور كتابة مقروءة تعني رحلة الملك بقاربه إلى مدينة به التي كانت توصف بأنها ” الباب العظيم للعبود حور (المرموز إليه بالصقر) “ (١٧٣) ، وسجل الفنان تحت صوره الكتابية صوراً أخرى غريبة تمثل عشرة أشخاص موثقين بالحبال، قطعت رؤوسهم ، ووضعت رأس كل منهم بين رجليه ، ورمز بها إلى مناسبة الزيارة ، وهي الاحتفال بذكرى نصر قديم انتصر الملك أو أحد أسلافه فيه على عشرة أحلاف من مناهضيه (١٧٤) .

واستغل الفنان وسط الصلاة لتنفيذ تصميم استجبه أسلافه ، وهو تصوير حيوانين خرافيين تتعانق رقبتاهما حول بؤرة الصلاة المستديرة وتتلاقى رأسهما فوقها ، ونفذ تصميمه بيد متمكنة مجربة وأظهر كل حيوان بجسم أسد (؟) ورقبة ثعبان ورأس فهد ، وأظهرهما ممثلين قوين يرفعان ذيلهما في غضبة هائلة ، ولكنه أضاف شيئاً جديداً ، فصور رجلين على جانبي الحيوانين ، يجذب كل منهما عنق حيوانه بحبل غليظ ليبعده عن مقاتلة أخيه ، وذلك مما يرمز في الغالب إلى ما كان من مصادمة جماعتين قويتين ومحاولة كبح جماحهما على أيدي أصحاب العهد الجديد .

وفي أسفل الصلاة ، نقش الفنان هيئة فحل شديد يهدم بقرنيه سور مدينة محصنة نقش اسمها داخلها (١٧٥) ، ويطأ بحافره ذراع زعيمها الذي تمدد مستسلماً على الأرض . ورمز الفحل إلى الملك ، ولم يكن في تصويره على هيئة الفحل شيء جديد ، ولكن الحديد فيه هو تقاليد وحشيته في الفتك بعدوه وتصويره على شيء من الهدوء وكأنه يتغنى السيطرة على أهل المدينة التي فتحها دون الفتك بهم .

ابتغى فنان الصلاة من صورها التي نقشها على وجهها أن يؤكد سيطرة ملكه على خصومه، أو يؤرخ لها ، ولكن من هم أولئك الخصوم ؟

دلت فروع البردى على أرض الدلتا فيما يرجح حتى الآن ، ودل ظهور الملك بالتاج الأحمر على أنه سيطر على مملكته فعلاً ، فهل قصد الفنان أن يعبر ببقية صورته عن مراحل حروب الملك مع أهلها

KEIMER, in oral communication with Vandier, see Mannel. I, 598, (١٧٢)

SCHOTT, op. cit., 23. (١٧٣)

(١٧٤) يظن جاردنر أن المركب المصورة هي المركب التي نقلت الملك إلى حيث قطع رؤوس خصومه .
G, GARDINER, Egypt of the Pharaohs, p. 404. ولا ضرورة لهذا التصور .

(١٧٥) يقرأ في هذا الاسم مجد أو مصد ، ويتردد في اعتباره اسماً للحصن أو وصفاً للثور بمعنى الغازی ، أو وصفاً لعملية افتتاحه الحصن (op. cit. I, 20-21)

وانتصاراته عليهم؟ أم أن هناك احتمالاً آخر؟ الواقع أن هناك أمراً آخر وإن صعب تحديده ، فظهور حامل النعال خلف الملك بنعليه وقدر الطهور يدعو إلى الظن بأن مولاه كان يؤدي طقسة رمزية أكثر مما يشترك في حرب فعلية . والهيئة التي ظهر نعمر عليها وهو يأخذ بناصية خصمه هيئة يغلب عليها الهدوء والتؤدة وتخلو من مظاهر العنف التي تظهر عادة في صور الملوك وهم يضربون خصومهم ، على الرغم من أن فنان الصلاة لم يكن عاجزاً عن تصوير هذه المظاهر بدليل نجاحه في تصوير تفاصيل جسد الملك وتفاصيل رداءه وتفاصيل حور وحتحور . وهكذا الحال بالنسبة إلى صورة الفحل كما ذكرنا آنفاً . فهل أراد الفنان أن يعبر عن رغبة نعمر في تأديب خصومه دون تلهفهم لأنهم كانوا مصريين من أمه ؟ أم أن الأمر لم يعد احتفالاً تقليدياً أحيا الملك فيه ذكرى نصر قديم أحرزه هو أو أحد أسلافه ؟ الواقع أن كلامنا من الأمرين محتمل ، لولا أن لاحظ بعض الباحثين ، ومنهم موريه وفي ، أن صور الخصوم المصوريين على صلاتية نعمر تقربهم من هيئة البدو الآسيويين والليبيين ، وأن العلامات المصورة مع القتيلين والحصن المفتوح علامات يمكن تقريبها إلى إسم حصن أسوي (حصن ستة) (١٧٦) ، وأن الرمز المكتوب بجانب الأسير يردده إلى الإقليم الشمالي الغربي على حافة الصحراء الليبية ، فهل إذا صححت هذه التفسيرات يكون نعمر قد أكمل عمل العقرب في تخلص أراضى الدلتا من نزلها من البدو ثم استخلصها لنفسه وأكل بها توحيد مملكته دون أن يكون في ذلك اعتداء على أهل الدلتا أنفسهم على الرغم من أنه حل في حكمهم محل أسرته الحاكمة القديمة ؟ ذلك محتمل أيضا .

نقوش المقمعة :

صوّرت استقرار عرش نعمر في دولته التي بدأت بها عصور الأسرات ، نقوش رأس مقمعه ، وهي رأس كبيرة من الحجر الجيري وجدت في معبد تخن (١٧٧) ، ظهر نعمر عليها يعتلي عرشه في مظلة عالية أقيمت فوق منصة مرتفعة ذات تسع درجات ، ورفع مقدمة سقفها صباريان رشيقيان ، وتتوج نعمر في الحفل بالتاج الأحمر تاجاً كيدا لشرعية سيطرته على الدلتا ، وأمسك مذبة تقليدية ، وارثى عباءة كاسية شملت من أعلى الرقبة حتى أخصص القدم ، وأصبح خلفاؤه يرتدونها أحيانا في أعياد يوبيلهم وفي مناسبات تقليدية تختلف عن المناسبات التي يرتدون فيها النقبة القصيرة . وظهر حوله مجموعة من حملة ألويته وحملة المراوح الكبيرة وحملة المحفة فضلا عن ربيه (؟) أو كتبه ، وحامل نعليه ومطهر قدميه ، وأشرفت إليه من عل عقاب رمزت إلى المعبودة نخابة وفردت جناحها فوق مظلته كأنها تحميها ، وظهر إلى جانبها اسمه داخل سرخ اعتلاه الصقر رمز المعبود حور كأنه يحميه ...

وواجهت نعمر مجموعة أخرى ، امتازت منها شخصية كبيرة ارتدت عباءة كاسية وجلست في محفة مسقوفة فوق أريكة نخمة شكلت أرجلها الخشبية على هيئة سيقان الثور ، وظهر إلى جانبها ثلاثة من خاصة المصريين يجنون خبا خفيفا وأيديهم معقودة فوق صدورهم داخل ساحة حددت نهايتها بأسوار من اللبن

MORET, op. cit., 172 f; WEILL., op. cit., 189 f., 194. (١٧٦)

Hierakonpolis, pl. XXVI B (١٧٧)

على شكل الأهله ، وظهرت أسفلهم أعداد لآلاف مؤلفة من الثيران (٤٠٠ ألف) ، والماعز (١,٤٢٢,٠٠٠) ، والآدميين (١٢٠ ألفا) ، عبر الفنان عنها برموز حسابية بسيطة دلت على معرفة قومه بعلامات مفردة تترجم عن الألف وعشرة الآلاف ومائة الألف وألف الألف ، في سهولة نسبية لم تهتد الشعوب القديمة إلى مثلها إلا بعد عشرات القرون .

رأى Newberry أن مناظر المقمعة في مجموعها تصور حفل زواج نعرمر بأميرة من الدلتا جلست أمامه في محفتها (١٧٨) . وإذا صح هذا التفسير دل على سياسة رشيدة من نعرمر ، إذ كان من شأن زواجه بمثل هذه الأميرة أن يقرب بينه وبين قومها أهل الدلتا وينسب أنهم خضعوا لغيرهم . وثمة قرينة تركى هذا التفسير وقرينة أخرى تضعفه . فزكاه أن نقوشا وجدت في مقبرة زوجته ذكرتها باسم نيت حوتب ، أى الربة نيت راضية ، وكانت نيت ربة المدينة ساو (سايسر) لإحدى عواصم الدلتا القديمة ، فيما مر بنا ، وانتساب الملكة إليها في اسمها يرجح أنها كانت من أهل مدينتها . أما القرينة المضادة فتتمثل في صعوبة الربط بين زواج نعرمر وبين آلاف الآدميين والأنعام المسجلة أعدادها حوله ، برباط سليم مقبول .

وظهر تفسير آخر اعتقد أصحابه ومنهم فرانكفورت أن مناظر المقمعة في مجموعها تمثل مرحلة من مراحل احتفال الملك بالعيد الثلاثيني لاعتلائه العرش (عرش الصعيد ؟) ، وكان عيدا يسمى " حب سد " بمعنى عيد النهاية ، نهاية فترة طويلة يستعيد الملك في ختامها نشاطه ويؤكد قدرته على مواصلة الحكم بطقوس وحركات معينة يؤديها خلال حفل العيد ، ويظهر فيها بتاج الصعيد مرة وتاج الوجه البحرى مرة أخرى ، إشارة إلى امتداد سلطانه عليهما ، وإلى بداية فترة جديدة مجيدة في حكمه لهما . وأضاف أصحاب هذا التفسير أن الشخصية القابعة في المحفة قد تمثل ولى عهد نعرمر (١٧٩) أو أحد كبار أمراء الوجه البحرى الذين عفا عنهم وقربهم إليه (١٨٠) . وزكى تفسير العيد الثلاثيني ، ظهور الملك بتاج الدلتا تحت مظله التى صورت لبعض ملوك العصور التاريخية في أعيادهم الثلاثينية ، وتصوير الرجال الثلاثة الذين أدوا حركاتهم الطقسية داخل الساحة المسورة ، وهى ساحة ظهر ما يشبهها على بطاقة للملك دن وظهر ما يماثلها على الطبيعة في منطقة احتفال الملك زوسر بعيده الثلاثيني في سقارة (١٨١) .

P.E. NEWBERRY, "Menes" in W. BRUNTON, Great Ones of Ancient Egypt, p. 52 (١٧٨)

ED. MEYER, Geschichte, I, 208 ; DRIFTON-VANDIER, L'Egypte, 135). (١٧٩)

(١٨٠) SCHOTT, op. cit., 24. واعتبره بترى أميرا خضع للملك هو وأتباعه الذين سجلت أعدادهم الى جانبه باعتبارهم أسرى (Hierakonpolis, p. 9) ووصف فيى هذه الشخصية بما وصف به الجالسات على المحفات في نقوش مقمعة العقب واعتبرها تكنو (op. cit., 25, 258). وعارضه فاندييه بأن الكنو يظهرون فى الجنازات ولا صلة لمناظر مقمعة نعرمر بجنازة ما (VANDIER, op. cit., 604 n. 2)

(١٨١) PETRIE, Royal Tombs, I, pl. XV, 16 واعتبرهم فى مجموعة من البرو mww ، وقربهم الى مجموعة من الرافسين ظهورا على بطاقة من نفس العهد أو بعده بقليل ، ثم صورتهم مناظر العصور التاريخية يصحبون الجنازات الكبيرة (op. cit., 26f. — See also, Archaic Objects, 221, 222 ; Hierakonpolis I, XXVI A. وقد يكون هؤلاء الموو جماعة من المداحين ، أو يرمزون كما يظن هرمان يونكر الى ملوك مدينة به القدماء حين يستقبلون المتوفى عند ابواب الجبانة . (Mitt. Kairo IX (1946), I. f.) راجع حاشية ١٢٨

وثمة مناظر أخرى ، لاندري مدى صاتها بالعيد ، صورت معبدا وحظيرتين ، ويعتبر معبدها نموذجا للمعابد البدائية القديمة ، فهو عبارة عن فناء مسور بسور بسيط من البوص ، وضعت عند مدخله آنية خصصت لماء التطهر فوق حامل مرتفع ، وارتفع في وسطه صارعال كان يرفرف في أعلاه علم من قماش ، يميز المعبد ويهدي القاصدين إلى سبيله ، وأصبح هذا الصاري بعلمه رمزا يعني اسم الإله على الإطلاق في الكتابة التصويرية (الهيروغليفية) ، وتصدرت الفناء في نهايته مقصورة المعبود وظهر فوقها رمزه على هيئة طائر قد يكون أبا منجل الذي يرمز إلى المعبود تحوتى ، أو البلسون الذي يرمز إلى المعبود چبعوتى رب چبعوت القديمة التي سميت فيما بعد باسم به ، وبنيت المقصورة مقبية السقف من البوص وكسيت جدرانها بالحصير ولكن دعمت جوانبها بسيقان شجرية مرتفعة ودعمت جدرانها بعوارض خشبية قوية (١٨٢) .

وإذا كانت لهذا المعبد صلة ما بالعيد الملكي ، فهي صلة يمكن تفسيرها بأداء مرحلة من مراحل العيد بجوار معبد چبعوتى في مدينة به ، أو بجوار معبد تحوتى في القليم الثالث من الدلتا (١٨٣)

أو يمكن تفسيرها من ناحية أخرى بوجود نموذج خفيف لأحد المعبدین في ساحة العيد بعاصمة الملك التي يحتمل أنها كانت في مدينة نخن أو بمدينة ثنى قرب جرجا الحالية (راجع ص ٢٨١، ٢٨٩) .

أما الحظيرتان فأحدهما عبارة عن حفرة متسعة مسورة شغلها ثلاثة غزلان متتابعة ، ظهرت كما لو كانت تجرى خلف بعضها في مسرح غريزي لطيف (١٨٤) . أما الحظيرة الأخرى فهي صغيرة بنيت فوق سطح الأرض بمدخل جانبي ضيق طويل (وتشبه حرف الهاء في الكتابة المصرية القديمة) وشغلها بقرة ووليدها . ويغلب على الظن أن حيوانات الحظيرتين كانت من الضحايا المعدة للعيد .

وتتبع الأعداد الكبيرة المعبرة عن الآدميين (الأسرى) والأنعام ، وهذه لازالت مشكلة . فهي قد تدل على غنيمة حرب غنمها الفرعون قبيل احتفاله بالعيد ، ولو أن هذا الاحتمال يصعب قبوله لثيرة أعداد الماشية . وهي قد تدل على إحصاء عام لسكان وماشية الأقاليم التي سيطر عليها في الدلتا . وقد عرفت فكرة الإحصاء فعلا منذ عصر الأسرة الأولى ، ولأن هل كان المائة والعشرون ألفا من الآدميين يمثلون تعداد أهل الدلتا ؟ أم يمثلون أكثر مناطقها مقاومة لعمرم ؟ أم يمثلون الرجال وحدهم دون النساء والأطفال ؟ تفسير ذلك في الواقع غير يسير .

وهكذا دلت نقوش مقمعة نعمرم على الرغم من بعد زمنها عن صور مختلفة من أحداث عهدها وأعياده ، وصور مختلفة لملايس أهلها وهيئات معابدهم وحظائرهم وجواسقهم ومقاتلهم وأرائكهم ، ودل أسلوبها

(١٨٢) See, BADAWY. Alex., Le Dessin Architectural, 1947, 16.

(١٨٣) SCHOTT, op. cit. 24. ويفترض أن الساحة المسورة تمثل مدينة به نفسها حيث توجد المقصورة في نهايتها

(١٨٤) يظن فأندييه أنها على جنوبها أو مضى بها . (op. cit., 604) ولكن منظرها لا يدل على ذلك .

على كفاية طيبة من فنائها أو ناقشها ، ناستطاع على الرغم من كثرة مفردات الصور التي سجلها ، ان يظهر كل صورة منها واضحة بقدر الإمكان ، واستطاع على الرغم من تقيدته بخطوط الأرضية أو الفواصل الأفقية بين صفوف الصور وتخليه عن قواعد المنظور ، أن يحقق وحدة مناظره بقدر الاستطاعة ، بأن جعل صورة نعمر في جوسقه محوراً تتجه إليه بقية مناظر المقمعة من الأمام والخلف .

وشرع مقمعة نعمر في نحن على رأس مقمعة أخرى تهمشت وضاعت أغلب نقوشها ، ولم يبق عليها غير ما يصور ملكا بتاج الوجه البحري داخل مظلة متسعة ، قد يكون نعمر نفسه ، وتحتة نفر من الأتباع أو الكهان يسعون إليه في صفين (١٨٥) ، وتمتاز صورهم على رغم تهمشها بظهور أحدهم برداء طويل قلما صور به أفراد العصور التاريخية الأولى ، ويظهر ثلاثة تحتة بلحي طويلة وضافاً يقدمون قرايبنهم وهداياهم ويقومون برقصة دينية طريفة قلما صورت لأمثالهم .

وتتصل بهذا الضرب من صور احتفالات الوحدة الجديدة وأعيادها ، نقوش مقبض صولجان صورت صفوفاً من الكهان ذوي لحى وشعور مرسلية يجلسون جاسة معينة يعتمدون فيها على ساق ويرفعون أخرى ، ويرسل كل منهم يدا الى أسفل ويرفع الأخرى الى أعلى في وضع يشبه وضع الترحيب ، ويحتمل أنهم كانوا يشتركون في جلستهم في تلاوة أوراد معينة (١٨٦) .



(شكل ٣١) قصة كاملة على رأس مقمعة نعمر

Hierakonpolis, I, pl. XXXVI. A. (١٨٥)

Ibid., pl. XV, 3. (١٨٦)

العصور التاريخية

الفصل السادس

مقدمات العصور التاريخية ومصادرها

تبدأ العصور التاريخية لكل شعب قديم ببداية اهتداء أهله إلى علامات واصطلاحات محدودة يتفاهمون بها عن طريق الكتابة ويستخدمونها في تسجيل أخبار حوادثهم الرئيسية وتدوين جانب من معارفهم الدينوية وعقائدهم الدينية ولو بطريق التلميح والإيجاز، عوضاً عن الاكتفاء بتداولها عن طريق الرواية أو الاكتفاء بالتلميح إليها عن طريق الرسم والرمز إليها عن طريق الأساطير . أو هي تبدأ بمعنى آخر ببداية العصر الذي يحاول أهله أن يكتبوا فيه تاريخهم بأنفسهم ويصفوا فيه أحوالهم للأجيال التي تليهم بأنفسهم .

وتقترن هذه البداية عادة بأحد اعتبارين آخرين أو بكليهما ، وهما بداية اصطلاح حضارة شعبها بصبغة قومية متجانسة مقصودة متميزة ، وبداية ائتلاف حكامها في وحدة سياسية مستقرة تهتم بالكتابة وتسجل بها شئونها ، وتهتم بشئون الحكم والإدارة وترسيها على أسس دائمة مستقرة .

وبناء على هذه الاعتبارات الثلاثة ، وبناء على الاعتبار الأول منها بخاصة ، أصبحت بداية العصور التاريخية لكل شعب قديم بداية اعتبارية محضّة ، تخصه وحده ، ويختلف زمنها فيه عن زمنها عند غيره من الشعوب (١) .

وتوفرت الاعتبارات الثلاثة في دنيا المصريين منذ أواخر الألف الرابع ق.م ، وكانوا قد بدأوا بتأشير الكتابة خلال الفترات الأخيرة من فجر تاريخهم القديم ، وبدأوا فيما يحتمل بطريقتين : طريقة تخطيطية لم يقدر لها الشيوخ (راجع ص ١٧٥) وأخرى تصويرية استمروا عليها ، وكانت طريقة تعبر عن

(١) يفتقد على الظن أن أهل بلاد النهرين بدأوا الكتابة التصويرية في نفس العهد الذي بدأها المصريون فيه ، أو بعده بقليل في أوائل الألف الثالث ق.م . ثم تطورا منها إلى الكتابة المسماة بعد عهود قليلة . وبدأ أهل كريت كتابتهم التصويرية في أوائل الألف الثاني ق.م ، ثم بدأوا كتابتهم الخطية في القرن السادس عشر ق.م أو قبله بقليل . وعرف أهل ميكناي في شبه الجزيرة الأغرريقية الكتابة في القرن الخامس عشر أو الرابع عشر ق.م . وكتب أهل رأس الشمر (أو جاريت) في الشام بحروفهم الهجائية وخطهم المسماة منذ القرن الخامس عشر أو الرابع عشر ق.م . وكتب أهل جبيل (بلوس) الفينيقيون نصوصهم بالحروف الهجائية منذ القرن الحادي عشر أو العاشر ق.م . وربما بدأت مرحلة الكتابة في اليمن في نفس الوقت أو بعده بقليل . واستعاد الأفرقيق كتابتهم واستخدموا فيها الحروف الهجائية منذ القرن التاسع ق.م . على وجه التقريب . بينما تأخرت عصور الكتابة في الجزر البريطانية إلى القرن الأول الميلادي ، وهو القرن الذي أدخل الرومان خلاله حروفهم اللاتينية إليها .

كل شيء بصورته التقريبية ، ثم جمعوا إليها علامات اصطلاحية تؤدي غرض المقاطع الصوتية ، أي تدل كل علامة منها على مقطع صوتي ذي حرفين أو ثلاثة حروف ، واستمروا يزيدون أعدادها وأنواعها لنفي بمطالب كتابتهم ، ثم أضافوا إليها حروفا هجائية ، بلغت عدتها عند اكتمالها أربعة وعشرين حرفا ، وكانت تجاربهم معها هي الخطوات الحاسمة في تطور كتابتهم ، وتصادف أن بدأت عندها عصورهم التاريخية^(٢) ، واصطحوا على الكتابة منذ ذلك الحين بنحطين دفعتهم روح المحافظة على أن يجمعوا فيهما صور الأشياء والمقاطع الصوتية والحروف الهجائية في آن واحد، وإن ظل أولهما تغلب عليه روح التصوير والزخرف ، وقد نقشوا به نصوصهم على سطوح اللوحات الحجرية وما يقوم مقامها ويصلح للنقش عليه من الخشب والأبنوس والعاج ، وعلى جدران المعابد والمقابر ، كما دقنوا به بعض نصوصهم الدينية على صفحات البردي . وظل ثانيهما مختصرا سريعا يجمع بين الصور المختصرة والخطوط ، وقد سجلوا به شؤونهم الحكومية ودونوا به رسائلهم وآدابهم والعقود الهامة في مجتمعهم . ولم يكن الفارق بين الخطين يزيد كثيرا عن الفارق الحالي بين خطوط اللغات والعناوين وبين خط الرقعة اليدوي السريع .

وعبر المصريون عن الخطين بكلمة "سش" بمعنى الكتابة ، وإن ميزوا أولهما فأدجموه فيما أطلقوا عليه اسم "مدوثر" بمعنى أقوال الرب أو الأقوال المقدسة ، إشارة إلى قداسة أصله وإكبار الأصحاب الفضل الأول في اختراعه .

وعندما وفد الإغريق إلى مصر أطلقوا على الخط الأول اسم الخط الهيروغليفي بمعنى الخط المقدس ، وأطلقوا على الخط الثاني اسم الخط الهيراطيقي بمعنى الخط الكهنوتي ، فضلا عن خط ثالث استحدثه المصريون في أواخر عصورهم القديمة وجعلوه أكثر إيجازا في خطوطه وصوره من خطهم الثاني ، وأطلق الإغريق عليه اسم الخط الديموطيقي بمعنى الخط العام أو كتابة الجمهور .

والواقع أنه مهما يبدو للعين المعاصرة من غرابة صور الكتابة المصرية القديمة التي بدأها أصحابها منذ نيف وخمسة آلاف عام ، وسبقوا بها أمم العالم المتحضر القديم ، فإن هذه الغرابة يمكن أن تخف إذا قدرنا أن الحروف التي نكتبها اليوم ، عربية كانت أم لاتينية ، ليست غير تطورات أخيرة لصور قديمة عرف علماء اللغات بعضها وعزت عليهم معرفة أصول بعضها الآخر، وحسبنا منها حرف أو حرفين في الكتابة الأنزنجية السريعة ، والحرف الأول من الأبجدية العربية الذي كان عبارة عن كلمة من ثلاثة

(٢) See: K. SETHE, Ursprung des Alphabets; Das hieroglyphische Schriftsystem, 1935; SETHE und S. SCHOTT, Vom Bilde zum Bruchstaben. Die Entstehungsgeschichte der Schrift, 1939.

W. F. PETRIE, The Wisdom of the Egyptians, 1940.

A. SCHARFF, Archaeologische Beiträge zur Frage der Entstehung der Hieroglyphenschrift, 1942.

P. LACAU, "L'origine et la constitution première du système hieroglyphique", dans Annuaire du Collège du France 1945, 120 f.

S. SCHOTT, Hieroglyphen, 1951.

ويرجع بعض أولئك الباحثين ومنهم شارف ظهور الكتابة في الوجه البحري قبل الصعيد (SCHARFF, op. cit., 3, 6 f, 30 f, 65 f.)

حروف أو أربعة وهي ألف أو أليف ، وكان يرمز بصورته الأولى إلى رأس ثور ، وحررها اللغوي الذي رمزت صورته الأولى إلى هيئة بيت ، وحررها الثالث حرف الجيم الذي لم يكن غير اختصار لكلمة جمل واختصار الهيئة رأس جمل .. وهلم جرا .

واهتمى المصريون المبدعون من أهل الفترات الأخيرة للألف الرابع ق.م إلى جانب علامات الكتابة وحرورها إلى تصوير رموز مفردة بسيطة عبروا بها عن العشرات ومضاعفاتها ، أى المائة والألف وعشرة الآلاف ومائة الألف وألف الألف (أى المليون)^(٣) ، وأفضى استخدامهم لها إلى سهولة ضرب وقسمة العشرات ومضاعفاتها ، وسهولة تسجيل المجاميع العددية الكبيرة في وحدة مرتبة متصلة تستطيع العين أن تلم بها في نظرة واحدة^(٤) .

واقترن التطور الفكرى لابتداع الكتابة والحساب ، بتطور صناعى آخر لصناعة صفحات البردى البيضاء واستخدام المداد وأقلام السمار للكتابة عليها وعلى لخاف الأحجار والفخار فضلا عن استمرار نقش النصوص على بطاقات الخشب والأبنوس والعاج وعلى لوحات الحجر ، وأفضى ذلك كله إلى تيسير تناقل معارفهم من جيل إلى جيل ، وإلى تنظيم أعمالهم الحكومية وحفظ معاملاتهم الشخصية ، وتيسير تصميم مشروعاتهم المعمارية .

وندع الاعتبارين الآخرين اللذين بدأت بهما عصور مصر التاريخية ، وهما وحدة الحضارة ووحدة الحكم ، إلى الفصل السابع ، لنبدأ فيما يلى بمصادر العصور التاريخية على وجه الإجمال ومراحل التعرف عليها قديما وحديثا في إيجاز مناسب .

يمكن تبويب مصادر الحضارة و العصور التاريخية المصرية تبويبا تجوزيا في ثلاث مجموعات ، وهى : التاريخ الرسمية التى سجلها المؤرخون المصريون بتوجيه من حكاهم ، وآثار الفنون والحرف ونصوص الدين وتراجم الأفراد والمخطوطات الأدبية والعلمية والفلسفية التى كشف عنها حتى الآن ، ثم الروايات الخارجية التى ساهم فى تصويرها كل من نصوص الشعوب الأجنبية التى اتصلت بمصر ، ومؤلفات المؤرخين والرحالة الذين زاروها فى أواخر عصورها القديمة ، وقصص الكتب السماوية عن صلوات أنبيائها بها .

تطورت وسائل المؤرخين الحكوميين فى مصر القديمة فى مراحل عدة منذ بدأوا يسجلون أخبار ملوكهم وحوادث عهودهم فى أواخر الألف الرابع ق.م ، وكانت وسيلتهم التاريخية الأولى ذات شقين

(٣) K. SETHE, Von Zahlen und Zahlenworten bei den Ägyptern, 1916 ; K. VOGEL, Die Grundlagen der ägyptischen Arithmetik, 1929 ; O. NEUGEBAUER, Arithmetik und Rechenstechnik der Ägypter, 1931 ; etc...

(٤) راجع عبد العزيز صالح : « الرياضيات فى مصر القديمة » - فى تاريخ الحضارة المصرية - القاهرة ١٩٦٢ - ص ٥٨٧

عملوا في شقها الأول على تسجيل حوادث وأعمال كل ملك ، حدثا فحدثا وعملا فعملا على حدة ، على بطاقات صغيرة من العاج والخشب والأبنوس ، فضلا عن صلايات الإردواز ورؤوس المقامع الكبيرة التي بدأوا استخدامها قبيل بداية عصورهم التاريخية . وعملوا في شقها الثاني على التاريخ لعهد كل ملك بطريقة الحوليات ، حولا فحولا دفعة واحدة ، وليس عملا فعملا على حدة ، ودوتوا هذه الحوليات أول ما دونوها على نفس البطاقات الصغيرة التي استخدموها لتسجيل الحوادث الفردية ، وإن يكن من المرجح أنهم سجلوها كذلك على ما لم تبق منه باقية من جذاذات البردى والجلود .

واستمر المؤرخون والكتبة المصريون يؤرخون لعهد كل فرعون على حدة حتى أواسط القرن الخامس والعشرين ق.م ، فيما نعلم حتى الآن، ثم سلكوا سبيلا جديدة ، فجمع مؤرخ مجهول الاسم من معاصري الأسرة الخامسة حوليات الفراعنة الذين سبقوا عصره في قائمة مرتبة مترابطة ، وسجلها أو سجلها معه غيره في برديات القصر الملكي ودور الحكم الرئيسية ، وعلى نصب حجرية صغيرة أقاموها في المعابد الكبيرة . وتختلف بضعة أجزاء لأحد هذه النصب أو لعدد منها ، صنعت من البازلت ، ونقل الجزء الأكبر منها إلى متحف بالرمو بصلقية ، فسمى اصطلاحا باسم حجر بالرمو ، وبقيت الأجزاء الصغرى بمتحف القاهرة .

بدأ مؤرخ الأسرة الخامسة تاريخه بالملوك أتباع حور ، وشفعهم بملوك العصور التاريخية ، وتبع حولياتهم عاما فعاما وسمى بعض أعوامهم بأهم الحوادث التي حدثت فيها ، ثم أرخصها بحول التعداد منذ أواخر الأسرة الأولى ، وهو تعداد عام للماشية (؟) كانت الدولة تشرف على إجرائه كل عامين ، وأرخ حوليات زادت قراتها عن سبعة قرون ، منذ ما قبل الأسرات حتى عصره ، وترتب على ذلك أن اصطبغت بعض كتاباته عنها بالبساطة والسذاجة حيناً ، وجنحت إلى المبالغة حيناً آخر ، ولكن عيوب البساطة والسذاجة والمبالغة والزيادة والنقص فيها يمكن أن تغتفر على أساسين ، وهما : أنها كانت أول محاولة معروفة لجمع أخبار الملوك وترتيبها في العالم القديم ، وحسبها على هذا الاعتبار أنها نقطة البدء ، وأنها سبقت غيرها بقرون طويلة . وأن مؤرخها الذي سبق عصرنا بنحو خمسة وأربعين قرناً التزم فيها ثلاثة مبادئ لا تزال تعتبر من شروط التاريخ السليم ، فراعى شرط الوضوح في كتابته بأن فصل بين أحداث كل حول وآخر بخط رأسى يرمز إلى كلمة الحول في الكتابة المصرية ، وفصل بين حوليات كل ملك وملك آخر بخط أفقى . وراعى الترتيب الزمني في تدوين أسماء الملوك وحوادثهم من الأقدم إلى الأحدث . وراعى أمانة النقل بقدر الاستطاعة في رواياته ، فاكتفى من جانبه بالرمز إلى ملوك ما قبل الأسرات بأسمائهم دون أعمالهم التي لم تدونها عهودهم ، وبدأ يفصل هونا فهونا في حوليات العصور التاريخية ذات المصادر المكتوبة حسبما توفرت له أخبارها ، ثم أسهب أخيراً ما شاء له الإسهاب في حوليات الأسرة الخامسة التي عاش في ظلها وعرف الكثير من أخبارها .

وسجل مؤرخنا في سياق تاريخه عدداً من المنشآت الخاصة والعامة للفراعنة وحكوماتهم وأشار أحيانا إلى ما عمر في أيامهم من مدن وقرى ، وذكر أعيادهم الرسمية وأعياد أربابهم وكتب عما أوفد في عهودهم

من بعوث حربية وتجارية ، واستطاع أن يحدد نهاية حكم بعضهم بالشهر واليوم وليس بالأعوام وحدها ، وسجل ارتفاعات فيضانات النيل بالذراع وكسوره كل عام على حدة^(٥) .

واستمرت جهود الكتابة والمؤرخين المصريين في تدوين القوائم الرسمية بأسماء الفراعنة على جدران المعابد والمقابر ، وعلى صفحات البردي ، وظلوا يشفعون أسماءهم بسنى حكمهم حيناً ، ويكتفون بذكرها متتابعة حيناً آخر ، وقد فقدت للأسف أغلب قوائمهم ولم يبق منها غير القليل ، ومن هذا القليل :

قائمة الكرنك^(٦) : وهذه نقشها كاتب من عهد تحوتمس الثالث خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر ق. م ، على جانب من معبده الفخم بأقصى مجموعة الكرنك ، وصور فرعونه فيها يتجه بدعواته وقربانه إلى واحد وستين اسماً من أسماء أسلافه ، واستطاع أن يسجل أسماء القريبيين من عهده في الدولتين الحديثة والوسطى تسجيلاً سليماً ، ولكن عز عليه أن يسجل أسماء البعيدين عن عهده في الدولة القديمة تسجيلاً صحيحاً ، وتعمد من ناحيته أن يغفل أسماء الملوك الضعاف الذين تقاسموا شئون مصر خلال عصر الانتقال الأول ، وأسماء الملوك الهكسوس الأجانب الذين حاولوا السيطرة على أمور البلاد خلال عصر الانتقال الثاني .

قائمة أيديوس^(٧) : سجلها كاتب من عهد سبتي الأول داخل معبده في أواخر القرن الرابع عشر ق. م وعنونها بالدعاء للعبود بتاح سكر رب منف وسقارة ، وصور فيها فرعونه وولى عهده يتوجهان بالدعاء وسط غير البخور وأصوات الصلاصل إلى أسماء أسلافهما ، وبدأ أولئك الأسلاف باسم ”منى“ ، وأحصى منهم ستة وسبعين اسماً قدم لبعضها بلقب ”نيسو“ أى ملك وقدم لبعض آخر بعبارة ”سارع“ أى ابن الشمس ، وأغفل بدوره حكام الأسرتين التاسعة والعاشره وحكام عصر الانتقال الثاني ، وتجاوز عامداً عن ذكر حاتشيسوت خصيمة الفرعون العظيم تحوتمس الثالث ، وأسماء الفيلسوف أخناتون وأقربائه الذين اعتبرهم خلفائهم مارقين لخروجهم على تقاليد الدين القديم .

قائمة سقارة^(٨) : وهذه لم تسجل باسم ملك ، وإنما سجلت على جدار قبر مواطن يدعى تونرى كان أحد كبار الكهنة المثقفين المشرفين على الأعياد في عهد رمسيس الثاني (في النصف الأول من القرن ١٣ ق. م) وسجل فيها صاحبها ثمانية ونحسين اسماً من أسماء الملوك ، هذا في ترتيبها حذو قائمة أيديوس

(٥) راجع للمؤلف : التاريخ في مصر القديمة (مفهومه وعناصره وبواعث القومية فيه) - القاهرة ١٩٥٧ - ص ١٦ - ١٧ (For the text, see, SETHE, Untersuchungen III, 42f ; Urk. I, 255-259.)

(٦) LEPSIUS, Auswahl, Taf. I ; PRISSE D'AVENNES, Monuments égyptiens, pl. I ; SETHE Urk. IV 608-610.

وقد نقلت القائمة الى متحف اللوفر .

(٧) ZÄS II, 81-83 ; LEPSIUS, op. cit., Taf. II.

(٨) DE ROUGÉ, Recherches, pl. I ; ED. MEYER, Aegyptische Chronologie, Taf. I.

قريبة العهد منه مع اختلافات يسيرة ، كان منها على سبيل المثال أنه بدأ فيها باسم عنجرب سادس ملوك الأسرة الأولى الذى ذكره باسم مرنپا با (أوسر بابن) ، وليس باسم منى ، وبدأها من أسفل إلى أعلى وليس من أعلى إلى أسفل مثل قائمة أبيدوس .

بردية تورين (٩) : وقد كتبها مؤرخ مصرى من القرن الثالث عشر ق.م ونقلت قصاصاتها النادرة الباقية بعد العثور عليها إلى متحف تورين بإيطاليا فنسبت إليه ، وخطا صاحبها فيها خطى واسعة نحو مرحلة التبويب التاريخى ، وعمل فى سبيل هذا التبويب على أن يصنف أعداد الملوك فى مجموعات ، ونسب بعض هذه المجموعات إلى العواصم التى حكمت فيها ، وكان من ذلك على سبيل المآل أن جمع أسماء الفراعنة الذين اتخذوا عاصمتهم فى مدينة منف فى سياق واحد ، وضم سنوات حكمهم فى وحدة زمنية متصلة بلغ مداها فى رأيه ٩٥٥ عاما . وعنون مجموعة فراعنة الأسرة الثانية عشرة بعنوان ذكر فيه أنهم "ملوك (العاصمة) إيثت تاوى" (قرب اللشت الحالية) ، وسجل لكل فرعون منهم اسمه وقرة حكمه بالعام والشهر واليوم بالمداد الأسود ، ثم جمع قرات حكمهم جميعهم بالمداد الأحمر ، وبلغ بها ٢١٣ عاما وشهرا واحدا وسبعة عشر يوما . . . ، ولم يفسد عليه ملكته التاريخية إلا إيمانه بأساطير قومه التى جعلت للأراب نصيبا فى اعتلاء عرش البلاد القديم ، فبدأ بحكم الإله رع أتوم وأرخ بعده لحكم أراب آخرين ، جعل مدة حكم أحدهم ٣٠٠ عام ، وجعل مدة حكم آخر ٣١٢٦ عاما حتى انتهى بهم إلى المعبود الملك حور الذى انتسب إليه ملوك ما قبل الأسرات واعتبروا أنفسهم أتباعه ، وانتسب إليه ملوك الأسرات واعتبروا أنفسهم ورثته وخلفاءه والمتجسدين لشخصيته (١٠) .

كان آخر المؤرخين المصريين القدماء المعروفين ، الذين أرخوا لعهود الحكام السابقين لعهدهم ، مؤرخ دعاه المأغرقون "مانيتون" أو مانيتون ، ولد فى سمنود ، وعاصر بطلميوس الثانى خلال القرن الثالث ق.م ، وكان على اتصال ببلاطه وعلى دراية بتاريخ بلده وديانتها وخطوطها القديمة فضلا عن درايته باللغة اليونانية لغة أهل الحكم فى عصره (١١) .

وجمع مانيتون تاريخه من الأسانيد المكتوبة والقصص المروية واستفاد من أساليب أسلافه وجدد عليها ، فرتب الملوك المصريين واحدا بعد آخر ، من أقدمهم إلى أحدثهم ، فى حدود ما وصل إليه علمه عنهم ، وجمع ذوى القرابة منهم فى أسر ، ورتب هذه الأسرات ثلاثين أسرة ، نسب كل واحدة منها إلى البلديات التى خرجت منها أو العاصمة التى حكمت فيها ، بفعل واحدة من ثنى قرب جرجا ، وأخرى من منف عند رأس الدلتا ، وغيرها من هناسيا فى مصر الوسطى ، وسواها من طيبة فى قلب

(٩) A. H. GARDINER, AND T. ČERNÝ, The Turin Canon of Kings, Oxford 1952, 1959

(١٠) عبد العزيز صالح : التاريخ فى مصر القديمة - ص ٢١ - ٢٢

(١١) لم اهتم للأسف الى أصل اسمه المصرى ، وانما يفترض موريه انه كان اسما يتداخل فيه اسم المعبود موتو رب الحرب ، وأذكر من الدكتور جرجس متى انه يظن ان اسمه كان يحتمل معنى الراعى أو السائس . . .
c f. W. G. WADDELL, Manetho, Cambridge 1944.

الصعيد ، ولم يبرأ هو الآخر من فكرة حكم الأرباب ، فبدأ بهم بعد أن سماهم بأسماء إغريقية شاعت عنهم في عصره ، وعقب بعدهم بمن اعتبرهم أولياء أو أنصاف آلهة .

وحاول أن يؤرخ للحياة الاجتماعية مع الحياة السياسية ما وجد سبيلا إليها ، فذكر لبعض اليهود أهم ما شهدته من طفرات حضارية ومعجزات دينية وطبيعية ونكسات سياسية ، فأصاب الحقيقة في بعض أحواله وضل عنها وكساها بثوب المبالغة والأساطير في بعض أحواله . ومن أخباره الطريفة التي خلط فيها بين إثارات من الصدق وألوان من المبالغة ، أنه روى عن ملك من الأسرة الأولى أنه كان طبيبا وكتب مخطوطات كثيرة في التشريح ، وروى عن عهد ملك من الأسرة الثانية أنه تقرر فيه حق النساء في ولاية العرش ، وقص عن عهد آخر من الأسرة نفسها أن الأرض انشقت خلاله في منطقة تل بسطة وهلك من جرائها خلق كثيف . واحتفظ بذكرى إيمحوتب العظيم فقص أنه ظهر في عهد الملك زوسر رجل حكيم يدعى إيموتيس برع في الطب والكتابة وكان أول من ابتدع طريقة البناء بالحجر المنحوت . وعندما أرخ لمحنة الهكسوس وصف أحوال البلاد قبل عهدهم وخلال عهدهم وصفا مخلصا مؤثرا .

ولا زالت كتابتنا لتاريخ مصر القديم تتناول روايات مانيتون بحذر شديد ، لاسميا ما يتعلق منها بتقديراته لأعداد الملوك وفترات حكمهم ، ولكنها لازالت في الوقت ذاته ، تجرى على سنته في تقسيم الأسرات الحاكمة القديمة إلى ثلاثين أسرة ، على الرغم من أنه فصل بين عهده وعهد أول أسرة فيها قرابة ثلاثين قرنا ، وأنه مضى بين عهده وبين العصر الذي نعيش فيه أكثر من عشرين قرنا .

كتب مانيتون تاريخه باللغة اليونانية في ثلاث مخطوطات أحدها مختصر فيما يقال ، وعفت الأيام عليها ، لولا أنه حدث لحسن الحظ أن نقل عنها قبل ضياعها نقر من المؤرخين الذين أعقبوا عهده ، واستعان كل منهم بها بقدر فهمه لها وبما يحقق رغبته من الاقتباس منها . فنقل عنها رجل عبري يدعى يوسيفوس أو يوسف ، ولد في أواخر القرن الأول ق . م ، وأراد أن يدافع عن قومه اليهود ضد كاتب اغريقي متمصر يدعى أبيون وماهم بالرجس والتشرد ووضاعة الأصل ، فادعى يوسف أنه وجد في مخطوطات مانيتون ما يربط بين قومه وبين الهكسوس وشفع هذه الدعوى بتسجيل فتحات حكم الفراعنة ، تسجيلا يصطبغ بالخرافة في معظمه ، وأصدر كتابه باسم Contra Apion أي ضد أبيون .

ونقل عن مانيتون كتاب ومؤرخون آخرون عن طريق مباشر أو غير مباشر ، أشهرهم يوليوس الأفريقي (أفريكانوس) الذي عاش في القرن الثالث الميلادي ، ويوسيبوس الذي عاش في القرن الرابع الميلادي ، وجيورجوس أوجرجس الذي عاش في القرن التاسع الميلادي .

وإلى جانب كتبة التاريخ العام القلائل في مصر القديمة ظل لكتبة التاريخ الخاص شأنهم الأكبر في تسجيل حوادث عهود فراعنتهم وتسجيل مفاخرهم واحدة فواحدة . وظلت جدران المعابد وجوانب المسلات وسطوح النصب من أهم مجالات الإعلام التاريخي التي استعملوها لتنفيذ أغراضهم ، ولم يكتفوا فيها بالتاريخ المكتوب وحده ، وإنما جعلوها كذلك معرضا للتاريخ المصور ومسرحا لتاريخ عقائدهم

الدينية وأساطيرهم القومية، وسجلوا عليها ما شاءوا تسجيله من مآثر فراعنتهم ومظاهر تقواهم ومناظر حروبهم وأخبار انتصاراتهم، وصبغوا ذلك كله بأصباغ زاهية من ألوان الفخر والدعاية وروح الأدب^(١٢).

وأسهمت النصوص والمناظر الفردية ل كبار الشخصيات في مصر القديمة بنصيبها في تدوين التاريخ العام عن طريق تسجيل ما اشترك فيه أصحابها من أعمال وحروب وبعثات ومنشآت وما ولوه من مناصب، وقد يكون بعض هذه النصوص والمناظر صادقا مرسلا يصور الأحداث كما جرت دون تزيين ودون تضخيم، أو يكون تقليديا عاديا يرد كل شيء إلى الملوك ويصفهم بما يحبون أن يوصفوا به من قوة وبأس وقداسة وعدل ولولم يكن لبعضهم نصيب من ذلك كله.

واهتم بعض الأفراد بأنسائهم كما اهتم فراعنتهم بأنسائهم، وسجلوها على جدران مقابرهم وعلى النصب التي أقاموها فيها. ومن أشهرهم كاهن يدعى عنخف إنسخمة عاش في أواسط القرن الثامن ق.م وتقصى أسماء أجداده إلى نحو أربعة عشر قرنا قبل عهده، وذكر مع بعضهم أسماء الفراعنة الذين عاصروهم، وكان من الطبيعي أن يخطيء في أعدادهم ويزيد فيهم وينقص منهم^(١٣). وكاتب مهندس يدعى خنوم لمبرع عاش في أواخر القرن السادس ق.م وأوائل القرن الخامس، ونقش نصاً في وادي الحمامات تقصى فيه ٢٥ اسما من أسماء أجداده، وعاد بهم إلى أوائل الدولة القديمة، وكان أقدم اثنين منهم مهندسين مثله وهما كانفر وولده العظيم لمحتوب^(١٤).

هذا عن المصادر الرئيسية لتصوير التاريخ العام في مصر القديمة، بنواحيه السياسية والإدارية خاصة، غير أن لهذا التاريخ مصادر أخرى صورت فنون أهله وحرفهم ومستويات تفكيرهم وصورت عاداتهم في مسراتهم وأتراحهم.

فعبث عن فنون مصر القديمة ما بقي من عمائر أهرامها ومعابدها وأساليب نقوشها ورسومها وتماثيلها، فضلا عن أدوات الترف والزخرف الصغيرة والكبيرة التي وجدت في مقابرها.

وصورت شئون حياتها اليومية، بنواحيها النظرية، مناظر الزراعة والصناعة والبيع والشراء والمناظر الأسرية على جدران مقابرها، وصورت جوانبها العملية الأعداد الضخمة من الأدوات العادية التي أستخدمها أهلها واستخدموها، والتمادج الصغيرة التي جسم الصناعات فيها هيئات مصانعهم ومخازنهم وقلدوا سير العمل فيها، ثم الرسائل القصيرة والطويلة والشكاوى والقضايا التي صورت انفعالات أهلها ومشاعرهم وترجمت عن حقائق صلات بعضهم ببعض.

وعبثت عن الحياة الفكرية فيها ما تضمنته مخطوطات البردي واللخاف من تعاليم وأشعار وقصص وأساطير وطب ورياضيات وفلسفات، فضلا عما يمكن استنتاجه عن مبادئ الهندسة النظرية والتطبيقية في المنشآت الرئيسية القائمة.

(١٢) راجع عن مدى الصدق في هذا التسجيل ومدى تأثيره في معارف المصريين التاريخية والقومية: عبد العزيز صالح: المرجع السابق ص ٤٧ - ٢٢

(١٣) L. BOBCHARDT, Mittel zur Zeitlichen..., Kairo, 1935, 92 f.

(١٤) K. SETHE, Imhotep, 14

وعبرت عن عقائدها الدينية والروحية ، نصوص الدعوات والأناشيد ومناظر العبادة وصور الحساب وحياة الآخرة، وتماثيل المعبودات وصورهم ، وتراتيل الدين التي تضمنتها متون الأهرام ومتون التوابيت وكتب الموتى .

وثمة مصدران آخران للحياة الحضارية في مصر القديمة تناواناهما في فصول سابقة، وهما مفهوم قصصها وأساطيرها وليس أسلوبها وحده ، ثم ما تركه مجتمعها القديم في مجتمعا المعاصر من ألقاظ ومسميات وعادات وتقاليد .

* * *

اتصلت شعوب الشرق القديم والحوض الشرقى البحر المتوسط بمصر القديمة وأخذت منها وأعطت لها ، واتسعت اتصالاتها بها خلال عصور الدولة الحديثة اتساعا كبيرا، وبدأ حكامها يكتبون إلى الفراعنة رسائل الود والاحترام المبالغ فيه خلال عهود السلام التي ربطت بينهم ، وخلال فترات القوة التي امتازت مصر بها ، وهي رسائل تعرف نسخها المحفوظة عندنا باسم رسائل الهارنة ، كما تعدت نصوص دولهم أن تسمى إلى مصر والمصريين بادعاءات مبالغ فيها خلال فترات الحروب والمنازعات التي نشبت بينهم وبينها ، وخلال انترات ضعفها ، وبخاصة في فترات النزاع مع الأشوريين ، وكل ذلك مما يعنى أنه على الرغم من قيمة المصادر الخارجية في تصوير علاقات مصر بجيرانها ، وقيمتها في الدراسة المقارنة وتحديد عهود الفراعنة بالنسبة إلى من عاصروهم من أمراء الشرق القديم وملوكه والعكس بالعكس ، إلا أنه يصعب الاطمئنان تماما إلى روح المبالغة التي تضمنتها سواء في فترات السلام أم في فترات الحروب والحصام .

ووفد المؤرخون والرحالة الإغريق من آسيا الصغرى وشبه الجزيرة الإغريقية وجزر إيجه إلى مصر منذ القرن السادس ق . م أو منذ ماسبقه بقليل ، وشجعهم على التردد عليها حينذاك استخدام بنى عمومتهم الأيونيين والكاريين والإغريق جنودا مرتزقة في جيوش الأسرة السادسة والعشرين ، واتساع المجالات الاقتصادية أمام تجارهم فيها ، وسماعهم الأخبار من هؤلاء وهؤلاء عن حكمتها وآثارها وثرائها ، فضلا عما تواتر إليهم عن صلوات أسلافهم في آسيا الصغرى وجزر إيجه بها . وأشهر أولئك الرحالة والمؤرخين هيكتاتيوس الميليقي الذي زارها في أواخر القرن السادس ق . م ، وهيرودوت (هيرودوتوس) الهارليكارناسي الذي زارها في أواسط القرن الخامس ق . م أو في نصفه الثاني ، وهيكتاتيوس الأبديري الذي زارها في أواخر القرن الرابع ق . م ، وديودور (أوديودوروس) الصقلي الذي زارها في منتصف القرن الأول ق . م ، واسترابون البونتي الذي زارها في الربع الأخير من القرن الأول ق . م ، وبليني الأكبر (أوبلينيوس) الجغرافي الذي زارها في النصف الثاني من القرن الأول الميلادي ، وجوقينال العجوز الذي عاش حتى عام ١٢٧ م ، وبارتارخ (من خايرونيا) الذي زارها في أواخر القرن الأول الميلادي أو أوائل القرن الثاني . وكل أولئك فضلا عن أقاموا في مصر والإسكندرية خاصة ، من الإغريق والمقدونيين منذ عصور البطالمة وأصبحوا مواطنين فيها وكتبوا عن تاريخها القديم وأحوال مجتمعا ، ومنهم إراتوستينوس الذي عاش بعد ما يتون المصري بقليل وسجل مثله ثمانية وثلاثين إسما من أسماء الملوك الطيبين بالإغريقية ، وأبو اللودوروس المزعوم الذي أضاف إلى قائمته ثلاثة وخمسين إسما ، وهورا بوللو الذي حاول استكناه فلسفتها عن طريق مدلول صور كتابتها ومرموز أساطيرها .

وكان من الطبيعي أن يختلف نصيب كل مؤرخ وجغرافي ورحالة من هؤلاء وهؤلاء عن سواه في مدى تحريه الصدق فيما رواه عن مصر ، ومدى معرفته بتاريخها ، ومدى إقامته بها ، ومدى فهمه لتقاليد أهلها ، بل إن ما كتبه كل منهم عنها جمع في طياته بين الصدق والافتراء ، والذكاء والغفلة ، والإعجاب والتهمك ، والمدح والذم ، في آن واحد ، وكل ذلك مما يحول دون الحكم على أحدهم بحكم واحد ، أو الحكم على كتاباتهم كلها بحكم واحد .

ويرجع الخلط بين الغث والثلث فيما رواه أولئك الرحالة والمؤرخون عن مصر إلى أنهم لم يكتفوا بالكتابة عما شاهدوه فيها حين زيارتهم لها ، وإنما تجاوزوه إلى محاولة استقصاء حضارة عصورها القديمة كلها ، وحاولوا عقد الروابط أو عقد المقارنات بينها وبين حضاراتهم الغربية كلما استطاعوا إلى ذلك من سبيل ، وكانوا مدفوعين إلى ذلك بأحد ضدين ، إما التعصب المستر لحضاراتهم الغربية وسعيهم إلى إظهار نواحي تفوقها على غيرها عن طريق عرض نواحي الغرابة في الحضارات الشرقية التي عاصرتها وسبقها ، وإما الاقتان على الضد من ذلك بما ذكرته لهم أوديسيّا هوميروس من أن مصر "بلد الأطباء أحكم أهل العالم" ، وما تواتر إليهم وردوده من أن - كما كتبت - كانت الملحة للشرع سولون والفلاسفة طاليس وپيتاجوراس وأفلاطون ويودكسوس وغيرهم^(١٥) ، وما كانوا يسمعون عن آثارها وأمجادها وعراقه دياتها وقدام تاريخها الذي سمعوا أنه يرجع إلى عدد كبير من آلاف السنين بينما لا يرجع ما عرفوه عن تاريخهم القومي لغير عدد محدود من القرون ، وودوا لذلك أن يتامسوا الطريق للربط بين هذا التاريخ وذلك بكل ما يستطيعونه من الأسباب . وعرف الكهنة والأدلاء والترجمة المصريين والمتمصرون هذه الرغبات الملحة لدى الرحالة والمؤرخين ، فأشبعوا نهمهم بأخبار وقصص تضمنت كثيران التحريف ، ثم زاد تحريفها لدى المؤرخين أنفسهم لعدم إلمامهم اللغة المصرية المكتوبة وصعوبة فهمها لما سمعوه من أدلائهم .

ووفد بعض أولئك الرحالة والمؤرخين إلى مصر كما يفد إليها السائح العادي ، يتامس الشوارد والنوادير أكثر مما يتامس القواعد والحقائق . وكدنوا كما قال عنهم رصيفهم استرابون يدخلون توار يخيمهم المغرب من القول كأنه شيء من اللحن أو النغم أو التوابل^(١٦) . وزاد بعضهم عن ذلك فاحتفظ بذكر ياته عن مصر في ذاكرته وبملاحظات دونها في إيجاز ، ولم يكتبها بإسهاب إلا بعد أن طوف في بلاد أخرى ، وبعد أن عاد إلى وطنه ، فاختلف عليه بعض ما شاهده واحتفظ به في ذاكرته ، وعمم أمورا ما كان ينبغي له أن يعممها .

ومؤدى ذلك كله هو أن ما أتى به الرحالة والمؤرخون الإغريق والرومان ، عن العصور الفرعونية البعيدة خاصة ينبغي أن يؤخذ بجذر شديد ، بل إن بعض ما وصفوه عن حياة معاصريهم المصريين

See for all these ; Oduss. IV, 231-2 ; HERODOTUS II, 177 ; Summary of Proculus ; Life of Pythagoras ; (١٥)

DIODÈNE, Vies des philosophes, VIII, 87 ; W. SCHUBART, Die Griechen im Agypten, 1927.

STRABO, XVII, 52. (١٦)

الذين رأوهم رأى العين عبروا عنه بوجهة نظرهم الخاصة وبوحى منطقهم ، فأحسنوا تصويره حيناً وأسأوا فهمه وتقديره حيناً آخر .

كان هيكتيوس الميليقي من أوائل المؤرخين المتأخرين الذين أخذوا بمبدأ نقد الأساطير واستبعاد خرافات أبطالها ، وزار مصر وليبيا ، وربما زار فارس والبلاد المؤدية إليها أو جمع معلوماته عنها من زاروها ، وضمن مشاهداته لعجائبها ومحصوله عن أخبارها وقصصها في مؤلف سماه رحلة حول البحر ، وقيل إنه ضمنه خريطة لرحلته أو على الأقل ضمنه صورة من خريطة مواطنه الفيلسوف الجغرافي أناكسيمندر الميليقي (نسبة إلى ميليتوس في آسيا الصغرى) ، وأثبت عليها البلاد التي زارها^(١٧) . وقد ضاعت مؤلفاته كلها ، ولم يتبق من أخبارها إلا ما رواه المؤرخون عنها ، ويفهم منه أنه تحدث عن فيضانات النيل ومشكلاتها وعن تكوين الدلتا وعن حيوانات أرضها ، ويحتمل أنه كان أول من قال عبارة مصر هبة النيل (أوهبة النهر) δῶρον τοῦ ποτάμου ثم ردها هيرودوت بعده .

زار هيرودوت الهالكارناسي (من كيريا في آسيا الصغرى) مصر ضمن غيرها من مواطن الحضارات في الشرق القديم والحوض الشرقي للبحر المتوسط ، وسجل أخبار رحلاته في النسخة الأولى من كتبه في فترة ما تقع بين ٤٤٨ - ٤٤٢ ق.م ، ثم أعاد كتابتها في أواخر حياته^(١٨) .

واختلف التاريخ في الحكم على هيرودوت وعلى كتبه اختلافا كبيرا ، فعلى حين لقبه شيشرون بلقب أبي التاريخ ، اتهمه بلوتارخ بالتحيز لأعداء بلده ، وسماه بعض المؤرخين المحدثين أبا الأباطيل . والواقع أن هيرودوت ممثلا فيما بقي من كتبه لا يمكن أن يخضع لرأى واحد من هذه الآراء ، ففي كتبه ميزات تنسب لصالحه وفيها ما أخذ تحتسب عليه . ويعيننا من هذه وتلك ما كتبه عن مصر وأهلها .

لم تفت هيرودوت دقة الملاحظة وبراعة التعليل أحيانا فيما كان يشهده ويكتب عنه من الظواهر البيئية والظواهر الاجتماعية ، فقد شاهد على اللال المحيطة بدلتا النيل أصدافا بحرية متحجرة ، وشاهد رواسب ملحية تغطي بعض مناطقها المنخفضة ، وشاهد كثافة كبيات الطمي التي يحملها النيل معه ويرسبها في أرض الدلتا ، وسمع تعليقات المصريين عن كل هذه الأمور واسترجع ما يشبهها في بلاد الإغريق ،

J. B. BURY, A History of Greece, 1959, 236-237. (١٧)

(١٨) عن هيرودوت عامة : J. POWELL, The history of Herodotus, 1939 و جورج سارتون : تاريخ العلم - - - - -
مغرب بالقاهرة - جزء ٢ - فصل المؤرخين - ص ١٥٨ وما بعدها - محمد صقر خفاجة : تاريخ الأدب اليوناني -
ص ١٢٠ وما بعدها - عبد اللطيف أحمد على : تاريخ اليونان - ويتضمن تعقيبات قيمة عن المؤرخين اليونانيين
عامة في حواشيه للدسمة .

ومنه في مصر : W. SPIEGELBERG, Die Glaubwürdigkeit von Herodots Bericht über Ägypten im Lichte der ägyptischen Denkmäler, 1926 ; EHRENBERG, Zu Herodot, Klio XVI ; W. G. WADDELL, Herodotus, Book II, 1939. وهيب كامل : هيرودوت في مصر

For mentioned items here of Herodotus see his book II, 3, 4, 12, 35-36.

ثم كتب خلاصة الرأي فيها ، وهو أن أراضي الدلتا كانت في عصورها القديمة مغمورة تحت مياه البحر المالحة ، ثم انحسر البحر عنها وترك عليها بعض رواسبه ، وأخيرا غطاها نهر النيل برواسبه . وهو رأى مقبول إلى حد كبير .

وأضاف هيرودوت عن مصر أنها إذا قورنت بأى أرض تفوقت عليها ، وأنها أغنى البلاد بجباؤها وآثارها التي يعجز عنها كل بيان . وقال في وصف معبد أتمنجات الثالث الذي سماه باسم قصر اللابرت ، تشبيها له بقصر اللابرت الكريتي ، إنه لو اجتمعت آثار الإغريق كلها في صعيد واحد لما طاولته في فخامته وضحامته ، واعترف بأن كثيرا من المعارف المصرية في الفلك والدين والفن كانت أصلا لأمثالها في بلاد الإغريق وعالمهم المتحضر .

وأدى اختلاطه بأهل الحضارات القديمة إلى خروجه أحيانا بأحكام عامة مقبولة ، وكان من ذلك على سبيل المثال أنه أشار إلى عدد من قصص المعبودات المصرية القديمة ، ثم عقب عليها بقوله ”ولست أريد أن أقصها ، وإن أردت أسماء أربابها ، لأني أعتقد أن الناس في علمهم بالآلهة سواء.“.

ولا يزال مارواه عن العصر الصاوي وعلاقات مصر بالفرس مقبولا في جملة لقرب عهده به .

بيد أن رغبة هيرودوت في إظهار علمه وإرضاء قرائه دفعته إلى وصف آثار وأموال لم يرها ، وشجته على أن يزج بنفسه فيما لا علم له به ، مع أنه لم يقض في مصر غير ثلاثة شهور أو أربعة ، وهي فترة قصيرة في حدود إمكانات الانتقال القديمة ، نروي قصصا دينية وسياسية كثيرة ، ذكر فيها سيزوستريس (سنوسرت) قبل خوفو ، ونسب فيها أعمال رمسيس الثاني إلى سيزوستريس ، وأساء فهم بعض الظواهر والمناظر وجعل شرحه لها قضية مسالما بها ، وعمم بعض القضايا والأحكام حيث لم يكن ينبغي له أن يعممها ، ففي حديثه عن العادات المصرية القديمة ادعى أن النساء المصريات اعتدن على أن يخرجن إلى الأسواق دون الرجال ، واعتدن على أن يحملن البضائع فوق رؤوسهن دون الرجال ، ولم يكن في ذلك الحكم العام شيء من الصحة ، وإنما حدث اللبس عنده حين شاهد صور النساء في مناظر المقابر والمعابد يحملن الهدايا والقرايين فوق رؤوسهن ويمشين بها في صفوف ، فظنها تعبر عن الحياة الفعلية في عصور تصويرها ، بينما لم تكن في حقيقة أمرها غير رموز مجسمة لأسماء الضياع والقرى والمدن التي امتلكها أصحاب المقابر والمعابد وتمنوا أن تشترك بخيراتها في أداء القرايين الضرورية لمقابرهم ومعابدهم ، ولما كانت أغلب أسماء الضياع والقرى والمدن أسماء مؤنثة عبر المصريون عنها بصور الإناث ، كما عبروا عن أسمائها القليلة المذكورة بصور الرجال .

تناول ديودور الصقلي^(١٩) أوضاع في مصر السياسية والاجتماعية والدينية كما تناولها هيرودوت ، ولكنه كان أكثر منه إنصافا للمصريين وأكثر فطنة منه في تفسير عقائدهم وأساطيرهم ، فكتب عما تواتر إليه من آرائهم في نشأة الوجود وتعاقب المعبودات وعمران الكون ومسببات الفيضان وأهم الحيوانات والنباتات وكتب عن تقاليد الملوك (كما رويت له) وتشريعات المشرعين والتربية والتعليم والطب ، وكتب عن آرائه وآراء غيره في العادات والأعياد والعبادات وطقوس ما بعد الموت ، وكانت له عبارات صائبة من فقرة إلى أخرى في مثل قوله ” إن مصر حتمها الطبيعة من جميع جهاتها “ ، واستطاع أن يقدر آثارها ويقدر أصحاب الفضل فيها تقديرا سليما ، ففي وصفه للأهرام كتب عنها :

” تتفق الآراء على أن الأهرام لم تحظ في مصر بشهرتها الواسعة لضخامة مبانيها وكثرة تكاليفها فحسب ، بل اعتمدت شهرتها كذلك على دقة مبانيها ومهارة صناعتها ، وليس من شك في أن مهندسيها كانوا أحق بالإعجاب من الملوك الذين دبروا نفقات لإنشائها ، فالمهندسون بذلوا من أرواحهم وجهودهم وخلاصة أفكارهم حتى أنجزوها ، بينما استغل الملوك جهود غيرهم واستغلوا الثروات التي ورثوها عن آبائهم “ .

غير أن كل ذلك لم يبرئ ديودور من شطحات لا تقل عن شطحات هيرودوت في التاريخ القديم وحكامه وأحداثه ، فقد جعل إنشاء طيبة سابقا لإنشاء منف ، وروى ما حدثه به المصريون عن هجرات خرجت من مصر وعمرت العالم القديم وأشاعت الحضارة فيه .

تعاقب على الكتابة عن مصر القديمة من أسلفنا ذكرهم ص ٢٣٩ من الإغريق والرومان ونؤثر التجاوز عن تفصيل أخبارهم مراعاة للايجاز ، وكان أهمهم فيما هو معروف استرابون الذي طوف بمصر في الربع الأخير من القرن الأول ق.م ، وأفاض الحديث عن نيلها ومنابعه وحيواناته ومزروعاته وتبع وصف البيئة المصرية حتى أقاصى النوبة ، وزار أمهات المدن المصرية وشاهد آثارها وحضر بعض احتفالاتها ، ولكنه وصفها وصف سائح أكثر منه وصف مؤرخ . ثم بلوتارخ صاحب الفضل في ذبوع قصة أوزير وإيسة^(٢٠) ، وإن يكن ديودور الصقلي سبقه في الكتابة عنها ، وكانت له ومضات طريفة في تفسير الديانة المصرية وشطحات أخرى عنيفة ، فمن آرائه المقبولة ما رآه من أن القصة الأوزيرية لا ينبغي أن تؤخذ بحرفيتها ، وأن لها أكثر من لون واحد ، كألوان قوس قزح ، وإن يكن

(١٩) جورج سارتون : المرجع السابق

وهيب كامل : ديودور في مصر - ١٩٢٧

and for mentioned items of Diodorus, see his book, I, 31, 64.

PLUTARCHUS (of Chaeronea, 50-120 A.D.), De Iside et Osiride (٢٠)

راجع أيضا عبد اللطيف أحمد على : روما - ويتضمن معلومات قيمة في حواشيه عن مؤرخي العصور الرومانية.

في تصويره لهذه الألوان قد اصاب الحقيقة مرة وأخطأها مرات. وتلاه في الأهمية كليمنت السكندري (١٥٠-٢١٥ م) وكانت له كتاباته في الديانة المصرية وطقوسها ومواكبها وفي الرموز الهيروغليفية ومفهوماتها^(٢١).

ولم تخل كتابات بعض الرحالة والأدباء من قدح شديد لمصر والمصريين ، ومنهم جوفينال (٤٧-١٢٧ م) الذي صب لعناته على من سماهم باسم عبدة القطط والتمايح . . . ، غير أن الغالبية من المفكرين ظلوا منحازين إلى جانب مصر ومجدها القديم ، فقال احدهم ذات مرة على لسان أصحابه المتصوفين ” إننا نعلم أن الآلهة كانت ولا تزال تعيش هناك (في مصر)“^(٢٢) وذكر آخر في كتاب له أنه يعجب كل العجب من أن من ولدوا في مصر المقدسة كانوا دائماً أكثر فطنة ممن يولدون خارجها^(٢٣).

غير أنه فيما خلا ذلك الرعب الذي ذكرناه من مفكرى الإغريق ومتصوفة الرومان ، وبعد أن تكاثفت عوامل كثيرة على انتقال مركز الثقل السياسى من مصر إلى ما سواها من دول العالم القديم ، وبعد أن أناخ الحكم الرومانى على مصر بكلكله ، وبعد أن دان أهل مصر بدين المسيحية وأصبحت المعابد والأهرام والمقابر دليل الرجس والكنفر والسخره ، بدأت أضواء الحضارة المصرية تغيب عن الأذهان شيئاً فشيئاً ، وأصبح الناس لا يذكرون آثار المصريين وحضارتهم إلا مقرونة بالأساطير والسحر والخرافات ، وزاد ذلك عند المؤرخين العرب زيادة كبيرة^(٢٤).

واستمر أمر مصر القديمة وحضارتها غامضاً على العالم المتحضر هكذا ، إلا على من يقرأون كتابات الإغريق والرومان الأقدمين ، وإلا من ومضات خاطفة أشاعتها مؤلفات عدد قليل من الرحالة زاروا مصر على فترات متباعدة من القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين ، وشاهدوا أهرامها وبعض معابدها ومقابرها ورسموا جانباً منها وتخللوا عنها وعن أسرارها ما وسعهم الخيال^(٢٥) ، ثم كانت أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، وعندها اتجه الاهتمام بالحضارة المصرية في اتجاهات ثلاثة : اتجاه وصفى عمل أصحابه على وصف الآثار الظاهرة في عهدهم وصفاً صحيحاً وتصويرها تصويراً

(٢١) Reo. Tr. XXXIII, 8 f. وهن هورابولو ومحاولاته لقراءة اللغة المصرية القديمة وتعليل حكمة المصريين فيها - F. SBORDONE, Hori Apollinis Hieroglyphica, translated in Chr. d'Egypte XXXV (1943), 39 f.

(٢٢) J. KROLL, Die Lehre des Hermes Trismegistos, 167, A. Nock, in J.E.A., XI, 127.

(٢٣) Descr. totius mundi, (ed. Lumbroso, Accad. die Lincei 1898, 144 f.

(٢٤) راجع على سبيل المثال خطط المقرئى الجزء الاول ص ١١

(٢٥) راجع عن تصورات هؤلاء الرحالة عن الآثار المصرية

J. LAUEB, Le problème des pyramides d'Egypte, Paris 1952, ch. I; L. COLTBELL, The mountains of

Pharaoh, 1956; and see Chronique d'Egypte, XXXV, 240 f.

سلياً، واتجاه لغوى حاول أصحابه فهم الكتابة المصرية القديمة باعتبارها لغة ناصجة تتكوّن من مقاطع وحروف وإيست مجرد رموز ، واتجاه كشفى عمل أصحابه على التنقيب عن الآثار المدفونة تحت الأرض وبين الرمال .

ووضحت لحركة وصف الآثار المصرية الظاهرة مرحلتان ، مرحلة تكفل بها العلماء الفرنسيون الذين صحبوا نابليون إلى مصر ، ونشروا نتائجها بين أعوام ١٨٠٩ - ١٨١٣ ضمن مجلداتهم الضخمة عن وصف مصر "Discription de l'Egypte" ، ومرحلة أخرى تكفلت بها بعثات أجنبية منظمة منذ عام ١٨٢٨ ، وكان من روادها روسليني^(٢٦) ولپسيوس ، وواصل هذا الأخير عمله ، ونشر مجلدات ضخمة منذ عام ١٨٤٩^(٢٧) ، صور فيها طائفة كبيرة من الآثار الظاهرة في مصر والنوبة ، وأثاراً أخرى كشف بنفسه عنها في سقارة ومصر الوسطى ، ومنذ ذلك الحين سار وصف الآثار ورسمها جنباً إلى جنب مع الاتجاه إلى التنقيب عن الآثار المدفونة .

وبدأت الدراسات اللغوية السليمة بعد العثور مصادفة على حجر رشيد في عام ١٧٩٩ ، وهو حجر من البازلت الأسود عثر عليه خلال حفر خندق حول إحدى القلاع برشيد، وحاول الفرنسيون أن يخرجوا به من مصر مع غيره من الآثار التي وجدوها في أرضها، ولكن هزيمتهم في أبي قير أدت إلى انتقال هذه الآثار ومن بينها حجر رشيد إلى المتحف البريطاني بلندن .

نقشت على واجهة حجر رشيد سطور كثيرة ، بقي منها ١٤ سطرا كتبت بالخط الهيروغليفي في أعلاه ، و ٣٢ سطرا كتبت بالخط الديوطيقي في وسطه ، و ٥٤ سطرا كتبت باللغة اليونانية في أسفله . وحاول قراءة هذه الخطوط عدد من الباحثين ، بدأت محاولاتهم منذ ١٨٠٢ ، وكان أكثرهم نجاحاً (S. de Sacy, Akerblad, T. Young, and J.F. Champollion) وانتهت دراساتهم المفرقة عام ١٨٢١ إلى أن نقوش الحجر تضمنت قراراً للكهنة المصريين أصدره عام ١٩٦ ق. م ، وشكروا فيه الملك البطلمي إيفانوس على إعفائه معايدهم من تكاليف فرضها أسلافه عليها ، وما نود أن ندع شكر الكهنة هذا بغير أن نعقب عليه بحقيقةين، وهما أن الكاتب المصري كاتب الحجر تعتمد أن يجعل كتابته الهيروغليفي المقدسة في أعلى الحجر ، وسجل كتابته الديموطيقية الشعبية في وسطه ، ونحى الكتابة الإغريقية لغة الملك البطلمي وبطانته إلى أسفله ، وذلك مما يعني أن عجز المصريين إزاء حكاهم البطالمة الأجانب لم يمنعهم من أن يتلمسوا كل سبيل يعبر عن قوميتهم الدينية ويتقمم لكرامتهم المغلوبة على أمرها .

أما الحقيقة الثانية فتتمثل في أن ثناء الكهنة المصريين على الملك الأجنبي لم يمنعهم من أن يلزموه في سياق النص بعبارات متفرقة ، كان منها عبارة تقول "إن الملك ثبت للعباد ومصر تقاليداً وفقاً

I. ROSELLINI, I monumenti dell'Egitto e della Nubia, ... Pisa, 1832-44. (٢٦)

K. R. LEPSIUS, Denkmäler aus Aegypten und Aethiopen, Berlin 1849 f. (٢٧)

للقانون“ وكأنهم بعبارتهم هذه التي ذكروها عامدين في سياق شكر الملك لم يروا فيما أثابهم به هذا البطلمي غير تسليم بما يأمر به العرف الواجب والقانون (٢٨) .

فقد سجر رشيد عددا كبيرا من سطوره الهيروغليفية، ولكنه تضمن سطوره الديموطيقية واليونانية شبه كاملة ، ويسر على الباحثين فيه قراءة نصوصه دراساتهم السابقة في اللغات القديمة ، ومعرتهم باللغة الإغريقية ، واهتداؤهم خلال قراءتهم لنصه الإغريقي إلى عبارة توصي بكتابة القرار بالكتابة المقدسة أي الهيروغليفية والكتابة العامة أي الديموطيقية فضلا عن الكتابة الإغريقية ، وذلك مما نم عن أن الكتابات الثلاث ليست غير ثلاث ترجمات أو ثلاث نسخ لقرار واحد. ووجد أولئك الباحثون ألفاظا كررت عدة مرات في النص الإغريقي وحاولوا التعرف على مرادفاتهما في الكتابة المصرية ، ومنها ألفاظ المعابد، والكهنة ، واسم بطلمئوس نفسه، ولما كانت أسماء الأعلام لا تتغير حروفها تغيراً كبيراً بين لغة وأخرى ، حاولوا التعرف على مرادفات اسم بطلمئوس في الكتابة المصرية، ويسر لهم ذلك أن المصريين اعتادوا على تضمين أسماء الملوك في إشارات مستطيلة ملفوفة الأركان يطلق عليها اصطلاحاً اسم الخراطيش ، وبمقارنة هذا الاسم في اللغتين الإغريقية والمصرية اهتدوا إلى معرفة رسم بضع علامات وحروف مصرية ، ثم تكررت المحاولة على نقوش مسلة مصرية نقلت إلى إنجلترا عام ١٨١٩ ونشرت نقوشها الهيروغليفية ونقوش أخرى يونانية سجلت على قاعدتها عام ١٨٢١ ، وتضمنت هي الأخرى اسم بطلمئوس واسم كليوباترة ، وبالمقارنة بين الحروف المشتركة بين الإسمين، وضح ثلاثة عشر حرفاً ذات اثني عشر صوتاً. وكانت محاولات أولئك الباحثين بمثابة مفاتيح أسرار اللغة المصرية التي استغلقت على من سبقهم قروناً طويلة ، واستمرت المحاولات حينذاك لقراءة أسماء مصرية وإغريقية ورومانية، مثل تحتمس والاسكندر وبرنيكي ودوميشان وتراچان ، واتصلت الدراسات بعد ذلك على الآثار وصفحات البردى جيلاً بعد جيل ، حتى أصبحت اللغة المصرية تعرف اليوم بما لم تعرف به لغة قديمة أخرى من الصحة والوضوح (٢٩) .

مر الاتجاه الثالث للتنقيب عن الآثار الدينية في عدة مراحل خلال القرن الماضي والقرن الحالي (٣٠) فبدأ بمرحلة شغلت النصف الأول من القرن التاسع عشر، واستغلها طائفة من الأجانب من أدياء البحث

(٢٨) عبد العزيز صالح : دراسات في التاريخ الحضاري لصير القديمة - القاهرة ١٩٥٧ - ص ٥٣ - ٥٨

(٢٩) J. E. A. 1958, 123; A. H. GARDINER, Egyptian Grammer, 1927, p. 12-15

أدولف ارمان وهرمان رانكة : مصر والحياة المصرية - المقدمة ج - د

(٣٠) GLANVILLE, The growth and nature of Egyptology, 1947; G. E. DANIEL, A hundred years of Archaeology, 1949; F. L. GRIFFITH, The Decipherment of the Hieroglyphs, in J.E.A., XXXVII, 38 f.

عبد المنعم أبو بكر : الكشوف الأثرية وأثرها في كتابه التاريخ - مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية - ١٩٥٦

الأثرى ، كان أغابهم أفاقين نهايين اجتذبتهم الشهرة التي عممت العالم عن كنوز مصر وفنونها ومعجزاتها والرغبة في تحصيل الثراء عن أقرب سبيل ، وشجعهم استعداد المناحف الخارجية و كبار الأثرياء على شراء كل ما يعرضونه عليهم منها ، ويسر لهم سبيلهم فتح أبواب مصر بغاة أمام الأجانب منذ أيام الحملة الفرنسية وأيام محمد علي بعد أن كانت شبه موصدة في وجوههم أيام سيطرة العثمانيين ، ثم معاونة القناصل لهم واستخدامهم لإياهم لصالحهم في فترات الضعف من عهد محمد علي . وعن طريق هؤلاء وهؤلاء انتقلت كنوز مصرية كثيرة إلى المناحف الخارجية وإلى مجموعات الأثرياء . ولم تقتصر شروور هذه الفترة على تسرب آثار مصر إلى الخارج، وإنما امتدت شروورها إلى تحطيم الحش من هذه الآثار وتحطيم مئات من الجثث ، مما لم يكن الأفاقون يقدرون له أهمية مادية كبيرة .

وبدأت الحكومة المصرية تهتم بالمحافظة على آثارها منذ الربع الثالث للقرن التاسع عشر، ونضجت فيها فكرة إنشاء متحف مصرى منظم للآثار ، وهى فكرة نبتت فيما يقال منذ عهد محمد علي ، وأراد بها أصحابها المصريون أن ينشئوا إدارة خاصة تحمى الآثار وتبطل حجة الأجانب للخروج بها على أساس أن أصحابها غير معينين بها ، ولكن هذه الفكرة تعثرت فى مهدها ولم يقدر لها النجاح فى حينها ، واكتفى الولاية بتخزين الآثار المكتشفة فى دار بالأزبكية مدة ، وفى القلعة مدة أخرى، حتى أحيى أوجست ماربيت الفكرة من جديد فى عهد سعيد ، وأنشأت مصر متحفاً منظماً لأول مرة كان مقره فى بولاق عام ١٨٥٩ ، ثم انتقل منها إلى الجيزة ، ولم يستقر فى موضعه الحالى إلا عام ١٩٠٣

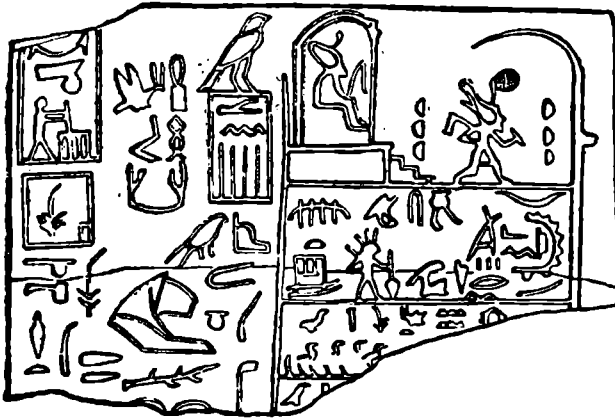
ونشط التنقيب عن الآثار فى هذه الفترة بموافقة الدولة، وترأسه ماربيت نفسه، فكشف عن سيرابيوم سقارة ومعبد خفرع فى الجيزة ولقت الأنظار إلى معابد أبيدوس وادفو ودندرة ، وكان له الفضل فى نشر نقوشها ونقوش نصب كثيرة وجدها فى أبيدوس ، وعدة مساطب كشف عنها فى سقارة ، ومقابر كشف عنها فى طيبة ، ولكن كان شأنه شأن كل أجنبي تحكم فى أمور مصر فى فترات ضعفها ، يدعى الغيرة على مصالحها إذا تصرف غيره فيها ، وينسى الغيرة عليها إذا تصرف بنفسه فيها .

وظهر جيل من الأثريين والمؤرخين واللغويين فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر، راعوا الحرص ما أمكن حين التنقيب عن الآثار وحين تجميعها ، وراعوا الحرص على التعجيل بتسجيلها ونشر أوصافها وقراءة نصوصها، وقدروا الأهمية لكل شئء كشفوا عنه برافا كان أم غير براق، ثمينا كان أم غير ثمين، وكانت لهم جهودهم الواسعة فى سقارة ومصر الوسطى والفيوم ونقادة وطيبة فى قلب الصعيد ولو أنهم ظلوا أجانب للأسف فى جياتهم .

وتوالى بعثات أثرية كثيرة أوفدتها الجمعيات والجامعات الأوروبية والأمريكية منذ عام ١٨٩٠ واستمر لها نشاطها خلال القرن العشرين فى صعيد مصر ودلتاها ، ولا سيما فى مناطق الجيزة وسقارة وتل العمارنة وطيبة، فكشفت عن قرى ومدن وأهرام ومعابد ومقابر واستخرجت كنوزا ونشرت مخطوطات

ووثائق ونصوصا كثيرة، وكان أول المصريين الذين اشتركوا في هذه الجهود هو المرحوم أحمد كمال باشا، ثم أسهم بعده من يعرفهم جيلنا الحاضر من الباحثين المصريين الأجلاء .

كانت هذه هي الخطوط العامة التي سلكتها الجهود الحديثة في سبيل كشف النقاب عن آثار مصر القديمة وحضارتها ، وقد استمرت فيما قدمنا حوالى القرن ونصف القرن ، وتعاقب فيها الفشل والنجاح والخطأ والصواب ، ولكنها قدمت في نهاية أمرها ورة مجلوة للحضارة المصرية ، تشهد بأنها كانت حضارة توفرها من الأصالة والاستمرار ما لم يتوفر لحضارة قديمة أخرى ، وبأنها كانت حضارة غنية خصبة لاتزال تتطلب من أبنائها المصريين كثيرا من البحث المخلص والجهد والعمل الطويل .



(شكل ٣٢)

بطاقة من العاج تؤرخ لأحداث عام من حكم الفرعون « دن » احتفل فيه بجيده الثلاثيني ، وفتح جيشه حصن « عن » وانتصر على جماعة « مرن » ، وأشرف خازنه « حاك » على تشييد بعض القصور (؟)

الفصل السابع

حضارة مصر في عصر بداية الأسرات

تعددت الأسماء الاصطلاحية لهذا العصر ، وتعددت الآراء حول القرن الذي بدأ فيه ، وحول اسم مؤسسه أو مؤسسيه ، وعاصمته التي استقر ملوكه فيها ، كما تعددت حول المصدر الذي تطورت عنه حضارته والموطن الأول الذي انتسبت إليه طبقته الحاكمة .

فالعصر يسمى عصر بداية الأسرات على اعتبار أنه كان أول عصرية يبنى توارثت عرش مصر خلاله أسرات حاكمة ارتبط فراعنتها بعضهم ببعض بروابط القرابة وصللة الدم .

ويسمى باسم العصر العتيق Archaic Period إشارة إلى قدمه البعيد وزمنه السحيق وسبقه للعصور التي أعقبته مباشرة وسميت اصطلاحا باسم عصور الدولة القديمة .

ويسمى باسم العصر الثني ، اعتمادا على مارواه المؤرخ المصري القديم مانيتون من أن ملوكه نشأوا في مدينة ثني ، وهي مدينة يحتمل أنه قامت على أطلالها بلدة نجع المشايخ الحالية أو بعض نواحي مدينة جرجا الحالية . واعتمادا على ما تواتر منذ أواخر القرن الماضي عن وجود مقابر أغلب ملوكه في جبانة أبيدوس المجاورة لنفس المدينة ثني .

ويعتبر العصر أخيرا بداية للعصور التاريخية على أساس ما أسلفناه عن معرفة الكتابة فيه ، وما سوف نذكره من وحدة مصر السياسية والحضارية الكاملة خلاله وارتكاز نظمها الإدارية على أسس مستقرة دائمة .

واختلف الرأي في توقيت عصر بداية الأسرات اختلافا واسعا ، وانقسم الباحثون فيه فرقا ثلاثة : فريفا يمكن الرمز إلى أصحاب الأرنج بعيد المدى ، وفريفا يمكن الرمز إلى أنصاره بأصحاب الأرنج الوسط ، وفريفا يمكن الرمز إلى أنصاره بأصحاب الأرنج قصير المدى .

أصر أصحاب الأرنج البعيد المدى على أن يجعلوا بداية الأسرات سابقة لعام ٤٠٠٠ ق.م ، وكان منهم L. Borchardt and W. F. Petrie في أوائل القرن الحالى ، ثم وجدوا لهم أنصارا معاصرين

مثل M. Murray, A. Pochan & D. Nacnaughton وإن يكن هؤلاء الأخرى ليسوا ممن يعدد برأيهم في كتابة التاريخ وقضاياها (١) .

وذهب أنصار التاريخ الوسط إلى تعيين بداية الأمرات بما يدور حول القرن الثاني والثلاثين ق. م ، ومنهم H. Gauthier and Ed. Meyer وإلى حدماء H.E. Winlock ، P.A. Parker and A.H. Gardiner. (٢) .

وأصر أصحاب التاريخ قصير المدى على اعتبارها تبدأ في أوائل الألف الثالث أو ما بعدها ، ومنهم E. Drioton and J. Vandier وإلى حدماء A. Scharff, H. Kees and W.F. Albright (٣) .

ولا يخاور أي كل فريق من قرائن يعتمد عليها ، ولكن الرأي المقبول حتى الآن هو الرأي الوسط ، أما الرأي الأول صاحب التاريخ بعيد المدى فهو أقل الآراء الثلاثة في قرائنه وإن ظهر له كتاب حديشون رجعوا إليه منذ سنوات قليلة ، وأما الرأي الثالث صاحب التاريخ القصير المدى فلا زال يتأرجح ولم يثبت بعد على أرض قوية .

وكان من المفروض أن ندلى برأينا في مناقشة آرائ كل فريق ، لولا الرغبة في تخفيف التفاصيل على القارئ ، وهي تفاصيل يمكن تخمين وعورتها من اتساع الشقة بين التقديرات الثلاثة ، ولهذا نكتفي بتعيين بداية العصر بأواخر الألف الرابع ق. م ، ونراها كافية إلى حد كبير للتعبير عن أغراضها .

(١) Between 4070 and 4600 B.C. or 4170 and 4510 B.C. or 4050 and 4553 : L. BORCHARDT, Quellen und Forschungen zur Zeitbestimmung der ägyptischen Geschichte, I, 1917, 38 f; II, 1935 (reviewed in Chr. d'Égypte 1936, 434 f.).

4326 or 4320 : W.F. PETRIE, The Making of Egypt, London 1939, 9, 80.

5776 : D. NACNAUGHTON, A schema of Egyptian chronology..., 1932 (reviewed in J.E.A. XXIII, 270 f.)

5558 : A POCHANT, "Reconstitution des calendriers égyptiens anciens", in BSFE, Octobre 1954, 51 f.

3197 B.C. : ED. MEYER, Die ältere Chronologie Babylonien, Assyrien und Ägyptens, Stuttgart, 1925, 68, f; Nachtrag zum ersten Bande der Geschichte des Altertums, 1926. (٢)

3200 : H. GAUTHIER, Précis de l'Histoire d'Égypte, Le Caire 1932, p. 439.

3110 : P.A. PARKER, The Calendars of Ancient Egypt, 1950, p. 75, n. 59.

3100-3088 : H.E. WINLOCK, The Origin of the Anc. Egyptian Calendar, Pr. of the Am. Ph. Soc., 1940, 457, n. 33.

3100±150 : A.H. GARDINER, Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1961, 430.

3000 or 2850 : A. SCHARFF, Grundzüge, 1927, 54; J.E.A. 1928, 275; ZÄS. LXXI (1935), 89 f; Die Frühkulturen Ägyptens und Mesopotamiens, 1941, 38. (٣)

3000 : ET. DRIOTON et J. VANDIER, L'Égypte, Paris 1952, 17.

2980 : H. KEES, Das alte Ägypten, Berlin 1956, 197.

2950 : W.F. ALBRIGHT, "Menes and Narâm-Sin", in J.E.A. VI, 89 f.

2900 : J. VANDIER, Manuel d'Archéologie Égyptienne, Paris 1952, I, 613.

ارتبط تأسيس الأسرة الأولى بثلاثة أسماء :

نعرمر : وهو اسم ظهر به صاحبه في نقوش مقمعه ونقوش صلايته التي أكد بها سيطرته على الصعيد والدلتا . وظهر الاسم نفسه منفردا على هيئة الختم فوق سدادات طينية بمقبرة متواضعة في أبيدوس ، ونسب پترى هذه المقبرة إلى صاحبه (٤) ولكن هذه النسب أصبحت موضع شك ، بعد أن اكتشف إيمرى في سفارة مقابر أفراد عاصروه أو عاشوا بعده بقليل ، يزيد حجم الواحدة منها عن حجم مقبرته بثلاث مرات أو أربعة .

عحا أو حور عحا : (بمعنى المحارب أو حور المحارب أو صقر الحرب على الوالى) ، وهو اسم ظهر لصاحبه في مقبرة متواضعة في أبيدوس تألفت من حجرة واحدة تحت سطح الأرض ، وظهر اسمه فوق أخام السدادات الطينية منفردا تارة ، وداخل السرخ الذى يصور واجهة القصر الملكى تارة أخرى ، ويظهر الصقر رمز حور فوق سرخه عادة يقبض بيدين بشريتين على عدة الحرب المعبرة عن اسم عحا بل وقد يصور بيدين ورجلين أيضا (٥) . ونسب پترى المقبرة إلى عحا ، ولكن صغر حجمها هى الأخرى واقتصارها على حجرة واحدة دفع إلى الشك فيما إذا كانت له فعلا ، أم لزوجته نيت حوتب التي وجد اسمها على أخام ومخومات أخرى بنفس المقبرة ، أم لرجل من بلاطه وجد اسمه هو الآخر منقوشا على أوان حجرية بها وصعبت قراءته (٦) . وظهر اسم حور (أو حور عحا) على أخام كثيرة أخرى عثر إيمرى عليها في مقبرة ضخمة بسقارة ، ونسبها إلى الملك نفسه (٧) .

منى : (ربما بمعنى الخالد أو المثبت أو الراعى) (٨) ، وهو اسم ظهر على أخام قليلة متفرقة في أبيدوس ، وظهر على لوحة عاجية صغيرة تضمنت معه اسم عحا في مقبرة بنقلادة نسبها جارستانج إلى زوجته (٩) ، ولكنها أصبحت تنسب الآن إلى حميه أو إلى أحد كبار موظفيه (١٠) ، وهى مقبرة ضخمة يبلغ حجمها ثلاثة أمثال كبرى المقابر الملكية في أبيدوس .

Tomb. B 10 : W.M.F. PETRIE, The Royal Tombs, of the Earliest Dynasties, London 1901, p. 7, pl. LVI, (٤)
I, LIX.

Ibid., II, pl. X, 2, XI, 1-2; Ann. S. XXXIII, pl. I; XLVIII, Fig. 10. (٥)

Tomb B 19; R.T., p. 7-8, pl. LVIII; DE MORGAN, Recherches, Fig. 558; p. 168, and see A.H. (٦)
GARDINER, Egypt of the Pharaohs, p. 411-412.

WALTER B. EMERY, Hor. Aḥa, Cairo 1939 (Tomb 3357), Fig. 13-19. (٧)

Ibid; p. 99, Fig. 30. (٨)

Ann. S. XXXIII, pls. I, 2 (٩)
DE MORGAN, Recherches, II, 154 f; GARSTANG, in ZÄS XLII, 63-64; .
بعد فحصها الى نيت حوتب .

REISNER, Development, p. 27, Fig. 21

See J. VANDIER, Manuel, I, 637. (١٠)

وأثبتته قائمة أبيدوس وقائمة تورين باعتباره أول ملوك الأسرة الأولى، وذكره هيرودوت وماثيون وديودور على نفس الاعتبار أيضا (١١) .

ودارت آراء الباحثين بخصوص هذه الأسماء الثلاثة حول ثلاث مشكلات ، وهي : قراءتها قراءة صحيحة بقدر الإمكان ، والبحث فيما إذا كانت لشخص واحد أم لشخصين أم ثلاثة ، والبحث في صحة تتابع أصحابها في الحكم إذا كانت لأكثر من شخص واحد .

وكانت المشكلة الأولى أيسر المشكلات ، فاتفق أغلب اللغويين على قراءة الاسم الأول نعرمر ، ولم يخالفهم في قراءته غير فيكانتيف الذى قرأه نعرباتاي ، أو نعرباتاي معبا ، أو نعرى باتاي معبا ، وأصر على هذه القراءات حتى وفاته (١٢) وإن لم يأخذ بها أحد غيره ، ثم في الذى اقترح قسمة اسم نعرمر قسمين ، نعر وهو الاسم الحورى الذى ينسبه إلى المعبود حور ، ومر وهو اسمه الشخصى ، وذلك على أساس كتابة المقطعين منفصلين فعالفى بعض آثار صاحبهما (١٣) . غير أن رأيه هو الآخر لم يأخذ به أحد غيره .

واتفقوا على قراءة الاسم الثانى عحا أو حور عحا وفسروه ببعض المعانى التى أسلفناها له ، وإن كان بعضهم قد نسب له ألقابا لم تثبت حتى الآن مثل ابن إيسة ! (١٤)

واتفق كثير منهم على قراءة الاسم الثالث منى ، ومنهم بترى وكابار وجاردنر وغيرهم ، وعارضهم فى هذه القراءة كل من ليقبيور وناويل وفي وفيكانتيف . ورأوا أن العلامة الهيروغليفية التى اعتبرت اسما له ، لا تدل على اسم إطلاقا ، وإنما هى مجرد علامة تصور منصة التويج ومفعدى العرش ، وهى منصة ذكرتها منون الأهرام باسم منو ، وهكذا ينبغى التجاوز عنه فى رأيهم واعتبار قراءة العصور المتأخرة له باسم منى خطأ وخطأ بينه وبينها (١٥) .

Abydos List, I; Turin Pap. II, 11; Herod. II, 99; Diod., I, 50, and see ZÄS XXX, 43 f. (١١)

V. VIKENTIEV, in J.E.A. XVII, 67 f.; Ann. S. LIV, 1f; XLVIII. 665 f. (١٢)

R. WEILL, dans Rec. Trav. XXIX, 33-34; Recherches II (1961), I, 117 f. 157. (١٣)

واقترح بترى ترجمة مقطوع مر فى اسم الملك بمعنى حبيب واعتبر هيئة السمكة رمزا لمعبودة سماها « محيت » وبذلك ترجم الاسم « حبيب محيت » (The Wisdom of the Egyptians, 1940, 46) وعاد باحث حديث الى نفس الرأى فقرا الاسم مرمر أى حبيب نعر ، على اعتبار أن نعر هذا معبود وليس جمبودة. (G. GORDON, in Ann. S. 1949, 217 f; 547).


(١٤) ما ايسة (f) W. EMERY, op. cit., p. 23, fig. 18. ظهرت هذه العبارة بجانب اسمه فى بعض أختامه ، ولكن الشك لا يزال كبيرا فى قراءتها وتفسيرها وظهرت كلمة أخرى فى بعض أختامه وهى كلمة حت ، وهذه اعتبرها بترى ونيوبرى اسما ثانيا له واعتبرها جاردنر مجرد تعبير عن كلمة الحصن أو القصر . R.T. II, pl. XIV, 99; EMERY op. cit., Fig. 19; GARDINER op. cit. 411.

LEFÉBURE, dans Sphinx, III, 78 f; NAVILLE. dans Rec. Tr. XXI, 110 f; XXIV, 114 f., XXV, 206 f; (١٥) JERQUEB, ibid., XXXIV, 117 f., VIKENTIEV, op. cit.; R. WEILL, op. cit. II, 64-65.

وكانت المشكلة الثانية أكثر تعقيدا ، فالملك عحا الذى يدل اسمه على معنى الحرب والكفاح لم يظهر على أثر معاصر له يدل على اشتراكه فى حرب أو كفاح أو يدل على نصيبه فى توحيد مملكته .

ومنى الذى نسب إليه تأسيس الأسرة الأولى ، لم يترك آثارا كبيرة تدل على أهميته كمؤسس دولة ولم تذكره وثيقة مصرية معروفة على هذا الاعتبار إلا بعد انقضاء عهد الأسرة الأولى بنحو ألف وخمسمائة عام ، إلا إذا افترضنا أن قائمة بالرمو تضمنت اسمه فيما فقدته من أجزائها كما يرجح جاردنر (١٦) .

وظهرت فروض عدة للربط بين الأسماء الثلاثة وبيان تتابعها على أساسه، واقترح آخر هذه الفروض كل من ألان جاردنر وبرنهارد جردسلوف، ورأيا أن منى كان الأسبق، ثم تبعه ولده نعرمر الذى تلقب بلقب المحارب للإشارة إلى مراحل كفاحه ، وبنيا رأيهما على نقوش بطاقة عاجية جمعت بين الإسمين منى وعحا ، وبدأ كاتبها سطرها الأول باسم منى وأتبعه باسم عحا ، وذلك مما يعنى رغبته فى الإشارة إلى تكريم الأول فى عهد الثانى ، ثم تعمد أن يفرق بين الإسمين ، فنسب اسم منى إلى العقاب والحية ربتى الصعيد والدلتا ، وسجله داخل جوسق مثلث السقف يعبر فى رأيهما عن جوسق الطهير أو جوسق التحنيط ، بينما نسب اسم ولده عحا إلى المعبود حور راعى الملكة ، ورسمه داخل الإطار المعبر عن واجهة القصر الملكى ، وكأنه أراد أن يفرق بين الإسمين فى الوضع والنسبة ، باعتبار الأول اسما ملكت متوفى استقرت جنته فى جوسق التطهير ، واعتبار الثانى اسما لملك حى استقر فى قصر الحكم . وأضاف الكاتب على بطاقته عناصر رمزية مختصرة أخرى فسرها جاردنر برغبته فى تأريخ البقايا بمناسبة معينة ، وهى مناسبة إبحار الملك نعرمر - عحا بمركبه لزيارة الجوسق الذى وضعت فيه جثة أبيه لتطهيرها أو تحنيطها قبل دفنها (١٧) . ومع منطوقية هذا التفسير إلا أنه لا زال فى مرحلة الفروض . ومن الفروض التى يمكن أن توضع إلى جانبه اعتبار الأسماء الثلاثة لملك واحد ، تسمى فى اسمه الشخصى باسم نعرمر، ثم تلقب بلقب عحا (المحارب) اعترافا بنجاح جهوده الحربية ، وتلقب أخيرا بلقب منى بمعنى المثبت أو ما يشبهه ، إشارة إلى تثبيته أركان دولته ، ولا يضعف هذا الرأى بدوره إلا أن الأسماء الثلاثة لم توجد على أثر واحد إطلاقا ، وإن وجد أثر صغير جمع بين اسمى منى (؟) نعرمر معا (١٨) .

كان الفرعون فى عصر بداية الأسرات هو رأس الدولة ، فتركزت السلطات العليا كلها فى قصره الذى كان يسمى پرنيسو  ، وبلغ من سلطانه الرسمى ما يمكن التعبير عنه بتعبير لويس الرابع عشر ملك فرنسا فى عهد ازدهار الملكية المقدسة فيها ، وهو "أنا الدولة والدولة أنا" .

(١٦) GARDINER, op. cit., 407-408

M.B. GRDSELOFF, in Ann. S. XLIV, 279 f; GARDINER, op. cit., 405 f. (١٧)


R.T. II., XIII, 92; and see for other detailed discussions, SETHE Unters. III, 23, 33-34, DRIOTON- (١٨)


VANDIER, l'Egypte 3, 161-162; VANDIER, Manuel I, 828-831.




وتلقب كل فرعون بعدة ألقاب وأسماء وصل بين نفسه فيها وبين مقدسات قومه ، واستهدف منها أن يؤكد سلطانه الديني والديوي في حكم بلده . واستقر من هذه الأسماء والألقاب خلال عصر بداية الأسرات ، ثلاثة قد يختارها الفرعون على صورة واحدة أو يجعل كل اسم منها مختلفا عن الآخر، وهي (١٩) :

الاسم الحورى : وهو اسم كان يؤكد صلة الفرعون بالمعبود حور ويجعله وريثا له ، يحكم باسمه ويتجسد شخصيته . ومن النماذج المعبرة لهذا الاسم ، اسم حور عجا ، أحد مؤسسى الأسرة الأولى ، وهو اسم أسلفنا أنه قد يعنى حور المحارب أو حور الحرب أو صقر الحرب . وكان كتبة الفرعون يسجلون اسمه الحورى عادة داخل إطار كبير ، يسمى «سرخ» يصور واجهة القصر الملكي ، ويصورون فوقه صقرا ناهضا يرمز إلى المعبود حور ، وكأنه يعتلى القصر ليحميه ويحمى ساكنه .



الإسم النبتى  : وهو اسم كان يؤكد صلة الفرعون بالربتين القديمتين ، نجابة حامية الصعيد التي كانوا يرمزون إليها بأثى العقاب ، وواجهة حامية الوجهة البحرى التي كانوا يرمزون إليها بحية ناهضة . وكان الهدف من الربط بين اسم الفرعون وبينهما هو أن يصبح تحت حمايتهما من ناحية ، ويصبح ممثلا لمكاتبهما الدينية القديمة أو متفعا بها ، من ناحية أخرى (٢٢) .

واسم النسوبيتى  : وهو اسم كان يؤكد صلة الفرعون بالشعارين المقدسين القديمين ، البوص أو الأسل شعار مملكة الصعيد القديمة ، والنحلة شعار مملكة الدلتا القديمة ، وكان الغرض من تأكيد هذه الصلة هو إظهار الفرعون بمظهر الوارث الشرعى لكل من الملكتين القديمتين صاحبتى الشعارين .

وظهرت مع بعض أسماء ملوك العصر عبارة تكونت من علامتين حيناً  -  ومن ثلاث علامات حيناً آخر  ، وترجم زيتته وفي هذه العبارة بمعنى الطفل الذهبى أو طفل الذهب ، وترجمها شيفر بمعنى الاسم الذهبى أو اسم الذهب (٢٣) ولا زال معناها الحقيقى غامضا حتى الآن .


(١٩) A. MORET, Du caractère religieux de la royauté pharaonique, Paris 1912; H. MÜLLER, Die formale Entwicklung der Titulatur, 1938; A.H. GARDINER, Eg. Grammer, 71-76.

(٢٠) R.T.I., VII, 12, IX, 2, 3; vol. II, XXV, 10

(٢١) من امتنع النصوص التي صورت تبريرات اختيار الملوك لاسمائهم الحورية ، ضمن غيرها من الاسماء ، نصوص تحتمس الثالث ويذكر فيها أن أبواب السماء انفتحت له فطار اليها واستقبله فيها ربه ونوجهه بنفسه وتخبر له ألقابه من وحى خلقه له ، ولما كان قد جعله أشبه بفعل شديد وجعله يشرق في طبية ، أصبح اسمه الحورى على هذا الاعتبار « حور الفحل الشديد المشع في واسة (أى طبية) » ...
J.H. BREASTED, A new chapter in the life of Thutmose III, Leipzig 1900.

(٢٢) وأضاف تحتمس الثالث عن اختيار اسمه النبتى أنه لما كان ربه قد جعل ملكيته خالدة خلود الشمس في السماء ، أصبح اسمه الذى ينسبه الى الربتين على هذا الاعتبار هو « خالد الملك خلود رع في السماء »

(٢٣) K.SETHE, Mahasna (GARSTANG), 20-21; R. Weill, in Rec. Tr. XXIX, 11 f; SCHÄFER, in Mitt. Kairo, IV, 9f; MÜLLER, op. cit., 7; and see WEILL, Recherches, I, 7, 24.

لم يتخذ فراعنة بداية الأسرات لقبا خاصا يربطهم بالمعبود ست الصعيدى ، رب نوبت ، ربما عن رغبة منهم في عدم إثارة حفيظة أهل الوجه البحرى وتذكيرهم بسلطان الحكام ذوى الأصل الصعيدى عليهم ، أو لأن أسلافهم الأدينين تقبلوا حورا فعلا واعتزوا به و حار بوا تحت لوائه . وعلى الرغم من ذلك ظل فراعنة العصر يعترفون بست إلى جانب حور اعترافا ضمنيا ، وظهرت لهذا الاعتراف الضمنى ثلاث صور ، فتلقت زوجاتهم بلقب « من ترى حور وست »^(٢٤) أى من تراهما ممثلين في شخص الملك زوجها . وتلقب بعض كبار موظفيهم بلقب « ساق حور وزراع ست »  ^(٢٥) وهو فيما يغلب على الظن لقب تشريفى يصف صاحبه بأنه السا الساعية والذراع المنفذة لمولاه الذى جمع في نفسه بين شخصيتى حور وست ، أو هو لقب كهنوتى يدل على تمثيل صاحبه للملكة الذى اجتمع فيه (ثبات) ساق حور ، و (باس) باع ست . ثم ظهر لبعض أولئك الملوك فوق السرخ الذى تضمن أسمهم صقران^(٢٦) ، ويمكن تفسير هذين الصقرين برأيين ، كما هما مقبول ، وهما أن يكونا معبرين عن حور وست معا ويقرآن على هذا الاعتبار نبوى أى الربين في مقابل نبتى أى الربتين ، أو يعبران رمزين لحرر الدنا وحور الصعيد المشترين .^(٢٧)

وأدى تعدد أسماء الملوك وألقابهم إلى صعوبة تعيين تتابعهم وصعوبة التثبت من شخصياتهم عن يقين ، فقد تحتفظ قائمة من قوائم الملوك بأسمائهم الحورية وحدها ، وتذكرهم قائمة أخرى بأسمائهم النباتية وحدها ، بينما تهتم الآثار القائمة بذكر أسمائهم السوربية أكثر من غيرها^(٢٨) ، وتشتد هذه الصعوبة في عصر بداية الأسرات بالذات ، نظرا لقدمه البعيد وقلة الآثار المتبقية منه ، وقلة الكتابة فيه ، ولهذا سوف نلمس آراء متعارضة كثيرة في محاولة قراءة أسمائه قراءة صحيحة بقدر الإمكان وتفسيرها بتفسيرات مقبولة بقدر الإمكان .

أكدت الآثار ستة أسماء حورية لفراعنة الأسرة الأولى ، بعد الأسماء الثلاثة التى ارتبطت بتأسيسها ، وأضافت إلى كل منهم إسما آخر أو إسمين ، ينسبه أحدهما إلى شعارى الملكتين القديمتين ، وينسبه

See A.H. GARDINER, Eg. of the Pharaohs, 425. (٢٤)

R.T. II, XXII, 128; XXVII, 96; XXX, 129. (٢٥)

JUNKER, Turah, 1912, S. 47, Abb 5; CLÉDAT, in Ann. S. XIII, 115 f., pl. XIII ; R.T.I, pl. V, 12, VI 4,8; (٢٦)
and see R. WEILL, II et III dyn., p. 194;

Pyr. 26; NAVILLE, dans Rec. Tr. XXI, 121, Kees, in ZÄS LXIV, 102 f; (٢٧)

See K. SETHE, in ZÄS, XXXV, 1f. (٢٨)

الآخري إلى الربيتين الحارستين ، ونكتفى في المتن التالى بالأسماء الحورية وحدها وندع بقية الأسماء
للحواشي :

جر : أو جرى (٢٩) .

واحي : (وهو اسم قرئى بقراءات أخرى كثيرة مثل حت وواحت وإجو وونيمو وجاتى (٣٠))
وجرت العادة على الرمز لاسمه بهيئة الصل أو الثعبان .

دن : وهو اسم قرأه كورت زيته " وديمو " وقرأه في " وچيمو " بمعنى حافر الترع وربما
بمعنى واهب الماء أيضا (٣١) .

عنجاب : (عجّاب أو عنجبابى) (٣٢) ، ربما بمعنى سليم الطوية أو سلم قلبى ، (وإن كان في يود أن
يقرأه عنج سن) (٣٣)

(٢٩) نسب له قبر في ابيدوس وعثر على اسمه في مقبرتين بسقارة - وذكره مانيتون باسم اثونيس ويبدو انه
اعتمد في ذلك على أصل قديم حيث احتفظت الآثار له باسم آخر تحتمل قراءته اثنى اوتى ، واذا صحت
هذه القراءة كان من المحتمل ترجمتها بمعنى الوالى ، أو بمعنى القاطع أو الصاحن كما يظن بتري وثيى
(R.T.II, XV, 109; R. WEILL, Recherches, II, 159). وخلطت القوائم الملكية بين هذا الاسم وأسماء أخرى
تشبهه قد تكون مرادفة له أو تكون أسماء ملوك آخرين ، مثل تيتى وايت .

(٣٠) نسب له قبر في ابيدوس (R.T.I, pl. LXI) وقبر في نزلة البوران جنوبى الجيزة (Ann. S. VI, 99 f) ولكن نسبه
اليه موضع شك ، ووجد اسمه في مقبرة بسقارة (No. 3504) وعن اسم حت (R.T.I, p. 8; Unters. III, 28).
واسم واچى (Ann. XLIV, 282f.) واسم اچو (GARDINER, op. cit. 401) أما اسم ونيمو بمعنى المظم فأتذكره عن
الأستاذ فيكتيف وأظنه أراد أن يقرب بينه وبين اسم Uenepéhs عند مانيتون. وقرأه جارنو چانى أو چانى
(MDAIK 1958, 138-146) وظهر للملك نفسه اسم اترتى بمعنى المحرابين أو صاحب الجانبين (J.E.A. XLIV, 38).
وكان له مرادف آخر وهو اثنى (R.T.I, XVIII, 2,3)

(٣١) SETHE, Unters, III, 23 f., 40; ZÄS LIV, 50f, 137 f; WEILL, Recherches II, 121 f.
(See, Ann. XXVIII, 153 f; XLIV, 287). ومن الاعتراض على قراءة وديمو أو وچيمو والاكفاء بقراءة دن
وكان للملك نفسه اسم « سمتى » بمعنى الصحراويون أو المنسوب الى الصحراويون وحرفه أهل الدولة
الحديثة الى حسيبى ثم حرف مانيتو هذا الاسم الأخير الى Ousaphais (Rec. Tr. XXIX, 26; J.E.A. 1943, 75-76)
وتعتبر مقبرة دن من أكبر مقابر الأسرة الأولى في ابيدوس ولا تزال آثاره الصغيرة اغنى من آثار بقية ملوك
أسرته من حيث عددها ومن حيث مدلولها ، وقد وجدت مصطبة ضخمة لحامل أختام الوجه البحرى في عهده
« حمكا » تنم عن ثراء عهده . ودعى له في بعض نقوشه بالآلاف المرات من الرعاية والحماية ، وعثر على
أوان تضمنت اسمه وأسماء خلفائه الثلاثة وذلك مما يرجح تتابع أصحابها بعده ومكانته لديهم .
FIRTH-QUIBELL, The Step Pyramid., pl. 88, 1; 105, 3; Ann. S. 1936, 22; LAUER, La pyramide à degrés
III (1939) pl. XIX, 2.

(٣٢) ذكر اسمه في السرخ الملكى بين ذراعين مقدسين إشارة الى السند والحماية (Moret, Le Nil, Fig. 32).
وكان له اسم آخر هو مريبان ثم تحول في الدولة الحديثة الى مريبابه ، ومريبان ... الخ
See W. VYCHICHL, in Arch. für Ag. Arch., 1938,

R. WEILL, Recherches II, 127, 145. (٣٣)

سمرخت : ربما بمعنى سميرالبدن (٣٤) .
 قاي - ع : ربما بمعنى على الذراع أو طويل الباع (٣٥) .
 واحتفظت لآثار القائمة من أسماء ملوك الأسرة الثانية بأسماء :
 حوتب سخموى : ربما بمعنى رضى القويان أو استقر القويان ، وقد يكون القويان هما
 حور وست اللذين يمثل الملك سلطتهما على الأرض أو يتقمص شخصيتهما على الأرض (٣٦) .
 نبي رع : أو رع نب ، بمعنى ربي (هو) رع ، أو رع (هو) المولى (٣٧) ، وهو أول اسم ملكي
 معروف اعترف صراحة برب الشمس رع .
 نى نثر : وقد قرئ اسمه بقرائنين آخرين ، وهما نثرن ، ونثرىمو ، بمعنى الممتنى إلى الإله ،
 وسليل الرب ، وقد يكون الإله أو الرب هنا هو أوزير (٣٨) .

(٣٤) وكان له اسم آخر تحتمل قراءته شمسو ، وتحورت هذه القراءة الأخيرة عند مانيو إلى Semempsés
 (See J.E.A. 1943, 75-76).

(٣٥) Compare, Kees, Re-Heil, III, 11 - وظهر إلى جانب اسمه على اختامه اسم آخر اعتبره زينة اسما
 ثانيا له وقراه « سنمو » ، بينما قرأه فيى « سن » ، وتردد في اعتباره اسما للملك أم لقباً لاحد موظفيه
 بمعنى الرفيق والصفي ، أو بمعنى حامل الختم .

R.T.I., XVII, 29; SETHE, Unters. III, 41; R. WEILL, op. cit. 161-162.

See lastly, P. KAPLONY, "Sechs königsnamen der I Dyn. in neuer Deutung". Orientalia Uppsala 1959,
 64-66.

(٣٦) هو أول اسم معروف ربط بين صاحبه وبين معبودات قومه ، (الا اذا صح ما يقال عن ترجمة نمرمر بمعنى
 حبيب نمر) -
 وذكر له اسم آخر وهو حوتب . وجعله W.K. SIMPSON ثانيا ملوك الأسرة وليس اولهم ولكن بغير قرينة
 مؤكدة (J.E.A., 1956, 45, n.1).

(٣٧) ذكر له اسم آخر تحتمل قراءته نوب نفر (f) (Ann. XXVIII, pl. II, 7-8). واعتبره SIMPSON
 أول ملوك الأسرة بناء على العثور على كأس في سقارة نقش عليها اسم رع نب ثم اسم حوتب سخموى
 (LAUER, op. cit., 11). وقدح من الست عشر عليه في معبد الوادى لمنكا ورع نقش عليه الاسمان
 بنفس الترتيب وجلست امامهما الربة سخمة بجسم أنثى ووجه لبوة ، على مقعد وامسكت برمزي واس
 وفتح أى السلامة والحياة (REISNER, Mykerinos, pl. 70, p. 102) وقد يدل ترتيب الاسمين على تماثل
 الملكين بهذا الشكل أو يدل على أن رجال رع نبارادوا أن يكرموا سلفه في عهده فقدموه عليه (راجع
 الحاشية التالية) .

(٣٨) Palermo, rt. IV 1-16; Unters. III, 40; Ann. S., XXVIII, 153 f., XLIV, 287

ونسب له تماثل صغير لعله أول تماثل معروف للملك لو صحت نسبته اليه

W.K. SIMPSON, A Statuette of King Nyneter, in J.E.A. 1956, 45 f.

وذكرت له حوليات بالرمو فترة حكم طويلة تتراوح بين عشرين وثلاثين عاما ، وذكر اسمه بعد اسم نبي رع
 R.T.II, P. I. VIII, 12 ونقشت أسماء الملوك الثلاثة حوتب سخموى ، نبي رع ، نى نثر على كتف تماثل
 كاهن راع من عهد الأسرة الثانية وجد في سقارة (Cairo No. 1) ويرى شكرى أن الكاهن كان يؤدي
 طقوسا بأسمائهم في معبد الاله بتاح بسقارة ، بينما يرى شارف أنه كان يؤدي طقوسهم الأخرى في معابد
 مقابرهم بسقارة وان لم يعثر على هذه المقابر حتى الآن

M.A. SHOUBRY, Die Privatgrabstatue, Kairo 1951, 20

شارف : تاريخ مصر منذ فجر التاريخ (معرب) - ص ٤٠ - وعاد اشكال الترتيب مرة اخرى بالعثور على
 نقش كتب فيه اسم نى نثر ثم اسم سلفه القريب أو البعيد حوتب سخموى ، وذلك مما قد يعنى الرغبة في
 تكرية في عهده (Lauer, op. cit: 16) - وظهر للملك نى نثر اسم آخر تحتمل قراءته بانثرن أو بانثر
 ربما بمعنى فحل الرب أو روح (f) الرب (Akydos 11; Saq. 5; Turin II, 22)

برابسن : (ويرى ماسيرو وفي قراءته برسن) (٤٠) .

ونج : وهو اسم لم يعرف عن صاحبه الكثير (٤١) .

سنج : ربما بمعنى الرعب أو المرعب (٤٠) .

خع سخم : ربما بمعنى شعّ البأس ، أو تجلّى القوى (٤٢) .

خع سخوى : ربما بمعنى تجلّى القويان ، والقويان هما الصعيد والدلتا أو ربا الصعيد والدلتا (٤٣) .

وأضافت قوائم الملوك أسماء أخرى يصعب تحديد مواضع أصحابها وتقدير مدى أهميتهم ، ومنها
أسماء : كاكو ، وعقا ، ونفركا سكر ، وحو جفا (٤٤) .

* * *

سلك أوائل أولئك الفراعنة سبيلا سلمية في التقريب بين الصعيد والدلتا عن طريق المصاهرة وازدواج الألقاب والاشترك في عبادة الأرباب ، فتزوج نعرمر بإحدى سليات البيت الحاكم القديم في الدلتا ، وهى نيت حوتب التى عبرت عن دورها في سياسة التقريب بين البيتين بجمل لقب "سمات نبوى" (٤٥) أى التى ألفت (بين) السيدين . وتزوج دن بأميرة أخرى من الدلتا تدعى مريت نيت (٤٦) ، وحظيت

٣٢ قد يترجم اسم برابسن بمعنى خرجت قلوبهم (؟) ، أو يقرأ برى ابسن بمعنى شجاعهم (See Wb. I, 524, 17)
ويقراه فى برسن ، على اعتبار « سن » اسما لاله ، (MASPERO, Histoire, 237; WEILL, Recherches II, 127 f.)
وعن مشكلات بقية أسمائه ومشكلات عصره راجع ص ٢٧٣ - ٢٧٧

(٤٠) Ann. S. XLIV, 288 f. دلت على اسمه أوان وجدت في سراديب الهرم المدرج بسقارة - وربط جاردنر
اسمه باسمين غامضين ذكرتهما قوائم أبيدوس وسقارة وتورين وهما واجنس ، وواجيناس وعبر
مانيتون عن أحدهما باسم Tlas - ويرى كين تلاس وواجيناس تحريفا هيراطيقيا لاسم برابسن -
واعتبرهما فى اسمين للملك سخم اب برنماعت .

(GARDINER, op. cit., 415; WEILL, op. cit. II, 161).

(٤١) ترجمه جاردنر بمعنى الخائف ، وقد تصح ترجمته من الناحية اللغوية ، ولكن نسبة الخوف أو المعجز
للملوك المصريين لم تكن مبهودة فى أسمائهم . وخففت المصور التالية له اسمه الى سند وسندى ، وظلت
بعض الطقوس التى رصدها باسمه باقية فى سقارة حتى عصر الأسرة الرابعة على أقل تقدير ، وذكرته بردية
طبية من الدولة الحديثة ، ولا يستبعد فى أن يكون هو وبرابسن شخصا واحدا
Ann. S. XLIV, 282 f; Mon. Piot. XXV, 273 f; Berlin Med. Pap. 3038, XVI, 2; Weill, op. cit. 165.

Hierakonpolis, I, pl. 36-40, 58. (٤٢)

٢٧٨ - ٢٧٧ راجع عنه ص (٤٣)

Abydos 10, 14; Saq. 4, 9, 10; Turin, II, 21, 25; III, 1, 3 (٤٤) ذلك فضلا عن نفر كارع ونب كا -

R.T. II, pl. 11. (٤٥)

Cairo 14086, 14101-14106; Archaic Objects, p. 213, 216-217; pl. 43; R.T.I., frontispice, pl. V 1-7; (٤٦)
vol. II, V, 6.

كل من الملكتين بمكانة طيبة دلت عايتها الآثار الباقية باسميهما من عهديهما ، وربما تكرر الأمر نفسه بالنسبة إلى ملوك آخرين وزوجاتهم . ودلت أسماء بعض سيدات البلاط الصعدي في ثنى وأبيدوس عن أصلهن الشمالى ، لاسيما في عهود أبناء الملكتين السابقتين بالذات ، وشاركهن في ذلك بعض رجال الحاشية أيضا (٤٧) .

وسمح الفراعنة للوجه البحرى بشخصية متميزة في إدارته تحت ظل التاجين ، وخصصوا له بيت مال وحامل أختام ومخازن غلال ودار وثائق . . ، وانتسبوا إلى ربه وإلى شعاره جنبا إلى جنب مع ربه الصعيد وشعاره .

وزددت حويلات العصر احتفاهم بموالد معبودات كثيرة مثلت أغلب مناطق أرضهم ورمزت إلى أغلب وجوه النشاط في حياة أهل عصرهم ، مثل مين رب القوافل الصحراوية ، وتحوتى رب الحكمة ، وسشات ربه الكتابة والحساب ، ومفدة ربه الصحراء الشرقية ، وويواوت فاتح الطرق وراعى الحرب ، ولانوبو رب مناطق الجبانات ، وسكررب الخصب وما تحت الأرض ورب الصناعة ، وحوور رب السماء (٤٨) .

وتجرى المرحلة الرئيسية في مولد كل معبود بأداء شعائر سميت اصطلاحا باسم شعائر فتح الفم أمام تماثله ، ويلبس فيها كاهنه الأكبرفه ومنخره وعينه بأداة تقليدية ، وكأنه يفتح بها حواسه ويحيى بها ذكرى ميلاده القديم ، أو يؤكد بها إيمان أتباعه بتجدد الحياة فيه واعترافهم بميلاده الجديد .

وشغف أوائل حكام العصر شغفا شديدا بالأعياد الدنيوية والتقليدية ، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من مؤسسى الدول الجديدة ، أملا في اكتساب الشهرة ، ورغبة في جمع الخواص حولهم وتذكير الناس بهم ، وحباً في إظهار تقواهم وكرمهم خلال أعيادهم .

وكانت أهم أعيادهم أعياد ارتقاءهم العرش . وأعياد التجلى كل عامين (٤٩) . وأعياد ذكرى توحيد الوجوهين ، وتمم مرحاتها الرئيسية بعقد الرمزين النباتيين للصعيد والدلتا مع بعضهما بشدة حول قائم مزخرف دلالة على ترابطهما ، ويقوم الملك بهذا العقد أو يتولاه عنه ممثلان للعبودين حور وست ربي الدلتا والصعيد القديمين ، واعتاد الفنانون على أن يعبروا عن هذه العملية في صورهم بتعبير طريف فصوروا النباتين يحفان بجانبى علامة تسمى سما وتعنى الاتحاد أو التأليف وتقلد هيئة رثة حيوان وقصبة

(٤٧) R.T. II, pl. XXVI-XXVIII, No. 51, 56, 97, 123.

(٤٨) Palermo, rt II, 6, 8-10, III, 11, 13, IV, 8, BREASTED, Anc. Records, A.R. I, 91, 97, 99, 100, 108, 113, 115, 125 etc...

(٤٩) Palermo rt. II, 9, III, 3; IV, 3, 5, 9; Urk. I, 239; BREASTED, A. R. I., 99, 105, 114, 116, 119, 121, etc...

الهوائية ، وينعقدان فوقها في النسجام جميل (٥٠) . وربما ارتبط بهذا العيد أو انفصل عنه عيد آخر للطواف حول أسوار مدينة إنب حج تحليدا لذكرى إنشائها أو تأكيدا للانتساب إلى منشئها (٥١) . ثم عيد السد أو "حب سد" على حد تعبير المصريين ، ويعنى فيما يغلب على الظن عيد النهاية ، نهاية فترة حكم معينة وبداية فترة جديدة ، وكان من المفروض أن يحتفل الفرعون به بعد ثلاثين عاما من بداية حكمه أو من بداية اختياره لولاية العهد (٥٢) ، ويقوم فيه مراسيم وطقوسا يشكر أربابه فيها على ما وهبوه من طول العمر وطول الحكم ، ويعتقد هو أو يعتقد رعاياه أنه يستطيع عن طريق هذه الطقوس والمراسيم أن يحدد بأسه ويستريد من القدرة على مواصلة الحكم . وجرت العادة على أن يتحين الفرعون مناسبة العيد ويقوم لأربابه معابد وهياكل جديدة ويقدم لهم تماثيل جديدة عساهم يحققوا أمله ويؤيدوا حكمه (٥٣) . ولم يكن الفراعنة يلتزمون بفترة الثلاثين عاما دائما ، وإنما كانوا يتحينون لديهم فرصة تها لهم فيها نصر عظيم (راجع ص ٢٩٢) ، أو خرجوا فيها من مأزق شديد ، وربما أعادوه أكثر من مرة طالما توفر لهم امتداد الحكم وسعة الإمكانيات .

ولا تزال مراحل عيد السد في عصر بداية الأسرات غير معروفة تماما ، والمرحلة المؤكدة فيه هي أن تقام للفرعون منبحة عالية ذات درجين يؤديان إلى سطحها ، وتقام فوقها مظلتان متجاورتان تضم إحداهما عرش الصعيد وتضم الأخرى عرش الدلتا ، ويبدأ الملك بالصعود إلى عرش الصعيد فيعتليه متوجا بتاجه الأبيض ، ويؤدي مراسيم معينة تناسب تقاليد أصحابه ، ثم يكرر العملية نفسها مع عرش الدلتا وتاجه ويؤدي مراسيم أخرى تناسب تقاليد أصحابه ، وربما أضاف إلى المرحلتين مرحلة ثالثة يرتدى فيها تاجه المزدوج ، ويكون بذلك قد أيد سلطانه الحديد على الوجهين . وظهر الملك دن بهذا الوضع ، أى بتاجه المزدوج يحب خبا في ساحة حددتها النصب من جانبيها (٥٤) .

وثمة منظران رمزيان طريفان ظهرا في صور أعياد هذا العصر وتكررا في مناسبات قليلة بعده ، وإن كنا لا ندري مدى صلتها بعيد السد أو بعدها عنه . ويظهر في أحد المنظرين قرد كبير على مقعد

(٥٠) Pal. rt. II, 3; Hierakonpolis I, XXXVIII; A.R., I., 93; Urk I, 239.

(٥١) Pal. rt. II, 3; V, 8 and See Rec. tr. XXI, 113 f.
عملية الطواف فيها ترمز الى امتلاك القصر والارض وتعتبر مرحلة من مراحل عيد سكر رب الزراعة حين يطوف بقطيعه حول منف في بداية فصل الزراعة ليعيدوا الحياة الى الارض (op. cit 80)

(٥٢) SETHE, (op. cit. 80) Untersuchungen I, 10; ZÄS, XXXVI, 64.

(٥٣) VON BISSING, Die Reliefs vom Sonnenheiligtum des Rathures (Ne-Woser-Re), 14-15; Urk. I, 114, 11; BLACKMAN, in J.E.A. VII, 8, Hasting's Encycl., V, 155, 159.

(٥٤) W. EMBRY, The Tomb of Hemaka, p. 64 fig. 26; R.T.I., VII, 5, VIII, 7-8; vol. II pl. XV, 108; Arch. Mastabas, pl., XXXIII, 5; Abydos, I, V, 1; FIRTH-QUIBELL, The Step-Pyramid, p. 158-159, pl. I, 4,8; VIKENTIEV, dans Ann. S. XLVIII, 684-5; R.T.I., pl. XI, 14; KEES, Die Opfer-tunzdarstellung., 1938, 21f.

أو منصة ينثر حبات البخور أو يقدم وعاء بيديه ، وكان القرد من رموز الحكمة وأحد الرموز الحيوانية للعبود تحوتى . وزادت إحدى بطاقات الملك دن فصورته يعدو في مواجهة القرد بتاج الصعيد ليتقبل الوعاء منه وإن فصل بينهما صار طويل تتقاطع معه مقمعة حربية (٥٥) .

أما المنظر الآخر فيصوّر فلا شديدا يجرى بكل قوته في ساحة خالية أو ساحة مسورة ، وكان الفحل رمزا حيوانيا للعبود حاب (أو حب أو حبي) أى العداء ، أحد معبودات مدينة إنب حج ، وذكرت حوليات بالرمو مناسبات جريه أكثر من مرة . وزادت بطاقة دن مرة أخرى فصورته متوجا بتاج الوجه البحرى يهرول في قوة خلف الفحل وكأنه يريد أن يلحق به (٥٧) . ولا ندرى إن كان ذلك قد جرى خلال مرحلة من مراحل السد وقصد به أن يدل على بأس الملك وشدته أم في مرحلة من مراحل الطواف حول أسوار إنب حج التى كان للعبود حاب المرهوز إليه بالفحل مكانه فيها .

وكان من الطبيعي أن تحتفل الدولة بمناسباتها الكبرى في عاصمتها ، ولو أن ذلك لم يكن يمنع من أن يكون لمدن القطر الأخرى نصيب من أعيادها ومواكبها ، لا سيما المدن ذات القداسة مثل به وساو ونخن ، وعواصم المديرىات التى عبرت حوليات العصر عن مناسبات زيارة الحكام لها بقولها : « التوقف عند مدينة اهناسيا » مثلا ، أو غيرها (٥٧) .

وتضمنت النقوش التى سجلها أهل العصر على بطاقتهم العاجية والخشبية الصغيرة وعلى بعض أمشاط العاج وعلى أوانيهم الحجرية عناصر كثيرة ورموزا كثيرة أصبح لها شأنها فى التقاليد السياسية والدينية للعصور التى تلت عصرهم ، لولا أن تسجيلهم لها فى إيجاز شديد وفى صور بدائية فى أغلب الأحوال جعل تفسيرها وتحديد صورها وأغراضها من الصعوبة بمكان كبير ، وجعلها تخضع لتأويلات شتى لا يعدم كل تأويل منها قرينة تؤيده وإن اختلف عن غيره من التأويلات اختلافا شاسعا .

ومن هذه النقوش نقوش مخرصة على مشط عاجى من عهد الملك واهى كررت فيها إلى جانبي السرخ الذى يتضمن اسمه علامة واس التى أصبحت تعبر عن الصولجان ، وصورت فوق الصقر الذى يعتلى سرخه جناحين عظيمين مفرودين وفوقهما قارب يعلوه صقر كبير . ومن التفسيرات الطريفة لهذه المجموعة من الصور أن الصقر الذى يعلو المركب كان رمز حور رب السماء ورب النور صاحب الصفة الدينية ، وأن الصقر الذى يعلو السرخ هو رمز حور راعى الملكية وصاحب الصفة السياسية ، وأن الجناحين قد يكونان جناحى رب السماء ، أو يرمزان إلى الصعيد والدلتا ، أو بشران بفكرة الشمس

EMERY, The tomb of Hemaka, Fig. 26; R. T. I., XVII, 26; R. WHEEL, Recherches II, 95 f. 99; and (٥٥) compare, FIRTH-QUIBELL, The step Pyramid, pl. 16.

Palermo, rt, III, 12, IV, 10; see also R.T. II, pl. X, 2; Hemaka, op. cit. and compare pl. 29. (٥٦)

Pal. rt. III, 9; SMITH, Untern., III, 62; A. R. I., 103, 111. (٥٧)

المجنحة . . . ، وهكذا جمعت هذه الصور على بساطتها بين الملك صاحب السلطان الأرضي ، وبين رب السماء ، وبين الشمس مصدر النور ، وبين جناحى الملكة أى الصعيد والدلتا (٥٨) .

ونقوش أخرى صورت مراحل عدة من مراحل الأعياد يصعب تفسيرها ، فصورت فيما صورت ملوكا يصيدون أفراس النهر بالحرايب ويشدونها بالحبال ، ويجردون خناجرهم في حركات طقسية . وصورت خنارير (؟) تجرى . وصورت رجالا يصحنون شيئا ما في قدور كبيرة ، ويعتقد فيكنتيف أن ما يصحنونه هو « أبو كبير » الذى كانوا يعتقدون في نفعه لإعادة الشباب ، ورجالا يفعلون شيئا ما في رقاب أشخاص آخرين ، ويرى فيكنتيف أنهم أطباء يجرون عمليات جراحية ، ورأى غيره أنهم جنود يذبجون أعداءهم (٥٩) . وهناك فيما خلا ذلك من النقوش والصور والتوابل شئ كثير يدل على أن حضارة العصر لا تزال تتطلب المزيد من الدراسة على الرغم من الجهود الجبارة التى بذلت في بحثها وتفسيرها .

*
* *

تعددت الآراء حول الموطن الأول الذى انتسبت إليه الطبقة الحاكمة في عصر بداية الأسرات ، فاعتقد دى مورجان وپترى ولوريه وغيرهم من باحثى الجيل الماضى (٦٠) أن أولئك الحكام انتموا إلى جنس غريب سموه جنس الأسرات ، ورأوا أن ذلك الجنس وفد على مصر من منطقة شرقية ، وغلب على ظنهم أن هذه المنطقة كانت بلاد النهرين وما حولها . وأكدوا أن أصحابه استطاعوا أن يتغلبوا على القطر كله شماله وجنوبه وأنهم أدخلوا معهم إلى مصر علامات الكتابة التصويرية وعبادة حور وبعض الرسوم والوحدات الزخرفية التى تعتمد على تصوير الحيوانات وشخصيات خرافية ، كما أدخلوا وطريقة البناء باللبن أو على الأقل طريقة بناء المشكاوات اللبنية ، واستعمال الأختام الأسطوانية .

وشك كل من شارف وفون بسنج ومرريه وفرانكفورت ووياسن (٦١) في وصول هجرة جنسية فعالية من الشرق إلى مصر وقصروا الأمر على وصول تأثيرات حضارية تقبلها المصريين قبيل عصورهم

(٥٨) Hierakonpolis, II, pl. 1, GARDINER, in J.E.A. XXX, 47 f. SETHE, Urg. 155; VANDIER, La Religion, 55.

انظر أيضا عن قرص شمس تعلقه يدان (٤) أو يرفعه قرنان (٤)

وعن دائرة تتوسط ذراعين مقلوبين يعبران عن الحماية ، وقد يكون للدائرة صلة برمز رب الشمس رع (٦)
R. T. I, XII, 10 EMERY, Hor Aha, Fig. 30 (in the text),

R. T., I, pl. XIV, 8; vol. II, pl. VII, 5-7; Vol. I, XV, 16, XIII, 5 XXII, 33, XXVI, 60; vol. II, (٥٩)
pl. II, 6; Abydos I. XI, 8.

(٦٠) صفحات ١٦٢ - ١٦٨ ومراجعا .

A.SCHARFF, Grundzüge, 1927, 41f., ZÄS, LXXI, 1935, 89 f.; Frühkulturen Ägyptens und Mesopotamiens, 1941. W. von BISSING, in Archiv. für Orientforschung, VII (1932), 23f. H. FRANKFORT, The Birth of civilization in the Near East, 1951, ch. V. P. 110 (٦١)

الكستدر شارف : تاريخ مصر من فجر التاريخ - تعريب عبد المنعم ابو بكر - ص ١٩
جون ولسون : الحضارة المصرية - تعريب أحمد فخرى - ص ٨٢ - ٩١

التاريخية وفي أوائلها ، ولكنهم اختلفوا مرة أخرى فيما إذا كانت هذه التأثيرات الحضارية وصلت مصر من الشرق عن طريق مضيق باب المندب ثم الصحراء الشرقية ، أم عن طريق البحر الأحمر ثم وادي الحمامات ، أم عن طريق الشام ثم برزخ السويس . واختلفوا كذلك في تعيين الوسطاء الذين نقلوها إن كانوا من أهل الشام أم من أهل اليمن .

ومع قدم هذه القضية وزعزعتها بعض الشيء ، استمرت ظلال الرأي القائل بتأثير بلاد الشرق في مصر ماثلة في مؤلفات أفريقية وعربية حديثة يتردد أصحابها بين التسليم به أو ببعضه وبين نفيه كله أو تقي بعضه (٦٢) ، ولهذا نرى عرض الموضوع فيما يلي برمه .

لم ننكر فيما أسلفناه في الفصل الأول من هذا الكتاب أن مداخل مصر ومخارجها ظلت مفتوحة في عصورها الأولى في وجه الصلات الجنسية والحضارية مع جيرانها في بادية الشام وجنوب سوريا وشمال شبه الجزيرة العربية ، فضلا عن الانتقالات البشرية البسيطة من الصحراء الغربية الليبية إلى وادي النيل الخصيب ، والهجرات المتقطعة البسيطة من المناطق النوبية إلى مناطق الحصب في الصعيد . ولكن وعلى الرغم من ذلك كله فالربط بين حكام بداية الأسرات في مصر وبين هجرة جنسية ، أو هجرة حضارية وفدت من الشرق إلى مصر ، ومن بلاد النهرين خاصة كما ادعى أصحاب الرأي السابق ، ربط يصعب التسليم به ، وتضعفه قرآن كثيرة ، أهمها :

أولا — أنه ليس من شبه قريب أو بعيد بين أسماء أوائل ملوك الأسرات المصرية وأسماء كبار موظفيهم وبين أسماء أهل بلاد النهرين وأهل المناطق التي ذهب الظن إلى أنهم سلكوها في طريقهم إلى مصر .

ثانيا — أنه ليس من شبه قريب أو بعيد كذلك بين الهيئات والملاحم والقمامات الفارغة التي تصوّر بها ملوك الأسرات المصرية الأولى وكبار رجالهم وبين الهيئات التي تصوّر بها أهل الحكم في بلاد النهرين وغيرها من البلاد التي ذهب الظن إلى أنهم سلكوها في طريقهم إلى مصر ، سواء أكانت في الشام أم في اليمن .

ثالثا — أن الحكام الذين حاولوا توحيد مصر قبل بداية الأسرات وعند قيامها ، صوروا لأنفسهم رموزا دينية وألوية حربية ذات أصل مصري أكيد ، وليس لها شبيه صريح بين رموز وألوية شعب من الشعوب التي ألحوا إليها .

ENGELBACK, in Ann. S. XLII, 193f; D.E. DERBY, "The Dynastic race in Egypt" in J.E.A. 1956; (٦٢) 90f.; WINKLER, Voelker und Voelkerbewegungen in vorgeschichtlichen Oberaegypten in Lichte neuer Felsbilderfunde; Struttgart, 1937; VANDIER, Manuel I, 856, etc...

رابعا - أن التطورات السياسية التي شجعت أولئك الحكام على توحيد مصر تحت حكمهم كانت تطورات داخلية منطقية ، كما مر بنا تفسيرا في الفصل الخامس .

خامسا - أنه وإن أمكن أن نفترض أن أهل العهود الأخيرة التي سبقت عصر بداية الأسرات في مصر ومن عاصروهم من أهل بلاد النهرين وجنوب شبه الجزيرة العربية ، تجرأوا على اجتياز البحر الأحمر في أعداد قليلة وعلى فترات محدودة لتبادل المنافع أو للبحث عن سبل عيش أفضل ، إلا أنه كان من الصعب على هجرة كبيرة تستطيع أن تفرض نفسها على مصر وتتغلب على أهلها ، أن تعبر البحر الأحمر بمراكب كثيرة كبيرة في ذلك العصر البعيد ، سواء اجتازت البحر من أواسطه في مقابل القصير ووادي الحمامات ، أم من جنوبه عند مضيق باب المندب الذي لا يقل عرض البحر عنده عن أربعة وعشرين كيلو متر . وذلك مع العلم بأن قرائن استخدام المصريين للبحر الأحمر استخداما فعليا في عصورهم التاريخية نفسها لا ترجع إلى أبعد من عصر الأسرة الرابعة أو الخامسة ، نظرا لصعوبة الملاحة بجوار شعابه المرجانية ووسط تياراته العنيفة ، وذلك على الرغم من وجود قرائن نشاط آخر واسع في البحر المتوسط قبل ذلك العصر بأجيال طويلة .

سادسا - أن الحجرات المفترضة ، جنسية كانت أم حضارية لم تترك أثرا واضحا يدل عليها من الكتابة أو وسائل البناء باللبن أو عناصر الزخرف في البلاد التي قطعها في سبيلها إلى مصر ، سواء أكانت هذه البلاد هي الشام أم اليمن .

سابعا - زادت إمكانيات مصر للاتصال بجيرانها الغربيين والبعيدين في أواسط عصر بداية الأسرات عما كانت عليه قبل الأسرة الأولى وفي بدايتها ، وزادت صلاتها بسوريا خاصة عما كانت عليه قبل الأسرة الأولى وفي بدايتها ، وعلى الرغم من ذلك اعترف القائلون بالتأثيرات الخارجية ، الجنسية منها والحضارية ، بضعف هذه التأثيرات في أعقاب عهد مؤسس الأسرة الأولى بقليل .

وليس من شك في أنه لو انتمى أفراد الطبقة الحاكمة في مصر إلى شعب خارجي غريب لواصلوا اتصالاتهم بأهله بعد أن زادت إمكانياتهم للاتصال به ، ولو صح أنهم نقلوا خصائص الحضارة السومرية عن طريق سوريا واستعانوا بها على تحضير مصر - كما يقال ، لاسترادوا من هذه الحضارة بعد أن زاد اتصالهم بسوريا نفسها .

ثامنا - لم يعرف ملوك بداية الأسرات الأوائل ولا الأواخر بولاء ما للمناطق التي يفترض أصحاب الرأي السابق أنهم وفدوا عن طريقها ، فذكرت نصوصهم وحوالياتهم تأديبهم لليبيين ، وتأديبهم لبدو الصحراء الشرقية وبدو شبه جزيرة سيناء ، ووربما وصل نشاطهم الحربي إلى جنوب فلسطين أيضا ، بينما تأكدت اتصالاتهم الحبية بمناطق فينقيا . (راجع ص ٢٩٢ - ٢٩٣) . وصور فنا نوهم بالنقش والنحت أسرى من

الليبيين ومن الأسويين تختلف ملاحظهم عن ملاحظ الحكام والمحكومين المصريين (٦٣) . والغريب أن بعض المتعصبين لرد جنس الأسرات إلى أصل أسوي (ومنهم في) هم في الوقت نفسه أشد المؤكدين لقيام ملوك الأسرة الأولى بحروب في آسيا منذ عهد ملكهم نعرمر . (راجع ص ٢٩٣) .

تاسعا — صورت الكتابة المصرية القديمة في مرحلتها التصويرية، حيوانات ونباتات من وادي النيل نفسه ، ولم تتضمن عناصر دخيلة واضحة ، وظلت ترمز طوال عهدها إلى أدوات ومصنوعات ومنشآت مصرية صميمة نشأت في البيئة المصرية ولم ترد إليها من خارجها .

عاشرا — حافظت الكتابة المصرية على عناصرها التصويرية أكثر من ثلاثة آلاف عام وبلغت بها غاية اكتمالها الفني والتعبيري ، وأضافت إلى مقاطعها الصوتية حروفا هجائية ، في نفس الوقت الذي قصرت فيه الكتابة التصويرية في بلاد النهرين عن التطور الداخلي ، وعجزت عن الاستمرار طويلا بين أهلها ، وغلبتها الكتابة التخطيطية المسماة على أمرها ، ووقفت بها عند حد المقاطع الصوتية دون أن تتطور بها إلى الحروف الهجائية ، وكان الأولى أن تنضج صور هذه الكتابة وتكتمل تطوراتها في بيئتها القديمة ، لو صح أنها كانت من تراث شعب آخر غير الشعب المصري الأصيل .

أحد عشر — ليس ما يعرف حتى الآن عن معبود شرقى نديم قدسه أصحابه باسم حور ، أو رمزوا إليه بهيئة الصقر التي رمز المصريون بها إلى حور ، وإنما ظهر من القرائن ما يرجح أن تقديسه نشأ أصلا في شمال الدلتا ، ولم يكن له شأن بمنطقة الهجرات في برزخ السويس ، أو وادي الحمامات ، وظهر رمزه ضمن رموز المراكب ذات الطابع المصري وضمن ألوية الحرب منذ عهد نقادة الثانية ، أما ما يستشهد به بعض الباحثين من صورته الأسوية عند الكنعانيين والحيوريين واليمنيين فهو استشهد لا يرجعون به إلى أبعد من عصر الدولة الحديثة أي بعد ظهوره في مصر بأكثر من ألفي سنة (٦٤) .

(٦٣) Hierakonpolis I, p. 6 pl. VI, 1-5, XI, 2, XII, 6; vol. II, p. 36. Royal Tombs, I, pl. XVII, 30, XII, 12-13; vol. II, pl. IV, 12.

(٦٤) V. LORET, dans B.I.F.A.O. III, 10f, Revue Egyptologique, XI, 79; f; C. KUENTZ, dans B.I.F.A.O. XVIII 183; R. WEILL, Recherches I, 329 f.

يلاحظ أن المصريين القدماء لم يسموا الصقر باسم حور وإنما باسم بيك ، وأن بعض أهل اليمن لقبوا رب القمر عندهم بلقب شقر أي صقر ، ولم يكن لحور المصري صلة واضحة بالقمر . وذهب بعض الراي إلى ربط المعبود المصري بس باليمن أيضا ، ولكن يلاحظ أنه يرمز إليه عادة بقزم عجوز ، أو إنسان قمي ملتج مهرج عريض الرأس والوجه مشوه الساقين ، وتدعو هيئته إلى الربط بينه وبين الجنوب أو الجنوب الشرقي وليس الشرق .

وتتبقى وجوه التشابه الظاهرية بين العناصر الحضارية في عصر بداية الأسرات، والعناصر الحضارية السومرية التي عاصرتها، وهذه يمكن إجمالها في أربعة وهي :

١ - تشابهت في كل من مصر وبلاد النهرين عناصر زخرفية معينة صورت حيوانات خرافية ذات رقاب مقوسة ، وعناصر أسطورية صورت أبطالاً يروضون حيوانات مفترسة ويخضعونها أو يفصلون بينها ، وقد لاحظنا في الفصل الخامس وصفحات ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٥ ، كيف أن الأصل المصرى في هذه الرسوم والزخارف الأسطورية يمكن أن يقف أمام الأصل العراقى وجها لوجه .

٢ - شاعت في مصر وبلاد النهرين عمارة اللبن في بناء المساكن ، وتشابهت فيهما واجهات العائر ذات المشكاوات (أى الدخلات الرأسية العميقة المتعاقبة) . ولكن يلاحظ إلى جانب هذا التشابه في استخدام اللبن وفي تفصيل واجهات عمائرهما ، أن البناء باللبن تطور داخل مصر في مراحلها الطبيعية مرحلة فمرحلة ، فبدأ فيما يبدو بلباسة الطمي على سطوح الأكواخ ، وانتقل منها إلى استخدام جواليص الطين في تحديد جوانب غرف السكن وجوانب حفر المقابر ، وانتهى إلى استخدام القوالب المستطيلة في بناء البيوت وبناء حجرات الدفن ، ثم توقف عندها الحد ولم يرن إلى تطور آخر عرفته بلاد النهرين وهو تحويل اللبن إلى طوب أحمر محروق لتعويض أهلها عن قلة أحجار البناء الصالحة في بيوتهم ، بينما وجد المصريون في أحجار بيوتهم ما يفنيهم عن التطور إليه .

وتشابهت الفكرة المعمارية للمشكاوات في مصر وبلاد النهرين ، ولكنها اختلفت في طريقة تنفيذها وفي أغراضها ومجالات استعمالها . فبنى المصريون السطوح الداخلية لمشكاواتهم على مستويات متعاقبة كثيرة لم تعدها مشكاوات بلاد النهرين ، واستخدموها في واجهات قصور الملوك وواجهات أسوارها فضلا عن واجهات مساطبهم ، كما استخدموها في تشييد واجهات مساطب كبار أهل دواتهم ، وتشيد جدران أسوار المدن والحصون ، على حين استخدمها البنائون في بلاد النهرين في تشييد معابد أربابهم دون غيرها أو أكثر من غيرها (٦٥) .

٣ - شاعت في مصر وبلاد النهرين في أوائل عصر بداية الأسرات أختام أسطوانية صغيرة كان أصحابها ينقشون عليها أسماءهم ورموزا اصطلاحية تدل عليهم ويختمون بها على مقتنياتهم الخاصة (وعلى سدادات الجرار الكبيرة بوجه خاص) وربما ختموا بها على وثائقهم أيضا . وظلت هذه الأختام أكثر انتشارا في بلاد النهرين عنها في مصر، وظلت أكثر استقرارا في بلاد النهرين عنها في مصر، وذلك مما يوحي

(٦٥) دفع إلى القول باعتبار عمارة المشكاوات عنصرا دخيلا على مصر عدم ظهور تطوراتها الأولى في مقابر قبل الأسرات ، ولكن يلاحظ إلى جانب ذلك أن الأجزاء العليا من هذه المقابر لم يبق منها شيء على الإطلاق بحيث يدل على قرابه من نظام المشكاوات أو بعده عنها .

بأن أصلها العراق القدي كان أكثر ترجيحاً من أصلها المصري (٦٦) ، ولكن يلاحظ إلى جانب ذلك أن الأختام المصرية اختلفت عن الأختام العراقية في أكثر من ناحية ، فصنع أصحابها بعضها من الخشب ، دون أختام بلاد النهرين ، ونقشوا عليها ألقابهم وعلامات كتابية واضحة أكثر مما اعتاد أصحاب أختام بلاد النهرين ، ونقشوا عليها مناظر أخرى قبل أختام بلاد النهرين وأكثر من أختام بلاد النهرين . ونم ذلك كله عن أن الأختام المصرية تطورت في أحضان حضارة أهلها وسارت تقاليدهم في الصناعة والنقش والزخرف ، وسارت صناعتها في جو هادئ وفي تطور طبيعي دون أن يفرض على المصريين استعمالها من قبل بلاد النهرين أو غيرها (٦٧) .

٤ — جرت عادة المصريين في عصر بداية الأسرات على دفن الأتباع والخدم حول مقابر سادتهم من الملوك وكبار الشخصيات ، وظهرت نفس العادة في بلاد النهرين واستمرت فيها عصوراً طويلة . ولكن بينما أكد الأثريون أن السومريين كانوا يقتلون أتباعهم ويضحون بهم عن قصد حين وفاة سادتهم ويدفونهم مع أدواتهم التي كانوا يعملون بها في حياتهم الدنيا مع سادتهم . لوحظ أن مصاطب الملوك والعظماء المصريين تضمنت طائفتين من مقابر الأتباع : طائفة حفرت حول حجرة دفن سيدها مباشرة واحتواها مبنى مصطبة فعلاً وقفل عليها ، وطائفة أخرى حفرت بين بناء المصطبة وبين السور الخارجي الذي كان يحيط بها (٦٨) ، وذلك مما يحتمل تفسيره بأن الأتباع الذين كانوا يموتون ميتهم الطبيعية في حياة سيدهم كانوا يدفنون في المقابر التي تحيط بحجرة دفنه قبل دفنه ، وأن أتباعه الذين كانوا يموتون ميتهم الطبيعية بعد وفاته وبعد قفل مصطبة كانوا يدفنون في المقابر التي تحيط بها وتقع بينها وبين السور . ومعنى ذلك أن دفن الأتباع حول سادتهم وإن تشابهت فكرته في البلدين إلا أن طريقة تنفيذه اختلفت في الحالين .

*
*
*

يمكن اعتبار عصر بداية الأسرات عصر تكوين بالنسبة إلى نظم الإدارة ، وكلمة التكوين هنا تهدف إلى معنيين ، أحدهما أن عصرها كان محدود المطالب بالنسبة إلى العصور التي تلتها ولهذا اكتفى بما يفي بأغراضه من المناصب والإدارات . والآخر هو أن تنظيمات العصر على الرغم من بساطتها أصبحت أساساً لكل التنظيمات الكبيرة التي أعقبتها في عصر الدولة القديمة .

اعتمد الإشراف الإداري في ذلك العصر على أربع طوائف من كبار الموظفين تداخلت اختصاصاتها مع بعضها البعض واعتاد أفرادها على أن يجتمعوا بين أكثر من اختصاص في آن واحد ، وكانوا تبعاً

See R. WEILL, RECHERCHES, I, 305 f. (٦٦)

See H. FRANKFORT, The Birth of Civilisation, Ch. V. p. 101 f. (٦٧)

Petrie, Preh. Egypt, IX, 57, XXIII, 7, NEWBERRY, Scarabs, p. 46, Pl. XV.

See EMERY, Great tombs of the First Dyn. II, (1954). (٦٨)

ووجود عادة دفن الأتباع في التوبة
REISNER, in ZÄS, LII, 36, f. 49 f.; Harvard African, Studies V, 70 f.

لأهم الفاهيم التي سجلوها على بطاقاتهم الصغيرة وعلى أختامهم ومختومات مقابرهم (٦٩) : حملة الأختام ورجال بيت المال ، وحكام الأقاليم ، ورؤساء الكتاب ، وكبار رجال البلاط .

كان اللقب المميز لأفراد الطائفة الأولى هو لقب سجاوتى 𓆎 ، وهو لقب يدل على الرغم من إنجازهم على معان كثيرة مثل الختام (والمهردار) والخازن والأمين وحامل الختم أو حامل الأختام (٧٠) ، ثم يضاف إليه ما يدل على اختصاصات صاحبه ، مثل سجاوتى الوجه البحرى ، وسجاوتى الشون ، وسجاوتى الوثائق ، وسجاوتى موارد الأعياد ، وقد يزيد أحدهم فينسب إلى نفسه أنه سجاوتى كل شيء ، لاسيما إذا كان من رجال البلاط المقرين إلى الفرعون الحاكم .

وقد تدل كثرة الأختام وحاملها على اهتمام الدولة حينذاك ببصم كل شيء بنحائها ، أو تدل على أن أختام الملوك كانت تتدخل في كل شيء بحيث لم يكن حاملوها أكثر من عمال لأصحابها .

وكان أكبر حملة الأختام في أوائل عصر بداية الأسرات هم أصحاب لقب سجاوتى بتي 𓆎 وهو لقب يعنى خازن الوجه البحرى أو حامل أختام ملك الوجه البحرى ، وتوفر لهم به إشراف واسع على شئون الوجه البحرى ومصالحه ومصالح الدولة فيه .

وظلت لأصحاب هذا اللقب منزلة الصدارة بين كبار موظفي العصر ، حتى ظهر لقب آخر جديد في أواخر عهد الأسرة الثانية وهو لقب حامل أختام المولى أو الإله (سجاوتى نثر) ، وأصبح لأصحابه إشراف أوسع من إشراف أصحاب اللقب الأول لاسيما في تنفيذ مشروعات الفرعون ومشروعات الدولة .

وعرف عصر بداية الأسرات بيتين للمال سمي أحدهما 𓆎 بمعنى بيت الفضة أو البيت الأبيض أو بيت المال الأبيض (مع تقدير أن المال بمعنى النقود لم يكن له وجود) ، واختص بضرائب


(٦٩) See PETRIE, Royal Tombs I, II; R. WEILL, Les IIe et IIIe dynasties égyptiennes, Paris 1908; W.B. EMERY, Great tombs of the First Dynasty, Cairo 1949, with ZAKI SAAD, The tomb of Hemaka, Cairo, 1938; Hor-Aha, Cairo 1939; and partly, J. PIERENNE, Histoire des Institutions et du droit privé de l'Anc. Egypte, T. I, Bruxelles 1932.

(٧٠) تصور العلامة الهرموفيلية التي كتب اللقب بها هيئتها يتدلى من فلاة ، وكانت الأختام اختاما اسطوانية مجوفة صغيرة تصنع من الخشب أو الحجر وينقش عليها اسم الملك الذي استخدمت في عهده وتثبت في يد خشبية بحيث يسهل تحريكها حين الختم بها على الوثائق أو سدادات الطين التي قامت مقام الجمع الأحمر في عصرنا الحالي .

وكان الختم يسمى سجايت كما يسمى ختما بنفس لفظه العربى الحالم ، وربما سمي الشيء المختوم عليه سين ، ولو أن قراءة لقب سجاوتى أى الختام أو حامل الختم لا تزال موضع شك حتى الآن .

See ZÄS, XXXII, 32, 66; XXXV, 106; XXXVI, 146; XXXVII, 86; A.H.GARDINER, Eg. Gram.,

493; R. WEILL, Recherches II, 119—127.

الصعيد ودخله وخرجه ، وسمى الآخر  پردشر أى البيت الأحمر ، وسمى فى بعض مترادفاتة باسم (پردشر پرنسو) (٧١) أى البيت الأحمر التابع لقصر الملك ، واختص بضرائب الوجه البحرى ودخله وخرجه . وظهرت له صورة تخطيطية فوق أنية من الشست فى مقبرة مريت نيت صورته على هيئة دار كبيرة ذات مدخلين ، مدخل أمامى ومدخل جانبي ، وارتفع فوقها صار كبير يمثل رمز « حج » (٧٢) .



ووجود بيتين للال فى ذلك العصر يمكن أن يفسر بأحد فروض ثلاثة وهى :

الرغبة فى تيسير الإشراف على موارد البلاد الواسعة ، بتوزيع مسئولية هذا الإشراف على إدارتين كبيرتين تختص إحدهما بمراد الصعيد وتختص الأخرى بمراد الوجه البحرى .

وما يحتمل من أن ملوك العصر الأوائل حرصوا على أن يحتفظوا للوجه البحرى بشخصية اسمية ترضى أهله وتسيهم أنهم ذابوا فى وحدة البلاد الكبيرة ، ولهذا أفردوا لهم بيت مال خاص نسبه إلى لوهم الأحمر المفضل (لون تاجهم القديم) وجعلوه تابعا لقصورهم الملكية بالذات .

أو أن البيتين كان لهما وجودهما المستقل فعلا قبل توحيد البلاد فى بداية الأسرة الأولى ، فأبقى الملوك عليهما مراعاة للتقاليد التى حتمت عليهم الاحتفاظ بالتاجين والانتساب إلى الرتين والشعارين .

وأعتمدت موارد بيتى المال على تحصيل الضرائب العينية من محاصيل الارض وإنتاج المصانع ونتاج الماشية وجلودها ومحصول المصايد فضلا عما كانت الحكومة تستثمره بواسطة رجالها من المحاجر ومناجم النحاس والذهب ، وما تتولى أمره من المتاجر الخارجية أو تعود به جيوشها من الأسلاب والمغانم . ثم يتولى البيتان الإنفاق من هذه المورد على مشروعات الدولة ومشروعات الفرعون ومراتب الموظفين العينية .

وقام حكام الأقاليم بدورهم فى تنفيذ سياسة حكومتهم المركزية ومشروعاتها ، وحمل كل منهم لقب  وهو لقب يكاد يعنى معنى القائم على حفر الترغ ليؤكد أن إشراف أصحابه على شئون الرى والزراعة كان أهم ما يتكفلون به ويسألون عنه من أعمال ، ويبدو أن العلامة الهيروغليفية الثانية التى كتب اللقب بها  ، تعبر عما كان متعبا فى تقسيم أراضى الزراعة إلى أحراض يفصل بين كل حوض منها والآخر حاجز وتصل بينها جميعها قنوات (٧٢) . ولم يكن الإشراف على شئون الرى والزراعة من واجبات حكام الأقاليم وحدهم ، وإنما حرص الملوك أنفسهم على أن يجعّره من أول مهام حكومتهم المركزية .

(٧١) R.T. II, XXIV, 206 ; R. WEILL, op. cit., ; IIe et IIIe dyn., 109.

(٧٢) R. T. I, V, 7, p. 19, XVIII, 6, XIX, 154 ; EMERY, Great Tombs, Fig. 55, etc.

وليس من سبيل إلى تحديد بقية اختصاصات حكام الأليم ومسئولياتهم في ذلك العصر وإن كان من المرجح أنهم كانوا مسئولين عن الأمن وتجهيز الجيوش في وقت الحاجة إليها ، كما كانوا مسئولين مع موظفي بيت المال عن تحصيل الضرائب العينية ، وتنفيذ توجيهات الحكومة المركزية لتعمير القرى واستصلاح أرض الزراعة .

تلقب الكاتب في مصر القديمة بلقب سش ، وكان لقباً يحمل في طياته معنى المثقف ومعنى من يحسن الكتابة فضلاً عن معنى الموظف . وكان مكتبة دورهم الرئيسي في بيوت المال بما تستدعيه أعمالها من رصد وتسجيل وحساب ، كما كان لهم شأنهم في القصور الملكية لكتابة الأوامر والرسائل ونسخها .

واحتفظت نصوص العصر من ألقاب المشرفين على الكتاب بلقب حامل أختام كل وثائق الصعيد ولقب المشرف على كل مخطوط (٧٣) ، وهما لقبان يشيران من غير شك إلى اهتمام حكومتها بتدوين أمورها وحفظها والرجوع إليها حين الضرورة .

وأشرف رجال البلاط الملكي من ناحيتهم ، على إحصاء عام كانوا يجرونه كل عامين ، ويخرجون خلاله على ظهور السفن وينقلون في النيل من إقليم إلى إقليم في موكب عبرت عنه حوليات بالرمو باسم « شمس حور » أي موكب حور أو « شمس ديهوت حور » بمعنى موكب مراكب حور (٧٤) . وكان إحصاء لازماً على غير بينة من أمره ، فقد يكون إحصاء لمساحات الأراضي المزروعة وموارد المناجم كما يفهم من نص في حوليات بالرمو (٧٥) ، أو إحصاء للسكان (وممتلكاتهم) كما يظن برستد (٧٦) ، أو إحصاء للأشياء لتقدير نصيب الدولة منها ومن جلودها ، كما نصت عن ذلك صراحة نصوص الدولة القديمة التي أعقبت عصر بداية الأمرات (٧٧) .

PETRIE, Scarabs, pl. VI, 154, VIII, 24; R.T. II, XXI, 164; WEILL, IIe et IIIe dyn., 120. (٧٣)

PALESTINE, pt. IV, 3, 5, 7, 9, 11, 13, 15 and see R.T. I, XVII, 26, 29, Unters., III, 64, f. 68. (٧٤)

ولا تزال عبارة شمس حور موضعا لتأويلات شتى فبرى كيسى أنها تعنى « خدمة (أتباع) حور » وتدل على قيام حكام الأقاليم بتزويد الرحلات الملكية واتباعها في فترات تحصيل ضرائب الأرض وضرائب التجارة . ويفترض جاردنر أنها تعبر عن رحلة الملك بنفسه عن طريق النهر ، أو تعبر عن احتفاله بذكرى إبحار نعيمر موحد القطرين في النيل لاتمام الوحدة السياسية في بداية الأسرة الأولى .

KES, Kulturgeschichte, 46; GARDINER, Egypt of the Pharaohs, 414.

Palermo, V, 4, 5. (٧٥)

A. R. I, 6, 106. (٧٦)

GARDINER-PERT, Sinai, pl. VII, 13; Urk. I, 16, 55; Rec. Tr., 25, 73; Sethe, Unters, III, 70 f. (٧٧)

وقامت الحكومة المركزية برصد ارتفاع فيضان النيل عامًا فعامًا ، حتى تتخذ الإجراءات المناسبة لمواجهة ارتفاعاته ، وتنظيم الانتفاع بمياهه ، وحتى تقدر الضرائب الزراعية العينية على أساس مدى انتفاع الأراضى الزراعية به .

ويحتمل أنهم كانوا يرصدونه على أساس مقياس يجاور عاصمتهم إنب حج في مكان ما بمنطقة مصر العتيقة الحالية ، ويرى زيته أن الفيضان المتوسط عند ذلك المقياس تراوح حول الأربعة أذرع (ورأى في حوليات بالرمو ما ينم أن أقاليم الدلتا الغربية والشرقية (؟) غرقت في عام بلغ ارتفاع فيضانه ثمانية أذرع وثلاثة قراريط) (٧٨)

ولم يكن النشاط الحكومى في عصر بداية الأسرات من شأن الموظفين الإداريين وحدهم ، وإنما كان للفنيين نصيب كبير في أعمال الإنشاء والتعمير ، واتخذ كبارهم لقب ^ص _ص وهو لقب صعبت ترجمته بترجمة لفظية صحيحة حتى الآن ، وإن كان من المرجح أنه كان يدل على المهندس والمعماري والبناء والمدال أيضا (٧٩) ، مع نسبته في كل هذه الأحوال إلى الملك أو القصر الملكى إشارة إلى رياسة صاحبه للقائمين بتنفيذ المشاريع الملكية والحكومية . أما ص ورة البلطة التى كتب اللقب بها فقد تشير إلى مرحلة قديمة كان لعامة الخشب وسوق النبات والأشجار أهميتها فيها (٨٠) .

واتخذ المعاريون لهم ربة راعية سموها «سشات» ، وكانت في الوقت نفسه راعية للكتاب والحاسبين وقيل عنها إنها كانت « أول من خط وحسب» ، وتدل رعايتها للعاريين والكتبة والحاسبين على حاجة المنشآت إلى مجهودات هؤلاء جميعهم .

وتضمنت نصوص عصر بداية الأسرات ألقابا مدنية أخرى كثيرة حملها نزار القصور والسكرتاريون أو المطلعون على الأسرار على حد التعبير المصرى القديم ، والمشرفون على المزارع والحدائق والكروم . وتضمنت أختام العصر صورا طريفة لرجال يقفزون إلى النيل ويسبحون فيه ، ولا ندرى هل يدل ذلك على نشاطهم الخاص في السباحة ، أم أنهم كانوا من مرقي الفيضان ومراقبي الملاحة كما يظن فاندروز پترى (٨١) .

وإلى جانب كل هذه المناصب والألقاب المدنية كانت هناك ألقاب دينية كثيرة تؤجل الحديث عنها إلى موضوع آخر عن الدين .

استمتع كبار الموظفين في عصر بداية الأسرات بثناء لا بأس به إلى جانب ثراء فراعتهم . ولعل أكبر لقب ظهر لهم في نهاية عصرهم هو لقب « تي خرنيسو » (٨٢) ، بمعنى الأول لدى الملك أو الأول بعد الملك

Palermo vs. III, 4; Kees, op. cit., 21. (٧٨)

S (Weill, Recherches, I, Ch. VI.

See also, M. Murray and K. Sethe, Saqqara Mastabas, II 4. (٨٠)

R. T. II, XVII, 131, XIX, 146—148, 150; Anc. Egypt, 1925, p. 110. (٨١)

R. T. II, XXI, 165. (٨٢)

أورأس أتباع الملك و بمعنى كبير رجال بلاطه . ونم عن ثراء أولئك الكبار ما تركوه من مقابر ضخمة واسعة لا زالت أطلالها باقية في سقارة وغيرها من جبانات القطر الكبيرة ، واحتوت واحدة من هذه المقابر ، تنسب إلى "حماكا" أمين أختام الوجه البحري في عهد "دن" ، رابع ملوك الأسرة الأولى أو خامسهم ، لإثنين وأربعين حجرة فوق سطح الأرض وتحتها ، واحتفظت بعض هذه الحجرات ببعض ما كانت تتضمنه من أقراص كبيرة وصغيرة من الألباستر والشست تعتبر بصناعتها ورقها وزخارفها آية لرقى الصناعة في عصرها ، وصناديق صغيرة مطعمة ، وسهام وحراب ، وأواني للشروبات والزيوت التي اعتقد صاحبها أنه سوف ينتفع بها في آخره (٨٣) . واحتفظت مقابر أخرى في حلوان من نهاية العصر نفسه بكنوز وساطات من الصخر البلوري تكشف سطوحها الخارجية عن دواخلها ، وانثنت أطرافها إلى الداخل والخارج كما تنتفي أوراق الرسم الحالية ، وبلغت حدا من الرقة والروعة قل أن فاقته صاعة أمثالها في العصور التالية لعصرها ، واحتفظت معها بكأس صغيرة مصمتة قلدت هيئة زهرة اللوتس الملونة ، وصحاف من الشست قلدت هيئة أوراق التين وأخرى قلدت هيئة صحاف الخوص المجدولة ، وكل ذلك مما ينم عن حذق صناعتها وسلامة أدواقهم كما ينم عن ترف أصحابها .

وقطعت صناعة الخلى نفس الشوط الطويل ، ولعل أمتع ما يستشهد به من روائعها هي الأساور الأربعة التي وجدت في أيدوس ونسبت إلى زوجة الملك حر ، وقد صيغت حباتها ووحداتها من الذهب والفيروز والجمشت على هيئة زهيرات رقيقة وحبيبات كرية وحبيبات قلدت قطرات الماء ، ووحدات قلدت هيئة واجهات القصور الملكية . ثم حليات أخرى ذهبية رقيقة وجدت في نجح الديرو قلدت هيئات وعول وعجول مرفهة أحاط أصحابها رقابها بتمايم ممتعة .

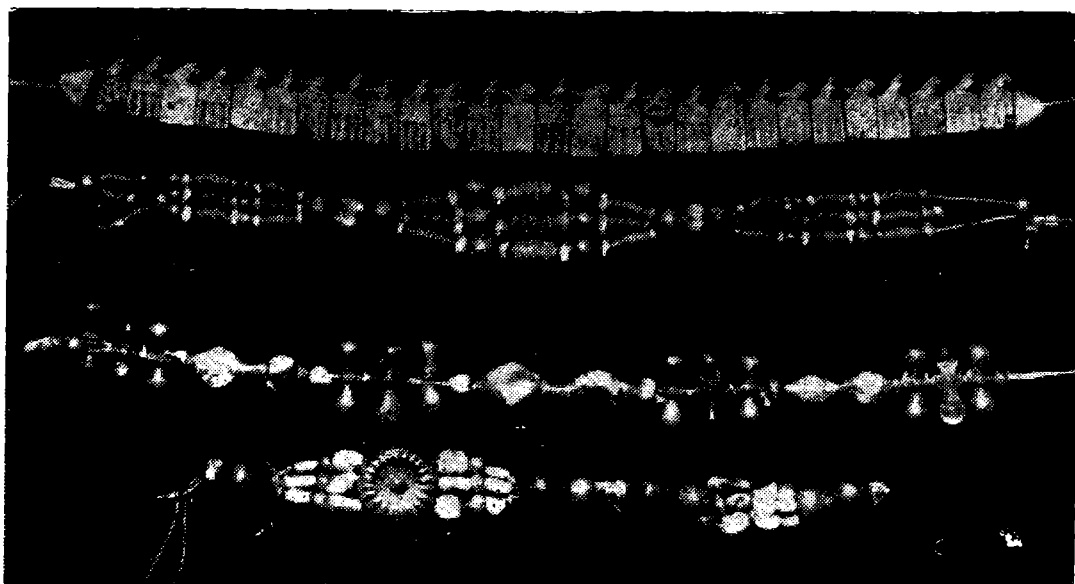
والخلاصة أن وسائل أهل عصر بداية الأسرات في النشاط الداخلي كانت وسائل عدة ، اتجهوا فيها إلى استغلال موارد البلاد الطبيعية استغلالا يفوق ما كانت تستغل به قبل عهدهم ، وحاولوا توحيد طابع الحضارة الفنية والمعمارية لمصر كلها وصبغتها بصبغة واحدة متجانسة ، وعملوا على تجميع الكفايات الإدارية والفنية في عاصمتهم ، وعملوا على الارتقاء بالكتابة وتوسيع استخدامها في شئون الإدارة والعقائد ، وإرساء القواعد لمشاريع الري والزراعة وتنظيمات الضرائب وحكم الأقاليم .

وكان من صور استغلال الموارد الطبيعية في عصرهم استغلال الحجر والمناجم ، فاستخدموا الديوريت والجرانيت والأحجار الجيرية لرصف أرضيات المقابر الملكية وتسقيفها وعمل نصبها ، واستخدموها في بناء بوابات بعض المعابد الكبيرة ، وربما واجباتها أيضا ، وإذا استشهدنا باستخدام الحجر في المقابر والمعابد دون غيرها ، فمرجع ذلك إلى أن المقابر والمعابد هي التي بقيت حتى الآن دون المساكن ، وليس ما يمنع من أن الأحجار نفسها استخدمت في بناء أكفاف أبواب القصور وأساطينها وأرضياتها .

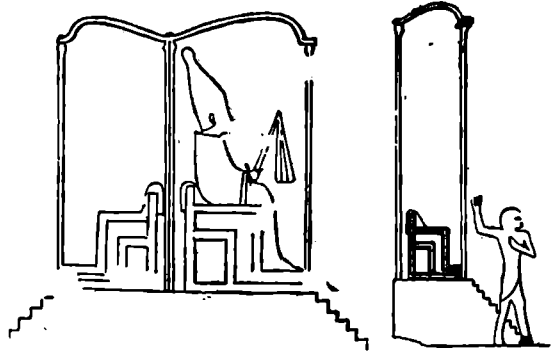
ونجح أهل العصر فيما أرادوه من صبغ الحضارة المصرية بصبغة متجانسة ، فتشابهت آثارهم التي تركوها عند رأس الدلتا ، مع آثارهم التي تركوها في مصر الوسطى و آثارهم التي تركوها في الصعيد ،



شكل ٣٣ — قرص مرصع يصور كلبى صيد يلاحقان غزالين
من مقبرة حاكا (ص ٢٧٢)

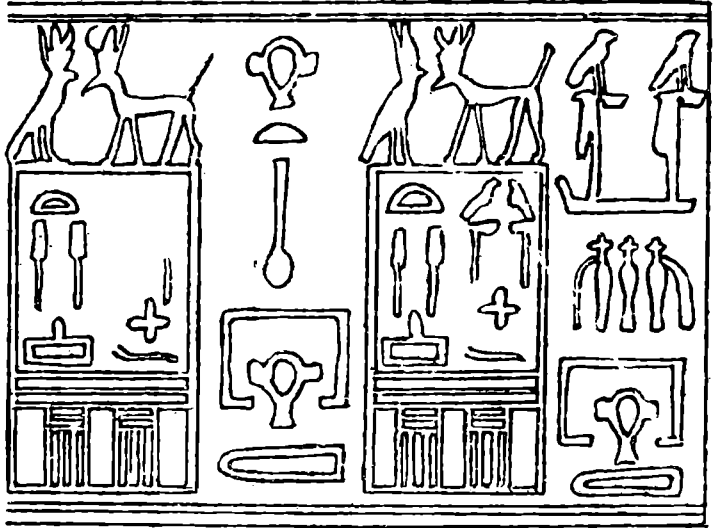
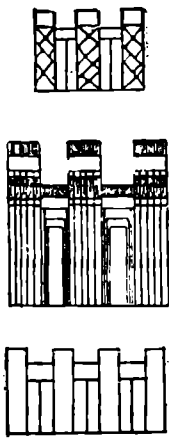
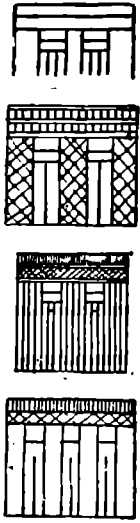


شكل ٣٤ — أساور ممتعة على الرغم من مرور خمسة آلاف عام على صنعها (ص ٢٧٢)



شكل ٣٥ — مرحلتان من مراحل عيد السد (ص ٢٦٠)

شكل ٣٦ — تسجيل يوزخ لعام النصر في عهد خنم
ونخابة حامية للصيد تهدي رمز وحدة الوجهين «سمتاوى»
إلى خنم خنم ممثلاً باسمه داخل واجهة قصره (ص ٢٧٦)



شكل ٣٨ — نماذج لواجهات القصور
الفرعونية بنفاصلها المعمارية في عصر بداية
الأسرات (ص ٢٧٧)

شكل ٣٧ — صورة من صور التعبير عن تألف الوجهين
وصداقة المعبودين حور وست في عهد خنم خنموى (ص ٢٢٧)

في خصائصها الرئيسية وإن تنوعت في أذواقها وتفاصيلها المحلية ، وكان فناؤ البلاط الملكي وتلاميذهم هم أدوات التجانس في هذه الآثار ، فعملوا باسم ملوكهم في أنحاء الوادي كله ، وعملوا بإذن ملوكهم في خدمة أهل بلاطهم حيثما استقر مقامهم ، في سقارة وأبيدوس ونجع الديرو وغيرها .

* *

تمتع ملوك عصر بداية الأسرات بقداسة نظرية واسعة وسلطان سياسي عريض ، نمت عنهما ألقابهم وتمجيد كبار موظفيهم لهم ، بيد أنه على الرغم من ذلك كله لم تخل عهودهم من خصومات خفية ومنازعات صريحة بين المستحقين للعرش والطامعين فيه ، وربما لم تخل من اضطرابات حدودية أيضا .

فقد شهدت أواخر أيام الأسرة الأولى خصومة أو أكثر من خصومة أسرية في عهد فراعنتها الثلاثة الأواخر ، عنجباب وسمرخت وقاي ع . وكانت خصومة نم عنها أن رجال سمرخت أزالوا بإذنه أسماء سلفه مما وصلت إليه أيديهم من آثاره وآثار أمه مريت نيت ، وتعهد رجال قاي ع بدورهم أن يحوا أسماء سلفه سمرخت من أغلب آثاره (٨٤) . ولأمر ما لم تذكر قوائم الملوك اسم سمرخت وذكرته باسم آخر عبرت عنه نصوص عهده بصورة كاهن يسك منسأة مرة ويسك صولجانا مرة ، وذكرته إحدى هذه القوائم باسم سمس (٨٥) ، وإذا صح أن صورة الكاهن كانت مقصودة لذاتها دلت على أن سمرخت كان غربيا عن الأسرة ، ولو أنه ليس من المستبعد من ناحية أخرى أن الملوك الثلاثة كانوا إخوة من أمهات مختلفات ، لا سيما وأن بعض آثارهم جمعت إلى أسمائهم اسم سلفهم "دن" رغبة في تأكيد الرابطة بينهم وبينه (٨٦) ، أو هم على أقل تقدير كانوا ينتمون إلى فروع مختلفة من الأسرة الحاكمة ادعى كل فرع منها أحقيته في العرش دون غيره من الفروع . وأرن مانيتون لملك سمرخت ، وذكره باسم (Semempses) ، وذكر أن مصيبة كبيرة لحقت بمصر في عهده تلميحا فيما يبدو إلى ما حدث في عهده من تنافس وانقسام .

ولم تهدأ المطامع على الحكم إلا ببداية عصر الأسرة الثانية التي تسمى أول فراعنتها باسم يؤكد عودة الاستقرار والهدوء في عهده ، وهو اسم حوتب سخموى الذي أسلفنا أنه يترجم عن معنى رضى القويان أو استقرار القويان ، وأنه قد يرمز إلى رضى الرين القويين حور وست بما انتهت إليه أحوال البلاد في عهد صاحبه .

ورجح فيبي وإدوارد ماير ونيوبري (٨٧) أن خصومة من نوع آخر حدثت في النصف الأخير من الأسرة الثانية ، وكانت فيما رجحوا خصومة سياسية دينية تعصبية في آن واحد ، شذ فيها الملك

R. T., I, p. 19, pl. IV, 5; VI, 9—10. (٨٤)

R. T. I, pl. XVII, 26, XXVIII, 72; Abydos List 7; Tarin Pap., II, 18. J.E. A, 1943, 75-6.) (٨٥)

وقرا جاردنر صورة الكاهن شمسو وقرأها جردسولوف ابرى نثر بمعنى الرباني أو المنتى الى الرب ، وادا صحت قراءته ، كان صاحبها اول ملك انتسب الى اله مطلق في اسمه ولو ان فيكتيف عارضه في هذه القراءة دون ان يحل غيرها محلها

(Ann. S. XLIV, 284-288, Fig. 28; XLIII, 677-8.)

R. T. I, pl. V, 9, 11, 12; ZAS, XXXV, 3, NAVILLE, Cemeteries of Abydos, pl. VIII, XIV. (٨٦)

WELL, Rec. Tr., XXIX, 29 f.; Ed. MEYER, Geschichte, § 213; NEWBERY, in Anc. Egypt, 1922, 40 f. (٨٧)

برايسن عن سنة أسلانه الذين اعتادوا على أن يضوروا الصقر رمز المعبود حور فوق واجهات القصور التي تضمنت أسماءهم ، وتخلي من ناحيته عن الانتساب إلى حور وتصيب لست رب الصعيد القديم ، وسمح لرجاله بأن يصوروه بتاج الصعيد ووصولانه وبهيمه شبيه بشرية على أخامه، ويصوروا رمزه فوق صورة قصره عوضا عن رمز حور . وذكر له أحد أعوانه أن نوبتي (أى ست رب مدينة نوبت) هو الذى عهد إليه بحكم الأرضين باعتباره ولده (٨٨) ، وذلك مما يعنى فى اعتقاد أولئك الباحثين أنه أراد أن يترجم عن رغبة ملكه فى أن يؤكد للناس أنه وريث ست دون غيره وأنه لا يعترف بالفضل لمن سواه ، وأنه تخلى عن الانتساب إلى حور نتيجة لخصومة عنيفة بينه وبين مناطق الدلتا التي تصيب أهلها لربهم القديم حور . ويمكن أن يضاف إلى ذلك ما يحتمل عن تمسك برايسن بالإقامة فى مدينة ثني فى قلب الصعيد ، وإقامته ذلك المبنى الذى سوف نذكره فى حديثنا عن عمران ثني وأبيدوس ، (ص ٢٨٢) وقد اعتبره بعض الباحثين حصنا مقصودا لذاته .

ورأى بعض أولئك الباحثين ، لاسيا هرمان كيس ، أن ما تضمنته متون الأهرام من تفاصيل لخصومة بين الرين حور وست لم يكن فى حقيقة أمره غير ترجمة عن اختصاص أنصارهما فى عهد برايسن .

ولا تخلو هذه التخريجات كلها من وجهة ، ولكن يلاحظ إلى جانبها أن كلا من پترى وهوجو ميلر ودر يوتون وجر دسلوف وشيبل ، حاولوا أن ينسبوا إلى برايسن أربع صور من السرخ ، أى واجهات القصور ، تخلفت من عهد الملك نفسه أو قريبا من عهده ، وتضمنت واحدة من هذه الصور اسم برايسن داخل السرخ يعلوه رمز ست ، (وكانت هذه الصورة هى الغالبة فى عهده) ، وتضمنت أخرى اسم برايسن أيضا داخل السرخ يعلوه رمز ست ودائرة قرب كورت زيته دائرة مثلها فى عصر الأسرة الثالثة إلى رمز المعبود رع رب الشمس (٨٩) ، وتضمنت ثالثة اسم سخم إب داخل السرخ يعلوه رمز حور ، وتضمنت رابعة اسم سخم إب - برن ماعت داخل السرخ يعلوه رمز حور .

ولما كان اسم سخم إب قد وجد فى نفس المقبرة التي وجد بها اسم برايسن ، ووجد اسم سخم إب برن ماعت بجوار الحصن المنسوب إلى برايسن فى أبيدوس ، فقد استنتج أولئك الباحثون أن الاسمين لم يكونا غير لقبين للملك برايسن نفسه ومرادفين لإسمه (٩٠) .

(٨٨) R. T. I. XXIX, 87; II, XXI, 173-177., XXII, 78-190; Bull. Inst. 1948, 86 and n. 2.

(٨٩) هى عبارة عن دائرة كبيرة وأخرى صغيرة بداخلها . أى انها تختلف بعض الشيء عن علامة رع عند نبي رع حيث كتبت بدائرة تتوسطها نقطة على الطريقة المعتادة فى أغلب النصوص المصرية ، وشابهت دائرة برايسن دوائر أخرى وجدت على بعض أخامه واحتمل خع سخموى وتداخلت فى كلمات يصعب تعيينها (See R.T. II, XXI, 176 and XXIV, 213). وراجع عن رأى زيته ص ٣١٤ حاشية ٣٤

(٩٠) Abydos III, pl. IX, 3; PETRIE, History of Egypt, 10 ed., 32-33; Ann. S. XXVIII pl. II, 2, 3; G. MUELLER,

Die Formale Entwicklung der Titulatur der ägyptischen Koenige, 1938; M.B. GRDSELOFF, in

Ann. S. XLIV, 295. SPIEGEL, Das Werden der Alt-Agyptischen Hoch-Kultur, p. 216.

وزاد ماسپرو وجوبه قدما صورة أخرى وهى تصوير رمز ست ورمز حور يقفان معا فوق سرخ يتضمن اسم برايسن ، ولكن الصورة مشكوك فيها .

MASPERO, dans Revue archéologique, 1898, 307; GAUTHIER, L. R., I, 24

وإذا صح هذا الرأي الأخير باعتبار صور السرخ الأربع لملك واحد ، وهو رأى لا بأس به ، أمكن ترتيب الفروض التالية عليه :

أولا — أن يكون برايسن قد بدأ عهده بالولاء المعتاد للعبود حور ، ونسب إليه أحد أسمائه ، ولكن أهل الوجه البحرى ناوأوه وبدأوه بالمعاندة ، فعاندهم وانصرف بولائه عن ربهم القديم حور إلى رب الصعيد القديم ست ، كما أكد أغلب الباحثين .

ثانيا — ألا تكون هناك معاندة من الطرفين على الإطلاق ، وحينذاك تنحصر خطوة برايسن فى الانتساب إلى ست إلى جانب حور ، برغبته فى الجديد ليس غير ، ثم أتبع هذه الخطوة بخطوة أخرى لم يكتف فيها بالانتساب إلى حور وست وحدهما ، وإنما أضاف إليهما الإله رع (؟) فى صورة السرخ الثانى ، باعتباره أسبق منهما فى الوجود وأقدم منهما فى اعتلاء عرش البلاد المقدس القديم على نحو ما أكدت أساطير الدين والتاريخ (١٩١) .

ويؤكد هذا الفرض الثانى الذى نميل إلى الأخذ به أمران ، وهما : أنه إذا صح أن الدائرة التى صورها رجال برايسن على سرخه ترمز إلى رع فعلا فإن رع الذى انتسب برايسن كان من أرباب الوجه البحرى فى أساسه ، ولو خاصم الملك أهل الوجه البحرى لما انتسب إلى أحد أربابهم . وأن كاهنا يدعى شرى عاش فى بداية عصر الأسرة الرابعة ذكر فى نقوش مصطبة فى سقارة أنه كان كبيرا للكهنة القدامى على شعائر برايسن فى الجبانة فضلا عن شعائر ملك آخر من أسرته نفسها ذكره بامم سند أوسندى (وذكرته نصوص قديمة باسم سنج) فى كل مواضعه ، على حد قوله (١٩٢) . ويكاد يكون من المرجح أن الشعائر التى أشرف شرى عليها باسم الملكين كانت تقام فى سقارة التى دفن فيها وعاش بالقرب منها . وهكذا لو عاند برايسن أهل الوجه البحرى وخرج على ربهم كما أكد أصحاب الرأى الأول ، لما اعترف به كهان جبانة سقارة أكبر جبانات الوجه البحرى ، ولما استمرت شعائره قائمة حتى عصر الأسرة الرابعة . ويمكن أن يضاف إلى هذين الأمرين أنه ليس من دليل على أن أهل العاصمتين الشماليتين الكبيرتين إنب حج وعين شمس قد ادخروا عداة للعبود ست الذى انتسب برايسن إليه ، فقد ضمهم أهل عين شمس إلى تاسوعهم المقدس وصوره رجال الملك زوسر أول ملوك الأسرة الثالثة بعد وفاة برايسن بجيلين أو ثلاثة ، فى أحد معايدها ، واعترف أحد رجال الأسرة الثالثة الجبار ويدعى خع باوسكر بالكهانة له فى مدينة قد تكون البهنسا الحالية . (راجع ص ٣٠٢) .

على أن الواقع أننا لا نستطيع أن نقف بقضية برايسن عند هذا الحد ، فقد استمرت شهباتها باقية بعد وفاته ، وأرخ رجال خليفته خع سخم لأحد أعوام حكمه باسم عام الحرب وإخضاع الدلتا ، وصوروا

Pyt. 1458e, 1479; H. GRAPOW, Rel. Urkunden, 1915, 6-7; Pap. Prisse, 88 f.; Pap. Petersburg, 1116 (٩١)

A rt. 131 f.

MAHETTE, Mastabas, 92 f.; MORET, dans Mon. Piot, XXV, p. 273 f, pl. XXI-XXII; Ann. S., XLIV, (٩٢) 294.

الربة نخبة حامية الصعيد تستقر برجلها اليسرى فوق دائرة تشبه الختم كتبت فيها كلمة بش ، وتقبض بجلها الأيمن على نباتي الصعيد والدلتا متعاقبين وتتقدم بهما إلى اسم الملك: الذي حل في المنظر محل صورته والذي نقش داخل سرخ وقف فوقه صقر يرمز إلى المعبود حور بتاج الصعيد، دلالة على سيطرته عليهما واجتماعهما تحت طاعته وطاعة ربه الحامية (٩٣) . وصور أحد نباتي الملك نفسه على قاعدتي تمثالين صغيرين له أعدادا من أسراه وقتلاه ، وذكر أنهم بلغوا ٤٧٢٠٩ من الأنفس ، وصور معهم نبات البردى (٩٤) .

وفسر القائلون بانشقاق الدلتا عن الصعيد في عهد بر إيسن ، هذا التصوير ، بأنه يرمز إلى جهود خع سخم في استعادة حكم الدلتا ، وأنه يعني أنه لم يتردد في أن يستخدم القوة مع أهلها ، فقتل منهم وأسره ، ودلوا على صحة رأيهم بتصوير نبات البردى المعبر عن الدلتا ، مع قتلاه وأسراه .
ولكن يلاحظ على هذا التفسير ثلاثة أمور ، وهي :

أن خع سخم لم ينتسب إلى ست الذي انتسب سلفه إليه ، وإنما انتسب إلى حور وصوره على السرخ الذي احتوى اسمه كأنه يجيه ، وإن كان قد صوره بتاج الصعيد وحده .

وأن نصبا حجريا للملك خع سخم رمز إلى جنس أعدائه برأس شيخ منبطح ملتح ذى أنف أقي ينهض فوق رأسه قوس أو ريشة ، وهو تصوير قريب مما اعتاده المصريون في التعبير عن الليبيين خاصة (٩٥) .
وأن كلمة بش التي وقفت نخبة عليها بجلها ذهب الرأى في تفسيرها مذاهب ثلاثة ، هي :

(أ) أن تكون إسما ثانيا للملك خع سخم (٩٦) .

(ب) أن تكون اسما آخر لمدينة نخب (٩٧) .

(ج) أن تكون إسما لرئيس الثوار الذين أخضعهم (٩٨) ، ويمكن استبعاد هذا الرأى لما ذكرناه

من قبل من أن المصريين لم يعتادوا على أن يسجلوا أسماء أعدائهم حتى لا يتجسروا لهم فرصة

الخلود ، وإن سجلوا أسماء مدنهم وأقطارهم باعتبارها باقية شاءوا أم لم يشاءوا .

(د) أنها تعبر عن بدو ليبيا (٩٩) .

Hierakonpolis, I, pl. XXXVIII. (٩٣)

Ibid., pl. XXXIX—XLI. (٩٤)

Ibid., II, pl. LVIII, p. 47—8. (٩٥)

QUIBELL, ZÄS XXXVI, 83; SETHE, Unters. III, 34—35; GARDINER, Egypt of the Pharaohs, p. 418. (٩٦)

W. HÖLSCHER, Libyer und Ägypter, 1937, 21. (٩٧)

LORET, dans Rev. égyptologique, XI, 89-90. (٩٨)

BORCHARDT, a.s. O.S. 11; SCHARFF, in ZÄS LXI, 25; Libyerfrage, 26. (٩٩)

وأخذ بهذا التفسير الأخير كل من ألكستندر شارف ويواقيم شبيجل ، ورتب عليه شبيجل حلولا متفرقة لتفسير أصول المشكلة من بدايتها (١٠٠) ، ويمكن ترتيب الصور المقبولة من هذه الحلول بأنه حدث في عهد الملك ني نثر السابق لعهد برايسن والذي حكم ما بين عشرين وثلاثين عاما واهتم اهتماما بالغا بأعياد الوجه البحري (لاسيما إنب حج وأر بابها) وكان مضلحا ، أن هاجم اللييون أرض الدلتا واحتلوها عنوة ، وانفصلوا بها عن الصعيد (١٠١) . نالما أعقبه برايسن لم يل غير الصعيد وحده ، ولكنه اعترم الكفاح وتسمى باسم سخم إب أى الجسور (أو قوى القلب) وتقب بلقب برن ماعت بمعنى الذى خرج للحق (أو على حد تعبير شبيجل انبعثت العدالة أو انبعث الظام وهو تعبير مقبول) واستمسك برب الصعيد ست باعتباريه من أرباب الحرب (وربما استنصر معه من أرباب مصر الكبار رع وحمور اللذين انتسب إليهما في صور السرخ الأخرى) واحتفظ لنفسه بلقب نيسو بيتى ولقب نيتى ، أى ظل يحتفظ بانتسابه إلى شعار الدلتا وربها إلى جانب شعار الصعيد وربته (١٠٢) ، ولكنه لم يته إلى شيء ، خلفه خع سخم واتخذ ثوب حور واستنصره ، ولكنه لم يجد بأسا في أن يعترف بالأمر الواقع ، فظهر في تماثيله بتاج الصعيد وحده ، وصور المعبود حورا نفسه بتاج الصعيد تارة وبلقب حور السماء تارة أخرى (١٠٣) ، وهاجم الدلتا وقاتل اللييين المسيطرين عليها قتالا عنيفا حتى انتصر عليهم في نهاية عهده ، وعندما أراد رجاله أن يعبروا عن انتصاره عليهم أشاروا إلى الدلتا باعتبارها الأرض التى كان اللييون يحتلوها وليس باعتبارها وطنهم الأصيل .

وأكد الفرعون خع سخموى آخر فراعنة الأسرة الثانية وحدة البلاد في عهده ، بأكثر من وسيلة ، فصور له رجاله المعبودين حورا وستا فوق السرخ الذى تضمن اسمه دلالة على تألفهما وتأكيدها لانتسابه إليهما ، وتصرف الفنانون في تصويرها عنده بأوضاع مختلفة ، فصوروهما متعاقبين وجعلوا حورا يتقدم ستا زيادة في إجلاله ، وصوروهما متعاقبين أيضا وتوجوا ستا بتاج الدلتا (وهو تاج حور القديم) دلالة على ارتفاع الكلفة بين الريين وبلديهما أو دلالة على استعادته ملك الوجه البحري من مقتصبيه ، وصور وهما متقابلين متقاربين يكاد كل منهما يقبل الآخر دلالة على المحبة بينهما ، وصوروهما على هيئة صقرين إشارة إلى أن صورة كل منهما يمكن أن تدل على صورة الآخر ، أو إشارة إلى اجتماع شمل

SPiegel, op. cit. § 216. (١٠٠)

(١٠١) وهنا اضاف سيجفريد شوت أن عدالة ني نثر وطول حكمه ثم سوء حظه ، كل هذا جعل المصريين يشبهونه

بمعبودهم أوزير خلال عصر الأسرة الثالثة 98-99, 101 S. Schott. Mythe.

ولو أنه ليس من ضرورة إلى الأخذ بهذا التخمين - راجع ص (٣٠١)

وفسر هلك وديوتون وفاندييه الأمر على وجه آخر ، فراوا أن اهتمام ني نثر بأرباب الوجه البحري

وتقاليد هو الذى أثار الصعيد ضده وجعله يسلم زمامه إلى برايسن نصير ست

HELCK, Horusgeleit, 122; ديوتون وفاندييه : الرجوع السابق ص ١٥٩ - ١٦٠

(١٠٢) R.T. I, IV, 7; XXII, 190, XXIX, 97; وذكرت كلمة ستى على أحد أختامه وقد تعبر عن الحدود

الاسبوية أو الحدود النوبية ووصفه ختم آخر بانه قاهر البلاد الجبلية 181, Ann. S XLIV, 295. R.T. XXII,

Hierakonpolis, I, p. 48, pl. LVIII. (١٠٣)

سجور الصعيد و حور الدلتا مرة أخرى، وصوروا حورا بجسم إنسان ورأس صقر يضع ريشة العدل فوق رأسه، وربما كان أمامه ست بنفس الوضع أيضا (١٠٤) .

وسجل خع سخموى وحدة الرين والوجهين عن طريق إسمين من أسمائه ، وهما : خع سخموى الذى يمكن ترجمته بمعنى شع القويان أو تجلى القويان ، والقويان هما الصعيد والدلتا أو معبودا هما ، والاسم الآخر اسم مركب وهو « نبوى حوتب مف » ويمكن ترجمته اطمأن السيدان به ، والسيدان هما حور وست ربا الصعيد والدلتا (١٠٥) .

وعلى الرغم من منطقية القرائن السابقة عن أحداث النصف الثانى من عصر الأسرة الثانية ، لا ننكر أن حقيقة الأوضاع فيه لا زالت مشوبة بشيء من الغموض ، ولا زالت تتضمن قرائن أثرية جديدة تجلو غموضها ، وأهم أسباب غموضها أربع مشكلات وهى :

لم تجاهلت قوائم الملوك أسماء برايسن وخع سخم وخع سخموى أيضا ، مع أن آثار تالهم خاصة انتشرت فى نحن وأبيدوس بل وبلغت ميناء جليل فى لبنان ، وحرص أحد خلفائه على أن يصنع له تمثالا نحاسيا لإحياء لذكراه سماه باسم « عال خع سخموى » ؟ (١٠٦) .

فهل أغفلتهم القوائم عن قصد ؟ أم بحض الصدفة ؟ أم ذكرتهم بأسماء أخرى تختلف عن الأسماء التى عرفناها لهم حتى الآن ، لا سيما وأنها ذكرت لعصر بداية الأسرات أربعة أسماء لا ندرى شيئا عن أصحابها ؟

ولم اقتصر آثار خع سخم المعروفة حتى الآن على نحن ، واقتصرت آثار برايسن المعاصرة له على أبيدوس ؟ (١٠٧) هل يرجع ذلك إلى محض الصدفة ؟ .

وما هو دور الملكين ونج وسنج (أو سندی) فى سياسة الأسرة ؟ ، وهما ملكان تدل آثارهما القليلة على أنهما عاشا فى النصف الثانى من الأسرة ؟

(١٠٤) R, T, II, XXIII, XXIV 191-205 . ويلاحظ أن تصوير ست بتاج الوجه البحرى فى عهد خع سخموى الذى تقرب الى الصعيد والدلتا مما يزيد الشك فى الراى القائل بالعداء الدينى بين أهل الدلتا والصعيد قبل عهده . (Ibi , loc. , 18) .

(١٠٥) But see R. WEILL, Recherches I, 318—319 : “ Lever des Deux Sceptres”, et “ D’ont l’essence est constituée par les Deux Horus réunis” .

(١٠٦) Hierakonpolis, I, pls. II, XXXVI—XL, Palermo, rt. V, 4; ZÄS LIII, 50 f.; J.E.A., XX, 183—4; POETER & MOSS, Topog. Bibl. VII, 390; DUNAND, in Syria, 1928, p. 18, Fig. 1.

(١٠٧) نسب نافيلى الى برايسن اختاما ذكر أنها وجدت فى الجيزة ، ولكنه لم يذكر مرجعا لها (Rec. Tr. XXI, 121, n. 8).

وقد لوحظت على بعض آثار برايسن صورة المعبود آش اللبى باعتبارها مرادفة لرمز ست الصعدي ،
 فإذا: كان العداء قد نشب بين برايسن وخع سخم وبين اللبيين حقا دون أهل الوجه البحرى كما رجحنا ،
 فلم اعترف برايسن بهذا الإله اللبى ؟ هل لأنه اعتبر اللبيين خوارج حتى على ربهم الذى احترمه ولم يجد
 بأسا من تصويره على آثاره؟ أم أنه كانت لآش هذا صورتان صورة مصرية وصورة ليبية شأنه فى ذلك
 شأن جور اللبى وجور المصرى ، ونيت اللبية ونيت المصرية . . . الخ ؟ (١٠٨)

ونتهى من هذه المشكلات كلها إلى أن الفراعنة الأوائل الذين نسبتهم نصوصهم إلى الأرباب
 وصورت لهم قداسة واسعة ، لم تحل أيامهم مما يحدث عادة فى مختلف الشعوب ومختلف العصور من تنازع
 أسرى وشقاق داخلى ، لولا أن أيام ذلك التنازع وهذا الشقاق كانت لحسن الحظ قصيرة وقليلة ، بل
 بالغة القصر والقلّة إذا قورنت بأمثالها فى حياة الشعوب القديمة الأخرى . وظلت أيام الاستقرار والسلام
 والوحدة هى الغالبة ، وبلغت البلاد فى ظلها بحكامها ومحكومها ما بلغته من الرقى النسبى فى الفكر والمادة ،
 والاتساع النسبى فى النشاط الداخلى والخارجى معا .

*
*
*

تركزت وجوه النشاط السيامى والدينى فى عصر بداية الأسرات ، فى ثلاث مدن كبيرة ، وهى نخن
 وثنى وإنب حج ، فضلا عن المدن القديمة أونز ، وبه ، وربما ونة أيضا .

نخن :

كانت نخن أقدم العواصم الثلاثة فيما مر بنا (ص ٢١٠) واستمرت لها أهميتها خلال عصر بداية
 الأسرات ، وحرص ملوك العصر على رعاية معبدها القديم ، ووجدت بعض آثارهم داخل أطلاله ،
 وأهمها تمثالان للملك خع سخم وأوان ضخمة منقوشة وآثار أخرى صغيرة من عهده (١٠٩) ، ثم جدد الملك خع
 سخموى آخر ملوك العصر بعض أجزاء المعبد ، وشاد رجاله جزءا من واجهته بالجرانيت لأول مرة فى تاريخ
 العمارة المصرية (١١٠) . وحافظت المدينة على حصانتها القديمة ، وتجدد سورها الخارجى فى أواخر عصر
 بداية الأسرات ، وكان سورا ضخما بالنسبة إلى إمكانيات عصره ، فتراوحت أبعاده بين ٢٦٠ و ٣٠٠ متر
 طولاً ، وبين ١٩٠ و ٢٢٠ متراً عرضاً ، وبلغ سمك جدرانها فى بعض مواضعه ستة أمتار ، ولكنه شيد
 من اللبن واستعان أصحابه على تحقيق سمكه الكبير بأن ملأوا ما بين واجهتيه بالرديم والدبش (١١١) .

R. T. II, XXII, 179, J.E.A., XIV 220 f.; and see BORCHARDT, *Sahurê*, 74; L.D. II, 27, 29, 48, 89; (١٠٨)

Kees, *Götter*, 44, 208 — 209.

Hierakonpolis, I, pl. XXXVI-XLI; and see Ann. S. 1948, 543 f. (١٠٩)

Hierakonpolis, I pl. H. (١١٠)

Ibid., p. 15 f. (١١١)

ولم يكتف حكام نحن بحماية مدينتهم عن طريق تسويرها ، وإنما حموا ذمارها القريب بمحصن آخر شادوه عند حافة الصحراء الغربية وقمحو أبوابه على الأراضي الزراعية المحيطة بهم وجعلوا له سورين متتابعين من اللبن ، الداخلى منهما أكثر ارتفاعا وضخامة من الخارجى ، فبلغ ارتفاعه نحو عشرة أمتار وتعاقت على واجهته مشكاوات طويلة وبلغ سمكه نحو ٤,٨٧ من الأمتار وفصل بينه وبين السور الخارجى ممر ضيق بلغ عرضه ٢,٢٣٤ من الأمتار. ويحتمل أنه لم يكن له مدخل خاص وإنما يعتليه الجتود بسلام متحركة (١١٢).

وسوروا مدينة نخب (أو النخاب) الدينية المقابلة لمدينتهم بسورين متتابعين من اللبن أيضا ، بلغ عرض الممر الفاصل بينهما ٤,٨٨ من الأمتار (١١٣)

قامت مدينة نحن ومدينة نخب في منطقة فقيرة قليلة الخصب ، ولم تتمتع إحداها بموقع متوسط يسمح لها بأن تكون عاصمة مناسبة ، ولهذا نليس من تفسير للاهتمام بهما وتحصينهما قبيل عصر بداية الأسرات وخلالها ، إلا بأمرين ، وهما أن مدينة نحن كانت مسقط رأس ملوك الصعيد فيما قبل الأسرات فغصبوا لها واهتموا بها على الرغم من موقعها غير الملائم ، وأن نخب كانت تقع عند نهاية واد يؤدي إلى بعض مناجم الذهب والفضة في الصحراء الشرقية ، وهو وادى الكاب (١١٤) .

وفقدت نحن أهميتها السياسية شيئا فشيئا ، منذ ما قبل الأسرة الأولى ذاتها ، ومنذ أن بسط حكامها نفوذهم على الصعيد كله ، وذلك حين تدينوا أن موقعها كعاصمة في أقصى الجنوب لا يسمح لهم بالإشراف على ملكهم الواسع ، فانتقلوا منها إلى مدينة ثنى ، ولكنهم ظلوا يحتفظون لها بسمعتها الدينية وسمعتها التذكارية ، واستمرت لها سمعتها فيما تلا عصرهم من عصور ، واستمروا يشهدون بالقداسة لأرواح أجدادهم فيها وأيامهم فيها (١١٥) وحرصوا على أن يولوا عليها حكاما متميزين لقبوا كلا منهم بلقب « ساونحن » و « منيونحن » بمعنى « راعى نحن » (١١٦) وربما بمعنى « راعى (أرواح نحن) » (١١٧) أيضا. وعند ما نزل الإغريق مصر أطلقوا على المدينة اسم هيراكونبوليس Ἱερακωνπολις بمعنى مدينة الصقر .

(١١٢) Ibid, 19-20. ومن نماذج الحصون ذات السلام المتحركة

See, R.T. II, V, 10; SCHARFF., Altertümer, II, XXXIII, 278.

(١١٣) SOMERS CLARKE, "El Káb and the great wall", in J.E.A. VII, 54 f.

(١١٤) KEES, Das alte Agypten, 68 واحتفظ بعض حكامها في الدولة الوسطى بلقب « حامى الفضة والذهب » L.D. III, 13b.

(١١٥) See ENGELBACH, in Ann. Serv. XLII, 71 f.

(١١٦) GARSTANG, MAHASNA, pl., 26, 7; Weill, II^e et III^e dyn., 180 f.; ZÄS, XLII, 121 f., XLV, 123 f.

(١١٧) واجع ص ٢٨٧ وحاشية ١٤٧ — ويحتمل أن اللقب أصبح معنى في الدولة الوسطى على أقل تقدير معنى « أمين تاج الصعيد » على أساس نسبة التاج الأبيض الى مدينة نحن منذ عهد زعامتها القديمة

ثنى * (١١) ≡ (في القبطية TINI - وفي اليونانية ΘΙΣ) :

قامت ثنى في وسط إقليم قديم أطلق المصريون عليه اسم « تاور » بمعنى البلد الكبير ، أو الأرض القديمة ، أو الوطن العظيم ، وهو إقليم كان من المراكز الكبيرة للحضارة النقادية القديمة .

وامتازت مدينة ثنى بموقع يتوسط أراضي الصعيد، ويمكن أن يسمح لحكامه بسهولة الإشراف عليها كلها ، وكان هذا التوسط فيما يبدو أحد الأسباب الرئيسية التي دعت حكام الصعيد إلى الانتقال إليها من ثنى ، قبيل قيامهم بتوحيد البلاد مباشرة (١١٨) ، وظلت ذكرى ثنى عالقة في أذهان المصريين حتى أواخر عصورهم القديمة ، ولما ابتغى المؤرخ المصرى مانيتون أن يكتب تاريخ مصر حتى القرن الثالث ق . م الذى عاش فيه ، وجد لديه من الروايات أو الوثائق ما سمح له بأن ينسب ملوك الأسرتين الأوليين إليها ، فسماهم باسم الملوك الثنيين .

وزالت آثار ثنى تماما ، ويرجح A.H. Gardiner أنها كانت تقع في مكان قرية نجع المشايخ الحالية ، جنوب شرق مدينة جرجا (١١٩) .

واحتفظت أبيدوس (١٢) ≡ [١٢] أبو ، أبجوهى في القبطية εβωτ وفي الأوغريقية (Αβυδος) جبانة ثنى ببقاياها وشهرتها أكثر مما احتفظت بهما مدينة ثنى نفسها ، واكتسبت شهرتها منذ شاد ملوك الأسرة الأولى وبعض ملوك الأسرة الثانية ، مقابرهم أو أضرحتهم فيها (١٢٠) ، واكتسبت نصيبا من القداسة لوجود معبد حتى إمتنثو إمام الغربيين (١٢١) على حافة الأرض الزراعية المؤدية إليها وعلى حافة الطريق المؤدية إلى مقابر الملوك فيها ، وزادت قداستها بعد عصر بداية الأسرات منذ أن اعتبرها أهل الدين مقرا لضريح معبودهم أوزير ، ومنذ أن نسبوا إليه قبر الملك چرثانى ملوك الأسرة الأولى أو ثالثم ، ثم تضخمت قداستها بمرور الأجيال حتى اعتبرها أهل الدولة القديمة ، دارا للحج والزيارة (١٢٢) .

(١١٨) فسر زيته اهتمام ملوك عصر بداية الأسرات بها بإيمانهم بوجود قبر أوزير فيها 101 Urg.,

سولكن يبدو أن هذا الايمان كان متأخرا عن عصر بداية الأسرات كما لاحظ هرمان كينس

(١١٩) ZÄS, LXXIII, 77; LXXV, 85; J.E.A. XXVII, 48, n. 4.

(١٢٠) كشف في منطقة منها تسمى أم القعاب عن مقابر أو أضرحة ملوك الأسرة الأولى كلهم ، وعن مقبرتين فقط للأسرة الثانية للملكين بر ايسن ، وخع سخموى

(١٢١) أو خنتى امنتى بمعنى امام الغرب (والغرب هو عالم الموتى) - وكان يرمز اليه بحيوان قابع من الفصيلة

الكلبية أو اللبئية ، وتلون صورته أحيانا باللون الأسود . واستضافت ابيدوس الى جانب خنتى امنتى

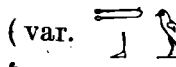
وأوزير عددا من الارباب منهم انبو و حورمين رب اخميم . (Kees, Götter, 329 f.)

(١٢٢) (C. De Buck, Coffin Texts, I, 225; Brit. M. Stela, 581; Pry. 754 v, 759; 1716—1717 also 798; Kees Totenglauben, 340—41.)

من التفسيرات الطريفة لأسباب نسبة قبر چر الى أوزيران أهل الدولة الحديثة قرأوا اسم چر « خنتى » ثم

خلطوا بين هذا الاسم وبين اسم المعبود « خنتى امنتى » ، ولما شبهوا أوزير بخنتى اعتبروه قبرا له . وأضافت

نصوصهم أن روح أوزير تعيش في جميلة تغتاء بجلهين بكنز على شاطئ النيل قرب أبيدوس . (Kees Totenglauben, 340—41.)

قامت في أبيدوس ، عدة مباني كبيرة ، بقي منها مبنيان مسوران بأسوار من اللبن ، شيدا خلال عصر الأسرة الثانية على مقربة من الأرض الزراعية خلف معبد خنتي إمتيوي رب أبيدوس القديم .
 وسمى أحدهما في العصور المتأخرة باسم (var. ) شونة (أو مستودع) قدورطيور أبي منجل ، ثم حرف الأهالي المحدثون هذا الاسم القديم إلى شونة الزيب . وأطلقوا على المبنى الآخر الذي لانعرف اسمه القديم ، اسم القلعة الوسطى (١٢٣) .

وذهبت الآراء في تعليل الغرض الأصيل من المبنيين مذاهب شتى ، وملخص هذه الآراء ثلاثة ، وهي : أنهما كانا حصنين للملك برإسن ثالث ملوك الأسرة الثانية ، وأنه شاد أولهما عن قصد قرب عاصمته خلال فترة الاضطرابات التي سادت عهده ، أو كانا معبدين للملكين برإسن وخع سخم تقدم كل منهما الطريق إلى مقبرة صاحبه . أو كانا قصرين مؤقتين خصص كل منهما لصاحبه لينزل به حين يتردد على منطقة أبيدوس ليزور أربابها أو ليشرف على سير العمل في مقبرته (١٢٤) .

ويبدو أن اعتبارهما حصنين أو قصرين مؤقتين أقرب إلى الصواب من اعتبارهما معبدين ، لاسيما بالنسبة إلى شونة الزيب المنسوبة إلى خع سخموى حيث سورت بسورين ، وبلغ ارتفاع جدرانها نحو ١٢ مترا ، وتضمن سورها الداخلي دخلات طويلة عميقة تمتد رأسيا بارتفاع جدرانها ، وبلغت أبعاده نحو ١٠٨ × ٢٢,٥ من الأمتار .

إنب حج :  -  -  :

كانت إنب حج ثالثة المدن الكبرى في عصر بداية الأسرات من حيث الزمن ، ولكنها ظلت أوفرها مجدا وأبقاها شهرة (١٢٥) . وتعددت الاحتمالات حول ترجمة اسمها ، فهو قد يعني الجدار الأبيض ، أو الحصن الأبيض ، أو السور الأبيض ، أو الأسوار البيضاء ، ويمكن التعبير عنها كمدينة بألفاظ شعرية قال المصريون يمثلها في عصورهم المتأخرة نوعا ، مثل الحوراء (١٢٦) ، والحصن الأبلق ، .. ، وترجم الإغريق هذا الاسم الأخير إلى λευκὸν τεῖχος وإن كان من المحتمل أنهم أرادوا به جزءا منها (١٢٧) .

(١٢٣) AYBTON-CURRELLY, WEIGALL, Abydos III, 1 f., pl. VII—VIII; BOCHARDT, Altäg. Festungen an der zweiten Nilschnelle, 1923, 39.

(١٢٤) Abydos, op. cit., 3-4.

(١٢٥) SETHE, Unters. III, 121 f.; Urg., 10 f., 42 f.; H. KERN, Art Memphis, bei Pauly—Wisowa; Das alte Ägypten, 80 f.; GARDINER, Onomastics, II, 122; f.; POSTER—MOSS, Topographical Bibl. III.

(١٢٦) Pap. Sall. IV, vs, I, 1 f.

(١٢٧) HEROD. III, 91; DIOD. XI, 74 f.; SETHE, Unters., III, 125, but see KERN, Priestertum, 107.

نشأت إنب حج قرب منطقة ذات تاريخ حضارى قديم، قامت فيها حضارات حلوان وطرة والمعادى إلى جنوب القاهرة الحالية بنحو عشرين كيلو مترا، وحيث خلفتها في المكان والاسم مدينة منف، وكانت تقع غربى النيل بحيث تصليا مياه فيضانه (١٢٨) ، وربما قامت لها ميناء نهرية قرب محطة البدرشين الحالية (١٢٩) ، وإن بعدت عنه أطلالها المتآخرة في قرية ميت رهينة الحالية بنحو ثلاثة كيلو مترات .

تحول نصيب كبير من النشاط الإدارى إلى مدينة إنب حج منذ أوائل عصر بداية الأسرات، ونمت عن هذا التحول ثلاث قرائن ، وهى : احتفال ملوك العصر ببعض أعيادهم الرسمية وأعياد أربابهم فيها ، وهى أعياد ذكرتها حوليات پارمودة عدة مرات ، وتأکید نصوص المذهب المنفى التى ألفت خلال عصر بداية الأسرات نفسه أو بعده بقليل أنها كانت مركزا رئيسيا للفصل فى منازعات العرش والفصل فى قضايا الأرباب أنفسهم منذ الأزل القديم ، ثم وجود عدد كبير من المصاطب الضخمة لكار موظفى عصر بداية الأسرات فى جباتها سقارة أنشأوها بطبيعة الحال قرب مقر أعمالهم، وامتازت من هذه المصاطب خمس مصاطب ذهب الظن إلى احتمال نسبتها إلى ثلاثة ملوك من ملوك الأسرة الأولى وملكين من الأسرة الثانية (١٣٠) .

وليس من شك فى أن العامل الرئيسى فى اختيار مدينة إنب حج مركزا للنشاط الإدارى فى عصر بداية الأسرات هو وجودها لدى النهاية الشمالية للصعيد والنهاية الجنوبية للدلتا ، وسهولة الإشراف منها على شئون الوجه البحرى خاصة .

وحاول كورت زيته أن يفسر ما ذكرته نصوص الدين عن المدينة، وما رواه هيرودوت وديودور بشأنها وسمعاها عن المصريين الذين عاصروها (١٣١) ، بأن أحد فروع النيل كان يطغى على منطقتها فيجعلها كالمستنقع الكبير ويجعل أرضها أشبه بالجزيرة الطافية أو الأرض الناهضة "ثانن" على حد تعبير نصوص الدين ، فعمد أول ملوك العصر ، أو عمده مهندسوه ورجاله بمعنى أصح، إلى تحويل فرع النيل عنها ناحية الغرب ، ثم شقوا قناة أخرى عن قرب منها ناحية الشمال ، وبذلك جف ما حولها ، وانصرفت المياه عنها ، وتوفرت لها حماية طبيعية كاملة ، فأصبح النيل يحميها من الشرق وفرعه يحميها من الغرب والقناة الجديدة تحميها من الشمال .

Urk. III, 33, f. (١٢٨)

KEES, Das alte Ägypten, 94. (١٢٩)

(١٣٠) فضلا عن مقبرتين كتب فى إختامهما ومختوماتهما اسمان للمكتن ، ولا تقل المقابر الكبيرة المنسوبة إلى الإسم

الأولى فى سقارة عن ١٤ مقبرة ، وردت فيها أسماء ملوك الأسرة فيما خلا نعرمر وسمرخت .

(See, W. EMEBY, op. cit.)

HEROD, II, 4, 99; DIOD, I, 50; SETHE, op. cit. (١٣١)

ودل اسم المدينة على أن منشئها لم يكتف لها بالحماية الطبيعية وحدها، وإنما أقام فيها حصنا كبيرا، أو سورها بسور أو أسوار أحاطتها من كل جانب فيما خلا ناحية الجنوب التي واجهت الصعيد ، فقد ظلت مفتوحة على ما يعتقد زيته (١٣٣) . ولم يتبق لسور إنب حج أو أسوارها بقايا أو صور ، ولهذا ذهب الرأي إلى افتراض هيئة له من هيتين ، فافترض لوير أنه كان نموذجا قديما للسور الكبير الباقي الذي شاده زوسر أول ملوك الأسرة الثالثة حول مجموعته المعمارية في جبانة سقارة ، وهو سور مستطيل تضمن ثلاثة عشر بابا ، ولكن لم يفتح فيه غير باب واحد وبقيت بقية أبوابه رمزية مقفلة وبلغ ارتفاع جدرانها نحو عشرة أمتار وتقاسمت واجهته دخلات كبيرة امتدت رأسيا بارتفاع جدرانها (١٣٢) . بينما افترض هرمان كيس أنه كان سورا مزدوجا على مثال سور شونة الزيب المزدوج في ثني وسور مدينة نجب المزدوج في أقصى الصعيد ، أي يتكون من سورين ، يفصل بينهما ممر ، ويكون الداخل منهما أكثر متانة و ضخامة من الخارجى (١٣٣) .

ويمكن تعليل تحصين إنب حج بأحد غرضين ، فهو قد يكون مجرد إجراء عادى لتحديد حدودها وتمييزها عن المجتمع الريفى المحيط بها ، شأنها في ذلك شأن غيرها من المدن الرئيسية في عصرها . أو يكون تحصينا مقصودا لذاته ، جعله أوائل ملوك الأسرة الأولى مقرا للحماية عسكرية ، وجعلوه ضمانا للمدينة من الانتقاضات المحتملة ضد الوحدة السياسية الجديدة .

ويمكن تعليل صفة البياض التي وصف المصريون بها سور المدينة أو حصنها ، بأنه كان مشيدا من قوالب اللبن شأنه شأن غيره من أسوار المدن التي كشف عن بقاياها ، والمدن التي صورتها صلايات أوائل عصر بداية الأهرات ، ثم كساه أصحابه بملاط أبيض ، إما تقليدا للون تاج الصعيد الأبيض وتمجيذا لأصحابه الذين أتوا وحدة البلاد (١٣٤) ، أو تناديا للون اللبن القاتم ورغبة في إظهار المدينة بلون واضح مشرق . وقد بقى ظل لطلاء أبيض بالفعل فوق جدران كل من سور نخن وأسوار شونة الزيب والقلعة الوسطى (١٣٥) .

وثمة احتمال آخر لتفسير بياض السور ، وهو أن المصريين شادوه أولا من الرديم والديش كما فعلوا في تسوير قاعدة المعبد الداخلى لمدينة نخن ، ثم كسوه بالجر الجيري الأبيض (١٣٦) ، وهو احتمال لا بأس به ولكنه لا يزال بحاجة إلى قرائن أخرى تزكيه .

(١٣٢) P. LAUBE, Etudes complémentaire sur les monuments du roi Zoser à Saqqarah, 1948, 17.

(١٣٣) Kess, op. cit., 80.

(١٣٤) Ibid., FRANKFORT, Birth of Civilization, 81.

(١٣٥) Hierakropolis, I, 20; Ayrton, Abydos III, p. 2.

(١٣٦) M. HAMMAD, "Die Weiße Mauer", Ann. S. 1955, 203 f.

نسب المصريون مدينتهم الجديدة إلى معبودها بتاح ، وكان من أوائل المعبودات التي ظهرت في هيئة بشرية منذ ما قبل عصر بداية الأسرات وظل محتفظا بها حتى نهاية التاريخ المصري القديم ، وشادوا معبده في الناحية الجنوبية المفتوحة من السور ، واعتادوا على أن يلقبوه منذ ذلك الحين بلقب « الكائن جنوبي جداره (أو جنوبي سوره) » 𓆎𓆏𓆑𓆒 (١٣٧) ، ويحتمل أنهم شادوا إلى الجنوب من الباب القبلي لمعبده بناية صغيرة خصصوها للمعبود حب أو حاب المرموز إليه بالفعل ، وربما للفعل نفسه كما يظن كيس (١٣٨) . وشارك بتاح شهرته في منطقة إنب حج معبود آخر ، وهو «سكر» الذي كان من رعاة عمليات الحرث والزراعة ، وسكن تحت الأرض فأصبح راعيا لمن يسكنون تحتها في منطقته وهم الموتى ، وكان له مزاره في جبانة سقارة التي سميت باسمه ، وربما كان له معبد داخل إنب حج نفسها . وأضافت نصوص الدولة القديمة ذكر معابد أخرى ، داخل المدينة وخارجها ، ويغلب على الظن أنها كانت موجودة فعلا منذ عصر بداية الأسرات . وأهمها معبد نيت التي لقت بأنها « (الكائنة) شمالي السور » (١٣٩) ، ومعبد حتحور التي لقت بسيدة الجميزة القبليّة وكان لها معبد جنوبي المدينة وربما معبد آخر داخل المدينة شرق معبد بتاح على كوم الكالا الحالية (١٤٠) ، ومعبد سخمة (المقتدرة) التي وصفت بأنها الكائنة في الوادي الصحراوي ، (١٤١) أي الكائنة على الحافة الصحراوية الفاصلة بين إنب حج وبين جبانته سقارة ، وشبهت بربة عبت في تل بسطة الحالية ، وسميت « الباسية التي تستقر في عنخ تاوي » أي التي يقوم معبدها في الجانب الغربي من المدينة .

حاول W. Emery أن ينسب نحس مقابر من مقابر سقارة ، إلى خمسة ملوك من ملوك بداية الأسرات ، كما أسلفنا . على الرغم من أن منهم من شادوا لأنفسهم مقابر أخرى في جبانة أبيدوس بالصعيد ، واستغل إيبرى رأيا قديما افترض أصحابه أنه كان لكل ملك مصري قبران ، قبر باعتباراه ملكا للوجه البحري وقبر باعتباراه ملكا للوجه القبلي ، وأن كل قبر من القبرين كان يأخذ بأسلوب العارة وتقاليد الدين الشائعة في أحد الوجهين ، ولما لم يكن من المعقول دفن الملك في قبرين ، كان لابد أن يكون أحد القبرين قبرا فعليا والآخر ضريحا رمزيا . وذهب عدد من الباحثين ، ومنهم إيبرى وركه وقاندييه في شيء من التردد ، إلى أن مقابر سقارة كانت هي المقابر الفعلية ، لاتصالها بمدينة إنب حج ،

Unters., III, 130—131. ووجدت بقايا معبده الذي شيد في عصر الرعامسة في جنوب شرق ميت وهيئة

الحالية

Knes, Das alte Ägypten, 88. (١٣٨)

L.D. II, 46; Mal. Mast. D 47, D 55; STEINDORFF, Ti. pls. 45, 46 (١٣٩)

Ürk. I, 247, 16; Knes, op. cit. (١٤٠)

Ürk. I, op. cit. (١٤١)

عاصمة الحكم الرئيسية في اعتقادهم ، وأن مقابر أبيدوس كانت مقابر رمزية ، تشبه المزارات والأضرحة ، أقامها ملوك عصر بداية الأمرات قرب مدينة ثني عاصمة الحكم القديمة ، وفاء لها وتأكيذا لاعتزازهم بالنسبة إليها (١٤٢) .

والواقع أنه يصعب نفى الرأي السابق كل النفي ، لاسيما وأن أصحابه زكوه بضخامة مقابر سقارة ونفامتها عن مقابر أبيدوس ، وبكثرة الأتباع المدفونين حولها عن مقابر أبيدوس ، وليس من المستبعد أن تؤدي الكشوف المستقبلية إلى تأكيد اتخاذ إنب حج عاصمة فعلا وتأكيده دفن الملوك في جباتها ، ولكن يمكن الاعتراض على الرأي السابق في ضوء الكشوف الحالية بعدة اعتراضات منها :

أن مقابر سقارة أخذت بطراز معماري متشابه في مجموعها ، فيما خلا تعديلات فردية قليلة ، ولو صح أن بعضها كانت مقابر ملكية ، كما يظن أصحاب الرأي السابق ، لتميزت هذه المقابر الملكية عما سواها في اتساعها وفي أسلوب بنائها ، على نحو ما تميزت مقابر الملوك في كل عصر عن بقية مقابر كبار الأفراد الموجودة معها في جباتها .

وأن المقابر الأبيدية تضمنت عنصر معماري احتفظت به مقابر العصور التالية لعصر بداية الأمرات في الوجهين القبلي والبحري ، ولم تتضمنه مقابر الأسرة الأولى في سقارة ، وكان عبارة عن نصب حجرية نقش عليها أسماء أصحابها ، وامتازت الملكية منها بضخامتها وصلابة أحجارها وبلغ بعضها ذروة عالية في براعة النقش ومهارة الصناعة (١٤٣) .

وأنه عثر داخل المقبرة المنسوبة إلى الملك چر ثاني ملوك الأسرة الأولى أو ثالثهم ، في أبيدوس ، على ذراع آدمية كفتت بالكثبان وتحلت بأربع أساور رائعة ، ورجح F. Petrie أنها كانت ذراع زوجة چر وأنها هي كل ما تبقى من جسدها الذي تحطم أو سرقه للصوص ، لاسيما وأن بعض أختام المقبرة حملت اسمها وألقابها (١٤٤) . وإذا صح هذا الترجيح ، وكانت الذراع لزوجة چر حقا ، كان معناه أن المقبرة الأبيدية خصصت للدفن فعلا ، ولم تكن مجرد ضريح رمزي ، وربما دفن چر نفسه فيها حيث لم يكن من المقبول أن تدفن زوجته في أقاصي الصعيد ، ويدفن هو قرب الدلتا .

EMERY, Hor-Aha, 1; Great Tombs II., 1954; VADIER, Manuel, II, 142 f. (١٤٢)

راجع ديروتون - فاندنيه : مصر ص ١٥٢

R. T, I, frontispiece, II, XXXI; Abydos I, pl. V, XIII. (١٤٣)

وراجع محمد أنور شكرى : نصب أبيدوس بالقاهرة ١٩٥١

R. T. II, Frontispiece, p. 16-17; pl. (١٤٤)




ووجدت معها صغيرة شعر طويلة ، وعصابة للجهة بخصل مستعارة IV. 7. ووجدت الذراع في كوة بالجدار ويفترض بشري أن أحد العمال الذين تولوا تنظيف المقبرة وأعدادها

باعتبارها ضريحا لاوزير في عهد أمنحوتب الثالث خباها في الكوة ليعود إليها على غفلة من زملائه .

ويمكن أن يضاف إلى هذه القرائن الثلاث أن لا يمرى نفسه مكتشف مقابر سقارة لازل مترددا في تأكيد نسبة المقابر الخمس سالفة الذكر إلى ملوك ، بعد أن لاحظ أن اسم الملك الواحد يرد على محتويات عدة مقابر في سقارة في آن واحد (١٤٥) .

وافترض H. Kees وغيره ، أن هذه المقابر الكبيرة لم تكن غير مقابر نواب الملك في الوجه البحرى ، وأنهم كانوا من أمراء الأسرة المالكة وإن لم يحملوا لقب الإمارة صراحة ، وعارض نسبتها إلى ملوك ، وأشار إلى أن المقابر الكبيرة في ذلك العصر لم تقتصر على سقارة وحدها وإنما وجدت كذلك في الجيزة وأبى رواش وطرخان (جنوبى اللشت) ، وانحاز إلى جانب من اعتبروا مقابر أبيدوس مقابر فعلية ، اعتمادا على إصرار المصريين حتى عصورهم المتأخرة على نسبتها إلى ملوك ، واعتمادا على تميزها بنصبها الكبيرة (١٤٦) .

وما من بأس في الأخذ برأى كيس ، لولا أنه يلاحظ عليه أمران ، وهما أن نواب الملك في العصر الثنى لم يكونوا بالكثرة العددية التى وجدت عليها مقابر سقارة ، وأن لقب الإمارة كان معروفا حينذاك ولقبت به أميرات من نفس العصر دفنن في حلوان ، ولم يكن هناك ما يدعو أولئك الموظفين الكبار إلى إغفال ألقاب إمارتهم .

ذلك إذن بعض ما يمكن التفصيل فيه عن المدن الرئيسية الثلاث التى تخلقت بعض آثارها من عصر بداية الأسرات . غير أن ذلك لا يعنى أنه لم تقم بجانبها مدن كبيرة أخرى شاركتها في نشاطها الخاص والعالم . فعلى نحو ما احتفظت نحن عاصمة الصعيد القديمة بمكاتها الدينية وشهرتها التذكارية خلال عصر بداية الأسرات ، احتفظت مدينة به عاصمة الدلتا القديمة بنفس المكانة والشهرة أيضا . وتلقب حاكمها بلقب إميرى به أو رويه  بمعنى محافظ به أو الفم (المعبر) عنها ، و لقب ور به  أى عظيم به ، و لقب رويونب أو إميرى بيونب  بمعنى المتحدث باسم أرواح به كلهم ، أو المنسوب

(١٤٥) EMBRY, les grandes decouvertes archéologique, Revue du Caire 1955. وذكر اسم جر في مقبرتين وذكر

اسم دن في أربع مقابر ، ونسب إلى واطي قبر في سقارة وآخر في الجيزة .

(١٤٦) KEES, op. cit., 82 ; also OLZ 1957, 12 f. ; 1959, 566 f.

(١٤٧) الترجمة الشائعة للقب الأخير هي فم (ف) كل سكان به أو المتحدث باسمهم ، GAB DINER, e Z S XLII, 123 ;

Onomastica, II, 189 ولكن يلاحظ أن أغلب اصحاب اللقب لم يكونوا مقيمين في مدينة به فعلا بحيث يسبحون

مستولين من كل سكانها أو معينين منهم ، وإنما كان أغلبهم من كبار رجال بلاط العاصمة ، وظهر منهم وزراء

في عصور الدولة القديمة ، وذلك مما يعنى أنهم اعتبروا اللقب لقباً تشريفياً ، ولن تشرفهم رعاية أهل به الماديين

وإنما يشرفهم رعاية ذكرى أرواحها المقدسة التى يظلم أنها كانت أرواح ملوكها القدماء في فجر التاريخ . وترتب

على هذه الفكرة التشريفية أن من حملوا اللقب في الدولة الوسطى أصبحوا يعتبرون أمناء على التاج الأحمر في

القصر الملكى نفسه باعتباره أعظم ارث ورتبة ملوكهم من ملوك به الأقدمين .

See BUDGE, Guide, Sculpture, 1909, pl. VII, 7 f. ; A. R. I, 609.

إليهم ، أورايمهم^(٩٣) . وليس من المستبعد أن ضاحية دب المقابلة لمدينة به تحولت إلى مدينة كبيرة أيضا^(١٤٨) . واحتفظت مدينة أونو ، أى المطرية وعين شمس أو هليو بوليس الحالية ، بنصيب من نشاطها القديم في الدين والفلسفة وروّجت لمعبودها رب الشمس رع حتى اعترف به نبي رع ثانياً ملوك الأسرة الثانية اعترافاً رسمياً وانتسب إليه في اسمه ، وإن كنا لا نستبعد أن أبوى الملك هما اللذان سمياه بهذا الإسم منذ مولده ، ولم يكن مجرد اسم اتخذته حين ولى العرش ، وإذا صح ذلك كان معناه أن أباه سبقه إلى الاعتراف الرسمي برب الشمس ورب أونو .

وليس من المستبعد أن مدينة ونو احتفظت هي الأخرى بنصيب من نشاطها القديم في الدين والفلسفة والمناذاة بمذهب الثامون في نشأة الوجود^(١٤٩) ، وأن مدينة ساو ظلت لها أهميتها باعتبارها من عواصم الحكم القديمة فضلاً عن وجود معبد نيت فيها^(١٥٠) .

حفلت مدن عصر بداية الأسرات بعمرانها ، وتمثلت قرائن هذا العمران فيما ذكرناه عن أطلال أسوارها بوحصونها ومعايدها ، كما تاملت في رسوم وتقوش مختصرة صورها أهل العصر على آثارهم الصغيرة ، ورمزوا ببعضها إلى واجهات قصور ملوكهم وواجهات أسوارها ، وكانت قصوراً كبيرة نفحة ، شيدت من اللبن ، وإن غلب على الظن أن الحجر استخدم فيها على نطاق ضيق لأعتاب الأبواب وأكتافها . وتعاقبت في أسوارها دخلات عميقة تمتد رأسياً بارتفاع جدرانها وتعاقب على جوانب الأبواب ، وتبعد كل دخلة منها عن الدخلة التي تليها بمسافة متساوية ، وكان الهدف منها أن تقلل حدة الاستقامة في واجهات الأسوار المنسعة ، وإذا لونت جوانبها وسطوحها الداخلية وزخرفت برسوم النباتات والزهور احتفظت بألوانها أطول مدة ممكنة وخلعت على مبناها صورة بهيجة مستحبة ، ومن المحتمل أن الحراس كانوا ليسغلون فيها من الشمس ويحتمون فيها من برد الليل حين الضرورة . وتوسط واجهة كل قصر من هذه القصور مدخلان ، يرمز أحدهما إلى الصعيد ويرمز الآخر إلى الدلتا ، أو ثلاثة مداخل ، مدخل ملكي رئيسي واسع ومدخلان صغيران على جانبيه^(١٥١) . وظلت الوثائق المصرية تذكر قصور هذا العصر في مناسبات شتى ، فأشار نص في كتب الموتى إلى قصر الملك دن^(١٥٢) ، ووجد المؤرخ المصرى

(١٤٨) ظل حاكمها يلقب في الدولة القديمة باسم « مدير قصر دب الكبير » أى قصر الحكم أو دار العبادة الكبيرة فيها.
(See Belegestelen, II, 423,8).



(١٤٩) بقيت لهذه المدينة شهرتها حتى عصور الدولة الوسطى والحديثة ووضعت مع به ودب وجدو في صف واحد .
Bercheh II, 9; Antefoker, pl. XXII.

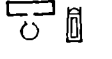
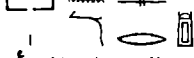

R. T. II, pl. III A, 5. (١٥٠)

ALEX. BADAWY, Le Dessin Architectural chez les Anciens Egyptiens, Le Caire 1948, 76 f.; JÉQUIER, (١٥١)
L'architecture, 1924; H. BALZ, Die Altägyptische Wandgliederung, 54 f.; W. WOLF, in ZÄS, LVII, 129 f.

(١٥٢) وراجع حاشية ١٧١ و ١٧٢

مايتون من وثائق عصره أو روايات عصره ما ذكره بقصر الملك حر (الذي ذكره باسم أثوثيس) على الرغم من الثلاثين قرنا التي فصلت بين عهده وعهده .

ورمزت رسوم عصر بداية الأسرات ونقوشه إلى معبدتين عتيقين ، معبد يسمى پرور  أي البيت الكبير أو المعبد الكبير ، وهو معبد يغلب على الظن أنه شيد أول ما شيد في مدينة نخب ، وظل رمزا اصطلاحيا لمعابد الصعيد خلال العصور التاريخية كلها ، ولهذا سمي أحيانا باسم إتره شيعت  بمعنى محراب الصعيد ، ونسب في أغلب أحواله إلى الريين الصعيديين ست رب نوبت ونخبة ربة نخب (أو النخاب) ، كما نسب إليه تاج الصعيد (١٥٣) ، واعتاد الفراعنة على أن يقيموا بأسمائهم معابد على شاكلته في ساحات احتفالاتهم بأعيادهم الثلاثينية . ودلت نصوصهم على أنهم كانوا يتمنون لأنفسهم أن يحتفلوا فيه بأعيادهم الأخروية أيضا (١٥٤) .

ومعبد آخر سمي باسمين :  وهو اسم تصعب ترجمته بشيء محدد ، وپرنسر  ، ربما بمعنى بيت الحية  أو بيت الشعلة (؟) . وهو معبد يذهب الاعتقاد إلى أنه شيد أول ما شيد في مدينة دب عاصمة الدلتا الدينية قبل عصر التوحيد الكبير ، وظل بدوره رمزا اصطلاحيا لمعابد الدلتا خلال العصور التاريخية كلها (١٥٥) ، كما ظل له مكانه في ساحات أعياد الملوك وفي تخيلاتهم عن معابد الآخرة ، وظل ينسب في أغلب أحواله إلى المعبودة واجبة ربة دب القديمة (١٥٦) .

وكان من الطبيعي أن تتضمن المدن الكبيرة إدارات الحكم وقصور كبار الموظفين ، فضلا عن بقية بيوت أهلها ، التي شيدت كلها من اللبن .

ويغلب على الظن أن مباني قصورها التي لم تبقى منها باقية ، لم تكن تقل نخامة وفضامة عن مباني قبور أصحابها التي لا تزال أطلالها باقية ، وأن جدران حجراتها الرئيسية كانت تكسى بالحصير الملون الفاخر الذي يقوم مقام الطنافس ، وأنها كانت ذات حدائق داخلية مسورة ، وتطل على شوارع متقاطعة ممهدة ، عبرت عن تناسقها رموز المدن المصورة على آثار عصرها .

*
* *

Pgr. 370, 1064; Cairo 412, 416; Palermo, vs. III, 1; Pyr. 648; MONTET, dans Kemi V (1935), p. 5; (١٥٣)

A. R. I, 609.

Pyr. 648; FIRTH—QUIBELL, The Step Pyramid, pl. XL, p. 19, 59; Chr. d'Egypte XIV, 31—32; Urk., (١٥٤)

IV, 262—NAVILLE, Deir el Rahari III, pl. 63—64.

(١٥٥) وظهر له اسم مرادف في متون الاهرام ، وهو جدبة ، أو جدبتي . (Pyr. 1064, 1362)

Urk. I, 242, 243; MONTET, op. cit. (١٥٦)

ضرب أهل الفكر في إنب حج بسهم وافر في رقى الفكر والدين ، وصوّرت هذا الرقى نقوش لوحة حجرية عرفت اصطلاحا باسم لوحة شباكا، وهي لوحة نقشت خلال عصر الأسرة الخامسة والعشرين، وجدد فيها كاتبها بإذن ملكة شباكا نصا قديما كتبه أصحابه على الجلد أو البردى وأوشكت الأرضة أن تأتي عليه، وكان نصا وصف مذهب أهل منف وهي إنب حج القديمة في نشأة الوجود ، وعرف تبعا لذلك اصطلاحا باسم المذهب المنفى .

ونسب جيمس هنرى برستد وكورت زيته وهنرى فرانكفورت تأليف هذا المذهب إلى عصر بداية الأسرات وإلى عهد الأسرة الأولى بالذات ، بينما أصر كل من هرمان كيس وألكسندر شارف وسيجفريد شوت على رد تأليفه إلى عصر الأسرة الثالثة ، أو عصر الأسرة الرابعة ، وما من بأس في أن نشرحه الآن لنعود إلى مناقشة زمن تأليفه في الفصل الثامن .

لم ينس أهل الفكر في إنب حج أخبار نشأة مدينتهم واستخلاصها من طغيان فيضان فرع النيل عليها ثم قيامها بدورها الرئيسى في إدارة شئون البلاد ورقى حضارتها . ويبدو أنهم ودّوا أن يكفلوا لها زعامة الفكر والدين والأساطير إلى جانب ما توفر لها من زعامة الإدارة والسياسة ، وابتغوا أن يقنعوا الناس بأنه كان لمعبود مدينتهم الأثر الأصيل القديم في نشأة الوجود والموجودات ، وكان معبودا أطلقوا عليه اسم پتاح بمعنى الصانع والحلاق . ولقبوه بلقب "تائنن" بمعنى رب الأرض العالية أو الناهضة . وحاولوا أن يدلوا بدلوهم في تفسير المذهب القديم الذى نادت به مدينة عين شمس المجاورة لمدينتهم، وتحدث علماءها فيه عن ماض بعيد لم تكن فيه أرض ولا سماء ولا بشر ، وما من دودة أو علقمة ، وما من حس أو حسيس ، وما من موت أو حياة ، وما من نزاع أو خصام ، وإنما خضم مائى أزلى واسع حوى بين طياته عنصر الحياة لكل شىء ، وزعموا أنه كان يسمى باسم "نون" .

ويبدو أن أهل الفكر في منف حين اشتدت رغبتهم في ذلك كله ، قد راودهم نوع من التساؤل عما إذا كان من المعقول المقبول أن يفسروا استخلاص الوجود من الخضم القديم نون ، على النحو الذى تم به استخلاص منف من الفيضان الذى كان يخفى أرضها ، وبمعنى آخر يبدو أن أهل الفكر في منف تدبروا في أنفسهم أنه إذا كان فرعونهم قد نجح في أن يستخلص مدينتهم من طغيان الفيضان وخلقها خلقا جديدا بقوة تديره ونفاذ أمره، ثم استطاع أن ينظم أمور التشريع والحكم والنظام في دولته بقوة توجيهه ونفاذ أمره أيضا ، فلم لا يكون ما حدث لمصر وعاصمتها بوحى فرعونها مرة قد حدث مثله عند نشأة الوجود أول مرة بوحى معبود مفكر قادر أمر ؟

وتدبر أهل منف عقائد أخرى تتصل بديانة عصرهم وأربابه، ثم خرجوا على الناس بمذهب جديد، جعلوا صلبه الدين وأكسبوه إهاب التاريخ ، وردوا فيه خلق الوجود وما احتواه إلى قدرة عاقلة مدبرة أمرة ، وتمثلوا هذه القدرة العاقلة في معبودهم پتاح نفسه ، وأكدوا أنه أوجد نفسه بنفسه وأنه أبدع

الكون ومعبوداته وناسه وحيوانه وديدانه عن قصد منه ورغبة ، وأن سبيله إلى الخلق كله كان هو سبيل القلب واللسان، أو الفكر والكلمة، فكرة تدبرها قلبه أو عقله وأصدرها لسانه فكان من أمر الخلق ما كان، وأكدوا أنه عن هذا السبيل سبيل العقل واللسان تيسر سعى الأرجل وحركات الأذرع وخلجات الأعضاء، وودرت الشرائع وتبأت الموارد وتعينت العبادات وحق الأمان لأهل السلام وحق العقاب على أهل الآثام .

وهكذا اتجه أهل إنب حجج بفكرة الخلق والخالق في مذهبهم إلى التجديد والمعنوية أكثر مما اتجهوا بها إلى التجسيد والمادية ، وأوشكوا أن يرهصوا ببعض ما أكدته الكتب السماوية حين نزولها ، فردوا الخلق إلى القلب واللسان أو الإرادة والكلام ، وأشبهوا بذلك قول العهد الجديد ” في البدء كان الكلمة وذن الكلمة مع الله والكلمة هي الله“ — واقتربوا من قول التنزيل الحكيم ” الله يخلق ما يشاء ، إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون“ ، ولم يفسد عليهم سمو تفكيرهم إلا أنهم اعترفوا بوجود أرباب كثيرين زعموا أن إلههم الأكبر خلقهم من نفسه وتعهدهم بنفسه وأمر بعبادتهم والاهتمام بمعابدهم باعتبارهم صوراً منه أو ألقاباً له (١٥٧) .

*
* *

لم يقتصر نشاط عصر بداية الأسرات على التنظيم الداخلي وحده، وإنما ظهرت لأهله وجوه نشاط أخرى خارجية ، نمت عليها نقوش بطاقات صغيرة عثر عليها في مقابر ملوكهم وبار موظفيهم ، وحوليات قائمة بالرمو ، ونقوش أخرى سجلت أسماء ملوك عصرها في نواح متفرقة من الحدود المصرية ، كما نمت عنها بعض المظاهر الحضارية التي اشتركت مصر فيها مع جيرانها من بلاد الشرق القريب .

فن أدلة النشاط عند الحدود الجنوبية ، أنه عثر على اسم حرتاني ملك الأسرة الأولى أو ثالثهم، مسجلاً على منحور جبل الشيخ سلمان قرب وادي حلفا (١٥٨) ، وذلك مما يحتمل تفسيره باتساع التبادل التجاري لحكومته مع بلاد النوبة أو السودان خلال عهده ، واتساع نشاط حكومته في استغلال المناجم الذهب في وادي حلفا ، وقيام جيشه بحماية هذا الاستغلال أو ذلك التبادل .

واستمرت جهود رجال العصر في هذا السبيل، وذكرت أمثالها للملك خع سنخم في أواخر عصر الأسرة الثانية .

وتعين على حكام العصر أن يتقنوا للحدود الصحراوية الشرقية والغربية وأن يكفلوا حماية المتاجر والقوافل وبعثات المناجم والحاجر التي تمر خلالها ، وأن يعثروا بدوها الرحل على الطاعة والسلام .

A. ERMAN, Ein Denkmal memphitischer Theologie, 1911; K. SETHE, Dramatische Texte, 1928; (١٥٧)
H. BREASTED, The Dawn of Conscience, 1933, 29 f.; H. JUNKER, Die Götterlehre von Memphis, 1940.

وراجع عبد العزيز صالح : « فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة » المجلد - فبراير ١٩٥٩ ص ٢٩ - ٤١

ARKELL, in J.E.A., XXXVI, 27 f. (١٥٨)

وأثرت لأغلب عهود العصر جهود في هذا السبيل ، فتمت صلالية من صلايات الملك حور عجا ، عن أن بدوليبيا القريبين من حدود الدلتا والفيوم كانوا لا يزالون شاردين عن طاعة حكومته المركزية ، شأنهم شأن بقية جماعات البدو في أغلب أحوالها ، وأنه ألزمهم بالولاء له وتأدية الالتزامات المادية والمعنوية لدولته ، ورمزت نقوش الصلالية إلى عدد كبير من خيرات بلادهم ونمت عن أن أرضهم كانت لا تزال حينذاك وفيرة الأعشاب والشجيرات والمراعى والأنعام (١٥٩) .

وعثر على اسم الملك واطى منقوشا على سخرة قريبة من ساحل البحر الأحمر ، وفي نهاية واد يصل بينه وبين إدفو (١٦٠) ، وذلك مما يعنى استغلال أحجار ومعادن الطريق في عهده ، أو استغلاله كطريق للتجارة المتبادلة بين النيل والبحر الأحمر ، أو استغلاله للغرضين معا .

وسجلت بطاقة من بطاقات دن نصره على أهل الشرق لأول مرة ، كما قال كاتبها (١٦١) ، ويحتمل أن أهل الشرق هؤلاء كانوا من بدو الصحراء الشرقية أو بدو سيناء ، وأنهم بدأوا بنفس العناد والشرود الذى بدأ به بدو ليبيا إزاء الحكومة المركزية الجديدة . وسجلت له بطاقة أخرى فتحصن يدعى " عن " وتأديب جماعة "ممرن" ، في عام احتفاله بعيده الثلاثينى (١٦٢) ، ويبدو أنه هو وأمثاله الملوك كانوا يعتمدون إلى شن حملاتهم الحربية والتأديبية في أعوام توليهم الحكم ليشتروا بالبأس ، وقبيل اخفاهم بأعيادهم الكبرى حتى تكون لها فيما يظنون فرحتان ، فرحة العيد ، وفرحة النصر .

وسجلت البطاقات للملك عنجاب (بن دن) ، نشاطا مماثلا مع قوم أطلقت عليهم اسم الإونديو (١٦٣) . ربما بمعنى أصحاب العمد ، ويغلب على الظن أنهم كانوا طائفة من الأقوام الذين أدبهم أبوه ، وقام بحملته عليهم هو الآخر في العام السابق لاحتفاله بعيده الثلاثينى .

واستمرت اتصالات مصر بجنوب غرب آسيا ، واستورد المصريون أخشاب الأرز والصنوبر من فينقيا واستخدموها كما يعتقد پترى وشفينفورت وفرانكفورت في تسقيف مقابر الملوك في أبيدوس ، وربما استخدموها كما يعتقد كيس في صناعة السفن الكبيرة منذ عهد عجا (١٦٥) ، واستوردوا الزيوت والخمور

CARPAT Les Débuts, Fig. 159—160. (١٥٩)

CLEBE, in Ann. S. XXXVIII, 85 f. (١٦٠)

ZÄS, XXXV, 7 f. (١٦١)

R. T. I, XV, 16. (١٦٢)

(١٦٣) Pal. rt. III, 2. وذكرتهم نصوص الدولة القديمة في شبه جزيرة سيناء ، واعتبرتهم نصوص الدولة الوسطى من سكان الصحراء الشرقية ، ثم نزحوا الى الجنوب خلال عصور الدولة الحديثة .

See GARDINER-PHEET, Sinai, No. 7; COYAT-MONTET, Hammamat, 191, 5; 192, 18.

R.T. I, p. 9, pls. LXII, LXV, LXVII; J.E.A. XII, 83, and KEES, Das alte Äg., 58. (١٦٤)

في أوان فخارية فاخرة من جنوب سوريا وفلسطين واعتبرت Kantor هذه الواردات بمثابة جزي وردت إلى مصر من المناطق الخاضعة لها في سوريا وفلسطين (١٦٥) ، وذهب باحثون آخرون ومنهم de Rougé, Weill and Yadin إلى أن مصر كانت لها حصون وعمليات دفاعية في المناطق الآسيوية منذ عهد نعرمر و خلال عهد حرو و دن وقاى رع ، و حاولوا أن يتعرفوا من أماكن نشاطها هناك على صورة حصن نقشت على صلاية نعرمر ، و حصن يدعى "باب عن" أو باب عين ، وآخر يدعى "ونه" في جنوب فلسطين . ولا تخلو هذه الآراء من قرائن تركيبها في نقوش الملوك وفي حوليات بالرمو (١٦٦) .

وعثر في مقابل هذه الواردات على صادرات مصرية في ميناء كينة (= جبلة = ببلوس = جبيل الحالية) في فينيقيا (١٦٧) ، وكانت كينة أكبر مركز للتبادل التجاري مع مصر في غرب آسيا ، وأصبحت السفن المصرية تسمى باسمها أحيانا .

ويرى پترى وشارف أن كينة ظلت واسطة لاتصال التجار المصريين بالتجار الكريتيين في عصور بداية الأسرات ، وعثر پترى في أبيدوس على أوان تشبه زخارفها الأواني الإيجية المعهودة فعلا ، وإن كان تأكيد التبادل مع الكريتيين في ذلك العصر البعيد لا يخلو من شك ، بالنسبة إلى أهل كريت على وجه الخصوص . (١٦٨)

وبقيت صلات مصر ببلاد النهرين خلال عصر بداية الأسرات ، وهذه ناقشنا بعضها في تفصيل من قبل . (١٦٩)

*
* *

لاتزال المقابر هي الكثرة الباقية من أبنية المصريين في عصر بداية الأسرات دون المباني الدنيوية . والواقع أن هذا لا ينطبق على عصر بداية الأسرات وحده وإنما على ماتلاه من العصور القديمة كلها ، ويبدو أنه إذا كانت هناك خاصية مشتركة بين مساكن الصغار ومساكن الكبار فهي أن الغالبية العظمى منها ظلت تبنى باللبن ، وبالبنا باللبن كان له ما يبرره في دنيا الفقراء ، وهو رخصه وقلة تكاليفه ، كما كان له ما يبرره في دنيا الأغنياء ، وهو ملاءمته لبيئتنا الحارة قليلة الأمطار ، فاللبن فيما يقال عازل جيد يحتفظ بالحرارة الداخلية ولا يمتص الحرارة الخارجية ، ثم هي العادة اعتادها الناس أغنياء وفقراء .

FRANKFORT, Studies in the early pottery, 108 f.; M.W. PRAUSNITZ, Abydos and combed ware, (١٦٥) Palestine Expl. Quart, London 1954, 91 f.; H. KANTOR in JNES. 1942, 174, f., 201.

See R. T. I, pl. XV, 16—18, XVII—30, II, pl. XVII, 30; Abydos, I, XI, 8 . (١٦٦)

MONTET, Byblos et l'Egypte, p. 271; DUNAND, in Syria, 1928, p. 18, Fig. 1. (١٦٧)

PETRIE, R.T. II, 46, pl. LIV. (١٦٨) يرى شارف أن المصريين هم الذين وصلوا إلى كريت (تاريخ مصر منذ فجر التاريخ - ص ٤٨)

See also, H. KANTOR, in J.N.E.S. 1952, 239-250. (١٦٩)

غير أنه لم تكن من الطبيعي أن يبنى البيت كله من اللبن ، فأعتابه وأكثاف أبوابه وأعتاب نوافذه غالبا ما كانت تصنع من الحجر ، وأعمدته الداخلية قد تكون من الحجر إذا حملت فوقها ثقلا كبيرا ، أو من الخشب إذا حملت ثقلا خفيفا وكانت للزينة ، أو من اللبن المكسو بالملاط إذا كان ثقلا بين .

وضاعت معالم الغالية العظمى من آثار المدن والقرى والمساكن القديمة لعدة أسباب ، منها أن مباني اللبن لم تكن تختمل البقاء طويلا ، وأن سكانها لأجيال طويلة كان يعمل على تهديمها ، وأن العمران في العصور الإسلامية والعصور الحديثة قام على أنقاض العمران القديم في أغلب الأحوال .

وانتشرت المقابر الباقية في عصر بداية الأسرات في أبيدوس وسقارة ونقادة والعمرة ونجع الدير وطرخان والحيزة وحلوان ، واختلف طرازها بعض الشيء في الصعيد عنه في الوجه البحري ، وكانت أكثرها احتفاظا بأجزائها العلياى مقابر سقارة ومقابر متفرقة قليلة في المناطق الأخرى دون مقابر أبيدوس التي لم يتبق من أجزائها العليا باقية . وسوف نعرض الخصائص العامة لهذه المقابر فيما يلي في إيجاز ونؤجل التفصيل إلى كتاب آخر ، ولو أنه لن يكون إيجازا مغللا بأى حال من الأحوال (١٧٠) .

استفادت مقابر أبيدوس من المراحل التي سبقتها في نهاية فجر التاريخ ثم طورتها وتوسعت فيها ، ويمكن إيجاز مراحل التطور فيها في العمل على توسيعها مع تقليل المسطحات التي يذبحى تسقيفها بالأخشاب الطويلة في حجرات دفنها ، وذلك عن طريق بناء أكثاف لبنية رأسية تتعامد على جدرانها وتسمح باستغلال الفراغات التي تفصل بين كل كنف منها وكنف آخر على هيئة مخازن . والنزول إليها بدرج طويل يساعد على تسقيفها وبناء جزئها العلوى أو أكبر جزء منه في حياة صاحبها . وتبليط أرضية حجرات الدفن فيها بقوالب اللبن (في مقبرة جر) وتغطيتها بالواح الخشب (في مقبرة واحى) ، ورففها بالجرانيت (في مقبرة دن) وأخيرا تسيدها بالحجر الجيري (في مقبرة خع سخموى) . ثم تميز المقبرة بنصب حجرى مقوس في أعلاه يليق بصاحبه وينقش عليه اسمه ليدل على ملكيته للمقبرة وليذكر الناس به وليدعوا له أمامه ، وقد يعشق هذا النصب في واجهة المقبرة أو في واجهة السور المحيط بها أو يثبت في الأراض بعيدا عنها .

ويذهب پترى وريزر إلى أن كل مقبرة ملكية في أبيدوس كانت تتبعها مصطبة ذات مشكاوات على واجهاتها الأربع ، تقوم عند حافة الوادى قرب معبد خنتى إمتنبو إمام الغربين ، وتقدم الدعوات والقرابين فيها باسم صاحبها ، وربما أجريت فيها عملية غسله وتطهيره وتكفينه وصيانة جسده بالوسائل المعروفة في عصره .

وتوزعت مقابر موظفى الصعيد وموظفى القصور الملكية فيه حول مقابر ملوكهم وحول مصاطبهم ذات المشكاوات في صفوف منتظمة ، تأكيدا لتبعية أصحابها لهم والتفانهم حولهم ورغبتهم في أن ينال

See, G. A. REISNER. The Development of the Eg. Tomb down to the accession of Cheops, Cambridge (١٧٠) 1936; W. B. EMERY, Excavations at Saqqara, 1938, 1939, 1949, 1952; J. VANDIER, Manuel d'Archeologie Egyptienne, I, Paris 1952, 613 f.

مقابرهم نصيب ثابت من القرايين الوفيرة التي تقدم بأسمائهم ، و ربما تعبيرا عن أملهم في أن يبعثوا معهم ويعملوا في نفس المناصب التي شغلوها عندهم في دنياهم .

وارتبطت بمقابر العصر في الصعيد مقبرة في نقاد أشرفنا إليها وعن صاحبها المحتمل ص ٢٥١ ، وامتازت من ناحيتها ببقاء جزئها العلوى على هيئة مسطبة ضخمة مسطحة السقف شكلت في واجهاتها الأربع مشكاوات متعاقبة ، و بوجود حجراتها في جوف المصطبة بمستوى سطح الأرض وليس تحتها ، و بقاء أطلال سورها الذى كان يحيط بها ، ويفهم من وضعه بالنسبة إليها أن أصحابه كانوا يضعون بينه وبين الواجهة الشرقية للمصطبة مائدة مناسبة يقدمون عليها قرايئهم .

وامتازت مقابر سقارة بضخامتها واتساعها و بقاء أجزائها اللينة العلوية ، و تضمنت هي الأخرى حجرات قليلة منحوتة في الصخر حول حجرة الدفن و حجرات أخرى كثيرة داخل بناء المصطبة فوق سطح الأرض ، و تعاقبت في واجهاتها الأربع دخلات أو مشكاوات رأسية تفاوتت في اتساعها و فى مدى إتقان بنائها من مصطبة إلى أخرى .

ويستتج من أطلال المصاطب الكبيرة في سقارة أنه كان يحيط بكل واحدة منها سوران ، وأن ما بين السورين كان يستخدم لأداء الشعائر وتقديم القرايين واجتماع الأهل في المواسم الدينية والتقليدية . وأن بعضها كانت تحفر بجانبه حفرة على هيئة مركب تليس بالطين أو تكسى بقوالب اللبن ، و ربما وضعت فيها مركب خشبية حقيقية ، و فى هذه الحالة قد تكون المركب الخشبية هي المركب التي نقل أهل المتوفى جثته فيها في النيل وآثروه بها و حرموا على غيره ركوبها ، أو تكون مركبا صنعت ليوم وفاته ليستخدما في عالمه الآخر استخداما يناسبه كلما أراد أن يتنقل في أنهار الجنة أو يحجج إلى مدن الحج العتيقة .

ظهرت في شأن مشكاوات المصاطب آراء كثيرة فافترض شارف و جيكييه أنها كانت تقلد واجهات مساكن دنيوية كبيرة بنيت من الخشب واللبن معا ، وذلك على اعتبار أن المقبرة كانت تعتبر سكنا للمتوفى في دنياه الثانية ، و افترضت نوبلكور أنها كانت تقلد واجهات الأسوار الحصينة و يقصد بها أن تكفل الحماية السحرية للمصطبة وصاحبها ، و افترض پترى و ريزر أنها اعتبرت بالنسبة إلى مصاطب الفراعنة فى أبيدوس بمثابة أبواب رمزية تسمح لأرواح رجال الحاشية والأتباع المدفونين حولها بالدخول إلى حجرة دفن فرعونها والانضمام فيها إلى معيته حيث شاءت أو حيث أرادها هو . بينما افترض إيبرى أن مشكاوات كبار الأفراد فى سقارة كانت تعتبر أبوابا وهمية للحجرات الموجودة خلفها فوق سطح الأرض ، ورتب على ذلك أن المصريين تخيلوا لكل صنف من أصناف الطعام والشراب الموجودة فى هذه الحجرات "كاوات" أى أرواحا تناسبها وتكفل الصلاحية الدائمة لمبادتها ، شأنها فى ذلك شأن أرواح البشر ، ولهذا اعتبروا المشكاوات بمثابة منافذ رمزية لها .

وكان يرى قد ذهب مذهباً آخر في تفسير أشكال صغيرة قلدت هيئة الأبواب ذات الدلفة الواحدة والأبواب ذات الدلفتين وجدها مرسومة بالمداد الأحمر على جوانب الأكتاف الموجودة تحت سطح الأرض في مقبرة الملك وأحيى وعلى واجهات الدخلات التي فصلت بين كل كتف وآخر منها ، فاعتبرها أبواباً رمزية أيضاً ، ولكن قصد بها أن تيسر انتقال روح المتوفى بين كل مخزن وآخر من مخازن المقبرة .

والواقع أنه ما من تفسير من هذه التفسيرات يعدم قرينة تركيبه وقرينة أخرى تضعفه ، وسوف يكون لمناقشتها مجال آخر ، ولكن يكفي أن نضيف هنا ، أن أداء المشكاوات لغرض الزخرف ينبغي ألا يغفل إطلاقاً ، لاسيما وأنها كانت تكسى بلون أبيض في أغلب أحوالها وتستخدم سطوحها لتصوير زخارف ملونة بهيئة تقلد الزهور وستائر الحصر الفاخرة في بعض أحوالها ، وأنه كان من الطبيعي أن ينتفع أصحابها في بنائها بمراحل التطور المعماري التي وصلوا إليها في بناء مبانيهم الدنيوية سواء رتبوا على ذلك اعتبارها مساكن أخرى أم لم يرتبوا ، وسواء افترضوا أنها كانت بحاجة إلى حماية رمزية أم لم يفترضوا . وكان يكفي في أغلب الأحوال أن يبدأ كبار المعماريين بتنفيذ أسلوب معماري معين مقبول فيقلدهم غيرهم في تنفيذه دون ضرورة إلى ترتيب فائدة دينية أو سحرية عليه ، وترتب على ذلك أن قل التنوع في المظاهر المعمارية العامة لمصاطب العصر الواحد ، ولا يكاد يذكر من الاستثناءات المتمتع في مصاطب سقارة غير استثناءات معدودة ، ومنها أن البعض منها غرست في الأرض أمام واجهاتها رؤوس ثيران ضخمة شكلت من الطمي وزودت بقرون حقيقية ، فبدت كما لو كانت تخرج من عالم آخر بعيد أو من محيط مائي خفي . ويحتمل أن أمثال هذه الرؤوس كانت تعلو أسوار بعض المصاطب أيضاً ، وليس لها من تليل فيما يبدو إلا أنها كانت ترمز إلى المعبود حاب أحد أرباب إنب حيج وسقارة . وثمة استثناء آخر نفذه أحد المعماريين في مصطبة رجل يدعى ” نبت كا “ فبنى جزءها العلوي على هيئة مسطح أنفي واسع تؤدي إليه درجات . تعاقبة طويلة ضيقة من جهاته الأربع بحيث بدت في نهاية أمرها على هيئة المصطبة المدرجة .

ويبدو أن المعماريين المصريين اهتموا في ذلك الحين أو بعده بقليل إلى مرحلتين أخريين من التطور في بناء المصطبة ، وتعهدوا في المرحلتين أن يدعموا جوانب المصطبة ويعملوا على حماية المدخل المؤدى إلى جزءها الأسفل . ونفذوا المرحلة الأولى ببناء إضافة جانبية أحاطت بها وقلت ارتفاعاً عنها وزادت سمك جدرانها السفلى ، ثم أتت المرحلة الثانية ببناء إضافة جديدة تقل ارتفاعاً عن الإضافة الأولى .

ولما أدت الإضافان غرضهما العملي ، وهو تقوية جوانب المصطبة وحماية مدخلها ، ظهر لها في مخيلة المعماريين غرض آخر فني ، وهو إظهار المصطبة ذات السطح الواحد بمظهر المصطبة المدرجة ذات السطوح الثلاثة أو ذات الدرجات الثلاث .

وذلك مما يعنى أن الهيئة المدرجة التي نفذها مهندس الأسرة الثالثة في الهرم المدرج بسقارة لم تكن غريبة إطلاقاً عن أذهان أسلافه ، ولم تقتصر بشأئها على الأمثلة التي ذكرناها وحدها ، وإنما نفذها معماريو الأسرة الأولى فيما صوروه مرارا وتكرارا من المنصات المدرجة التي كانوا يقيمون فوقها عروش فراعتهم خلال أعياد السد خاصة ، وكانت منصات ذات ثلاث درجات أو أربع .

غير أنه يلاحظ من جهة أخرى أنه وإن ظهرت فكرة البناء المدرج والمصطبة المدرجة قبل عصر الأسرة الثالثة كما أسلفنا ، إلا أن الطور بها إلى هيئة الهرم المدرج ظل ينتظر توفر إمكانيات مادية واسعة وينتظر توفر كفاية فنية جديدة .

واحتفظت منطقة طرة وحلوان بمئات من مقابر عصر بداية الأسرات ، ويبدو أنها كانت جبانة إقليمية لضواحي العاصمة إنب حج ، ومقابرها بسيطة في مجملها ولكنها لا تخلو من خصائص معمارية ودينية تميزها . ولعل أهم خصائصها المعمارية بالنسبة إلى المقابر العادية التي تشبهها في عصرها ، هو استخدام الحجر فيها بوفرة نسبية ، في تحديد حجرة الدفن ورصف أرضيتها وفي عمل درجاتها وفي صناعة المناريس الكبيرة التي كانت تسد ما بين السلم وبينها . أما خصائصها الأخرى أو التقليدية فهي وجود حفر المراكب في منطقة حلوان إلى الجنوب من مقابرها وليس إلى الشمال منها كما جرت العادة في مناطق أخرى ، ووجود ثقب كبير في بعض المناريس الحجرية التي تحمي حجرة الدفن وهذه قد تكون لها فائدة عملية وهي إدخال الجبال فيها للاستعانة بها على إنزال المتراس تحت سطح الأرض ، أو تكون لها فائدة دينية وهي اعتبارها منفذا لروح المتوفى تنفذ منه إلى عالم الدنيا . وثمة خاصية أخرى ، وهي أن لوحات القرابين التي كانت تسجل عليها أسماء أصحابها وألقابهم ويرمز فيها إلى القرابين والخيرات التي يأمل أصحابها أن تتوفر لهم في عالمهم الآخر والتي اعتاد المصريون أن يثبوتها في الواجهات الشرقية من مصاطبهم فوق سطح الأرض ، وجدت في مقابر حلوان في الأجزاء العليا من أقبية الدفن تحت سطح الأرض وأقرب ما تكون إلى أماكن تقديم القرابين فوق سطح الأرض ، ويفترض دريوتون أن أصحابها قصدوا بها أن يتجه المتوفى إليها برأسه بعد بعثه فينتفع بما كتب فوقها ، وأن تكون هاديا لروحه إلى الطريق الذي تسلكه إلى عالم الأحياء وكان تقديم القرابين .

واتجهت التطورات الأخيرة في مقابر عصر بداية الأسرات إلى التقليل من الحجرات العلوية في بناء المصطبة والاستزادة من الحجرات السفلى تحت سطح الأرض ، حرصا فيما يبدو على مقتنياتها وأمانا لها ، وأهم ما يستشهد به في ذلك هي مقبرة خع سخموى آخر فراعنة الأسرة الثانية ، وقد تضمنت نحو ٥٥ حجرة تحت سطح الأرض فيما خلا حجرة الدفن التي كانت لها ميزتها ، إذ بنيت كلها بالحجر الجيري ، وكانت بذلك أولى حجرات الدفن الحجرية المعروفة في الصعيد .

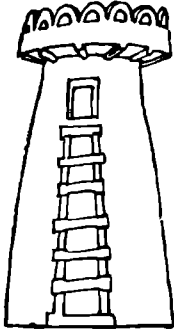
وانتمضى عصر بداية الأسرات حوالى ٢٧٨٠ ق.م ، ومضت بعده قرون طويلة ، ظل المصريون خلالها يردون إليه بعض معارفهم وعلمومهم القديمة ، فذكرت بردية طيبة من الدولة الحديثة فصلا طيبيا

فيها رده إلى عهد الملك دن (الذي ذكرته باسم سمتي^(١٧١)) وذكرت كتب الموتى أن فصلا منها وجد في زمن قديم في البهو الكبير لقصر الملك نفسه^(١٧٢). وذكر المؤرخ المصري مانيتون أن الملك حر (الذي ذكره باسم Athetis) ألف كتابا في التشريح وكان بارعا في الطب، وذكر ديودور الصقلي أن الكهان أخبروه بأن منى أرشد الناس إلى فوائد البشيين وكيف يصنعون الخبز منه.

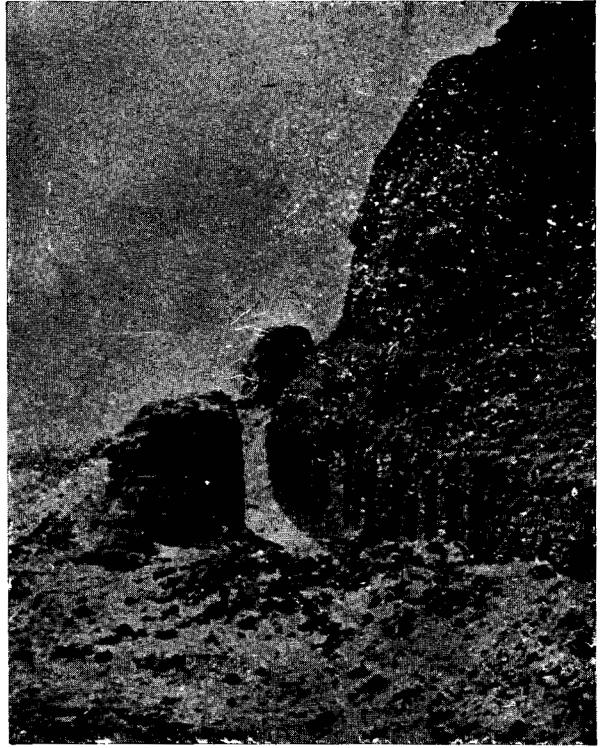
وليس من ضرورة بطبيعة الحال إلى الأخذ بحرفية هذه الادعاءات، فقد يكون الغرض منها هو رغبة أصحابها المصريين في صبغ معارفهم بصبغة القداسة وردها إلى أصول قديمة عريقة، وحسبنا منها أن ذكريات عصر بداية الأسرات ظلت ماثلة في أذهان المصريين، يعتزون بها وينسجون القصص والأساطير حولها.

Der Grosse Medizinische Papyrus des Berlin Museums, XVI, 1 f. (١٧١)

Ch. CXXX, (ZÄS, 1857, 54). (١٧٢)



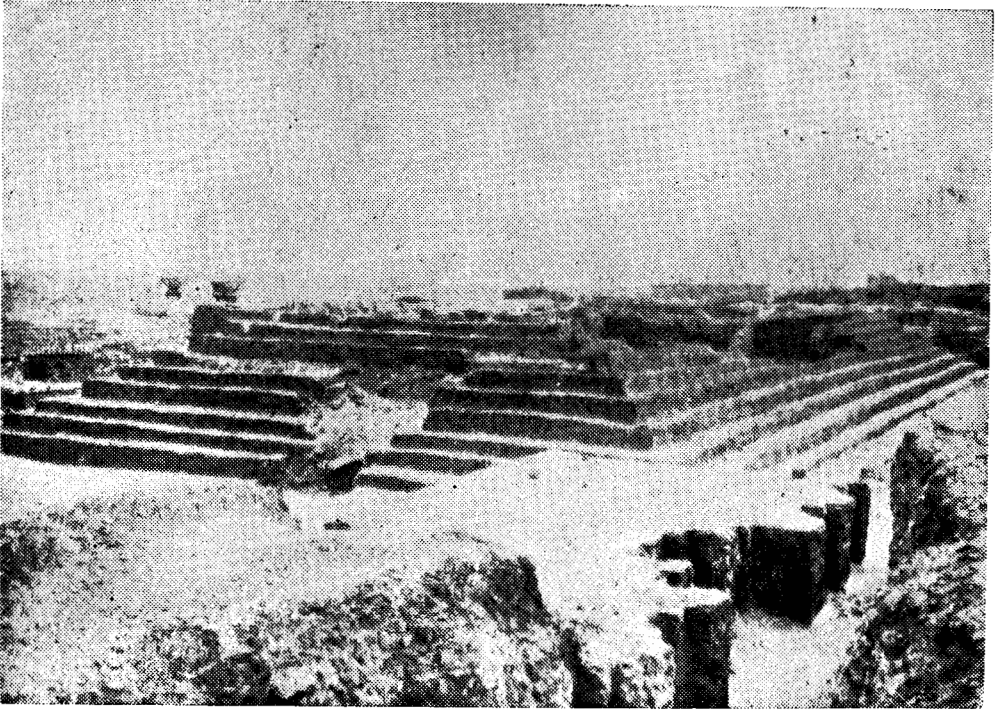
شكل ٤٠ - نموذج برج
يسلم متحرك من عصر بداية الأسرات



شكل ٣٩ - سور نخن من عصر الأسرة الثانية (ص ٢٧٩)



شكل ١ : — مصطبة ذات مشكاوات وحجرات فوق سطح الأرض في سقارة (ص ٢٩٥)




شكل ٤٢ — مصطبة ذات درجات من سقارة (ص ٢٩٦)

الفصل الثامن

حضارة مصر وسياستها في الدولة القديمة

١- في عصر الأسرة الثالثة (٢٧٨٠ - ٢٦٨٠ *)

تعرف عصور الدولة القديمة عادة بتعريفين اصطلاحيين وهما : "العصور المنفية" للدلالة على استقرار فراغتها وحكوماتهم المركزية في مدينة منف التي عرفناها في بداية الأسرات باسم إنب حج ، و "عصور بناء الأهرام العظام" كناية عن نخامة ماشاده أهلها من أهرام لا تزال مفخرة لعصورها وشاهدا على كفاية من تكفلوا بإنشائها .

بدأت عصور الدولة القديمة بعصر الأسرة الثالثة ، وبدأ الحكم فيها بولاية فرعون ذكرته نصوص عهده باسمه الحورى  ويحتمل هذا الاسم قراءات عدة لا تخلو واحدة منها من مدلول معبر طريف . فهو قد يقرأ بقراءته الشائعة "نثرخت" (١) ويصف صاحبه بأنه إله أكثر منه جسد ، أو يصفه كما يعتقد كورت زيته بأنه أثر قداسة من جماعة (الأرباب) ، وقد يقرأ "نثرى خت" (٢) بمعنى ربانى الجسد . أو يقرأ "نثرى مس" كما ظن فيكنتيف بمعنى ربانى المولد (؟) ، أو يقرأ "إيرى خت نثر" (٤) بمعنى المسمى إلى بدن الإله ، أو المسمى إلى ذات الإله ، أو المسمى إلى جمع الأرباب .

وارتبط بالقداية التي اتحلها الملك لنفسه في اسمه الحورى اسم آخر لا يقل تعبيرا عن اسمه الأول وإن كنا لا ندرى إن كان أطلقه على نفسه في حياته أم أطلقه عليه رعاياه بعد وفاته ، وهو اسم جسر


(١) تشبه هذه القراءة منطوق الاسم الذى ذكره مانيتون لمؤسس الأسرة وهو Necherōphēs وان كان قد ذكر بعده اسم Tosorthros وهو اسم يراه جاردنر مرادفا لاسم زوسر ، وان كان الأولى تقريبه الى اسم جسرى الاسم النبى لخليفة نثرخت - راجع ص ٣١٥

(٢) SETHE, *Unters.* III, 41; B. GUNN, in *Ann. S.* 1926, 188 f.

(٣) SETHE, *op. cit.*; H. SCHÄFER, in *Mitt. Kairo* IV (1933), 12

(٤) تجرى هذه القراءة على الطريقة المعتادة في ترتيب الاسماء الملكية التى تتكون من ثلاثة مقاطع - See also *Ann. S.* XLIV, 286. اما قراءة نثر مس فأذكرها عن حديث شفهي مع الاستاذ فيكنتيف .

أوزوسر بمعنى المقدس^(٥). واعادت الكتب التاريخية على هذا الاسم الأخير بسهولة نطقه وكثرة شيوعه ، ولا نرى بأسا من أن نجري فيما يلي على سنتها على أن نعود إلى الاسم الأصلي نثرخت عند الضرورة .

تكاد رابطة نثرخت بالأسرة الثانية تكون مرجحة بناء على تكرار اسم الملكة ني ماعت حاب في عهده وفي عهد سلفه الملك خع سخموى الذى اتهمت به الأسرة الثانية. فقد وصفت هذه الملكة في عهد خع سخموى بأنها أم ولد الملك  ، وعبرت النصوص عن سمو مكاتها في عهده بأن كل مطلب نطقت به نفذ من أجلها^(٦) ثم لقيت في عهد نثرخت بلقب أم الملك ، وبما يعنى الملكة الوالدة^(٧) ، وذلك مما يرجح أنها كانت زوجة للأول وأما للثاني^(٨) . ولا يتشكك في هذا الترجيح غير ثلاثة : هرمان يونكر وألكسندر شارف ويواقيم شيدجل ، وخرج كل منهم برأى يستحق العرض ويستحق التعقيب أيضا ، ولكننا نخشى أن تثنى متابعة هذه الآراء ومتابعة مناقشتها على غير المتخصص ولهذا آثرنا أن نعرضها بحروف مختلفة عن حروف ابن إقرأها من شاء ويتجاوز عنها من تصعب عليه متابعتها .

يعتقد هرمان يونكر أن ني ماعت حاب كانت ابنة خع سخموى وليست زوجته ، ثم تزوجت الملك نب كا الذى اختلف المؤرخون في تعيين عهده وفي صحة اسمه ، وأنجبت منه نثرخت ، وعلى هذا الاعتبار يصبح نثرخت حفيدة نخع سخموى وليس ولدا له^(٩) . وأخذ هرمان كيس بهذا الرأي وأكد أن نب كا حكم قبل نثرخت ١٨ أو ١٩ عاما وأن رجاله صنعوا لسلفه خع سخموى تماثلا من النحاس تخليدا للذكراه^(١٠) .

ونرج شارف باحتمال آخر ، سلم فيه بأن خع سخموى تزوج ني ماعت حاب من سلالة الأسرة الحاكمة القديمة في الوجه البحرى ، ترضية لأهله ، بعد المشكلات التى مروا بها قبل عهده ، ولكنه لم يعتبرها زوجته الأولى ، ولم يسمح لها بأن تتلقب بلقب زوجة الملك ، واكتفى بأن لقبها بلقب « أم ولد » . ثم أضاف شارف رأيا غريبا ذكر فيه أن نثرخت كان ولدا لني ماعت حاب من زوج آخر من أهل الدلتا ، وليس من خع سخموى نفسه^(١١) .

(٥) تداخل اسم جسر في اسم حاكم اقليم يدعى حم جسر وجد منقوشا على آنية تحت الهرم المدرج ، واذا صحت هذه القراءة وصحت نسبتها الى الأسرة الثالثة وجب تغيير الفكرة القديمة التى رجحت ان اسم جسر لم يعرف لمؤسس الأسرة الثالثة الا في الدولة الوسطى .

See FIRTH-QUIBELL, The Step Pyramid, p. 137, pl. 106,6.

وتردد اسم جسر في نقوش الدولة الوسطى وما تلاها ، باعتباره الاسم النيسوبى لصاحبه مرة وباعتباره اسمه البنئى مرة أخرى وباعتباره اسمه الحورنوب مرة ثالثة

See Berlin 7702 ; ERMAN, in ZÄS XXXVIII, 115 f. ; JEQUIER, in Rec. Tr. XXIX, 1f; B.I.F.A.O.

V, 42 ; SETHE, Imhotep, 14 ; GAUTHEIR, L.R. I, 51.

(٦) أو ام الامير ، او ام ابناء الملك ، R. T. II, XXIV, 210, and compare, L.D. II, 6.

(٧) GABASTANG, Bêt Khallâf, pl. X, 7.

(٨) SETHE, by GARSTANG, op. cit., 22-23; R. WEILL, Recherches, I, 319, II, 161; and others.

(٩) H. JUNKER, in Mitt. Kairo, III, 140.

(١٠) KEES, Das alte Äg., 83 ; see also PETRIE, R. T. II, 32.

(١١) الكسندر شارف : تاريخ مصر منذ فجر التاريخ - معرب - ص ٥٠ - ٥١

واستغل J. Spiegel هذا الرأي أو قال بمثله ، وذكر أن كل أسرة مصرية حاكمة كان يعنها أن ترد نسبها إلى أصل مقدس ، وهذا حق لا شك فيه ، ولكنه أضاف أن تترخت لم ينس أباه البحرى ولم ينس الوجه البحرى موطن أمه ومسقط رأسه ، فاعتبر أباه نملا لأوزير معبود الدلتا القديم الذى استطاع فى عهد من العهود القديمة أن يحكم مناطق الدلتا والصعيد معا ، والذى راح ضحية مكر أخيه ست رب الصعيد ، وضاع منه ملكه . ثم شبه تترخت نفسه بحور بن أوزير الذى استعاد ملك أبيه واسترده من أهل الصعيد أعوان ملوك الأسرة الثانية ، وشبه فى ماعت حاب بالمعبودة نبت حت أخت أوزير ، التى تزوجت ست رغما عنها ، ولكنها ظلت وفية لأوزير (١٢) وأضاف أن أنصار تترخت شاعوا أن يؤيدوا دعواه ، فأشاعوا قصة أوزير وولده وأخيه شعرا ونثرا بين الناس ، وصغفوها بصيغة دينية قديمة ، وظلت هذه القصة فى صدور الكهان وعلى أفواه المدنيين ، عدة قرون ، حتى سجل أعوان تحى أول ملوك الأسرة السادسة بعضها فى باطن هرمه لأنه كما قال شارف وشيجل كان من شرق الدلتا أصلا شأنه شأن تترخت سلته القديم (١٣) ، وسجل أعوان سنومرت الأول بعضها الآخر على هيئة تمثيلية ، كان من المفروض أن يشترك الملك الحاكم وأولاده وحاشيته وكهنته فى تمثيلها وإحياء ذكرياتها خلال حفلات التتويج أو حفلات عيد السد (١٤) .

وقام الإلهان جب وتحوتى وحور فى كل من القصة والتمثيلية بالأدوار الرئيسية ، جب باعتباره صاحب العرش القديم ورب الأرض ووالد أوزير وست وجد حور ، وتحوتى باعتباره نصيرا قويا يمكن أن يريح إحدى الكفتين المتنازعتين ، وحور باعتباره وارث العرش الأخير والمنافع ضد أطماع عمه . وعمل تحوتى فى القصة على أن يجمع أنصار ست أمام أوزير ، وجعلهم فى صفه وفى طاعته ، واعترف أمام أوزير بأنه يشهد له بأنه أكبر من أخيه وأنه ولد قبله ، . . . وعمل فى التمثيلية على أن يظلب أوزير على ست وجعله يرتفع على ظهره ، وساعد ولده حور على أن ينتقم لمقتله ، ورد عليه عينه التى اقتلعها ست منه (والعين هنا قد تعبر عن تاج الصعيد) وثبت له عينيه ، أو بمعنى آخر ثبت له تاجى الصعيد والدلتا ، وبوأه على عرش جب وميراثه .

لا يخلو هذا التصوير من طرافة ومنحة كما نرى ، ولا يخلو من إشارات صدق مقبولة ، ولكنه لا يخلو من نقط ضعف تؤخذ عليه :

فليس من بأس فى اعتبارنى ماعت حاب من أهل الدلتا ، أو أهل المنبجح ، كما سترى بعد قليل ، وليس من بأس كذلك فى أن نعتبرها غير الزوجة الشرعية الأولى ، لأنها لم تتلقب بلقب الملكة أو زوجة الملك ، كما لاحظ شارف . ولكن يلاحظ من جهة أخرى ثلاثة أمور ، وهى : أن فى ماعت حاب لم تتلقب بلقب أم ولد فحسب ، وإنما تلقت بلقب أم ولد الملك ، أو أم أولاد الملك ، كما يقول اللغويون ومنهم شارف نفسه ، وذلك يعنى أن زوجها اعترف بأن ولدها منه ومن صلبه ، وعهد إليه بالملك بعده .

وأن الأثرين ومنهم شارف نفسه ، كانوا ينسبون إلى تترخت مقبرة فى بيت خلاف بمديرية قنا ، ويفترضون أنه بدأ حكمه فى الصعيد ، وليس فى الدلتا .

وأن الأثرين ومنهم شارف أيضا ، نسبوا إلى تترخت بناء معبد صغير فى مدينة أونو ، سورفيه بعض أفراد تاسوعها المقدس ، ومنهم ست الصعيدى (١٥) ، ولو كان من أعدائه فعلا لما جعل له مكانا بجوار

J. SPIEGEL, Das Werden der Altägyptischen Hochkultur, 1953, § 221-22, 227, 229, 238, 536; and (١٢) compare K. SETHE, *Dram. Texte*, 145 ; S. SCHOTT, *Mythe und Mythenbildung in alten Ägypten*, 1945, 118.

Pyr. 575 f; 356 f., 364, 366 f.; SPIEGEL, op. cit., § 238, 239 f.; S. 607 Anm. 44. (١٣)

See, SETHE, op. cit., SCHOTT, op. cit., 7 f, 30 f; SPIEGEL, op. cit., 227, 223 f. (١٤)

R. WEILL, in *Sphinx*, XV, 9 f. (١٥)

عاصمته وألوحى إلى رجاله بعدم تصويره . وذلك فضلا عن أن واحدا على الأقل ، من رجالات الأسرة الثالثة الكبار ، وكان يدعى خع باوسكر سجل في نصوص مقبرته أنه كان كاهنا للمبود ست الذى يفترضون عداوته لأوزيرجد الأسرة القديم (١٦) .

وليس من شك أخيرا في أن كل أسرة مصرية حاكمة كانت تحرص على أن ترد نسبها إلى أدل مقدس قديم وتخلق الأسباب لتبريرها وتميزها عن الأسرة السابقة لها . ولكن يلاحظ إلى جانب ذلك ثلاثة أمور أخرى وهى :
أن الآثار المعاصرة للأسرة الثالثة المعروفة حتى الآن لم تشر إلى أوزير بالاسم أو بالصورة ، وكان من المفروض أن تجده وتردد ذكره لو أراد ملوكها أن يدفعوا الناس إلى الاعتراف بنسبتهم إليه (١٧) .

وأن نثرخت حين استحدثت لقبها جديدا في ألقابها ، تحب لقلب رع نوب بمعنى الشمس الذهبية أو المنسوب إلى رب الشمس الذهبية (راجع ص ٣١٤) بينما استمسك خع با خلفه البعيد بلقب حور نوب بمعنى الصقر الذهبي أو المنسوب إلى حور الرموز إليه بالصقر الذهبي ، (ص ٣١٨) ولو تعدت نثرخت أن يشبه نفسه بحور فعلا لاتخذ خطوة خع با ، وليس العكس .

وأن رجال نثرخت صوروه تحت هرمه المدرج ومقبرته الجنوية خمس مرات بتاج الصعيد وصوروه مرة واحدة بتاج الوجه البحرى ، وذكرت نقوشه من أسماء المعابد التى زارها بمناسبة احتفاله بعيدة ثلاثة معابد على الأقل إن لم تكن خمسة من معابد الصعيد إلى جانب معبد واحد أو ثلاثة من معابد الوجه البحرى ، وذلك مما يعنى حرصه على تقوية علاقته بالصد وكهنة معابده وليس البعد عنهم (١٨) .

ولكن إذا صح أن نثرخت أوزوسر كان ولدا للفرعون خع سخموى بالفعل ، فما الذى دعا إلى اعتبار عهده بداية لأسرة حاكمة جديدة ولم يسلك ضمن فراعنة الأسرة الثانية التى انتسب أبوه إليها ؟ سجلت بردية تورين اسم زوسر بالمداد الأحمر بين أسماء ملوكها ، تأكيداً لتميزه وأهمية عهده . وصور كاتب مصرى من القرن الثانى عشر ق . م زوسر مع كل من مؤسس الأسرة الخامسة ومؤسس الأسرة السادسة باعتباره رأس أسرة حاكمة جديدة مثلهما . ثم سجل المؤرخ المصرى مانيتون رأيه في الملك نفسه فاعتبره بداية للملك منف (أى إنب حج القديمة) كلهم (١٩) .

ويبدو أن المصادر التى أخذ عنها هؤلاء الثلاثة ، تأثرت بأحد الاحتمالات الأربعة التالية :

أولا — أنه تدخل بين عهد خع سخموى وبين عهد ولده نثرخت بعض المغتصبين للعرش من أبناءه الآخرين أو من بقية فروع أسرته . فلما استرد نثرخت العرش منهم أصبح بداية لفرع جديد تميز به

M. MURRAY AND K. SETHE, Saqqara Mastabas, II, 11; and see also, JUNKER, in SÄS., LXXV, 63f.; (١٦)

WEILL, Recherches, I, 277.

(١٧) لسنا ننكر مع ذلك قدم أوزير وقصته وعبادته عن الأسرة الثالثة بل وعن العصور التاريخية كلها ، ولا ننكر أن عددا من زخارف مجموعة زوسر في سقارة اعتمدت على تكرار رموز جد ذات الصلة بالعبود أوزير ، ورموز أخرى تسمى اصطلاحا باسم عقدة ايسة زوجته . انظر كذلك ما يراه مونتيه من أن سور مجموعة زوسر يقلد سور قصر أوزير (ص ٢١١) ، وان كنا لانتقيد برأيه .

FIRTH-QUIBELL, op. cit., pl. 15-18, 40-42. (١٨)

Turin Pap. III, 5; Cairo 33258=B.I.F.A.O. V, 41f. (١٩)

عن فروع لإخوته وعن فروع أقاربه . ويزكى هذا الاحتمال أن قوائم الملوك أضافت ملوكا يتراوح عددهم بين الاثني والأربعة ، بين اسم خع سخموى واسم ولده ، على الرغم من أنه لم يعثر لهؤلاء الملوك على آثار تدل على أهمية عهودهم أو استقرارها أو طول أمدها (٢٠) .

ثانيا - كان نثرخت أكثر اهتماما بمدينة إنب حج ، وأكثر استقرارا فيها من بقية الملوك الذين سبقوه ، وشيد هرمه المدرج في جباتها . ففسر خفأوه المصريون ذلك برغبته في اختيار أرضها مقرا لدنياء وآخرته ، واعتبروه رأسا للملوكها ، وعبر مانيتون عن رأيهم بعد أن سمي إنب حج باسمها الشائع في عصره ، وهو منف .

ثالثا - أن نجاح نثرخت في تشييد هرمه المدرج ، وهو أول هرم قديم في الوجود ، أظهره بين مواطنيه : يظهر المبشر ببداية عصر حضارى جديد يتميز عن عصر الأسرة الثانية الذى عاش أبوه فيه .

رابعا - تضمن اسم الملكة نى ماعت حاب أم نثرخت ، اسم حاب وهو معبود قديم من معبودات مدينة منف ، وذلك مما يحتمل معه أنها كانت من مدينته التى يقدر فيها وأن ابنها اهتم بمسقط رأسها ، واستقر فيه ، فنسبه مواطنوه هو وفرعه إليه (٢١) .

*
*
*

ارتبطت بعهد زوسر ذكريات ومظاهر حضارية كثيرة ، ناقش منها فيما يلى مقابره ومجموعته المعمارية بسقارة وكفاية رجاله وفكرة ابتداء التقويم الشمسى في عهده وقصة المجاعة التى تسبب إلى أيامه .

فقد نسبت إليه ثلاث مقابر ضخمة ، مقبرة فى بيت خلاف شيدت من اللبن على هيئة مصطبة ضخمة ، وتضمنت آثارا صغيرة عدة تحمل اسمه واسم أمه وأسماء بعض موظفيه ، ومقبرة أخرى فى سقارة تسمى اصطلاحا باسم المقبرة الجنوبية ، ثم مقبرة ثالثة تمثلت فى الهرم المدرج المشهور فى سقارة أيضا .

ظلت مقبرة بيت خلاف تسبب إلى زوسر حتى الأعوام القليلة الماضية ، ورتب بعض الباحثين على هذه النسبة أنه بدأ حكمه فى مدينة ما من مدن الصعيد ثم انتقل منها إلى مدينة إنب حج حيث شيد مقبرته

(٢٠) أضافت قائمة أبيدوس : جاچاى ، ونب كا (Nos. 14-15) وأضافت تورين : نفركا سكر ، وحو جفاى ، وببى كا (III, 1-3) . وأضافت سقارة : نفركا سكر ، وحو جفاى ، وببى (No. 9-11) راجع عن نب كا ص ٢١٨ - وعن حو جفاى (J.E.A. 1956, 50 f.)

وعن جاچاى (WEILL, op. cit. II, 164).

(٢١) KEES, Kultur. 186, Ann. 2

- شارف : المرجع السابق - ص ٥٠ . وأضاف كيس عاملا آخر تأثر فيه بأراء DERRY - وقال فيه ان من أهم عوامل التغيير التى ميزت الأسرة الثالثة هو أن الجنس الذى سمي باسم جنس الجيزة بدأ حينذاك يأخذ مكانه ، وأن العنصر الصعيدى ذو التكوين الدقيق (٤) بدأ ينزاح عن الزعامة التى كفلها لنفسه منذ بداية الامرات . (Das alte Äg. 83-84).

الأخيرتين في جباتها سقارة . ولكن هذا الفرض اعتراه الشك بعد أن اكتشف W. Emery مقابر عصر بداية الأسرات في سقارة وظهر منها أن مقابر بعض كبار الأفراد في الأسرة الأولى نفسها ضارعت مقبرة بيت خلاف ضخامة ونفامة . ولما لم يكن من المعهود أن تتساوى مقابر الأفراد مع مقابر الملوك ، اتجه الرأى إلى اعتبار مقبرة بيت خلاف مقبرة لأحد أقرباء زوسر أو أحد كبار موظفيه ، لاسيما رجل منهم يدعى عنخ أو نجم عنخ تكرر ذكر اسمه على أختام المقبرة، ووجد له تماثلان كبيران يدلان على أهمية شأنه وراثته في عهد ملوكه (٢٢) .

شيدت المقبرة الجنوبية في سقارة من الحجر ، وليس من اللبن ، واتخذت هيئة تشبه هيئة التابوت ، ورصعت بعض جدران غرفها السفلية بقراميد القاشانى الفاخر بينما تركت بعض جدرانها الأخرى ناقصة غير كاملة ، وترجمت نسبتها إلى زوسر نظرا لتصويره على لوحاتها الداخلية ، ولكن تعددت الفروض في تفسير وظيفتها ، بالنسبة إلى وظيفة الهرم المدرج الذى دُفن فيه زوسر ، والذي قام إلى شمالها بمسافة بسيطة . وتبلغ الفروض المقترحة بشأن هذه المقبرة سبعة فروض على أقل تقدير ، يمكن إيجازها فيما يلي :

أنها خصصت لمشيمة الفرعون (على اعتبار أن المشيمة كانت تعتبر عند المصريين توأما لصاحبها وتستحق من الرعاية ما يستحق صاحبها) أو خصصت لدفن عضو من أعضائه فقدته خلال حياته . أو خصصت لدفن الأواني التى تضمنت أحشائه بعد إخراجها من جسده حين تخنيطه في أعقاب وفاته . أو كانت دارا لروحه (أى كاهن) شيد جزؤها السفلى على غرار مسكنه الدنيوى وتم بناؤها حينذاك بناء عن عقيدة قديمة اعتبرت القبر مسكنا أبديا لصاحبه ولروحه ، بينما تم بناء الهرم المدرج القريب منها بناء على عقيدة جديدة اعتبرت السماء مقرا للملك المتوفى وروحه . أو كانت مجرد مقبرة رمزية استخدمها كهنة الملك في إجراء بعض طقوس عيد السد لصالحه . أو كانت ذات صلة بشعائر مدينة به عاصمة الدلتا القديمة ، بينما خصص الهرم المدرج لأداء شعائر أبيدوس جبانة الصعيد الكبيرة . أو هى أخيرا قد بنيت باسم صاحبها باعتباره ملكا على الصعيد بينما شيد له الهرم المدرج باعتباره ملكا على الدلتا (٢٣) .

لم يخجل فرض من هذه الفروض السبعة من قرينة تزكيه ، ولكن لم يخجل واحد منها كذلك من قرائن تضعفه . ويخيل إلينا أن أقرب الفروض إلى المنطق ، هو أن زوسر بدأ عهده بأن أوحى إلى رجاله ببنائها على غرار المصاطب الكبيرة التى بناها أسلافه وجعل مدخلها من الشرق على عادتهم القديمة ، وكان حسبه أن يميزها عن مصاطبهم بأن شيدها من الحجر دون اللبن ، وأنه اعتنى بحجراتها السفلى وارتقى بصورها ونقوشها وترصيع جدرانها إلى حد لم يصلوا إليه فى نقوش مصاطبهم وزخارفها . فلما امتد أجله وتوفرت إمكانيات عهده ، وزادت خبرة مهندسه ، أوقف إتمام العمل فى حجراتها السفلى ، وأوقف

W.S. SMITH, The Art and Architecture of Anc. Egypt, 1958, 37; KEIMER, in Ann. S. XXXI, 178. (٢٢)

See: FIRTH-QUIBELL, op. cit., p. 57; Lauer, La Pyramide à degrés, 94 f.; R. RICKE, Bemerkungen zur Äg. Baumkunst II, 38, 105, Abb. 10. (٢٣)

تكسيته بالقاشاني، وشرع مهندسه في بناء مقبرة جديدة تمتاز عنها بفضولها وبأسلوبها المعماري وبأخذها بعقيدة جديدة جعلت مدخلها يواجه الشمال، وإن شابهتها في حجراتها السفلى ودهاليزها ونقوشها وترصيع جدرانها. بل إن زوسر أو مهندسه لم يشيد مقبرته الجديدة على أسلوب واحد منذ بداية أمرها، وإنما غير تصميمها ثلاث مرات على أقل تقدير، قبل أن يصورها على هيئة الهرم المدرج (راجع ص ٣٠٦). وكان يشجعه على التغيير في كل مرة توافر الإمكانيات وازدياد الخبرة وطول الأجل (٢٤).

ولا يضعف هذا الفرض الذي نقترحه غير أمر واحد، وهو أن حجرة الدفن في المقبرة الجنوبية قليلة المساحة ولا تكاد تسمح بدفن شخص كبير إلا إذا وسد في هيئة الانثناء، وذلك مما يحتمل تفسيره بتأثر مهندسه بعادات الدفن القديمة.

وليس ما يمنع من أنه بعد أن تم بناء الهرم المدرج واستغنى به صاحبه عن المقبرة الجنوبية استفاد منها في أحد الأغراض المقترحة آنفا، مع استبعاد فرض تخصيصها لمشيمنه واستبعاد تخصيصها لأواني أحشائه، فالأحشاء أولى بأن تظل قريبة من جثة صاحبها وليست بعيدة عنها، واستبعاد تخصيصها لدفنة به مع تخصيص الهرم المدرج لدفنة أبيدوس كما اقترح الباحث ركه (٢٥)، حيث لم يكن من المقبول تخصيص مقبرة جنوبية الموقع لطقوس مدينة شمالية وتخصيص هرم شمالي الموقع لطقوس جبانة جنوبية.

وعلى أية حال، ومهما يكن من أمر مقبرتي زوسر، فإن الفضل في إنشائها معا يرجع إلى عبقرية مهندسه إيمحوتب قبل كل شيء.

سجل إيمحوتب من ألقابه في عهده ملكه، ألقابا تدل على أنه كان أمينا لأختام الوجه البحري، وتاليا للملك أو الأول لدى الملك، ونظرا على القصر العالى، ومهندسا، ومسجلا للحوليات، وكبيرا للرائين، وكان اللقب الأخير لقباً يميزا لكبار كهنة مدينة عين شمس ذات الذهرة الفكرية القديمة (٢٦).

واحتفظت أجيال المصريين بذكرى إيمحوتب قرونا طويلة، وجعله المتعلمون في الدولة الحديثة على رأس أهل الحكمة والتعاليم، واعتبروه من رعاة المثقفين، واستحبوا أن يسكبوا قطرات من الماء من مؤخرة محابره مع التمتمة باسمه كلما هموا بكتابة أمر خطير، ثم قدسوه في عصورهم المتأخرة، واعتبروه ولدا للإله بتاح رب الفن والصناعة، وذكره الإغريق المتمصرون بإسم إيموتس Imouthes

(٢٤) جرى فراعنة الأسرة الرابعة على هذه السنة، فبنى سنفرو هرمين، أهمل أقدامهما ودفن في الثاني، وبدأ كل من خوفو وخفرع هرمه بحجم متوسط محدود، ثم أزاذه مرة أو مرتين، نتيجة لطول الأجل وتوفر الامكانيات والكفايات.

(٢٥) RUCKE, op. cit., 38 Abb. 10.

(٢٦) Urk. I, 153; Firth-Quibell, op. cit., pl. 58 وسجل أحد أحفاده البعيدين القابا أخرى ننته فيها بلقب الوزير واعتبره مدير المنشآت العامة في الصعيد والدلتا وكاهنا مرتلا عظيما وذكر إياه باسم كانفرو وذكر أمه باسم عنخ خردو. (See, SETHE, Imhotep, 14.)

بالوافدين، لولا أنه باب من حجر قلده فيه بناؤه تفاصيل الأبواب الخشبية العادية، ويفضي الباب إلى البهو الكبير وهو بهو طويل تحف به الأساطين الحجرية التي تقلد حزم الغاب، وه أساطين رقيقة في بنائها وفي مظهرها تستند على حواجز خلفية وتتخذ هيئة أنسيابية يقل سمكها من أسفل إلى أعلى، تزينها في أعلاها حليات على هيئة أوراق الشجر العريضة المقلوبة، ويعلوها السقف ذو الجذوع الحجرية. وكانت تحلى أبواب البهو زخارف هندسية ودينية على هيئة أقواس كبيرة رشيقة دلت على يد ممتكئة في رسمها ونحتها، وعلى هيئة رموز تسمى رموز جد تعنى معنى الدوام والاستقرار وتعتبر من رموز المعبود أوزير. وينتهي البهو بقاعة تطل على فناء الهرم الكبير وترفع سقفها ثمانية أساطين يصل بين كل أسطونين منها جدار خفيض.

وكان للفرعون وحاشيته سبيل آخر حين يحتفل بعيد السد، فكان يسلك طريقا قصيرة جانبية تبدأ من أول البهو وتمتد حتى فناء العيد، وهو فناء رحب واسع حفت بجانبه مقاصير نفحة، بنيت الغربية منها بأسماء أرباب الصعيد، وشيدت الشرقية منها بأسماء أرباب الوجه البحرى الذين توهم أتباعهم أنه لا بد لهم من أن يشاركوا الفرعون في عيدهِ وباركوه فيه ويتقبلوا صلواته.

وتصدرت الفناء منصة حجرية متسعة ترتفع عن الأرض بنحو المتر، ويؤدى إلى سطحها درجان في واجهتها الشرقية، وكانت تعلوها مظلتان تضم إحداهما عرش الصعيد وتضم الأخرى عرش الدلتا، ويجرى حفل العيد على الصورة التقريبية التي سبق عرضها في عصر بداية الأسرات، ويبدو أن الفرعون كان يتجه في بعض مراسم الحفل إلى المقاصير واحدة فواحدة ويقدم في كل منها دعاء أو قربانا يناسب ربهما، وربما اصطحب معه في كل مرة شارة تتفق مع رموز ربهما.

لم يتبق من مقاصير العيد غير أطلال تم على الرغم من قاتمها عن مهارة صانعيها وعن نخامة مظهرها القديم. وكانت تصدر واجهاتها أساطين محدبة المقاطع تحلها من أعلاها دلالات مشككة في الحجر على هيئة أوراق الشجر، وتبقت فيها نقوب كانت تثبت فيها قوائم خشبية تحمل رموز أرباب مقاصيرها.

ولما كان العيد عيد الفرعون قبل كل شيء، أقيم له تماثلان كبيران على منصتين مرتفعتين في مقدمة المقاصير، وربما كان له تماثل صغير في كل مقصورة مع تماثل ربهما للتدليل على اتصال الروابط بينهما. وتبقت أجزاء متناثرة من تماثيل أخرى كان بعضها يمثله بحجم ضخم يفوق حجمه الطبيعي بكثير، واستند بعضها إلى صفات مبنية في فناء العيد وشارك في حمل سقفها، واستند بعض آخر إلى أساطينها واعتمد عليها، ومثله بعض آخر مع زوجته وابنتيه في مجموعة أسرية مترابطة، لم يتبق منها غير أربعة أزواج من الأقدام في المقصورة الأخيرة الغربية لفناء العيد.

وجاور مباني العيد بناء صغير رشيق ذهب الاحتمال إلى أنه كان مخصصا للفرعون ليستبدل فيه ملبسه وشاراته خلال أداء الطقوس. وكانت للعيد مرحلة أخيرة تجرى في ساحة جنوبى الهرم، حددها أصحابها بعلامات حجرية كبيرة، ولساندرى ما كان يتم فيها، ولكن ليس من المستبعد أنها ارتبطت بصورة ما بما مر بنا عن عيد الطواف وعدو الفحل.

وتعامد معبد الشعائر على واجهة الهرم الشمالية ، وكان ضخماً كثير الحجرات قلده فيه بناؤه هيئة قصر الفرعون في دنياء، وقامت لدى مدخله حجرة مغلقة سميت اصطلاحاً باسم السرداب، واتخذت جوانبها نفس الميل الانسيابي الذي اتخذته جوانب الهرم لتسجم خطوطها مع خطوطه، وتضمنت في داخلها التمثال الكامل الوحيد الباقي للفرعون زوسر ، وتقدمها جناحان حجريان قلدا هيئة باب مفتوح بدفتين يستقبل ناحية الشمال ، وهي نفس الناحية التي استقبلها التمثال الموجود فيها بوجهه ونفس الناحية التي قام فيها معبد الشعائر وانفتح عليها باب الهرم ، وربط أنور شكري بين هذه المظاهر كلها وبين إحدى العقائد المصرية التي آمن أصحابها بأن أرواح ملوكهم وأرواح أبرارهم تستقر في الناحية الشمالية من السماء بين النجوم الخالدة أو النجوم التي لا تفتنى على حد تعبيرهم ، وخرج من هذا الربط بأن تمثال الملك في سردابه لم يكن أكثر من هاد لروح صاحبه عندما تهبط من شمال السماء قستمدى به ثم تتجه إلى معبد الشعائر لنعم بالقرايين والدعوات المقدمة فيه نعيماً يناسبها ويناسب العالم غير المنظور الذي تعيش فيه ، وتقصده بعد ذلك حجرة دفن صاحبها . ويختلف هذا الغرض الذي خدمه تمثال زوسر عن أغراض أخرى خدمتها التماثيل في عهود تالية لعهد ، اعتبرها أصحابها فيها مقراً للروح تستقر فيها أنى شاءت وحين تفتنى الجثة ، واعتادوا على تقديم القرابين باسمها أمامها .

تضمنت مجموعة زوسر ملحقات أخرى، أخصها بانيان رشيقتان رمزت إحداها إلى برور الصعيد ورمزت الأخرى إلى برنو الوجه البحري (راجع ص ٢٨٩)، وجرى الاصطلاح على تسمية أولاهما باسم بيت الجنوب وتسمية الأخرى باسم بيت الشمال. ومائدتان هائلتان بنيان الحجر وخصصتا لتقديم القرابين والأزاهير في المواسم الكبيرة والأعياد. ودارد غيرة نغمة يحتمل أنها خصصت لمهندس الهرم في حشو السور الكبير. ومخازن غلال في أقصى الجنوب خدمت الصناعات والعمال حين بناء الهرم، وخدمت كهنته وموظفيه بعد بنائه . ومشكاوات داخلية تطل على أركان الفناء وتجللها من أعلاها حيات ناهضة. ومقاصير متفرقة قام بعضها في واجهة المقبرة الجنوبية المطلة على الفناء وبعضها داخل هو الأساطير وبعضها يلاصق فناء العيد، وكان لكل منها تخطيطه الديني المرسوم . ثم مصاطب ضخمة داخل حشو السور يحتمل أنها كانت مدافن عامة تبرك الناس بالدفن فيها أو خصصتها الدولة لدفن فقراء رعاياها . . .

هذه إذن مجرد صورة عامة لمجموعة زوسر في سقارة ، يفهم منها أنها لم تكن مجرد جبانة ، وإنما كانت أشبه بمدينة عامرة يطرقها أهلها في مناسبات كثيرة تتعلق بدنياهم ودينهم وموتاهم ، ويسكن فيها القائمون على شعائرها والمتكفلون بحراستها ، ويتردد عليها الزائرون المعجبون بفخامتها وفن بنائها .

وإذا كنا قد قدمنا لهذه المجموعة ببعض التجديدات الفنية في أسلوب بناء أساطينها وأبوابها وسقوفها فما من بأس في أن نعقب بخصائص أخرى مبسطة تعمدتها المعاريون في بنائها وترك بقيتها لكتاب آخر عن العمارة والفنون بمعناها الصريح، ومن هذه الخصائص استخدامهم أحجاراً صغيرة الحجم والمساحة. وتشييدهم مداميك الحجر في الهرم والمقبرة الجنوبية مقبوسة إلى أسفل جريا على عادة بنائى اللبن الذين يشنون انزلاق

الصفوف وتسقق الجدران لو بنوا مداميك اللبن أفقية مسطحة . وعدم إقامتهم أسطونا قائما بذاته . واكتفاؤهم بإقامة أنصاف أساطين تعتمد على واجهات مبانيها أو تعتمد على جدران نصفية سائدة . وقد يرجع هذا وذلك إلى ذوق في استحبه أو يرجع إلى أنهم كانوا لا يزالون في بداية عهدهم ببناء العماير الحجرية ولم يكونوا مطمئنين تماما إلى استخدام الأحجار الكبيرة أو ترك الأساطين منفردة بذاتها . ومنها استمرارهم في تقليد عمارة الحشب واللبن القديمة ولو لم تكن لها ضرورة إلا إظهار البراعة واستخدامها في الزينة ، فقد زخرفوا الأجزاء العليا من واجهة السور الضخمة بمربعات صغيرة محفورة قليلة العمق تصل بين كل حجر والحجر الذي يحلوه ، واستخدموها لغرض الزخرف أولا وليقلدوا بها وصلات وتعاشيق العمارة الخشبية القديمة ثانيا . وبنوا سقوفها حجرية مقبية قلدت أقبية اللبن والنبات القديمة . وشكلوا الأطراف العليا لواجهات بعض مقاصيرهم في خطوط حادة مائلة قلدوا بها أطراف أعواد الغاب وجريد النخل التي كانت تتداخل في بناء أكواخ العبادة القديمة وأسوارها ، وبدأوا بها عنصرا معماريا مميزا يطلق عليه اصطلاحا اسم الكورنيش المصرى . وشادوا واجهات أخرى ذات عقود علوية مقوسة مفتوحة . وأقاموا جدراننا نصفية تقلد ستائر البوص والحصير الفاخرة المتسكة التي كانوا يقيمونها مقام الحواجز بين مقاصير العبادة الإقليمية ويعقدون أطرافها العليا في هيئات زخرفية مقبولة لطيفة . واستعاضوا عن بعض الأركان الحادة في واجهات مبانيهم بأركان ملفوفة تكفل النوع المعمارى من ناحية وتوفر المساحة من ناحية أخرى وتظهر البراعة من ناحية ثالثة . وشكلوا أركانا أخرى على هيئة سيقان الغاب التي كان أجدادهم يدمعون بها أركان أكواخهم ويشدون جدرانها إليها بالحبال .

وإلى هذا الحد يتضح كيف كان معاريو الأسرة الثالثة فنانين ولم يكونوا مجرد بنائين ، وكيف كانت مشاعرهم ذواقة وأذهانهم مشحونة بحب التنوع ، ولم تكن مجرد أذهان ومشاعر آلية عملية تسير على وتيرة جامدة ، وكيف كانت أيديهم تهتم بكل تفصيل كما لو كان وحدة قائمة بذاتها دون أن تكتفى بالمظهر العام بسيط التنفيذ .

على أن المجد الفنى لم يكن قاصرا على المعماريين وحدهم وإنما شاركهم فيه فنانو النقش والنحت أيضا ، فمارس الفنانون مهارتهم في ست لوحات أسفل الهرم والمقبرة الجنوبية صوروا فيها فرعونهم يؤدي طقوسه أمام مقاصير أربابه ، مشدود العضلات واقفا مترنا حيناً ، ومسرعا تكاد أطراف أصابعه لا تلمس الأرض حيناً آخر ، وجعلوا لسطوح صورهم تموجات خفيفة تعبر عن تكوين عظامه وشدة عضلاته ونحافة خصره وامتلاء شفتيه بوضوح كامل على الرغم من أنها لا تبرز عن مسطح لوحاتها أكثر من مللحترات قليلة ، ونقشوا على قواعد بعض تماثيله صوراً وحروفاً هيروغليفية بلغت حد الروعة في رقبتها ورشاقتها ونعومة ملمسها ومظهرها .

وأظهر تمال زوسر الكامل صاحبه في وقار وجدية واضحة واكتفى التمال فيه بخطوطه العامة ، ولكنه تجاوز هذه الخطوط في تماثيله الأخرى التي أقامها في فناء العيد ، فأظهر فيها إلى جانب البساطة

في هيئتها العامة نصيبا بارعا من العناية بالتفاصيل في تمثيل جدائل الشعر المستعار وتفصيل نسج الثياب وزخارف أهدابها وتفصيل الحلي ذات الوجوه الخشبية التي تتوسطها ، وتفصيل الخرز في شرائط الأحرمة التي كان الملك يتمنق بها .

*
*
*

أسلفنا كيف تعددت الآراء في شأن المقبرة الجنوبية وأغراضها ، وما من بأس في أن نعقب بآراء أخرى حاول أصحابها أن يفسروا أجزاء بقية مجموعة زوسر بتفسيرات شتى تختلف بعض الشيء عن الصورة المبسطة التي عرضناها لها ولأغراضها .

واشترك في عرض هذه الآراء كل من الباحثين ر . ركه وس . شوت (٢٩) ، واقترحا أن يكون لكل جزء من المجموعة وكل تفصيل فيها دلالة سياسية أو دلالة دينية مقصودة لذاتها ، فهو الأساطين عند ركه يمثل البهو الرئيسي في القصر الملكي ، والأساطين فيه ليست أساطين بالمعنى المفهوم ، وإنما هي مجرد جذوع نخيل أو حزم غاب كانت تستر جدران الابن الجائدية التي تحمل سقفه . ومعبد الشعائر عندهما يمثل جزءا من المسكن الخاص للفرعون في قصره . ومعبد آخر إلى الركن الجنوبي الغربي من الهرم اعتبره ركه يقلد مقاصير المعبود حتى إمنتيو إمام الغربيين ورب أبيدوس القديم ، وفناء الهرم الكبير ليس مجرد فناء واسع يتقدم الهرم ويساعد على إظهار ضخامته ، ولكنه فناء يقلد فناء الأضاحى في معبد حتى إمنتيو أيضا . والمقاصير التي تقع في شمال فناء العيد رأى منها ما يعبر عن معبد عين شمس وما يعبر عن معبد بوتو وما يختص بتحتوي وما يعتبر بيوتا للتيجان . . . وهلم جرا .

وأدلى الباحث بيير مونتيه بدلوه ، وحاول أن يستنتج من نقوش اللوحات الست الموجودة تحت الهرم والمقبرة الجنوبية دلالات خاصة ، ونرجح من دراسته منها بأن صور زوسر علما تمله يقوم بتدشين معابد أربابه . وأن المقاصير التي سميت باسم مقاصير الحب سد (في فناء العيد) ليست أكثر من تقليد لمقاصير المعبود تحوتى في الأشمونين ، وأن ما يسمى باسم بيت الشمال إنما يقلد معبد حور البحدثى في دمنهور ، وأن المبنى الواقع خلف فناء العيد لم يكن استراحة ملكية يستبدل الفرعون فيها ملابسه وشاراته وإنما هو معبد يقلد معبد حور رب أوسيم ، وأن السور العظيم الذي يحيط بمجموعة زوسر لم يقلد سور عاصمته وإنما قلده سور المعبود أوزير الذي تمنى الملك أن ينعم بمصيره بعد وفاته فيبعث حيا مثله ويخلد ملكا مثله (٣٠) . .

RIEKE, op. cit., II, 38f., Abb 10; RICK & SCHOTT, Beiträge, V. (٢٩)

P. MONTET, "Les fondations peiuses du Roi Djoser", Comptes Rendus, 1955, 48 f., (Acad. des Inscr. et Belles Lettres). (٣٠)

والواقع أنه ما من رأى من هذه الآراء لقاءه صاحبه على عواهنه وما من رأى منها يخلو من قرينة
دنية أو أسطورية تزكيه ، لولا أن قرائنها في مجملها قرائن فردية حملت من التأويل والتفسير أكثر
مما تحتمل .

*
* *

سارت فنون الأفراد في الأسرة الثالثة فنون ملوكها في حدود إمكانياتها ، ولعل أروع ما بقى من نقوشها
هي نقوش موظف كبير يدعى حسي رع نفذها فناونوما على إحدى عشرة لوحة خشبية كانت تكسومشكاوات
واجهته مقبرته ، وأظهروا فيها صورهم والحروف التي كتبوا بها ألقابه بنفس الرقة وقلة البروز وخاصة النحافة
التي أظهروا بها صور ملكهم زوسر ، واستعانوا بتمججات السطوح على إظهار رشاقة صاحبها وعظام
خديه وعظام ترقوته بل وشفافية جلد وجهه ، وأنفقوا الجهد والصبر وأظهروا البراعة في تمثيل شعوره
المستعارة بتفاصيل تختلف من لوحة إلى أخرى . وشاركهم في ذلك رسام بارع أظهر رسومه على جدار
دهليز داخل نفس المقبرة بنى من اللبن وكسيت واجهته بالملاط ، واستخدم فيها ستة ألوان زاهية صور
بها ستائر الحصر الفاخرة ورسم أسرة . قاعد بمساقط أنفية ورأسية وجانبية بارعة ، وجمع في الشكل الواحد
منها أحيانا بين أكثر من مسقط واحد رغبة منه في إظهار خصائصها على أوضح ما تكون ، وعلى أساس
هذه الرغبة رسم أواني ومرايا ومغارف داخل صناديق ، ولكنه رسمها بتفاصيلها واضحة ظاهرة كأنما
صنعت صناديقها من زجاج شفاف أو كأنما نزلت عنها جوانبها وأغطيها (٣١) .

ويبقى من تماثيل كبار الأفراد في الأسرة الثالثة نحو ثمانية تماثيل يرجع أغلبها إلى ما بعد عهد زوسر
بقليل ، ويمتاز الجالس منها بجلوسه على مقعد حجري بسيط يقلد مقعدا خشبيا بمسند منخفض أو بغير مسند
وله قوائم ملتوية من الخيزران قلدت في الحجر بالنقش البارز . وتفاوتت هذه التماثيل من حيث إتقانها
ونجاح النحت فيها ، وأفضلها ثلاثة ، اثنان لرجل يدعى سبا والثالث لزوجته ، وقد صنعنا مثلاها من
الحجر الجيري وأظهر نسبا سايمة وأظهر تفاصيل شعورها وثيابها ، ولون بعض أجزاءها بألوان لا يزال
باقيا منها لون الكحل الأخضر حول العيون ، ومثل عصا سبا في جسم تماثله بما يشبه النقش البارز
أو النقش المجسم (٣٢) .

*
* *

أشاد بعهد زوسر بين خلفائه أثر آخر ، وهو عبارة عن صخرة كبيرة منقوشة في جزيرة سهيل جنوبي
مدينة أسوان ، يطلق عليها اصطلاحا اسم لراحة الحجارة ، وتقص نقوشها أنه حدث في العام الثامن عشر
من حكم زوسر وفي عهد الحاكم رئيس معابد الجذب ، أمير الثوربين في أبو ، مادير ، أن زاد ضيق
البلاد بعد أن عز الفيضان عليها سبع سنين ، فقلت الحبوب وتضاءلت المحاصيل ، واستشعر شيوخ البلاد

J.E. QUIBELL, Tomb of Hesy, Cairo 1913. (٣١)


M.A. SHOUKRY, Die Privatgrabstatue, 55 f ; W.S. SMITH, A History of Eg. Sculpture and Painting, 17 f. (٣٢)

وشبانها وأطفالها بالأم المجاعة ، حتى الفرعون نفسه لحقه الهم ، وأراد أن يتحرى الأصول والأسباب لما لحق ببلده من حراب ، فاستدعى رئيس الكهنة المرتلين إيخوتب وطالب إليه أن يتعرف على منبع الهر والإله الذى يجمع ماءه ، ناخلى إيخوتب بخطوطاته ، وعاد إلى الفرعون يخبره بأن ثمة قرية تسيطر على النهر والنبع تسمى أبو ، تعتبر بداية البداية وحاضرة الإقليم الأول ، وعندها يوجد المنبعان اللذان يصدر عنهما كل خير ، وهى المهد الذى ينشأ الفيضان عنده ويتجمع . ولما سمع زوسر هذه الفتوى سارع بتقديم الأضاحى والقرايين لأرباب وربات أبو (وهى منطقة أسوان الحالية وإن اقتصر اسمها بعد ذلك على جزيرة أسوان) غير أنه لما جن الدليل عليه رأى الإله خنوم فيما يرى النائم يحدثه جهرة ويقول له : « أنا خنوم خالقك ، أنا من يرسل يديه من ورائك لأكفل لك التأييد وأهب بدنك العافية أنا الذى أوجدت اليابسة ، ووهبتك أحجار الجرانيت منذ القدم ، فشاد الناس بها المعابد وجددوا بها المنهدم ، أنا نون العظيم الموجود منذ الأزل ، أنا الفيضان الذى يرتفع حيث شاء » .


ولما أفاق الفرعون من رؤياه ، آمن بأن صاحب السيطرة فى منطقة أبو هو خنوم دون غيره واعتزم أن يوقف خيرات المنطقة لصالحه وحده ، وأن يجعل لمعبده الحق فى تحصيل ضريبة العشر من صيد السمك والطيور وأعمال المحاجر ، والمتاجر المارة بالمنطقة ، وأصدر مرسوما خاصا ، خاطب فيه خنوم قائلا : " جعلت حدك الغربى جبال مانون ، وحدك الشرقى جبال بنحت ، من أبو إلى [المحرقة] اثنى عشر فرسخا ، بما فى ذلك الضفة الشرقية والضفة الغربية ، من أراضى الزراعة ودروب الصحراء ومجرى النهر وكل مكان يقع فى دائرة الفراسخ المذكورة آنفا ... » .

نقشت نقوش لوحة المجاعة أو سحرة سهيل فى صورتها الحالية فى عصر البطالمة ، واتجه الباحثون فى شأنها وجهتين : وجهة ارتأى أصحابها (ومنهم ماسيرو) أن القصة بمذافيرها قصة مختلفة ، ابتدعتها كهنة خنوم فى المنطقة لاستدرار عطف الملوك البطالمة بعد أن طغت عليهم شهرة معبد للعبودة إيسة أقيم عن قرب منهم فى جزيرة فيلاى ، وانصرفت إليه هدايا الملوك وقراييمهم .

ووجهة أخرى ارتأى أصحابها ومنهم كورت زيته أن للقصة أصلا قديما ، وأن الأسلوب الذى كتبت به فى عصر البطالمة لا ينحلو من تعبيرات ترجع إلى عصر الدولة القديمة ذاتها ، وأنه يتحدل لذلك أنه كان للقصة متن قديم مكتوب على الحجر أو غير الحجر ، ولكنه تعرض للتلف بمرور الزمن . فلما زار أحد الملوك البطالمة المنطقة ، وهو فيما يعتقد زيته بطلميوس العاشر (سوتر الثانى) ، قص الكهان عليه القصة كاملة ، فأمر بنقشها من جديد وتجديد معبد خنوم فى جزيرة سهيل ، وتنفيذ ما جاء فى القصة لصالحه وصالح معبده . ولا يزال هذا التفسير هو التفسير المقبول حتى الآن (٣٣) .

زاد على الألقاب الملكية في عهد زوسر لقب تشريفي جديد ، يقرأ عادة "رع نوب"  (أورع نب) ويصف صاحبه بأنه شمس ذهبية ، أو ينسبه إلى رع رب الشمس الذهبية^(٣٤) . ولم تكن عقيدة الشمس ورب الشمس عقيدة جديدة في دنيا الحكام المصريين ، وإنما اعترف بها قبل عهد نثرخت بفترة تقل عن القرن بقليل ، ملك أو ملاكان من الأسرة الثانية وهما نبى رع الذى دل اسمه على معنى ربي هورع ، وبرايسن الذى يحتمل أنه صور آرص الشمس رمز رع فوق السرخ الذى تضمن اسمه وصور واجهة قصره .

وترتب على ارتباط زوسر بالشمس ورب الشمس ، مزيد من الرعاية منه لمدينة أونو مدينة الشمس القديمة . فساد رجاله باسمه فيها معبدا صغيرا احتفظت أحجاره القليلة الباقية بصور منقوشة متقنة رمزت إلى بعض أرباب التاسوع المقدس الذى آمن به نلاسة أونو واعتبروه مصدرا للخليفة والوجود ، وبقى من أسماء هؤلاء الأرباب اسم جب واسم ست . كما وجد نص قصير من عهده يذكر معبدا لإله الشمس باسم سكرع^(٣٥) .

وحمل كبير مهندسيه إيمحوتب لقب مأور  وكان لقبها يصف صاحبه بأنه « كبير المتعلمين (إلى السماء) » ليرصد حركات الكواكب والنجوم ، باعتباره رئيس الفلكيين في مدينته ، أو يصفه بأنه « المتطلع إلى رب الشمس الكبير » باعتباره رئيس كهنته^(٣٦) .

GARSTANG, Bêt Khallâf, pl. 8, 1; L.D. III, II, 2 f; ZÄS, XXXVIII, 120; FIRTH-QUIBELL, op. cit., (٣٤) pl. 28-30, 43.

ولم يتشكك في قراءة رع نوب غير شيفر الذى نبه الى اختلاف صورة الحلقة المصورة فوق علامة الذهب عن صورة قرص الشمس المألوفة ، وهو تشكك لا يخلو مما يبرره ، وقد أسلفنا مثله بخصوص مدلول الحلقة التى تعلق سرخ بر إيسن ، لولا أن أحدا لم يأخذ به ، ويبدو أن المصريين أنفسهم تجاوزوا عن هذا الاختلاف حين تناولوا اسم نثرخت وأعادوا كتابته بالقابه . (See, Schäfer, in Mitt. Kairo IV, 7f.)

WEILL, in Sphinx, XV, 9f., SETHE, Urk. I, 153-154; Dram. Texte, 79, SMITH, op. cit., Fig. 50; (٣٥) GOEDICKE, in B.I.F.A.O. 1957, 151f., but see J.V.BECKEBATH, Tanis und Theban, Glückstadt, 1951, 36.

(٣٦) اعترض يونكر على تفسير لقب مأور بمعنى كبير الفلكيين ، واقترح قراءته « رائي الكبير » بمعنى من له الحق في رؤية تمثال المعبود الكبير الذى يتمثل في أنوم الخالق أو حور اله الدولة أو غيرها من الأرباب الكبار . (H. JUNKEB, Die Götterlehre, 1940, 27f.; Pyramidenzeit, 1949, 16).

ولكن لم يأخذ أحد برأيه .
وفسر جاردنر اللقب بأنه كان يخلع على صاحبه ميزة الانكشاف المطلق باعتباره ممثلا للملك في المعبد (in Hastings's Encycl. X, 295). — وافترض كيس أهمية أخرى لهذا اللقب وهى أنه كان يسمح لصاحبه بالاشراف على بداية الطريق الانتصاى الكبير الذى يخرج من عين شمس الى منطقة سيناء وما إليها من المناطق الآسيوية (Das alte Äg., 90).

وارتبطت رعاية زوسر لمدينة أونو وعلماؤها بخطوة حضارية جديدة اهتدى فيها علماء المدينة إلى ابتداع التقويم الشمسي ونفذوه منذ عام منذ ٢٧٧٣ ق. م على وجه التقريب ، واحتسبوا أيام السنة على أساسه ٣٦٥ يوما وقسموها اثني عشر شهرا ، ضمنوا كل شهر منها ثلاثين يوما ثم اعتبروا الأيام الخمسة الأخيرة أيام أعياد تحفل الدولة فيها بموالد الأرباب : أوزير ، وإيسة ، وست ، ونبت حت ، و حور . وهى أيام النسيء الخمسة التى تحفظ السنة الزراعية (القبطية) بها حتى الآن .

وكنا قد أشرنا فى الفصل الخامس إلى ما اعتقده زيته و بورخارت وماير من رده هذه الخطوة الحضارية إلى أيام مجد أونو السياسى خلال بخر التاريخ وبدء التوقيت بالسنة الشمسية فى فترة تقع بين عامى ٤٢٤١ - ٤٢٣٦ ق. م ، وأشرنا إلى جدل طويل اعترض اعتقادهم ، وهو جدل لا يخلو من منطوية ووجاهة ، تباداه كل من Neugebauer, Scharff and Kees^(٣٧) وغيرهم ، ومؤداه أن ابتداع المصريين للتقويم الشمسى لم يكن بالأمر الهين ، وأنه كان يتطلب ملاحظة طويلة ، ويعتمد على نضج عقلى واسع لم يكن من السهل أن يتوفر فى دنيا المصريين قبل عهد زوسر . وأنه إذا كان المصريون قد اهدوا إلى تقويم سنوى قبل عهده ، فهو التقويم النبلى ، أو القويم الذى يبدأ ببداية وصول فيضان النيل إلى منطقة معينة ذات أهمية سياسية أو قيمة حيوية ، وهى فيما افترح زيته منطقة توسطت بين المدينتين العظيمتين أونو وإنب حج وتقرب من جزيرة الروضة الحالية . وأنه إذا كان المصريون قد اهدوا إلى الأريخ بالشهور قبل عهده ، وهذا مؤكد ، فهو تأريخ اعتمد على الدورة القمرية الشهرية التى يمكن ترسم بدايتها ونهايتها فى يسر وسهولة^(٣٨) .

وشينا فشيئا لحظ المصريون المحتفلون بوفاء نيلهم أن بفر وصول فيضانه إلى مايجاور أونو أو إنب حج يقترن بظاهرة سماوية معينة ، وهى استمرار ظهور نجم الشعرى ذى الضوء الساطع ، الذى اعتبروه أثى وسموه سوبده^(٣٩) ، مع طلوع الشمس المبكر . ولما استقرت هذه الظاهرة فى أذهانهم ، ولحظوها زمنا ، أصبحوا يترقبونها عن قصد ، وأطلقوا على نجم سوبده اسم جالبة الفيضان^(٤٠) ، واعتبروا ظهورها فى الفجر

(٣٧) NEUGEBAUER, "Die Bedeutungslosigkeit der Sothisperiode" in Acta Orientalia XVIII, (1938), 175f.

A. SCHARFF, "Die Bedeutungslosigkeit des sogenannten ältesten Datums" in Hist. Z. 1940, 3f. ; KEES, Göttergl., 259 f; PARKER The Calendars of Anc. Eg., 1950; W. SMITH, in J.N.E.S., 1952, 122-123.

(٣٨) ذكرت قائمة بالرمو طريقة التأريخ بالشهور فى حونيات الملك جر فى الأسرة الأولى

(٣٩) اعتبر الساميون الشماليون نجم الشعرى (أو الزهرة) اثى وأطلقوا عليها اسم عشرة وعشارة وعشترت، واعتبره اليمنيون القدماء ذكرا وأطلقوا عليه اسم عثتر واعتبروه ولدا للشمس والقمر ، وأطلق الاغريق عليه اسم سويس وربطوا بينه وبين لجم اوريون فى برج الجبار .

(٤٠) ربط المصريون بين سوبده جالبة الفيضان وبين الرية ايسة زوجة أوزير رب الفيضان ، ويحتمل ان هذا الربط هو الذى أدى الى التقليد انشعبى بتسمية ليلة الفيضان «ليلة النقطة» ، أى الليلة التى دمعت فيها ايسة على زوجها الفقيد أوزير نجري الفيضان من دمعتها .

المبكر (حرالى ١٧ يوليو من التقويم الحالى) أول يوم في أول شهر في أول فصل وهو فصل الفيضان . ثم حسبوا ما بين كل طلوع صادق وطلوع طادق آخر للنجم سوبدة ، فوجدوه ٣٦٥ يوما ، ووجدوه يتضمن اثني عشر شهرا قريبا وأسورا لا تصل إلى نصف شهر ، فأكلوا عدة كل شهر قمرى ثلاثين يوما وتبقت عندهم خمسة أيام ، احتسبوا نسيئا وأعيادا . واعتبروا السنة ثلاثة نصول ، فصل آخه أى فصل الفيضان ، وفصل برة أى فصل خروج التبت (من الأرض) وهو يوازي فصل الشتاء ، وفصل شمو أى فصل البحار يق أو فصل الصيف .

وكان من المتوقع أن تتم هذه الخطوة البارعة في عصر نشط ينزع أهله إلى التجديد ويسعون إليه ، وكان فيما يرحمه من أسلفناهم من الباحثين عصر زوسر بالذات . ولم يسجل المصريون شيئا عن مراحل هذه الخطوة في حينها أو في عهد آخر من عهود الدولة القديمة ، ولكنهم أرخوا بالفصول والشهور الإثني عشر بالفعل بعد عهد زوسر^(٤١) ثم أشار خلفاؤهم إلى دورة الشعري في وثائقهم ثلاث مرات على أقل تقدير على فترات متباعدة^(٤٢) .

غير أن هذه الخطوة التي يغلب أن المصريين ربطوا بينها وبين دورة الشمس ، كما ربطوا بينها وبين دورة الشعري ، وقسموا الشهور على أساسها اثني عشر شهرا ، وسبقوا بها شعوب العالم القديم جميعها ، لم تكن بغير نقيصة تؤخذ عليها . فهم قد احتسبوا سنتهم ٣٦٥ يوما وليس ٣٦٥ يوما وربع يوم ، وكان من شأن ربع اليوم أن يصبح يوما كل أربع سنوات ، ويصبح شهرا كل ١٢١ عاما وربع عام تقريبا ، وبمعنى آخر كان من شأن بداية السنة الشمسية (أو الشعريّة) أن تتأخر عن بداية الفيضان الفعلية شهرا بعد كل ١٢١ عاما وربع عام ، ثم لا تعود لتتفق معها إلا بعد أن يبلغ الفارق بينهما حولا كاملا ، بعد كل ١٤٥٦ عاما^(٤٣) .

(٤١) ذكر فصل « شمو » في حوليات سنفرو رأس الأسرة الرابعة .

وتأكد اعتبار السنة ٣٦٥ يوما في حوليات الأسرة الخامسة ، ولو أن هذا لا يمنع من أنه بدأ قبلها .

(٤٢) حدث هذا في العام السابع لحكم سنوسرت الثالث حوالى عام ١٨٧٢ .

وفي العام التاسع من حكم أمنحوتب الأول حوالى عام ١٥٣٦

وفي عام ما من أعوام تحتمس الثالث حوالى عام ١٤٦٦

(٤٣) أدرك المصريون هذا الفارق وتندر به أدباؤهم ، ولكنهم لم يعملوا على تلافيه ، في حدود ما تدله عليه وثائقهم المعروفة حتى الآن ، الى أن أشار قرار كانوب (أبو نير) الذى أصدره مجمع الكهنة المصريين عام ٢٢٧ ق.م. الى اتجاه النية حينذاك الى إضافة يوم على أيام النسيء الخمسة « حتى لا تأتى أعياد الشتاء في الصيف ، نتيجة لتغير الشمس يوما كل أربع سنوات ، وحتى تصبح أعياد الصيف الحالية أعيادا شتوية في المستقبل ، كما كان عليه حالها في الماضي » .

غير أن التجديد لم يستمر ، ولم يتعدل التقويم بصورة عملية الا في عهد أوجسطوس عام ٣٠ ق.م حين ظهر التقويم اليولياني وأصبح العام بوقتضاه ٣٦٥ يوما وربع يوم .

ولم تتكرر ظاهرة الاتفاق بين البديتين ، بداية السنة وبداية الفيضان غير ثلاث مرات ، منذ أن بدأ المصريون توقيتهم : في عام ٢٧٧٣ ق . م وهو عام البداية^(٤٤) ، وعام ١٣١٧ ق . م وهو عام تولى سبتي الأول ، ثم عام ١٣٩ م — وسجل هذه المرة الأخيرة الكاتب الروماني Censorinus وأثبت فيها أن نجم سوبدة ظهر في موعده^(٤٥) .

تعاقب بعد زوسر عدد من الفراعنة ، جعلتهم القوائم الملكية بين الأربعة والستة ، وجعلهم مائتوت ثمانية ، واحفظت الآثار القائمة بأسماء ثلاثة منهم أو أربعة أو خمسة ، وهم سخم خت ، وسانخت ، وخع با ، ونب كا ، وحوئي .

كان سخم خت فيما يبدو هو خليفة ثرخس ، وكشف له زكريا غنيم مذ بضع سنوات عن مصطبة حجرية ضخمة تقع إلى الجنوب الغربي من الهرم المدرج ، واعتبرها قاعدة لهرم مدرج لم يتم بناؤه . وكشف عن جانب من السور الحجري الذى أحاط بها . وانتفع مهندس هذه المصطبة فى بنائها وبناء سورها بالحبرة التى حصلها إيمحوتب ورجاله فى بناء الهرم المدرج ومجموعته ، فاستغنى عن تجاربهم وبدأ بنائها هى وسورها وفق خطة مرسومة واضحة ، واستخدم فيها أحجارا تزيد أجمامها عن أحجام أحجار الهرم المدرج ومجموعته . وعثر فيها على تابوت من الألباستر فريد من نوعه ، وإن صعب توقيت عهده ، إن كان معاصرا لبناء المقبرة أم متأخرا عنه ، ويمتاز بوجود فتحة بابه فى أحد جانبيه القصيرين وليس فى أعلاه ، وكان غطاؤه الجانبي ينزل من أعلاه إلى أسفل ويمجرى فى مجرة رأسية ويستند فى أعلاه على إفريزين فى جسم التابوت . وعثر فى المصطبة على شئ آخر قليل القيمة المادية ولكنه يحل مشكلة تاريخية غامضة ، وهو عبارة عن بطاقة عاجية صغيرة تضمنت اسم « جسر تى عنخ » باعتباره اسما « نبتيا » لصاحب المصطبة ، وهو نفس الاسم الذى تضمنته القوائم الملكية بعد اسم جسر (زوسر) ولم يكن أحد يستطيع تعيين صاحبه^(٤٦) .

وتبقت للملك نفسه ، نقوش على بعض صخور شبه جزيرة سيناء ، صورته ثلاث مرات ، مرتين بتاج الصعيد ومرة بتاج الوجه البحرى ، وأظهرته فى هيئة فارعة يهوى بمقعدة القتال على أحد كبار أعدائه ، وصورت أمامه أميرا يحمل لقب « قائد الجيش »^(٤٧) ، وهو من أقدم الألقاب الحربية الكبيرة المعروفة حتى الآن من الدولة القديمة .

(٤٤) أو بين ٢٧٧٦ كما يظن شارف أو ٢٧٧٠ — ٢٧٦٩ كما يظن سيدنى سميث . (As. J. Arch. XLIX, 1945, 24).


(٤٥) أما فى عرف من رجحوا بداية التوقيت الى فجر التاريخ فقد حدث التوافق اربع مرات بدأت اولها بين ٤٢٤١ و ٤٢٣٦ ق . م

(٤٦) M.Z. GONEIM, Horus Sekhem-Khet, p. 18 f; 20, pl. LVI, LXVI.

GARDINER-PEET, Sinai, pl. I. (٤٧)

ولا يزال أمر الملوك سانخت ونب كا وخع با موضع جدل كبير ، وقد وجد الاسم الأول على عدة أختام ومختومات في مصطبة ضخمة في بيت خلاف قريبة من المصطبة التي وجدت بها أختام نثرخت . (٤٨)
 واحتفظ القصاص الشعبي بذكرى نب كا ، واعتبرته قصة السحرة (في بردية وستكار) من آباء خوزو الأولين ، وذكرته بعد اسم زوسر ، وروت أنه زار معبد پتاح في منف ، وزار في طريقه إليه دار كبير الكهنة المرتلين في عهده (٤٩) . وهي رواية لا تخلو من دلالة على الألفة بين الفراعنة ورجالهم ، وعلى أنهم لم يكونوا يأنفون من زيارة كبار هؤلاء الرجال في دورهم .

ويعتقد كورت زيته أن الاسمين سانخت ونب كا كانا للملك واحد (٥٠) وواقفه في ذلك على تحفظ كل من دريوتون وكيس (وإن كان كيس قد أصر من ناحيته على أن يعتبر نب كا سابقا لزوسر أو والداله — راجع ص ٣٠٠) .

وارتبط عهد " خع با " بتقليد ملكي جديد ربط فيه " خع با " بين اسمه وبين عبارة " حورنب " أو حورنوب  ، أي حور الذهبي ، على عكس ما بدأ به نثرخت أول ملوك الأسرة حين ربط بين اسمه وبين عبارة رع نوب . وأصبح اللقب الحديد يصف صاحبه بصفة الصقر الذهبي أو يؤكد اتسابه إلى حور المرموز إليه بصورة الصقر الذهبي (٥١) . ولا يزال السبب في الانتقال من لقب رع نوب إلى حور نوب غامضا غير معروف ، وإن رجح " شيفر " أن لقب حور نوب كان معروفا بالفعل في أسماء

(٤٨) — GARSTANG, *Bet Khallâf*, pl. 19. وعن خلط كتبه القوائم الملكية بين قراءة سانخت وساجر See, ERMAN, in ZÄS, XXXVIII, 115f. JEQUIER, in *Rec. Tr.* XXIX, 1-2; WEILL, II^e et III^e dyn., 140.

Berlin 1141-42; SETHE, *Unters.* III, 38; ERMAN, *Die Literatur*, 65; GARDINER, *op. cit.*, 419-20, 431, (٤٩) CERNY, in *M.D.A.I.K.* 1958, 25f.

يترجم شبيجل هذا الاسم « الكا هو المولى » أو الكاهن مولاي ، على اعتبار أنه كان ينطق نبى كا ، ويعتقد أن الكا ترمز إلى المعبود أوزير . (op. cit., S 219)
 وترجمه شيرنى نبى كاي بمعنى كاهى هي مولاي ، أونب كاي بمعنى كاهى سيد ، وقد كتبت كلمة سيد بمخصص المعبود حور وذلك مما يضعف تخمين شبيجل .

SETHE, *op. cit.*, 38. (٥٠)

PETRIE, *History*, 10th ed., 77; WEILL, II^e et III^e dyn., 92, 496; ARKELL, in *J.E.A.* 1956. (٥١)
 See *Wb.* II, 240; GARDINER, *Eg. Grammar*, 71-73; ZÄS XXIX, 117; *Urk.* وعن المعنى المقبول للقب IV, 161, 2; WEILL *Recherches*, I, 2 f;

المدن منذ عصر بداية الأسرات واعتبره هوجو ميلر تطورا للقب زن نوب الذى ظهر منذ عصر الأسرة الأولى (٥٢) .

احتفظت منطقة زاوية العريان إلى الجنوب من الجيزة بقليل بأثرين كبيرين ذهب الترجيح إلى نسبتها إلى ملكين من ملوك الأسرة الثالثة ، أحدهما هرم معقد التركيب يسمى اصطلاحا باسم الهرم ذى الطبقات (٥٣) والآخر بر صخمة منحوتة فى الصخر بعناية كبيرة أراد صاحبها أن يقيم فوقها هرما ولكن لم يسعفه الأجل أو لم تسعفه الإمكانيات المادية لتنفيذ مشروعه (٥٤) . ويتجه الرأى الغالب إلى نسبة أحد الأثرين إلى الملك نب كا ونسبة الآخر إلى الملك خع با ولكن دون تخصيص قاطع .

وأضافت قوائم الملوك ملكين من ملوك الأسرة يتداخل فى اسميهما اسم رع فذكرت قائمة سقارة ملكا باسم نب كارع ، وذكرت قائمة أبيدوس ملكا آخر باسم نفر كا رع (٥٥) ، وكل من الملكين يصعب تعيين ترتيبه فى الأسرة بل ويعصب التأكد من صحة اسمه ، وقد يكون كلاهما تحريفا لاسم نب كا . بيد أنه إذا صح أحد الاسمين أو كلاهما فإنه يدل من غير شك على ازدياد اعتراف ملوك الأسرة بمنزلة رع أو عبادته لا سيما أن بعضا من كبار موظفيهم قد تسموا بأسماء يتداخل فيها اسم رع مثل حسي رع .

وانتهت أيام الأسرة الثالثة بالملك حونى ، وهو ملك ذكرت بردية تورين أنه حكم أربعة وعشرين عاما (٥٦) ، وشاد له مهندسوه هرما ضخما فى منطقة ميدوم غيروا تصحيحه أكثر من مرة وجعلوه فى نهاية أمره على هيئة هرم مدرج ذى ثمان درجات كاملة ، وبدأوا فى كساء درجاته بأحجار جيرية بيضاء ، ولكن

H. SCHÄFER, in Mitt. Kairo, IV, 10; cf. PETRIE, R. T. I, XXVIII, 76, XXIX, 83. (٥٢)

ويرى ميلر أن اللقب كان فى بدايته يصف معبودا مبهما انتسب الملوك اليه ، أو يصف الملك نفسه وأنه عندما اتجهت الملكية نحو الشمال فى بداية الاسرة الثالثة نسبت اللقب الى المعبود رع ووصفته به ، غير أن رع لم يستطع أن يحتفظ باللقب فتنحى عنه لمنافسه حور راعى الملكية القديم (MÜLLER, Die Formale, 54, 56-7).

BARASANTI, in Ann. S. II, 92f; REISNER, in Bul. Boston M., IX, 56f. LAUER, La Problème des Pyramides d'Egypte, 1952, 74. (٥٣)

BARASANTI, in Ann. S. VII, 260f; VIII, 201 f., XII, 57f; REISNER, Development of Eg. Tomb, (٥٤) 151 f; LAUER, op. cit. 76-77.

(٥٥) كتب اسمه هو الآخر بالمداد الأحمر على بعض أحجارهم زاوية العريان ، ولكن ليس ما يعرف ان كانت كتابته عاصرت بناء الهرم أم أضيفت فى عصر متأخر .

R. WEILL, II^e et III^e dyn. 434f; and compare Recherches, I, 165, 323.

Turin, III, 8.; SCHÄFER, in ZÄS, LII, 98f; A.H. GARDINER, in J.E.A. XXXII, pl. 14, 1.7.; and compare WEILL, op. cit. 164. (٥٦)

قرأ جاردنر اسمه "حو"

وترجم شيفر اسمه بمعنى « الضارب » فهل لذلك معنى خاص ؟

ملكهم مات قبل أن يتموه ، فأتموه في عهد ولده سنفرو أول ملوك الأسرة الرابعة ، واستفادوا من نجارب عهده لإنشاء هرم كامل حاد الزوايا مستوى الخطوط ، وعملوا بإذنه ، أى بإذن سنفرو ، على تنفيذ هذا التجديد في هرم أبيه ، فملاءوا الفراغات بين درجاته بالأحجار وكسوه ببلاطات جيرية كبيرة ليكون مستوى الجوانب أو ليتخذ هيئة الهرم الكامل ، ولأسنا ندرى مدى نجاحهم في تحمق هذه الغاية ، إذ تهدمت أغلب أجزاء الهرم ولم يتبق منه غير نحو ثلث ارتفاعه الأصلي .

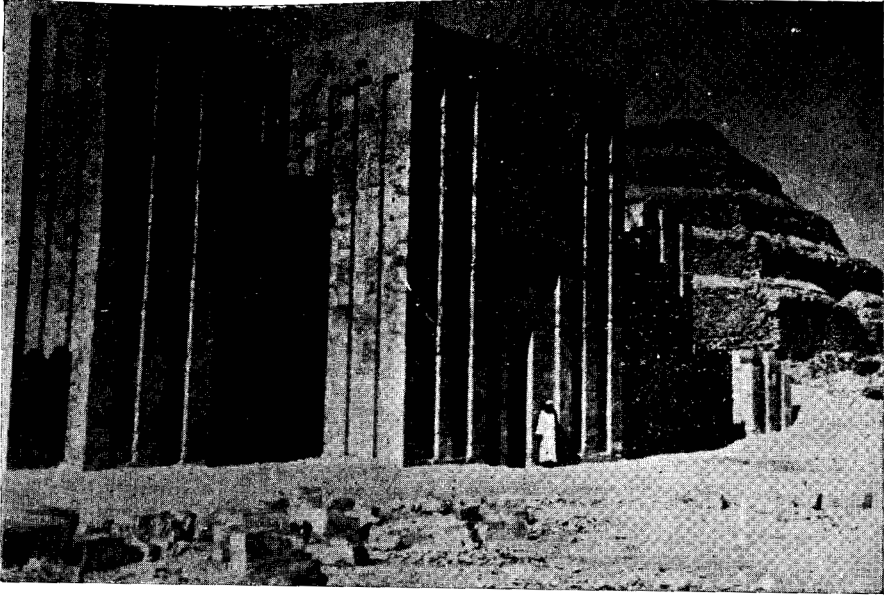
وأضاف المهندسون للهرم معبدين في عهد سنفرو ، معبدا يلاصق واجهته الشرقية ومعبدا يقوم عند اتصال أرض الهضبة التي شادوا الهرم فوقها بأرض الوادى المنزوع . وظل المعبدان يزاران بعد قرون طويلة من إنشائهما واعداد زائرهما على نسبتهما إلى سنفرو الذى شيدا في عهده أكثر من نسبتهما إلى حونى الذى شيدا من أجله ، وسوف نعود إلى أغراض هذين المعبدين وأهميتهما بعد قليل .

لم تقتصر مشكلات الأسرة الثالثة على أسماء ملوكها الأواخر وترتيبهم فحسب ، وإنما امتدت كذلك إلى حقيقة عدد من المقابر الضخمة تفرقت في جهات متفرقة من الصعيد ومصر الوسطى ، ومن هذه المقابر هرم الكولا في منطقة الكاب في أقصى الصعيد ، ومقبرة في نوبت قرب قنا ، ومقبرة في زاوية الميزن تجاه المنيا ، وهرم سيلا في الفيوم . واستنتج إدوارد ماير من تفرقها بين الصعيد ومصر الوسطى ، فضلا عن تفرق بقية أهرام الأسرة بين سقارة وزاوية العريان وميدوم ، أن عاصمة الملك لم تسنطع أن تستقر خلال الأسرة الثالثة في مكان واحد ، وأنه من المحتمل أن تكون وحدة البلاد قد تفككت في أعقاب عهد زوسر^(٥٧) . وسوف نتبين من موضوعنا التالى أن هذا الاستنتاج لا يخلو من شك كبير . ونكتفى هنا من قرآن الشك فيه أنه على حين أكد بعض الباحثين الحديثين رد هذه المقابر إلى عصر الثالثة ، رد Reisner بعضها إلى عصر الأسرة الثانية ، بينما رد Lauer بعضها الآخر إلى عصر الأسرة الرابعة .^(٥٨)

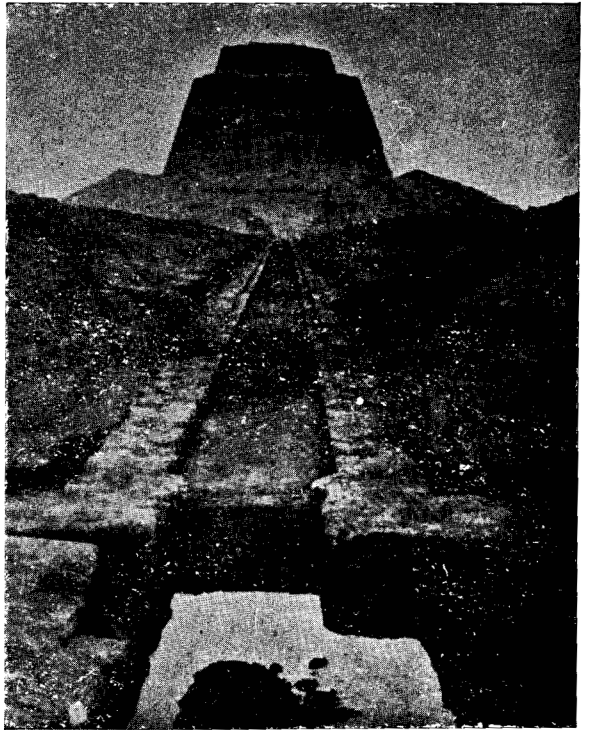
ED. MEYER. Geschichte, § 231, also H. JUNKER, Die politische Lehre von Memphis, 1941. (٥٧)

J. STENON, in Chr. d'Ég. 1950, 43 f.; LECANT, in Orientalia, 1950, 361; REISNER, Development, 134 f.; (٥٨)

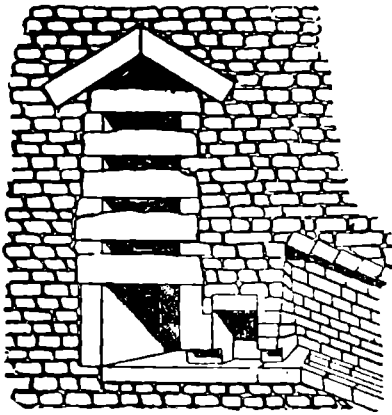
VANDIER, op cit., 942 n.3.



شكل ٤٣ — السور ذو المشكاوات حول مجرعة زوسر في سقارة



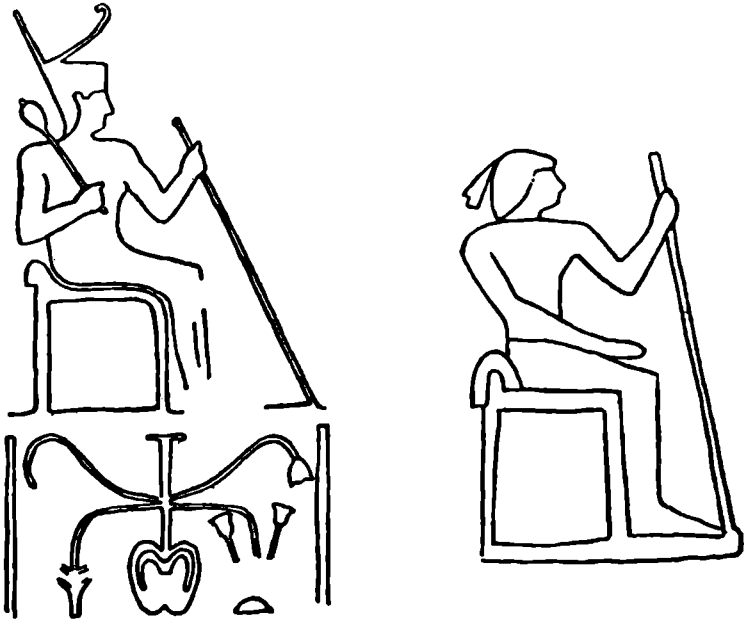
شكل ٤٤ — هرم حوفى فى ميدوم



شكل ٤٥ — قطاع فى عمارة حجره الدفن
والسقفوف التى تعلوها فى هرم خوفو



شكل ٤٦ — نقش بارع يصور سنفرو يستنشق عبير العاقبة من ربة سخمة

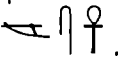


شكل ٤٧ — (أ) (إلى اليمين) سنفرو في حياته العادية كما صورته فان زوجته حوتب حرس
(ب) (إلى اليسار) خوفو في جلسة رسمية كما صورته فان في حنوب

ب - في عصر الأسرة الرابعة

(٢٦٨٠ - ٢٥٦٠* ق. م.)

ظهرت في تعليل انتقال مقاليد الحكم من الأسرة الثالثة إلى الأسرة الرابعة وجهتان : وجهة اعتمد أصحابها على القرائن الأثرية والأدبية ، وأخرى اعتمد أصحابها على القرائن الأسطورية والدينية .

ورأى أصحاب الواجهة الأولى ومنهم G. A. Reisner, and W.S. Smith أن انتقال أزمة الأمور من الأسرة الثالثة إلى الأسرة الرابعة تم بطريقة سلمية طبيعية^(٥٩) ، وأن أم سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة كانت تدعى مرس عنخ  وهي ملكة ذكرت في قائمة بالرمو^(٦٠) واحتفظ المصريون بذكرها حتى أوائل الدولة الحديثة فسجل كاتب من عصر الأسرة الثامنة عشرة اسمها داخل خرطوش على جانب من معبد هرم حوني في ميدوم بعد وفاتها بأكثر من ألف عام^(٦١) . واستنتج أصحاب هذا الاتجاه أن مرس عنخ أم سنفرو كانت زوجة لحوني آخر ملوك الأسرة الثالثة وصاحب هرم ميدوم ولكنها لم تكن زوجته الأولى (و ربما لم يتوفر لها الدم الملكي الخالص) فتقدمت عليها زوجة أخرى (ذات دم ملكي خالص) أنجبت منه بنتا وولدا ، أما الإبنة فسميت حوتب حرس ، وأما الابن ، وهو وولي العهد ، فلم يعرف اسمه حتى الآن ، وذهب الظن إلى أنه مات في أواخر عهد أبيه وأنه دفن في المصطبة رقم ١٧ في ميدوم قرب هرم أبيه^(٦٢) وانحصرت شرعية وراثته العرش بعد وفاته في أخته حوتب حرس ، ولكن لما كان أهل العصر لم يكونوا قد ألفوا حكم الإناث منفردات ، زوج حوني ابنته وريثة العرش من ولده الذي أنجبه من مرس عنخ تجنبنا للخلاف بين فروع الضرتين ولتنقل إليه الصبغة الشرعية الكاملة في اعتلاء العرش . واحتفظ سنفرو لزوجته بمكاتها فسمح لها بأن تتلقب بلقب معتبر وهو "سات نثر" بمعنى بنت الرب^(٦٣) .

ومات حوني بعد أن حكم أربعة وعشرين عاما وولي سنفرو العرش وظل وفيها لذكرى أبيه وعمل بمعاونة مهندسيه على الاستفادة من خبرات عهده في إتمام هرمه ومعبيده في ميدوم ، وعندما أراد أحد أدباء الدولة الوسطى أن يعبر عن انتقال العرش من الأول إلى الثاني قال : " وبعد أن توفي جلالته الملك حوني نصب جلالته الملك سنفرو باعتباره ملكا فاضلا في هذه الدنيا كلها"^(٦٤) .

G.A. REISNER, A History of Giza Necropolis II, The Tomb of Hetep-Heres, Cambridge 1955; 1 f. ; (٥٩)
W.S. SMITH, in J.N.E.S. 1952, 113 f.

GRDSELOFF, in Ann. S. XLII, 118. (٦٠)

PETRIE, Medum, pl. XXXIII, 19. (٦١)

REISNER, op. cit., 5. (٦٢)

Ibid., 1; SMITH, op. cit., 125 (٦٣)

J.E.A. XXXII, pl. XIV, 7. (٦٤)

هذه هي الوجهة الأولى التي نهجها كل من جورج ريزنر وسيقنسن سميت . أما الوجهة الأخرى فقد رتبها أصحابها على المشكلات التي أسلفناها في صفحة ٣٢٠ عن تفرق لآثار المنسوبة إلى ملوك الأسرة الثالثة في جهات مختلفة من الطر ، وبنوا عليها قضايا واسعة ، استعانوا فيها بالأساطير السياسية والمذهبية وبعض الظواهر التاريخية ، وعرضها عنهم يواقيم شديداً في كتابه الأخير عن حضارة الدولة القديمة (عام ١٩٥٣) ، ولن نجد مناصاً من مناقشتها مناقشة تفصيلية وعرض ماتضمنه من قيم حضارية طريفة ، على أن تتبع في مناقشتها ما اتبعناه في مناقشة نشأة الأسرة الثالثة ، من حيث عرضها بحروف تخلف عن حروف المتن ، ليشارك فيها من استطاع متابعتها ، وتجاوز عنها من تصعب عليه متابعتها .

يعتقد بعض أصحاب هذا الرأي أن الأسرة الرابعة كانت بداية لوحدة سياسية جديدة وأن وفاة زومرؤس الأسرة الثالثة أعقبا انقسام الدولة إلى مملكتين مملكة في الوجه القبلي ومملكة في الوجه البحري ، واستمر الانقسام في اعتقادهم حتى تدخل فيه حكام إقليم الأشمونين في مصر الوسطى وكانوا يمتون بصلة اقربى إلى البيت الحاكم القديم ، بيت زومر ، وناصروا حوني واعتبروه الوريث الشرعي لعرش زومر ولكن حوني لم يستطع إعادة وحدة البلاد كاملة (٦٥) ، ولما مات انتهت الأسرة الثالثة وورث العرش بعده ابنته حوتب حرس ولكنها لم تل الملك وحدها وإنما نقلت حق الحكم إلى زوج من غير أمرتها وهو سنفر وأر بمعنى آخر نقلت إليه الحق الأوزيري المقدس الذي امتدت إليه أمرتها الثالثة القديمة في حكمها . واعتمد أصحاب هذا الاتجاه على تفسير خاص للجانب السيامي والأسطوري في المذهب المنفي (لوحه شابا كا) .

وقص هذا المذهب أحدانا سياسية قديمة في عبارات أسطورية غامضة ذكر فيها أن أوزير صاحب العرش كان له شأنه في دارسكر (أي إنب بح) وأنه غرق فيها ، وأن نزاعاً عنيفاً نشب بعد موته بين الملكين حوروست ، وأن بعض معارك الخمصين حدثت في برعما أي دار الحرب قريبا من منطقة مصر العتيقة الحالية ، وذكر أن جب رب الأرض ووالد أوزير حاول أن يفصل بين الخمصين ويحسم نزاعهما فقسم المملكة بينهما قسمين عند « بركة السمك » وكان اسما لمنطقة أحاطت بتلال المقطم والقاهرة الحالية وامتدت جنوبا إلى مصر العتيقة ، فجعل ست ملكا على الصعيد بحيث يمتد ملكه شمالا حتى بلدة سو التي ولد فيها (قرب الفيوم) ، كما جعل حور ملكا على الوجه البحري وجعل ملكة يمتد حتى الموضع الذي غرق فيه أبوه عند إنب بح ، وبذلك انقسمت المملكة قسمين ورضى كل من حوروست بنصيبه فيها . ولكن جب تبين أنه أبجف حفيده حور حقه فرجع في حكمه وأعلنه ملكا على الوجهين وتوجه بالتاجين في مدينة إنب بح التي أصبحت تعرف باسم ميزان الأرضين «مخات تاوى» إشارة إلى توسطها بينهما وقيام حكمها على القسطاس المستقيم ، واضطر ست إلى قبول هذا الحكم ورضى به . وهكذا استقر أوزير (ثانية) في أرض حصن المملكة وتجلى ولده حور ملكا على الصعيد وملك على الدلتا بين ذراعي أبيه أوزير شأنه شأن الأرباب (والمملوك) الذين من قبله والذين من بعده .

رد كورت زيته وأدولف إرمان وچيمس پرستد وغيرهم (٦٦) حادث الانقسام السيامي الذي رمز المذهب المنفي إليه إلى ما قبل الأمرات ، وردوا توحيد الوجهين الذي يذكر النص أنه تم في مدينة إنب بح إلى عهد إنشاء هذه المدينة في بداية الأسرة الأولى .

S. SCHOTT, Mythe und Mythenbildung, Leipzig 1945; J. SPIEGEL, Das Werden der Altäg. (٦٥) Hochkultur..., Heidelberg, 1953, § 273. f.

BREASTED, in ZÄS, XXIX, 39 54; A. ERMANN, Ein Denkmal memphitischer Theologie, 1911, 916 f. (٦٦) SETHE, Drammatische Texte, Teil I, 4-5, 18; H. FRANKFORT, Birth of Civilisation. p. 80 f; Kingship and Gods, ch. II

غير أن كلا من درمان كيبس وهرمان يونكر وسيجفريد شوث و يواكيم شبيجل ، عارضوا هذا الاستنتاج وأكدوا أن تأليف المذهب المنفى لم يسبق أوائل الدولة القديمة (٦٧) وافترض بعضهم أنه تم في بداية الأسرة الرابعة (٦٨) وأن الانشقاق السياسى الذى ألمح إليه حدث خلال عصر الأسرة الثالثة . وقد موافق في سبيل تركية هذه الاستنتاجات الجديدة قرائن كثيرة لا تخلو من وجهة ولكنها لا تخلو كذلك من خايط ويمكن عرضها بعد ترتيبها على النحو التالى :

١ — أن حور الذى صور المذهب المنفى انتصاره على ست ظهر فى نصوص المذهب على هيئة ملك الوجه البحرى ومعبوده ، على حين أن حور الذى انتصر به ملوك لأسرة الأولى ووحدا الدلتا والصعيد تحت رايته كان زبا لمدينة نحن عاصمة الصعيد القديمة ، وذلك مما يعنى أنه لاصلة للذدب بأحداث الأسرة الأولى وما قبلها .

٢ — أن تأليف المذهب المنفى بجوانبه الفلسفية والسياسية والأسطورية كان يتطلب نضجا فكريا لم يكن من السهل أن يصل إليه أهل إنب حج قبل أن يقطعوا فى حياتهم الحضارية التاريخية أشواطا طويلة ، وبمعنى آخر لم يكن من السهل أن يصلوا إليه قبل أوائل الدولة القديمة ورمابقبل الأسرة الرابعة بالذات .

٣ — أن لأهمية السياسية لمدينة إنب حج لم تتضح إلا فى العهد قومه ، عهد زوسر ، وبالتالي لم يكن لها أن تصبح قاعدة للقضاء الذى حكم به جب قبل عهده .

٤ — أن خلفاء زوسر ، على الرغم من كثرتهم ، لم يحكموا غير مدة قصيرة تتراوح ما بين الثلاثين والخمسين عاما وذلك يعنى اضطراب عهودهم ، فضلا عن أن تفرق آثارهم بين مناطق متباعدة يعنى أن عاصمتهم لم تستقر فى مكان واحد وأنه عز عليهم أن يسطوا سلطانهم على القطر كله .

٥ — أنه يدل على نسبة بيت الأسرة الرابعة إلى إقليم الأشمونين وجود هرم كبيرها فى ميدوم (أى هرم حوفى وإن ظن شبيجل أنه هرم سفرو) ، بعيدا عن سفارة بنحو ٥٠ كم . ، وتسمية ابن مؤسسها باسم خنوم خوفوى (وهو المشهور باسم خوفو) ، وكان خنوم هذا الذى انتسب الابن إليه ، لها يقدر فى بلدة هور قرب الأشمونين ، ثم وجود قرية قرب الأشمونين أيضا نسبت إلى الابن نفسه وسميت باسم منعة خوفو أى مرضعة خوفو (٦٩)

٦ — أن منطقة ميدوم التى قام فيها هرم جد الأسرة (أو مؤسسها على حد قول شبيجل) . كانت قريبة من بلدة سوتالى جعلها المذهب المنفى نهاية لملك ست الصعيدى ، وقرية من إقليم أطفيح الذى رمز المصريون إليه بصورة السكين ، إشارة إلى اعتباره حدا سياسيا بين ملك ست وملك حور .

٧ — أنه يدل على أثر زعماء الأشمونين فى قيام الأسرة الرابعة ومساعدتهم لمؤسسها على استعادة وحدة البلاد تحت حكمه ، ما ذكره المذهب المنفى من قيام المعبود جب بدور الفيصل بين حور وست وتجزئه إلى جانب حور الذى تقص مؤسس الأسرة الرابعة شخصيته ، وإصراره على أن يعهد إليه بحكم مصر كلها ، وكان جب قيا اعتقد سيغفريد شوث من أرباب الأشمونين أصلا ثم تشبه بالمعبود بتاح رب منف فى بداية الأسرة الرابعة ، وتحدث باسمه فى نصوص المذهب المنفى كما تحدث باسمه فى متون الأهرام (٧٠) . وأضاف شبيجل إلى ذلك أن الأشمونين

H. JUNKER, *Götterlehre*, 6 f; *Die politische Lehre*, 13, 15; S. SCHOTT, *Mythe und Mythenbildung*, (٦٧) 117, 119.

See SPIEGEL, in *Handbuch der Orientalistik*, Band I, Ab. II, *Ägyptologie, Literatur*, 121-122. (٦٨)

NEWBERRY, *Beni Hasan*, ٤١; GAUTHIER, *Dict. Géog.*, III, 36, see also J.H. BREASTED, *A History of* (٦٩) *Egypt*, (New Edition), 1956, 116. وان كان برستد قد جعل خوفو رأس الأسرة الرابعة .

SCHOTT, *Mythe*, 26-27, 119, 134; compare, SETHE, *op. cit.*, 141 f; KEES, *Götter*, 227, HELCK, *Erbfürst*. (٧٠)

بلغت حينذاك من الرقي الفكرى ما سمح لها بأن تخرج بمذهبا عن نشأة الوجود خلال عصر الأسرة الثالثة أو فى أوائل عصر الأسرة الرابعة ، وأن دور جب فى المذهب المنفى لم يتأثر بمذهب عين شمس وإنما تأثر بمذهب الأشمونين بالذات .

٨ — أنه دل على اعتراف ملوك الأسرة الجديدة بفضل أرباب الأشمونين أن المذهب المنفى جعل للعبود تحوق نصيبا فيه وجعله بمثابة اللسان للعبود بتاح تاتن ، وكان تحوق من أرباب الأشمونين ، وقد اعترت به الأسرة الرابعة ، وتلقبت بعض ملكاتها بلقب الكهانة له ، وتلقب كثير من أمرائها بلقب كبير الخمسة فى دار تحوق .

٩ — أن سنفرو مؤسس الأسرة الجديدة ظهر فى أغلب صورته وتماثيله المعروفة بتاج الدلتا دون تاج الصعيد ، وذلك مما يعنى أنه كان لا يزال يحن إلى الوجه البحرى وما يتبعه من مصر الوسطى دون الصعيد (٧١) .

*
*
*

لا تخلو القران السابقة من وجاهة كما أسلفنا ولا تخلو من جهد وجدة ، ولكن كثيرا من قضاياها يمكن تفسيره على غير ما فسره ، ومن ذلك :

١ — أن رد تأليف المذهب إلى عصر النضج السرى فى أوائل الدولة القديمة رأى لا بأس من قبوله ، ولكن ليس من الضرورى أن يكون المذهب قد رمز إلى أحداث سياسية وقعت قبل تأليفه مباشرة ، وإنما لا يستبعد أنه رمز إلى أحداث وقعت قبل عصره بفترة طويلة وسممها أهله على هيئة الرواية ثم سجلوها بعد أن نسجوها على هيئة الأساطير .

٢ — أن التمييز بين حور الوجه البحرى الذى صورته المذهب المنفى وبين حور الذى حارب مؤسس الأسرة الأولى تحت رايته ، تمييز منطوقى غاية ، ولكن ألا يكون الأمر قد التبس على مؤلفى المذهب فصوّروا حورا بصورة التى أنوها فى عصرهم وهى صورة كانت تظهره بتاج الوجه البحرى فى أغلب أحواله ؟

٣ — أن الأهمية السياسية لمدينة إبـ بح لم تبدأ ببداية الأسرة الثالثة ، وإنما دلت على قدمها ضخامة مصاطب الموظفين الذين كانوا يعملون فيها أو عن قرب منها منذ الأسرة الأولى فى سقارة .

٤ — أنه ليس ما يؤكد قصر مدد حكم خلفاء زوسر فى الأسرة الثالثة ، وإنما ذكرت بردية تورين لآخرهم حوقى ٢٤٢٤ ، فلا يقبل إذن أن يكون الباكون قد حكموا فى بقية الثلاثين عاما أو الخمسين عاما المفروضة ، ولهذا اعتبر Albright مدد حكمهم سبعين عاما أو أكثر قليلا .

• — أن تفرق آثار خلفاء زوسر ، وإن كان لا يزال مشكلة تنتظر الحل ، إلا أنه ليس من الضرورى أن يدل على أن أصحاب هذه الآثار فشلوا فى السيطرة على مصر كلها ، فبما وجدت آثار سخم خت فى سقارة وسينا وجدت كذلك فى مقبرة أحد كبار موظفيه فى بيت خلاف فى قلب الصعيد ، وذلك مما يعنى أن صاحب المقبرة كان يعترف بسلطان ملكه فى إقليم قنا الذى عاش فيه . وصورت مناظر سيناء الملك نفسه بتاج الصعيد وتاج الدلتا وذلك مما يرجح أنه بسط سلطانه على الوجهين فعلا .

وإذا كان الملك نيبكا من أواخر ملوك الأسرة الثالثة حقا ، وهذا هو المرشح ، فإنه يلاحظ أن قصة السحرة التى ردت حوادتها الأخيرة إلى عهد خوفو ، مجدت ذكراه وأشارت إلى زيارته لمدينة إبـ بح وزيارته لمعبدها ، واعتبرته من آباء خوفو الأقدمين ، ولو كان ملكا من ملوك الانقسام ، أو ملكا غير شرعى لأقلقت اسمه وتفاضت عن ذكراه

٦ — أنه إذا صح جدلا أن بيت الأسرة الرابعة الحاكمة كان ذا صلة بإقليم الأشمونين فإن هذه الصلة ليس من الضرورى أن تكون قد ترتبت على انقسام سيامى سبقتها ، وإنما يكفى أن نتخذ قرينة على احتمال نسبة مرس عنخ أم سنفرو التى لم يتوفر لها الدم الملكى الخالص ، إلى ذلك الإقليم فحسب . وذلك مع ملاحظة أن حوقى نسب ابنه سنفرو فى اسمه الكامل إلى بتاح رب إبـ بح بالذات فهما بتاح سنفرو ، بمعنى بتاح جملنى . . .

٧ — يلاحظ أن المسافة التي تفصل بين هرم ميدوم قرب الواسطى وبين إقليم الأشمونين (في المنيا) تزيد كثيرا عن المسافة بينه وبين مدينة إتب سح ، وأن جبانة ميدوم يمكن أن تعتبر امتدادا لجبانة سقارة في الصحراء الغربية ، وأن اختيار حوتى لها لبناء هرمه يمكن أن يعلل تعلقا عمليا ، فقد كان الرجل بسبيل تنفيذ مشروع لم يسبقه إليه غيره ، وهو مشروع بناء هرم كامل وبأحجار تزيد أبحاها عن أحجام أحجار المستخدمة في مقابر أسلافه ، وكان القرب من النهر عاملا مهما في نظر مهندس البناء ، لاستخدامه حين الفيضان في نقل أحجار كساء الهرم من محاجرها المناسبة ونقل أحجار الجرانيت من محاجرها البعيدة ، فضلا عن نقل ضروريات العمل والعمال ، وكان فيضان النيل يصل إلى مبعده ٢٥٠ ياردة فقط من موضع هرم ميدوم ، بينما كان يصل عند دهشور وأبى رواش على مبعده ميل تقريبا ، ويصل عند الجزيرة على مبعده ربع ميل .

وكل ذلك مما يعنى أن ارتباط بلدة سوتى التي انتهى عندها ملك سوت بمنطقة ميدوم التي قام فيها هرم حوتى ، وإقليم لإطفيح الذى كتب المصريون اسمه بمخصص السكين ، هو ارتباط يمكن استخدامه في قضية سياسية أخرى غير قضية منشأ الأسرة الرابعة بالذات .


٨ — يلاحظ أن نسبة خوفو إلى خنوم رب هور في مصر الوسطى ، وإن كانت نسبة مقبولة إلا أنها ليست النسبة الوحيدة المقبولة ، فالمعبود خنوم الذى انتسب خوفو إليه كان يقدس عند المصريين بوجه عام باعتباره المعبود الذى يتكفل بتكوين الإنسان من الصلصال ، وكان ينسب إلى مناطق كثيرة مثل سوان وإسنا بل ومف الى انتسب أبوه إلى رها أيضا . وهكذا الأمر بالنسبة إلى تسمية إحدى قرى الأشمونين باسم منعة خوفو أى مرضعة خوفو ، فهذه التسمية وإن كان من المحتمل أن تدل على مولد خوفو فيها فعلا إلا أنه ليس من المستبعد في الوقت نفسه أنها كانت تعنى نسبة مرضعته إليها وليس نسبته هو إليها ، أو تعنى أنه كافأها بها بعد أن ولى العرش فنسبها الناس إليها .

٩ — أنه إذا صح جدلا تشبيه جب يتباح في متون الأهرام ، كما رأى شوت ، فليس من قرينة مقبولة إطلاقا على بداية هذا التشبيه منذ الأسرة الرابعة ، أو على رده إلى الأشمونين وتأثير دوره في المذهب المنفى بمذهب الأشمونين . فالمذهب المنفى لم يشر إلى ارتباط جب بالنامون صراحة وإنما أشار على العكس إلى تاسوع حين شمس وذكر أنهم تمثلوا في شخص جب ، وأضاف أنهم استمعوا إلى عرضه لقضية حور ورضوا بحكمه فيها .

١٠ — أما بالنسبة إلى تحوتى فقد ذكره المذهب المنفى في سياق جانبه الدينى ، ولم يجعل له دورا سياسيا ، (على عكس ما ظهر به في ريدية الرمسوم التي ردها شوت إلى أوائل الأسرة الثالثة) — ولم تكن كهانة الملكة في الأسرة الرابعة فاصرة على تحوتى وحده وإنما ضمت إليه كثيرا من الأرباب والربات الذين لم يكن لهم في السياسة نصيب .

١١ — أن بقاء صور سنفر وبتاج الوجه البحرى ورموزه قد يرجع إلى الصدفة وحدها ، لاسيا وأن بعض بقايا الصور المنقوشة والتماثيل التي وجدت في معبد السد الذى أقامه له رجاله قرب هرمه في دهشور مثلته بتاج الصعيد (٧٢) ، بل إن الرجل لو كان من أهل الوجه البحرى بالفعل لتمعد أن يظهر بتاج الصعيد ليؤكد سيطرته عليه .

ونخلص من هذه المناقشة بترجيح الاتجاه التاريخى الأول ، وهو أن انتقال العرش من الأسرة الثالثة إلى الأسرة الرابعة كان انتقالا طبيعيا ، وأن كلا من الأسرتين تمت بالقرابة للآخرى ، وأنه ليس من ضرورة لاقتراض انشقاق سياسى في الأسرة الثالثة أو ظهور وحدة سياسية جديدة في الأسرة الرابعة .

على أنه مهما يكن من أمر هذه المشكلات كلها ، فليس من شك في أن عهد سنفرو  أو بتاح سنفروى كما سماه أبوه^(٧٣) ، بمعنى الإله بتاح جللى ، كان بشيرا بعصر جديد ، اتسع خلاله نشاط مصر التجارى مع جيرانها ، وامتد نشاطها العسكرى فيه إلى نهايات حدودها الجنوبية والشمالية والشرقية والغربية ، وتطورت فيه عمائرها وفنونها تطورا واسعا .

فاتسع نطاق تبادلها التجارى مع فنيقيا في شمالها الشرقى ، وسجلت حوالي سنفرو في قائمة بالرمو عودة أربعين سفينة محملة بأخشاب « عش » خلال عام واحد من أعوام حكمه^(٧٤) ، وهى أخشاب استخدمها رجاله في تشييد سفن كبيرة ذكرت الحوليات نفسها أن بعضها بلغ طوله مائة ذراع أى نحو اثنين وخمسين مترا ، كما استخدموها في صناعة أبواب قصوره وفي بعض الأجزاء الداخلية من هرمه ، ويبدو أن عهده كان ذا اهتمام خاص بالملاحة ، إذ ذكرت حولياته مشروعا لتشييد ستين سفينة لكل سفينة منها ستة عشر مجدانا ، دفعة واحدة^(٧٥) .

وسجلت الحوليات نفسها نشادا عسكريا واسعا في سبيل تأمين الحدود الجنوبية والغربية وتعويد أهلها على النظام والطاعة ، وذكرت مع هذا النشاط سبعة آلاف أسير من الجنوب وألف أسير ومائة من الغرب و ١٣١٠٠ رأس من الماعز والأغنام^(٧٦) . وهى آلاف تدل في أغلب الظن على أعداد من أعلنوا له الخضوع والطاعة في أرضهم وأعداد مواشيهم ، دون أن تدل على أسرى فعلين وغنائم منقولة ، هذا إذا لم تكن من مبالغات تقارير الحروب المعتادة التى لا تختلف في شئ عن مبالغات تقارير الحروب حتى عصرنا الحاضر .

وتوفر لعهد سنفرو نشاط مماثل لدى الحدود الشرقية وفي شبه جزيرة سيناء ، وكانت لسيناء أهمية كبيرة في اقتصاديات البلاد وصناعاتها ، إذ ظلت المورد الرئيسى للفيروز والذهب والأمازوتيت والفلسبار الأخضر والنحاس الخليط ، وسماها المصريون مدرجات الفيروز^(٧٧) ، وكان تحف بطرق التجارة البرية بين مصر وفلسطين . غير أنها لتطرفها وآساعها وصحراويتها ظلت مهبطا لقبائل بدوية يدفعها الفقر

(٧٣) ذكر مانيتون رأس الأسرة باسم سوريس وقرب جوتيه بينه وبين اسم ملكى آخر كتب على صخرة في الكاب وهو « شارو » أو « شا اورو » ، ولكن ليس ما يعرف عن هذا الاسم الأخير ان كان اسما ثانيا للملك خوفو بن سنفرو أم لآحد اخوته أم لآحد أبناء اخوته .

See GAUTHIER, L. R. I, 75 ; SETHE, in ZÄS XXXVII, 44 ; REISNER, The Tomb of Hetep- Heres, 9, وإذا صح أحد هذه التفسيرات كان الاسم الاغريقى لسنفرو اقرب الى سيفوريس الذى ذكره مانيتون خطأ في نهاية الأسرة الثالثة . (See MÜLLER, Die Formale, 29, 31).

Palermo, rt. VI, 2 and see Wb. II, 228 for "Akies clicia" wood. (٧٤)

Urk. I, 236 (٧٥)

Ibid, 236-237. (٧٦)

(٧٧) V. LOBET, in Kemi 1928, 99 f.; KEES, Kulturgeschichte., 126 f. — لوكاس : المواد والصناعات عند قدماء المصريين - ٢٢٧ + ٦٢٥٦ وما بعدها .

من حين إلى حين إلى تهديد بعثات الاستيوار وقوافل التجارة والاعتداء عليها ونهب مؤننها وبضاعتها ،
وتعين لذلك على أهل الحكم في مصر القديمة أن يعملوا على حماية بعثاتهم وقوافلهم بقوات عسكرية تكفل
لها الأمان والهيبة ، ولم يكن الأمر يخلو من معارك حربية بين قوات الحكومة وبين البدو ، وحرص
قادة هذه القوات على أن يسجلوا انتصاراتهم على صحور سيناء ولا سيما صحور وادي مغارة ، وينسبوا
إلى فرعون عصرهم ويصوّروه على الصخر وهو يؤدب أمير شيوخ البدو ويهوى على رأسه بمجمعه .
واحتفظت صحور وادي مغارة بصورة من هذا القبيل لسنفرو ، تعتبر آية من آيات الفن في عصره ،
على الرغم من أنها نقشت على صخر رديء^(٧٨) . وظلت ذكرى سنفرو ماثلة في شبه جزيرة سيناء أجيالا
طويلة ، واعتبره خلفاؤه من حماتها ، وقدسوه فيها ، وضموه إلى أربابها ورعائها^(٧٩) . وظلت بعض
مواضع الحراسة على الحدود الشمالية الشرقية تعرف باسمه حتى عصر الدولة الوسطى على أقل تقدير^(٨٠) ،
وذلك مما يدفع إلى الظن بأنه أقام استحكامات حدودية فيها .

وضحت نتائج النشاط التجاري والحربي في عهد سنفرو ، في آثاره وآثار أسرته ، وفي نصوص
رعاياه . وسمح رعاء عهد لرجاله بأن يشيدوا له هرمين عظيمين بمعايدهما في منطقة دهشور وأن يكافوا
هرم أبيه حوى في ميدوم .

ومثلت أهرام سنفرو ومحقاتها مرحلة جديدة من مراحل العبارة المصرية والعقائد المصرية في آن
واحد . فقد شاد له رجاله هرما في دهشور ليكون هرما كاملا منذ بدايته ، وبدأوه بزواوية ميل
مقدارها ١٤ و ٥ درجة ، ولكنهم بعد أن وصلوا بهذا الميل إلى ما يزيد عن تسعة وأربعين مترا ، أدركوا
أنهم لو واصلوا البناء على أساسه سوف يرتفع الهرم إلى أكثر مما قدره له أو أكثر مما تحتمل قاعدته ،
ولاحظوا أن بعض الجدران الداخلية بدأ . تتشقق بالفعل ، فغيروا زاوية الميل إلى ٣٠،٤٣° ، وأكفوا
بناء هرمهم حتى بلغ ارتفاعه نحو ١٠١،١ من الأمتار ، ولكنه ظهر في صورته الأخيرة منكسرا الأضلاع على غير
ما أراد صاحبه وعلى غير ما أراد مهندسه ، فاستغلوا إمكانيات عهدهم في تشييد هرم آخر شمال الهرم
الأول بما يقل عن الكيلومترين ، واستفادوا فيه من تجاربهم في الهرم السابق ، وبدأوه بزواوية ميل مناسبة تبلغ
٣٠،٤٣° درجة ، وعندما أتموه أصبح أول هرم كامل صحيح النسب حاد الزوايا مستوى الجوانب ،
بلغ ارتفاعه نحو ٩٩ مترا ، وكسوه هو والهرم الأول بأحجار جيرية بيضاء ملساء^(٨١) وأطلق الكنة برضاء
الملك أو بوحيه ، على كل هرم من الهرمين اسم "نخ سنفرو" ، ربما بمعنى شخ سنفرو أو تجلي سنفرو^(٨٢) وليس

PETRIE, Researches in Sinai, pls. 50, 51 (٧٨)

BREASTED, A. R. I, 722; L.D. II, 137 g. (٧٩)

A. R., I, 165, 5; 312, 21. (٨٠)

A. FAKHRY, op. cit. vol. I; REISNER, Development, 197, f. 199 f; EDWARDS, Pyramids of Egypt, (٨١)

68 f., 82 f.; LAUER, Le Problème des Pyramides, Paris 1952.

Gauthier, L. R., 65. (٨٢) ولكنهم ميزوا بين كل منهم بقولهم الامامى والخلفى او القبلى والبحرى .

من المستبعد أنه كان بين هذا الاسم وبين كساء الهرمين وصاحب الهرمين نوع من الارتباط المقصود ، فقد كان من شأن الكساء الأبيض الناصع لكل هرم أن يستقبل أشعة الشمس القوية ويعكس نورها على ما حوله ، فيبدو النور في أسفل الوادى وكأنما يصدر عن الهرم نفسه ، أو بمعنى أصح كأنما يصدر عن صاحبه الذى فيه .

وقامت بشأن تفسير الشكل الهرمى الكامل الذى اتخذته المقبرة الملكية منذ عهد سفرو نظريات عدة أقاموا أصحابها على أسس مادية وعقائدية وسياسية وتخيلية .

ففضل أدولف إرمان النظرية المادية ورأى أن الشكل الهرمى الجديد لم يكن غير تجسيم متأخر لكومة الرديم التى اعاد أهل بحر الناريخ أن يكونها فوق مقابرهم لحمايتها والدلالة عليها ولتقديم القرابين بجوارها .

وذهب جيمس هنرى بريستد إلى النقيض ونرح بنظرية دينية شمسية رأى فيها أن الشكل الهرمى كان يقلد هيئة الجزء العلوى المثلث من المسلة التى جعلها المصريون رمزا لإله الشمس رع ، وكانوا يطلقون عليه اسم بنين ، وأن ارتفاع قته كان يسمح لها بأن تصاغ أشعة الشمس فى الصباح قبل أن يصابها أى شىء دنيوى يقوم فوق سطح الأرض .

والتزم ألكسندر موريه جانب الملاحظة والتخيل الجميل فرأى أن انسياب الخطوط الجانبية للشكل الهرمى كان يقلد انسياب أشعة الشمس المائلة حين تنزل من قرصها وتنفذ من وراء السحب لتضىء الأرض بنورها .

وذهب أ. س. إدواردز إلى وجهة عقائدية أخرى فرأى أن الهرم الكامل كان يصور الوسيلة التى طمع الفراعنة أن يصعدوا عن طريقها إلى عالم السماء بعد أن يفارقوا عالم الأرض ، شأنه فى ذلك شأن الهرم المدرج القديم .

والتزم يواقيم شبيجل تفسيراً اجتماعياً رأى فيه أن الشكل الهرمى كان يرمز إلى النظام الهرمى الأرضى ، الذى اعتلى الملك قته فى الدنيا والآخرة وسيطرفه على الطبقات التى تتدرج تحته فى الاتساع حتى تصل إلى القاعدة الشعبية الكثيفة (٨٣) .

لاتخلو نظرية من هذه النظريات من طرافة ، ولكن يبدو أن أقربها إلى الصحة ، هو أن الشكل الهرمى كان ثمرة للتطور المعارى الطويل الذى بدأ بالمصطبة مائلة الجوانب وتطور منها إلى المصطبة ذات

(٨٣) أدولف إرمان : ديانة مصر القديمة ، معرب - ص ٢٧٨

جيمس هنرى بريستد : تطور الفكر والدين فى مصر القديمة - معرب - ص ١١٢ - ١١٧

إدواردز : أهرام مصر - معرب - ٣٤١

A. MORET, Le Nil , 203 f. ; J. SPIEGEL, op. cit.

الإضافيتين الجانبيتين المحيطتين بها ، ثم أدى إلى هرم زوسر المدرج ، وهرم ميدوم الذى حاول أصحابه أن يجعلوه كاملا مستويا فى مظهره مدرجا فى منجبهه ، وارتقى إلى هرم دهشور الجنوبى الذى أظهر الصواب والخطأ فى التجارب المعمارية لأصحابه ، وانتهى أخيرا إلى هرم دهشور الشمالى الذى نجح مهندسوه فى تنفيذ هيئته الهرمية كاملة .

وليس ما يمنع من افتراض أن هذا التطور المعمارى استرشد فى بدايته بنموذج طبيعى مائل فى بيئته ، ليس من الضرورى أن يكون حجر البنين فى عين شمس ولا كومة الرديم فى بحر التاريخ ولا أشعة الشمس التى تنفذ من وراء السحب ، وإنما هو على الأرجح مظهر التلال الهرمية أو المخروطية التى تحف بالوادي من شرقه وغربه ويراها المصريون رأى العين كلما جالوا فى الصحراء أو فى مناطق الجبال التى نفسها .

ألقى رجال سنفرو بهرمه الجنزبى معبدين ، معبدا صغيرا يلاصق الواجهة الشرقية للمهرم وينفتح ناحية الشرق ويسمى اصطلاحا باسم معبد الشعائر أو المعبد الجنازى ، ومعبدا آخر عند اتصال أرض الهضبة التى شادوا الهرم فوقها بالوادي المنزوع ، ويسمى اصطلاحا باسم معبد الوادى (وإن كان لم يكتشف حتى الآن) .

ويصل بين المعبدين طريق ممهّد يسمى اصطلاحا باسم الطريق الصاعد . وجرت العادة على تخصيص المعبد الأول لأداء الدعوات والصلوات والشعائر اليومية والموسمية لصالح الملك الموفى وتقديم القرابين باسم روحه لتنعّم بمرآها وتستفيد منها فائدة معنوية تناسبها وتناسب عالمها الذى تعيش فيه .

ولم يكن مثل هذا المعبد جديدا فى عقائد المصريين ، وإنما كان الحديد فيه هو تشييده (هو ومعبد ميدوم فى نفس الوقت) عند الواجهة الشرقية للمهرم وليس عند الواجهة الشمالية منه كما كان الحال بالنسبة إلى معبد الشعائر الخاص بالملك زوسر أول ملوك الأسرة الثالثة .

وأسلفنا فى حديثنا عن الأسرة الثالثة ما يحتمل من ارتباط وجود معبد الشعائر ناحية الشمال عند زوسر بعقائد أصحابه عن انتقال أرواح ملوكهم وأخبارهم بعد الموت إلى السماء وحياتها بين النجوم النيرة الخالدة أو النجوم التى لا تطفى على حد تعبيرهم القديم ، وهى مجموعة النجم القطبي ، أما اتجاه معبد سنفرو إلى الشرق فىمكن تعليقه هو الآخر بأحد تعليلين :

أحدهما هو تشييد معابد الأهرام فى الصحراء الغربية فى أغلب أحوالها ، ورغبة أصحابها فى أن تستقبل واجهاتها ومدخلها دنيا الأحياء فى الشرق ، أى فى الوادى المنزوع ، وتستقبل مواكب الكهنة ومواكب القرابين الآتية منها ، وكانت هى نفس الرغبة التى حدثت بكار أصحاب المصاطب القديمة إلى بناء مقاصير قربانهم ناحية الشرق منذ عصر الأسرة الأولى نفسها .

أما التعليل الثانى فهو رغبة أصحاب المعبد فى أن يتجه بمدخله ناحية الشمس عند شروقها ، إما تعبدا لربها ، أو عن اعتقاد جديد بأن أرواح الملوك سوف تصحبه فى تجواله فى سماء الدنيا نهارا وسماء

الآخرة ليلا. ولما كان من المفروض أن تظهر معه في الشرق كل صباح وجب أن تفتح أبواب معبدها ناحية الشرق أيضا لتستقبلها كلما رنت إلى زيارة معبدها حين تقديم القرابين فيه باسمها كل صباح، وبعد أن تكون قد أتمت رحلتها الليلية مع ربها .

والواقع أنه مع منطقية هذين التعليلين في تفسير تحول معبد الشعائر من الشمال إلى الشرق بين عهد زوسر وعهد سنفرو ، إلا أننا لانكر أنهما لا يستطيعان أن يعاللا سر ظهور العقيدة النجمية الشمالية في عهد زوسر بالذات أو سر مجازاة العقيدة الشمسية الشرقية في عهد سنفرو بالذات ، مع أن ذكر الشمس في عهد زوسر كان أوضح ، حين اهتم بمدبتها أونو ، وجعل إيجوتب كبير كهنتها ، وحين تلقب بلقب رع نوب أى الشمس الذهبية أو المنتهى إلى رب الشمس الذهبي ، بينما تلقب سنفرو بلقب حور نوب بمعنى حور الذهبي أو المنتسب إلى حور الذهبي .

على أنه مهما يكن من أمر ، فقد أصبح تشييد معبد الشعائر شرق الهرم سنة متبعة منذ عهد سنفرو خلال عصر الأسرة الرابعة وما بعدها ، بينما اقتصر الاتجاه ناحية الشمال على مداخل الأهرام دون مداخل معابدها (وإن كان هرم سنفرو الجنوبي قد تضمن مدخلين مدخلا شماليا وآخر غربيا) .

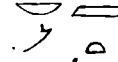
وأضاف سنفرو إلى مجموعة عمائر في دهشور معبدا آخر ، كشف عنه الدكتور أحمد فخري منذ سنوات قليلة ، أقامه له رجاله إلى الشمال الشرقى من هرمه أى في غير الاتجاه العادى لمعابد الشعائر ومعابد الوادى ، وذلك مما يدفع إلى الظن بأنهم أقاموه بإذنه بمناسبة احتفاله بعيد يوسيليه الثلاثيني الذى احتفل به على الرغم من أنه لم يكمل فى حكمه ثلاثين عاما ، إلا إذا كان قد احتسبها منذ يوم اختياره وليا للعهد فى عهد حونى ، وتضمن المعبد من بقايا تماثيل صاحبه ومن صورته بملابس العيد وصوره مع أربابه وخلال زيارته لمعبدى به ونخن وصور رموز الأقاليم والضياح التى اشتركت بخيراتها فى أوقاف معبده ما يتم عن أيد فنية حساسة متمكنة وذوق فى راق رفيع (٨٤) .

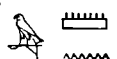
ووضحت مظاهر الرفاهة والغنى والحياة الرغدة فى مقابر أسرة سنفرو فى ميدوم ودهشور والحيزة ، لاسيما مقبرة زوجته حوتب حرس التى نهبت أغلب محتوياتها فى عهد ولدها ولكن لزال القليل الباقى منها يتم عن ذوق رفيع فى صناعة سريها ومقعدتها ومحفتها وتطعيم أخشابها بالأبنوس وتصفيحها بقرائى الذهب ، وصناعة حلبيها الفضية ومعالقها الذهبية وأوانها المرمرية وأباريقها وقناني دهنونها ، وتنفيذ نقوشها البصغرية التى صورتها وصورت ألقابها وصورت زوجها على عرشه وصورت زخارف على هيئة الفراشات والحيات فى روعة وإتقان بالغين . ثم نقوش الأميرين نفرماعت ورع حوتب فى ميدوم وقد صورت بعض وجوه النشاط فى عصرها فى الزراعة وتربية الحيوان والملاحة والصيد ووسائل المرح

(٨٤) FAKHBY, op. cit., vol. II Part I. وليس ما يدور الى التريث فى تأكيد ارتباط هذا المعبد بمناسبة عيد السد فى امرين ، وهما عدم العثور على معبد الوادى حتى الآن ، واحتمال وجود هيوب او صعباب فى ارضية الهضبة دفعت البنائين الى الانحراف بالمعبد ناحية الشمال الشرقى ولا يستبعد الاستاذ الدكتور احمد فخري التفسير الذى افترضناه ، ويرى الاستاذ الدكتور عبد المنعم ابو بكر انه ما من باس فى افتراض أن وجود معابد السد فى مناطق الأهرام كان يعنى الرقبة فى انتفاع الفراخنة بها فى اعياد الآخرة .

الخفيف . ورسوم مقبرة الأميرة إمت زوجة نفرماعت التي لا تزال تعتبر أفضل رسوم الدولة القديمة ، وأهم ما بقي منها هي لوحة الأوز المشهورة بدقة تفاصيلها وألوانها ووضوح نسج الريش فيها وتوزيع ظلالها وتصوير الحشائش وحببات الحصى الصغيرة تحت أقدامها . وأخيرا تماثالا الأميرع حوتب وزوجته نفرة ، وكل منهما غنى عن التعريف بما أنتحل فيه من ملامة النسب والحيوية المتدفقة التي زاد منها احتفاظ كل منهما بألوانه الأصلية وتطعيم عينيه ، والاهتمام البالغ بتصوير ملامح الوجهين والنجاح الكامل في التعبير عن مشاعر صاحبها (٨٥) .

ولم تقتصر مظاهر الرخاء في عهد سنفرو على آثاره وآثار أسرته وحدها ، وإنما دلت نصوص فردية في عهده على أن مجال الثراء ومجال الترقى في المناصب الحكومية كانا متاحين للنابهن من أفراد شعبه ، ومن هذه النصوص نصر رجل يدعى مثن ، ذكر فيه أنه لم يرث عن أبيه غلالا ولا أثمانا ، وإنما قليلا من المدخرا . والأتباع ، وأنه بدأ حياته اوظيفية باشكاتبنا لإدارة التموين وأميننا على محتوياتها ، ثم ترقى في الوظائف حتى ولى إدارة بعض أقاليم الوجهين ، القبلي والبحرى ، فضلا عن رئاسة عدد من مدنها الكبيرة ، وذكر أنه كوفىء بإقطاعية واسعة من الأرض ، واستغل اثنتى عشرة ضيعة لحسابه ، وشاد لنفسه دوارا أحاطت به حدائق غناء ، وبلغت مساحته معها فيما ادعى نحو عشرة آلاف متر مربع ، ولم تقتصر إناعمات الدولة عليه على شئون دنياه وحدها ، وإنما كفلت له رزق آخرته ، فخصصت له مائة رغيف يوميا من معبد شعائر أم ولد الملك نى ماعت حاب (أم زوسر) (٨٦) .

تلقب سنفرو بلقب حورى معب ، وهو نب ماعت  ، أى رب العدالة ، وامتازت الأوضاع السياسية فى عهده بإنشاء منصب الوزارة لأول مرة ، وقد أسنده إلى أمير كبير من أسرته وهو نفرماعت . وظلت الوزارة فى الأمراء الجكار وحدهم حتى نهاية عصر الأسرة الرابعة ، ويعتقد G. Reisner أن الملوك جعلوها فى أكبر أبناء الملكات الثانويات تعويضا لهم عن وراثة العرش وإرضاء لأمهاتهم (٨٧) .

وتوفر لسنفرو بين المصريين نصيب من مدلول اسمه الحورى « نب ماعت » واحتفظ له أدبهم الشعبى بذكرى عطرة قلما احتفظ بها الملك سواه ، وتضمنت هذه الذكرى ثلاث روايات أدبية صورته جميعها على وتيرة واحدة ، فوصفته بأنه ملك فاضل  ، وصورته متواضعا يميل إلى المعرفة ويكرم العلماء ويحسن الاستماع ويكتب بنفسه ولا يابى أن يسأل عما لا يعرفه ، كما صورته يميل إلى المرح والاستمتاع .

(٨٥) توجد هذه التماذج كلها بالمتحف المصرى .

(٨٦) SETHE, Urk. I, 1 f. (2, 4, 9).

WEILL, Die Zeiere des Pharonemreiches, 1, REISNER, The Tomb of Hetep-Heres, p. 9. (٨٧)

وقصت أقدم هذه الروايات^(٨٨) أن سنفرو استدعى كبير الكهنة المرتلين في عهده ، وكان يدعى چاچا معنخ ، وسأله عن تسمية يرفه بها عن نفسه ، فأشار عليه أن ياتمس التسمية في الخضرة والماء والوجوه الحسان ، وأن يسقل قاربا ويصطحب معه عددا من العذارى ويطلق البصر نيا أفاء النيل على جانبيه من خضرة وخير عميم . وعمل سنفرو بالنصيحة واصطحب في قاربه الكبير عشرين عذراء ، وعهد إليهن بالجديف والغناء ، فاصطففن على جانبي القارب وجذفت كل منهن بجذاف من الأبوس المرصع بالذهب ، كما تدعى القصة ، وانطلقن في التغريد والجديف ، وكانت كل منهن تحلى جبهتها بأكليل تزينه حلية على هيئة السمكة ، وتهل شعر رئيسهن على وجهها فأزاحه بيدها ، وعندئذ سقطت حليتها في الماء فسكتت عن الغناء وسكتت بعدها البقيات ، ولما سأها الملك عن علة سكوتها ، قصت عليه أمرها فوعدها أن يعوضها عن حليتها بما هو خير منها ولكنها أبت إلا حليتها ، فأسقط في يد سنفرو ، واستدعى كبير الكهنة المرتلين ، وقال له چاچا معنخ يا أخی ، حدث كذا وكذا ، فاستجاب الكاهن لطلب مولاة ، واستعان بسحره نظوى ماء النهر على جانب ، واستخرج الحلية وودها إلى صاحبها كما زعمت القصة .

تلك أسطورة فيما يغلب على الظن ، أو هي قصة داخلها التهويل والتنميق ، وكل ما يعيننا منها هو الرمز إلى حياة الرفاهة التي عاشها صاحبها ، وأن قصاصها لم يتخيل ملكه ربا مطلقا قادرا مقتدرا ، كما تعودت النصوص الرسمية أن تصف ملوكها ، ولم يجد بأسا في أن يصوره عاجزا عن أن يفعل بعض ما يستطيع كاهن من رعيته أن يفعله ، وأن هذا الملك وإن خاطبه رعاياه بلقب الربوبية إلا أنه لم يكن يعتقد في نفسه الربوبية الفعلية ، ولم يكن من المستبعد عليه تبعا لذلك أن يخاطب أهل العلم في عصره بلفظ الأخوة كما خاطب كاهنه المرتل .

أما الرواية الأدبية الثانية التي أشارت إلى ذكرى سنفرو ، فهي عبارة عن تعاليم في أدب السلوك تلقاها وزير يدعى كايچيني عن أبيه كايروسو (؟) ، وأراد كاتبها أن يؤرخها ، فقال عبارته التي استشهدنا بها ص ٣٢١ وهي : « بعد أن توفي جلاله الملك حوني ، نصب جلاله الملك سنفرو ملكا فاضلا في هذه الدنيا كلها^(٨٩) ، وبذلك شهد له بنفس الشهادة التي ذكرتها له القصة السابقة .

وعادت الرواية الثالثة إلى ما رمزت إليه الرواية الأولى من تواضع سنفرو وشغفه بمجالسة العلماء ، فذكرت أن سنفرو الملك الفاضل أمر حامل أخنامه بأن يستدعى إليه أهل بلاطه ذات صباح وطلب إليهم أن يشيروا عليه بولد حكيم أو أخ ماهر أو صديق أدى أعمالا باهرة حتى يحذثه ؛ واعظ قصيرة أو حديث لطيف يلتذ بسماعه ، فسجد الرجال أمامه وأشاروا عليه بكهن مرتل من تل بسطة يدعى « نفرحو » أي زين الرجال ، وصفوه له بأنه مواطن طويل الباع شديد الأيد كاتب طلق الأصابع ذو مقام يزيد ثراؤه عن ثراء أقرانه ، فأمرهم بأن يستدعوه إليه ، وعندما وفد الحكيم على سنفرو سجد أمامه


A. ERMAN, Die Literatur, 67 f. (٨٨)

Pap. Prisse, II, 7-8. (٨٩)

فقال له الفرعون : « إلى نفرحو يا صديق وحدثني بمواعظ مخصصة سديدة أو أحاديث طريفة استمع بسماعها » . وسأله نفرحو « هل مما حدث أو مما سيحدث ، مولاي ؟ » فقال له سنفرو « بل ما سوف يحدث فإن ما حدث تم وانقضى » . وعندما تهيأ نفرحو للرواية مد الملك يده إلى صندوق أدوات الكتابة وسحب منه لفافة بردى ولوحة وتهيأ للكتابة ، في جلال الحكام وتواضع العلماء (٩٠) .

ويبدو أن اقتراب سنفرو من رعاياه شجع أمراء أسرته على سلوك السبيل نفسه ، فتزوج بعضهم من غير أميرات الأسرة المالكة ، ومن هؤلاء ولده كانفر والأمير رع حوتب الذي لُحِل ألقابا عسكرية ومدنية ضخمة إلى جانب لقب ابن الملك من صلبه ، بينما لم تحمل زوجته نفرة الجميلة غير لقب يصلها بجاشية الملك أو معارنه (رخت نيسو) ، وأصبحت هذه السنة مقبولة بعد ذلك خلال عصر الأسرة الرابعة وما بعدها (٩١) .

خوفو :

ذكرت بردية تورين أن سنفرو حكم أربعة وعشرين عاما ، وأعقبه ولده خنوم خوفوى ، أو خوفو  ، كما يختصر اسمه في العادة . وتزوج فيما يعتقد G. Reisner and W.S. Smith من أخته مريت إيتس . واستفاد خوفو من خبرات رجال أبيه وجهود عهده ، وتوفر له من سعة السلطان أكثر مما توفر لأبيه ، وتوفر لمصر في عهده من الإمكانيات المادية والكفايات الفنية أكثر مما توفر لها في عهد أبيه . وعلى الرغم من ذلك ، وعلى الرغم من شهرة خوفو صاحب الهرم الأكبر ، فليس ما يعرف عن أخبار عهده غير القليل ، ويتمثل هذا القليل في اتساع مجالات استثمار المهاجر الداخلية وازدياد الصلات الحضارية بين مصر وفينيفيا في عهده ، والمدلولات المخالفة التي يكشف عنها هرمه الأكبر ، والمدلولات العقائدية التي تم عنها المراكب التي كشف عنها حديثا بجوار هرمه ، ثم المدلولات التي احتفظ له المصريون بها في قصصهم الشعبية وفي الروايات التي رددوها عنه لمؤرخي العصور المتأخرة .

عثر على اسم خوفو منقوشا على محاجر منطقة جنوبية تبعد عن عاصمة حكمه بما يزيد عن ٧٥٠ ميلا ، وهي منطقة تقع في الصحراء الغربية شمال شرق أبو سنبل وشمال غرب توشكا وعلى مقربة من طريق

(٩٠) A.H. GARDINER, in J.E.A I, 100 f. واقترح بوزن قراءة اسم الحكيم « نفرتى »
G. POSENER, in Revue d'Egyptologie, 1951, 171 f.

(٩١) يظن جوبييه ان رع حوتب كان ولدا لسنفرو ، ويفترض له زوجة اخرى من أمراء أسرته لدمى بونفر ، ولو انه لا يصر على فرضه . Livre R, I, 70. انظر ايضا من الامير ذوارع وزواجه بفتاة عادية FISCHER, The Minor Cemetery of Giza.

القوافل الذى يصل من أسوان إلى درب الأربعين ، وأطلق رجاله عليها اسم منطقة مصايد (٩) خوفو ، واستغلوا فيها منجم الجمشت وقطعوا منها حجر الديوريت أسمى الأحجار المصرية صلابة ، ونقلوا عددا من كتله الضخمة نحو ٧٥٠ ميلا إلى عاصمتهم ليصنعوا منها تماثيل مولاها وربما ليصفوا بها أرضية معبده فوق هضبة الجيزة (٩٢) ، وخذلوا بذلك آيات جلداهم وآيات جبروتهم أكثر مما استطاع مولاها أن يخلد سلطانه .

وظهر اسم خوفو على آثار معبد فى جيبيل (أو كبنه كما سماها المصريون و ببلوس كما سماها الإغريق بلبنان الحالية) ، وظهرت معه أسماء ملوك آخرين سبقوه ولحقوا به من ملوك الدولة القديمة (٩٣) . وليس ما يعرف حتى الآن عن الصورة الأولى التى نشأ عليها هذا المعبد ، فهو قد يكون معبدا أمورى الأصل ، أراد الملوك المصريون أن يجاملوا أصحابه فأهدوهم هدايا ثمينة تحمل أسماءهم ولم يمنعهم تمسكهم بدينهم المصرى من أن يتساحوا مع معبودات جيرانهم ويعملوا على إثراء معابدها . وقد يكون معبدا مصرى الأصل شادته جالية مصرية تجارية أقامت فى جيبيل وعكفت فيه على عبادة أربابها المصريين وسجلت أسماء ملوكها على مقتنياته ، أو معبدا مصرى أقامه أمراء جيبيل أنفسهم مجاملة للمصريين وتقبلوا فيه بعض العقائد المصرية كما تقبلوا فيه هدايا الفراعنة المصريين .

ليس من شك فى أن الهرم الأكبر الذى أقيم باسم خوفو فوق هضبة الجيزة شمال العاصمة إنب جح ، هو الشاهد الصريح على عظمة عهد صاحبه . وليس من شك كذلك فى أن مهندس هذا الهرم قد استفاد من المحاولات والتجارب التى سبقت عهده ، والتى حاول أصحابها أن يتموا فيها هيئة الهرم الكامل لمقابر فراعنتهم ، لولا أنه بز محاولاتهم جميعها بضخامة هربه الهائلة والدقة البالغة التى أتم بها بنيانه .

فهرم خوفو شغل مساحة تقرب من ١٣ فدانا كما هو معروف ، وبلغ ارتفاعه الأصلي ١٤٦ مترا أو أقل قليلا (٩٤) ، واستخدم البناؤون فى بنائه ، على ما يقال ، نحو مليونين وثلاثمائة ألف كتلة حجرية تراوحت زنة الواحدة منها بين الطنين والنصف والثلاثة أطنان (٩٥) ، قطعوها جميعها من محاجر هضبة الجيزة التى شيدها الهرم فوقها ، فيما عدا الكساء الخارجى للهرم ، فقد قطعوا لوحاته السميقة الضخمة من محاجر

(٩٢) Ann. S. XXXVIII, 369 f.; KEES, Das alte Äg. 179. ويفهم من حوليات خوفو أنه نحت له ١٤ تمثالا تمثله واقفا دفعة واحدة ، ووُجِدَت بقايا متناثرة كثيرة لتمثيله قرب هرمه
SETHE Urk. I, 238, 1; SMITH, A History of Sculpture..., p. 20-21.

(٩٣) Montet, Byblos et l'Égypte, 1928, 29 f., 68 f. Nelson, in Beyruts, 1934, 19 f. — أطلق المصريون على جبل فى نصوص الدولة القديمة اسم "نين" وفى نصوص الدولة الوسطى "كبنى" وفى نصوص الدولة الحديثة "كينا" وذكرها الآشوريون باسم "جويلا" ، Gauthier, Dict. géog. V, 197 f.; GARDINER, Onomastica, I, 257.

(٩٤) بلغ ارتفاعه حسب المقياس المصرية ٢٨٠ ذراعا ، وبلغ طول قاعدته ٤٤٠ ذراعا (Wilson, Burden of Egypt, 71).

(٩٥) قدرت زنة أحجار الهرم بنحو ستة ملايين طن وربع مليون ، وقيل أنها تكفى لبناء سور يحيط بفرنسا وبلغ ارتفاعه ثلاثة أمتار وعرضه مترا ، أو سور يحيط بثلثى محيط الكرة الأرضية عند خط الاستواء وبلغ ارتفاعه قدما واحدا ..

أخرى امتازت بأحجارها الجيرية الناصعة البياض ، تقع قرب ضفة النيل المقابلة للضفة التي أقاموا الهرم على هضبة قريبة منها ، هي محاجر طرة والمبصرة .

بني الهرم أصلا ليصبح ملجأ أميناً لحنة الفرعون ومقنياته الخاصة ، وشاهداً على ثرائه وسعة سلطانه ووسيلة لخلود ذكره وذبوع شهرته ، وتأكيذاً لرفعة شأنه في الدنيا والآخرة ، وصورة من صور رقى العمارة والفن في عهده ، أى أنه لم يكن مجرد مقبرة في جبانته ، ولم يكن مجرد جبل من الأحجار يشهد بجبروت صاحبه ، وإنما كان ولا يزال آية فنية من داخله وخارجه . وقد أطلق عليه صاحبه ، أو أطلق عليه كهنته ، اسم « آخت خوفو » ، بمعنى مشرق خوفو أو أفق خوفو ، بناء على نفس الدافع الذي دعاهم إلى تسمية هرم أبيه « نور ستفرو » .

تضمن الهرم ثلاث حجرات كبيرة للدفن ، حجرة أسفله نحتت في باطن الصخر وهجرت قبل أن ينتهى العمل فيها ، وأخرى في باطنه وتسمى خطأ باسم غرفة الملائكة وهجرت هي الأخرى بعد أن أوشك العمل فيها على الانتهاء ، وثالثة في نصفه العلوى دفن الفرعون فيها .

وأدى تعدد حجرات الدفن في الهرم إلى رأى مقبول ، مؤداه أنه بنى على ثلاث مراحل متعاقبة متباعدة انتقل المهندس من مرحلة منها إلى أخرى نتيجة لازدياد خبراته وازدياد إمكانيات عهده ونتيجة لامتداد أجل فرعونيه . فبنى الهرم في مرحلته الأولى ليكون هرماً متوسط الحجم مائل الجوانب حاد الزوايا متساوى الخطوط يشبه هرم دهشور ولكن تقع حجرة دفنه في أسفله ، ثم أزداد حجمه بعد فترة ما وقبل أن يتم بناءه وشاد حجرة دفن جديدة في باطنه ، وأزاده للرة الأخيرة وشاد حجرة الدفن الثالثة في نصفه العلوى من أحجار جرانيتية هائلة وأقام فوقها خمسة سقوف يتعاقب كل منها فوق الآخر بعد ارتفاع كبير ، رغبة في تخفيف الضغط عن سقفها الأول الذى تألف من تسعة ألواح ترن في مجموعها نحو ٤٠٠ طن ، وترك أربعة من هذه السقوف مسطحة ، وبني السقف الخامس العلوى مثلثاً على هيئة الجماول لتوزيع ضغط الجزء العلوى من الهرم على جوانب الحجرات دون وسطها .

ويصل بين غرفة الدفن الوسطى وغرفة الدفن العليا في باطن الهرم دهليز صاعد يعتبر آية من آيات الفن المعماري لعصره ، ويبلغ طوله ١٥٣ قدماً وارتفاعه ٢٨ قدماً ، كسيت الأجزاء السفلى من جانبيه بأحجار مصقولة ضخمة ، وبرز كل مدماك من مداميكه العليا وعددها سبعة في الجانبين ، عن المدماك الذى يرتكز عليه بمقدار ثلاث بوصات ، والتصق كل مدماك منها بالآخر وكل حجر منها بالآخر ، في إتقان شديد دفع بعض العلماء إلى الإشادة بتقديره بقولهم إن ما بين كل حجر وآخر لا يكاد يسمح لشفرة رقيقة بالنفاد منه .

ويتضح للضخامة الفريدة والبراعة الفائقة التي امتاز الهرم الأكبر بها أكثر من معنى ومدلول ، فهى من الناحية السياسية تتم عن نظام من الحكم كان يسمح للفرعون صاحب الهرم بهيمنة كبيرة على موارد البلاد وتصرف واسع في إمكانياتها المادية والبشرية ، وهى من الناحية

المعمارية تشهد لمهندس الهرم أو مهندسيه (٩٦) بدراية واسعة بأصول الهندسة وفن العمارة ، وذلك بحيث لا يكاد العلم الحديث يجد خطأ واضحا فيما أتوه . وهى من الناحية البشرية تشهد لآلاف الصناع والعمال الذين اشتركوا في بناء الهرم بجد شديد وقوة احتمال كبيرة ومهارة أصيلة في قطع أحجاره الضخمة ونحتها وتسويتها ونقلها ثم تثبيتها في مواضعها من بنائه . وهى من الناحية الإدارية تشهد لرجال الإدارة المشرفين على نظام العمل والعمال في الهرم يحظ كبير من الكفاية في رسم الخطط لتجميع آلاف العمال وتوئيمهم وحسن الاستفادة بهم وضمان استمرار قوتهم البدنية على مواصلة العمل ، فضلا عن تنظيمهم وتقسيمهم فرقا لا زالت بعض أسمائها مسجلة على أحجار متفرقة من جوانب الهرم (٩٧) . وللباحث جورج سارتون تعقيب طريف على الجهود الإدارية التي كان لابد منها لتنظيم جيوش العمال المستخدمين في بناء الهرم . ويقول في تعقيبه إنه مع التسليم بأن المهندسين المصريين أحلوا القوة البشرية محل القوة الآلية في تشييد هرمهم ، إلا أن ذلك لا يفسر المعجزات الفنية والمعمارية التي تجمعت في بنائه ، وإنما يضيف إليها معجزات بشرية لا تقل عنها في صعوبة تفسيرها . ذلك أنه من السهل أن نتحدث عن حشد آلاف من الرجال ، وإيكونوا ثلاثين ألف رجل مثلا ، للقيام معا بعمل شاق ، ولكن كيف تم تشغيلهم؟ وكيف تم تدريب الفنيين منهم؟ وكيف أمكن تحقيق التعاون بينهم؟ ... وسواء تأتت القوة اللازمة لعمل من الأعمال عن محرك آلى أم عن ككلة بشرية ، فإن ترتيب هذا العمل وتنفيذه يتطلبان ذكاء ناضجا للتنسيق بين العمل والعمال (٩٨) .

كثيرا ما تساءل المعجبون بمشروع الهرم والمتعجبون من ضخامته ، والمتكبرون للجهد الشاق في بنائه ، عما إذا كان المصريون قد شادوه وشادوا أمثاله ، راضين أم مجبرين ، مأجورين أم مسخرين . وإذا تركنا آراء الأقدمين إلى آراء الباحثين المحسنيين ، وجدنا كلا منهم ذهب مذهبه وتعصب له ، فأكد هرمان يونكر أن روح الرضا والرغبة في الإبداع والاتقان كانت غالبية على من تكفلوا ببنائه ، وأن عوامل التسخير والإجبار قد تستطيع أن تبني الهرم الأكبر ، وما هو أعظم من الهرم الأكبر، ولكنها لم تكن تستطيع وحدها أن تبلغ به إلى ما بلغه من الإتقان بحال من الأحوال ، وأخذ برأى يونكر كثيرون

(٩٦) يعتقد يونكر وريزور أن مهندس الهرم هو الأمير حم اونو ابن إخ خوفو أو ابن عمه ، وكان أميرا دلت ملامح تماثله على أنه كان ذا شخصية قوية أمرة ، ودلت سمة مصطبته وفخامتها على مكانته في عصره - وتلقب بألقاب المهندس الملكى ومدير المنشآت المقدسة كلها ، (أو مدير أعمال الرب كلها) وربما ولى الوزارة REISNER, The Tomb of Hetep-Heres, 1955, 9 واعتقد برستد أن مهندس الهرم

أمير آخر يحتفظ المتحف المصرى بنابوته وهو خوفو غنخ

(٩٧) عن فرق عمال أخرى نسبت الى اسم خوفو REISNER, op. cit., 8; SMITH, in J.N.E.S. 1952, 125.

(٩٨) جورج سارتون : تاريخ العلم - مغرب - جزء ١ ص ٩١

ومن الاوصاف المتممة في تصوير مدى الدقة في بناء الهرم ، ما يقال من أن متوسط الخطأ في طول جوانبه لا يعدو ١ : ٤٠٠ ، وأن الخطأ في عمليات التربيع التي استخدمت فيه لا يعدو كسرا عشريا يساوى دقبة واننتى عشرة ثمانية ، وأن معدل الخطأ في ضبط ضلعيه الشرقى والغربى لا يزيد عن ٣ : ١٠٠ ، وأن الفواصل بين بعض الاحجار لا تزيد عن نصف ملليمتر ...

وحوّروا فيه . وأكد ألكسندر شارف من ناحيته أن تقديس المصريين للملوكهم وورغبتهم في عبادتهم بعد موتهم هي التي دفعتهم إلى التفاني في بناء أهرامهم ومعابدها ، وأن حرص أفراد الطبقات الكادحة على أن يدننوا حول هرم خوفو بعد أربعة قرون من وفاته ، يؤكد بقاء ذكراه الطيبة بينهم وبعده عنه سمة العتاة المستبدين ، وأخذ برأيه هو الآخر كـثيرون وحوّروا فيه .

وظهرت آراء أخرى ذهبت إلى النقيض ، فلم ترفى هرم خوفو وأمثاله سوى أثره الحكام واستبدادهم وسوء استغلالهم للقوة البشرية والإمكانات المادية في أرضهم ، ولم ترغير عوامل التسخير وحدها هي القادرة على إقامة الأهرام وتوابعها .

ونعتقد من جانبنا أنه من الإسراف أن نفترض عاملا واحدا يسر لخوفو بناء هرمه ، أو نفترض وسيلة واحدة أو عقيدة واحدة خضع لها القائمون على بناء هرمه ، ونرى أنه من المنطق أن نتصور لذلك كل العوامل المحتملة ، وكل الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والروحية الممكنة ، التي عاش في ظلها صاحب الهرم ، وعاش في ظلها القائمون على تشييد الهرم .

نقد اعتمدت مصر القديمة في حياتها الزراعية على دورة زراعية سنوية واحدة ، كانت تؤدي إلى تعطل المزارعين عدة شهور من كل عام ، وفي هذه الشهور ، أو في البعض منها ، اعتاد الحكام أن يجمعوا أعدادا كبيرة من عمال الأرض وزراعتها ، ليتكفلوا بخدمة مشاريع الحكومة العامة ومنشآت الفرعون الخاصة من ناحية ، ولتتسبوا من العمل في هذه المشاريع والمنشآت مورد رزق مناسب لهم في مواسم تعطلهم عن العمل من ناحية أخرى . وأكد المؤرخون الإغريق الذين زاروا مصر القديمة هذا الوضع ، فذكروا فيما رواه لهم معاصروهم المصريون المتأخرون ، أنهم سمعوا أن العمل في الهرم كان يستأنف عادة أو يشتد عادة في مواسم الفيضان خاصة ، و مواسم التعطل عن الزراعة كل عام ، وترتب على ذلك فيما رواه أن بناء الهرم الأكبر وتوابعه استغرق نحو عشرين عاما ولم يتم في وقت قصير .

وأسلمنا من قبل ، أنه توفر للفراعنة المصريين الأوائل نظام من الحكم أتاح لهم إشرانا واسعا ، وهيمنة كبيرة على موارد البلاد وإمكانياتها المادية والبشرية ، ونضيف إلى ذلك أن نفس هذا النظام من الحكم أتاح لحكوماتهم سلطانا إداريا واسعا ، وجعل لها الحق في أن تكلف من تشاء من السكان ، وبمعنى أصح جعل لها الحق في أن تكلف من تشاء من القادرين على العمل من السكان ، بالعمل في مشروعاتها الدنيوية والدينية ، حيثما أرادت ، وهو تكليف لم يكن يعفى منه فبا يرجح غير طوائف المتعلمين من موظفي الحكومة وكهنة المعابد الكبار وربما كبار الشخصيات من أهل المدن والقرى أيضا .

وإلى جانب السيطرة السياسية والاقتصادية والإدارية الواسعة التي توافرت للفراعنة وحكوماتهم أكد الفراعنة لأنفسهم ، وأكد لهم أشياعهم ، نصيبا كبيرا من القداسة الروحية والسيادة الدينية على مختلف الطوائف من رعاياهم ، فالفرعون رأس الحكومة ، كان يعتبر بالتالي رأس الديانة ووريث الأرباب (من الناحية النظرية على أقل تقدير) ، وكان فيما صورته مذاهب الدين يعتبر من المتحكين في شئون الآخرة والمهيمنين على مصائر أهلها .

وأزر رجال الحاشية والكهان فراغتهم فيما ادعوه لأنفسهم من قداسة وسيادة ، ورددوه في نصوصهم
الديوية والدينية مرارا وتكرارا ، فأمنت بهذا الذى ادعاه الفراعنة والكهان وأهل البلاط ، عهود
وكفرت به عهود ، وسامت بصحته طوائف وتجاهلته طوائف عداها ، غير أن الفراعنة استطاعوا
في أغلب أحوالهم أن يستغلوا سلطانهم الدينى والروحى أوسع استغلال واستطاعوا أن يوجهوه لتنفيذ
رغائبهم وإقامة منشآتهم أربع توجيه .

وليس من المستبعد إطلاقا أن الكهان كانوا يتعمدون في مواعظهم أن ييسروا على بعض الكادحين
في سبيل تحصيل الرزق أمرهم ، ويخففوا عن المكلفين بمشروعات الفرعون متاعبهم وجهودهم ، بشيء
من الأمل فيما يمكن أن ينتظرهم في الآخرة من الشفاعة والرضى وحسن الجزاء من فراغتهم الذين
أوهموهم أنهم سوف يتحكمون في شؤون الحياة الثانية كما تحكموا في شؤون الحياة الدنيا سواء بسواء .

ولكن ألم يكن أولى بفراعنة البلاد أن يعملوا على توجيه الجهود التى بذلها رعاياهم في تشييد أهرامهم
ومعابدها إلى نواح عمرانية أخرى يعم نفعها على جمهرة شعبهم ؟

ليس من شك فى أننا لو حكمتنا منطق عصرنا الحالى ، أجبنا بالإيجاب ، وأن ذلك كان أولى بهم
وأففع لشعبهم . ولكن علينا أن نقدر من ناحية أخرى أن لكل عصر منطق ، وأن المبادئ التى يتبينها
عصر معين ليس من الضرورى أن يتبينها عصر آخر ، وأنه ليس أيسر على أنصار الحاكم فى كل مجتمع
وكل زمان من أن يقنعوا أنفسهم أو يخدعوا أنفسهم ويخدعوا الناس معهم ، بأن حاكمهم يعتبر رمزا
لشعبه ، وأنه ما من بأس فى أن تبذل الدولة فى سبيله كل مرتخص وغال ، وأنه سوف يرفع من شأن
أهل عصره أن يشيدوا له أثرا يفوق ما شيده أسلافهم لسلفه ، ويرفع شأنهم كذلك أن تتعجب الأجيال
التالية لعهدهم مما أنفقوا جهودهم فى تشييده والارتفاع ببنائه .

والواقع أنه إذا كان لكل طائفة من الحكام آفة ، وكان من آفة حكام بلاد النهرين الأقدمين حب
البطش وسفك الدماء والنهم إلى الجبروت ، وكان من أمر الحكام الرومان الأقدمين مثل أمرهم ، وكان
من آفة حكام العصور الوسطى بذل جانب كبير من موارد دولهم وبيوت أموالها فى سبيل بناء القصور
وحياة الاستمتاع ومدائح الشعراء ، فقد كان من آفة الفراعنة المصريين أنهم وجهوا جانبها كبيرا من موارد
أرضهم إلى صالح المعابد والمقابر والأهرام ، وابتغوا بذلك خلود الذكر ونعيم الآخرة حيناً ، وابتغوا
به تكريم الأرباب حيناً ، وابتغوا أن يظهروا به فى سمات التقوى والصلاح حيناً ، وابتغوا به استمالة
أهل الدين حيناً ، وابتغوا به الجرى وراء التقليد حيناً ، وابتغوا به التفخر فيما بينهم فى أغلب الأحيان !

وإذا شئنا أن نتعرض لأحاسيس شعبهم نفسه ، فما من بأس فى أن نضيف على ذلك أن تقاليد
الدين ومظاهر الحكم إذا طال أمدها وطال استقرارها بين الشعوب ، أى شعوب ، استطاعت أن
تتغلب على موازين المنطق السليم بين أهلها وجعلتهم خاضعين لحكم العرف السائد راضين بما جرت به
العادة ، وذلك حتى يحدث أحد أمرين : فلما أن يشتد إجحاف الحكام ويزداد استغلالهم لشعبهم ويخرجوا

بتقاليدهم وموازينهم عن حكم العرف والعادة ، وحينئذ تجد الشعوب نفسها مدفوعة إلى وجوب التغيير وضرورة التعديل . وإما أن يحدث العكس فيخفف استقلال الحكام لشعبهم ويشركوا بعض أفرادهم في أمورهم ومشاكلهم ، ويزودوهم بنصيب من المشاركة في سلطنتهم ويهيئوا لهم نصيبا من إصلاح أمورهم ، وحينئذ يحس هؤلاء الأفراد بالفارق بين مرارة الخضوع والحرمان وبين لذة الانتعاش والسلطان ، ويطمعون في المزيد ويحرصون على تعويض ما فاتهم بكل سبيل .

وشهدت أيام الدولة القديمة كل هذه الأوضاع والأطوار بين الحكام وشعبهم ، فشهدت خضوع المصريين لحكم العرف والعادة في الأوضاع السياسية والاقتصادية والدينية، وشهدت حرص بعض حكامهم على الترام الحد المعقول في حكمهم وعلى ألا يخرجوا به عن تقاليد العرف والعادة ، وشهدت إصرار حكام آخرين في استقلال ماهيأه العرف والعادة من سلطان وثناء وخروجهم به عن المعقول والمعروف، وشهدت اشتراك بعض أفراد الشعب في الحكم واستمتاعهم بالثناء والسلطان وسعيهم إلى المزيد من الحكم والسلطان، وشهدت أخيرا كفر جمهرة الناس بحكم العرف والعادة وثورتهم على كل من كان يهتمهم استمرار تقاليد العرف والعادة . وذلك ما سوف نتبينه تباعا في الفصول التالية .

على أنه مهما يكن من أمر ، فقد اشترك آلاف من العمال والصناع فعلا في بناء هرم خوفو وبناء معابده ، سواء عن رغبة في تحصيل الرزق ، أو بناء على تكليف من الحكومة ، أو طاعة للفرعون ذي القداسة التقليدية في مجالات الدنيا والآخرة ، أو تصديقا لما أوهمهم به الكهان عما ينتظرهم في الآخرة من الشفاعة وحسن الجزاء ، ولكن كيف كانوا يعاملون ؟ وكيف كانوا يؤجرون ؟

ليس من آثار أو نصوص باقية من عهد خوفو بالذات تكشف عن طريقة معاملة رجاله لعماله ، ولكن يمكن أن يستشهد من طريق غير مباشر بما أسلفناه عن تخصيص شون للغلال في مجموعة زوسر بسقارة لتكوين العمال وقت بناء الهرم وتموين الكهنة بعد بنائه ، وما سوف نذكره عن تخصيص مساكن للعمال بجوار هرم خفرغ لإيوائهم عرضا عن تركهم بيتون في العراء (ص ٣٥٣) . وقد تخلفت نصوص لأثرياء من عصر الأسرة الرابعة نفسها وأثرياء عهود مختلفة أخرى من الدولة القديمة، تعتمد أصحابها أن يصوروا الظروف التي شيدوا فيها مقابرهم، والأساليب التي عاملوا بها من استأجروهم فيها، فقال رجل من عصر الأسرة الرابعة « كل صانع عمل في مقبرتي أرضيته » وردد آخرون في نصوصهم قولهم : « أنفقت على قبري هذا من متاعى الحلال ، ولم يحدث إطلاقا أن اغتصبت متاع شخص ما » وقال آخرون في نصوصهم : « أرضيت كل الصناع الذين أموا إلى عملا في هذا القبر بالخبز والشراب وكل شيء طيب^(٩٩) » ، وقال بعض من تولوا رياسة الأتباع والصناع : « لم أضرب إنسانا وقع تحت يدي ، ولم أسجد أحدا في العمل »^(١٠٠) . وليس من شك في أن مثل هذه الأقوال لا تخلو من مبالغات يستقبل الشخص بها حياته الأخرى ، ولكن ليس من شك كذلك في أنها لا تخلو من إثارات صدق .

Urk. I, 23,8 ; 49 ; 50, 1 - 2 ; 70, 5-7, 236 ; 269, 11 ; 271. (٩٩)

D. DUNHAM, in J. E. A. XXIV, 5 - 6 (١٠٠)

فهل كان الفراعنة بدورهم ينفقون على دور أحرارهم ، أى مقابرهم وأهرامهم ، بسخاء ومن متاع حلال ؟ وهل كانوا يعملون عن طريق ممثليهم رؤساء العمل والعمال ، على إرضاء من يعملون في أهرامهم ، ويحرصون على إحسان معاملتهم ، شأن رعاياهم الأتقياء الأغنياء ؟

ذلك أمر لا نستطيع أن نؤكد جوابا معينا بشأنه ، في ضوء النصوص المعروفة حتى الآن ، ولكن يمكن أن نشير من ناحية أخرى ، إلى أن المتون الدينية التي سجلها الفراعنة في أهرامهم منذ أواخر عصر الأسرة الخامسة ألمحت عدة مرات إلى أن الفرعون كان يندمج بين أرباب الآخرة وحكامها على أساس ما يثبت عن قيامه بالعدل في أرضه ودينياه وعمله على صوالح رعاياه (١٠١) .

* * *

كان هرم خوفو جزءا من مجموعة معمارية واسعة ، خدمت صاحبها وخدمت فن العمارة وخدمت عقائد الدين . وكان من الضروري أن يتناسق كل جزء فيها مع بقية الأجزاء ، ويكمل كل جزء منها بقية الأجزاء .

وتألفت هذه المجموعة من نفس الأجزاء التي تألفت منها مجموعة أبيه في دهشور ، أى من معبد الشعائر ومعبد الوادى والطريق الواصل بينهما فضلا عن عناصر أخرى فرعية ، مثل هرم صغير إلى الجنوب الشرقى من الهرم الكبير ، لا يزال غرضه غير معروف حتى الآن ، وسور كبير يحيط بالهرم وتوابعه القريبة ، وعدة أهرام لزوجاته ، ومجموعات من مقابر كبار أفراد المملكة حرص أصحابها على أن يدفنوا حول هرم فرعونهم ، تقريبا منه ، وإرضاء لولى عهده ، ودلالة على ولائهم والتفافهم حوله ، ورغبة منهم في أن يعيشوا في معيته في الحياة الثانية على نحو ما كانوا في معيته في الحياة الأولى ، ورغبة منهم في ارتفاع موائد قرايبنهم بخيرات المعابد الملحقه بهرمه ، ورغبة منهم في ارتفاع مقابرهم بمالة الأمن والعمران التي كانت تكفلها كثرة الحراس والكهان والأتباع الذين يعيشون حول هرمه ويعملون في معابده .

ولم يتبق للأسف من معبدى الهرم الأكبر شئ يذكر ، فمعبد الوادى لا زالت أغلب أطلاله مطمورة فيما يرجح تحت قرية نزلة السماء ، ومعبد الشعائر تهدم كله ولم يتبق منه غير أرضيته المرصوفة بحجر الديوريت (٩) ومعالم أخرى يسيرة (١٠٢) ، وبضعة أحجار منقوشة من الحجر الجيري كانت تدون جزءا من جدرانها أو من جدران الطريق الصاعد الواصل بينه وبين معبد الوادى ، صوّرت خوفو في عيده الثلاثيني (١٠٣) .

A. MORET, "Le jugement du roi dans les tetes des Pyramides" dans l'Annuaire de l'Éc. des Hautes Etudes, 1922-23, 1-32; La Nil, 216; Breasted, The Dawn of Conscience, 127-128.

LAUER, Le problème. , 94, Ann. S. 1947, 245 f. (١٠٢)

LAUER, in Ann. S., 1943, 111 f. (١٠٣) واحجار اخرى باسم خوفو وجدت في تل بسطة واحجار نقشت عليها اسماء ضياع وقطعان نسبت اليه واستخدمت في بناء اهرام الاسرة الثانية عشرة ، في اللنت ، ويغلب على الظن انها نقلت من الجيزة . W.S. SMITH, A. History of Egyptian Sculpture and Painting, 157, pl. 39.

ويبدو أن مصاطب كبار رجال الدولة حول هرم خوفو خضعت لتخطيط مرسوم ، فخصص المهندسون والإداريون شرق الهرم لمصاطب الأمراء ، وغربيه لمصاطب كبار الموظفين ، فيما خلا استثناءات قليلة ، بنوا فيها مصاطب بعض كبار الموظفين المقربين في الشرق وبنوا فيها بعض مصاطب الأمراء في الغرب .

وشيدت أغلب هذه المصاطب على نسق متشابه ، ورتبت في صفوف تفصل بينها طرقات مستقيمة ، وتجمعت على جانبي الهرم ومن تحته ، فزادت من جلاله وأكدت ضخامته وجبروته ، وبدا الهرم بينها وكأنه يشرف عليها من عل كما كان صاحبه يشرف على أصحابها في دنياه من عل .

شاد عطاء الأسرة الرابعة مصاطبهم من الحجر لأول مرة بعد أن كان أسلافهم يشيدونها من اللبن خلال عهود الأسرات الثلاث الأولى ، وشادوها صماء لافراغ فيها إلا فتحة من أعلاها تخترق وسطها وتخترق الأرض من تحتها حتى تصل إلى حجرة الدفن في باطن الصخر . وكان المعماريون يكسبون جدران حجرة الدفن الصخرية أحيانا بألواح من الحجر الجيري الأبيض ويلونونها بنقط حمراء ليقلدوا بها هيئة الجرانيت في مقابر ملوكهم ، وألحقوا بالواجهة الشرقية لكل مصطبة مقصورة للقرايين ينتفع بها الزائرون في المواسم والأعياد ويقدمون القرابين فيها باسم صاحبها ، ويدخلها الكاهن ليرتل دعواته وتعاويذه لمصلحة صاحبها ، وكانوا يثبتون في صدر جدارها الداخلى لوحة صغيرة مستطيلة من الحجر الجيري تنقش عليها هيئة المتوفى جالسا أمام مائدته ، وينقش حوله اسمه وألقابه وأنواع القرابين التي يرجو أن تتوفره في حياته الثانية ، ويضعون على سطح الأرض أسفل هذه اللوحة مائدة للقرايين ، يقوم على جانبيها قاءان من الفخار ، تعلو كلا منهما مبخرة لحرق البخور .

ولعل أقرب ما شغل الأذهان من أمر خوفو في السنوات القليلة الماضية ، هي مراكبه . فقد عثر له حتى الآن على خمسة مواضع للمراكب ، ثلاثة منها تقع إلى الشرق من هرمه ، وقد نزلت منها مراكبه الخشبية في عصور سابقة ، واقتصرت في حالتها الراهنة على مجرد حفر طويلة عميقة نحتت في الصخر على هيئة المراكب ، تتجه اثنتان منها اتجاهها رأسيا بين الشمال والجنوب ، وتتجه الثالثة اتجاهها أفقيا بين الشرق والغرب . ثم عثر له في عام ١٩٥٤ على موضعين جديدين لمركبين هائلين منحوتين في الصخر إلى جنوب هرمه ، وتم فتح أحد الموضعين بالفعل ولا زال الآخر مغطى بسقفه الحجري حتى الآن . ووجدت في الموضع المكتشف ألواح كثيرة لمركب خشبية ، يبلغ طولها ٤٣,٢٠ من الأمتار ويبلغ أكبر عرض لها نحو ستة أمتار ، فككت أجزاءها ورتبت مع بعضها البعض بحيث يسهل تجميعها ، ووضعت معها مجاذيفها وحبالها وجوانب مقاصيرها (أو كبائنها) وأساطينها الخشبية التي شكلت تيجانها على هيئة سعف النخيل وزهور اللوتس .

وذهب الرأي إلى عهد قريب إلى تسمية مركب خوفو المكتشفة وأخواتها ، باسم مراكب الشمس ، والربط بينها وبين رحلتين يقوم بهما إله الشمس ويصطحب الفرعون معه فيهما ، رحلة يجوب بها سماء الدنيا بالنهار ، وأخرى يجوب فيها سماء العالم السفلي بالليل . ولكن صعب قبول هذا الرأي لعدة أسباب ، أهمها سببان وهما : أن أشكال الحفر التي نحتت لمراكب خوفو ، أشكال متباينة ، تختلف

من واحدة إلى أخرى ، وذلك مما يسقط القول بأن مراكبها كانت تخدم غرضا واحدا ، وهو رحلة الملك مع إله الشمس في سماء الدنيا أو سماء الآخرة. وأن المراكب التقليدية التي صورتها المناظر المصرية لرحلة إله الشمس ، تمتاز عادة برموز خاصة ، لم يثر على واحد منها في المركب التي كشف عنها ، على الرغم من أن أجزاءها وجدت كاملة كلها ، وافترض أبو بكر عدة احتمالات لأغراض هذه المراكب (١٠٤) وهي أن واحدة منها ، على الأقل ، استخدمت في نقل جثة خوفو بعد وفاته من قصره على الضفة الشرقية للنيل إلى قرب هرمه في الضفة الغربية ، ثم وضعت في حفرتها وغطيت بأحجارها . (ويبدو أن المراكب الباقيات كان شأنها شأن غيرها من الأثاث الفاخر الذي اعتاد المصريون أن ينتفعوا به في دنياهم ثم يضعوه في مقابرهم وأهرامهم لينتفعوا به في عالمهم الآخر ، لولا أن ضخمتها ، أي ضخامة المراكب ، حالت دون وضعها مع بقية الأثاث داخل الهرم نفسه ، فوضعت حوله) . وأنه من المحتمل أن خوفو استخدم بقية مراكبه في دنياه في مناسبات دينية ورسمية ، ومن هذه المناسبات مناسبة تزييمه (وكانت بعض مراسم التزييم تجري في السفن فعلا) ، ومناسبات تروده على معابد الأرباب الكبار في طول البلاد وعرضها ، وزياراته لمدن الحج المقدسة ، وبخاصة به وأبيدوس ، ومناسبات جولاته الإدارية التي كان يقوم بها بين مراكز القطر من حين إلى حين ، وذلك إلى جانب رحلاته الفردية والأسرية الخاصة .

حكم خوفو نحو ٢٣ عاما كما تذكر بردية تورين ، وانقضت آلاف السنين بعد عهده ، ولكن ذكره بقيت خالده بخلود هرمه ، وحينما وفد الإغريق إلى مصر سمعوا عنه روايات شتى ، واحتفظ المؤرخ الإغريقي هيرودوت بواحدة من هذه الروايات ، ذكر فيها أن خوفو أعلق معابد الأرباب ، وحرّم على المصريين تقديم الأضاحي ، ووجههم لخدمته وحده ، وأضاف أن المصريين لم يذكروه بخير هو وولده خفرع ، بينما أحبوا حفيده منكورع حين استنكر مسلك أبيه وجده وفتح المعابد ويسر للناس أن يقدموا أضحيمهم وينصرفوا إلى أعمالهم . وروى المؤرخ المصري مانيتون فيما تنهى إليه من أخبار خوفو أنه كان متعجرفا إزاء الآلهة ، وإن كان في الوقت ذاته قد كتب كتابا مقدسا احتفظ المصريون له بتقدير كبير ، وحصل مانيتون نفسه على نسخة منه (١٠٥) !

وإنه أنور شكى في تفسير هذه الروايات وجة مقبولة ، ناعتقد أن مارواه هيرودوت ومانيتون لم يكن أخلاقا كله ، وأنه كان عبارة عن تفسير خاطيء لروايات مصرية قديمة تحدثت عن الأوضاع التي خضعت لها مقاصير القربان في مساطب الأفزاد في عهد خوفو وعهد ولده خفرع . فقد حرم خوفو على أصحاب هذه المقاصير أن يضعوا لأنفسهم فيها تماثيل مكشوفة ، أو يقيموا أبوابا وهمية يكتبون عليها نصوصهم ويقدمون أمامها قربانينهم وأضحيمهم على نحو ما اعتادوا في عهد أبيه سنقرو . وربما أقدم

(١٠٤) عبد المنعم أبو بكر : مراكب الشمس - القاهرة ١٩٥٨

and see ELIZABETH THOMS, in J.E.A. 1956, 65 f.

HEROD. II, 124, 128; WADDELL, Menetho, 1940, 46, 48. (١٠٥)

خوفو على هذه الخطوة، لرغبته في أن يجعل إقامة التماثيل والأبواب الوهمية في المقابر حقاً لأسرته وحدها و بعض المقرين إليه من رجال دولته أو لرغبته في أن يجعل تقديم القرابين والأضاحى أمام التماثيل حقاً لتماثيل الأرباب والفراعنة دون غيرهم .

وتناقلت أجيال المصريين أخبار هذه الأوضاع التي خضعت لها مقاصير قربان الأفراد في عهد خوفو ، ثم أساء أهل العصور المتأخرة تفسيرها ، وفهموا تضيق خوفو على مقاصير القربان وتماثيلها وأضاحيها على أنه تضيق على مقاصير الأرباب وقرابينهم وأضاحيهم^(١٠٦) .

ولم يكن اتجاه خوفو إلى تحديد أوضاع مقاصير الأفراد وإمكانياتها مرتبطاً بالضرورة بحكم جائر ، أو رغبة في الترفع ، أو شدة على رجال الدولة ، لا سيما أنه كان أول من سمح لهم بأن يشيدوا مصاطبهم من الحجر وليس من اللبن كما كان شأن مصاطب أسلافهم .

أما عن مسلك خوفو إزاء معبودات قومه ، فينبغي عنه أنه عثر له على بقايا أوان تحمل اسمه في معبد حور في نخن^(١٣٦) ، وتمثال صغير يصوره جالسا في معبد خنتي إمنتويو أبيدوس^(١٠٧) ، وأن أحد أحفاده تسمى باسم معبر وهو خوفو مري ثرو^(١٠٨) أى خوفو محبوب الآلهة (وقد يقرأ مرثرو خوفو بمعنى أحب الأرباب خوفو) . وقد تكون هذه الشواهد بسيطة قليلة ولكنها لا تخلو من دلالة على أن صاحبها أبقى على معابد الأرباب وهادأها ولم يلقها ، وأن أهل عصره كانوا يعتبرونه محبوباً من أربابهم وليس مكروها منهم .

كان الاسم الكامل لخوفو هو "خنوم خوفو" وهو اسم يعنى "خنوم هو الذى يجنبى" (أو يرعانى) ويدل على الإيمان بأجاة خوفو إلى معبود أكثر قدرة منه يراه ويحميه ، وقد يكون هذا الإيمان إيمان أبيه سفرو الذى سماه باسمه ، ولكن ليس من المستبعد أن يكون خوفو قد آمن كذلك بمثله .

أما خنوم الذى انتسب خوفو إليه فيحتمل أن يكون رب منابغ الفيضان الذى قدسه أهل أسوان ، أو خنوم الفخرانى مشكل الانسان من صلصال الذى قدسه أهل بلدة هور فى المنيا ، أو خنوم المنفى الذى لقبه أتباعه بلقب "من يتصدر جداره"^(١٠٩) . وظلت صلة خنوم بالملكية باقية بعدد خوفو

M. A. SHOUKBY, Die Privatgrabstatue, 1951, 41 f. (١٠٦)

Hierakonpolis I, pl. XVIII, 6; MARIETTE, Abydos, II, pl. XIII; see also SCHÄFER, in O.L.Z., (١٠٧) 1926, 723 f.

L.D. II, 18., Berlin 1107; GAUTHIER, L. R., I, 82; see also MARIETTE, MASTABAS, p. 562; JUNKER, (١٠٨) Giza V.

See A. BADAWY, Der Gott Khnum, 1937, 22 f. (١٠٩)

فلسبت متون الأهرام ملكها إليه واعتبرته ابنه ، وتلقبت بعض الملكات بلقب ” حبيبة الكباش “ على أساس تشبيه الملك بالكبش (إلى جانب تشبيهه بالفحل والسبع . . . الخ) وكان الكباش رمزاً حيوانياً للعبود ختم باعتباره رباً من أرباب الإخصاب^(١١٠) .

وتلقب خوفو بعد اعتلائه العرش بلقب صعبت قراءته قراءة سايمة حتى الآن ، وتعمل قراءته « حور مجدو » أو « حور مجرو » كما ظن زيته^(١١١) ، ربما بما يعني حور سيد (المرمى) ، أو حور الدرء (الحصين) . وانتسب بنفس الكلمة « مجدو » أو مجرو إلى الربتين نخبة وواجة ولكن بدلول آخر قد يعني المهتدى بهما ، أو ما يشبه ذلك من صفات طيبة . . .

ولقب رجال خوفو ملكهم بلقب آخر تحتمل قراءته ” حورى نب رخو “ بمعنى الملك الحورى رب المعرفة (؟) ، أو ” حوروى نب رخو “ بمعنى رب العلماء المنتسب إلى الصقرين (حوروست) ، أو ” حوروى نب رخيتيو “ بمعنى رب الشعب المنتسب إلى الصقرين . . . (١١٢) ، وأياً ما صح من هذه القراءات فإنه يدل من غير شك على رغبة أصحابها في وصف ملكهم بصفة طيبة يحبونها فيه .

وصور المصريين في قصصهم الشعبي جوانب أخرى من شخصية خوفو ، فصوروه يجلس بين عدد من أولاده يسامرهم ويسمع من كل واحد منهم ما تناهى إلى علمه عن أخبار الماضي وأخبار أهل المعجزات فيه ، ورووا أنه كان كلما سمع من أبنائه عن معجزة قام بها فرعون قديم أو عالم قديم ، ترحم على هذا العالم كما ترحم على الفرعون ، وأمر بأن تخلد لكل منهما ذكراه وأن تجزل العطايا والقرابين لمقبرته . وصوروه يبعث ولده إلى حكيم من قومه يدعى جدى لم يكن قد رآه من قبل ، فقابل الحكيم ابن خوفو وحادثه محادثة الند للند ، وأقر له الأمير بمكانة تليق بسنه وعلمه ، ولما وصل جدى إلى خوفو ، قال له الملك ” ما هذا جدى وكيف لم نرك حتى الآن ؟ “ فأجاب جدى : ” مولاي ، من دعى أجاب ، ولما دعوتى لبيت “ ومعنى هذا أن الرجل لم يكن يجد ما يلزمه بأن يتمسح ببلاط الملك من لقاء نفسه أو يقصد أعتابه من لقاء نفسه .

وكان خوفو قد سمع عن جدى أنه يستطيع أن يجبر أسداً على أن يسير أليفاً طائعا خلفه ، وأنه يستطيع أن يقطع الرقبة ثم يتلو عليها تعاويذه فتعود إلى مكانها من الجسم وتسترد حيويتها فطلب خوفو منه أن يجرى معجزاته وسحره على سبعين ، فاعذر الرجل وأجاب في عناد ” ولكن ليس على إنسان مولاي

Pyr. 1928 ; JEQUIER, Mon. Fun, II, pl. 33 ; KEES, Das alte Ägypten, 14. (١١٠)

SETHE, in ZÄS, LXII, 53 f. ; WB, II, 192, 11. GAUTHIER, op. cit. I, 73-74. (١١١)

G. 7210-20 ; cf. REISNER, op. cit., 8. (١١٢) ولقبه بردية وستكار بلقب الشمس أو شبهته برب الشمس رع ، ووصفه بنفس الصفة كاتب من الدولة الحديثة في مقبرة بنى حسن (Pap. Westcar, IX, 1 ; CHAMPOLLION, Notices, II, 423-25.

الحاكم ، وحسبك أن أحدا لم يطلب أداء شيء من ذلك على هذا الشعب النبيل ” وهكذا لم يأت جدى أن يرد على ملكه العظيم بما يعتقد ، ولم يأت أن يعتبر السجين المصرى فردا من شعب نبيل على الرغم من جرمه الذى دخل السجن من أجله .

وأضافت القصة ، وهذا هو الأهم ، أن خوفو عجز عن الاهتداء إلى طائفة من الخزائن والوثائق المقدسة ، ذكر له أتباعه أنها تخص رب الحكمة تحوتى ، فسأل جدى عنها ، فأجاب الرجل بأنه يعرف مكانها فعلا ، ولكنه حاوره عنها وداوره وأبى أن يقوده إليها ، وظل خوفو على جهل بها ، على الرغم من أن نصوصه الملكية ونصوده الرسمية ونصوص رجال حاشيته كانت تلقبه بلقب « ثرعا » أى الإله العظيم !

لسنا نشك في أن ذكر السحر في هذه القصة محض اختلاق وخيال ، وأن اعتذار الحكيم عن أدائه لا يزيد عن مجرد تخلص لبق لطيف ، ولكن حسبا من القصة أنها كشفت عما كان مؤلفها يتخيله من بشرية خوفو واحتمال عجزه عن أداء ما يؤديه بعض رعاياه ، وكشفت عما كان يود الناس أن يظهر به حكيم من الشعب في مواجهة الملك العظيم ، صاحب الهرم الأكبر ، من عزة النفس والاعتراف لقومه بنبالة الأصل (١١٣) .

رتب خوفو أمره على أن يخلفه ولده الأكبر « كاعب » ، وزوجه من أخته حوتب حرس ، ويبدو أنه نشأ تنشئة طيبة شجته على أن يظهر في بعض تماثيله على هيئة الكاتب العالم ، وكانت هي المرة الأولى فيما نعلم ، التي ظهر فيها أمير عظيم متربعا على هيئة الكاتب (١١٤) ، وليس من المستبعد أنه كاد يود أن يظهر بما ظهر به جده سنفرى الذى وصفته القصص بالعلم والثقافة . غير أن كاعب هذا مات قبل وفاة أبيه بقليل بعد أن بلغ مبلغ الرجال ، وأنجب بنتا واحدة على أقل تقدير . ولا يعنينا من ذكر كاعب أن نعدد أسماء أولياء العهود وزواجهم وحياتهم ومماتهم ، وإنما يعنينا من ذكره هو بالذات ، أن وفاته كانت فاتحة لانقسام الأسرة الحاكمة إلى فروع ، تربص كل فرع منها بفرع آخر وحاول أن يستأثر بالحكم دونه . وكانت هذه الفروع فيما يعتقد Y. Reisner ثلاثة ، فرع أبناء الزوجة الرئيسية وبقية منه أميران صغيران لم يستطيعا الوصول إلى العرش أو المطالبة به ، وهما ددف حور (أو جدف حور) — وباو فرع (؟) (١١٥) ، وفرعا من زوجة ثانية ترأسه جدف فرع ، وفرعا من زوجة تالفة ترأسه خفرع (١١٦) .

Pap. Westcar, VII; ERMAN, Die Literatur, 69 f.; GARDINER, in J.E.A., 1925, 3, f.; F.W. GREEN, in (١١٣)

J.E.A., 1930; BLACKMAN, in J.E.A. 1930, 66.

BOSTON No. 34-4-1; 25-1-393 (Bull. M. BOSTON, XXXIII, 75). (١١٤)

Pap. Westcar, IV, 17-18; VI, 2; VII, 8, 9, Tombs G. 7210-7220; G 7310-7320. (.١٥)

وعن احتمال وجود أبناء آخرين :

See, DARESSY, in Ann. S., X, 44; REISNER, Mycerinus, 241; REISNER, Hetep- Heres, 7. (١١٦)

واستطاع جد فرع -حـ ١١٧٠ أن يبلغ العرش ، وتلقب بلقب «خير» ، وكان ترتيبه بين ملوك الأسرة الرابعة مئتا جلد طويل (١١٧) ، غير أنه يكاد يكون من المرجح الآن أنه اعتلى العرش بعد أبيه خوفو ، ويؤيد هذا الترجيح أن بضعة نصوص من الدولة القديمة ذكرته بعده وقبل أخيه خفرع (١١٨) ، وأن اسمه وجد مكتوبا عدة مرات على الأبحار الكبيرة التي كانت تغطي المركب التي كشف عنها حديثا جوبي هرم أبيه . ولما كان من المؤكد أن هذه المركب وضعت في حوزتها عقب دفن خوفو مباشرة ، فإنه يفهم من ترديد اسم جد فرع على الأبحار التي غطتها ، أنه هو الذي أشرف على دفن أبيه وتغطية مركبه ، وأنه بالتالي هو الذي خلفه على العرش .

غير أن جد فرع وإن وفي لذكرى أبيه نأتم دفنه ، وأشرف على شعائره ومطالب هرمه ، إلا أنه لم يكن كذلك بالنسبة إلى أغلب أمراء أسرته ، ناذكنفى بأن تزوج من أرملة أخيه ولى العهد القديم كاوعب ليزكى حقه في العرش عن طريقها ويضمها إلى صفه ، لا سيما أنها كانت في الوقت نفسه أخته من أبيه ، واصطفى بعض أمراء أسرته دون بعض آخر ، وتعهد أن يتعد بهرمه عن منطقة الجيزة بما تتضمنه من مقابر الأمراء الكبار الذين لم يرض عنهم ، وشاد هرمه ومعبيده إلى الشمال الغربي منها بنحو ثمانية كيلومترات في منطقة أبي رواش (١١٩) ، وتبعه في ذلك أنصاره وأهل حاشيته ، وشرعوا

(١١٧) راجع عن تفاصيل هذا الجدل GAUTHIER, op. cit. , I 83-85 and notes

قرأ بترى اسمه رع ددف ليقرب بينه وبين اسم Ratoisès الذى ذكره مانيتون بين ملوك الأسرة الرابعة (A History of Egypt, 10th ed., 74-5) وقراه رائكة رع جدف (RANKE, in J.A.O.S. LXX, 65f.)

وراجع عن الصور المختلفة لكتابة اسمه GAUTHIER, op. cit.

Urk. I, 166; Ann. S., XXV, 18 ; JUNKER, Giza V, 13; REISNER, in ZÄS. XLVIII, 113f. (١٨)

Rec. Tr. XVII, 54; XXII, 173-174, Urk. I, 285f. ولكن كاهنا من العصر السادس ذكره بعد خفرع

ومن النصوص المتصلة بهذه المشكلة نص لسيدة لادعى مريت ايتس تلتقت بالقاب « زوجة الملك ومحبيته ووصيفة حور » ثم لقبين آخرين قالت فيهما أنها « ورت حتس سنفرو ، ورت حتس خوفو »

وترجمت عبارة ورت حتس في هذين اللقبين بترجمات شتى ، فترجمت بمعنى كبيرة الحظايا ، وكبيرة المربيات ويمكن أن تترجم كذلك بمعنى كبيرة الوصيفات وعظيمة الدلال . وترتبت على اختلاف معانيها آراء كثيرة قيل فيها أنها كانت زوجة الملكين سنفرو وولده ، أو حظية لهما ، وافترض ريزنر أخيرا أنها كانت زوجة شرعية لخوفو وأنه تزوجها في عهد أبيه سنفرو فحظيت بمكانتها عند زوجها وعند حميها ، ثم أنجبت من زوجها ولى عهده كاوعب وربما ولدن آخرين وابنة ، ولما مات ولدها ، وولى جد فرع ابن احدى ضرائرها تجاهلته وتجاهلها ولم تذكره في نصها ، ثم استعادت مكانتها في عهد خفرع وذكرت أنها كانت مكرمة لديه ، ولما ماتت في اوائل حكمه دفنها في هرمها الصغير حلف هرم زوجها خوفو

REISNER, Heter-Heres, 7; Smith, in J.N.E.S., 1952, 124, Fig. 2-3; GRDSELOFF, in Ann. S. XLII, 118.

(١١٩) شغل هرمه مساحة تقل عن نصف المساحة التي قام عليها هرم أبيه ، ولم يبق من جزئه العلوى غير القليل ، وربما كان مكسوا كله بأحجار الجرانيت ، وانصرف المهندسون في حفر جزئه المنحوت في باطن الأرض عن أسلوب الأسرة الرابعة ، وعادوا به الى أسلوب الأسرة الثالثة فحفروه على هيئة خندق مكشوف وبئر عمودية . وشادوا معبد شعائره الى شرقه كالمادة ولكنهم بنوا بعض أجزائه باللين ، وجعلوا الطريق الصاعد الى شماله وليس الى شرقه ومدوه بحو كيلومتر ونصف . ويغلب على الظن أن هذه التمديلات رجعت الى طبيعة سطح الهضبة التي شادوا عليها الهرم وتوابعه . وان كان ادواردز قد اضاف احتمالا آخر ، وهو رغبة جد فرع في الانصراف عن طراز الهرم الكامل الى طراز الهرم المدرج ، مخاصمة منه للكهنة أنصار عقيدة الهرم الاول وارضاء للكهنة أنصار عقيدة الهرم الثانى بعد أن ساعدوه على بلوغ العرش دون اخوته . ولكن ليس من اساس سليم لقبول هذا الراى .

في تشييد مقابرهم حول هرمه ، وسرى الإهمال في منطقة الجيزة بضع سنين ، واضطر أمرؤها إلى وقف العمل في مقابرهم بعد أن شرعوا في توسيعها ونقش جدرانها في أواخر عهد أبيه، وآتموا بناء مقاصيرها على عجل باللبن والدبش وليس بالحجر (١٢٠) .

لم يطل حكم جدفرع أكثر من ثمان سنين ، غير أنه يبدو أن عهده لم يكن خاملا كل الخمول وإنما استمر نشاط الفن خلاله ماضيا في طريقه. الخاص ، ونحت له الفنانون عدة تماثيل رائعة أظهروا فيها ملامح وجهه بأسلوب واقعي صارم حزين (١٢١) ، وابتدعوا في عهده ، فيما يظن ، أول نموذج لتماثيل أبي الهول برأس إنسان وجسم أسد رابض . وظهر وجه هذا النموذج دقيق التقاطيع ملونا بلون أصفر وبغير ذقن ، ولهذا افترض Federn أنه وجه أنثى . وأكد شبيجل Spiegel أنه يمثل العدالة ماعت ولا يمثل الملك بالذات (١٢٢) .

واستمر اسم جدفرع باقيا في نصوص الأفراد ، فذكره رجال من عصر الأسرة الخامسة كانوا يعملون بالكهانة في معبده ، ونسبوا عدة ضياع زراعية إلى اسمه (١٢٣) ، وذكره رجل من عصر الأسرة الثانية عشرة في نص سريع مجمله على صحفة بوادي الحمامات ، بعد وفاته بنحو سبعة قرون (١٢٤) . ويبدو أنه تعهد أولاده بتربية طيبة سمحت لهم بأن يظهروا في تماثيلهم على هيئة الكاب والقراء في ساحة معبده (١٢٥) . ولكنهم ظلوا بعيدين عن الحكم في عهد خلفائه حتى أندر لأمر من فرعهم أن يعتلى عرش الأسرة الخامسة ويجمع شمل الفروع المتناحرة من بقية أسرته (راجع ص ٣٦١) .

تولى العرش بعد جدفرع أخوه خفرع (١٢٦) (حرفيا : خعفرع ح ه ه ☉) ، في ظروف غير معروفة ، وأعاد للجيزة أهميتها ، وأعاد لبقية أفراد الأسرة الحاكمة مكاتهم ، وضمن ولاء أسرة أخيه كاوعب ولى العهد القديم بأن تزوج بنته . وطال عهده خمسة وعشرين عاما أوتريد (١٦٠) ، ولكننا لا ندرى للأسف عما تم في عهده من مشاريع عمرانية أو جهود حربية غير النادر القليل ، ولا ندرى معها غير أمرين ، وهما أن لقبها مليكا

REISNER, The Tomb of Hetep-Heres, p. 8 (G. 2120, 7430-7440). (١٢٠)

BORRUX, Guide-Catalogue (Musée du Louvre) pl. LXI; SMITH, A History of Egyptian Sculpture, (١٢١) pl. XI 1-d.

Cairo 35137; W. FEDERN, in Archiv für Ag. Arch Wien, 1938, 60; SPIEGEL, op. cit. § 528. (١٢٢) but, see, SMITH, op. cit, 33.

See GAUTHIER, op cit, I., 84-85 and notes; JUNKER, Giza V, 13. (١٢٣)

Ann S., 1951, 89; Bull. Soc. fr. d'Egypte 1954, 41 f. (١٢٤)

E. CHASSINAT, in Fond. Piot., XXV, 64 f.; Cairo 36; VON WALTER FEDERN, op cit., 57; (١٢٥) M.A. SHOUKRI, op. cit. 6.

(١٢٦) ذكره هيروdot باسم خفرن ، وذكره مانيتون باسم سوفيس أو ساوفيس ، ويرى رانكه قراءة اسمه رع خف (RANKE, op. cit.) ولكن دون قرائن مقنعة .

جديداً تأكد ظهوره في عهده ، وأن آثار العارة والنحت التي تخلفت من عهده تشهد بأن الفن خطا تحت حكمه خطوات واسعة ، لاتقل عن الخطوات التي مر بها في عهد أبيه وعهد جده .

تلقب خفرع باللقاب معبرة لطيفة ، فسمى نفسه ” (حور) سخم إب “ بمعنى (حور) الجسور ، و” حور سخم نوب “ ، بمعنى حور الذهبي الشديد ، و” حور نفر “ بمعنى حور الخير أو حور الأخير (؟) . و” نثر نفر “ بمعنى الإله الخير ، أو الإله الأخير (؟) (١٢٧) . ولقبته بعض أختامه بلقب خفرع حبيب الأرباب ، عن صدر أو عن ادعاء .

وكان الأهم من ذلك كله هو لقبه بلقب ” سارع “ أي ابن رع حح في اسمه ” سارع نب خعو “ ، أي ابن رع رب التجلي (أو صاحب التجليات أو رب التيجان ٠٠٠ ملخ) . وكانت هي المرة الأولى التي يصرح نرعون فيها ببنته للإله رع (١٢٨) ، ثم أصبحت سنة ثابتة بعد عهده ، وامتلت بها دياحة الألقاب الملكية الخمسة .

كان للفرعون هدفان من لقبه الحديد أحدهما هو مسaire مذهب الشمس في نشاطه الواضح السافر خلال عصر الأسرة وهي مسaire بدأها الملوك منذ عصر الأسرة الثانية وفي أوائل الأسرة الثالثة ، وربما سار عليها سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة حين شاد رجاله معبد شعائره ومعبد شعائر أبيه إلى الشرق من هرميهما بدلا من ناحية الشمال إتى شاد ملوك الأسرة الثالثة معا بدهم فيها ، ثم استمرار خوفو فيها حين سمي ثلاثة من أبنائه على أقل تقدير بأبناء يتداخل فيها اسم رع ، وهم جدورع ، وباوفرع ، وخفرع .

أما الهدف الثاني من اللقب الحديد فهو فيما يعتقد يونكر (١٢٩) رغبة الفرعون في التذليل على أنه يعتلى العرش بناء عن بنته للإله رع صاحب العرش القديم وبتفويض منه ، وربما عن رغبة منه كذلك في أن يتبرك باسمه وأن يكتب له دوام مثل دوامه ولو خلال حياته الانية . وكثيرا ما عبرت النصوص المصرية عن هذا الأمل الأخير لملوكها ، وكانت تدعو لكل منهم بقولها ” عاش مثل رع وإلى الأبد “ (١٣٠) .

(١٢٧) GAUTHIER, op cit , I, 87-89 H. MÜLLER, op cit , 58-59, 68.

يقترح شتوك ترجمة » نفر « في القاب الملوك بمعنى الأخير ، بحيث يدل لقب حور نفر على الملك الجالس على العرش باعتباره الصورة الأخيرة للمعبود حور بين الأحياء ، وبدل لقب نثر نفر على الملك المتوفى باعتباره آخر من تحولوا الى الربوبية بعد وفاته ، ولكنه لا يزال يضع رأيه في صورة الفرض .
H. Stock, -nfr=Der Gute Gott ?

(١٢٨) أشار مسيرو الى ظهور لقب سارع مع اسم سنفرو ، وأشار ليبسوس الى ظهوره مع اسم خوفو ، ولكن الاستشهادين مشكوك فيهما (cf. GAUTHIER, op cit, 64, 77.) .

(١٢٩) H. JUNGER, Die Politische Lehre, 63-4.

(١٣٠) cf. WAINWRIGHT, in J.E.A., XXV, 30 f.

تألفت أهم آثار العمارة الباقية من عهد خفرع ، من هرمه ومعبيده والطريق الواصل بينهما . ويقل هرم خفرع عن هرم أبيه من حيث الضخامة والارتفاع (١٦٧) ، ولكن مهندسه شاده على جانب من هضبة الجيزة أكثر ارتفاعا من الجانب الذى بنى عليه هرم أبيه ، فعوضه بعض الشيء عن قلة ارتفاعه عنه ، وسماه صاحبه أو سماه كهنه «ورخفرع» بمعنى عظيم خفرع أو عظمة خفرع. ويمتاز الهرم في حالته الراهنة باحتفاظ قاعدته بكساء من حجر الجرانيت ، واحتفاظ قته بجانب من ألواح الحجر الجيري الأبيض التي كانت تكسوه .

تبدأ ملحقات هرم خفرع بمعد الوادى ، وهو معبد ضخم يعتبر أكل معبد من عصره وجد حتى الآن ، شيد من أحجار هضبة الجيزة وارتفعت واجهته نحو ثلاثة عشر مترا، وكسيت بألواح ضخمة مميكة من الجرانيت ، وهى ألواح لا تقتصر أهميتها الراهنة على الدلالة على ما كان يكسو المعبد من جلال وروعة في عهد صاحبه، وإنما تمتد كذلك إلى الدلالة على جبروت من نقلوها من محاجرها في أسران حتى الجيزة على الرغم من بساطة إمكانياتهم وبساطة أدواتهم .

وتستقبل واجهة المعبد ناحية الشرق بمدخلين ، يرمزان إلى الوجهين ، الوجه القبلى والوجه البحرى ، ويرمزان إلى اجتماع شمل أهلها في طاعة الفرعون وفي ساحة معبده .

وكانت مواكب الحاشية في حياة الفرعون ، ومواكب الزائرين بعد وفاته ، تصل إلى المعبد عن طريق قناة تربط بينه وبين النيل ، وتنتهى هذه القناة بمساة يصعد بها الزائرون والكهان ليقفوا قليلا خاشعين في مواجهة المعبد ومواجهة تمثال للفرعون كان يستقر داخل ناووس حجري كبير لم يتبق مما يدل عليه حتى الآن غير موضع القاعدة التي كان مثبتا فيها ، ثم يعبرون مدخل المعبد ، وكان يحرس كل مدخل من هذين المدخلين ، تمثالان متقابلان (من الجرانيت) يمثلان الملك على هيئة أبى الهول ، بوجه إنسان وجسم أسد ، حراسة رمزية بطبيعة الحال (١٣٢) .

ويفضى كل من المدخلين إلى ردهة مستطيلة تتصدرها مشكاة ضخمة عالية ، كان يستقر فيها تمثال لخفرع بتاج الصعيد أو بتاج الدلتا مع ربة من الربات الأثيرات لديه مثل حتحور أو باستة التي وصفته نقوش معبده بأنه كان حبيبها وأظهره أحد تماثيله الباقية يجلس بجانبها .

(١٣١) بلغ ارتفاعه ١٣٦ مترا وبلغ ارتفاع هرم أبيه ١٤٦ مترا أو أقل قليلا ، وبلغ طول ضلعه ٢١٠ امتار وبلغ طول ضلع هرم أبيه ٢١٥ مترا ونصف متر .

HÖLSCHER, Grabdenkmal des Chephren, Abb 5. (١٣٢)

BORCHARDT, Statuen, S. 11-12. (١٣٣)

ورمز المصريون الى هذه العبودة بهيئة القطعة وكان لها معبد في حى من مدينة اتب حج يدعى سخ تاوى وربما اعتبرت فيه صورة للمعبودة سخمة زوجة بتاح . وذكرت نصوص الدولة الحديثة هذا المعبد . واحتفظت آثار العصور المتأخرة بجبانة للقطط في منطقة مسورة شرقى السرايوم البطلمى في سقارة .

KEES, Art "Memphis", in Pauly-Wissowa, Real-Encycl., 784, f.

وعثر على أحجار نقشت باسم خوفو واسم خفرع في بلدة تل بسطة وكانت مركز رئيسا لعبادة الربة باستة مما قد يعنى أنهما اشتركا في بناء معبدها هناك ، وإن كان فاندييه لا يستبعد أن تكون هذه الأحجار منقولة

من مكان آخر . VANDIER, Manuel, II, 602.

وتجتمع الوفود في بهو المعبد الداخلى ، وهو بهو رحب كسيت أرضيته بالأبلاستر الأبيض وكسيت جدرانه بالجرانيت الوردى ، ورفع سقفه ستة عشر عمودا ضخما من الجرانيت ، واستقر على جوانبه ثلاثة وعشرون تمثالا للفرعون مثله جالسا في مهابة يضم يمينه إلى صدره ويرسل يسراه على نغذه، نُحِت بعضها من الأبلاستر الأبيض، ونُحِت بعضها من الديوريت الأزرق ، ونُحِت بعضها من الشست الأخضر. وكانت ألوانها إذا اجتمعت مع ألوان الجدران والأرضية والأعمدة تحت أشعة الشمس الذهبية التي تندفع إليها من فتحات السقف الحجري وتنعكس عليها من الأرضية البيضاء الناصعة ، أضفت على بهو المعبد جلالا وبهاء لا يفوقهما جلال وبهاء . ولكن حدث في عهد غير معروف ، ولسبب غير معروف ، أن أودعت بعض تماثيل المعبد في بئر عميقة قرب مدخله ، وظلت به حتى عثر عليها في أواسط القرن الماضى ، ونقلها أوجست مارييت إلى المتحف المصرى ، بعد أن تهشم أغلبها ، وبقى أقلها سليما ، ومن هذا القليل تمثال من الديوريت خلع الفنان على ملاح وجهه مهابة وقداسة تليقان بصاحبه ، وظلل مؤخرة رأسه بصقر شامخ يرمز إلى المعبود حور ، ويفرد جناحيه حول رأس الفرعون كأنه يظلمه ويحميه. واستطاع الفنان أن يذلل صخر الديوريت في تمثاله ، وهو من أشد الصخور قساوة ، فأظهر تقاطيع خفرع فيه دققة ناطقة وأظهر فيه عضلات بدنه مشدودة قوية واضحة .

نشأت بشأن أغراض معبد الوادى آراء عدة ، منها ثلاثة محتملة ، وهى أن جانبا منه كان يعتبر استراحة مؤقتة للفرعون في حياته كما زار منطقة الحيزة ليشرف على بناء هرمه فيها ، وأن جانبا منه جرت فيه طقوس تخنيط جثة صاحبه عقب وفاته وبعض مراسم جنازته ، وأنه أصبح يستخدم بعد ذلك لاجتماع الوفود خلال المواسم والأعياد ، يقصدونه من كل حدب وصوب ، حتى إذا اكتملت أعدادهم فيه ، وحيوا تماثيل الفرعون الموجودة فيه ، وتلوا دعواتهم عند بعض آثاره الشخصية الباقية^(١٣٤) ، خرجوا بين تراتيل الكهان وأتنام الموسيقى الدينية من بابه الخلفى ، وبدأوا سيرهم على الطريق الصاعد ، وكان طريقا يمتد نحو نصف كيلو متر طولاً (٤٩٤,٦٠ من الأمتار) وخمسة

(١٣٤) ظهرت مدرسة جديدة ابتغت الربط بين معبد الوادى وبين طقوس التحنيط وما ذكرته متون الاهرام عن مصائر الفراغة بعد وفاتهم ، وكتب فيها وناقشها كل من

B. GRDSELOFF, Das ägyptische Reinigungszeit, Kairo 1941; Et. DEATON, in Ann. S. 1941,

1007f; H. RICKE, Bemerkungen zur ägyptischen Baukunst des alten Reichs, I,;

RICKE- SCHOTT, ibid., II; S. SCHOTT, Bemerkungen zum äg. Pyramidenkult, Kairo 1950,

ALEX. BADAWY, Le Dessin Architectural chez les Anc. Egyptiens, Le Caire 1949, 209f.

ومن آرائهم أن معبد الوادى لخفرع تضمن سبعة أقسام تتفق مع المراحل التى ذكرتها متون الاهرام لمصائر الملوك بعد الوفاة ، وتمثل مراحل الرسو والتطهر والحماية والتحنيط وفتح القم . ويفترضون أن مقتنيات الملك الخاصة كانت تحفظ في ست مشكاوات داخل المعبد، اثنتين للتاجين ، وأربعة لحفظ آوانى الاحشاء ونسبوا كل واحدة منها الى مدينة معينة او معبد معين. واذكر عن الاستاذ فيكتيف انه كان يرى أن ١٧ تمثالا من تماثيل خفرع داخل المعبد كانت ترمز الى شهور العام وأيام النسء ، حتى تؤدى الشعائر أمام كل واحد منها في شهره او في يوم معين من أيام النسء الخمسة .

أمتار عرضاً ، ويحف به جداران سميكان مرتفعان ، تكسوهما من الداخل بلاطات جيرية بيضا ومن الخارج بلاطات جرانيتية حمراء ، وييلان إلى الخارج في جزئهما الأسفل ويستقيمان في الداخل . وليس ما يمكن تأكيده حتى الآن عما إذا كان هذا الممر مسقوفا أم غير مسقوف ، ولكن يتجه الظن إلى أنه كان مسقوفا بإحكام بحيث لا ينفذ الضوء إليه إلا من فتحات ضيقة في أعلاه ، رغبة في توفير الرهبة وطابع السرية والتموض فيه .

وتنتهي الوفود من الطريق الصاعد إلى مدخل معبد الشعائر، وهو معبد يجاور الهرم من ناحيته الشرقية، ولا يقل في ضخامته عن ضخامة معبد الوادي ، لولا أن التهدم أصاب جانبا كبيرا منه ، واستخدمت أحجاره في أعمال البناء خلال العصور القديمة والوسطى . وكان يتألف في صورته القديمة من عناصر كثيرة ، يمكن إجمالها في قسمين متصلين : قسم أكبر يغلب عليه طابع العمومية ، وقسم أدغر تغلب عليه صفة الخصوصية وطابع السرية . ويتلو القسم الأكبر باب الدخول ، وإليه تنتهي الوفود بعد خروجها من الطريق الصاعد ، ويتألف من ثلاثة أجزاء : فيبدأ بصالة أعمدة تتدرج من الاتساع إلى الضيق نحو الداخل ، بحيث يتسع عرضها في بدايتها ثمانية أعمدة جرانيتية كبيرة متعاقبة ، ويتسع عرضها في منتصفها لأربعة أعمدة ، ويقصر في نهايتها على عمودين نحسب . ويتلو الصالة بهو أعمدة مستطيل يذهب هلتر إلى أنه كان يتضمن تماثيل لخفرع تصوره في ملابسه الدنيوية الرسمية ، وحده تارة ومع زوجته تارة أخرى . ويتهي البهو إلى فناء رحب متسع تتعدد الممرات حوله وتوجد عدة أبواب على جانبيه ، وتتعاقب بين الأبواب تماثيل لخفرع تصوره بردائه الأخرى (وهو عباءة محبوكة) متوجا بتاج الصعيد على الجانب الأيسر ومتوجا بتاج الدلتا على الجانب الأيمن، وتتوسط الفناء مائدة قربان ضخمة تضع الوفود هداياها عليها باسم صاحب المعبد .

ويتألف القسم الأصغر من ثلاثة أجزاء أيضا، تؤدي فيها الشعائر اليومية والموسمية لصالح صاحبا، وهي : خمس حجرات مستطيلة ، لا تزال الآراء تختلف في تعيين أغراضها ، ويذهب الظن إلى أنها كانت تتضمن خمسة تماثيل ملكية يتقدم الكهنة أمام كل تمثال منها بالدعوات والقرايين باسم من أسماء الملك الخمسة أو ألقابه الخمسة . ثم حجرات عدة أخرى تضمنت كنوز المعبد وذخائره وأدوات طقوسه . وأخيرا قدس الأقداس أو الحرم الذي لم يكن يقربه غير الفرعون الحاكم وكبار الكهان ، وهو عبارة عن مقصورة بسيطة مستطيلة يتصدرها باب وهمي عظيم من الجرانيت ومائدة كبيرة للقرايين (١٣٥) .

وامتاز فن النحت في عهد خفرع بأثر كبير آخر ، طغت شهرته على شهرة هرمة ومعبيده ، وهو أبو الهول . ولأبو الهول جسم أسد رابض ورأس إنسان ناهض كما هو معروف ، جمع الفنان بينهما في انسجام عجيب لا يكاد الرأي يشهر معه أنه أمام كائن مفتعل غريب .

(١٣٥) ومرة أخرى خرج اصحاب المدرسة السابقة بأرائهم في اقسام هذا المعبد ، وافترضوا ان قسمه الاول كان يرمز بأجزائه الى مقاصير بوتو وساييس وأونو ، ويتضمن ماسموه باسم بوابة نوت ، كما يتضمن مشكوات للتيجان ولوانى الاحشاء . ونسبوا القسم الثانى من المعبد الى اوزير رب الآخرة .

ونحت الفنان الرأس فيما يرجح حتى الآن على هيئة رأس فرعون خضوع ترينه شارات الملك ، وهي عصابة رأس مخططة عريضة تسمى النس وتصنع من قماش مقوى لتغطي الرأس ومؤخرته ، وحية حارسة تنهض على الجبين ، وحية دقيقة طويلة مستعارة ترمز إلى التحاء أوائل الملوك الأقدمين (وسقطت الحية والحية من موضعيهما لتطرفهما) .

وعبر الفنان في تمثاله عن رأى أهل عصره في مثالية فراعينهم أو على الأقل عن رأى أهل الحاشية في مثالية فراعتهم ، وهي مثالية جمعوا إليهم فيها سمو التفكير البشرى و بأس الأسد ، واستمروا يرددونها لهم طوال عصورهم القديمة ، على نحو ما استمروا يلقونهم بالأسود والفحول .

ينهض أبو الهول فوق قاعدة مرتفعة نحت معها في الصخر الطبيعي لهضبة الجيزة ولكنها كسيت بأحجار جيرية ملساء ، وبلغ ارتفاعه معها نحو اثنين وعشرين مترا ، وقام في مواجهته معبد كبير ، لازالت الآراء مختلفة في تحديد أغراضه ، ومن هذه الآراء رأى يعتقد أصحابه أنه أعد لتقديم القرابين والدعوات باسم صاحب التمثال نفسه ، وأن التمثال بعد أن كان يرمز إلى خضوع أصبح في نفس عهده أو بعده بقليل ، يعتبر حارسا لمدينة الموتى في منطقته أى منطقة الجيزة ويستحق التمجيد والتقدیس تبعا لذلك (١٣٦) .

وقرنا فقرنا نسي المصريين أصل في تمثال أبو الهول أكثر فأكثر ، واعتبره أهل الدولة الحديثة صورة من صور إله الشمس ، وظلوا يتعبون على هذا الاعتبار ، وأقاموا النصب باسمه بين يديه وفي معبده ، واستوى في ذلك الفراعنة ورعاياهم (١٣٧) .

وحدث أن نزل منطقة الجيزة أقوام من الكنعانيين خلال العصر نفسه ، عصر الدولة الحديثة ، فتعبدوا أبا الهول باعتباره صورة أصيلة من معبود كنعانى قديم ، قدسوه في بلدهم الأصلية . وأطلقوا عليه اسم ربهم الكنعانى ، "حورون" (١٣٨) ، وأجاز المصريون ما أتى الكنعانيون به (١٣٩) ، وحرفوا الاسم الكنعانى أكثر من مرة ، فنطقوه حورنا ، ونطقوه أخيرا « حول » بعد إحلال حرف اللام محل حروف الراء والواو والنون القديمة في كتابتهم (راجع ص ١٧) .

(١٣٦) آثرنا في حديثنا أن نعتبر اسم « أبو الهول » اسما مبنيا ، حيث لا ابوة فيه ولا بنوة . وعن آراء أخرى كثيرة عنه وعن معبده ، راجع :


S. HASSAN, The great Sphinx and its Secrets, Cairo 1953, 25 f, 157 f, 221 f.

وأضاف شيجل رأيا طريقا عن تمثال أبى الهول ، مؤداه أنه كان مند بدايته يرمز الى « ماعت » ويعنى العدالة المستقرة أو النظام المستقر ، وذلك في مقابل دلالة الهرم على النظام الهرمى الديوى الذى كان الفرعون يحتل أرفع مكانة فيه (op. cit, 528).

(١٣٧) يعتقد كيس أن الربط بين أبو الهول وبين إله الشمس أوحى به القصة التى ردت نسب ملوك الأسرة الخامسة الى رع إله الشمس (97) (KEES, op, cit, 97)

See, POSENER, in JNES, IV (1945), 240f. (١٣٨)

(١٣٩) ورمزوا إليه بصقر ، ربما عن رغبة في الإشارة الى الصلة بينه وبين المعبود حور ، ووجد له تمثال على هذه الهيئة في تانيس عاصمة الرعامسة (MONTET, Tanis, pl. IV, p. 96f.)

وطفت رمال الجيزة على التمثال في عصوره القديمة وحجته عن العيون أكثر من مرة ، وكشفها المصريون عنه أكثر من مرة (١٤٠) ، وعندما وفد المؤرخون الإغريق إلى مصر لم يروه ولم يكتبوا عنه ، ولم يذكره سوى الرحالة بليني في كتابه عن التاريخ الطبيعي (١٤١) ، واعتاد الكتاب الكلاسيكيون منذ ذلك الحين على أن يشيروا إليه باسم سفنكس Σφινξ ، وهو اسم يرى B. Junn أنه متطور عن اسم مصرى قديم كان ينطق شسب عنخ  ويصف التمثال بأنه "الصورة الحية" لرب العالمين أتوم (١٤٢) على حد تعبيره، ولكن لا زال تفسيره في مرحلة الفروض .

وظل تمثال أبو الهول طوال عصوره القديمة والوسطى والحديثة متاراً للإعجاب حيناً، ومثاراً للرهبنة حيناً آخر ، وظن فيه بعض المؤرخين المسلمين قدرة سحرية ، وسموه بأسماء غريبة ، نذكره المقرئى باسم بالهيب ، وحكى أن شيخاً يدعى صايم الدهر أراد أن يسخ وجهه باعتباره أثاراً من آثار الوثنية الأولى ، فببت على زروع الجيزة ريح عاتية ألتفتها ، فظن صايم الدهر أنها كرامة من صاحب التمثال واضطر إلى العدول عن محاولته !

وانتهت أسماء التمثال إلى اسمه الحالى أبو الهول ، وهو اسم يعبر في لغتنا العربية عن طابع الرهبة أو داج الهول الذى اكتسى التمثال به وظنه الناس فيه، ولكنه لا يخلو في الوقت نفسه من صلة تربطه بالاسم الكنعانى القديم «حول» بعد إحلال الماء محل الحاء وبعد إضافة كلمة أبو، وهى كلمة تطورت فيما يبدو عن أحد لفظين مصريين قديمين، لفظ «بو» بمعنى مكان، أو أداة التعريف المذكورة المفردة «با» .

وشهدت بعض النصوص القصيرة والآثار الصغيرة من عهد خفرع بما كان يحيط بهرمه وتوابعه من عمران وحياة دائبة، فذكر نص من عهده أنه خصصت لهرمه ومعابده قطعان كبيرة تكونت من ١٠٥٥ رأساً من المشاية و٩٧٤ رأساً من الأغنام ، و ٢٢٣٥ رأساً من الماعز (١٤٣) ، وذلك مما يدل على كثرة من كانوا يعملون في معابده سواء بالكهانة أم بالحراسة والخدمة. وبقيت مجموعات متصلة من المساكن العادية إلى الغرب من هرمه ، بلغ عددها ٩١ مسكناً ، وبُنيت من الدبش ثم كسيت بملاط من الطمي والجير ، وكانت مقبية السقف ودكت أرضها بالطين ، وقامت كل مجموعة منها في صف متصل يستند على جدار ساند واحد ، وكانت في مجملها مساكن متواضعة لا يزيد كل مسكن منها عن حجرة واحدة يبلغ عرضها نحو ثلاثة أمتار وارتفاعها مترين أو أكثر قليلاً . ويفترض بترى أنها كانت تتسع لنحو أربعة آلاف عامل من العمال الدائمين في منطقة الهرم (١٤٤) ، وقد نرى بنطاق عصرنا الحالى أن تكديس هذا العدد في مساكن قليلة لا يخلو من امتهان لكرامة الإنسان، ولكنه كان بالنسبة إلى أهل عصره خيراً من المبيت في العراء .

*
* *


A. ERMAN, "Die Sphinz Stela" in Sb Berlin, Akad. 1904. (١٤٠)

PLINY, Nat. Hist., XXVI, 17. (١٤١)

L.D. II, 9. (١٤٣)

See GARDINER, Egypt of the Pharaohs, p. 82. (١٤٢)

HOLSCHER, op. cit., 70; PETRIE, The Pyramids and Temples of Gizeh, p. 101. (١٤٤)

يعقب اسم خفرغ من الأسماء الكبيرة في الأسرة الرابعة اسم منكاورع  الذي تلقب بلقب «كاخت» ، أى فحل الجماعة ، جماعة الأرباب، ولقب «(حورنوب) واج لب » أى (الصقر الذهبي) متعش القلب أو صاحب القلب الشاب^(١٤٥) . وذكره هيرودوت باسم موكيرينوس وعبر عنه مايتون باسم منخريس .

ونشأ بعض الشك في اعتبار منكاورع ولدا لخفرغ ، واقترض أصحاب هذا الشك أن تنازعا حدث على العرش قبل عهده ، وكان من قرائنهم في ذلك أن قائمة تورين أضافت ملكا بينه وبين خفرغ ، ضاع اسمه فيما تمزق منها^(١٤٦) . وزاد هذا الشك بالعثور على نص قصير سجله كاتب من الدولة الوسطى على صخرة بوادي الحمامات وضمنه أسماء خوفو وچدفرع وخفرغ وددف حور وباو فرع . وذلك مما أوحى بأن كلا من ددف حور وباو فرع حكما بعد خفرغ وسبقا منكاورع على العرش^(١٤٧) . لولا أن الاستنهاد بهذا النص الأخير ، فيما نرى ، استنهاد ضعيف ، فصاحب النص لم يتبع من نصه إلا أن يسجل ما احتفظت به القصص في عهده من أسماء خوفو وأبنائه مثل القصة المشهورة باسم قصة خوفو والسحرة ، دون أن يحفل بأسماء أحفاده ، ودون أن يبغى التاريخ في نصه لتتابع ملوك الأسرة الرابعة ، ولو أراد التاريخ لهم لكتب مع الأسماء الخمسة اسم منكاورع ، على أقل تقدير ، لا سيما وأنه لم يكن من اليسير عليه أن يتجاهله وهرمه قائم على هضبة الجيزة بجانب هرمي أبيه وجده ، وذكرناه باقية في مداون الملوك وفي أفواه مواطنيه الذين اعتبروه أكثر تساهلا مع رعيته وأكثر قربا منهم من أبيه وجده . وذلك على حين لم تشتهر للأميرين ددف حور وباو فرع اللذين ذكرهما بعد خفرغ ، آثار تضعهما في مصاف الملوك ، وإن استمتع أولهما بسمعة طيبة ، باعتباره من حكماء عصره المتدينين الزاهدين أصحاب التعاليم^(١٤٨) ، وبقيت له مقبرة ضخمة ضمن مقابر أمراء الجيزة الكبار ، ورفعته بعض مواطنيه إلى مصاف الأولياء^(١٤٩) ، وربما ولى ثانيهما الوزارة في عهد أخيه^(١٥٠) .

(١٤٥) GAUTHIER, op. cit. I, 95 f; H. MÜLLER, op. cit. 59; E. DRIOTON, in Ann. S., 1944, 53-54.

(١٤٦) Turin. Pap. III, 13 (?)

(١٤٧) Chr. d'Egypte, 1950, 239; Ann. S., 1951, 89; Bull. Soc. fr. d'Ég., 1954, 41 f.

(١٤٨) G. POSENEB, in Rev. d'Ég., IX (1952), 109 f. BRUNNER-TRAUT, in ZÄS, LXXVI, see also ERMAN, (١٤٨) Pap. Westsair, I, 19; MASPERO, Contes, 30, 33; GAUTHIER, L. R., I 80; Book of the Dead., Ch. LXIV.

(١٤٩) يرد يونكر هذه الولاية الى جدف حور وبراء هو نفسه ددف حور . H. JUNKER, Giza VII, 26 f., 114; etc...

(١٥٠) من احتمال تولى باو فرع الوزارة : REISNER, Hetep-Heres, 10.

بدأت بعد سنوات قليلة من حكم منكاورع فترة جديدة في تاريخ الأسرة الرابعة ، اختلفت في إمكانياتها و ضخامة عمارتها وعلاقات حكماها بحكومها عن الفترة التي سبقها والتي انتهت بحكم خفرع وامتدت سنوات قليلة في عهد منكاورع .

ويتجلى اختلاف الإمكانيات واختلاف الأوضاع بين الفترتين بمقارنة عمائر منكاورع وخلفائه بعمائر أسلافهم . فاهم الآثار الباقية من عهده هو هرمه الذي أطلق عليه اسم « نى » بمعنى المقدس ومعبد شعائره . و يبلغ الارتفاع الحالى لهرمه نحو ٦٢ مترا ولم يزد ارتفاعه الأصيل عن ٦٦ مترا ، أى أقل من نصف ارتفاع هرم أبيه خفرع وأقل من نصف هرم جده خوفو (١٥١) . وإن امتاز في حالته الراهنة بأن ستة عشر مدما كان من مداميكة السفلى كسيت بأحجار جرانيتية وردية ضخمة ، وذلك مما دعا المقريزي إلى أن يصفه في أيامه باسم الهرم الملون .

وكان للهرم معبدان وطريق صاعد شأنه شأن بقية أهرام الأسرة الرابعة : معبد شعائر كبير ضخم معقد التركيب ، بدأ المهندسون بنائه بأحجار ضخمة هائلة وأنفقوا فيه جهدا كبيرا (١٥٢) ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتموه في عهد صاحبه ، على الرغم من أنه حكم أكثر من واحد وعشرين عاما ، وتركوه إلى عهد الفرعون شيسسكاف حيث أتوا أجزاءه الباقية من اللبن دون الحجر . وطريق صاعد كان شأنه شأن معبد الشعائر ، رصف رجال منكاورع أرضيته بالحجر وأتمه رجال شيسسكاف فبنوا جدرانها من اللبن أيضا . ثم معبد الوادى ، ولم يكن منكاورع قد أنشأ منه شيئا ذا بال حتى وفاته ، فأمر شيسسكاف بتشييده باللبن أيضا فيما خلا أعمدته وأعتاب أبوابه التي كان لا بد من أن تبنى بالحجر (١٥٣) وفي ذلك كله ما يباعد بطبيعة الحال بين آثار منكاورع وإمكانيات عهده ، وبين فخامة معابد خوفو وخفرع ، و ضخامة عمارتها و ضخامة الجهود التي بذلت فيها .

غير أن آثار منكاورع لم تخل على الرغم من ذلك مما يشهد لأهل العارة والفن في عهده بالبراعة والقدرة على التجديد ، وكان من صور براعتهم في بناء هرمه أنهم شقوا ثلاث قنوات رأسية كبيرة على جانبي أحد دهاليزه الداخلية لتزلق فيها ثلاثة متاريس حجرية ضخمة ظلت مرنوعة على مساند حجرية أو خشبية حتى تم الدفن ثم أسقطت في قنواتها وسدت الدهليز سدا محكما (ولو أن إحكام سده لم يحل دون سرقة) . وشكلوا تابوت منكاورع من البازلت وزخرفوا جوانبه بما يشبه هيئة المشكاوات الرأسية التي كانت تتعاقب في واجهات القصور وواجهات أسوارها ، وذلك على عكس توابيت أسلافه

(١٥١) يقال ان هرم خوفو تضمن احجارا تبلغ نحو مليونين ونصف مليون من الامتار المكعبة ، وتضمن هرم خفرع نحو ١٨ مليون متر مكعب ، وتضمن هرم منكاورع ربع مليون متر مكعب فقط . (of SPIEGEL, op. cit., § 528).

(١٥٢) يقال ان بعض كتل الجرانيت التي استخدموها فيه بلغت زنة الواحدة منها ٣٠ طنا .

(١٥٣) دعا الى نسبة اتمام المعبد الى عهد شيسسكاف نص وجد في المعبد ذكر على لسان شيسسكاف انه شيده تداكارا لابييه ملك الصعيد والدلتا منكاورع - راجع قرار شيسسكاف عن هرم منكاورع (Urk. I, 180) وقرارا آخر لصالحه وصالح كهنته (Urk. I, 277).

التي كانت عاطلة من الحلية^(١٥٤) ونحتوا له بضعة تماثيل ، مثله بعضها وحده ، ومثله أحدها مع زوجته ، ومثله ستة منها يقف مشدود القامة مع معبودين ، المعبودة تحتور من جانب ومعبود آخر رمز إلى إقليم من الأقاليم المصرية المختلفة من جانب آخر^(١٥٥) وكانت لتحتور منزلة خاصة في عهده تشبه منزلة باستة في عهد أبيه ، فوصفته بعض أخصامه بأنه حبيبا^(١٥٦) . وظهرت في بعض تماثيلها معه تحيط خصره بذراعها وتلمس ذراعه بكفها . وبلغ الفنانون في نحتها جميعها مبلغا طيبا من دقة النحت ودقة التعبير وسلامة التنفيذ .

وتبأ لكبار الأفراد في عهد منكاورع من الثراء وحرية التصرف في مقابرهم أكثر مما تبأ لهم ولأسلافهم في عهد أبيه وعهد جده ، فكثرت تماثيلهم فيها ، وزادت نقوشهم ومناظرهم على جدرانها ، ونحتوا بعضها داخل الجدار الصخري لهضبة الخيزة عوضا عن تشييدها من الحجر فوق سطح الأرض ، ومارسوا شعائرهم فيها بحرية أوسع من الحرية التي سمح لهم بها أبوه وجده .

واستن منكاورع سنة سياسية جديدة ، ففتح قصره لأبناء المقربين من كبار موظفيه ، وعهد بترابتهم إلى كبار رجال القصر مع أبنائه . ليشبوا أوفياء له مخلصين لبلاطه ، وكان منهم شاب يدعى شيسسواح . وصور صلات منكاورع بكبار أهل العاصمة ومحاولاته في اكتساب ولائهم عن طريق العطايا وطريق الساحة ، نص سجله رجل يدعى دبجن ، وقص فيه أن منكاورع كان في طريقه ذات مرة ليتفقد أعمال البناء في هرمه ، فاعترض طريقه ولفت نظره إليه ، وحادثه ، ورجاه أن يأذن له بتشييد مقبرته قرب هرمه ، فقبل منكاورع رجاءه ، وأذن له بتشييد مصطبة كبيرة طولها مائة ذراع وعرضها خمسون ، وعهد إليه بخمسين عاملا من عمال الخاصة الملكية ، وأذن بإعفائهم من كافة الأعباء فيما خلا أعباء بناء مصطبته وتمهيد الأرض حولها ، وأمر بأن يشرف على تشييدها مهندسها الخاص وأثنان من كبار أهل الفن في عهده ، وسمح له بأن يستورد من أحجار طرة والمقطم ما يكفي لكسائها وبناء مقصورتها وصناعة باين وهمين فيها ونحت تماثيل يمثلها بحجم أكبر من حجمه الطبيعي بكثير ، فضلا عن نحت تماثيل لمساعدته^(١٥٧) .

وكانت أمثال هذه اللفات من منكاورع لكبار رجال رعيته وتساهله في الإذن لهم بإقامة التماثيل في مقابرهم وممارسة الشعائر فيها في حرية مطلقة ، أصلا فيما يبدو لما سمعه هيرودوت في العصور المتأخرة من أن المصريين أحبوا منكاورع أكثر مما أحبوا أباه وجده^(١٥٨) .

(١٥٤) وغرق هذا التابوت خلال نقله في خليج بسكاي . LEPSIUS, Auswahl, Taf. VII ; L.D.II, 2e.

(١٥٥) SMITH, A History of Egyptian of Sculpture , pl. 13 ; Urk. I, 159.

(١٥٦) PETRIE, Abydos II, pl. xvi, 18

(١٥٧) Urk. I, 18 f. ; BREASTED A.R. I, 211 f.

(١٥٨) ولم يخل عهد منكاورع من بعثات إلى شبه جزيرة سيناء لاستغلال مناجمها وتاديب بدوها ، شأنه في ذلك شأن عهد أبيه وعهده وجده - راجع عن جهود أولئك الثلاثة في سيناء

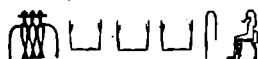
(GARDINER - PEET, Sinai, pl. II - III; Urk I, 8.)

على ذلك أنه ليس من ضرورة إطلاقاً إلى افتراض سياسة دينية جديدة في عهده سواء بمناصرتة لرع أو بعدائه له وإنما ينبغي أن ترد تبعة هذه السياسة — إن وجدت — إلى عهد أبيه . ولم يقل أحد بأن أباه تناول رع بشيء جديد .

أما القضية الأخرى ، فهي قضية طراز المصطبة الذي اختاره المهندسون لمقبرته دون طراز الهرم ، وهو اختيار يمكن أن يبعد عن رع وعن قضاياه كلها ، ويمكن أن يعلل بنقص الموارد في عهد صاحبه ، وبرغبته في أن يتحاشى بناء هرم صغير تتضح ضآلته إذا شيد بجانب أهرام أسلافه الكبار في الجيزة . ويزكى هذا الفرض بنقص الموارد في عهده ، ما أسلفناه عن اضطراب رجاله إلى إكمال معبد شعائر منكاورع باللبن دون الحجر ، وتشيد معبد الوادى له من اللبن أيضا .

ونخلص من القضيتين بأنه إن كانت قد ظهرت سياسة جديدة في عهد شيسسكاف تجاه المعبود رع ، فهي سياسة تناصره ولا تقاومه ، أو هي على الأصح سياسة تسايره وتتفق مع السياسة التي سار عليها أسلافه الأقربون ، لاسمياً وأنه ظل يحتفظ بلقب سارع الذي ظهر منذ عهد جده خفرع ، وهو اللقب الذي كان يجعله ولداً مباشراً لرع . وهكذا يمكن ترجمة اسم شيسسكاف بمعنى ”عزت نفسه“ أو ”جلت ذاته“ إذا كانت النفس نفس رع ، وبمعنى ”عزيز النفس“ إذا كانت النفس نفس شيسسكاف . كما يمكن ترجمة اسمه الآخر ”شيسسخت“ بمعنى ”عزير الجماعة“ (جماعة الأرباب) أو بمعنى ”شريف البدن“ . وتحتمل كلمة خت المعنيين معنى الجماعة ومعنى البدن في اللغة المصرية القديمة .

واتبع شيسسكاف سياسة منكاورع في اكتساب ود عطاء قومه عن طريق رعاية أبنائهم في قصره ، ويذكر له من ذلك أنه تزوج ابنته من الشاب شيسسيتاح الذي باه منكاورع في قصره وواصل رعايته (١٦٣) ، وكانت هي المرة الأولى فيما نعلم التي تزوج فيها فرعون ابنته من أحد أفراد رعيتيه . وسلك شيسسكاف سياسة مماثلة في سبيل اكتساب ود عطاء كهنة المعابد في عهده عن طريق إعفائهم وإعفاء معابدهم من بعض التكاليف المفروضة عليهم لحساب خزائمه ، وبدأ في ذلك مجموعة هرم منكاورع وكهنتها ومواردها .

لم يطل عهد شيسسكاف ، ور بما لم يزد عن أربع سنين ، ثم انتهت وراثة العرش في أسرته إلى الأميرة خشتكاوس  . وطال نقاش الباحثين في نسبها هي الأخرى ، وفي مدى استغلالها لحقها الوراثي في العرش ، وفيما إذا كانت أختاً لشيسسكاف وزوجة له أم لم تكن ، وفيما إذا كانت قد شهدت ملكاً آخر يحكم بعد شيسسكاف أم لم تشهد ، وفي مدى تأثيرها في توجيه أمور

الدولة في عهد زوجها "وسركاف" الذي سوف يكون رأسا لأمره حاكمة جديدة (ص ٣٦١) ، وعهد ولدها ساحورع الذي اعتلى العرش بعده .

ويتجه الترجيح حتى الآن إلى اعتبار خنتكاوس ابنة منكاورع ، وزوجة لأخيها شيسسكاف (١٦٥) ، واقترض جورج ريزنر أن ملكا على الأقل ولي العرش بعد وفاة زوجها ، وهو ددف پتاح ، وربما ملك آخر يدعى نفركارع اختلفت قوائم الملوك في تعيين أسرته ولم يجد المؤرخون موضعا مناسباً له ، ولكن لا يزال رأى ريزنر في أمر هذين الملكين بغير سند قوى يؤيده (١٦٥) .

وشاد المهندسون مقبرة خنتكاوس على هيئة تابوت ضخيم فوق قاعدة صخرية مربعة عالية ، أى بما يشبه مقبرة أخيها وزوجها (؟) شيسسكاف إلى حد كبير ، وجوفوا معبد شعائرها في صلب قاعدة المقبرة ، وبنوا معبد واديا قريبا من معبد وادى أبيها منكاورع . ووصلوا بين معبديها بطريق يمتد من معبد شعائرها ناحية الشرق ثم يتحرف ناحية الجنوب في زاوية قائمة (١٦٦) . وتلقبت خنتكاوس في مقبرتها بلقب "أهـرمان يونكر بقراءتين فقرأهـ : " . . ملكة الصعيد والدلتا أم ملك الصعيد والدلتا بنت الرب " وقراءهـ : "أم ملكي الصعيد والدلتا بنت الرب" وفضل يونكر القراءة الأولى واستدج منها أن انحصار وراثة العرش في خنتكاوس سمح لها بأن تتلقب بلقب الملكة وأنه من المحتمل أن تكون حظيت بتأثير واسع على ولدها في صغره (١٦٧) ، وأن تلقبها بلقب بنت الرب يشير إلى دورها في نقل شرعية الحكم إلى زوجها شأنها في ذلك شأن زوجة سنفرو .

انتهت شجرة الأميرة الرابعة بخنتكاوس كما أسلفنا ، وتميز لهذه الأميرة فيما رأينا عهدان : عهد انتهى بحكم خفرع ، وعهد بدأ بعد سنوات قليلة من حكم منكاورع . وتمت آثار العهد الثاني ونصوصه عن ظروف تختلف عن ظروف العهد الأول إلى حد كبير ، ظروف اتصفت بضعف الموارد الحكومية ، وقلة الضخامة والنفخامة في آثار الفراعنة بالنسبة إلى آثار أسلافهم الأقربين ، وإن كانت اتصفت في الوقت نفسه بظاهرة مستحبة ، وهي حرص هؤلاء الفراعنة على اكتساب ود كبار كهنتهم وكبار موظفيهم .

(١٦٤) اعتقد يونكر أن خنتكاوس كانت ابنة منكاورع من زوجته مرس غنخ الثالثة وإن هذه الزوجة كانت من سلالة جدفراع ، وأضاف أن شيسسكاف كان أخاها غير الشقيق وكان من فرع ثانوى

H. JUNKER, in Mitt. Kairo III, 142 f., 136.

Compare : Ann S. XXV, 178 f ; GARDINER, Egypt of the Pharaohs 434. (١٦٥)

(١٦٦) كان موضع مقبرتها ومعبدها قرب مجموعة منكاورع وليس قرب هرم ولدها في أبو صير ، من القرائن التي استشهد بها يونكر في اعتبارها ابنة لمنكاورع (op. cit. 142, 144)

Compare : Ann. S., XXXVIII, 209 f. ; JUNKER, op. cit., 129, 131, 143 (١٦٧)

وأشار يونكر بعده المناسبة الى ما ذكره هيرودوت ودودور وسترابون عن ملكة شادت هرما في الجيزة أو تمت بناء هرم في الجيزة . Herodot., II, 124, 126 ; Diodorus I, 64, 75 ; Strabo, 808 . وأضاف ادواردز أن ولدى خنتكاوس اللذين اعتليا العرش بعد زوجها الجديد ، كانا من زوجها القديم شيسسكاف . (أهرام مصر - معرب - ص ١١٩) .

ويمكن إيجاز أسباب الاختلاف بين ظروف العهدين في ثلاثة عوامل ، وهي :

أولا - أن الأسرة بدأت عصرها برخاء عظيم واستقرار مكين وجهد كبير في تنمية موارد البلاد عن طريق تنشيط الاستثمار الداخلي وتوسيع التجارة الخارجية، وتمت عن رخائها حينذاك أخبار عهد سنفرو وعهد خوفو على وجه الخصوص ، لولا أن الأهرام الضخمة ومعايها وتماثيلها التي أسرف في إنشائها سنفرو وخوفو وخفرع لأنفسهم ، وألحقوا بها جيشا من الكهنة والأتباع ، وأسرفوا معها في إنشاء الأهرام الصغيرة لزوجاتهم والمقابر الضخمة لأبنائهم ، استنفذت كلها نصيبا كبيرا من إمكانيات البلاد ومواردها ، واستنزفت جانبا كبيرا من موارد الخزائن الملكية ومدنراتها ، وجعلت الملكية مهددة بأن تفقد إحدى وسائلها الرئيسية للتعبير عن مجدها وسلطانها وممارسة السيطرة الكاملة على البلاد وأهلها ، وهي الوسيلة المادية .

ثانيا - ما يحتمل من أن فترات التنافس الداخلي على العرش ، التي بدأت عقب وفاة خوفو ، وربما عقب وفاة منكاورع وعقب وفاة شيسكاف أيضا لو صح ظن من أسلفناهم من الباحثين ، قلت بعض الشيء من هيلمان الفراعنة وأشعرتهم بحاجتهم إلى تأييد كبار رعاياهم وضرورة كسب ودهم ولو على حساب خزائهم وخزائن حكومتهم .

ثالثا - أن فراعنة الأسرة اضطروا إلى مسaire دين الشمس وتشجيعه في مراحل عدة ، ولم يكن دين الشمس في حد ذاته جديدا في حياة شعبهم ، وإنما كان الجديديه هو اعتراف دولتهم به على نطاق واسع . بل إن اعتراف دولتهم به لم يكن في حد ذاته أمرا ذا خطر ، ولكن الخطر كان في أن يعقبه أمران، وهما : أن ينصرف جانب من ولاء الناس إلى الإله رع المعبود الظاهر صاحب الشهرة الواسعة ، على حساب ولائهم القديم للفراعنة وربهم الخفي حور، وأن ينصرف جانب من الموارد المادية إلى الديانة الجديدة ، ديانة الشمس ، على هيئة أوقاف وهبات وإعفاءات لمعايها وكهنتها الذين أخذت أعدادهم تتزايد باستمرار ، على حساب موارد الحكومة وخزائنها ، أو على الأصح على حساب موارد الملكية وخزائنها .

وشهدت أواخر الأسرة ازباعة عواقب هذه الظروف كلها ، فشهدت ضعف الموارد الملكية ، واضطرار الملوك إلى بناء أهرام صغيرة ومقابر على هيئة التوابيت ، وشهدت اتجاه الملوك إلى كسب ود كبار رعاياهم ، وشهدت انصراف جانب من ولاء الرعية وجانب من الموارد الملكية إلى ديانة الشمس وأنصارها . ويبدو أن أكثر المستفيدين من هذه الظروف كانوا من أنصار ديانة الشمس بالذات، وأنهم أخذوا يتطلعون إلى مزيد من الدالة على حكومتهم ، ومزيد من التأثير على العرش وصاحبه ، وتبنيات لهم فرص هذه الدالة وهذا التأثير منذ أن انتهت وراثه عرش الأسرة الرابعة إلى ختكاوس ، فشجعوا أحد

خاصة قومهم المناصرين لهم على الزواج منها ، وهو « وسركاف » ، وكان فيما يعتقد جردسلوف حفيدا للملك چدفرع ، وورث الإمارة عن أمه نفرحوتبس ، بنت چدفرع (١٦٨) ، ولم يرثها عن أبيه الذي يحتمل أنه كان من أنصار الشمس وكهنتها ، وعندما تزوجها خلعت عليه شرعية الحكم التي ورثتها عن أبيها وأخيها ، واشتركت معه في تأسيس أسرة حاكمة جديدة ، وهي الأسرة الخامسة . ويبدو رأى جردسلوف مقبولا إلى حد كبير ، وإن لم يصل بعد إلى مرتبة اليقين (١٦٩) .

(١٦٨) Ann. Serv., 1942 64 f. وذلك على عكس رأى يونكر الذى خمن فيه ان خنكاوس هى التى انحدرت

من سلالة جد فرع (راجع حاشية ١٦٤)

(١٦٩) اخطا مانيتون فرد مؤسس الاسرة الخامسة الى الفتنيى (اسوان)

ج - في عصر الأسرة الخامسة

(٢٥٦٠ - ٢٤٢٠ ق . م .)

يعتبر عصر الأسرة الخامسة فاتحة عصر زاهر جديد ، اتسعت فيه آفاق دين الشمس وشملت أمور الدنيا والآخرة ، وازداد التقارب خلاله بين الملوك وبين كبار أفراد الشعب ، ومضى التطور الطبقي يسير فيه بخطى وثيدة ، وبلغ فن العمارة والنحت والتصوير والنقش فيه ذرى عالية ، واستأنفت مصر خلاله صلاتها التجارية الخارجية على نطاق واسع ، مع فينقيا في شمالها الشرق وبلاد بونت في جنوبها الشرق .

جمعت الأسرة الخامسة الحاكمة الجديدة بين فرعي الأسرة الرابعة الكبيرين المتنافسين ، فرع خفرع الذي مثلته ختكاوس ، وفرع جد فرع الذي مثلته وسركاف ، وساعدها ذلك على أن تستعين ببحرة أمراء الأسرة الرابعة في وظائفها ، ويحتمل أنها لم تجد بأسا في أن تجعل منم ك (أوسنم كارع) بن خفرع أول وزير لها (١٧٠) . غير أن أنصار الأسرة الجديدة لم يقنعوا بفراغتهم بحق الحكم عن طريق زواج أيهم بسبيلة البيت الحاكم في الأسرة الرابعة وحدها ، وابتغوا أن يردوا شرعية حكمهم إلى إرادة ربانية قديمة وأصل مقدس ، فخرجوا على الناس بأسطورة جعلتهم من صلب رع ، رب الشمس بالذات . وليس ما يعرف حتى الآن عن النص القديم لهذه الأسطورة ، وعمما إذا كان أصحابها اكتفوا بإذاعتها شفاها بين الناس ، أم سجلوها منذ بداية أمرها كتابة وتصويرا ، وكل ما يمكن ذكره عنها هو أن الناس تداولوها شفاها عدة قرون وغيروا بعض الشيء في أسمائها ، ثم سجلوها كتابة بصورتها المعدلة المنمقة ، واعتبروها من الأدب القديم ، وبقيت من نسخها المكتوبة نسخة كتبها أديب من عصر الدولة الوسطى ، على بردية عرفت اصطلاحا باسم بردية وستكار .

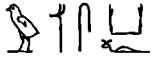
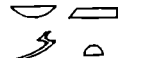
كانت أسطورة أصحاب الأسرة الخامسة أسطورة قصيرة الحوادث ولكنها ضخمة المدلول ، ذيلوا بها قصة الملك خوفومع الحكيم جدى (راجع ص ٣٤٤) ، وادعوا أن خوفو بعد أن سأله عن الخرائن المقدسة أو الذخائر المقدسة لرب الحكمة تحوتى وطلب إليه أن يدلّه عليها ، اعتذر الحكيم بأن الوصول إليها لن يتيسر إلا لأكبر ثلاثة أبناء لامرأة مباركة تدعى " رود جدة " وأن هؤلاء الأبناء الثلاثة سيكونون من سلالة الإله رع نفسه ، وسوف يبلغون العرش على التوالي بعد أن يلى أكبرهم منصب كبير الرائين في مدينة الشمس أونو . وزادت الأسطورة أن خوفو خشى عاقبة هذه النبوءة ، وتحوف سلطان الأبناء الثلاثة ، ولكن جدى طمأنه بأن ظهور شأنهم لن يتأت إلا بعد عهده وعهد ولده وعهد حفيده أيضا . وقصت الأسطورة أن النبوءة تحققت بمخادفها ، وأن رود جدة أتاها المخاض ، ولم يكن لديها من يعينها عليه غير زوجها البشرى " وسرع " وكان كاهنا من أولياء المعبود رع . وشاء رع أن يعين المرأة على ولادتها ، لاسميا أنها حملت بوحيه ومن روحه ، فأوفد إليها أربع ربات على هيئة البشر ، قابلة وهى الربة إيسة ،

وثلاث مساعدات وهن نبت حت وحتت ومسختت، فضلا عن تابع عجوز حمل كرسى الداية وحاجيات التوليد وهو المعبود خنوم. واسترسلت الأسطورة في وصف عملية الوضع، وهو وصف لن يعيننا من حيث التاريخ السياسي في شيء، ولكنه يعيننا من حيث تصويره لبعض العادات القديمة وبعض الأخيلة القديمة. روت الأسطورة أن الربات انفردن بالحامل في غرفتها وأوصدن بابها عليهن وعليها، حتى وضعت الأم توأمها الثلاثة، وكان كل منهم كما تحكى الأسطورة يباغ الذراع طولا، متين العظام، نقشت ألقابه فوق جسده بماء الذهب، وكللت هامته باللازورد الخالص، وكلا ولد توأم منهم بشرته إحدى الربات بما قدر له من حظ سعيد، وقالت له "ملك يتولى الحكم في هذه الأرض جميعها".

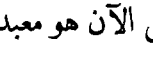
وتولت الربات غسل المواليد، وقطعن لكل منهم حبله السرى، وأرقدنه فوق مهد متواضع صغير غطينه بغطاء كتانى بسيط، وشاء تابعهن العجوز أن يتخير لنفسه دورا يُجر عليه، فطمأن الوالدة على سلامة أبنائها الثلاثة، وعمل على أن يزودهم بالعافية كما تروى الأسطورة، ربما بدعائه المبرور أو بسح أبدانهم الغضة بباطن كفه المبروك. وخرجت الربات أو القابلات الى الزوج فالقينه يرتدى ثوبه مقلوبا من فرط جزعه على زوجته وحملها، فلما بشرته بالبنين انزاح التلق عنه ووهبن ما كان يدخره في داره من الشعير. ورأت الربات أن يؤثرن الوالدة بالشعير على أنفسهن، فخرجن به أولا شكرات ثم خبان فيه ثلاثة تيجان هدية إلى المواليد، واتمسن عذرا يعدن به الى دار أبيهم، فأوحين الى العاصفة أن تثور فتارت، وهطل المطر بعدها مدرارا، ثم رجعن الى دار وسرع، وسألنه أن يحتفظ لمن بالشعير خشية أن يبلله المطر، فاخترنه في مخزن وجعلهن يخمنن عليه زيادة في الطمأنينة، وهو لا يدري ما خبأه فيه. وبعد أربعة عشر يوما تطهرت النفساء واستعدت لمأدبة متواضعة أولمتها للهنئين وشكرا لمعبودها على ما وهبها من سلامة وبنين، وحينذاك اضطرت لضيق ذات يدها أن تتمس جانبا من الشعير الذى تركته الربات على أمل أن تعوضهن عنه خيرا، فلما انطلقت خادماتها لتأتيها به سمعت أنعاما عذبة رقيقة تنبعث من مخزن الشعير، فأنبأت سيدتها بأمرها، ولما تأكدت السيدة مما أنبأتها به علمت أن ربهما أكرم مواليدها، وأن هذه الأنعام تحية مباركة لهم، وأنه سيهبهم العرش وحكم البلاد، ولكنها تخوفت انتقام الحكام القائمين، فأوصت خادماتها بكتمان الأمر. وبعد حين اختلفت الخادمة مع مولاتها فخرجت من دارها واعتزمت أن تقضى أمر السيدة وأمر أولادها، وبدأت بأخيها وبناته بنجرها، فأبى أن يشاركها خياتها ونهرها وضربها، ولكنها لم تردع، ومضت في حال سبيلها، حتى بانغت حافة النهر وماتت إليه تريد أن تروى ظمأها، فخرج عليها تمساح وافترسها. وحق وعد رع وتحققت إرادته فنشأ الأولاد الثلاثة على خفاء حتى اختلفت الموازين في أواخر الأسرة الرابعة، فاعتلوا العرش الواحد منهم بعد الآخر. وأعادوا للبلاد أمنها ورخاءها (١٧١).

كانت أسطورة أصحاب الشمس أسطورة ملفقة في غالب أمرها، ديجها أصحابها في أواخر عصر الأسرة الخامسة وأرادوا أن يوحوا بها الى الناس أن ولاية أوائل ملوك الأسرة كانت عن إرادة واختيار من إله الدولة الأكبر رع، وأن النسب توفر لبقية أفراد الأسرة عن طريق بنوة أوائلهم له بالذات.

ولسنا ندرى مدى قبول الناس لما روته الأسطورة ، إن كانوا تقبلوها عن إيمان وتصديق ، أم اعتبروها مجرد دعاية من الكهان وأهل البلاط لصالح ملوكهم ، ولكننا ندرى أن ملوك الأسرة ظلوا أوفياء للإله رع صاحب الفضل في ارتقاءهم العرش ، وظلوا أوفياء لكهنته الذين آزرهم في حكمهم .

تلقب وسركاف  أول ملوك الأسرة الخامسة بلقب معبر يناسب وضعه كمؤسس لأسرة جديدة وهو إيرماعت  أى واضع النظام أو محق الحق ، وتعاقب بعده ثمانية ملوك ، تداخل اسم رع في أسماء ستة منهم على أقل تقدير وهم : ساحورع ، ونفرير كارع ، وشبسكارع ، ونفر فرع ، ونى وسررع ، ومن كاوحور ، وجد كارع ، وونيس (١٧٢) .

واهتم أغلبهم بمعبد إله الشمس في مدينته المخزارة أونو ، أى عين شمس الحالية ، وأقاموا له ستة معابد على مثاله أطلقوا عليها أسماء تربطها به مثل نحن رع أى حصن رع أو ساحة رع ، وست لب رع أى موضع قلب رع أو موضع أمل رع ، وشسوب لب رع أى ملاذ قلب رع أو شيء من هذا القبيل ، وأخت رع أى أفق رع (١٧٣) .


وبدأ هذه المعابد رأس الأسرة، وسركاف ، وبني معبده متواضعا من اللبن . ولأمر غير معروف ، بناه في منطقة أبو غراب جنوبي الحيزة وليس في أونو نفسها ، بينما بنى هرمه ومعبديه إلى الجنوب منه في سقارة ، وقد تهدم الهرم ومعبدها ، ولكن تبقى من صور الطيور التي كانت ترين جدران معبد الشعائر ما ينم عن يد فنية متبينة وإحساس مرهف بجمال الطبيعة الطلقة وكائناتها . وبقيت رأس ضخمة رائعة من الجرانيت لوسركاف ، يذهب الظن إلى أنها كانت رأسا لتمثال كامل ، وإذا صح هذا الظن وكان التمثال جالسا لم يكن ارتفاعه ليقبل عن نحسة أمتار (١٧٤) ، ويبدو أن ضخامة التماثيل كانت ترتبط بمؤسسي الأسر الحاكمة أكثر من غيرهم ، إذ أثرت نفس الضخامة لبعض تماثيل زوسر مؤسس الأسرة الثالثة وأمنمحات مؤسس الأسرة الثانية عشرة ، ولو أن لضخامة التماثيل أسباب عدة أخرى . وقلده خلفاؤه ، ولم يكتفوا ببناء معابدهم قرب معبد سلفهم في أبي غراب وإنما زادوا على ذلك فبنوا أهرامهم ومعابدها بجواره في منطقة أبو صير* التي لا تبعد عن أبي غراب بأكثر من ميل واحد . وأكثر معابدهم بقاء حتى الآن هو معبد نى وسررع  سادس ملوك الأسرة، وهو معبد

(١٧٢) وتلقب كل منهم باللقاب أخرى ذكرتها له آثاره ، فتلقب ساحورع بلقب نب خعو ، وتلقب نفرير كارع بلقب وسرخو ولقب كاكاى ، وتلقب شبس كارع بلقب ايسى (ZAS L, 3) ، وتلقب نفر فرع بلقب نفر خعو ، وتلقب نى وسررع بلقب ست إبتارى ولقب اين ، وتلقب منكاوحور (أو اكواوحور أو حورى كاو) (Z.A.S.XLII,8) بلقب من خعو ، وتلقب جد كارع بلقب جد خعو ولقب ايسى ، وتلقب ونيس بلقب واج تاوى (GAUTHIER, op. cit. 110-142)

Ibid, 106, 116, 125, and references. (١٧٣)

FIRTH, in Ann. S., xxix, pk. I - II ; Z Æ S, 1955, 140-44. (١٧٤)

* سنعتبر اسم « أبو صير » اسما مبنيا باعتباره تحريفا لاسم « بوأوزير » أو « برأوزير » في اللغة المصرية القديمة .

ضخم نغم شديد هو وملحقاته من الحجر (١٧٥) . وتكونت عمارته هو وملحقاته من ثلاثة عناصر متميزة : مبنى ضخم ينهض على حافة الهضبة ويطل على الوادي ، ويعتبر مدخلا إلى منطقة المعبد ، ويشبه معبد الوادي بالنسبة إلى مناطق الأهرام . ويلىه طريق صاعد مكشوف لأشعة الشمس تعبى الوادى وهى تهلل لربها رب السماء والأرض . ثم معبد الشمس ذاته ، وهو بناء ضخم ولكنه بسيط التكوين ، يتألف من فناء رحب مرصوف عظيم الاتساع ينكشف لنور إله الشمس ويتضمن رموزه التى رأى الناس آياته فيها ورمزوا بها إليه . وأهم هذه الرموز مسلة حجرية ضخمة بلغ ارتفاعها الأصى عندنى وسرع فيما يعتقد بورخارت نحو ستة وثلاثين مترا . واتخذت قمتها هيئة الشكل الهرمى الصغير ، وكانت فيما يرجح مكسوة بصفائح النحاس أو مموهة بالذهب ليتألق نورها ويتوهج حين تنعكس عليها أشعة ربه ، وتسمى " بنين "  ربما بمعنى المشعة (١٧٦) ، وكان يتقدم المسلة من ناحيتها الشرقية مائدة متسعة من المرمر المصرى ، تقدم عليها القرابين الطازجة وربما أحرق بعضها ليتصاعد غيرها إلى إله الشمس فى سماءه . ويتضمن المعبد موضعين لنحر الضحايا ، تجرى الدماء منهما فى مجار مكشوفة إلى أحواض حجرية مستديرة واسعة . وجاورت المعبد من الخارج قرب جداره الجنوبي مركب مشيدة من اللبن ، كانت تتضمن مركبا خشبية حقيقية بلغ طولها عندنى وسرع نحو ثلاثين مترا ، كانت ترمز إلى مركب رب الشمس رع التى يعبر سماءه فيها ، ويحمل أنه كانت تقابلها سفينة أخرى ، بحيث ترمز إحداها إلى مركب النهار « معنجة » التى تخيل المصريون أن رب الشمس يعبر بها سماء الدنيا ، وترمز الأخرى إلى مركب الليل « مسكنة » التى تخيلوه يعبر بها سماء العالم السفلى .

لم تجر عادة المصريين على أن يضمّنوا معابد الشمس تماثيل لربها أو محاريب مقفلة يعبد فيها ، واكتفوا بأن اتجهوا بدعائهم إلى كوكبه فى سماءه ، وقدموا قرابينهم إلى الشرق من مسلته ، ونزهوه عن أن يخفى فى أرضهم داخل تماثيل أو خلف جدران وأستار . واستمرت هذه المظاهر تميز معابد الشمس عن معابد بقية الأرباب المصريين فى أغلب عصورها التاريخية القديمة .

وحرص أتباع الشمس على أن يسجلوا فى معابد ربهم مظاهر فضله على ملوكهم ، فصوّروهم يحتفلون بأعياد السدى ظلّه ، ثم سجّلوا فيها نعمته على عباده عامة ، فزينوا بعض قاعاته وممراته الجانبية بمناظر ذات ألوان زاهية ، رمزوا فيها إلى مظاهر الحيوية ووجوه النشاط التى تتعاقب خلال فصول السنة بفضل الشمس وربها ، من حرث وبذر وجنى وحصاد ، وتناسل الحيوان وتكاثره ، وحياة الطيور فى الطبيعة الطلقة حين تغرد ، وحين تمرح ، وحين تفرح ، وحين يعتدى كبارها على صغارها ، وحين تعطف الأم

F.W. VON BISSING-L. BORCHARDT, Das Re-Heiligtum des Königs Ne - Woser-Re (Rathures) I-III (١٧٥) Berlin 1905-1928, VON BISSING - H. KEES, Unters. zu den Reliefs des dem Re - Heiligtum des Rathures, Mnuich 1922

(١٧٦) يرى شبيجل أن قمة المسلة كانت ترمز الى ما رمزت اليه قمم أهرام الأسرة الرابعة من حيث اعتبارها رمزا للنظام العالى الذى يحتل الرب قمته او يحتل الفرعون قمته واعلى مكان فيه وارفع مكان فيه . (op. cit., 6(6))

على أفراخها ، ثم تعبئة عسل النحل وتخدير العنب . واستطاع الفنانون أن يبلغوا في ذلك النجاح كله ، من حيث حيوية التصوير ووضوح الألوان ودقة التفاصيل (١٧٧) .

تقيدت معابد أبي غراب (أو أبو صير) بخصائص معبد الشمس القديم الذي تواترت الأخبار عن قيامه في مدينة أونو ، ولكن اعتبارها معابد لعبادة فعلية منذ بداية أمرها أمر لا يتخلو من شك ، ذلك أنه لم يكن من المقبول أن تخصص لعبادة منتظمة في منطقة صحراوية قليلة السكان مثل منطقة أبي غراب أو منطقة أبو صير ، لاسيما وهي معابد إله الشمس الذي قامت عبادته على أساس العلانية ، ولم تعترف ديانتها بالمقاصير الخفية ولم تهتم اهتماما واضحا بالطقوس السرية . وكان بلاكان قد شك في تخصيصها لعبادة رع بالذات واقترض أن أصحابها شادوها بمناسبة احتفالهم بأعياد السد (١٧٨) . ولا نرى ضرورة للأخذ بالشرط الأول من رأيه ولكن شرطه الثاني تركه ثلاث قرائن ، وهي : أن مناظر احتفالهم بأعياد السد سجلت على جدران هذه المعابد بالفعل . وأن إقامة المسلات أصبحت بالفعل من ضرورات الاحتفال بأعياد السد (منذ الدولة الوسطى؟) . وأن إقامة معابد السد قرب مناطق الأهرام الملكية كانت لها سابقة في عهدى زوسر وستفرو ، ولا يفتى هذه الفروض أن ملوك الأسرة الخامسة تبركوا بنسبة هذه المعابد إلى إله الشمس وسموها باسمه ووهبوا إليه ، فضلا عن معابد العبادة الفعلية التي أقاموها له في مدينته الرئيسية أونو وربما في غيرها من أمهات المدن المأهولة بالسكان أيضا .

اهتم فراعنة الأسرة الخامسة ببيوت خلودهم ، أي أهرامهم ومعابدها ، على نحو ما اهتموا بمعابد ربهم ، وتوزعت أهرامهم في سقارة وأبو صير ، ولكن ظلت الفوارق واضحة بين أهرامهم وبين أهرام الأسرة الرابعة في الجيزة ، وأهم هذه الفوارق ثلاثة ، وهي :

أولا — أنها قلت عنها كثيرا من حيث الضخامة وأحجام الأحجار والقدرة على مغالبة عوادي الزمن ، كما قلت عنها في فخامة مظهرها . ويمكن أن ترد قلة الضخامة فيها إلى ذوق معارى معين ساد عصرها ، ولكن قلة المتانة فيها وبساطة البناء وقلة الضخامة ، أقرب إلى أن تعلق كلها بأن سيطرة أصحابها على موارد البلاد ظلت أقل من سيطرة فراعنة الأسرة الرابعة عليها ، وأن نصيبا من موارد الخزانة تسرب إلى معابد رع وأنصارها ، فضلا عن معابد بقية الأرباب الذين احتفظ المصريون بالولاء لهم جنبا إلى جنب مع معبودهم الأكبر رع .


ثانيا — أن الأسلوب الفنى للمعابد الملحقة بها ، أى معابد الشعائر ومعابد الوادى فضلا عن الطرق الواصلة بينها ، اهتم بعنصر الزخرف أكثر مما اهتم الأسلوب الفنى للمعابد الأسرة الرابعة ، ووضح هذا الاهتمام في تشكيل أساطينها على هيئة النخيل والبردى ، أو على الأصح تشكيل تيجانها أى أجزائها

WRESZ., Atlas III, 106 ; VON BISSING, in Ann. S., 1955 - 1956, 319 f. with 23 plates. (١٧٧)

BLACKMAN, in J.E. A. IX, 263 - 65 (١٧٨)

العلوية على هيئة سعف النخيل وزهور البردى ، ووضح كذلك في كثرة المناظر المنقوشة على جدرانها الداخلية ، كثرة جعلت بورخارت يقدر أن مساحات الجدران التي أعدت للنقش في مجموعة ساحورع ثاني ملوك الأسرة بلغت نحو عشرة آلاف متر مربع (لم يبق منها إلا سبعمائة حتى الآن غير مائة وخمسين مترا مربعا) ، وصورته هذه المناظر انتصارات أصحابها الفراعنة ، وصورته علاقاتهم بأربابهم ، وصورته أعيادهم الرئيسية ، وصورته جوانب من حياتهم الخاصة ، وجوانب من حياة شعبهم ، وصورته السفن النيلية الكبيرة تفتد من أسوان إلى منطقة المعابد محملة بالكل الجرانيتية الضخمة، والسفن البحرية الكبيرة التي تردت في عصرهم بين مصر وفينيقياء، تحمل الرسل والتاجر والمصنوعات والحيوانات الغريبة كالذبابة .

ولم تخل التفاصيل المعمارية الصغيرة في معابد الأسرة الخامسة من طرائف . واهتمت بعض هذه التفاصيل بتنظيم وسائل تصريف المياه من سطوح المعابد وأرضياتها فضلا عن أرضيات الطرق الواصلة بينها . وكانت وسائل تصريف المياه قد بدأت في مباني الأسرة الرابعة على أقل تقدير، ولكنها بلغت نصيبا وافقا من ذوقها المعماري في مباني الأسرة الخامسة ، فأصبحت مياه السطوح تنساب إلى ميازيب شكلت نهاياتها على هيئة رؤوس أسود ضخمة تناسب هيئتها مع ضخامة المباني ونفامتها، ويمر المجرى عادة من تحت ذقن الأسد ، أما مجارى الأرضية فكانت تحت ضيقة في الأرضية الحجرية أحيانا ، وتجري في مواسير من النحاس أحيانا أخرى، ثم تنتهي إلى حوض كبير من الحجر .

ثالثا - أن آخر أهرام الأسرة الخامسة زما ، وهو هرم ونيس  في سقارة ، حفلت جدران حجيرة الدفن فيه والصلالة المؤدية إليها بمتون دينية وتاريخية وأسطورية عرفت اصطلاحا باسم متون الأهرام . وهي متون نقشها الفنانون بالكتابة التصويرية الهيروغليفية ، فخرجت معجزة في إتقان نقشها ورقة حروفها ودقة التفاصيل الصغيرة في صورها البشرية والحيوانية والطبيعية التي تداخلت في تكوين مقاطع جملها ومخصصاتها ، ثم لونها بألوان متمعة لازالت تحتفظ بجانب كبير من رونقها وبريقها وجمالها حتى اليوم على الرغم من مرور ما يقرب من أربعة وأربعين قرنا عليها ، وزخرفوا معها سقف حجيرة الدفن بأشكال النجوم حتى بدا كأنه سماء تظلل جثة الفرعون وتحتويها (١٧٩) .

نقشت متون الأهرام لأول مرة في هرم ونيس كما ذكرنا ، في أواخر القرن الخامس والعشرين ق . م . على وجه التقريب . غير أن ذلك لا يعني أنها ألفت في عهده لأول مرة ، أو أنها كانت من وضع فرد بعينه ، أو أنها اقتصر على عقائد عصر بعينه ، وإنما هي على الأرجح من إنتاج عصور وقرون طويلة ، وإنتاج كفايات فكرية متباينة ، ومذاهب دينية متعددة ، ظلت نصوصها وأفكارها متفرقة قبل عهد ونيس في صدور الكهان وعلى صفحات البردى وسطوح الفخار والأحجار وعلى أفواه الرواة والمحدثين عهدا طويلا ، حتى صحت الرغبة في عهد ونيس في تسجيلها في باطن هرمه ،

(١٧٩) كتب في متون الأهرام باحثون كثيرون يصعب حصرهم ، ومن أوضحهم في كتابته جيمس هنري برستر في كتابه T. H. BREADED, Development of Religion and thought in Ancient Egypt, London 1912; and The Dawn of Conscience, New York 1933.

تأكيدا لاستفادته الأخروية من تراتيل الدين التي تضمنتها، وربما تعويضا لفخامة هرمه عن صغر حجمه،
 وحينذاك توافد على المشرفين على بناء هرمه كل من ظن أنه يعرف من العاويذ والتراتيل ما ينفع الفرعون
 في أنحراه وكل من ظن أنه يعرف عن عقائد الأقدمين وأساطيرهم ما لا يعرفه سواه، توافدوا جميعهم
 على المشرفين على إعداد الهرم، رغبة منهم في إظهار علمهم حيناً، وتقرباً منهم إلى صاحب الهرم حيناً،
 وطمعاً في خيراته في أغلب الأحيان، فقبلوا منهم كل ما تتسع له المسطحات المعدة للنقش في باطن الهرم
 فيما خلا الجدار الغربي لمحجرة الدفن حيث يوضع التابوت عادة، وحيث يصبح بوسع الفرعون الثاوي فيه
 على جانبه أن يرى ويقرأ ما يمتد إليه بصره مما حوله من التراتيل والدعوات والأقاصيص.

وترتب على تنوع مصادر متون الأهرام وتعدد مؤلفيها أن خرجت في نهاية أمرها تحمل أكثر من
 دلالة على أصحابها وتحمل أكثر من دلالة للبا-مين فيها، فظهرت فيها أخيلة عدة صوّرت بعث الفرعون
 وخلوده وأشادت بتجديده، وظهرت فيها صيغ كثيرة كانت تتلى عند تقديم القرابين باسم الفرعون لتحويل
 نفعها إلى روحه، وظهر فيها كثير من أسماء الأرباب القدماي وصفاتهم، وكثير من الصفات القدسية
 المسرفة التي اعتاد الكهان والساسة وأهل البلاط على أن يتقربوا بها إلى ملوكهم، وكثير
 من تصوّرات المفكرين عن الخلق الأول ونشأة الوجود، وكثير من قصص المحمدين عن الحوادث
 القومية القديمة، وكثير من روايات رجال الدين عن العلاقات بين أرباب التاسوع الأكبر لاسمياً أتوم وورع
 وأوزيروست وإيسة وحرور، وكثير من أماني المؤمنين في الآخرة وجناتها، وكثير من مخاوفهم من
 أخطارها وعقباتها، وكثير من تصوراتهم عن سلطان الفراعنة فيها.

وكان أمتع ما سجله أصحاب الفكر والدين في هذه المتون عن رأيهم في مصائرهم بعد الموت، أنهم
 اعترفوا في عبارات صريحة بليمانهم بأن « الجسد للأرض وأن الروح للسماء » (١٨٠)، وقالوا يخاطبون
 فرعونهم، في حديث رمزي بطبيعة الحال: « قد يتحلل جسدك طويلاً وعرضاً، ولكن روحك سوف
 تبقى، وسوف تشهد رع في غلالاته الحمر (١٨١) »، أي تشهد الشمس في ألوانها الحمر. وذلك مما يعني
 أنهم على الرغم من اهتمامهم المفرط بمتابريهم باعتبارها بيوت الخلود، لم يتصوّروا أن أرواحهم
 سوف تظل حبيسة فيها، وإنما تصوّروها، وتصوّروا أرواح ملوكهم وأخيارهم خاصة، تظل طالقة
 في عالمها غير المنظور، تستمتع بصحبة موكب الشمس حيث شاءت، وتستروح نعيم العالم الآخر حيث
 شاءت، وتؤوب إلى قبرها لتنعيم بمراي القرابين حيث شاءت، وتحط على جسدها حيث شاءت.

واختلط الأدب والخيال بالدين في متون الأهرام، ويذكر من ذلك على سبيل المثال، أن أصحابها
 حين بشروا فرعونهم فيها، أو بمعنى أصح حين بشروا لفرعونهم بين الناس، بأنه سوف يرقى
 بعد موته إلى ملكوت السماء حيث يعتلى أحد عروشها ويكتب له الخلود فيها، ويظهور

Pyt. 474 a (١٨٠)

Pyt. 285 a-o (١٨١)

فيها على هيئة النجم النير الخالد ، لم يتركوا وسيلة مادية أو معنوية يمكن أن تساعد على الصعود إلى السماء ، إلا ذكروها في متونهم وتمنوها من أجله ، فتخيلوه حينما يصعد إلى السماء على درج ، وتخيلوه حينما يشق أجواز الفضاء إليها على جناحي صقر ، أو يشقه على جناحي المعبود تحوتى الذى رمزوا إليه بظائر أبى منجل ، وتخيلوه حينما يسرى مسرى السحاب المنطلق ، وتخيلوه حينما يتسلق أشعة الشمس ويرقى مدارج النور إلى أعلى عليين ، وذلك بحيث يصبح صعوده سر يعا كصعود الزفير أو رجع الشهب ، وتخيلوه يتسامى بروحه إلى ملكوت السماء مع صدى التراتيل وعبير البخور - ينشعلونه ويقولون معه فى تنغيم وترخيم :

« أعدّ الوقود ، واشتعل الوقود ، ووضع البخور على الوقود ، فاشتعل البخور ، وصل عبيرك إلى الملك أيها البخور ، وأتاك عبير الملك أيها البخور ، وأتاه عبيركم أيها الأرباب ، وأتاكم عبيره أيها الأرباب ، هو يحبكم أيها الأرباب ، فأحبوه أيها الأرباب ... » (١٨٢)

ومرة أخرى لم يتخيل المفكرون أن روح فرعونهم سوف ترقى إلى السماء دون إذن ربها ، ودون شرط ضرورى لنعيم صاحبها فى آخرها ، فقالوا يخاطبون كأننا ما فى السماء « انظر ، إن (الفرعون) أت ، مقبل ، صاعد . ولكنه لم يأت من تلقاء نفسه ، وإنما أتاه رسول وصعدت به كلمة مقدسة » (١٨٣) وتصوروا أن على فرعونهم أن يعبر بحيرة عليا مقدسة قبل أن يبلغ مكانه عند رب السماء ، وهنا قد يتوفر له قارب يجذف له فيه أبناء المعبود حور الأربعة ، اثنان على كل جانب ، فى حين يتولى هو أمر الدفة ، أو يلجأ إلى سبيل أخرى إن لم يتوفر له مثل هذا القارب الخاص ، فيقف على شاطئ البحيرة وينادى ، أو يقوم باسمه كاهن فى الأرض فينادى على ربان البحيرة بقوله « أيها المنطلق على (مياه) الحق بغير قارب ، ياربان مناقع البوص ، هذا ملك صادق تجاه السماء ، عادل تجاه الأرض ، مبرأ أمام هذه الجزيرة ويود أن يسبح من أجلها حتى يبلغها ، هو قزم راقص سوف يسر نؤاد الإله أمام عرشه العظيم » (١٨٤) وفى هذه العبارة القصيرة أكثر من مدلول ، ففى أولها مدلول يشهد بأن الفرعون على عظم قدره كان عليه أن يتخذ من عدله فى الأرض وصدقه أمام السماء وسيلة تيسر له سبيله ويتقرب بها من أهل السماء قبل أن يتقرب بها إلى رب السماء ، وفى آخرها مدلول ينم عن أن الكهان لو آمنوا عن عقدة خالصة بأن فرعونهم إله أعظم كما تصفه نصوصه لما صدرت عنهم هذه الفلته التى صروروه فيها قرما من أقزام الرقص يود أن يدخل السرور على قلب إله أجل منه وأكرم ! (١٨٥)

*
* *

Pyr., 376 a - 378 a. (١٨٢)

Ibid., 333 a - c (١٨٣)

Ibid., 88 - 89 (١٨٤)

(١٨٥) راجع عن استشهادات أخرى :

عبد العزيز صالح : دراسات فى التاريخ الحضارى لمصر القديمة - القاهرة ١٩٥٧ - ص ٤ - ١٣

دلت بعض تراجم الخاصة في عصر الأمرة الخامسة على قصر مدد حكم بعض فراعتها ، ومن هذه التراجم ترجمة حياة شيسيتاح الذي رأيناه ريبا في قصر منكاورع في الأمرة الرابعة وصهرا لشيسسكاف ثم وجد سبيله مع فراعة الأسرة الخامسة فأصبح رئيسا لكهنة منف في أيامهم ونظم لبعضهم أعياد تتويجهم ، وكان سكرتيرا لأحدهم في كل عمل يود أن يفعله على حد قوله ، وعاصر الخمسة الأوائل منهم وعمل معهم ، وذلك مما يعني أن مدد حكمهم لم تكن طويلة على الرغم من استقرار الأمور في عصرهم ، ومع ذلك فقد كان عصر أسرتهم عصرا خصبا في مجله ، استمر نحو مائة وأربعين عاما ، ولم تنصرف جهود فراخته وأهله إلى الدين ومعابده ، والآخرة وأهرامها ومعابدها وتراثيلها فحسب ، وإنما اتجه أغلب جهدهم إلى تنشيط اقتصاديات أرضهم وتوسيع علاقاتها الخارجية ، وتطوير حياتهم الطبعية والاجتماعية والأدبية والفنية .

بدأت نقوش وادى الحمامات التاريخية بعصر الأمرة الخامسة ، وهي نقوش اعتاد رؤساء البعثات الحكومية أن يسجلوها بأسماء فراعتهم وأسمائهم على سفوح الجبال وعلى سطوح النصب ، كلما أوفدتهم حكومتهم لاستغلال محاجر الوادى ومناجمه ، وكلما أوفدتهم لركوب البحر الأحمر .

ووضحت علاقات مصر ببلاد بونت (أو بويته كما يقرأها جاردنر) خلال عصر الأمرة الخامسة أكثر مما وضحت قبله . وبلاد بونت بلاد قصد المصريون بها منطقة الصومال الحالية وربما ضموا إليها ما يقابلها من الجنوب الغربي لبلاد اليمن في بعض عصورهم (١٨٦) ، وكانت بعثاتهم تسلك طريقها إليها عن طريق وادى الحمامات ثم البحر الأحمر ، عند القصير أو عند مخرج وادى جاسوس الفوقاني (١٨٧) ، أو طريق وادى الطميلات ثم خليج السويس والبحر الأحمر ، لتستورد منها الجلود والبخور واللبان والمر والصمغ لطقوس المعابد وضرورات التحنيط ، وتستورد منها المعادن شبه الكريمة والعاج والأخشاب الثمينة لصناعة الخلى وأدوات الترف ، وربما استوردت عن طريقها أزاما وحيوانات نادرة مما يليها جنوبا ، في مقابل مبادلة أهلها بالمصنوعات المصرية التي تروج بينهم وترضى أذواقهم . وسجلت حوليات الفرعون ساحورع ثاني فراعة الأمرة الخامسة من صور هذه الاتصالات أنه وردت في عهده كيات هائلة من منتجات بونت ، وصور فنانونه أفراداً منها في مناظر معبده بأبوصير على هيئة الخاضعين لسطوته (١٨٨) .

وأتسعت اتصالات مصر التجارية بفلسطين عن طريق البر ، وبفينيقيا عن طريق البحر ، وظهر من قرائنها أن صور الفنانون في معبد الفرعون السابق نفسه (ساحورع) بضع مراكب بحرية كبيرة

(١٨٦) من وجود بلاد بونت على الشاطئ الافريقي see, ZÄS, LVIII, 128; LXVIII, 112 f.

(١٨٧) KES, Das alte Ägypten, 59-60 ولو أن كيس يعتقد أن رحلات الدولة القديمة الى بلاد بونت كانت مركب البحر من السويس

(١٨٨) BORCHARDT, Sahure, Taf. VI, 19 f; Urk I, 246

استقبلها الفرعون وحاشيته حين عودتها من فينقيا محملة بالرسل والخيرات والحوانات، وكان من الشخصيات البارزة فيها شخصية المترجم الذي كان يقوم بينهم مقام السفير (١٨٩) .

واستمرت الجهود الاقتصادية المعتمدة ، والجهود العسكرية المعتمدة ، لاستغلال مناطق الحدود في الجنوب والغرب والشرق وشبه جزيرة سيناء ، وتأمينها من شغب البدو (١٩٠) . ووصلت المتاجر المصرية حتى منطقة بوهن في النوبة على أقل تقدير ، وربما صحبها حينذاك نوع من النفوذ السياسي (١٩١) . وتوفر لعهد ساحورع نشاط عسكري خاص ضد فريق من عصاة القبائل اللبية . وشجعت انتصارات جيوشه فتانيه على تصوير أمراء هذه القبائل وزوجاتهم وأولادهم على جدران معبده على هيئة الخاضعين لسلطوته ، وتصوير مصادرة جيوشه لآلاف كثيرة من ماشيتهم وأنعامهم تدل على أن واحاتهم ومناطقهم الساحلية كانت وفيرة العشب والمرعى (١٩٢) .

وسارت الأوضاع الاجتماعية والسياسية بخطى واسعة في سبيل التطور خلال عصر الأسرة الخامسة ، ورأى ملوكها أنهم يعملون في ظروف تختلف بعض الشيء عن الظروف التي عمل فيها أسلافهم ، فزادوا التراماتهم المادية والأدبية ل كبار كونة الشمس ومعابدهم رغبة في أن يضمّنوا ولاءهم ويضمّنوا استمرارهم في التسبيح بفضلهم والدعاية لهم بين الناس ، وأعفوا بعض معابد الأرباب الآخرين من جانب من التكاليف المفروضة عليها (١٩٣) . وأزادوا التراماتهم المادية والأدبية كذلك لأهل الطبقة العليا، وسمحوا ل كبار أفرادها أن يبلغوا منصب الوزارة ، أكبر مناصب الدولة ، بعد أن كان قاصرا منذ إنشائه في عهد ستفرو مؤسس الأسرة الرابعة على كبار الأمراء وحدهم (١٩٤) ، وتصاهروا معهم وزوجوا كثيرا منهم بأميرات أسرهم الحاكمة ، ولم يتردد واحد من أواخرهم في أن يسمح بزواج أميرة من بيته بقزم يدعى سنب كان يعمل في بلاطه (١٩٥) ، وربوا بعض أبناءهم في قصورهم (١٩٦) ، وسمحوا لعدد من هؤلاء الأبناء بأن يرثوا مناصب آبائهم ما داموا أهلا لها ، ومادامت تتوفر لديهم الكفاية لشغلها . وظهر من فراعنة الأسرة ملوك متعاملون ، كانوا يتفقدون دور الكتب ودور المحفوظات بأنفسهم ، ويرسلون

(١٨٩) Borchardt, op. cit., Taf. XIII; Urk; I, 169; P. Montet, dans Mélanges Dussaud, 191 f. جزر ابيجة ، لولا أن هناك شك في وصوله إليها في مصر الأسرة الخامسة نفسها .

Sethe, in, ZAS, LIII, 55, f. (Athene Mus. 4578)

Gardiner-Peet, Sinai, IV-VII; Borchard, op cit , Taf. VI; S. Fassan, in ZAS, 1955, 136-9 (١٩٠)

(١٩١) والتر ايميرى ، حديث في جريدة الاهرام في ١٧ فبراير ، عام ١٩٦٢

Borchard, op cit., Taf I, f. (١٩٢)

Petrie, Abydos II, pl XIV, XVII; Urk. I, 170 (١٩٣)

(١٩٤) لم يل الوزارة من الامراء في الأسرة الخامسة غير اميرين : سخم كارع ونفر شمش سشات (see, A. Weil, op. cit; Nr. 5f.)

Junker, Giza III, 211; V, 9f., 12f. (١٩٥)

Junker, Giza VII, 230f. Mariette, Mastabas, 442; Borchardt, Statuen und Statuetten, 76. (١٩٦)

وزراءهم بعبارات المودة ويردون على رسائلهم إليهم بخطهم^(١٩٧) ومن أمتع ما بقي من رسائلهم رسالة كتبها الفرعون إسمي^١ إلى وزيره شپسمرع يقول له فيها ردا على رسالة منه إليه في أحد أعياده وصفه فيها بما يحب أن يوصف به :

” أطلع جلاتي على الحديث المتع الذي أرسلته إلى القصر في هذا اليوم الجميل، . . وسررت به لأنك تعرف كيف تتحدث بما يستجبه جلاتي ، وإن كل ما تقوله ليروق لي إلى أقصى حد . . ، وهأنذا أقول الآن وأردد باستمرار ، يا حبيب مولاه ، يامن أنعم عليه مولاه ، يامستشار مولاه ، الحق إن رع أكرمني بأن وهبني إياك ، وبحق حياتي الخالدة لن أبديت لي أية رغبة بكتاب اليوم لقضيتها لك في التو“^(١٩٨) .

وظهر من فراعنة الأسرة الخامسة من لم يكن يأبي أن يترضى رجاله عما أصابهم منه أو من ورائه عن قصد ، أو عن غير قصد ، وحكى رجالان من عهد نفريركارع ثالث فراعنة الأسرة شيئا من ذلك ، فقص «رع ور» أحد من عملوا في خدمة القصر وفي سلك الكونت أن ملكه وكرساقه بمنساته عن غير قصد خلال حفل كبير ، ثم لم ياب أن يترضاه ويطمئنه على سلامة نيته ويخصه بوداده ويسمح له بأن ينقش ترضيته له في مقبرته^(١٩٩) . وقص آخر أن أباه الوزير واشداح (أو بتاح واش) دهمه الموت بفاة وهو يمشي بجوار الفرعون في حفل افتتاح إحدى المنشآت الملكية ، وأن الفرعون حاول إسعافه واستعان في ذلك بمخطوطاته الطبية الخاصة أو عقايره الخاصة ، ولكنه فشل وعاد إلى مقصورته ودعا الأرباب من أجله ، أي ترحم عليه ، وسمح لولده بأن يسجل ذلك كله على نصب حجرى في مقبرته^(٢٠٠) .

*
* *

اتسعت تنظيمات الإدارة في الدولة القديمة ، وخلال عصر الاسرة الخامسة خاصة ، بما ينسجم مع ما بلغه أهلها من رقى الفكر والمادة في نواحي حياتهم الأخرى^(٢٠١) . وترأس الوزير جهاز الحكومة المركزية بعد الفرعون ، وكان قد بدأ عمله خلال عصر الأسرة الرابعة ، بمثل ما بدأ به بعده أوائل الوزراء في العصور الإسلامية القديمة ، أى باعتباره حامل الوزر ومسئولا عن شؤون الدولة أمام مولاه ،

(١٩٧) Urk. I, 60-62; QUIBELL, Saqqara, 1907-8, 79, f., pl 61; JUNKER, Giza VII, 233

(١٩٨) Urk. I, 179,




(١٩٩) S. HASSAN, Excavations at Giza 1929-1930

(٢٠٠) BREASTED, A.R.I., 257f.

اعتقد فيكتينيف أن حدوث الحادثين في عهد ملك واحد يدل على أنه كان له مصلحة فيهما وأنه كان يود أن يتخلص من الرجلين فنخس أحدهما بعضاه التي يحتمل أنها كانت مسمومة وسم الآخر بطريقة ما ثم أظهر حزنه عليه . ولكن شارف فر الحادثة الأولى بتفسير آخر واعتقد أن الملك وكز رع ور عن غير قصد فعلا ولكن إيمان رع ور بأن عصا الملك كانت عصا مقدسة شأنها شأن بقية ممتلكاته جعله يتخوف العاقبة ويتوقع حلول غضب الأرباب فطمأنه الملك وأفرخ روعه .

(٢٠١) See especially, M, A. MURRAY—K. SETHE, Index of Names and Title of the Old Kingdom, 1908, (٢٠١) 1937 ; A. WEIL, Die Veziere des Pharonemreiches, 1908 ; H.W., HELCK, Untersuchungen zu den Beamtentiteln den Ägyptischen Alten Reiches, 1954

وظلت النصوص الرسمية تثبت له هذه الصفة باستمرار ، ولكن الوزراء مالبثوا حتى أصبحوا في نظر جمهرة الناس شيئا آخر بعد أن ولى الوزارة رجال من صفوف الشعب في عصر الأسرة الخامسة ، وبعد أن اضطر الفراعنة إزاء اتساع شؤون دولتهم أو إزاء التطور الطبقي في دولتهم ، إلى أن ينقلوا بعض سلطاتهم الفعلية إلى وزراءهم ويركزوها في أيديهم ، وترتب على ذلك أن انتقل إليهم نصيب من قداستهم أيضا ، فأصبحوا في نظر الشعب أمناء العدالة ، ووصلت النصوص بينهم وبين الإلهين تحوتى رب الحكمة وماعت ربة العدالة ، ونسب الناس إلى اثنين منهم تأليف تعاليم تهذيبية تتعلق بسلوك الفرد إزاء رؤسائه وإزاء نفسه وإزاء مجتمعه .

وعندما اكتملت للوزير اختصاصاته أصبحت تعرض عليه أمور الدولة جميعها ، ويتولى هو عرضها على الفرعون ، وأصبح يعتبر محافظا للعاصمة ورئيسا للبلاط وللدوران الملكي ، ويتولى الإشراف الأعلى على الخزائن وشؤون الغلال وعلى المنشآت العامة والأشغال المعارية الكبيرة ، لاسيما الملكية منها ، ويتولى الإشراف الأعلى على دور القضاء ودور المحفوظات ودور السلاح ، وكان يتلقب منذ عصر الأسرة الرابعة بلقب قضائى يجعله كبير خمسة دار تحوتى  ، ربما بمعنى كبير الرؤساء القضائيين الذين ينسبون عدالتهم إلى المعبود تحوتى رب العدالة والحساب والكتابة . ثم تلقب خلال عصر الأسرة الخامسة بلقب « خادم العدالة » وهو لقب عبروا عنه من الوجهة الدينية بعبارة « حم ماعت » أى كاهن ماعت ربة العدالة، ولقب رئيس الدور الست ،  أو رئيس الدواوين الست الكبيرة  . (٢٠٢)

ولسنا على بينة من الاختصاصات الفعلية لهذه الدور والدواوين ، أو المناطق التى كانت توجد فيها ، وإن يكن من المحتمل أنها كانت تمثل دور القضاء العليا فى العواصم الكبيرة ، أو مجالس القضاء العليا فى الدولة .

واكتملت للنمضاء تنظيماته ، ففضلا عن لقب القاضى « ساب » ، وجد لقب الكاتب القضائى « ساب سش » أو « سش ساب » ، وكاتب الشكاوى « سش سپر (و) » ، وذلك مما يعنى الحرص على تسجيل النضايا من ناحية ، و يعنى تقديم الشكايات مكتوبة من ناحية أخرى .

وسجل الوزراء لأنفسهم فى تراجم حياتهم عددا كبيرا من الألقاب الصغيرة والكبيرة ، ولسنا ندرى إن كانوا قد هدفوا بذلك إلى تأكيد مركزية الحكم والإدارة فى أيديهم والدلالة على إشرافهم على كل صغيرة وكبيرة فى دولتهم ، أم أنهم هدفوا بها أن يسجلوا المناصب المختلفة التى تقلبوا فيها حتى بلغوا

A. WEIL, op. cit., No. 2, 3 ; MARIETTE, Mastabas, 125. (٢٠٢)

WEIL, op. cit. 10-12, etc. ; MARIETTE, op. cit. 228, 407-409 ; L.D. II, 103 ; ZÄS. XXI f. ; XXVIII, 43 f. ; (٢٠٣)

الوزارة . وعلى أية حال فقد تعددت إلى جانبهم ألقاب المثقفين (أو الكتاب على حد التعبير المصرى القديم) وألقاب الموظفين . وظل حملة الأختام دورهم في شئون الدولة ، وهم أصحاب لقب « سجاوتى بيتى » ولقب « سجاوتى ثر » ، ويبدو أن اللقب الأول أصبح لقباً تشريفياً ، أو اقتصر مدلوله على أكثر تقدير على الشؤون المالية (مع التجوز في ذكر كلمة المال) ، بينما اتسعت اختصاصات اللقب الثانى ، وأصبح أصحابه ينظمون ويرأسون بعثات استثمار المناجم والمهاجر وبعثات التجارة البرية والنهرية والبحرية ، ولما كان خروجهم بهذه البعثات يتطلب إشرافهم على فرق من الجند أو الحراس وفرق من الأسطول ، تلقب أغلبهم بلقب أمير الجيش وأمير السفن ، وعنونوا بذلك جانباً من الجيش وعدداً مناسباً من السفن بطبيعة الحال . وشاركهم هذه الاختصاصات موظفون آخرون تلقبوا بلقب رؤساء المأموريات ، وهؤلاء غالباً ما كانت مهامهم تقتصر على مناطق بعينها أو أقاليم بعينها (٢٠٤) .

ومضت إدارات الخزانة في تطورها ، وأغفلت تسمية خزانة الدنا باسم البيت الأحمر وتسمية خزانة الصعيد باسم البيت الأبيض ، وجمعت بينهما في اسم يميل إلى المركزية وإن احتفظ بالثنائية اللفظية ، وهو اسم « بروى حج » ، بمعنى الخزانة المزدوجة أو بيتى الفضة . وفرقت النصوص بين البيتين أحياناً ، ولكن من حيث المحتوى وليس من حيث الموطن ، فأطلقت على أحدهما اسم بيت الفضة وعلى الآخر اسم بيت الذهب وزادت حيناً آخر فقالت بيت الذهب المزدوج في مقابل بيت الفضة المزدوج ، مع إسناد رياستهما إلى شخص واحد وهو شخص الوزير في أغلب الأحوال (٢٠٥) . وظلت أكثر الإدارات اتصالاً بالخزانة هي شون الغلال ، واتخذ مركزها الرئيسى طابع الإزدواج اللفظى هي الأخرى ، فأصبح يسمى باسم « شوتى » بمعنى الشونة المزدوجة (٢٠٦) . وليس ما يعرف حتى الآن عن مقدار ما كانت تحصله هذه الشون من ضرائب المحاصيل في الدولة القديمة ، ولكن ليس من المستبعد أن تكون بدأت حينذاك بما ذكرته وثائق متأخرة في الزمن عن عصر الدولة القديمة عن تراوح هذه الضرائب بين الخمس والسبع والعشر أو ما هو أقل من ذلك وفقاً لطبيعة الأرض وحال المحصول (٢٠٧) .

واتصلت بنظام الأراضى في الدولة القديمة ألقاب المشرفين على « الخنثيوش » ولا زال تحديد هذه الخنثيوش موضع جدل طويل ، فهى قد تؤخذ بقرينتها « خنتى ش » أى صدر البحيرة ، وتدل بذلك على المدرجات الزراعية التى كانت تطل على البحيرات العذبة والمجارى المائية ويستغل أغلبها على هيئة حدائق . أو تدل في مجملها على أراضى الإيجار التى تشرف الدولة عليها باسم الخزانة واسم

See H, JUNKER, Giza III. ; FAKHRY, op cit II. part II, 7 (٢٠٤)

A. WEIL, op. cit., S. 28, and Nos. 14, 17, 19, 24- 26 (٢٠٥)


Ibid., Nos. 6, 10, 12, 14-17, 24, 25, 31. Wb. IV, 510 (٢٠٦)

See, A. H. GARDINER, The Wilbour papyrus, 1941 f. ; Ramesside Administrative Documents, 1948 f. (٢٠٧)

القصر الملكي ، أو تدل على أراضى الإبعاديات التى تبعد عن النيل وتخصص بعض مواردها لمناطق الأهرام ، كما تخصص بعض مساحاتها للهباب التى يخلعها الفرعون على المقرين إليه من رجال دولته (٢٠٨) .

واستمر حكام الأقاليم حتى عصر الأسرة الخامسة مجرد ممثلين للحكومة المركزية ، وزاد على لقبهم القديم « عج مر » لقب « ساب » بمعنى القاضى أو المحترم ، ولقب « سشم تا » بمعنى « موجه الأرض » أو مديرها ، ولقب « حقا حت » أى ناظر القصر أو متولى زمامه ، والقصر هنا فيما يغلب على الظن هو قصر الحكم والإدارة فى الإقليم (٢٠٩) .

وعرفت الدولة القديمة إلى جانب حكام الأقاليم ومن بينهم ، عددا من كبار الشخصيات تلقبوا بلقب « وريج شمو » وهو لقب لازال غامض القراءة غامض المدلول ، فهو قد يترجم بمعنى « كبير عشرة الصعيد » أو يترجم بمعنى « أحد كبار عشرة الصعيد » ، ثم هو قد يدل على عشرة يكوّنون مجلسا استشاريا للوزير فيما يتعلق بشئون الصعيد ويشترون فى قضاياها ، وذلك فرض يزكيه إلى حد ما أن الوزراء كانوا يحملون ألقابا تدل على رياستهم له ، وأن بعضهم تلقب بلقب « مفتح عشرة الصعيد الكبار » وتلقب غيره بلقب « المشرف على بيوت عشرة الصعيد » . أو هو يدل على عشرات « مجو » وليس عشرة فقط ، وذلك فرض يزكيه بدوره ظهور لقب « كبير عشرة القصر » و « كبير عشرة عين شمس » (٢١٠) .

وعلى أية حال فإنه يبدو أن التخصيص الذى اعتاد حكام عصر بداية الأسرات أن يولوه للوجه البحرى حين بدأوا حكم دولتهم من عاصمتهم فى الصعيد ، أصبح ينصب على الصعيد بعد أن استقرت إقامة فراعنة الدولة القديمة فى إناب حج قرب الدلتا . وكان من صور هذا التخصيص فى عصر الأسرة الخامسة أن انضاف إلى ألقاب كبار حكام الصعيد لقب المشرف على غلال الصعيد (حرفيا : المشرف على غلة قبلى) (٢١١) ، وجعل الفراعنة لهؤلاء المشرفين رئيسا أعلى لقبوه لقبوه بلقب  أى « والى الصعيد (٢١٢) » وعهدوا إلى صاحبه بالرقابة باسمهم على ضرائب الصعيد وشئونه وحكام أقاليمه (٢١٣) .

*
* *

See H. KEES, Kulturgeschichte, 30, 190, 199 ; H. JUNKER, Giza VI, 17 f. (٢٠٨)

(٢٠٩) ويختلف هذا عن لقب « حقا حت عا » بمعنى ناظر القصر العالى وكان يحمله كثيرون فى قصور الفراعنة وممتلكاتهم .

See, Urk I, 281, 11 ; Pyr. 848o ; WEIL, op. cit., 19 ; HELCK, op. cit., 19 (٢١٠)

H KEES, "Beitrage zur alägyptischen provinzialverwaltung", 1932, 109-110 (٢١١)

K SETHE, in ZÄS, XXXVIII, 47 ; GAUTHIER, "Le terme géographique Šm'w et le titre "mir Šm'w", 271 f. (٢١٢)

(٢١٣) لاحظ دريوتون وفاندييه أن الذين حلوا اللقب فى الأسرة الخامسة كانوا وزراء ، وتساءل عما اذا كانوا قد شغلوا منصبهم مع الوزارة أم قبل الوزارة (ص ٢٦٢) see, KEES, op cit., 85f.

ترتب على الظروف السابقة جميعها أن توفر لأهل الطبقة العليا وكبار أهل الطبقة الوسطى في عصر الأسرة الخامسة ، من الإمكانيات المادية والقيم الاعتبارية أكثر مما توفر للأسلافهم قبل عصرهم ، ولم يعودوا يتقيدون كثيرا بتشييد مقابرهم حول أهرام ملوكهم كما كان شأن أمثالهم في الأسرة الرابعة ، وانتشرت مقابرهم في سقارة والجيزة ، ولم يأت بعض حكم الأقاليم أن يعملوا على نحت مقابرهم في الصخر في مناطق حكمهم بعيدا عن جبانة العاصمة . واستطاع بعض هؤلاء أن يشيدوا لأنفسهم مقابر واسعة ذات حجرات عدة وأبهاء ذات عمد ، وضمونها عددا من تماثيلهم الكبيرة والصغيرة وعددا كبيرا آخر من التماثيل الصغيرة لأتباعهم وخدمهم الذين تمنوا أن يقوموا بخدمتهم في دنياهم الثانية ، واهتموا بزخرفة جدران مقابرهم بنصوص ومناظر كثيرة اتسمت في مجملها بطابع الزخرف والألوان البهيجة ، وشاعت فيها النقوش الهادئة متوسطة البروز ، وغلبت الحيوية والنضارة على صور ناسها وطيورها وحيواناتها ، وتنوعت موضوعاتها ، ورمزت إلى ما كانوا يملكونه من ضياع وأنعام ومرائب للصيد والزهة والانتقال ، وأشارت إلى من كانوا يتبعونهم من جماعات الكتابة وجماعات الصناعات (وهي جماعات محدودة العدد بطبيعة الحال) ، ورمزت إلى ما كانوا ينعمون به من حياة رغدة ومن رعاية الخدم والأتباع . ومن أمتع ما يستشهد به من مقابرهم من حيث أسلوبها المعماري وأسلوبها الفني ، ومن حيث تنوع مناظرها التي تصور الحياة اليومية داخل البيوت وخارجها ، مقبرة ” تي “ أحد رؤساء دواوين الكتاب في عصره ، وأخرى لوزير يدعى ” پتاح حوتب “ عاش خلال عهد الفرعون إسمي .

وتوفر لهذا الوزير ” پتاح حوتب “ نصيب واسع من الثروة ، وقدر لاسمه أن يخلد في عالم الأدب المصري القديم قرونا طويلة . وسجل له خلفاؤه نصائح في آداب المعاملة والسلوك نصح ولده بها ، وابتغى أن يتأدب بها بقية الشبان في مثل سنه ، وحاول خلالها أن ينظم علاقة ولده بقرارة نفسه وأسرته وعمله ومجتمعه ، وأن يجعله على تقي من ربه . فدعاه فيما دعاه إلى أن يراعى التوسط في اختيار مناسبات صمته ومناسبات كلامه ، ويراعى التوسط في معاملته لنفسه ومطالب بدنه ، ويراعى التوسط في معاملته لرئيسه ومرؤوسه . وقد عالجتنا موضوع پتاح حوتب وتعاليمه في مقال سابق ، ونكتفي هنا بعبارات قصيرة منه (٢١٤) .

ابتغى پتاح حوتب أن يدل ولده على حال هي الغنى بعينه ، فقال : « أن تزكو سمعتك بغير أن تتكلم ويطربك الناس من حيث لا تعلم » .

ونهاه عن الخيلاء ، وقال له : « لا تتعال بمعرفتك ، ولا تشغل عقلك بأفك عالم » .

وقال له : « إذا ارتقيت بعد صغر شأنك ، وحزت ثراء بعد عوز قديم في قرية تعرفها ، فلا تتنكر لما حدث لك من قبل ، ولا تتكل على ثرائك الذي أتى لك من هبات الرب . ولا تتخلف عن غيرك ممن أوتوا حظا مما أوتيت » .

وقال له وهو يوصيه بحسن الاستماع :

« ترفق حين تستمع إلى حديث الشاكي ، ولا تنهره حتى يفضى بما في جوفه ويحكى ما جاء من أجله . فالمتظلم يحب أن يؤمن السامع على قوله حتى ينهى ظلامته . والمهموم يفضل أن يواسيه السامع عن أن يقضى له حاجته . ومن شأن حسن الاستماع أن يريح الفؤاد » !

وقال له وهو يعظه ألا يخضع لمطالب بدنه ، وأن يكرم نفسه ويكرم من حوله :

« إذا طعم بدنك والتفت وجهك إلى جيرانك (أي أكرمهم) ، أطراك الناس من حيث لا تدري . أما إذا ضل الفؤاد وأطاع جسده ، فإنه يكون قد أحل صغاره محل حبه ، وتمس عقل صاحبه وساء وجهه بما جرته عليه نفسه .

ولقد عزت نفوس أتباع الرب ، فالقلب إنما يشعر بالدفء من فضل الرب وحده . ومن أطاع بدنه كان عدو نفسه » !

واستمر پتاح حوتب يدعو ولده إلى تهذيب نفسه ، فأوصاه أن يجنبها الكبر والتعالي ، والجشع والنهم ، والحقد ورغبة الانتقام ، وأوصاه أن يحلمها واجباتها الضرورية ، وأن يتكفل بتأسيس داره ، ونفقات عياله وكإليات زوجته . ولكنه حدثه في مقابل ذلك كله بمحدث آخر لين ، دعاه فيه إلى سبيل اليسر والبساطة والتوسط ، وقال له :

« سائر نفسك ماحيت ، ولكن لا تتجاوز العرف . وإياك أن تبتساعة المتعة ، فالنفس تأبى أن يفسد وقت متمتها . ولا تستنفد من شئون اليوم أكثر مما يعول دارك . وعندما يواتيك الثراء ينبغي أن يستمتع القلب ، فلن يجدى الثراء إذا أهمل القلب » !

وقال له وهو يعظه بأن يواجه ما ينزل به من أمور الدنيا بنفس متفائلة :

« كن سمح الوجه مادمت حيا ، فإن ما يخرج من صومعة الغلال لن يعود فيدخلها » .

ولم تخل تعاليم پتاح حوتب من عملية أو مادية إن شأنا الصراحة في التعبير ، فدعا ولده فيها إلى طاعة الرؤساء مهما يكن من أمرهم ، ولكنه لم يشأ أن يصرفه إلى التماس الخير منهم وحدهم ، وإنما التمس له كذلك من جانب الدين ما يكفل له توازنه النفساني والسلوكي في عمله . والتمس له من كفايته الفردية ما يغنيه عن تملق الرؤساء وذل الرجاء ، فقال لولده :

« الرجل من قال اكتسبت بعملى ...

وليس الرجل من قال أتمنى لنفسى !

وقد يقول إنسان لسوف أشبع هنا ، فإذا هو في غده محروم من خيرات الجبار ...

ويقول لسوف أغنى هناك ، ثم ينتهي إلى أن يترك ثراه لمن لا يعلمه !
 ذلك أنه ماتحقق تدير للخلق ، وأن ما أراداه الرب يتحقق ،
 فإذا عزمت أن تحيا بالقناعة ، أذاك ما قدره الأرباب لك بأكمله
 وقال : « الرزق وفق إرادة الرب ، والجهول هو من يعترض على إرادته » .

*
 *

كانت علاقات الفراعنة الثلاثة الأواخر للأسرة الخامسة ، بديانة الشمس وكهنتها موضع تخمينات وتفسيرات عدة ، فقد نسب أولهم منكاو حور اسمه إلى المعبود حور دون رع ، وبني هرمة في دهشور دون أبو صير ، وتسمى ثانيهما إسمى باسم تداخل فيه اسم رع وهو جد كارع ولكنه لم ينشئ معبدا لرع كأسلافه ، وبني هرمة في سقارة دون أبو صير ، وتغافل ثالثهم ونيس عن تضمين اسم رع في اسمه ، ولم يشيد له معبدا ، وبني هرمة في سقارة . وأطلق الثلاثة على أهرامهم ثلاثة أسماء لم يتداخل فيها اسم رع على عكس أسماء أهرام أسلافهم الأربعة (٢١٥) ، وإن كانوا في الوقت نفسه لم يأتوا أن يضمّنوا دياجة ألقابهم الرسمية لقب " سارع " أي " ابن رع " .

وليس ما يعرف حتى الآن عما إذا كانت هذه الملابس قد تأتت كليهما عن محض المصادفة أم أنها تم عن سياسة مقصودة أراد فيها أولئك الفراعنة أن يتخففوا من أعبائهم إزاء رع ومعايده بعد أن ازداد شأن كهنته وكثرت أعدادهم ، فتغافلوا عن تضمين اسمه في أسمائهم حيناً ، وتغافلوا عن إنشاء المعابد باسمه حيناً آخر ، وأردوا أن يجعلوا من ذلك مقدمة لسياسة دنيوية جديدة !

واعتقد كل من سيغفريد شوت ويواقيم شبيجل أن ونيس آخر ملوك الأسرة لم يكن من صلب حكامها وأنه كان من نسل ملوك الأسرة الرابعة ، وأن أمه كانت من أميرات القبائل الليبية القريبة من حدود الفيوم ، وأنه قام بانقلاب استعان فيه بأهل الفيوم وجيرانهم وربما بأهل المنطقة الممتدة إلى إبيدوس أيضا ، وأن رجاله هزموا في بعض حروبهم وانتصروا في بعض آخر ، ثم وصل هو أخيرا إلى العرش واستطاع أن يجمد في العقائد والعادات ، وكان أظهر ما جده هو تدوين متون الأهرام داخل هرمة ، وقد ضمنها رجاله عقائده وعقائد أسلافه ورمزوا فيها إلى أحداث عهده (٢١٦) .

اعتمد شوت وشبيجل في رأيهما على عدة قرائن لا تخلو من حبكة وإن لم تخل في الوقت نفسه من افتعال . فقد اعتمدا على تقريب اسم ونيس من اسم ونى (؟) الذي ظهر مع أحد أمراء القبيلة الليبية

GAUTHIER, L R, 130 f. ; Mitt. Kairo, XIV, 104 f. ; WZKM, LIV, 222 f. (٢١٥)

J. SPIEGEL, Das Werden der alt-Ägyptischen Hoch-Kultur, 773 f. ; 822 f. and references. (٢١٦)

التي تغلب ساحورع ثاني ملوك الأسرة الخامسة عليها وصور أمراءها وزوجاتهم وأبناءهم على جدران معبده على هيئة الخاضعين لسلطوته ، واعتبرا هذا الاسم اسم الأمير نفسه (٢١٧) .

واستشهد شبيجل بمنظر صورته رجال ونيس على جدران الطريق الصاعد المؤدى إلى هرمه وصوروا فيه أفرادا منهوكي القوى بارزي العظام يكادون يهلكون جوعا (٢١٨) ، فرآهم ليبيين ، ورأى تصويرهم يترجم عن المتاعب التي لاقوها في صحرائهم ويدل على سعي جماعاتهم إلى النزول إلى وادي النيل التماسا للرزق وطلباً للإقامة في منطقة امتدت في رأيه بين قوص وأبيدوس .

واستشهد مرة أخرى بمنظر مصري في إحدى مقابردشاشة صور مهاجمة المصريين لحصن أسويدي يدعى نديا (٢١٩) ، واقترض أن يكون نزاع المصريين مع الأسويين قد مهد لثورة ونيس وأنصاره الليبيين أو ساعدتهم على تنفيذ خطتهم ، وحاول أن يقرب بين اسمه وبين اسم ندية التي ذكرت بعضاً متون الأهرام أن المعبود ست فتك بأخيه أوزير فيها (راجع ص ١٩٩) .

واعتمد شوت وشبيجل على عبارات معينة في المتون التي سجلها ونيس في هرمه ، ومنها ادعاؤه بأنه وريث آبائه ووريث الإله جب ، وجب في رأيهما كان الراعي الأول للأسرة الرابعة . وأنه ابن تفنوت وحتحور ، وكانت كلتاها تقدر على الحواف الليبية . وأنه أحرز التاج الأبيض في الموطن الأصلي العظيم في جنوب ليبيا باعتباره "سوبك" العظيم سيد باخو . وأنه سوبك العظيم في شريت ، وكانت شريت هذه في الفيوم الحالية . وأنه ابن "حريشف" ، وكان حريشف معبودا لمنطقة أهناسيا في مصر الوسطى . وأنه عقد الصلة بينه وبين «حور أحر العينين» ، وكان أحرار العينين صفة لحور الليبي . وأن نصوصه وصفته بأنه ذو الشعاعين ، وذلك مما يدل في رأيهما على تشبيهه بالمعبود «حورور» معبود إقليم قوص الذي كان يوصف بنفس الصفة . وأنه الأنعوان ناو ، وكان ناو رمزاً للإقليم السابع من أقاليم الصعيد . وأن نصوصه اعتبرته فلا ، والفحل يرمز في رأيهما إلى الصورة التي استجها ملوك عصر بداية الأمرات للتعبير عن أنفسهم . ثم صورته كأنه احتوى الأرباب والناس في جوفه وانتقم ممن عارضوه ، واعتبرته أمينا على العدالة من قبل بارئها ، واعتبرته صاحب سيطرة على أرباب التاسوع أنفسهم ، ودعت أرباب الجنوب والشمال والغرب والشرق إلى طاعته وتبجيله (٢٢٠) .

لا تزال آراء شوت وشبيجل في مرحلة الفروض ، وقد لا يكون هناك اعتراض على قولها بأن كنية متون الأهرام في عهد ونيس قد رمزوا فيها إلى حوادث عهده ، ولكن الاعتراض ينصب على اعتقادها بأن كل نص ورد فيه اسم ونيس يتعلق بشخصه ويصور حوادث عهده ويصور علاقاته

BORCHARDT, Sahuré, II, Taf. 1; SPIEGEL, op cit., 820 (٢١٧)

DEBIOTON, "Une représentation de la famine." in Bull Inst. Eg. XXV, 1942, 45 f. (٢١٨)

PETRIE, Deqhasheh, pl. IV. (٢١٩)

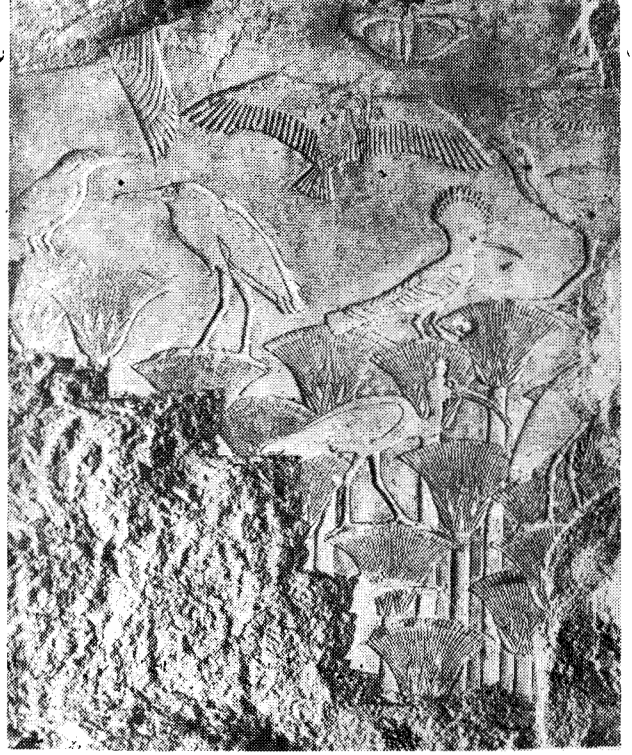
SPIEGEL, op. cit., 773 f. (٢٢٠)

بأربابه . ذلك أنه يلاحظ أن أغلب المتون التي تضمنت اسمه في هرمه كررتها متون أهرام الملوك الذين تلوا عهده ونسبتها إلى أسمائهم وأظهرتها كما لو كانت قد ألفت من أجلهم خاصة . ويلاحظ كذلك أن تأكيد صلة ونيس ببعض الأرباب وتشبيهه بهم ، وتأكيد وراثته لهم ، كل ذلك لا يقتصر عليه وحده ، وإنما هو مر مشاع بين الفراعنة المصريين كلهم ، سواء عن رغبة منهم في إرضاء عبدة أربابهم الكثيرين وأتباعهم ، أم عن رغبة منهم في رد كل السلطات الدينية إلى أنفسهم .

أما عن القرائن التاريخية وقرائن رد نسب ونيس إلى أم ليبية وإلى سلالة الأسرة الرابعة ، فهي أدعى إلى الشك من قرائن متون الأهرام ، فاسم ونى (؟) الذى سجلته مناظر ساحورع اسم مشكوك فى قراءته ، ومن المستبعد أن يكون اسما لأمير ، وإنما هو أقرب إن صح إلى أن يكون اسما لقبيلة .

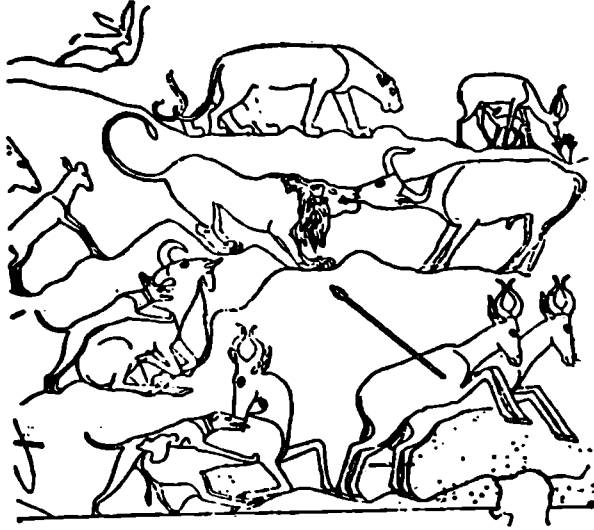
وافترض وجود فرع لىبي تداخل فى عصب الأسرة الرابعة منذ أواخر عصرها ، أصبح غيرذى موضوع بعد أن أوضحت بحوث حديثة أن الأساس الذى قال به أنصار الفرع الليبي ، وهو تصوير إحدى أميرات الأسرة الرابعة بشعر أحمر أو أحمر ووراء ذى شرائط عريضة يشبه رداء اللبيات ، أساس ضعيف ، حيث يبدو شعرها أقرب إلى الشعر المستعار وحيث ظهر لشوبها ما يشبهه عند غيرها من المصريات السابقات لعهدا (٢٢١) .

شكل ٤٨ — طيور وزهور
وتفاصيل فنية رقيقة دقيقة
(من عصر الأسرة الخامسة)



شكل ٤٩ — دية وهدايا من فيثيا
(من عصر الأسرة الخامسة)





شكل ٥٠ — حياة الصحراء حيث البقاء للأقوى وللاكثر حيلة



شكل ٥١ — مصريون يهاجمون حصن نديا الأسيوي
في أواخر عصر الأسرة الخامسة أو أوائل عصر الأسرة السادسة (ص ٣٧٩)

د - في عصر الأسرة السادسة

(٢٤٢٠ - ٢٢٣٠ ق. م.)

كان رأس الأسرة السادسة هو الفرعون تتي (٢٢٢٢) ^٥ وتجه الظن إلى أنه كان زوجا للاميرة إهوية ابنة ونيس ، وأنه اكتسب شرعية اعتلاء العرش عن طريقها ، وأنه تزوج بعدها بأميرة أخرى تدعى خوية (٢٢٢٣) ، يعتقد Stock أنها كانت ابنة إسمي الذي حكم قبل عهد ونيس (٢٢٢٤) ، وإذا صح هذا الاعتقاد أمكن تفسيره برغبة تتي في جمع شمل فرعي الأسرة السابقة له تحت ظله ، ثم بشر لحكمه الجديد باسمه الحورى « سحتب تاوى » أى مرضى الوجهين (القبلى والبحرى) .

قام هرم تتي في سقارة وتضمن نصوصا لا تختلف عن نصوص هرم ونيس إلا في زيادة اهتمامها بذكر المعبود أوزير وتأكيدها تشبيهه الملك المتوفى به (٢٢٢٥) . وقامت بعض مقابر أتباعه حوله في شوارع يمكن ترسيمها ، وشاءت المصادفات أن تحتفظ بردية طيبة مصرية كبيرة بتفاصيل عقاير طيبة صنعت أحدها أمه شيدى (أو صنع من أجلها) لتقوية بصيلات الشعر ، وألف بقيتها كبير أطبائه خوى (٢٢٢٦) .

ويبدو أن نهاية تتي كانت على غير ما أحب ، إذ روى مانيتون أن حراسه قتلوه (وذكره باسم Othoēs) ، وهى رواية ليس من سبيل إلى تأكيدها أو نقضها ، وكل ما يمكن إضافته إليها هو أن قائمتى أبيدوس وتورين ذكرتا فرعوننا بعد تتي باسم « وسركارع » بينما تجاوزت عن ذكره نائمة سقارة وتجاوزت عن ذكره نصوص كبار الموظفين الذين عاشوا في عصر الأسرة السادسة (٢٢٢٧) . ودفع ذلك إلى الظن بأنه كان ولدا للفرعون «تتي» من زوجته «خوية» (٢٢٢٨) ، وأنه لم يستطع أن يلي الحكم لغير فترة قصيرة قد

GAUTHIER, L. R. I, 147 f. Urk., I 81, 194 ; FIRTH-GUNN, Teti Pyramid Cemeteries, I, 109-111. (٢٢٢٢)

(٢٢٢٣) عثر على مقبرة ابوية على هيئة هرم في سقارة ، وعثر على مقبرة خوية على هيئة مسطبة كبيرة في سقارة أيضا
LORET, in Bull. Inst. Eg. 3e serie, X, 85 f ; JEQUIER, Les Pyramids des Reines Neit et Apouit,
Le Caire 1933 ; and see GARDINER, Egypt of the Phar., 93. ص ٢٦١ - مصر -

H. STOCK, Die ersten Zwischenzeit Agyptens, 1949, 31. (٢٢٢٤)

(٢٢٢٥) اعتبر شارف تتي من أهل الدلتا وحاول شبيحل أن يستشف من بعض المتون التى سجلها تتي في هرمه
والتي اعتبره ولدا للمعبودة ايسة ربة اتريب في شرق الدلتا ، انه كان ينتمى الى اقليم يقع شمالى
اتريب ويرجع سكانه في أصلهم الى بدو الصحراء الشرقية .

(SPIEGEL, op. cit., 714, 725, 831, S. 607 Anm. 44)

Pap. Ebers, 62, 4 ; SPIEGELBERG, in ZÄS LVIII, 152 (٢٢٢٦)

Abydos List, 34 ; Turin Pap. IV, I ; HAYES, The Scepter of Egypt, I, 125 ; and compare BREADED, (٢٢٢٧)
A.R. I, 294, 307.

SPiegel, op. cit., 831, I. (٢٢٢٨)

لاتزيد عن أربع سنوات ، ودب النزاع على العرش بينه وبين أخيه غير الشقيق بي وور بما استعان في هذا النزاع بديانته الشمس وكهنتها ، وضمن اسم رع في اسمه على خلاف ما ذهب إليه أبوه ، وعلى خلاف ما ذهب إليه أخوه بي ، ولكن كفة بي ظلت أرجح لأنه كان ابن إبوة بنت الفرعون ونيس التي نقلت شرعية الحكم إلى أبيه عن أيها ، فتغلب عليه ، وولى الحكم باسم ادعى فيه بنوته للعبود حور ، وهو « نفرساحور » ، واتخذ اسما آخر ادعى فيه بنوته للعبودة حتحور ربه دندرة ، ثم رأى أن يستعين بسلاح أخيه ويتقرب إلى كهنة الشمس ومعبودهم رع ، فاتخذ اسما جديدا ضمنه اسم رع ، وهو مريرع كما ادعى بنوته من المعبود أتوم رب أونو القديم وتلقب بأقب مري تاوى أى حبيب الأرضين (٢٢٩) .

وبعهد هذا الملك ، الذى عرفه التاريخ باسم بي ١١١١ ١١١١ ١١١١ الأول وعرفه الإغريق باسم « فيوس » بدأ العصر الزاهر للأسرة السادسة .

*
* *

شهدت مصر خلال عصر الأسرة السادسة تطورات متصلة في حياتها السياسية والاجتماعية ، وفي علاقاتها بجزائرها في فلسطين والنوبة ، وظهر فيها من الشخصيات ذات الأثر في مجالات السياسة والحرب والاقتصاد ، ثلاثة من الفراعنة ، وهم بي الأول وولده مريرع وبي الثانى ، وثلاثة من خاصة أفراد الشعب وهم نى وحرخوف وبي ناخت .

فقد أسلفنا في عرضنا للأوضاع السياسية خلال عصر الأسرة السادسة ، أنه توفر لكبار الأفراد فيها ، وكبار الموظفين والكهنة خاصة ، نصيب واسع من القيم الاعتبارية والإمكانات المادية ، وأن أسباب التقارب بينهم وبين فراعنتهم ازدادت شيئا فشيئا ، دون أن يؤثر هذا التقارب في هيئة الفراعنة تأثيرا ذا بال ، ودون أن يؤثر في ولاء كبار الموظفين والكهنة للفراعنة تأثيرا ذا بال ، وأن الفراعنة لم يجدوا بأسا في أن يعهدوا إلى أبناء كبار موظفيهم المقربين بمناصب آبائهم من حين إلى حين .

واستمرت سياسة التقارب بين الفريقين في عصر الأسرة السادسة ، فزوج بعض فراعنتها بناتهم من كبار موظفيهم ، وتزوج أحدهم من ابنتى أحد كبار موظفيها (٢٣٠) ، وتوسعوا في تربية أبناء كبار موظفيهم في قصورهم (٢٣١) ، وأزادوا مراسم الإعفاء التي كانوا يحرمون المعابد فيها من بعض التكاليف

GAUTHIER, op. cit., 150 f., SETHE, in ZÄS, LIX, 71 f.; H. MÜLLER, Die Formale, 60, 71. (٢٢٩)

(٢٣٠) من الموظفين الذين تزوجوا اميرات كايمنى ومروكا ، وكان الأخير زوج ابنة الفرعون تنى وراجع من زواج

بى الاول - راجع ص ٢٨٤

Urk. I, 251 f ; ZAS, LXIV, 93 ; Urk. I, 296 f. (٢٣١)

المفروضة عليها (٢٣٢) ، ويكتسبون ولاء الكهنة وحسن السمعة عن طريقها ، وإن خسروا بها جانبا غير قليل من موارد خزائهم .

وزادت أهمية كبار الموظفين خلال عصر الأسرة السادسة ، وكانت أهم المناصب التي شغلوها ثلاثة وهي : منصب الوزارة ، ومنصب حكام الأقاليم الكبيرة ، ومنصب والى الصعيد ، فضلا عن مناصب أخرى كثيرة كانت تدرج تحت اختصاصات هذه المناصب الثلاثة .

واختلف نفوذ حكام الأقاليم تبعا لشخصياتهم وشخصيات الفراعنة الذين عملوا في عهدهم أو عملوا في خدمتهم ، فاستمر أغلبهم يرد وجوه نشاطه في إقليمه إلى أمر الفرعون وتوجيهه وفضله ، بينما امتاز إلى جانبهم عدد قليل آخر حرص أفراده على أن يؤكدوا مجهوداتهم الشخصية ومآثرهم الفردية في نقوش مقابرهم ، فشرحوا كيف عملوا على تعمير أقاليمهم ووطدوا الأمن فيها ، وكيف ساروا بالعدل بين أهلها وأسعدوهم ، وإن لم يأبوا في الوقت نفسه أن يوفوا التقاليد الشكلية حقها ، فسجلوا إلى جانب مآثرهم صورا من طاعتهم لفرعونهم وحرصهم على القرب منه وإرضائه . ومن هؤلاء الحكام حاكم يدعى هنتو، عاش في أوائل عصر الأسرة السادسة وحكم منطقة في مديرية أسيوط تدعى چوفية ، وافتخر في نقوش مقبرته بأنه أغدق الطعام والشراب والكساء على فقراء إقليمه ، وبلغ من كرمه أنه أشبع ذئاب الصحارى وعقبان السماء بلحوم المساعز التي كان يضحى بها ، وافتخر برعايته لاقتصاديات إقليمه ، وذكر من وسائله إلى هذه الرعاية أنه شجع هجرة أهل الأقاليم الأخرى إليه لتعمير القرى المهجورة فيه ، ثم جعل مزارعيه ملاكا، وزاد أعداد المشايخ على شواطئه وأعداد المساعز على مراعيه (٢٣٣) . وبلغ من سمعة بعض حكام الأقاليم حينذاك أن رفعهم رعاياهم إلى مصاف الأولياء وقدسوهم (٢٣٤) .

ورضى الفراعنة بنشاط أصحاب الشخصيات القوية من حكام أقاليمهم ، أو هم اضطروا اضطرابا إلى الرضى به ، ولكنهم تخوفوا أن يؤدي هذا النشاط إلى انفلات السلطان من أيديهم ، أو يؤدي إلى تهاون الحكام في أداء التبعات والضرائب المفروضة عليهم ، أو يشجع البعض منهم على الاستقلال بحكم أقاليمهم ، فحاولوا معالجة هذا التطور عن طريق التوسع في استخدام وسيلتين قديمتين ، وهما : تربية أبناء كبار الحكام في قصورهم أو إلابي أن يشبوا أوفياء لهم ، ويخلصوا لطاعتهم إذا تولوا حكم أقاليمهم (٢٣٥) ، ثم إعادة منصب والى

(٢٣٢) وكان منهم من يبدأ مرسومه باعفاء أوقاف تماثله وقرايئنه في معبد معين من التكاليف المفروضة عليها ، أي أنه يبدأ بمراعاة صالحه أولا ، ثم يعمم الاعفاء على أوقاف المعبد كله .

A. MORET, in Journal Asiat, 1916, 232 f. ; HAYES in J.E.A. 1946, 3. f.

(٢٣٣) - Urk. I, 76-79. - ومقبرته في دير الجبراوى

(٢٣٤) انظر من ايسى والى ادفو في بداية الأسرة السادسة ALLIOT, in Bull. Inst., fr. XXXVII, 93 f.

Urk I, 251 f. ; KEES, in ZAS. LXIV, 93 (٢٣٥)

الصعيد الذى استحدثته الأسرة الخامسة وعهدت إلى أصحابه بالرقابة باسم الفرعون على ضرائب الصعيد ، وشئون حكاه ، وكان قد ألغى فيما يبدو فى عهد تى أول ملوك الأسرة ، ثم أعيد فى عهد مرزوع ابئع ملوكها (٢٣٦) .

*
*
*

صوّر بعض أسرار قصر الأسرة السادسة ، وعلاقات مصر بجيرانها فى الشمال والجنوب ، مواطن كبير يدعى "ونى" ، دون قصة حياته فى نقوش مقبرته بأبيدوس ، ثم نقلت الجدران التى دونت عليها هذه النقوش إلى متحف القاهرة منذ القرن الماضى ، وقص فيها أنه بدأ حياته الوظيفية فى عهد تى وأنه ارتقى فى مناصب البلاط حتى اشتغل محققا فيه خلال عهد پي الأول ، وأنه شارك الوزير فى كل قضاياها الخاصة ، أو على الأصح ساعد الوزير فى كل قضاياها الخاصة ، وعمل فى دور القضاء الستة ، ثم حدث ان اتهم پي زوجته الملكة إيمتس فى أمر أنته ، وربما اشتركت فيه مع وزير عصرها ، وهو أمر لا ندرى شيئا مؤكدا عن حقيقته ، وقد يكون خيانة زوجية ، أو تأمرا على إحدى ضرائرها المحبوبات عند زوجها ، أو تأمرا على أحد أبناء ضرائرها خوف بلوغه العرش بعد زوجها ، أو تأمرا على زوجيا الفرعون نفسه . ويبدو أن پي لم يشأ أن يأخذ زوجته بالظن وحده ، فعهد إلى ونى بأن يتولى التحقيق معها ، فقام به متفردا ، ورفع نتيجة الى فرعون (٢٣٧) .

ولم يسجل التاريخ شيئا عن هذه النتيجة ولا عن قرار پي فيها ، ولكنه سجل من ناحية أخرى أنه تزوج غيرها ، وأنه لم يجد بأسا فى أن يصهر إلى أحد رجالات جرجا فى عهده ، وكان يدعى خوى ، فتزوج ابنته ، وأنجب منها ولى عهده مرزوع ، ثم تزوج أختها (بعد وفاتها ؟) ، وأنجب منها ولدا آخر ولى العرش بعد أخيه باسم پي (الثانى) نفر كارع (٢٣٨) ، وكانت هى المرة الأولى ، فيما نعلم حتى الآن ، التى تزوج فرعون فيها واحدة من غير الأميرات .

وشاءت الظروف الخارجية أن يعمل ونى باسم فرعون واسم بلده خارج الحدود فيما هو أهم من عمل الحاشية وتحقيقات البلاط ، فقد توافدت على أراضي فلسطين خلال عهد پي أو قبله ، هجرات بدوية منقطة سماها المصريون باسم «عاموحريوشع» بمعنى بدو الرمال أو القبائل التى تعيش على الرمال ، ويحتمل أنها كانت بداية للهجرات الأمورية القديمة ، فهددت سبل التجارة بين مصر وجيرانها ، وحاولت أن تثير الاضطرابات وتعبّر حدود مصر الشمالية الشرقية . فعهد پي إلى ونى بحماية

(٢٣٦) دريون وفاندييه : مصر - ص ٢٦٢

BREASTED, A.R. I, 294, 307 f. H. GEODICKE, in J A O S., 1954, 88-89 (٢٣٧)

Urk I, 117-119 ; MARIETTE, Cat. des Mon. d'Abydos, No 253. (٢٣٨)

تجارة مصر وحماية حدودها ، نخرج في خمس حملات على أقل تقدير ، أربع عن طريق البر وخامسة عن طريق البحر والبحر حصر العدو فيها بين فكي كباشة ، وتكملت حملاته كلها بالنجاح على حد قوله (٢٣٩) . ويكفي من النصوص التي سجلها عنها ، بضع عبارات تكشف عن سياسة الحرب وتجييش الجيوش في عهده .

قص وني أن ملكه جند تحت إمرته عشرات الآلاف الكثيرة من حاميات المدن وأهل الأقاليم الجنوبية والشمالية ومن جانبي الدلتا فضلا عن أهل النوبة الموالين لمصر من قبائل إرثة والمجا وإيام وواوات وكاو ، وأهل ليبيا الموالين لمصر الذين سماهم باسم التمشو ، وأوفد معه طائفة من المترجمين والموظفين ورجال الدين .

وعقب وني على ذلك بأنه نظم مسير الجنود على خير وجه ، وأنه ترتب على حكمه في رسم خطه أنه لم يحدث أن تنازع جندي مع زميله ، أو اغتصب جندي كسرة خبز من عابر سبيل ، أو اغتصب نعله ، ولم يحدث أن نهب أحد جنوده خرقة من قرية ، أو سلب عزة من عشيرة ، حتى جاوز بجيشه مناطق الحدود الشمالية الشرقية ، أو جاوز على حد تعبيره الجزيرة الشمالية ، وبوابة إيجو ، وساقه ؟ حورنب ماعت (٢٣٩) .

وترتب على المعارك التي خاضها وني ما يترتب على الحروب عادة في كل آن ، من أسر وتقتيل ، ونهب وتدمير ، ولما تكلفت مساعيه بالنصر ، وعاد بعسكره إلى أرض مصر ، رفع إلى فرعونه تقرير الحرب ، وعقب عليه بسبعة أبيات من الشعر أكد خلالها سلامة جيشه سبع مرات ، وبدأ كل شطر فيها بعبارة تقول : عاد الجيش سالما . . . بعد أن فعل كذا وكذا . . . ، فقال على سبيل المثال : « عاد الجيش سالما بعد أن دمر أرض أهل الرمال . . . ، عاد سالما بعد أن أسقط حصونهم ، عاد سالما بعد أن حارب مزارع التين واقتلع الكروم . . . » وهلم جرا .

لم يبرأ تقرير وني من المبالغة في تصوير كثافة جيوشه ، حين ادعى أنها بلغت عشرات الآلاف ، ولم يبرأ من المبالغة حين ادعى أن جنوده لم يجيدوا عن جادة الصواب في كل كبيرة وصغيرة ، غير أن روايته على الرغم مما تضمنته من مبالغات ، لم تخل من دلالات تاريخية صريحة تنم عن أن أهل الحكم في عصره تعودوا على أن يجندوا قطاعا واسعا من إمكانيات البلاد لأغراض الدفاع والهجوم كلما آن أو أنها ، وأنهم اطمأنوا إلى إخلاص بعض النوبيين والليبيين واستعانوا بهم في جيوشهم ، وأن رجال الذين توفر لهم نصيب مرسوم خلال الحروب ، ولعلمهم كانوا يثيرون حماس الجنود ويذكرونهم بألاء الأرباب والولاء للحكام والرؤساء والحرص على تقاليد الدين ، وأن التراجم كانوا يعاونون القادة على التفاهم مع أهل المدن التي يفتحونها أو تفتح لهم أبوابها من تلقاء نفسها .

(٢٣٩) حورنبماعت هو لقب سنفرو ، وتسمية المنطقة باسمه منى تحصينها في عهده ■

(see ERMAN in ZÄS, 1891, 120 ; BREASTED, op. cit. ; 312d).

ونم وصف وني لمسلك جنوده داخل مناطق الحدود ، واقتضاه به ، عن أن رؤساء عهده ممثلين في شخصه ، كانوا يقدرون من تبعات القيادة أربعة واجبات ، وهي : محاولة تغليب روح الطاعة في الجيش ، وتقليل دواعي الشقاق بين الجنود ، وتغليب روح التراحم بينهم وبين مواطنيهم المدنيين ، والعمل على تزويد الجيش بؤونة مناسبة تصرف رجاله عن الدنية وعن محاولات النهب والعدوان .

ونم وصفه لمنطقة حروبه ، وذكره مزارع التين والكروم فيها ، عن أنه توغل بجيشه في فلسطين ، وقد ذكر منطقة منها باسم « أنف الغزال » ، وهذه يراها ألان جاردنر قريبة من جبل الكرمل .

ويبدو أن سلامة الجيش التي ردها وني في نهاية تقريره المنظوم عددا من المرات ، لم تكن من مستلزمات الشعور وحده ، وإنما يحتمل أنها تضمنت خبرا مرويا عما حدث للجنود فعلا ، أو هي على الأقل عبرت عن أمل كان المقيمون يرجونه لجيشهم فعلا (٢٤٠) .

وأتت جهود وني ثمارها في عهد يبي وزكته في عهد ولده مرزوع الذي شاركه في الحكم بضع سنين (٢٤١) ، ثم استقل بالحكم بعد وفاته ، فنصبه واليا على الصعيد ، واستطاع وني أن يثبت كفايته ، في عهده على الرغم من كهولته ، فأشرف على شق خمس قنوات كبيرة في مخور الشلال الأول لتيسير الاتصال النهري ببلاد النوبة والسودان (٢٤٢) ، وأشرف على القيام بخدمات خاصة لمولاه ، مثل قطع تابوت كبير سماه « تابوت الحى » وهريم نغم من الجرانيت الأسود من محاجر أبهة غرب أسوان ، ومائدة قربان ضخمة من ألباستر حنوب ، وصناعة سبع سفن كبيرة في عام واحد من خشب اللبخ في النوبة لاستخدامها في نقل مطالب المشاريع الملكية من جرانيت أسوان . وشاء الرجل أن يعزى نفسه عن القيام بهذه التكاليف التي لم ترتفع إلى مستوى ماضيه الحربى القديم ، فذكر أنه استخدم مهارته وجرأته في تنفيذها ، حين ذهب إلى أبهة في النوبة بسفينة حربية واحدة ، ولم يكن ذلك مألوفا قبل عهده نظرا لخطر الملاحه في الجنوب وكثرة المشاغبات فيه ، وحين أوحى إلى زعماء النوبة بصناعة السفن السبع فأطاعوه ، وحين أشرف على صناعة سفينة يزيد طولها عن ثلاثين مترا ويزيد عرضها عن خمسة عشر مترا في سبعة عشر يوما وفي نفس الوقت الذى أشرف فيه على صناعة مائدة القربان المرمرية في حنوب ، ثم عاد بالسفينة من حنوب إلى منف في فصل التحاريق واستطاع أن يرسوبها في أمان على الرغم من قلة الماء في مجرى النيل (٢٤٣) !

*
* *

(٢٤٠) راجع عبد العزيز صالح : « التربية العسكرية في مصر القديمة » - في تاريخ الحضارة المصرية - القاهرة

١٩٦٢ ، ص ١٨٩

E. DRIOTON, in Ann. S 1947, 55-56, see also GARDINER, op cit, 97 (٢٤١)

(٢٤٢) ذكر وني من المهام التي تكفل بها باعتباره واليا على الصعيد ، أنه أشرف مرتين على احصاء مطالب البلاط (أى الحكومة بوجه عام باعتبار الملك هو المسيطر الأعلى عليها) من منتجات الصعيد وضرائه ومجهدات أهله

(BREASTED, op cit, 320)

Ibid, 321-324 (٢٤٣)

تجمعت أهرام فراعنة الأسرة السادسة في منطقة سقارة، فيما عدا هرم بي الثاني الذي شيد إلى الجنوب منها بقليل ، وشابهت هذه الأهرام أهرام الأسرة الخامسة في بساطة أحجامها وصغر أحجارها وضعف متانتها ومقاومتها ، وجرت على سنة هرم ونيس في نقش متون الأهرام على جدران حجرات الدفن فيها وفي بعض الحجرات الملحقة بها ، ثم ما لبثت هذه المتون أن وجدت سبيلها إلى أهرام الملكات أيضا ، فنقشت في هرم الملكة إبوة زوجة تتي مؤسس الأسرة ، وهرمي نيت ووجبتن زوجتي بي الثاني آخر الملوك الكبار في الأسرة (٢٤٤) .

ولم يتبق من تماثيل فراعنة الأسرة غير القليل ، ومن هذا القليل أربعة تماثيل للفرعون بي الأول ، مثله أحدها عاريا في سن الرضاعة ، ومثله آخر جالسا على حجر أمه في سن الطفولة ، ومثله ثالث جاثيا على ركبتيه في سن الشباب يقدم قربانا لربه ، ومثله رابع كزلا يدفع عصاه بيده ويقف بجواره ولي عهده مرزوع عاريا في سن الطفولة .

ولم يجرأ فن النحت على تمثيل هذه الأوضاع للولوك قبل عهد بي ، وإنما اعتاد على أن يمثلهم في سن الرجولة دائما وفي سمات الأرباب وأبناء الأرباب ، تكسوهم القداسة ويحف بهم الجلال والوقار حين يعتلون عروشهم في تعال وأبهة ، وحين يقفون في انتصابه وشموخ ، وحين يظهرون مع أربابهم في زمالة حبيبة أو بنوة رفيقة . ولم يحرم فنان بي تماثيله من مظاهر الأبهة حتى وهو يمثل صغيرا رضيعا ولكنه بدأ في الوقت نفسه ينفعل بأراء جديدة عرنها عصره ونشرحها بعد قليل، وبدأ يحس معها بأنه يمثل إنسانا قبل كل شيء ، وإن يكن إنسانا ملكا ، فصوره عاريا ، وصوره يمن إلى حجر أمه ، وبدأ يشعر بأنه لا ضير في أن يعبر عن العلاقة بين الإنسان الملك وبين ربه بتعبيرها الصحيح فصوره جاثيا يتبغى من خالقه الرضا والقبول (٢٤٥) .

وانعكس ثراء كبار الأفراد وازدياد مكاتهم السياسية والاجتماعية على آثارهم ، نفاقت مقابرهم مقابر أمثالهم في الأسرة الخامسة من حيث السعة والفضامة وتعدد النقوش وموضوعات المناظر، وتفرقت هذه المقابر بين جبانات العاصمة وبين حواضر الأقاليم ، وكانت أنحفها بطبيعة الحال هي مقابر رجال البلاط قرب العاصمة أى في سقارة والجيزة ، وأشهر ما يستشهد به منها مقبرتان ، مقبرة مرروكا، ومقبرة كاييجني وتضمنت أولاهما نحو ٣٣ حجرة فوق سطح الأرض ، وامتلاأت أغلب جدرانها بالمناظر المنقوشة الملونة . واستحب أثرياء العصر طابع الامتلاء في حياتهم وفي نقوشهم ، وأسرف عظماءهم في الاستمتاع برفاهية حياتهم ، وتعهد الفنانون حشو مناظر المقابر بتفاصيل ما كان يتحلى الأثرياء به من الشعور

G JEQUIER, La Pyramide d'Oudjebten, Le Caire, 1928 ; Les Pyramides de Reines Neit et Apout, (٢٤٤) Le Caire 1933.

(٢٤٥) ميد العزيز صالح : « الفن المصرى القديم » - في تاريخ الحضارة المصرية - ص ٢٢٧ لوحة ٢٠ .

المستعارة والقلائد ، وزادوا من تصوير تفاصيل الغدران التي كان يرتادها المترفون ، وتفصيل نباتاتها وأسمائها وأفراسها وتماسيحها ، ولم يجدوا بأسا من تسجيل تفاصيل الجنازات أيضا ومناظر العويل والبكاء والحزن فيها .

واستمع مجتمعهم بنصيب واسع من التحرر الفكري والتحرر المعيشي ، فلم يترددن التصوير في أن يعكس مظاهر هذا التحرر على مناظر الحياة اليومية التي صوّرها على جدران القبور ، ويتضح بعض هذا التحرر في ثلاث لوحات صورها الفنانون لرائعين ورائصات في مناظر الجيرة وسقارة ، ويتضح من المقارنة بين هذه اللوحات الثلاث ، إلى أي حد تدرجت حرية الفنانين حينذاك في التعبير عن حرية أوضاع الرانصات، وإلى أي حد تدرجت الرانصات في تأدية الحركات الجريئة وفي التخفيف من الثياب .

فقد صورت اللوحة الأولى نياتها يرتدين ملابس نصفية ويرفعن سيقانهم في رشاقة واتزان يشبهان أوضاع الباليه الحالية ، وصورت الثانية جواربها بملابس نصفية شفافة ههفاة تكشف عما تحتها ، وصورتين يثنين إلى الخلف في دلالة لإظهار رشاقتهم، وصورت الثالثة جواربها عاريات تماما في مجموعات ثلاثية ترفع الواحدة فيها ساقها العارية حتى تلامس بها كتف أختها (٢٤٦) ! .



*
* *

اعناد المصريون أهل الدولة القديمة على أن يعبروا عن أهل بلاد النوبة باسم عام وهو نحسو (ومنه أتى اسم بانحسى أى النوبى وخرج به العبرانيون ونطقوه فنحاس) واعادوا على أن يعبروا عن مناطقها بأسمائها المحلية مثل واوات (أو واواة) ، وإيام ، وإرثة ، ومخر (أو معخر) ، وتررس ، وساثو ، وإرث ، ومجا (٢٤٧) . . . وازدادت علاقاتهم بها باستمرار نتيجة لاعتبارات كثيرة ، أهمها اعتبار المصريين منطقة النوبة السفلى القريبة من أسوان جزءا متما لحدودهم الجنوبية، ورغبتهم في أمين الحياة عندها والحد من شغب قبائلها غير المستقرة التي كثيرا ما دعاها الفقر إلى الاعتداء على مراكز الحدود وقوافل التجارة ، وحرصهم على استغلال محاجرها الممتازة، كمحاجر الديوريت التي بدأ استخدامها منذ عصر الأسرة الرابعة على أقل تقدير ، ورغبتهم في فتح أسواق للبادل التجارى في مناطقها المسكونة، ورغبتهم في اتخاذها سبيلا ووسيطا للاتصال بأرض السودان الغنية بمتجاتها الطبيعية ونباتاتها وحيواناتها . وكانوا يصدرون إليها فيما تذكر نصوصهم الدهون العطرة والعسل الأبيض والمنسوجات والزيوت والقاشاني، ويستوردون منها جلود الضباع والفهود والماشية والعاج والأبنوس وريش النعام والماشية وربما الغلال أيضا (٢٤٨) ووضحت هذه الصلات والرغبات خلال عصر الأسرة السادسة على هيئة بعثات كشفية ورحلات تجارية وحملات تأديبية .

(٢٤٦) عبد العزيز صالح : المرجع السابق - لوحة ٢٩

A H GARDINER, Anc. Eg Onomastica, I, 74 f; JUNNER, in J E A VII, 121 f; YOYOTTE, in Bull. Inst. (٢٤٧) fr, LII, 176; D. DIXON, in J.E.A. 1958, 40, 120; E. EDEL, in Ag Stud, 51 f; Kush, VI, 39 f.

(٢٤٨) يبدو أنهم لم يستغلوا ذهب النوبة قبل عصر الدولة الوسطى (see, GARDINER, op. cit., 134)

وتكفل بأعمال الكشف وترويج التجارة حينذاك ، عدد من كبار حكام أسوان ، جمعوا فيما يحتمل بين الدم المصرى والدم النوبى وعرفوا اللهجات النوبية والسودانية وتفاهموا بها مع أهلها ، وحملوا لذلك ألقاب رؤساء المترجمين إيمراعو  و  وسجلت النصوص بن أسمائهم إسمى إبرى ، وخرخوف ، ونحو ، وسابنى ، وبى ناخث (٢٤٩) ، وكان أكثرهم أثرا اثنان : خرخوف وبى ناخث .

قام خرخوف بأربع رحلات إلى الجنوب فى عهدى الملكين مرزوع وبى الثانى ، سلك خلالها طريقين : طريقا يوازى النهروالدروب القريبة منه ، وطريقا يصل بين الواحات عبر الصحراء الغربية . وبدأ أولى رحلاته فى صحبة أبيه إبرى ، وبلغ معه منطقة إيام (أو إيام أو إياما) وهى منطقة تقع قريبة من مجرى النيل حول الشلال الثانى (٢٥٠) ، وذكر فى نصوصه عن رحلته أنه أراد أن "يكشف بها طريقا إلى تلك الفيافي" (r wh3 w3t r h3st tn) وذلك مما يدل على وضوح نية الكشف عنده ، ولو أنه كان كشفا تجاريا قبل كل شىء (٢٥١) . وقضى خرخوف فى رحلته سبعة شهور ، ثم قام برحلته الثانية ، وبدأها فيما يحتمل من أبيدوس وسلك فيها طريقا سماه طريق العاج ، وقطع فيما يظن إيدل وديكسون نحو ١٧٢٥ كيلو مترا على ظههور الحير بلغ فيها دنقلة الأوردى قرب الشلال الثالث ، وعاد بعد ثمانية شهور قضاها فى ذهابه وإيابه (٢٥٢) . وسلك خرخوف فى رحلته الثالثة « طريق الواحة » من أبيدوس (٢٥٣) ، وهو طريق يحتمل أنه نفس طريق درب الأربعين الذى تسلكه القوافل حتى اليوم ، ويصل بين منطقة دارنور والواحة الخارجة ثم يمتد منها إلى أسيوط . وقص خرخوف فى أخباره عن رحلته أنه صادف نزاعا بين قبائل إيام وبين قبائل التحو ، وهى قبائل ليبية يغلب الظن على أنها انتشرت فى طريق الواحات غرب النيل وامتدت حتى واحة سليمة على أمل تقدير . فعمل على إصلاح ما بينهما ، رغبة منه فى إظهار مسعاه الحميد لدى الطرفين ، وحرصا منه على تأمين سبل التجارة التى انتدبه فرعونه إليها . وأتم خرخوف رحلته الرابعة فى عهد بى الثانى الذى ولى العرش طفلا ، وكان قد اعاد عند عوداته من رحلاته السابقة أن يؤكد للملك انتشار نفوذه على المناطق الجنوبية التى زارها أو اكتشف

(٢٤٩) Urk. I, 124 f. ; BREASTED op. cit. 333 f., 356 f., 364 f. ويفضل الدكتور جرجس متى قراءة نيساب عن القراءة الشائعة سابنى . وعن احتمال سبق سابنى لمخو see, J.E.A., XXVIII, 16 f.

(٢٥٠) يراها ديكسون جنوبى بطن الحجر ولا تتعدى جنوب خط ٢٢ ، ويراها يويوت فى واحة دنقل ، ويراها جازندر جنوبى الشلال الثانى ولكنها لا تصل حتى الشلال الثالث .

DIXON, op. cit., 40 f, 53-54 ; YOYOTTE, op. cit. 176 f ; GARDINER, Egypt of the Ph., 101 ; see also KEES. Das alte Äg, 70

(٢٥١) سبقه وسبق إياه الى رغبة الكشف مصرى آخر سجل اسمه واسم فرعونه بى الاول على صخور توماس شمالي كورسكو بنحو ثلاثين كيلو متر ، وذكر أنه أراد أن يكتشف منطقة ارثة (DIXON, op. cit. 47 f.) وليست فكرة الكشف التجارى مما يعيب رواد ذلك العصر البعيد ، فالكشف الاوربيين للامريكيتين فى العصر الحديث كان يستهدف التجارة والاستغلال قبل كل شىء .

DIXON op. cit, 44, 54-55. (٢٥٢)

(٢٥٣) أو من بلدة هو فى الصعيد كما يعتقد هرمان كيس (op. cit., 177)

سبل الوصول إليها ، واعتاد على أن يقدم لبلاطه خير متاجرها وخير هداياها وخير جزاها ، واعتاد على أن يتقى المكافآت العينية والتشريفية جزاء عمله في كل مرة (٢٥٤) ، ثم عاد من رحلته الرابعة بما اعتاد أن يعود به من غيرها ، وزاد عليه قزما حصل عليه من أسواق السودان وكتب بنجره إلى بلاط مولاه ، فاهتم الممت الطفل به أكثر من اهتمامه بنتائج الرحلة نفسها ، ورد على كتاب حروف برسالة طريفة تتبدى فيها روح الطفولة وانفعالاتها ، وتتبدى فيها في الوقت نفسه مساوئ النظام الوراثي المطلق الذي لا يأبى أن يضع أزمة أمور دولة بأسرها في يد طفل صغير. وأوصى ببي حروف في رسالته بالعجلة في الحضور إليه والحرص على سلامة القزم ، وشدد عليه في أن يخصص له حرسا يحوطونه على جانبي المركب خشية أن يسقط في الماء ، ويلازمون بالليل ، ويتفقدونه خلال نومه عشر مرات في كل ليلة ، وصرح له بأنه أصبح يهتم بهذا القزم الذي أتى له به من عالم الأرواح (سكان الأفق) أكثر من اهتمامه بمنتجات أرض المناجم ومنتجات بلاد بونت نفسها ، ووعده إن وصل به سالما أن يكافئه مكافأة لا يحلم بها ، مكافأة يعترفها أولاده وأحفاده (٢٥٥) .

وكان الأقزام يقومون بأدوار مختلفة في قصور الفراعنة والأثرياء وفي المعابد . فعمل بعضهم في مجالات الرقص والفكاهة ، وأوتمن بعضهم على المقتنيات الخاصة لمواليهم ورؤسائهم ، وعمل بعضهم في الصناعات الدقيقة كصناعة الحلوى ، واشترك بعضهم في أداء طقوس المعابد ورقصاتها ، وكان لهم دور معلوم يؤديونه في بعض مراسم الجنائز الكبيرة (٢٥٦) .

وكان بعضهم يجلبون من بلاد السودان وما ورائها كما حدث على يد حروف في عهد ببي ، ومن بلاد بونت كما حدث في أيام الفرعون إسي من الأسرة الخامسة (٢٥٧) ، على حين كان بعضهم الآخر يجارون من بين قصار القامة وناقصى التكوين من المصريين أنفسهم (٢٥٨) .

ولم تكن أوضاع أولئك الأقزام مهينة دائما ، لا سيما إذا كانوا من المصريين ، فقد استطاع القزم سنب أن يلي مناصب كبيرة في البلاط والكيوت في نهاية عصر الأسرة الخامسة (راجع ص ٣٧١) ، وتزوج

(٢٥٤) BREASTED, A. R. 333, 334, 336 — وكان يصف نفسه بأنه يبيت رهبة حور (أبي الفرعون) في كل قطر ،

وأنه المشرف على الجنوب وعلى كل الصحارى في رأس الصعيد (Urk. I, 120,14, 124,2-3.)

BREASTED, A.R. 351 f.; Urk. I, 129 f. (٢٥٥)

H. JUNKER, Giza V, Abb. I, 1-11 ; Urk. I, 128, 15 ; ZÄS. 1893, 72 f. ; BREASTED, op. cit. (٢٥٦)

(٢٥٧) أتى به رجل يدعى باورجدي (Urk. I, 128 ; BREASTED, op. cit. 361) ويفهم من سياق النص الذي أشار إليه

أنه اشتراه من أسواق « أيام » وتخيله آتيا من أرض بعيدة سماها « أرض الارواح » .

See J.E.A., XXIV, 185 f. (٢٥٨)

من إحدى أميراتها ، وأصبح يخرج في مواكبه يصحبه مالا يقل عن أربعة أتباع يحملون محفنه وعصاه
ويراعون له مظلته (٢٥٩) .

* *

واستقرت الأمور بين مصر وبين النوبة السفلى وما يليها بعد جهود حروف وونى ، ونم عن
هذا الاستقرار أن مرزوع شاء أن يزور المشروع الذى تكفل فيه ونى بحفر القنوات الخمس فى صحور
الشلال الأول ، فلما زاره " واعتلى ظهر الجبل " ، وفد إليه زعماء النوبة من ميجا وإرثة وواوات وجددوا
طاعتهم له وولاءهم لحكمه (٢٦٠) . وأكمل حاكم أسوان ببي ناخت مجهودات سلفه حروف فى أعمال
الكشف وتأمين سبل التجارة فى الأقطار الجنوبية فى أوائل عهد ببي الثانى (٢٦١) ، وكان يكنى بكنية
« حقا إب » أى المتحكم فى نفسه أو صاحب القلب المسيطر . واستعان على تنفيذ أغراضه بالشدة
حينما وبالسياسة حينما آخر (٢٦٢) . وترتب على ذلك كله أن استمرت التجارة المصرية فى غزو الجنوب ،
وربما وصلت حينذاك إلى أسواق كرما فى أقصى مديرية دنقلة (٢٦٣) ، وكانت من أكبر الأسواق
التي توسطت بين النوبة والسودان .

واستمرت اتصالات مصر التجارية القديمة ببلاد بونت وسواحل فينقيا ، وتبقى من قرآن هذه
الاتصالات أن سجل ملاح مصرى يدعى خنوم حوتب ، أنه تردد بركبه مع رئيسه شى على ميناء جبيل
من ناحية ، ومع رئيسه خوى على سواحل بونت من ناحية أخرى ، إحدى عشرة مرة ، واستمتع
بما شاهده هنا وهناك (٢٦٤) .

* *

ونود أن نشير قبل أن نختتم هذه المرحلة من عصر الأسرة السادسة ، إلى أن التطور الطبقي فيها
لم يقتصر على كبار الموظفين وحدهم ، وإنما امتد إلى الطبقة الوسطى أيضا ، وبقيت من صورة الطريفة
رسالة رد بها قائد صغير على وزير عصره ، ويفهم منها أن الوزير طلب منه أن يوافيه إلى العاصمة بجانب
من فرقته التي تعمل فى طرة ، حتى توزع الكساوى عليهم فى حضرته ، فرد القائد عليه بما يدل على أنه
لم يهتم بأن يجارى كبار رؤيسه فى أن يظهر فضله على الجند وجها لوجه ، وأبدى له اعتراضه بأن تحقيق
طلبه يقتضى التضحية بستة أيام كاملة ، هو أحوج إليها لأداء ما أوكل إليه من المهام ، أما توزيع
الملابس على الجند ، فيمكن أن يتم فى يوم واحد على حد قوله ، إن هو أرسلها إليه مع أصحاب البريد .

JUNKER, Giza, V, Abb. 26. (٢٥٩)

Urk. I, 110—111; BREASTED, op. cit., 317-318 (٢٦٠)

Ibid., 356. (٢٦١)

Ibid., 358, 359. (٢٦٢)

(٦٣) REISNER, in ZÄS., LII, 34 f.; DIXON, op. cit. وتشت عليها أسماء فراغنة الأسرة السادسة لم تكن من مصرهم وإنما وصلتهم مع التجار خلال عصر الدولة
الوسطى (انظر ترجمته لكتاب دريوتون وفاندييه : مصر - ص ٢٥٤ حاشية ١

Urk. I, 140-141. (٢٦٤)

B. GUNN, in Ann S., XXV, 242 f; pl Ia; A H GARDINER, in JEA, XIII, 75 f. (٢٦٥)

عبد العزيز صالح : دراسات فى التاريخ الحضارى لمصر القديمة - القاهرة ١٩٥٧ - ص ٢٩ - ٣١

مكتبة المهتدين الإسلامية

الفصل التاسع

عصر اللامركزية

(من أواخر القرن ٢٣* ق . م إلى أواسط القرن ٢١ ق . م)


ورث بي الثاني العرش طفلا ، فسانده اثنان ، أمه وخاله ، ثم قدر له أن يحكم أكثر من تسعين عاما وهي أطول مدة حكمها ملك مصرية قديم ، سارت أمور البلاد في أوائلها على نفس النهج العادي الذي سارت عليه في عهود أسلافه ، وذلك من حيث النشاط الداخلي والخارجي ومن حيث الثراء الملكي الذي سمح لبي بأن يشيد لنفسه هرما أكبر من أهرام أسلافه ، وأن يلحق به معبدين لاتزال بقايا أطلالها تعتبر أكمل وأمتع من بقايا أطلال معابد أسلافه ، ثم من حيث ازدياد سلطان حكام الأقاليم واتساع ثروتهم و ثروات رجال البلاط ، وميلهم جميعا إلى التحرر في العادات وسبل الحياة . ويحتمل كما يعتقد شتوك أنه أصبح لمصر في عهد بي وزيران ، وزير للصعيد وآخر للوجه البحري .

ولم تكن هذه الأحوال تخلو من مظان الضعف ومظاهره ، لاسيما ازدياد سلطان حكام الأقاليم وازدياد ثرائهم ، فزو وإن أدى إلى إبراز شخصياتهم وفردياتهم إلى جانب شخصية فرعونهم^(١) وأدى إلى استفادة الأقاليم بمجهودات المصلحين منهم ، إلا أنه لم يكن خيرا كله ، وكان من شأنه لو زاد عن حده أن يجرد عددا منهم على أن يختطوا لأنفسهم سياسة ضيقة ينشغلون فيها بأنفسهم وبتوطيد سلطانهم في أقاليمهم ولو أدى ذلك إلى الانصراف قليلا أو كثيرا عن رعاية مصلحة الدولة في مجموعها وعن مراعاة حقوق الحكومة المركزية في العاصمة ، ولم يكن من المنتظر أن يظل أولئك الحكام على سواء في عدالة الحكم ورعاية شئون الأقاليم ، ما داموا بمبعدة عن رقابة الحكومة المركزية وعقابها ، وكان من منطوق الحوادث أن تستأثر بعض أسرهم بخيرات أقاليمها دون الغالبية العظمى من أهلها^(٢) .

ومعنى ذلك كله أنه كان لازدياد سلطان حكام الأقاليم وجهان ، وجه طيب ووجه سيء ، ولم يكن هناك مجال للخوف من وجهه السيء مادامت الحكومة المركزية في العاصمة قوية تعمل لصالح دولتها وترعى شئونها ، وما دام الحكام يعرفون واجباتهم نحوها ويدينون بالطاعة لها ، واستمر الحال كذلك خلال العهود الأولى من حكم الأسرة السادسة ، ثم تبدل حال الحكومة المركزية وحال حكام أقاليمها في عهودها الأخيرة ، وتضخمتم العيوب بوجه خاص في أواخر عهد بي الثاني الذي استبدت به شيخوخته وطال حكمه فلب الضعف في حكومته وقلت هيبتها وبدأ الزمام ينقل من يدها ، وكان حكام الأقاليم قد

() من صور الاكرام الغريفة التي خص بها فرامنة الأسرة بعض كبار دولتهم ، ان ذكر احدهم ان الفرعون سمح له بحفنة وقتية يحملونه فيها خلف جلالته .

مضوا في طريقهم ، فزاد استمساكهم بتوريث مناصبهم لأبنائهم واعتبروه حقا مكتسبا لهم وليس مجرد منحة من ملوكهم ، وجعلوا منصب والى الجنوب الذى ابتدعته الحكومة المركزية للإشراف على مصالحها في الصعيد والإشراف على سياسة أمرائه منصبا غير ذى موزوع ، وانتحل لقبه نفر منهم (٢) ، ومن حكام الصعيد موارد أقاليمهم عن حكومة العاصمة ، فأصبحت شبه عاجزة عن تنفيذ أوامرها وممارسة تبعاتها وحقوقها ، وأخذت ظواهر السخط تتجمع ضدها ، واستعدت طوائف الشعب للثورة عاينها وعلى أوضاع الحكم كلها ، وعاث الجنود المرتزقة الذين استعانت بهم في جيشها فسادا في الأرض دون خشية منها . ولم يتأت الخطر عاينها من الظروف الداخلية وحدها ، وإنما أنها كذلك من خارج حدودها ، فجددت أخطار الهجرات الآسيوية وراء الحدود الشمالية الشرقية ثانية بعد أن خفت حدتها وانكسرت شدتها مؤقتا على يدى ونى ، وتجراً عليها بدو سينا وبدو فلسطين وهاجوا حدودها وهددوا سبل تجارتها مع بقية بلاد الشام (٣) ، وحرموها كثيرا من دخول التجارة وضرائبها ، وتسرب بعضهم إلى أراضي الدلتا وحاولوا الاستقرار فيها .

صور نتائج هذه الأوضاع التى انتهت إليها أمور الحكام والمحكومين في أواخر عصر الأسرة السادسة حكيم مصرى يدعى إيبور (أو إيبو العجوز)  ، وهو حكيم يغلب على الظن أنه عاش في أواخر عهد ببي الثانى أو في عهد أحد خلفائه الضعاف ، ويغلب على الظن أيضا أنه كان ذا صلة بمناصب الدلتا ، وأنه نجح بعد لآى في أن يبلغ صوته إلى أهل البلاط ، ونجح في مقابلة الفرعون نفسه ، وحاول أن يحمله هو وحكومته تبعة ما انتهت إليه أحوال البلاد على أيامه من ضعف ودمار .

(٢) يرى شتوك أن التحول في الأوضاع السياسية في نهاية الدولة القديمة يرجع الى الوقت الذى صاهر فيه ببي الاول احد حكام اقاليمه وأنجب من ابنتيه ولديه مرتزق وببي الثانى ، فقد كان من الطبيعى أن يحابى اصهاره ويتفانى عن اتساع نفوذهم ، كما كان من الطبيعى لولديه أن يزيدا في محابة أخوالهم وأبناء أخوالهم ، فانتهى الامر بأن ظهر منهم وزراء . وساهمت تنظيمات ببي الثانى في التمهيد لعصر اللامركزية حين جعل للصعيد وزيرا وللدلتا وزيرا آخر ، وأسند وزارة الصعيد الى نبلاء الاقاليم وبخاصة اخواله وأبناء أخواله ، وأسند وزارة الوجه البحرى الى رجال من البلاط المنفى .

H Stock, Die erste Zwischenzeit Agyptens, Rome 1949

ومن الأسر الكبيرة التى توارث فيها رجل وأولاده الثلاثة حكم اقليمهم فضلا عن ولاية الصعيد ، أسرة سوبك حوتب حاكم منطقة مير في المنيا وأولاده عنخ ببي الأكبر والوسط والاصفر
(BLACKMAN, in J.E.A I, 41f, pl V)

() صور بوادر جراءة البدو نص لاحد كبار رؤساء القوافل في عهد ببي الثانى ، ذكر فيه أن البدو الآسيويين هاجموا زميلا له وقتلوه هو ورجاله حين كانوا يعمنون على انزال سفينة في البحر للابحار الى بلاد بونت ، وعقب على ذلك بأن فرعونه ارسله لنقل جثة زميله والانتقام له . (Urak I, 134) ويرجع هرمان كيس أن هذه الواقعة حدثت قرب السويس .

وحفظ المصريون آراء إيبور ووصفه لأحداث عصره وحكايته مع أرعوبه وبلاطه، ورددوا قصته أجيالا طويلة ثم سجلوها على البردي ، وبقيت من صورها المأخرة بردية كنها أديب من الدولة الحديثة وتعرف الآن اصطلاحا باسم بردية ليدن ٣٤٤ بعد أن نقلت إلى متحف ليدن عام ١٨٢٨ (٤) .

ضاعت للأسف بداية القصة ونهايتها في هذه البردية ، ولكن يفهم مما بقي منها أن صاحبها قسمها إلى فقرات ، وحاول أن يبدأ كل مجموعة من فقراتها ببدايات متشابهة ، فبدأ فقراتها الأولى بأسلوب الحكاية، وردد في بداية كل فقرة منها عبارة اد طلاحية تعني ما تعنيه عبارة ”حقا قد حدث كذا وكذا“، ثم أخذ يخاطب جمعا من الناس قد يكونون أهل البلاط في العاصمة ، بفقرات متصلة بدأ كل فقرة منها بقوله تأملوا كذا وكذا ، وبعد أن أشبعهم من الاستنارة ، عاد إلى الحكاية مرة أخرى في مجموعة فقرات بدأ كل واحد منها بقوله ”خرب أعداء العاصمة الكريمة كذا وكذا ..“، ثم بدأ الاستنارة من جديد وأخذ يذكر سامعيه بما كانوا يستحبونه من أمور دينهم ودنياهم في عدة فقرات بدأ كل واحد منها بقوله تذكروا كذا وكذا...، ثم قصر حديثه مع شخص معين قد يكون هو الملك نفسه، فلاينه حينما واشد عليه حينما آخر، ويبدو أنه انتهى معه إلى شيء من الأمل، فأخذ يرسم طريق الإصلاح أو طريق الأمل في فقرات أخيرة بدأ كل واحدة منها بعبارة اد طلاحية يمكن ترجمتها مع شيء من التصرف بأنه قد تتحسن الحال إذا حدث كذا وكذا . واتهى الرجل إلى قصة طريفة بدأ يتحدث فيها عن والد وولده لولا أنها ضاعت من البردية بتمامها .

كان إيبور مصلحا ما في ذلك من شك ، وكان يدرك مفساد الحكم في عصره ما في ذلك من شك أيضا ، لولا أنه كان من طبقة ارسقراطية قديمة وكان يتمي أن يتأتى لإصلاحها من داخلها أو بوحى فرعون حازم مصاح ، ولم يكن يهضم أن يفرض التغيير عليها فرضا عن طريق طبقة أقل منزلة منها ، أو عن طريق الشعب في حدود تعبيراتنا الحالية ، ولهذا اختلط الإخلاص في روايته بالمبالغة ، واختلط التحسر بالأمل ، واختلط الخيال بالواقع .

صوّر إيبور ثورة عنيفة عارمة ضد الأوضاع السياسية والاجتماعية التي اشتد فسادها في عصره ، ويفهم من حديثه أنها بدأت بالعاصمة وأنه صحبها في بدايتها شيء من العنف ورغبة التنقيت والانتقام ، فزعر الثوار عن ملكيتهم القائمة ما تبقى لها من قداسة شكاية، وأباحوا لأنفسهم أن يتقاسموا أملاكها ومواردها وأملاك أنصارها، وقبوا أوضاع العاصمة رأسا على عقب واقترحوا دواوينها ومزقوا وثائقها ، وانقلبت العاصمة في ساعة“، على حد قوله ، ”وانكشفت أسرار ملكية الصعيد والدلتا“، وجرى بعض أهل الأقاليم مجرى أهل العاصمة فباحوا المسيطرين عليهم” وقالت كل مدينة دعونا نقص العتاة ن بيننا “ (٥) .

ويفهم مما رواه إيبور أنه تعاون على إشعال هذه الثورة نفس العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي أسلفنا ذكرها ، فالدولة في مجملها ولت عنها هيبتها وهبطت إلى مستوى من الضعف

(٤) Pap Leiden I, 344 rt ; A.H. GARDINER, The Admonitions of an Egyptian Sage, Leipzig 1909

(٥) Pap Leiden, VII, 4, VII, 6; II, 7-8

أصبحت معه كما قال ” في طريقها إلى أن تصب الماء (غيرها) ، ومن أضع الماء (أى الإمكانيات) يكون قد شل الذراع الفنية واحتجزها في الأغلال “ على حد قوله (٦) .

« والأجانب الذين كانوا يخشونها والذين عرف الشعب (تفاهتهم) أصبحوا يقولون لن تستطيع مصر أن تأتي شيئا ، فالرمال (المحيطة بها) هى كل حمايتها ! » (٧) .

وفسدت ولاية الحكام ، وقال عنها إيبور : ” حقا لاتزال العدالة باقية في الأرض باسمها ، ولكن المؤسف حقا هو الخطأ في تطبيقهم لها ، وقال : ” عظماء البلاد لاتبلغهم أمور البلاد ، والكل آل إلى الدمار “ (٨) .

وظهر عجز الملكية عن كبح جماح الجنود المرتزقة في جيشها بحيث « أصبحت خيرات مصر نهبا مشاعا » لكل من نزلها من دون أهلها ، وقال إيبور في ذلك : ” إن الجنود الذين جندناهم من أجل صالحنا أصبحوا ضمن الأسويين ، ألا بعدا للخراب الذى حدث (في مصر) ، فقد جعل الأسويين يعرفون أحوال البلاد “ (٩) .

وعجزت الدولة عن صد هجرات البدو فتجاوزوا حدودها وتسربوا إلى أراضى الدلتا وشاركوا المصريين معاشهم واعتبروا أنفسهم من أصحاب البلاد وخاصة أهلها ، وقال إيبور في ذلك : ” تخربت الأقاليم ، وتوافدت قبائل قواسة غريبة إلى مصر ، ومنذ أن وصلوا لم يستقر المصريون في أى مكان “ وقال « أصبحت أراضى الأبحار (أى الدلتا) كلها غير مستورة ، وامتلا قلب الوجه البحرى بالطرق المطروقة ، ولكن ما الذى يستطيع الإنسان أن يفعله ؟ .. » . وقال : ” تمرس الأسويون على شئون الدلتا “ وقال والألم يحز في نفسه : ” أصبح الأجانب مصريين في كل مكان ... ” وأولئك الذين كانوا مصريين أصبحوا أغرابا وأهملوا جانبا “ (١٠) .

وكان من الطبيعي أن يعز الأمن في البلاد ، وقال عنه إيبور : ” (يقولون) الطرق محروسة ، ولكن القوم يختمون على الأشجار حتى يأتى سار بليل فينبهون ما يحمله ويسلبونه ما عليه ، ويشوهون وجهه بالعصا ، وربما قتلوه ظلما “ ، وقال : ” إذا مشى ثلاثة في طريق وجدهم الناس اثنين ، فغالبا ما تدبج الأكرية الأقوية “ (١١) .

(٦) Pap Leiden, VII 4-5

(٧) Ibid., XV,12; B. GUNN, Syntax, 13, 75 - ويلاحظ التصوير الطريف للحصانة الطبيعية التى كفلتها الصحراء لمصر ولو أنها كانت مصدر متاعب كثيرة في حد ذاتها لاسيما في عهود الضعف الداخلى .

(٨) Pap. Leiden, V, 3-4; IX, 5-6;

(٩) Ibid., VI, 9

(١٠) Ibid., III, 1-2; IV, 5-8; I, 9, III, 14-IV-1

(١١) Ibid, V, 11-12; XII 14

وكانت الدلتا أكثر تأثراً من غيرها باضطراب جبل الأمن وضعف الحدود ، ووهف إيبيور حالها فقال ”بكت الدلتا وأصبحت خزانة الملك (فيها) نهبا مشاعا لكل إنسان ، وأصبح القصر محروما من حقوقه ، وكان من حقه القمح والشعير والطيور والأسماك ، وله الثياب البيض والكتان الثمين والنحاس والدهون ، والطنافس والحصير ، فالإلى أن انعدمت الأقوات منه وما كان ينبغي أن يخلو (منها) ...“ (١٢) .

وتوقفت سبل التجارة الخارجية مع غرب آسيا بعد أن هددتها الهجرات الآسيوية ، وقال إيبيور عنها : ” ما عاد أحديبجر اليوم نحو جبيل ، فما الذي سوف نفعله إذن بخصوص أخشاب الأرز (التي اعتدنا أن نصنع منها) توابيتنا ، والزيت التي يحنط الكبراء بها ، (وترد من) هناك ، ومما يجاور كفتيو . ما ء يأتي من ذلك شيء . وانعدم الذهب (من الخزائن) ، وقلت موارد كل الأعمال ... ، حتى أصبح مجيء أهل الواحات بمنتجاتهم (البسيطة) شيئا ذابالا“ (١٣) .

وتخاصم حكام الأقاليم بعضهم مع بعض واسـأثر أغلبهم بثروات أقاليمهم ، وامتنعت عن خزائن الحكومة المركزية ضرائب أغلب مناطق الصعيد القصية وقال إيبيور في ذلك : ” الحق إن أسوان وجرجا في أرض الصعيد لم تعودا تؤديان الضرائب نتيجة لشيوخ الفتن . فعز الغال .. ومنتجات المصانع ، فكيف سيريد المال إذن بغير موارده ؟“ وقال : ” قلت سفن الصعيد ، وتحربت المدن ، وأصبح الصعيد خرابا يابا“ (١٤) .

شبت الثورة إذن من جراء هذه العيوب كلها ، وصحبها في بدايتها نوع من العنف ورغبة الانتقام ، ورغبة انتفيث عن الغضب المكبوت ، ويبدو أنه أعوزتها الزعامة التي توجهها الوجهة السلمية ، فاستغلها بعض الغوغاء وأهل سوء ، وقال إيبيور وهو يصف بدايتها ” قال حراس الأبواب (بعضهم لبعض) فلننطلق ونهب ... ، وأبى النساء أن يحملوا أحمالهم ... ، وتسليح صيادو الطيور بأسلحتهم ، وترس أهل الدلتا بالتروس ... ، وحدث شيء قدر منذ عهد حور وزمن التاسوع ...“ .

وقال وهو يصف المرح والمرج خلال فترة الانقلاب ” عز الاتباسام وما عاد أحد يبتسم ، وأصبح الحزن يسود البلاد ، ... وما عز الصخب في سنوات الصخب (حتى بدا كأنه) لانهاية للصخب“ (١٥) .

وتجمعت عيوب النظام القديم مع سوءات المهاجرين واضطراب التأثيرين الموتورين ، وترتب على ذلك كله أن أغرق إيبيور في وصف سوء الحال والمآل ، ووصف ما شاء له الوصف شدة الاعتداءات على حرمة الملكية ومقدساتها ودواوينها ودور قضائها ، وقال عن هذه الأخيرة : ” فتحت

Ibid , X, 3-6 (١٢)

Ibid , III, 6-10 (١٣)

Ibid., III, 13 -IV, 2 (١٥)

Ibid , III, 10f., II, 11 (١٤)

الدواوين وسلبت كشوف الإحصاء وأتلفت سجلات حجة المحاصيل“ وقال : ” ألقيت قوانين دار القضاء في العراء ، ودلست في الشوارع ، ومزقتها الغوزاء في الأزقة ، وأخذ العوام يروحون ويحيثون في دور (القضاء) الكبيرة ، ونفى القضاة في الأرض ، واحترقت البوابات والأعمدة والأسوار بعد أن كان ملاذ الملك حصينا خالدا“ (١٦) .

وقال إيبور في شيء من التهويل والمبالغة : ” أصبح الرجل ينظر إلى ولده كأنه عدوه ، . . . وساءت الوجوه ، وتأهب القواس ، واستشرى النهب في كل مكان وما عاد لرجل الأمس وجود . . . “ ، وقال : ” قست القلوب ، وغزا الطاعون الأرض (وسرى) الدم في كل مكان ، وأصبح مجرى النهر قبرا وأصبح مكان التطهر فيه بلون الدم ، وإذا قصده الناس ليرتووا منه عافوا جثث البشر وظلوا على ظمئهم إلى الماء (١٧) “ .

وعز الأمن في الريف وتعطلت الزراعة ، وقال إيبور : ” أصبح الرجل يخرج ليحرق وهو بالمجن “ ” وأفاض إله النيل الماء ، ولكن ما من أحد يود أن يحرق من أجل نفسه ، بعد أن أصبح الناس جميعهم يقولون لسنا نعرف ماسوف يتأتى في هذه الدنيا “ (١٨) .

وتعطلت الصناعة والفنون بدورها ، وقال إيبور ” أصبح الصناع جميعا عاطلين ، وأفسد أعداء البلاد فنونها “ و ” أصبح بناء الأهرام فلاحين “ (١٩) .

وأراد أن يصور سوء الحالة الاقتصادية فقال : ” أصبحت العاصمة في خوف من العوز ، وأصبح الناس يأكلون الحشائش ويتبلعون بالماء . . . وقد يأخذون الطعام من أفواه الخنازير “ (٢٠) .

لم ينس إيبور طبقة التي انحدر منها ، فأخذ يتحدث عن انقلاب أوضاع الطبقات ويقارن بين ما كان وما هو كائن ، ولم يكن من الهين عليه بطبيعة الحال أن تزول النعمة من قوم إلى قوم أو من طبقة إلى طبقة ، فقال في عبارات قوية اتصفت بروح الأدب وتعينا من حيث صياغتها وطرافتها أكثر مما تعينا من حيث دلالتها على واقع أكيد .

قال الحكيم فيما قال : ” فارقت النبالة الدنيا وأصبحت ربات البيوت يقلن أتى لنا ما نأكله ، وذبلت أجسادهن في الأسمال وهاضت قلوبهن من ذل السؤال “ وقال : ” غدا الأثرياء يولولون وغدا المحرومون

(١٦) op. cit., VI, 9-11; VIII, 9-10; II, 10-11

(١٧) Ibid., I, 5f; II, 2f; II, 5-10

(١٨) Ibid., II, 1, II, 3f

(١٩) Ibid., IX, 6, III, 6 — وقد يشير التعبير الأخير الى أن المشتركين في بناء الأهرام كانت حالهم افضل

من حال المزارعين

(٢٠) Ibid., VII, 6; VI, 1-3

فسرورين . . وما من أبيض الثوب في هذا الزمان . ودارت الأرض كما تدور عجلة الفخار . وأصبح المواطن يقول ما أشد البلاء وماذا أفعل؟ وأصبح ابن الناس نسيامنسيا وغدا ابن سيدته كابن خادمته (٢١)!

واندار على الطبقة الجديدة فقال في عبارات متفرقة: تجرأت الجوارى بأفواههن، وإذا تكلمت سيداتهن نقل ذلك على الخدم، وأصبح العوام من أرباب الرفاهة، ومن لم يكن منهم يتخذ نعلا أصبح ذا ثراء عريض، ومن لم يكن يعرف الظل أصبح صاحب ظل ظليل، ومن كان رسولا أصبح يرسل غيره، ومن كان يتساقط شعره من قلة الدهان أصبح يمتلك قدور المر الغالي، ومن لم يكن له صندوق أصبح صاحب أثاث، ومن كانت ترى وجهها في الماء أصبحت ذات مرآة . . . (٢٢)

ولم تقتصر حملات الناقلين على الأحياء الأثرياء وحدهم، وإنما امتدت إلى الموتى الذين نعموا في دنياهم بما لم ينعم به سواهم، وشادوا لأنفسهم أهراما ومقابر ومعابد ومقاصير، ورددوا عليها كثيرا من الأوقاف والخيرات، فذهب بعض الموتورين من هذه الأهرام والمقابر والمعابد كل ما استطاعوا نهبها، ودمروا فيها كل ما استطاعوا تدميره، وعطلوا شعائرها وحطموا رفات موتاها (٢٣).

صوّر إيبور حيرة الناس في عصره بأنهم كانوا رجالا ثلاثة، رجلا يعلم ما حدث ويوافق عليه، ورجلا يجهل تماما، وثالثا علم بما حدث ولكنه لا يدرى إن كان خيرا أم شرا (٢٤).

وكره بعض الناس دنياهم وآثروا الانتحار، سواء لضياح حقوقهم القديمة، أو لأسفهم عما أصاب المعابد والمقابر، أو لأسفهم عما أصاب بلدهم من اضطراب لم يعرفوا علاجه، وعبر إيبور عن رأيهم بقوله "ولى وانقض ما شهده الأمم، وبقيت الأرض لسوء حظها، ألا ليت ذلك يكون نهاية الناس فلا يحدث حمل ولا ولادة، وتهدأ الأرض من الضجيج ولا يكون هناك متخاصمون"، وقال:

"أصبح الكبير والصغير يمتني الفناء، وأصبح الأطفال الصغار يقولون ليت آباءنا لم يهبوا الحياة"، وقال:
"غصت التماسيح بما أصبحت تقتنصه بعد أن ذهب الناس إليها من تلقاء أنفسهم" (٢٥)!

*
* *

بيد أنه على الرغم من السوءات التي صاحبت الثورة في بدايتها ترتبت عليها نتائج أخرى طيبة للغاية صوّر إيبور نفسه بعضها في بقية قصته، وكانت أوضحها ثلاث، وهي:

أنها استشارت نوعا من الوعي القومي لدى المفكرين الذين عزّ عليهم معجزهم عن دفع البلاء عن وطنهم قبل وقوعه، وعزّ عليهم أنهم لم يتنبهوا إلى بوادر الخطر ولم يتلافوها، وصعب عليهم أن تتهك حرمت

Ibid., IV, 13-14; II, 8, VII, 13-VIII, 5, (٢٢) op cit., III, 3-4; II, 8-9 (٢١)

Ibid., VI, 12-14; GARDINER, op. cit., p. 52 (٢٤)

Ibid., VII, 1-2 (٢٣)

Pap. Leiden, V, 12-16, II, 13-14 (٢٥)

البلاد وتبذل مقدساتها الدينية والتقليدية تحت أبصارهم وأسماعهم ، سواء بأيدي المهاجرين أم بأيدي المواطنين المتورين ، وعبر إيبور عن هذا الوعي فقال في سياق حديثه ” وما أشق ذلك على نفسى ، بل وعلى كلى ، وليتى رفعت صوتى فى ذلك الحين ، وإذن لأنقذنى ذلك من عذاب لآلت أعانيه “ (٢٦) .

وقابل إيبور ملكه وصور له جهله وحيرة شعبه ، وقال له ” كان من الممكن أن يرتاح قلب الملك لو بلغت الحقيقة ، فهذه كل بلد أجنبية (تجرات علينا) ، وهذا ماؤنا (أماننا) ، وهذه سعادتنا (فى أرضنا) ، ولكن ما الذى نستطيع أن نفعله من أجلها والكل آيل إلى الدمار؟ “ (٢٧) .

ولم يكتف إيبور بالتوجه وحده ، وإنما عبر عن وعيه مرة أخرى فصور لذلك حقيقة الوضع الذى يعيش فيه ، وقال له : ” إنك تأمر أمرا فيجاب عليك بإجابات شتى ، وإذا أحب إنسان كره آخر ، (ومن معك) قلة على كل جانب . وربما أردت أن تفعل شيئا ما ، ولكن ما يروى لك هو الزور ، فالبلاد تشتعل والناس قد أهلكوا “ ...

وتجراً الرجل على الملك وحاسبه قائلاً ” لديك وى وبصيرة و (أسباب) العدالة ، ولكنك بعثت الفوضى فى البلاد مع أهل الفتن “ ، وقص عليه بلاء الناس ثانية ، ثم عنف عليه وقال له ” ولينك تذوقت بعض هذه المصائب وإذن لقصصت (خبرها بنفسك) (٢٨) “ ...

ويبدو أن الملك حاول أن يدافع عن نفسه ، وزعم أنه كان على جهل بما يجرى ، وأنه عمل على إرضاء الناس حين علم به ، فرد إيبور كما يقول راوى القصة ، ” على جلالة المولى المطابق بقوله : قد يكون الجهل مريحا للنفس ، وربما فعلت شيئا طيبا لقلوب الناس وأحييتهم به ، ولكنهم لا يزالون يغطون وجوههم فزعا (مما يأتى به) الغد (٢٩) “ !

ونتيجة أخرى ترتبت على الثورة ، وهى أنها دفعت المفكرين إلى رسم صورة واضحة للحاكم الصالح الذى تمناه أرضهم بعد أن سمعوا بأحوال الملكية المتسيطرة القديمة ، وبعد أن لمسوا أحوال الملكية المهلهلة الضعيفة ، وبعد أن جربوا سيطرة العوام . وعبر إيبور مرة أخرى عن هذه الصورة وهو يخاطب أهل الحاشية ، فصور لهم الحاكم المتظر ، بأنه من يعمل للبناء ، ولا يفرق بين هيباب وجرىء ، وصوره ” رجلا يستطيع أن يحيل اللهب بردا وسلاما ، ويمكن أن يعتبره قومه راعيا للناس أجمعين ، ليس فى قلبه ضغينة ، وإذا تفرقت رعيتة قضى يومه يجمعها “ (٣٠) . ثم شاركهم الأمل فى أن تتحسن الحال

Ibid , III, 12-13 (٢٧)

op. cit., VI, 4-5 (٢٦)

Ibid , XV, 13—XVI, 1 (٢٩)

Ibid , XII, 12f (٢٨)

Ibid , XI, 13f (٣٠)

وتصعد السفن دون أن يقابلها من يترصد لنهبها ، وتصبح الطرق آمنة مطروقة ، وتبنى سواعد الرجال الأهرام وتشق الترع وتزرع الأشجار من أجل الأرباب ، ويملاء المرح أفواه الناس ، على حد قوله (٣١) .

أما النتيجة الثالثة التي ترتبت على الثورة بعد أن هدأت وقرقرارها ، فهي نشأة طبقات جديدة لم تعد تعز بالحسب والنسب بقدر ما تمجد العصامية ، ويعتز الفرد فيها بأنه مواطن قادر يتكلم بفه ، أى يتكلم بوحى نفسه وليس بإيعاز من غيره ، ويفخر بأنه يعدل بساعده ويحرب بمواشيه ويتنقل بقاربه ، أى يعتمد فى عمله وحله وترحاله على ما يمتلكه يده وليس على ما يمتلكه سواه (٣٢) . وكان من ذلك أن قال أحدهم فى نصب أقامه بمقبرته : ” كنت مواطناً نشطاً ذا سمعة طيبة ، عاش فى أملاكه وحرث بشيرانه وسافر بسفينته ولم يكن ذلك من شىء وجدته فى حيازة أبى المبجل وحاً (٣٣) “ .

على أنه يبدو أن تطلع المصريين فى أواخر الدولة القديمة إلى ملك صالح يرعى البلاد جميعها ويسوس الحكام والمحكومين ويلزمهم جادة الصواب ، قد طال ، وتوالى على عرش الأسرة السادسة فى خواتيم أيامها فراعنة ضعاف ، ظهر من أسمائهم فى بردية تورين اسم لشخصية تدعى « نيت إقرتى » ، اختلف المؤرخون فى شأنها اخلافاً كبيراً ، فاعتبرها بعضهم أم بى الثانى وبذلك تكون قد سبقت عهده ، واعتبرها بعضهم زوجته وأخته وربما عاشت بعده (؟) ، واعتبرها بعضهم رجلاً أتى بعده ، واعتبرها بعضهم امرأة انتهت إليها وراثته العرش فى آخر الأسرة السادسة (٣٤) ، ويعتقد أصحاب هذا الرأى الأخير أن هذه السيدة هى التى اشتهرت لدى المؤرخين المتأخرين باسم نيتوكريس ، وأنها استعاضت أن تنفرد بالحكم عامين ، غير أن أيامها انتهت دون أثر يذكر لها إلا انهيار العرش الفرعونى بعدها . ولأمر ما دخلت نيت إقرتى ذمة الأساطير ، وروى ما نيتون أنها كانت أنبل وأجل أهل زمانها ، وروى هيرودوت أنه سمع قصتها من المصريين الذين عاصروه ، فذكروا له أنها كانت ذات جمال طاع ، وأنها وليت العرش بعد مقتل زوجها ، فاتجهت بكتابها إلى محاولة التعرف على قاتليه والفتك بهم ، وكادت لهم طويلاً وبلحات فى خطتها الأخيرة إلى أن أعدت بهواً فخماً ضخماً فى باطن قصرها ، وأمرت بحفر سراديب خفية حوله تصله بنهر النيل ، واستبقت أمر هذه السراديب سرا لا يعلمه إلا خاصة المقربين إليها ، ثم دعت من حامت الشكوك حولهم فى مقتل زوجها إلى انتاح الهوا الجديد ، فلما اكتملت أعدادهم فيه ، وانصرفوا إلى اللهو والشراب أمرت بفتح السراديب عليهم وأغرقهم أجمعين . وحين ثابت نيتوكريس إلى رشدتها

(٣١) op., cit., XIII, 9 f.

(٣٢) cf J. CLERE—J VANDIER, Textes de la première période intermédiaire . . . , 1948.

(٣٣) D. DUNHAM, Naga-cd-Der Stelae of the First Intermediate Period, 1937, pl. XXXII, 102f

(٣٤) Turin Pap IV, 7 (or IV, 8 ; HERODOTUS, II, 100; NEWBERRY, in J.F.A., 1943, 51 f.; A.H. GARDINER, Egypt of the Pharaohs, p 102.

ويبدو أنها تلقت بلقب متكارح ، فخلط المؤرخون المتأخرون بينها وبين منكا ورع ونسبوا إليها اكمال هرمه . وعرفت أميرة أخرى بنفس اسم نيت إقرتى فى الأسرة السادسة والعشرين ، وكانت ابنة بسمايك الاول . ويحتمل أن سمعتها اختلطت فى أذهان الناس بسمعة نيت إقرتى القديمة .

وهدأت الحمية فيها ، تخوفت نقمة شعبها وثورته على فعلتها ، فرمت نفسها في أتون متأجج من النار وقضت على نفسها بنفسها .

قد تكون قصة ” نيت إقرتي “ هذه أونيتركيس أسطورة مختلفة في معظمها ، ولكنها على الرغم من ذلك لا تخلو من مغزى ، فترديد الرواة المصريين لها أمام الأغريق ينم في أغلب الظن عن اعتزازهم بعهد قديم كان الفراعنة يحشون فيه انتقام رعاياهم ويفضلون أن يلاقوا حتفهم بأيديهم عن ملاقاته ثورتهم وبطشهم .

وعلى أية حال فإن الغموض لم يكتنف أواخر الأسرة السادسة وحدها ، وإنما اكتنف عصرا طويلا أعقبها استمر نحو قرن ونصف قرن وامتد من أواخر الأسرة السادسة حتى نهاية الأسرة العاشرة ويعرف اصطلاحا باسم عصر الانتقال الأول أو عصر اللامركزية الأولى وبدأ فيما يظن في أواخر القرن الثالث والعشرين ق.م (٣٥) . وظل النزاع على العرش بين أدعياء الحكم والطامعين فيه مستمرا في أوائله وذلك بحيث روى مانيتون أنه تولى الحكم في الأسرة السابعة سبعون ملكا منفيا لمدة سبعين يوما . ومع وضوح الغرابة في هذه الرواية ، حاول بعض الباحثين أن يستشفوا شيئا منها ، فانترضوا أن السبعين ملكا كانوا مجموعة من كبار الموظفين كَوْنُوا حكومة يبروقراطية ترأسها كل منهم يوما واحدا ، أو جماعة من الأشراف وكبار حكام الأقاليم كَوْنُوا فيما بينهم حكومة أوليجركية وأرادوا إقامة حكم مشترك يتعاقبون في رئاسته على التناوب ولكنهم فشلوا . وليس ما يمنع من أن نفترض أن السبعين يوما كانت فترة اضطراب شامل خلا العرش فيها من صاحبه فاتحل كل حاكم من حكام الأقاليم الجبار السلطان لنفسه ، مع اعتبار عدد السبعين ملكا مجرد مبالغة عديدة لتصوير كثرتهم أو تعددهم وحيرة الناس بينهم . لم يتبق من آثار حكام عصر الانتقال الأول غير القليل النادر إلى جانب كثرة مختلطة من أسماء حكام ذكرت قائمة أبيدوس لهم ما لا يقل عن ١٨ اسما (٣٦) .

(٣٥) لا يزال توقيت هذا العصر مشكلة تنتظر الحل فقد رأى ادوارد ماير بدايته حوالي ٢٢٤٠ ق.م ، وبداهة بنهاية الأسرة السادسة ، ورأى ونلوك وسميث بدايته حوالي ٢٢٣٠ ق.م ورأى كيس بدايته حوالي ٢١٩٤ ، وذهب شارف ملدها آخر ، فأجل بداية عصر الانتقال الى نهاية الأسرة الثامنة وأخذ في ذلك بما أخذ به كاتب بردية تورين حين جمع فترات المصورتاريخية منذ الأسرة الأولى الى نهاية الأسرة الثامنة في ٩٥٥ عاما اشارة منه الى انتهاء عصور ذات طابع خاص وليبدأ بعدها عصورا تختلف عنها في بعض مظاهرها . غير أن شارف وان وافق كاتب بردية تورين على هذا الوضع الا انه اعتبر نهاية الأسرة السادسة في ٢١٦٠ ق.م . For discussions See J.N.E.S 1952, 113f.

(٣٦) تذكر قائمة أبيدوس مرتفع عنق مساف ، نثر كارع ، من كارع (وقد يكون هؤلاء الثلاثة من الأسرة السادسة) ، نفر كارع ، نفر كارع نبي ، جدكارع شمأى ، نفركارع خندو ، مرنحور ، سنفركا ، نيكارع ، نفركارع ترورو ، نفركا حور ، نفركارع ببي سنب ، سنفركا عانو ، قاقاورع ، نفركاروع ، نفركاو حور ، نفريركا رع . (Abydos 39-56)

واللاحظ ان القائمة لم تلتزم بالترتيب السليم لاسمائهم ، وربما ذكرت الواحد منهم باسمين ، وذكرت ملوك الأسرة التاسعة بين الاسرتين السادسة والثامنة .

راجع من مقترحات ترتيبهم

Stock, op cit ; W.C. HAYES, The Scepter of Egypt, I, 1953, 134; and GARDINER, Egypt of the Pharaohs, 109, 437.

ومن الآثار القليلة الباقية هرم في سقارة لفرعون يدعى إبي نقشت بعض جدرانها الداخلية بتمون الأهرام على عادة الأسرة السادسة (٣٧) . ونص مختصر في وادي الحمامات يذكر هرما لفرعون يدعى إبي اشترك ٢٠٠ جندي و ٢٠٠ عامل في قطع بعض أحجاره (٣٨) . ونص آخر باسم فرعون يدعى إيجوتب قال فيه ولى عهده جاتى عن نفسه "كنت في مقدمة الجمهور يوم المعركة ، ونظمت المسير يوم الموقعة بجحمتى" ، وذلك مما يعنى ما عناه نص ونى في الأسرة السادسة من أن تنظيم الجيوش كان مهمة يحسب حسابها .

وأضاف جاتى أنه تكفل بعمل ما في وادي الحمامات ، قد يكون قطع أحجار لمقبرة والده أو لعمل تماثيله ، وذكر أنه اشترك في العمل تحت رياسته ألف عامل ومائة حجار ومائة وعشرون جنديا ونحسون . . . (؟) ، وأن الملك خصص لهم نحسين ثورا ومائتى حمار يوميا ، ولا ندرى إن كان بعض هذه الأنعام لطعام رجاله أم أنها خصصت كلها لنقل الأحجار وجرها (٣٩) .

وأثار هذان النصان مشكلة واسعة ، فاسم إيجوتب لم يعرف بين الفراعنة ، ومع ذلك ذكر ونى في الأسرة السادسة اسما شبيها به حين قال إنه مر بجيشه من بوابة إيجوتب عند الحدود الشمالية الشرقية (ص ٣٨٥) ، فهل معنى ذلك أن إيجوتب حكم قبل عصر الأسرة السادسة وليس بعدها ؟ أم أن تسمية بوابة إيجوتب تبين فيها أصحابها باسم إيجوتب حكيم الأسرة الثالثة ومهندسها فأطلقوه عليها ، وبذلك لا تآون لها صلة بهذا الملك إيجوتب ؟ وأن يستطيع الملكان إتى وإيجوتب إرسال أعداد كبيرة من الجنود والعمال إلى وادي الحمامات على الرغم من قصر حكمهم ، دعا إلى التساؤل عما إذا كانا من ملوك منف (إنب حج) وتوفر لهما نصيب من الاستقرار النسبي ، أم أنهما كانا من حكام الصعيد القرييين من وادي الحمامات ونحلا نفسيهما ألقاب الملوك ! الواقع أنه ليس من حل مرض لهاتين المشكلتين في ضوء المصادر المعروفة حتى الآن (٤٠) .

وعلى أية حال فالمعتقد حتى الآن هو أن الأسرة الثامنة بدأت واستمرت على نفس الضعف الذى انتهت إليه الأسرة السادسة وقامت عليه الأسرة السابعة ، ولا يكاد يعرف من آثارها المكتوبة غير عدة نصب عثر عليها في قفأ ، تضمنت مراسم بأسماء الملوك واج كارع ، ونفركارع ، ونفركاو حور ، وجرى فيها أصحابها على سنة سلفهم القديم ببي الثانى في تقرير إعفاءات معينة لصالح معبد الإله مين ورجاله في قفط ، وصالح الأوقاف الملكية المرصودة على تماثيلهم فيه . وتضمن أحد هذه المراسم تهديدات من فرعون عصره يتوعد فيها كل من يجرؤ على الاعتداء على المقابر والمعابد وتحطيم التماثيل

G JEQUIER, La Pyramide d'Aba, Le Caire, 1935 (٣٧)

Urk. I, 148; A R I, 387 (٣٨)

Urk I, 149; A.R.I., 389-390 (٣٩)

Ed. MEYER, Geschichte, 267 (٤٠) - وراجع دريوتون وفاندييه : مصر ص ٢٦٢ - ٢٦٤

بحرمانه من ميراث آباءه ونفيه وعدم دفنه بين المكرمين (٤١) . وتم هذه التهديدات فيما يغلب على الظن عن أن الاعتمادات على المقابر والمعابد والتماثيل كانت قائمة بالفعل ، وأن الحكام حاولوا أن يوقفوها ويمنعوها بكل سبيل ، ولجأوا في مقاومتها إلى تنويع العقوبات بين السجن والنفي والحرمان دون أن يدر فوا فيها إلى حد عقوبة الإعدام .

وتضمنت المراسيم نفسها تعيين اختصاصات ثلاثة من كبار قفط كانوا أصهارا للأسرة المالكة ، دعى أكبرهم "شماي" واتخذ لقب الوزير وحاكم الجنوب ، وكان الآخران ولدين له ، ويبدو أن نفوذ هذه الأسرة الفظية الحاكمة ازداد شيئا فشيئا ، حتى حكموا سبعة أقاليم من جنوب الصعيد، لولا أن السلطة التي توفرت لهم لم تستمر أكثر من أربعين عاما فيما يعتقد كورت زيته (٤٢) ، ثم تسربت زعامة الصعيد من بين أيديهم إلى حكام طيبة في نفس الوقت الذي انتقلت فيه زعامة مصر الوسطى من أيدى ملوك منف إلى حكام اهناسيا غربى بنى سويف ، وهنا بدأ كتب بردية تورين عصرا جديدا بعد أن جمع العصور التاريخية السابقة له في وحدة واحدة بلغ مداها عنده ٩٥٥ عاما (٤٣) .

استمر تطلع أهل العواصم إلى ملك يجمع شمل البلاد ويحقق الأمل الذى نادى به إيبور ، عهدا طويلة ، ولكن ظهر عدد من حكام الأقاليم حاول كل منهم أن يقوم بدور الحاكم الصالح في إقليمه ، واعتبر نفسه شبه ملك في حدود منطقته ، وأرخ بعضهم نصوصه باسمه وبفترة ولايته ، وافتخر أغلبهم في نصوص مقابره بمحاولة حل ثلاث مشكلات كانت تقلق بال الناس في عهدهم ، وهى مشكلة اضطراب الأمن ، ومشكلة تطهير الترع القديمة وحفر ترع جديدة وإصلاح الأراضى البور التى هجرها أصحابها ، ثم مشكلة المجاعات التى تسببت فيها المشككتان الأوليتان ، أى اضطراب الأمن ، ونقص موارد الماء . وافتخر أغلبهم في نقوش مقابره بأن كلا منهم اعتبر نفسه زوجاً للأرمل وأباً لليتيم ، وأنه آوى من لا عائل له ودفن من لا أهل له . وقد لا تخلو هذه العبارات من مبالغات ، ولكنها لا تخلو في الوقت ذاته من دلالة على أمل الحكام في اكتساب السمعة الطيبة جهد الطاقة ، واكتساب محبة الرعية جهد الطاقة ، والظهور بمظهر الآخذين بتعاليم الدين جيد الطاقة أيضا .

واستأثر أولئك الحكام بسلطة واسعة في أقاليمهم ، من الناحية الإدارية والقضائية والدينية ، وجعلوا وراثة الحكم في أعقابهم قضية مسالما بها ، وترتب على ذلك ما يترتب على نظام الحكم الوراثى عادة ، من احتمال ولاية وريث الحاكم فى سن الطفولة ، فكان من رواية تفصيلى حاكم أسويط عن إيكاله الحكم إلى ولده خيتى قوله " . . . خلفنى ولدى ، وخضع له الموظفون ، وحكم منذ أن كان طفلا فى طول الذراع ورحبت به المدينة التى تحفظ الجميل . . . " (٤٤) .

K. SETHE, in Göttingen Gelehrte Anzeigen, 1912, 705f. (٤٢)

ED MEYER, Gesch. 175; BORCHARDT, Die Annalen, 45 (٤٣)

وأخذ بهذا الراى الكسندر شارف ولكنه جعل زعامة طيبة فى الصعيد تبدأ من ٢١٦٠ ق.م اى مع نهاية الأسرة السادسة فيما يعتقد ، وجعل بداية البيت الامناسى عام ٢١٢٠ ق.م .

Suit, III; BREASTED, A.R. 395, see also 413. (٤٤)

وكون كل حاكم من أولئك الحكام جيشا محليا وأسطولا محليا يناسب إمكانيات إقليمه، وصوّرت مناظر تمقارهم كثيرا من مناظر الحرب والاستعداد له (٤٥). وعثر على نماذج من الخشب تمثل جانبا من الجيش الإقليمي لحاكم من أسبوط يدعى مسحتي . وتألفت من مجموعة تسلح أفرادها بالحرب والتروس الكبيرة، ومجموعة أخرى تسلح أفرادها بالأقواس والسهام . وكان أفراد هذه الحاميات يلقون معاملة طيبة من حكامهم ، ويدربون تدريبا مناسبا ، ولكن وجودهم تحت إمرة حكامهم كان يشجع هؤلاء الأخرى على التنافس المسلح ويدفع أقوياءهم إلى محاولة السيطرة على أصحاب الإمكانيات المحدودة منهم .

وكانت أعنف أدوار التنافس التي سجلتها أخبار هذا العصر هي أدوار النزاع بين حكام طيبة وحكام أهناسيا ، فقد أسلفنا أن حكام طيبة حاولوا أن يرثوا زعامة الصعيد بعد أن ولت عنه زعامة قفط ، واشتهر أولئك الحكام اصطلاحا باسم الأناطقة ، نظرا لتسمي أغلبهم باسم إنتف أو إنتوف (راجع ص ٤٢١) وكانوا على جانب كبير من الحذر ، فلم يدعوا لأنفسهم في بداية أمرهم ملك صريحا، ولم يتقبوا بألقاب الملوك، وبلغ من حيظتهم أن هادنوا الأسرة الحاكمة الأخرى التي ظهرت في مدينة أهناسيا بمصر الوسطى ، وربما اعترفوا اعترافا ضمنا بسيادتها ، أو على الأقل لم ينازعوها سيادتها بعد أن تبينوا أنها فاقتهم سلطانا ، وأنها استطاعت أن تمد سلطانها إلى منطقة منف ذاتها . فلقب زعيمهم إنتف الأول نفسه في بعض نصوصه بأنه ” النبيل الحاكم ، والرئيس الأعلى لإقليم طيبة ، الذي ملأ قلب الملك (ثقة) باعتباره مشرفا على مدخل دروب الجنوب ، وكان عمادا رئيسيا لمن يبني بلديه ، كبير الكهنة المكرم لدى الإله الأعظم رب السماء ” (٤٦) .

وشجع هذا الوضع حكام أهناسيا* على أن يتخذوا صفة الفرعنة، واعتبروا أنفسهم خلفاء ملوك منف، وتعاقبت فيهم أسرتان حاكمتان ، تعرفان اصطلاحا باسم الأسرتين التاسعة والعاشرية ، وبدأ أولاهما فرعون يسمى خيتي (الأول) . ويبدو أنه بدأ حكمه بنوع من الشدة ، قصد به تأييد ملكه والدود عنه على الرغم من أنه لقب نفسه بلقب « مصرى إبتاوى » أى حبيب قلب الأرضين ولقب « مصرى إبرع » أى حبيب قلب رع (٤٧)، وروى عنه أحد أحفاده أنه كان يبرر شدة بقوله ” إن الرب نفسه ينتقم ممن يعادى معبده (٤٨) ” . ورددت أجيال المصريين أخبار شدة وضخمت فيها ، وذلك إلى حد أن وصفه المؤرخ المصرى مانيتون بأنه كان أكثر الملوك المصريين ظلما وأنه كان متجبرا ، وأنه لقي

(٤٥) A.R., I, 41C-11; WINLOCK, in Bull. Metr. Mus. 1928, II, p 11f.

(٤٦) BREASTED, op. cit., 420 — ويقصد بمن يحيى بلده الملك الذى يرمى شئون الصعيد والدلتا . ولو

أن انتف بلغ مرتبة القداسة عند أهل طيبة (Hayes, op. cit., 153)

*راجع عن أهناسيا ص ٢٧ — وقد كان إقليمها يعتبر الأقليم العشرين من أقاليم الصعيد ، ويسمى « نكرة خنتة » ربما بمعنى الرمانة الامامية ، ووصفته النصوص البطلمية بأنه جزيرة (تقع بين النيل وبين بحر يوسف) وذلك مما ينم عن خصوبة أرضه وصلاحية مرقته .

(See, GARDINER, Onomastica, II, 114; BALL, Geogr. of Egypt, 70)

(٤٧) GAUTHIER, L.R.I., 204; Ann. S. X, 185; HEYES, op. cit., 143

(٤٨) Pap Petersburg 1116 A., rt, 10 9-110

جزاءه بأن جن في نهاية عمره واقترسه تمساح . ونهما يكن في هذه الرواية الأخيرة من خيال ، فهي لاتخلو من دلالة على إيمان أصحابها بأن عواقب الظلم لا بد أن تعود على رؤوس أصحابها .

وظل حكام مصر الوسطى وماحولها على حالهم من الاستقلال الداخلي ، في ظل ملوك اهناسيا ، وظلوا على تفاخرهم بأعمالهم ، وأشبع فيهم أهل أقاليمهم رغبة التعالي ، فمدح أحد كتبة أسيوط ختي بن تفيبي الذي كان يتفاخر بأنه سليل حاكم وابن بنت حاكم ، بقوله : ”ما أجمل ما تم في عهدك ، لقد رضيت المدينة بك ، وما كان مستغلقا على الناس جعلته مكشوفاً مباحاً من تلقاء نفسك ، عن رغبة منك في إيساعاد أسيوط . جعلت كل موظف يستقر في منصبه ، وماعاد أحد يقتل أو يرمى بسهمه ، ولم يعد الطفل يلقي حذفه بجوار أمه ، ولا مواطن بجوار زوجته ، بعد أن هداك رب مدينتك الذي أحبك (٤٩)“ .

وحاول ملوك اهناسيا أن يربطوا حكام الأقاليم بهم عن طريق السياسة قبل العنف ، واتبعوا وسيلة بعض ملوك الدولة القديمة في تربية أبناء الحكام الجبار في قصورهم بغية أن يشبوا أوفياء لهم ، وكانوا يجاملون أولئك الحكام في الملمات ويشاركونهم المسرات ، بغية أن يردوا الجميل لضعفين . فأشار أحد نصوص أسيوط إلى أنه عندما توفي حاكمها بكى الملك نفسه ، وبكى أهل مصر الوسطى والدلتا . . . ، واجتمع الملك والنبلاء حين دفنه “ . . . ، ويحتمل أنه سمح لابنته بأن تتولى شؤون أسيوط في طفولة ولدها وحفيده ، ثم ربي هذا الحفيد في قصره . وقال الحفيد وكان يدعى ختي (٥٠) : ”سمح الملك لي بأن أتولى الحكم ولم أكن قد تعديت الذراع طولاً ، ورفع منزلتى في شبابي ، وسمح لي بأن أتعلم السباحة مع الأمراء . ولهذا أصبحت صادق الرأي براء مما يسىء إلى مولاه الذي رباه طفلاً ، ونعمت أسيوط بحكمي وأثنت على اهناسيا (نفسها) ، وقال عنى أهل مصر الوسطى والدلتا ”تربية ملك“ ! . . . ثم وصف تربية الملوك هذه بقوله :

أردت أن أهدي هدية إلى هذه المدينة . . . فأمرت بحفر ترعة (عرضها) عشرة أذرع . . . ، وحافظت على حياة المدينة ، وأجريت أجورا (عينية من الحبوب) على السقائين (؟) ليتولوا توزيع الماء حين الظهيرة . . .

ورفعت الماء إلى الأرض العالية ، وحفرت نبعا (؟) في الجبل الذي عز عليه الماء ، وضمنت الحدود (الزراعية) ، . . . ، ورفعت ماء النيل فوق علامات الحدود القديمة ، حتى اكنتى كل مزارع بحاجته من الماء ، وحصل كل مواطن على (نصيبه من) ماء النيل وفق هواه . (وكما أرضيت الحار) سقيت جاره ، ليصبح على وفاق معه .

كانت لدي غلال كثيرة ، وعندما شمت أقوات البلاد أغدقت (على) مدينتى أرادب فوكيلات (أو «خاو وحقاوت» على حد تعبيره) ، وسمحت (لكل) مواطن بأن يأخذ نصيبه ونصيب زوجته ،

BREASTED, op. cit, 404 (٤٩)

BREASTED, op. cit, 407-413; BRUNNER, Die Texte aus den Gräben der Herakleoplitin zeit von Suit, V, 20f (٥٠)

وأعطيت منها الأرملة وولدها . وتجاوزت عن الضرائب التي سنها آباءى ، وملاّت المراعى بالماشية ، وأصبح لكل إنسان نصيبه من ألوان (النعم) وكنت عطونا على البقرة إذا (أسنت ؟) .

قامت فى الميلا جنوبى الأقصر بنحو عشرين ميلا ، مقبرة لحاكم من حكام الصعيد القصى يدعى عنخ تيفى ، ادعى فى نقوشها ادعاءات عريضة عن أثره فى أحداث عهده ، وهى أحداث لاندري تحديد عصرها للأسف إن كانت سبقت التنافس الحربى بين طيبة واهناسيا أم تحالته ، ومهد فيها لأثره فى منطقته بأنه مرت عليها أيام هلك الناس فيها جوعا ” حتى نارق كل أب أولاده “ على حد قوله ، لهما ولى أمرها وما حولها عاونه ربه حور رب ادفو على توطيد الأمن فى أرضه حتى أصبح الرجل يقابل قاتل أبيه أو أخيه فيعانقه وينسى ثأره عنده ، ثم تحدث عن قيادته لحيشه الشجاع وكيف كان يثير الذعر به أيضا حل ، وروى أخبار نزاع داخلى عنيف شمل مدن الصعيد الكبيرة طيبة وقفت وأرمنت ويبدو أنه لم يكن يحمل ولاء ولا صداقة لهؤلاء وهؤلاء على الرغم من جبرتهم له ، بل ولم يجد بأسا فى أن يذكر فى نصوص مقبرته اسم أحد ملوك البيت الاهناسى المعاصر له وهو « نفر كارع » . (٥١)

أعقب خيتى الأول ملك اهناسيا ، ورأس العصر الأهناسى ، عدة ملوك يصعب تعيين عددهم ، ثم أعقبهم فرع آخر من أسرته عرف عصره باسم عصر الأسرة العاشرة (٥٢) ، وعندما سارت آمال هذه الأسرة فى الاتساع وازدادت أطماعها ، كان حكام طيبة بدورهم قد أحسوا بالأس والقوة من أنفسهم ، فتخلوا عن جذورهم القديم وتطلعوا إلى اتخاذ ألقاب الملوك عوضا عن ألقاب الإمارة القديمة فتلقب أحدهم وقد يكون إنتب (الأول) أو إنتف عا (الثانى) بلقب سهر تاوى أى مرضى القطرين بعد أن كان يعترف هو أو أحد أسلافه بأنه من رجال « من يحيى بلديه » (ص ٤٠٤) .

وانتقل النزاع بين طيبة واهناسيا من طوره السلبى إلى طوره الإيجابى ، واستمر نحو ثمانين عاما ، وكانت سياسية اهناسيا إزاء حكام الأقاليم الموالين لها قد آتت ثمارها ، فنفعوها فى تنافسها ، واعتادوا على أن يؤكدوا فى نصوصهم ولاءهم للقصر الملكى دون أن يذكروا اسم الملك فى غير مرات نادرة ، وكان من أكبر أولئك الحكام ، حكام أسبوط الذين ذكرنا بعضا منهم ، وحكام بنى حن ، وحكام أنحيم ، وحكام الأشمونين الذين دفنوا فى البرشة ، وكبار منطقة حتنوب (فى بنى سويف) الذين دعا لهم كتبهم فى نصوصهم بدعاء كان أسلافهم يخصون به الفراعنة وحدهم ، وهو « عاش إلى الأبد

J VANDIER, "La Tombe d'Ankhtifi à Moc'allu", Comptes rendus de l'Acad. des Insc. et Belles- (٥١)

lettres, 1947, If,

وراجع ديريوتون وفاندييه : مصر - ص ٢٤١ ، ٢٦٦ ، ٧٦٤

(٥٢) من أسماء الاسرتين بعد خيتى الاول (مرى اب تاوى - مرى اب رع) ثلاثة أو اربعة آخرون باسم خيتى ، واننان باسم نفر كارع ، وواحد باسم ستوت (٤) وآخر باسم مرى كارع . وآخرون تصعب قراءة اسمائهم .

ودام كالشمس إلى أبد الأبدين » ، وأرخوا لبعضهم بأعوام ولايتهم وليس بسنوات حكم الملوك الذين عاصروهم^(٥٣) .

وعبر عن بعض خطوات الإصلاح الداخلى التي تولاها هؤلاء وهؤلاء حاكم أسير تقيي ، فقال في نصوص مقبرته : استمعوا إلى أهل الغد ، كنت سخيًا مع الناس جميعهم ، . . . ، سديد الرأي ، نافعا لبلده ، سمحا مع الشاكي ، إذا جن الليل (اطمأن) النائم في الطريق ودعا لي ، وأصبح شأنه شأن من نام في داره ، تحرسه هيئة عسكرية . . . ” .

وأعلن الرجل ما هو أهم من هذا الادعاء ، فأعلن إيمانه بأز الشخصير النبيل هو الذي يستطيع أن يتفوق بماثره على ماثر أبيه ، وأن جزاءه على ذلك سوف يكون الرحمة في الآخرة ، وتبين الحكم في أسرته بحيث يرثه ولده في قصره ، فضلا عن حسن سمعته في بلده ، وتعظيم الناس لثقاله بعد موته (حين يجمله أبناء أسرته)^(٥٤) .

وحاولت طيبة بدورها أن تجمع الأحلاف حولها ، وربما نجحت في ذلك بعض الشيء ، ولكنها اعتمدت أكثر ما اعتمدت على حصاتها الطبيعية وعلى صلابة رجالها الصاعدة وعلى إذكاء روح الأمل والطمع فيهم .

وبدأ التنافس بين البيتين الطيبى والأهناسى على صورة خفية ، ثم اتخذ صورة عدائية مكشوفة ، وتمتلكه معارك متقطعة على البر وعلى متن النيل ، وظلت الحدود بين الطرفين بين مد وجذر . ولا رالت خطوات هذه المعارك غامضة إلى حد كبير وكان منها^(٥٥) :

(أ) أن استطاع حاكم طيبة إنتف الذى لقب نفسه بإقب « إنتف عا » أى إنتف العظيم « واح عنخ » ، خلال عهده الطويل الذى استمر حوالى خمسين عاما (٢١٣١ - ٢٠٨٢) - أن يمد سلطانه حتى حدود الإقليم العاشر من أقاليم الصعيد (كوم اشقاو - جنوبى أبى تيج) . . . وذكر أنه نجح فى السيطرة على الإقليم الثنى (فى مديرية سوهاج) - وفتح قعته الكبرى وجعله بمثابة بوابة شمالية لدولته (فى مقابل بوابة الجنوب)^(٥٦) .

(٥٣) ويبدو أن انصياع حكام الاقاليم لطاعة اهناسيا لم يكن هينا دائما ، فقد ذكر احداهم ويدهى نحرى انتصاره على مصريين ونوبيين ويدهى (مجاى ونحسيو وعامو) ويمتقد فولكنر أنها كانت حربا أهلية لم يكنف نحرى فيها بمهاجمة المهاجرين وانما وقف فيها ضد الملك الاهناسى نفسه ، ولكنه ما لبث أن خضع له وتلقى عفوه .

R. ANTHES, in ZAS, LIX, 100 f; HATNUB, X, 6-7; FAULKNER, in J.E.A. XXX, 61-63.

BREASTED, A.R., 1395 (٥٤)

See WINLOCK, The Rise and Fall of the Middle Kingdom in Thebes, 10f; BALLY, in J.E.A., XVIII, 173f. (٥٥)

MARIETTE, Mon divers, Texte, 15; BREASTED, op. cit., 423; WINLOCK, in A.J.S.L. XXXII, 1f; (٥٦)

Chr d'Eg, 1938, 237

(ب) وأن ذكر تفيبي حاكم أسبوط وحليف أهناسيا ، أنه دحر خصومه أهل طيبة في ثلاث مواقع حدثت الأولى على الشاطئ الغربي للنيل ، ودفنهم فيها حتى حصن سماه باسم حصن رأس الجنوب (؟) ith n tp rsy (ويحمل يقصد جنوب الأقاليم الموالية لاهناسيا) وحدثت الثانية على الشاطئ الشرقى للنيل ، ووقعت الثالثة على متن النيل نفسه ، واستطاع تفيبي أن يوجه السفن فيها كما قال إلى كل اتجاه حتى تغلب على خصومه (٥٧) .

غير أن تأريخ هذه المواقع التي ادعاها تفيبي لا يسهل القطع به ، فهي قد تكون حدثت خلال حروب أهناسيا ضد إينتفعا ، أو حدثت بعدها وكرّدت فعل لها .

(ج) أن ذكر خيتي بن تفيبي الذي خلف أباه في حكم أسبوط أنه أبحر مع الملك مريكارع ملك أهناسيا ناحية الجنوب وأن أبواب السماء انفتحت من أجله ، وانضم إليه أهل البلاد ، وصحبه الأمراء والعظماء ، ثم وصف الرهبة التي شملت المدن والقرى ورجال القصر ، من عظمة الأسطول أو من عظمة الملك نفسه ، ولكنه أضاف أنه حين بلغ الأسطول مدينة شطب (شاس حوتب) جنوبي أسبوط عبر الملك عن امتنانه لأربابه بأن أمر بتجديد معبد وپواوت رب أسوط ، ثم وصف فرحة مدينة أهناسيا بعودة ملكها إليها بقوله « أتت المدينة تهلل لمولاها وابن مولاها ، واخلط النساء بالرجال والشيب بالأطفال (٥٨) » .

(د) استطاع خيتي الثالث (؟) أو الرابع (؟) ملك أهناسيا أن ينتزع النصر من معاصره ملك طيبة متوحوتب (الأول) ودارت بينهما عدة معارك في منطقة ثني أدت إلى تخريب جباتها القديمة أبيدوس وبعض أماكنها المقدسة وانتهت بسيطرة أهناسيا عليها (حوالي ٢٠٦٥ ق . م . فيما يعتقد شارف) .

وشجع هذا النصر خيتي على نشاط حربي آخر أوسع أثرا وأكثر أهمية ، حاول أن يظهر فيه أرض الدلتا من فلول البدو الذين تسربوا إليها منذ أواخر الدولة القديمة . وحاولوا أن يتخذوا مصر دار إقامة ، وتطبعوا بالعادات المصرية ، وجمعوا بين أسمائهم وبين الأسماء المحلية واتحل كبارهم ألقاب الفراعنة لأنفسهم ، وعبر عن هذا الوضع اسمان لحاكين لا يخلوان من لكنة أمورية ، وهما «خندي» الذي تلقب باللقب المصري نركارح ، «وتورور» أو تولو الذي تلقب باللقب نفسه (٥٩) ، واستخدم أولئك المهاجرون المتمصرون أختاما خشنة الصناعة والنقش هرمية الشكل وتشبه الأزرار ، ووجد لها ما يماثلها

(٥٧) BREASTED, op cit, 396 ويرى ارمان أن « شمع » تعنى مصر الوسطى وإن « رسي » تعنى

مصر العليا وقد تبدأ tp rsy بمنطقة أسبوط (ZÄS, 1891,120)

(٥٨) BREASTED, op cit, 398f, 401

(٥٩) Abydos List 45, 49; J.E.A. XII, 92 fig 6; PETRIE, Scarabs and Cylinders, pl X, 7,10

في سوريا والحوض الغربي للبحر المتوسط^(٦٠) . ولكن ظل المصريون خارج الدلتا ورأسها في الدلتا نفسها ، ينكرون عليهم إقامتهم ويأبون عليهم تمصرهم ، فاستغل خيتي هذه الروح ، ونجح في إبعاد بعض البدو الدخلاء وكسر شوكة بعضهم الآخر ، ولما أحس دنو أجله جمع تجاربه في الحرب مع الطيبين وتجاربه في الحرب مع البدو الآسيويين وتجاربه في الحكم والسياسة ، وآراءه في الدين ، وصورها على هيئة التعاليم ونصح ولده وولى عهد مريكاع ١١١١ هـ بأن يأخذ بأفضلها ويتجنب مواطن الخطأ فيها^(٦١) .

روى خيتي لولده قصة حربه مع الطيبين في منطقة ثني وجباتها أبيدوس ، وندم على ما أتاه فيها ، وما ترتب عليها من تهديم الأماكن المقدسة (بجوار ضريح أوزير رب الآخرة) واعترف بخطئه فيها ، بعد أن كان أسلافه ينزهون أنفسهم عن الخطأ دائماً ، ودعا ولده ألا يفعل مثل نعلته ، وأوصاه أن يهادن الصعيد حرصاً على الهدوء الداخلي في مملكته ، ورغبة في تأمين سبل التبادل وسبل المواصلات وسبل التجارة مع أهل الجنوب ، وحتى لا يستغل الآسيويون فرصة انشغاله بالحروب الداخلية ويشيرون ضده أو يهاجمونه في عقرداره ، على حد قوله^(٦٢)

وصور خيتي لولده الطريقة التي اتبعها في إضعاف الآسيويين وفي إجلالهم عن الدلتا ، ودعاه إلى أن يترسما ، وصور لهذه الطريقة شقين ، أولهما الاهتمام ببث الروح الحربية في البلاد والعناية بمجنديها الشبان وقال له عنها :

” انهض بجماعة الشبان تحبك العاصمة ، وزد أتباعك من الرعية . ولاحظ أن بلدك عامر بنشء غض في سن العشرين ، وأن الجيل الناشئ يسعد بمن يستوحى ضميره ، (فإن فعلت ذلك وحكمت ضميرك) ، فذلك العامة وأتاك رب كل أسرة بأبنائه راضياً . فهذه السياسة حارب القدماء من أجلنا ، منذ أن رفعت أناشأهم ، نارفغ إذن شأن نبلائك ، وعظم محاربيك ، واسبع الخير على جيل الشباب من أتباعك ، واحرص على أن يترودوا بالعزايا ، ويطمئنوا بامتلاك الأرض ، ويكفأوا بالأنعام^(٦٣) “ .

أما الشق الآخر من سياسة خيتي في مكافحة الآسيويين ، فهو التضييق عليهم والحد من سبل نشاطهم ، وذلك بإنشاء مدن محصنة على حواف الوادي وتعميرها بنحير الرجال يسكنونها ويزرعون ما حولها ويتحصنون بها حين الشدة ويصدون منها غارات الآسيويين ، وقال له في ذلك : « لا تهيب العدو فهو

H FRANKFORT, "Egypt and Syria in the First Intermediate Period", in J.E.A., XII, 88 (٦٠)

Pap. Petersburg 1116 A vs.; A.H. GARDINER, in J.E.A.I., 20 f.; A. SCHARFF, Der historische Abschnitt (٦١)

der Lehre für König Merikare, 1938; A. VOLTEN, Zwei altäg. politische Schriften, 1945;

Chr. d'Égypte, 1947, 89 f.

Pap. Petersburg 1116 A rt. 71 f., 80f., 106. (٦٢)

(٦٣) راجع عبد العزيز صالح : « التربية العسكرية في مصر القديمة » - تاريخ الحضارة المصرية - القاهرة

١٩٦٢ - ص ١٩٥

لا يغير إلا على الموطن المنعزل ولا يجرأ على مهاجمة مدينة عامرة بالسكان « ثم شجعه على اتباع سياسته وقال له: ” أقم الحصون في كل المناطق الشمالية ولاحظ أن سمعة الرجل فيما يفعله ليست بالشيء الهين ، والبلد العامرة بالسكان لن يمسها سوء ، فابن مدنا “ ثم هون عليه شأن أعدائه وضعف حيلتهم في عبارات أخرى تدل على معرفته الطيبة بعاداتهم وأحوال البلاد التي يعتصمون بها وتتوافد هجراتهم منها وقال له : ” هذا هو شأن البرابرة ، فالعدو اللعين موطنه وعمره ، وماؤه آسن (؟) ، حزون بكثرة غاباته ، سيئة طرقاته بما يكتنفها من الجبال ، ولذلك لم يستقر في مكان واحد ، واستمر دائم الترحال ، وظل يشاغب منذ عهد حور ، لا يغلب ولا يُغلب “ (٦٤) .

*
* *

ليس من شك في أن المنازعات بين البيت الاهناسي والبيت الطيبي لم تكن من مصلحة البلاد دائماً ، بعد أن أصبح بأس أهلها شديداً بينهم ، ولكن نتائجها تعيننا على الرغم من ذلك من ثلاث جهات ، وهي :
أولاً - أنها أفلحت في إعادة الروح الحربية وروح النضال المنظم إلى حياة خاصة المصريين وعامتهم ، على الرغم من أنها كانت على حساب بعضهم بعضاً ، فأصبح الرجل منهم يفخر في نصوص مقبرته بأنه رب لل سيف وأنه جرى يوم الصدام ، وأنه كان شديداً بقوسه جريئاً بسيفه عظيم الهبة بين جيرانه .
ويحسب أن ذلك سوف يزكي سمعته وسمعة أسرته إلى أبد الأبدين .

ثانياً - أنها زادت من شعور الملوك الطيبين والأهناسيين ، بحاجتهم إلى كبار رعاياهم وضرورة التماس النصر منهم ، وقربت ما بينهم وبينهم ، وعبر عن هذه السياسة ختي وهو يوصي ولده ويزوده بخلاصة تجاربه في الحكم والسياسة ، فأوصاه بمبدأ يعتبر من أنبل المبادئ التي تمخضت عنها الثورة الاجتماعية في نهاية الدولة القديمة واحتفظ بها عصر الانتقال ، وحضه فيه على أن يقدر الفردية لذاتها ، وقال له : « لا تفرق بين ابن النبيل وابن فقير الأصل ، وتخير الفرد بكفايته » ، وأوصاه بأن يلتزم القدوة الطيبة ، وقال له : « قل الحق في قصرك ينحشاك عطاء الأرض ، فاستقامة السريرة أليق بالحاكم » .
وأوصاه بالعدالة ، وقال له : ” إزم العدل تخلد على الأرض ، واحذر أن تعاقب خطأً ، فالقتل لن يفيدك . ولكن عاقب بالضرب والحبس ، وبذلك تزدهر (أحوال) البلاد ، فيما عدا المتأمر ، فالإله يقدر خبثه ويطلب دمه جزاء جرمه “ (٦٥) .

وأراد أن يبين له أن الناس سواسية أمام خالقهم ، وأن على الملكية واجبات توازي حقوقها ، وأن كل راع مسئول عن رعيته ، فقال له :
« البشر رعايا الإله ، خلق السماء والأرض بما يشتهون ، وأجرى المياه دافقة ، (من أجلهم) وأرسل لهم النسائم كي يحيوا بها . هم أشباه له صدروا عن بدنه . وهو يتجلى في السماء ليلي ما يرغبون فيه ،

ويخلق العشب والأنعام والطيور والأسماك حتى يقتاتوا بها ، ويشتر بالفجر لنفهمهم ، ويعبر السماء ليزاهم ، وإذا بكوا سمع ولباهم . وهو الذي تعهد الحكام منذ الصغر من أجلهم ورفعهم (درجات) ليكونوا سندا لظهور ضعفاءهم ، (٦٦)

ثالثا - أنها شجعت المصريين على إعلان عقائدهم الخاصة وآرائهم في عقائد أسلافهم ، بالنقد تارة والمدح تارة ورغبة التعديل تارة أخرى ، فقد ترتب على اعتداء بعض الثوار في أواخر الدولة القديمة على الأهرام والمقابر ، وتخريبهم لها ، ونهبهم محتوياتها وتعطيلهم شعائرها بل وجرأتهم على معابد أربابهم أحيانا (٦٧) ، أن ظهرت بين الناس أربعة اتجاهات عقائدية متميزة : اتجاه متحرر متشكك شك أصحابه في مقومات الخلود التي آمن أسلافهم بها وشادوا الأهرام والمذابح لصالحها ، ورتبوا الشعائر والقرايين من أجلها ، كما شكوا في أفكار الخلود نفسها . واتجاه آخر أخذ به فريق من المتزمتين وبرموا فيه بكفر أصحاب الاتجاه الأول وتبجلى التشاؤم على نظراتهم إلى الحياة الدنيا وأحوالها . واتجاه ثالث محافظ أصر أصحابه على عقائد أسلافهم في الخلود ومقوماته وقرايينه ودعوته . وأخيرا اتجاه رابع مجدد آمن أصحابه بأن الخلود حق لاشك فيه ولكنهم آمنوا في الوقت نفسه بأن سعادة الفرد في أخراه لا ترتبط ببناء المقابر الفخمة أو مواصلة تقديم القرايين وترتيل الدعوات وإقامة طقوس الدين ، بقدر ما ترتبط بأعمال الإنسان في دنياه وإيمانه بعدل أربابه في أخراه .

وبدأ التشكك منذ أيام الثورة ، وعبر عنه إيبور حينذاك بقوله : « يقول المنفعل : لو علمت أين الرب لعملت له » (٦٨) ، واستمرت موجة الشك ، وخلف بعض المتشككين والناطقين بلسانهم قصائد تشبه المواويل السائرة كانوا يرددونها في تنغيم ، ويدعون المترفين فيها إلى التمتع بمباهج الحياة الدنيا ما وسعهم إلى ذلك من سبيل ، دون نلق على الآخرة وما يصيبهم فيها ، وزرى أن ترجم بعض فقرات هذه القصائد بأسلوب عادي يتفق مع الأسلوب الذي نسمعه من أصحاب المواويل في عصرنا الحاضر ، مع تصرف يسير (٦٩) .

ردد أحد رواة هذه المواويل مواله على أنغام الحنك في - فل أقيم لذكرى أمير عزيز ، فقال بعد أن مدح صاحب الذكرى :

” أجساد تروح وأجساد جاية ، من زمن الأوائل . سمعنا الكثير من كلام الحكما ليحوتب وددف حور ، لكن فين الحكما ، وفين ديارهم ، انهدت جدرانهم وراحت مساكنهم ، وما عاد لها كان . راحوا وما عاد منهم حد ، راحوا وما حكي لنا عن حالهم حد ، ولا حكي لنا عن مطالبهم حد ، ولا طمنا عليهم حد .

op cit, 130 f. (٦٦)

(٦٧) انظر قول إيبور « ووصل الغوغاء الى بيوت الناسوع » ويقصد تاسوع الارباب في عين شمس

Pap. Leiden: 344, VI, 11.

Ibid., V, 3. (٦٨)

(٦٩) Harris 500, VI, 2-VII, 3 and variants, see M. LIONTHEIM, in JNES, IV (1945), 178 f, 192, 211 f.

أفرح ، وجل قلبك يأنسى يوم نعيك ، وارض نفسك طول الزمن ، أدهن رأسك والبس الكنان
وتعطر ، تمتع بيوم الهنا ولا تمله ، ما حد راح وخذ معاه حاجة ، ما حد راح وعاد تانى . اللي مات
قلبه ما سمع صراخ حد ، والنعى ما خلص من الآخرة حد“ .

*
*
*

وبدأت الموجة الثانية ، موجة التشاؤم واليأس ، منذ أيام الثورة أيضا ، وعبر عنها إيبور
بما ذكرناه آننا من انتحار بعض الناس غرقا ، وسخط الأطلد على ولادتهم ! ، والرغبة في فناء
العالم كله حتى تستريح الأرض من الضجيج على حد قوله ، واستمرت هذه الموجة في طريقها ، وعبر
عنها بعد ذلك ، حوار سجله أديب مصرى على بردية بين رجل سَمَّ عيوب الحياة في عصره ، وبين
روحه ، وجعل الروح تتحدث في هذا الحوار كأنها شخص آخر (٧٠) .

ويبدو أن المناقشة بينها وبين صاحبها بدأت بأن أعلن لها ضيقه بمساوى عصره ، بينما أعلنت هي
رضاها بديناها ورغبتها في أن يترك ما بعد الموت لما بعد الموت ، ولما احتدم الجدل بينهما تحدثه
أن يحرق نفسه ويتحرق إذا كان جادا في ضيقه بالحياة ، ولكنه تردد ، وظل كل منهما يحاور الآخر
ويداوره ، حتى اضطر إلى أن يهادنها ، فقصت عليه مثلين من مصائب الناس في فقد أولادهم وفقد ثروتهم
لعلها تخفف عنه بلواه ، وقص هو عليها ما دعاه إلى الضيق بالحياة ، ويبدو أنه كان قد تكفل بدعوة
بين الناس ولكنه لم يجد بينهم سميعا ولا مجيبا ، بقدر ما وجد بينهم من أساءوا إليه وشوهوا سمعته ،
ثم قص شكواه في أربع قصائد ، بدأ كل قصيدة منها ببدايات متشابهة ، فقال في الأولى على سبيل
المثال وهو يخاطب روحه :

كفالك ، أن عيف اسمي كفالك ، أآثر من رأحة الرخم في نهار صائف اتقدت سماؤه .

كفالك أن عيف اسمي كفالك ، أآثر من (سمعة) زوجة ردد الناس البهتان عنها لزوجها .

وفي قصيدته الثانية ، أخذ ينعى زوال المستجيب والصديق والقريب ، وانتفاء الخير ، وقال
فيما قال :

لمن أتحدث اليوم – والأشقاء أشرار – وأصدقاء اليوم لا يرغبون !

(لمن أتحدث اليوم) – بعد أن أهدرت الكياسة – ومضى العنف (؟) يحل بالخلق أجمعين !

لمن أتحدث اليوم – وقد قرّ الناس على السوء – وأهملت الحسنى في كل مكان !

A. ERMAN, Gespräch eines Lebensmüden mit seiner Seele, 1896 ; A. SCHARFF, Der Bericht über das
Streitgespräch eines Lebensmüden mit seiner Seele, München 1937.

لمن أتحدث اليوم — وما عاد أحد يذكر الماضي — وما (ياقي) المعونة لإنسان يعمل في هذا الزمان! ...
لمن أتحدث اليوم — وما من مقسطين — وإنما تركت الأرض لمن يأتون السوء! ...
لمن أتحدث اليوم — وما من رضى الفؤاد — وذلك الذى كان يرافق لم يعد له وجود!
لمن أتحدث اليوم — وبأساء أملت بالبلاد — ما لها من حدود!

وفي قصيدته الثالثة عاود الرجل ذكر الموت، وما تصوّر دونه خلاصا من عجز مسعاه وما رآه من لؤم الطباع، وطفق ينشد في ألم:

أصبح الموت تجاهى اليوم — كالبرء للمريض — والخروج إلى الخلاء بعد حجز!
أصبح الموت تجاهى اليوم — أشبه بعبير المر — وجلسة تحت ظلة — في يوم ريح صر!
أصبح الموت تجاهى اليوم كأمنية امرئ يتطلع (إلى) موطنه — بعد سنين عدة فى الأسر!
ولكن عاود الرجل اطمئنانه فى قصيدته الرابعة، فراح يؤكد لروحه إيمانه بالحياة بعد الموت وإيمانه بالثواب فيها وحسن المسآب وعدل الأرباب.

*
*
*

واستمر أصحاب الاتجاه الثالث المحافظ على عقائد أسلافهم وكانوا أكثر عددا ممن سواهم واعتبروا حوادث التخريب والشك حوادث عارضة فظلوا يعنون بتقاربهم وموتهم وقربانهم، وسجلوا على توابيتهم دعوات كثيرة اقتبسوا بعضها من دعوات كهان الدولة القديمة واقتبسوا بعضها من متون الأهرام التى سجلتها أهرام الفراعنة منذ نهاية الأسرة الخامسة، وألفوا بعضها الآخر بما يناسب عصرهم ويناسب الأمانى التى أصبحوا يرجونها لأنفسهم ولأهلهم فى دار الآخرة. وتعرف هذه الدعوات هذه اصطلاحا باسم متون التوابيت، وأهم ظاهرة فيها هى تلقيب أصحابها لكل متوفى بلقب أوزير، أما منهم فى أن ينعم فى عالم الآخرة بما نعم به ربه أوزير، وأن يخلد فيها مثل خلوده. وكان هذا التجديد تطورا ضخما المدلول، فقد كان التلقب بلقب أوزير قاصرا فى الدولة القديمة على الفرعون المتوفى وحده وامتيازاً دينيا له وحده، فلما زلت أركان الملكية فى أواخر الدولة القديمة واقتسم سلطانها كبار حكام الأقاليم، تجرأ هؤلاء الحكام على اقتسام امتيازاتها الدينية أيضا، فأصبحوا يرجون لأنفسهم فى الآخرة ما كان الفراعنة يرجونه لأنفسهم، وتلقبوا مثلهم بلقب أوزير، ثم قلدهم فى ذلك كبار الموظفين وكبار الكهان وأصبح المصير الأوزيرى شيئا فشيئا أملا مشاعا لكل إنسان.

*
*
*

ويتبقى الاتجاه الرابع المجدد وقد عبر عنه خيى فرعون أهناسيا فقال لولده وهو ينصحه بمذهبه فى الدين وتقديم القرابين: "أصلح مكانك فى العالم الآخر بالاستقامة وأداء العدالة... فإن قلوب (الأرباب) تتراح إليها. وإن طباع رجل قويم السميرة أكثر قبولا عند الرب من فحل (يقدمه إليه) رجل اعتاد الشرور. واعمل لربك يعمل لك بالمثل" (أذكروا الله يذكركم).

ثم نصحه بمذهبه في البعث والحساب ، وقال له :

” لا تتق في امتداد السنين ، فإن (قضاة الآخرة) يرون العمر كأنه ساعة، واذكر أن الإنسان يبعث ثانية بعد وفاته وتوضع أعماله على هيئة الكوم بجانبه . وأن الحياة هناك معناها الخلود . وأن الغبي هومن يستخف بها . وأن من بلغها دون أن يرتكب إثمًا سوف يعتبر نبيها كأنه معبود ويسير (فيها) كأر باب الخلود“ (٧١) . وكان من الطبيعي أن يظل هذا الاتجاه الرابع هو اتجاه القلة المستنيرة من المصريين دون كثرة المنشككين والمترمتين والمحافظين .

* * *

تلك كانت بعض المثل العليا التي تضمنتها تعاليم ختي لولده ، أو هي على الأصح بعض المثل العليا التي كان المصلحون ينادون بها في عهده ، غير أنه لم يكن من المتوقع أن تطبق في الحياة العامة بمخذا فيرها أو يلتزم الحكام بها التزاما تماما فيما بينهم وبين المحكومين ، وإنما كذ شأنها شأن المثل العليا في كل مجتمع وزمان، بل وشأن المثل العليا في كل الأديان، ينادى المصاحون بها ثم يتفاوت الناس في مقدار تطبيقهم لها . وهـ ور هذه الأوضاع بشقها ، أي المثل العليا ومدى تطبيق الحكام لها ، قصة تسمى اصطلاحا باسم قصة ” القروي الفصيح“ ألفها أديب في العهد الأهناسي أو فيما بعده بقليل ، ليصور بها ما هو كائن فعلا في عصره من أوضاع الحكم والإدارة ، ويعقب عليها بما كان يرجو أن يسود عصره من أوضاع مستحبة بين الحكام والمحكومين (٧٢) .

وتروي القصة أن قرويا يسمى ” خون إنبو“ خرج من بلدة تسمى ” غيط الملح“ وهي بلدة لا نعرف مكانها على التحديد وإن غلب على الظن أنها كانت في نواحي الفيوم ، وترك فيها زوجته مارية وأولادها وترك لهم جانباً مما كان يذخره من الغلال ، وحمل حميره ببضاعة متواضعة من نظرون وأعشاب وجلود وأحجار شبه كريمة ابتغاء أن يتجر بها في مدينة أهناسيا عاصمة الملك في عهده. ومرو خون إنبو في طريقه على قرية أوضيعة تسمى ” پرفني“ كان يتولى أمرها موظف شرير يدعى ” تموتى ناخت“ نيابة عن موظف كبير كان يتولى نقارة الخاصة الملكية ويدعى ” رندى بن مرو“ .

وطمع تموتى ناخت في تجارة القروي وحميره وأراد أن يكون له نصيب منها ، وفتقق ذهنه عن حيلة خبيثة فاعترضه على طريق زراعي ضيق كان لا بد له أن يمر عليه وأوعز إلى خادمه أن يبسط على الطريق قماشاً يغطيه بالعرض ، ولما تقدم القروي على الطريق نهأ تموتى ناخت أن يمر على قماشه المبروش ، فاعتذر القروي بأنه كان حسن النية فيما أقدم عليه ، وابتعد عن القماش وسار قرب الزراعة ، فنهزه تموتى ناخت مرة أخرى . وبخافة قضم أحد حير القروي قضمه من سنابل الغلال ، فاعتبرها تموتى ناخت فرصة وأصر على أن يستولى على الحمار جزاء جرمه . ناخنج القروي وهدد بإبلاغ الأمر إلى ناظر الخاصة وصاحب الأرض ، فغضب تموتى ناخت وأخذته العزة بالإثم واستولى على بضاعة الرجل وحميره كلها . وولول القروي واشتد عويله ، فنهزه تموتى ناخت في صفاقة غريبة قائلاً له :

Pap. Petrsburg, 1116 A rt., 128f; 53f. (٧١)

F. VOGELSSANG und A. GARDINER, Die Klagen des Bauern, Leipzig 1908; (٧٢)

GARDINER, "The Eloquent Peasant", in J.E.A., IX, 5f.

” ماتعلش صوتك يا فلاح ، أنت قريب من بلد رب السكون “ . وكان رب السكون هذا هو المعبود أوزير ، ويبدو أنه كان له ضريح قريب من پرفنى يهابه الناس ويحترمونه .

ولكن القروى لم يهتم به وقال بلهجتة الريفية اللطيفة :

” تضربنى وتنهب مناعى وتوقف الشكوى على لسانى ؟ يارب السكون إدينى أمال حاجتى علشان أبطل الزعيق اللى مزعلك “ .

واستمر القروى طيلة عشرة أيام يشكو حيناً ويسترحم حيناً ، ولكن بغير طائل ، فاتخذ سبيله إلى العاصمة أهناسيا ليشكو بلواه إلى ناظر الخاصة رنسى . وقابله فعلا ذات صباح وهو فى طريقه من داره إلى النهر ليستقل قارب المحكمة ، ورجاه أن يرسل معه تابعا من عنده حتى يعهد إليه بقصته . ورجع التابع بنص القصة إلى رئيسه ، فعرضها رنسى على من كانوا بصحبته من الموظفين فهؤنوا الأمر عليه وانحازوا إلى جانب زميلهم تحوتى ناخت وعز عليهم أن يعاقب من أجل فلاح ، وحاولوا أن يشككوه فى صحة دعواه . ولكن رنسى أسر أمرا فى نفسه .

واستبطأ القروى رد رنسى فوجه إليه استعطافا رقيقا لينا حاول أن يستثير به نخوته ، فخبه فى العدل ، ووصفه بما يجب أمثاله أن يوصفوا به ، وكان من قوله له : ” إذا كنت حقا أباً لليتيم ، وزوجاً للأرمل ، وأخاً للنبوذة ، ورداء لمن لا أم له ، فشجنى على أن أشتر سمعتك فى هذه الأرض بما يتفق مع القانون الصحيح ، وعساك تكون حاكما بريئا من الجشع ، ونييلا متزها عن الدنيا ، ترهق الباطل وتحقق الحق وتبلى نداءه . وهانذا أقول وأنت تسمع — أقم العدل أمدحك ويمدحك المادحون — أزل كرى واحنى ... “

ونعل استعطاف القروى فعله لدى ناظر الخاصة ، أو على الأصح فعل مديح القروى فعله لدى ناظر الخاصة ، فاعجب به وأسرع إلى فرعونه وهو يقول : ” مولاي وجدت واحدا من أولئك القرويين جيد الكلم يتحدث بالصواب ، نهب متاعه وأتانى يتظلم إلى “ ، وقص قصته عليه ، فرد الفرعون عليه بقوله : « (أستحذك) بحق ماتحب أن ترانى معافى ، أن تؤخره ها هنا ، ولا تعقب على شىء يقوله ، عساه يواصل الحديث ، ثم يؤتى إلينا بمحدثه مكتوبا فنسمعه ، بشرط أن تتكفل برزق زوجته وعماله ، فالقروى من هؤلاء القرويين يأتينا عادة بعد إملاق ، وعليك كذلك أن تتكفل بمعاشه (طيلة بقائه هنا) . بشرط أن تصرف له (رزقه) دون أن تشعره بأنك أنت معطيه . »

وهكذا صور الشق الأول من القصة أكثر من جانب من جوانب الحياة فى عصرها ، فصور لؤم بعض الموظفين وسوء استغلالهم لسلطتهم وتستر بعضهم على بعض ، ولكنه لم يأت أن يصور إلى جانبهم موظفين آخرين يتقبلون الشكاية والمظالم ويودون إزالة أسبابها ، ولم يأت أن يصور فرعوننا يستعذب فصاحة قروى من رعاياه ويمتنى أن يستريد منها ثم يأمر بالإحسان إليه فى عاصمته دون أن يعرف من هو المحسن عليه ، ودون أن يشعر بفضل أحد عليه ، فضلا عن الإحسان إلى أسرته فى قريتها والتكفل برزقها .

وعمل ناظر الخاصة بتوجيهات فرعونه ، فتغافل عن الرد على خون انبو وظن هذا أنه أهمله ، فتحول من الاستعفاف إلى الشكائية ثم إلى الشراسة ، وتحول من لين الحديث إلى العنف والنقد الصريح ، وتوجه إلى رنسى ثمان شكائيات متتابعة بعد استعطائه الأول ، لم يسلم حين تقديمها من الأذى وضرب الحجاب وإهانة الحراس ، ولكنه لم يتخل عن عناده ، واستمر يصصر على إسماع صوته للحاكم ولو ناله الضرب والأذى ، وعمل على أن يصور في هذه الشكائيات كل مبادئ العدالة الاجتماعية والسياسية والقانونية التي كان يطمع فيها المفكرون في عصره .

تصور خون انبو أن الحاكم يشبه دفة السفينة أو المتكفل بها ، ويشبه السند القائم ، ويشبه خط الميزان ، فقال لناظر الخاصة وهو يشكو إليه نفسه :

« أيها الدفة لا تحرف ، وأيها السند لا تميل ، وأيها الخيط لا تتذبذب . . . »

« انفلت العدل من تحتك وأقصى عن موضعه ، والموظفون يشاغبون ، والموعظة الحسنة أهملت ، وها هم القضاة يتخاطفون ما سلب مني . . . ! » .

وقال في شكائية أخرى بليغة الأسلوب ، بليغة المعنى وهو يحضه على العدل : « أقم العدل لرب العدل الذي عدل عدالته موجود ، وياقلم تحوتى وقرطاسه ولوحته ، تنزهوا عن عمل السوء ، لأننا الخير بالخير ، والحسنى لها ما هو أحسن منها ، والعدل باق إلى الأبد ، يربط مع صاحبه إلى الجبائنة ، فإذا دفن اخوته الأرض معه ، ولن تزول سمعته من هذه الدنيا ، وسوف يذكر بالخير ، وهذا هو خير ما فى أقوال الرب . . . »

فمن يكن سندا لا ينبغي له أن يميل ، ومن يكن ميزانا لا ينبغي له أن يتذبذب ، وسواء جئت أنا أم أتى غبرى وجب عليك أن تتحدث ولا تنصت إلى كج لو كنت أحداثث شخصا أخرس . . . » .

إنك لا تلين ولا تضعف . . . ، وما جازيتنى على أحاديثي الحسان التي صدرت عن فم الإله رع نفسه ، . . . قل الحق إذن وافعل الصواب فالعدل عظيم وخالد . . . » .

لم يكنف خون انبو بالنصيحة والحديث عن واجبات الحكام ، وإنما بدأ يشند على ناظر الخاصة ويعتفه ، وكان من قوله له :

« إنك قادر ومقتدر ، وذراعك طائلة ولكن فؤادك قاس ، والرحمة تجاوزتك ، وما أتمس المحزون الذى تحطمه ، لكأنك رسول لرب التمساح ، بل إنك زدت عن ربة الوباء (سخمة) ، وإذا كان العدم يرتجى منها ، ارتجى منك العدم . . . » .

وترتب على عنف القروي في حديثه أن أمر رنسى بضربه بالسياط ، ولكنه لم يرتدع ، وقال بعد ضربه :

« ضل ابن مرو طريقه ، وعمى وجهه عما يراه ، وأصيب بالصمم عما يسمعه ، وضل ضميره عما يذكر به . إنك أشبه بقرية بنير عمدة ، وجماعة لا كبير لها ، ومركب لا رتان فيها ، وعصبة لا هادي لها . أنت نبيل نهاب ، وحاكم مرتش ، وكبير لمنطقة كان ينبغي أن يمنع الاختلاس ولكنه أصبح نموذجا لمن يود أن يختلس » .

وزاد خون انبو فعرض خلال شكواه لناظر الخاصة بالصفات التي كانت تسب عادة إلى الفرعون نفسه ، ولو أنه لم يذكر الفرعون صراحة ، فقال :

« أنت رع رب السماء وسط حاشيتك ومنك قوام الخلق جميعهم . وأنت كالفيضان ، بل أنت حعي صاحب الفيضان الذي يسبغ الحضرة على الحقول ويعمر البرارى ، فاقطع إذن دابر النهب وأوقفه وأكرم البأس ، ولا تكن فيضانا ضد الشاكي ، واحذر قرب الآخرة » .

وأطال خون أنبو في شكاياته ، ولم فرغ معينه منها استدعاه ناظر الخاصة ، فتخوف الرجل أن تكون الدعوة لمقله ، ولكنه طمأنه وأراه شكواه منسوخة على برديات جديدة أعدها ليعرضها على الفرعون نفسه ، فلما عرضها على مولاه أمره بأن يقضى في القضية بنفسه ، فقضى بتجريد نحوتي ناخت من ممتلكاته ووهبها كلها للقروي فضلا عن حميره وبضائعه .

*

تلك إذن صور من الحياة الفعلية ، وصور للحياة المرجوة في العصر الأهناسي ، كان يصح أن تسود مثلها العليا مصر كلها ، لولا أن أهناسيا بدأت تفقد استقرارها واضطرت إلى أن تقنع بالقليل من سلطانها منذ عهد ملكها خيتي الخامس (؟) وبعد أن طغى عليها نفوذ منافستها طيبة حين تعاقب على عرشها فرعونان طموحان ، وهما متوحوتب سعنعخ إب تاوى ، ومتوحوتب نب حية رع ، وحاول كل منهما أن يخضع أهناسيا لنفوذه المباشر وتطلع إلى إعادة وحدة البلاد تحت رايته ، وذلك ما سوف نعرضه بالتفصيل في الفصل التالى ، ويعيننا الآن أن نائهما حقق أمله حوالى عام ٢٠٥٢ ق . م ، وترتب على نجاحه فى توحيد مصر تحت سلطانه أن انتهى عصر الامركزية بعد أن استمر نحو قرن ونصف قرن ، وبعد أن مثل فترة انتقال اضطرارية بين عصور الدولة القديمة وعصور الدولة الوسطى ، وبمعنى أوضح مثل فترة انتقال من وحدة سياسية قديمة غالبية ، إلى تفرق ولامركزية غالبية ، ثم إلى وحدة سياسية أخرى جديدة . ومثل فترة انتقال من المنعة القومية القديمة إلى التفكك والتنازع الداخلى ، ثم إلى منعة أخرى وقوة جديدة . ومثل فترة انتقال من أوضاع وتقاليد اجتماعية وسياسية ودينية معينة ، إلى أوضاع جديدة سواها اختلفت عنها فى بعض أمورها واتفقت معها فى بعض آخر . ومثل فترة انتقال من إمكانيات مادية واسعة توفرت للدولة بجمعها وللقائمين على أمرها ، إلى إمكانيات إقليمية محدودة بالحدود التي امتد إليها سلطان حكامها ، ثم إلى إمكانيات أخرى واسعة جديدة . ومثل فترة انتقال من حياة فنية نشطة خصبة شملت مصر كلها إلى حياة فنية محدودة الوسائل والآفاق ، ثم إلى حياة فنية نشطة خصبة جديدة .

غير أن ذلك كله لايعنى بطبيعة الحال أن عصر الانتقال كان عصرا عقيما كله أو عصرا خامدا كله ، وإنما هو فى حقيقة أمره كان أشبه بفترة من التراخي المؤقت اضطرت مصر إليها اضطرارا بعد أن

قطعت من عمرها السياسي دورة تاريخية طويلة استمرت نحو تسعة قرون متصلة ، وبعد أن شاخ جهازها السياسي والحربي ، ولم تخل فترة التراخي هذه من انتفاضات سياسية كما رأينا ، صدرت عن أهناسيا حيناً وعن طيبة حيناً آخر ، ولم تخل كذلك من انتفاضات فكرية تطلع أصحابها إلى نظام من الحكم يفضل كل ما تقدمه من نظم ، وتطلعون إلى حقوق للفرد تفضل كل ما حصل عليه الأفراد قبل ذلك من حقوق ، وتطلعون إلى مصير كريم للفرد في الآخرة يفضل كل ما كان الأفراد يتطلعون إليه من قبل عن مصائرهم . وترسبت أوضاع الحكم والدين في العصر الأهناسي خاصة في أذهان المصريين بعد قرون طويلة من انقضائه ، وعندما أرادوا أن يعبروا عن سمات الخير في دولة أهناسيا اعتبروها دولة أوزيرية ونسبوها إلى ربهم رب الخير ورب الآخرة أوزير (٧٣) .

*
* *

مر بنا كيف ازدهرت فنون العمارة والنحت والنقش والتصوير خلال عصور الدولة القديمة في العاصمة منف وما حولها ، وكيف تزعم مدارسها حينذاك فناؤ القصور الملكية وأعوانهم وتلاميذهم ، وكيف استفاد أهل العمارة في إنتاجهم حينذاك من سعة إمكانيات دولتهم وقدرتها على تجميع آلاف الصانع والعمال ونقل أحجار البناء الضخمة الفاخرة من أقصى البلاد إلى أقصاها ، وكيف ترسم فناؤ النحت أسلوباً جمعوا فيه بين الواقعية والمثالية في تماثيل فراعنتهم وعظماؤ دولتهم ، وكيف انتفعوا بسعة إمكانيات حكومتهم وثرأ كبار دولتهم فخيروا لتمثيلهم أجمل الأحجار اللينة والصلبة وعملوا على نقلها إلى متاحفهم من محاجرها القصية ، وصنعوا بعضها من النحاس والخشب ، ونحتوها بأحجام تماثل الأحجام الطبيعية للإنسان في أغلب الأحوال ، وتقل عنها أحياناً قليلة وتزيد عنها أحياناً قليلة أخرى . وكيف استفاد فناؤ النقش والتصوير من اتساع المسطحات المعدة للوحاتهم في المقابر والمعابد ، وتشجعوا بسعة الجزاء والثراء ، وعملوا في جو هادئ مستقر ، ووجدوا أمامهم آفاقاً متسعة في الداخل والخارج يستطيعون تصويرها ويستطيعون التعبير عنها .

واختلفت إمكانيات العمارة والنحت والتصوير والنقش ومجالاتها وأساليبها شيئاً فشيئاً منذ بدأت مركزية الحكم تنقلت من مدينة منف وملوكها وأثريائها في أواخر الدولة القديمة ، ومنذ تفرقت موارد البلاد وإمكانيات الحكم ، فضعفت وحدة الفن القديمة وأصبح الفن يخدم الأقاليم أكثر مما يخدم العاصمة ، وظل أهله تنقصهم المهارة وروح الإبداع فترات طويلة واستمر ، لإنتاجهم يتصف بالطابع الإقليمي تارة والطابع الريفي تارة أخرى .

Kees, "Ein Muthus vom Königtum des Osiris in Herakleopolis aus dem Totenbuch, Kap. 175", (٧٣) in ZAS, LXV, 65 f

ورمز أهل أهناسيا إلى معبودهم القديم بهيئة الكباش ، ووصفوه بأنه « حرى شف » أى « المتصدر بحيرته » أو « من يفلو بحيرته » وتغير مدلول هذا الوصف في العصور المتأخرة فأصبح يعنى « ذا الهابة » أو شيئاً قريباً من ذلك . وسماه الإغريق « أرسافيس » ، وشبهه بلوتارخ بالمعبود الإفريقي دونيسوس بن زيوس وإيزيس ، واعتبره رمزا لقوة الخصوبة (Iside, 37) ويحتمل أن جبانة أهناسيا كانت في أبو صير الملقب ولو أنها تبعد عنها بنحو ٢٢ كم . م . (SCHARFF, Abusir, 2)

وظلت توابيت عصر الانتقال من خير ما يستشهد به عن آثاره سواء من حيث النواحي الفنية التي تمثلت فيها وعبرت بها عن روح عصرها أو من حيث النصوص التي تضمنتها وعبرت بها عن عقائد أصحابها .

وكان فنانون العواصم وصناعها المهرة قد فضلوا صناعة توابيت كبار الأفراد من الخشب الفاخر منذ عصر الأسرة السادسة ، وأصبحوا ينقشون عليها دعوات بأسماء أصحابها وألقابهم ويصوّرون عيّن كيرتين على الجانب الأيمن الخارجي للتابوت في مقابل رأس المتوفى أملا في أن يتطلع منهما إلى العالم الخارجي أو إلى مقدمى القرابين أو إلى نور الشمس الذي كان يرجو ألا يحرم منه حتى بعد موته ، وصوّروا عليها بعض القرابين وبعض المذبح الذي كان المتوفى يتمناه لنفسه في أخراه ، وزادت هذه الخصائص في توابيت عصر الانتقال ، وكانت صناعتها من الخشب تجعلها أصلح للرسم والنقش الغائر البسيط ، وتجعلها أقرب إلى أن تتناسب مع إمكانيات أهلها .

وكان من الطبيعي أن تختلف أذواق هذه التوابيت وبراعة نقوشها ووضوح نصوصها من إقليم إلى إقليم ، وكان أفضلها ما تم خلال العصر الأهناسي ، لاسيما منذ تطلع حكامه إلى العاصمة القديمة منف واتجه فنانونهم معهم إليها وحاولوا أن يستوحوا منها القديم ويقلدوه في حدود إمكانياتهم ومعتقداتهم ، واستقرت منذ ذلك الحين النصوص الدينية والرسوم العقائدية والأخروية في أوضاع معينة على أغذية التوابيت وجوانبها الخارجية والداخلية ، وذلك ما سوف نتركه إلى موضوع آخر ، ويكفي ما ذكرناه من قبل (ص ٤١١) عن متون التوابيت ومضمونها ومدى تعبيرها عن الأوضاع العقائدية والاجتماعية في عصرها .

وظلت مسطحات الرسم والنقش في عصر الانتقال مسطحات محدودة سواء على جدران المقابر الصغيرة أو على سطوح النصب واللوحات الصغيرة التي أقام أصحابها بعضها في مقابرهم وتركوا بعضها الآخر في أبيدوس حول ضريح معبودهم رب الآخرة أوزير تبركا به وأملا في أن يبعثوا من حوله ويطعموا من خيره . واتصفت صورهم المنقوشة على هذه اللوحات والنصب بنوع من خشونة التنفيذ ، وبطابع من النحافة والاستطالة المقصودة التي لا تدرى سببا لها إلا أن تكون ذوقا مستحبا في عصرها ، أو يكون سببا نقص المهارة وتقليد بعض الفنانين لبعض دون القدرة على الإبداع والخلق الجديد . غير أن صورهم ورسومهم لم تخل على الرغم من ذلك من أمر واحد يميزها ويعوّضها عن خشونتها ، وهو تحررها بعض الشيء من أوضاع الرسم التقليدية القديمة ، وتعبيرها عن الحياة العادية والأسرية في عصرها بقدر الإمكان ، بحيث لم يكن على الفنان بأس من أن يصور المتوفى صاحب النصب واقفا يمسك قوسه ، أو يصوره جالسا يضع ولده على حجره .

واقصر جهد المثاليين في هذا العصر على نحت أغلب تماثيلهم من الخشب لرخصه وسهولة نحته ، وبقي حتى الآن عدد من تماثيل أثريائهم ، وهي تماثيل صغيرة في مجملها تتصف بالخشونة في صناعتها

وتميل إلى الاستطالة والنحافة ، شأنها في ذلك شأن أسلوب النقش والتصوير في عصرها ، ولا تميزها غير ميزة واحدة وهي أن ننانها حاولوا أن يرسموا فيها مذهبا واقعيا متواضعا فأظهروا الملامح الشخصية لوجوه أصحابها في غير تجمل مقصود ، واستطاعوا بذلك أن يعوضوا خشوتها بنوع من صدق التعبير في إظهار الملامح الريفية الطيبة على وجوه أصحابها .

وظهرت إلى جانب تماثيل انخاصة في هذا العصر مجموعات خشبية لتماثيل الأتباع والخدم ، وظهرت فيها خشونة الصناعة بشكل واضح ، ولم يميزها هي الأخرى غير شيء واحد ، وهو أن صناعتها تحرروا في صناعتها إلى حد كبير ، وصنعوا منها مجموعات مترابطة ، وعبروا بأوضاعها عن الأعمال الجماعية التي يقوم بها أصحابها في مصانع النجارة والنسيج وداخل البيوت ، فأسبغوا عليها شيئا غير قليل من الحيوية وطرافة التعبير ، وجعلوها مصدراً رئيسياً من مصادر تصوير الحياة العادية في بيوتهم ومصانعهم وفي أوساطهم الشعبية .

الفصل العاشر الدولة الوسطى

١ - الأسرة الحادية عشرة

(٢١٣٤ - ٢٠٥٢ ثم ٢٠٥٢ - ١٩٩١ ق. م. *)

تدعو التطورات الاجتماعية والسياسية التي تتبعنا أخبارها في الفصول السابقة منذ فجر التاريخ وخلال عصر بداية الأسرات وعصور الدولة القديمة وعصر اللامركزية الأولى ، واتمهينا بها إلى بشائر الدولة الوسطى ، إلى الأخذ برأى مؤداه أن الدورات التاريخية لكل أمة متحضرة قديمة لا تكاد تخلو من وجه شبه مع دورة الحياة التي يمر بها الكائن الحي ، لا سيما الكائن العاقل ، تتعاقب فيها عهود النشأة وعهود الشباب وعهود الشيخوخة ، وتتعاقب عليها ظروف داخلية وخارجية تشجعها على الطفرة حيناً وتجبرها على التراخي حيناً آخر ، وتطول فيها مرحلة الطفولة وتتلون بيئتها ، ويتأثر شبابها بمدى حيويتها في طفولتها ومدى قدرتها على التحصيل والاكتساب في قوتها ، وتحفظ بتوازنها في مرحلة شيخوختها طالما أسست بنياتها في طفولتها وشبابها ومراحل مجدها ، لا تند في ذلك كله عن دورة الحياة للكائن الحي ، إلا فيما تجرى به سنة الخلق من انتهاء الكائنات بعد الشيخوخة إلى زوال ، على حين استطاعت بعض الأمم أن تسترجع شبابها بعد شيخوختها ، ونجحت في أن تخلص من دورة لتبدأ أخرى بنجراتها المدخرة وبعزمات جديدة . وكانت مصر التاريخية على رأس هذا البعض من الأمم ، استعادت شبابها عدة مرات ، واحتفظت به في بعض مراته ، آماداً طويلة لم تنهياً لغالبية ما عداها من الأمم القديمة والشعوب .

وعند ما أصرت طيبة على استرجاع ما تفرق من وحدة البلاد وما تفرق من عزماتها وأفكارها ومعتقداتها ، كان ذلك بشيراً لمصر بأنها تستطيع أن تبدأ دورة تاريخية جديدة ومرحلة شباب فنية جديدة .

وبدأ البيت الطبي بأولئك الحكام الذين تسمى كل منهم باسم إنتف أو إنتوف $\text{𓆎} - \text{𓆏}$ ($\text{𓆎} - \text{𓆏}$) وهم من أسلفنا أنهم بدأوا سياستهم بمهادنة اهتاسيا حتى أحسوا بالأس من أنفسهم ، وحينئذ ابتغوا الزعامة وعملوا لها . ويبدو أنه تعاقب منهم ثلاثة أو أربعة (١) :

* يبدأ التاريخ الأول بحكم الانانفة في طيبة ، ويبدأ التاريخ الثاني باستكمال الوحدة السياسية . وجمعت بردية تورين الفترتين واعتبرت مجموع عصر الأسرة ١٤٣ عاما أو ١٤٢ عاما .

FARIN, Il Papiro dei Re, 1938, 35; A.H. GARDINER, The Royal Canon of Turin, 1959.

See: NEWBERRY, "On the parentage of the Intef kings of the 11th Dyn.," in ZÄS, LXXII, 118f; VANDIER, (١)

"Un novel Antef de la XIe dyn.," dans BIFAO., XXXVI (1936), 101f.; H. WINLOCK, The Rise and Fall of the Middle Kingdom in Thebes, New York 1947.

”إنتف“ رأس الأسرة ، وآخر يدعى «إنتف عا» بمعنى إنتف العظيم ، وقد يكون هو إنتف السابق أو غيره ، وظل يحتفظ بلقب الوالى والنبيلى الحاكم ، وربما تلقب كذلك بلقب «سهرتاوى» بمعنى مرضى الأرضين أو مهدئ الأرضين ، وظلت ذكراه باقية عند خلفائه من نفس أسرته ، وعند ملوك الأسرة التى أعقبهم فى الحكم ، فضمن أحد خلفائه (نب حبة رع) اسمه فى خرطوش ملكى ولقبه بلقب سارع فى معبد أقامه بالطود^(٢) ، وبجمله سنوسرت الأول ثانى فراعنة الأسرة الثانية عشرة وأمر بنحت تماثيل له تخليدا لذكراه ، ووصفه فى نقوشه بأنه ”المكرم لدى أمون رب عروش الأرضين إنتف عا“ ونسبه إلى أمه إكوى (أو إكو)^(٣) . ثم «إنتف عا» آخر كان أجراً من أسلافه ، وهو الذى ذكرنا أنه تلقب بلقب واح عنخ ، ولقب آخر يحمل أن يعنى : مبدع الجمال «مس نفرو» . وتحدث فى نصوصه عن اتساع سلطانه ورعايته لمدينته وحتم حديثه بقوله : «وليس من ادعاء يخرج من فى ، وما من كلمة (ادعاء) تحدث بها»^(٤) . ووجد الرجل من رجاله من أشادوا بذكراه أكثر مما أشاد هو بنفسه ، ومنهم رجل يدعى ثتى كان أميناً على خزائن قصره ، ووصف نفسه بأنه لم يكن يسعى إلى الإثم الذى يعاب الناس عليه ، وذكر أن سلطان فرعون امتد من أسوان إلى سواهج ، ثم زعم أن الضرائب كانت تصل إليه من الشمال والجنوب ومن زعماء الفيافي ، ثم دعا لنفسه بدعاء طريف تمنى فيه أن يطوف السماء ويلحق بالرب الأعلى . . . ، وأن تفتح له الجبانة ذراعها ، ويقول له عطاء أبيدوس جئت بسلام فرحبا . . . «^(٥) . وأبقت على ذكرى إنتف عا «واح عنخ» قصة طريفة ، وهى أن رجاله أقاموا له نصبا عند مقبرته ظهر عليه وعلى يساره خمسة من الكلاب اللبية سموها بأسمائها اللبية وشفعوا ثلاثة منها بأسمائها المصرية ، وحدث أن تألفت لجنة لفحص مقابر الفراعنة فى عصر الرعامسة ، فكتب أحد رجالها فى تقريره وهو يصف مقبرة إنتف عا : «قبر ذوهرم للملك ابن الشمس ابن عا (٩) شمالى دار أمنحوتب الفناء ، وقد تهدم هرمه فوقه ، ولكن لا زال نصبه قائماً ، وظهر عليه وكتبه بحكا بين قدميه . حفص (القبر) اليوم ووجد سليماً» . وقدر للرجل أن يحكم أكثر من خمسين عاما ، ثم خلفه ولده الذى تلقب بنفس لقبه ، وزاد عليه لقب ”ناخت نب تينفر“ بمعنى الشجاع صاحب البداية السعيدة^(٦) ، لولا أن البداية السعيدة التى أمل فيها لم تطل ، وأعقبه فرع آخر من أسرته وهو فرع المناحة .

(٢) VANDIER op. cit. وإذا صح أنه هو سهرتاوى كان قبره أول مقابر الاناتفة ومنطقة الطارف بفرج طيبة (WINLOCK, op. cit., 11 ;

(٣) Ann. V, 28; and compare : HAYES, The Scepter of Egypt, I, Fig. 91.


(٤) BREASTED, AR.I, 421f., and see, HAYES, op. cit. Fig. 90

(٥) BLACKMAN, in J.E.A., 1931, 55f.

(٦) H. STOCK, in Mitt. Kairo XIV, 44f. وعاصره رجل يلقى مججى يبدو أنه كان من مهرجى

البلاط ، أشار فى نقوشه الى دوره فى تسليية الملك ، وأكد أنه استمتع بكل حياته وكل ساعة من يومه - غير أن وجه الأهمية فى نصه هو أنه لسمى باسم آخر وهو أمنحوتب ، وهو أقدم مثل معروف لهذا الاسم وسوف يكون له شأنه فى أسماء ملوك الأسرة ١٢ (HAYES, op. cit., p. 152).

جعل الأناثفة من طيبة دار حكم وعاصمة بعد أن كانت مجرد مدينة عادية في إقليم "واسة" فبدأت شهرتها تطنى على شهرة أرمنت حاضرة الإقليم القديمة (ص ٣٤ حاشية ١٦١ - ١٦٢) ، وبدأوا يرفعون من شأن ربها أمون وشأن معبده البسيط القديم^(٧) . وشاد ملوكها مقابرهم في غربها وتخير لها مهندسوهم منطقة شمالية صحرية ، مهدوا فيها مسطحات متسعة تشبه الشرفات ، ونحتوا المقابر بمقاصيرها متجاورة جنباً إلى جنب في جدارها الصخري ، فظهرت في مجملها على هيئة أبهاء طبيعية ذات عمد من صخر الجبل نفسه ، وجرى العرف الحديث على تسميتها على هذا الاعتبار باسم جبانة الصف أو جبانة إنتف أو جبانة الطارف (نظراً لوجودها في طرف طيبة) .

و جرى المناحة على سنة الأناثفة فاتخذوا مدينة طيبة عاصمة لملكهم المتحد وشادوا مقابرهم إلى الغرب منها ، وشادوا أو جددوا معبدا صغيرا لربها أمون ، حلت محله بعض أجزاء مجموعة الكرنك الحالية ، وربها شادوا له معبدا صغيرا آخر شغل مكانه جزء من معبد الأقصر الحالي^(٨) ، وظلوا في الوقت نفسه أوفياء لرب أرمنت مسقط رأس أسرهم ، وهو "مونتو" راعي الحرب الذى كان له مكانه وهيكله في منطقة الكرنك نفسها ، فنسبوا أسماءهم إليه وتوارثوا فيما بينهم اسم "مونتو حوتب" ،  ، بمعنى مونتو راض أو "مونتو المنعم" (مونتو حوتب ؟) ، تعبيرا عن وفائهم لربهم ، واعتزازا منهم بطابع الحرب والكفاح الذى يمثله فى الذى أسسوا به دولتهم وأعادوا به إلى مصر وحدتها .

واحتفظت آثار المناحة الأوائل بثلاثة ألقاب ، وهى : سنخ إب تاوى ، ونب حبة رع سما تاوى ، ثم اسم تحتمل قراءته نب خروع .

ولا زال التاريخ على غير بينة مما إذا كانت هذه الألقاب لثلاثة ملوك حكموا على التعاقب ، أم كانت لأقل من ثلاثة ، ولكن لا زال رأى دريوتون وفاندييه فى حل مشكلاتها أكثر منطقية من غيره فى ضوء المعلومات المعروفة حتى الآن^(٩) ، ويمكن الاستفادة منه فى ترتيب تتابع الأحداث على النحو التالى :

تلقب أول المناحة بلقب سنخ إب تاوى ، أى محي قلب الأرضين ، أو محي أمل الوجهين ، ليبشر به لسياسته فى الحكم وسعيه إلى تحقيق أمل دولته فى جمع شملها وتوحيد كلمتها وإعادة الطمأنينة إليها . وكان من مراحل تحقيقه لها أنه قضى على فتنة انفصالية قامت ضده فى إقليم أيدوس خلال العام الرابع عشر من حكمه .

BREASTED, op. cit., and see, PETRIE, Qurneh, pl. X, 1,3; VANDIER, Religion, 147 (٧)

ZÄS XXXIV, 122-23; Untere, V, 1, S. 4-5; Ann. S., 1904, 28; 1947, pl. XXXIV. (٨)

VANDIER, op. cit., et dans Analecta Orientalia XVII, (1938) (٩)

دريوتون فاندييه : المرجع السابق س ٢٧١ ، ٢٨٠

and See WINLOCK, in J.N.E.S. II. (1943) 249,f.; STOCK, op. cit., 42f.

واعترم الملك الثانى "نب حية رع" أن يحقق الأمل الذى أعلنه سلفه ولم يتمه ، لولا أن واجهته حركة انفصالية أخرى قرب عاصمته طيبة ، استشهد فيها نحو ستين جنديا من جيشه ، فوئدهم إخوانهم فى قبر كبير نحتوه فى الصخر على هيئة المغارة قرب القبر الذى أعده ملكهم لنفسه^(١٠) . وتلقب نب حية رع بعد نصره بلقب "نب حجة" أى صاحب التاج الأبيض ، وواصل طريقه إلى الدلتا فطواها تحت رايته ، ومد نشاطه العسكرى إلى بقية القطر وربما إلى ما وراء حدوده أيضا ، وذلك مما سمح له بأن يذكر فى نصوص معبد أقامه للمعبودة حتحور ربة دندرة التى ادعى بنوته منها ، أنه سيطر على زعماء الأرضين وأحل النظام فى الجنوب والشمال وبين القواسم الأسيويين^(١١) . وحق له حينذاك أن يتلقب بلقبه الجديد "سمتاوى" أى موحد الأرضين .

وسجل له رجاله خلال إحدى جولاته فى أقاليم الصعيد فى العام التاسع والثلاثين من حكمه على صخرة فى وادى شط الرجال (قرب جبل السلسلة) ، منظرا صوروه فيه هو وأمه قمر (إاعح) ، ورجلا يدعى إنتف سجل الكاتب اسمه فى خرطوش على عادة الملوك ولقبه باللقاب "الأب المقدس حبيب الرب ابن الشمس" ودعاه بقوله "عاش أبدا" . وليس ما يعرف للأسف عما إذا كان إنتف هذا هو والد الملك أم ولده أم حماء أم أحد أفراد أسرته الذين حكموا النوبة قبل عهده وانتحلوا لأنفسهم ألقاب الملوك (ص ٤٣٤) ولكل فرض من هذه الفروض ما يزيه^(١٢) . وأضاف الكاتب إلى أسماء هؤلاء الثلاثة الكبار أسماء رئيس بيت المال "ختي" وجماعة من كبار رجال الدولة ، يمتثل أنهم خفوا إلى استقبال فرعونهم ، أو أنهم كانوا فى بعثة جنوبية ورأى هو أ - يستقبلهم بعد عودتهم منها^(١٣) .

وأكد رجال نب حية رع بعض ما ادعاه لنفسه ، فأشار أحدهم إلى فضل ربه مونتو حين عهد إليه بحكم الصعيد والدلتا^(١٣) . وسجل أحد قادته على صخور أبيسكو قرب الشلال الأول أنه صحب مولاه فى حملة

(١٠) WINLOCK, The slain soldiers of Neb-hepet-Ré, New York 1945.

(١١) BREASTED, op. cit., 423.

(١٢) Ibid., 424f; WINLOCK, "The Court of King Nb-hepet-Ré, in A.J.S.L., 1940, 137f.

ويحتمل أنه دفن فى معبد منتو حوتب نب حية رع أو عن قرب منه ، (راجع كذلك أحمد بدوى : فى موكب الشمس جزء ٢ ص ٤١ ، أحمد فخرى : مصر الفرعونية ص ١٥٧) .
ويلاحظ أن من حملوا لقب الأب المقدس (حرفيا : أبو الاله) من غير الكهنة الفعليين حملوه فى الغالب لصلة قرى أو نسب بالفرعون الحاكم (مثل خوى حمى الفرعون بى الأول ، ويوبا حمى الفرعون أمنحوتب الثالث) أو لقيامهم بتربية هذا الفرعون فى صفه (مثل سنموت مربي ابنة حاتشبسوت وحقارشو وحقارنح مربي أبناء تحوتمس الرابع) أو لبلوغهم سنا تجعلهم فى منزلة الوالد له (مثل بتاح حوتب وزير الفرعون اسى) ، أو باعتبارهم أولياء عهد أراد أبائهم ان يكفلوا لهم اشرافا على كهنوت معبد كبير مثل معبد أمون فى الأقصر .

(١٣) L. KLEBS, Die Reliefs, II, 22, Abb. 14.

جنوبية ، وأضاف حديثا يفهم منه أن استقرار أمور فرعونه في مصر سمح له بأن يلتفت إلى ما وراء حدودها ، وأن نشاطه العسكري سمح له بأن يبعث هيئته في نفوس أهل ”جاني“ ، أى أهل جنوب الشام^(١٤) . وأضاف رئيس بيت مال دولته خبتي أنه خرج بسفن إلى واوات في النوبة ، وأنه عاد من إحدى بعثاته الخارجية بمعادن وأحجار كريمة^(١٥) .

طال حكم متوحوتب نب حبة رع واحدا وخمسين عاما ، استمتع فيها بنتائج جهوده وعزائم أهل عصره ، وأقام باسمه خلالها معابد كثيرة لآر باب أسوان والجليلين والطور ودندرة وأيدوس وغيرها . وشاء مهندسه أن يشيد له ضريحا يليق بمكانته وسمعته ، فاستوحى هيئة أهرام الدولة القديمة وهيئة مقابر عصره المنحوتة ذات الأبهاء التي شادها سلفه القريب للأناثفة ، ثم عدل في هذه وتلك ونحج منها بأسلوب مبتكر جديد .

فقد اعتاد أسلافه مهندسو الدولة القديمة على أن يجاوروا بين أهرام الفراعنة ومعابدها دون أن يجمعوا بينهما في وحدة معمارية صريحة واحدة . فحاول هو من ناحيته أن يجمع لأول مرة بين هرم فرعونه ومعبدته في بناء واحد قائم متصل . وتخير لمشروعه حوض جبل ناهض من جبال طيبة الغربية، وأراد أن يطاول هرم فرعونه ارتفاع الجبل ، فصمم تحته مسطحين واسعين عظيمين يعلو أحدهما فوق الآخر ، ويؤدى إليهما طريق طويل عريض ، يبدأ بمدخل متسع عند حافة الوادى المنزوع . ثم أضاف إلى تصميمه إضافات كثيرة أخرى ، من الحدائق الرحبة والأعمدة المرتفعة ، والتماثيل الملكية الواقفة والجالسة ، رغبة منه في أن يستكمل بها نواحي الفخامة والجمال لعمارته . . .

ولما أكل المهندس مشروعه وتوابعه ، أصبح الزائرون يتطلعون إليه من أرض الزراعة إلى حيث ينهض ضريح الفرعون عاليا يحميه الجبل من خلفه ، ويعبرون خلال طريقهم إليه غابة شجرية زرعت بأشجار وارقة من الجميز والأثل تظل تحتها تماثيل الفرعون الجالسة والواقفة ، ثم يصعدون في أواخرها على طريق صاعد طويل يواجهون معه المسطح الأول للضريح ، ويواجهون في مقدمته بهوا عريضا ترتفع فيه أعمدة مربعة ، فإذا اعتلوا هذا المسطح الأول واجهوا غابة فسيحة أخرى تكسر المسطح الثاني ، لكنها غابة من حجر ، تتضمن عشرات وعشرات من الأعمدة الحجرية المضلعة التي قامت فيها مقام الشجر . وفي قلب هذه الغابة الحجرية ينهض هرم الفرعون عاليا في تسام وأبهة^(١٦) .

و يبدو أن نب حبة رع استمتع بشيء من الإيجار والتقديس عند معاصريه وعند خلفائه ، ونسب إليه ضريخان على أقل تقدير ، ضريح تحت هرمه وآخر قرب هرمه في منطقة باب الحصان بغرب

WEIGALL, Antiquities of Lower Nubia, pl. XIX; ROEDER, Debod..., 282; SÄVE-SODERBERGH, Agypten (١٤) und Nubien, 1941, 58.

BREASTED, op. cit., 426; GARDINER, in J.E.A., IV., 28f. (١٥)

E. NAVILLE, The XI dyn. Temple..., III vols, 1907f.; WINLOCK, Excavations at Deir el Bahari, 1942. (١٦)

طيبة^(١٧) ، وتضمن كل منهما تماثلا له بصورة ممتلىء الوجه والحسد برداء أبيض قصير يرمز إلى أحد أودية عيد السد ، ولكن مثاله لونه بلون أسود، وقد يكون ذلك عن قلة تجربته وسوء اختياره للألوان ، أو عن رغبة منه في تشبيهه بالمعبود أوزير رب الخصب الذي كان يوصف بأنه كيمي أى أسمر . ولم يوضع التمثالان فوق سطح الأرض شأن بقية تماثيل الملوك ، وإنما دثر كل منهما بلقائف الكنان بعناية ووسد داخل حجرة الدفن الرمزية بالضريح عوضا عن جثة صاحبه ، ولو أننا لاندرى إن تم ذلك في عهد صاحبه ، أم عقب وفاته ، أم بعد وفاته بزمان طويل . ولكنا ندرى من ناحية أخرى أن مواطنيه المتفقين رددوا شهرته بعد وفاته بقرون طويلة ، سواء لشهرة معبده الفخم في غرب طيبة ، أو تقديرا لجهوده في إعادة وحدة البلاد . وسلخوا اسمه بناء على هذا الاعتبار الأخير في صف واحد بين اسمي الفرعون "منى" واسم الفرعون "أحمس" ، الأول باعتباره رأس العصور التاريخية ، وهو باعتباره رأس الدولة الوسطى ، وأحمس باعتباره رأس الدولة الحديثة^(١٨) .

ضم ضريح متوحوب عددا من مقابر نساء أسرته ووصائفهن وجواريهن ، وكان لكل أميرة منهن مقصورة خاصة ، ولكل مقصورة بئر يودى إلى حجرة دفنها^(١٩) . وكانت أشهرهن أميرة تدعى كاويت وأخرى تدعى عاشيت^(٢٠) ، وبقي عدد من متاعهما الثمين ، ومنه تابوتان من الحجر الجيري النقي ، حفلت جوانبهما بمناظر دنيوية وأخروية ومن هذه المناظر ما يصور أميرته تمسك بمرآتها النحاسية بينما ترجل لها خادمتها شعرها وترقح لها أخرى بمروحتها ويصب لها وظيفها لبنا في كأس . وكان لكل من الأميرتين تابوت خشبي وضع داخل تابوتها الجري ، وحفل كل منهما بنصوص دينية ومناظر قطع بها فناها مرحلة طيبة في سبيل الإجابة ورشاقة الخطوط . وانتشرت حول ضريح نب حبة رع مقابر كبار وظيفه و كبار رجال حاشيته ...

تضمنت نصوص حجرة الدفن في ضريح نب حبة رع لقب "نب خروع" وهو اللقب الثالث من ألقاب المناحة الأوائل ، وقد اعتبره شارف ووتلوك لقباً جديداً لللك نب حبة رع ، واعتبره شتوك كتابة خاطئة لاسمه ، واعتبره بورخارت وزيته وشتيندورف وولف ودر يوتون وفاندييه اسم الملك آخر أعقبه في الحكم وأكمل له عمارة معبده ، واعتمدوا في رأيهم هذا الأخير على أن التغيير بين الاسمين نب حبة رع ونب خروع

(١٧) ووجد معه تابوت خال وصندوق باسم سمنح اب تاوي

WINLOCK, op. cit., pl. 34; EVERS, Staat aus dem Stein, I, Taf. XII.

(١٨) ذكر الرجل باعتباره رأس الدولة الوسطى أربع مرات في العصور التي أعقبته

See SAUNERON, in Chr. d'Eg. 1951, 46f.

(١٩) EVERS, op. cit., II Taf. XI. f; III., Taf., II-III,

Bull. Metr. Mus. 1921, 36f., EVERS, op. cit., XIX A.B. (٢٠)

لم يتصر على إحلال كلمة « نرو » محل كلمة « نب » بحيث يمكن تفسيرها بخطأ كتابي، وإنما امتد كذلك إلى تغيير ألقابه الثلاثة الأخرى ، وأضافوا أن نب حجة رع احتفظ باسمه حتى وفاته (٢١) .

ولا زالت مشكلة الإسمين بغير حل مرض ، إذ أنه على الرغم من منطوقية هذا الرأي الأخير ووجود عدة نصب لأفراد ذكروا فيها اسم نب خرووع وكرروه مرارا وتكرارا (٢٢) ، إلا أنه لم يعثر على آثار ملكية ذات بال تحمل اسمه وبقية ألقابه ، وأن طالبا من عصر الرعامسة أراد أن يسجل أسماء مشاهير الفراعنة في تمرين خطي ، فذكر عددا من ملوك الأسرة الثامنة عشرة والأسرة التاسعة عشرة ، ولم يضيف إليهم من أسماء ملوك الدولة الوسطى غير اسم « نب خرووع » وحده (٢٣) ، ولما كان نب حجة رع هو صاحب الفضل في إتمام وحدة البلاد وهو الذي أبقى المصريين على ذكره وبعثه حتى مرحلة التقديس ، وسلوكه في صف واحد مع مؤسس عصر بداية الأسرات ومؤسس الدولة الحديثة (ص ٤٢٦) ، فإنه يغلب على الظن أن طالب الرعامسة قصده هو بالذات ولكنه ذكره باسمه الآخر « نب خرووع » ..

وذكر اسم خرووع وزيران وليا الوزارة في عهده وهما « وچا » و « إبي » ، وتضمنت مقبرة هذا الأخير غرفة صغيرة خصصت لتحنيطه ، وعثر فيها على ما يشبه سريرا للفنل فضلا عن بقايا يوت وعقاقير (٢٤) .

*
* *

نهج نب حجة رع في سياسة حكمه الداخلية منهاجا مرسوما ، اتبعه بعض خلفائه من بعده ، وحاول في هذا المنهج أن يركز سلطان الحكم في عاصمته وأن يحد من سلطات حكام الأقاليم كلما تيسر الحد منها ، ونجح هو وبعض خلفائه فيما أرادوه إلى حد كبير ، فاختم لقب « حاكم الإقليم العظيم » وغيره من النعوت الضخمة التي اتخذها حكام الأقاليم لأنفسهم خلال عصر اللامركزية الأولى (٢٥) وندرت مقابرهم في أقاليمهم ، ونحتوا أغلبها حول مقابر فراعنتهم في غرب العاصمة طيبة تأكيدا لتبعيةهم لهم والتفافهم حولهم .

وعبر عن سلطان الفراعنة وحكومتهم المركزية حينذاك قائد خرج لكسر شوكة جماعات من البدو ، وانتصر عليهم ، ثم سجل أخبار نصره على الصخر ، ولكنه لم يردده إلى نفسه ، وردده إلى فرعونه ، وقال : « كان الخوف منه (أى من الفرعون) هو الذي جعلهم يخشونى ، وكانت سطوته هى التى جعلتهم يرهبونى كما أن حب (الأرباب) له هو الذى جعل الأرضين تعشقانه » (٢٦) .

(٢١) راجع عرض هذه الآراء عند دريوتون وفاندييه : مصر - ص ٣١٠ - ٣١٢

(٢٢) J. CLERE ET VANDIER, Textes de la Première Période intermédiaire et de la XI Dyn. I, 1948, 37-40, (٢٢)

42, 44, etc...

SAUNEBON, op. cit. (٢٣)

DAVIES, Five Theban Tombs, pl. XXIX f; Bull. Metr. Mus., 1922, 37f; J.E.A. X, 15. (٢٤)

(٢٥) دريوتون وفاندييه : المرجع السابق ص ٢٧١ ، ٢٨٠

GARDINER, in J.E.A. IV, 35f. (٢٦)

وينم هذا النص عن أن القادة والحكام ومن ساوهم عادوا يعتبرون أنفسهم مجرد موظفين ينفذون أوامر فرعونهم ويردون الأمر والفضل إليه ، على نحو ما اعتاد أسلافهم في عصور المركزية القديمة . غير أنه يبدو أن ولاءهم له لم يمنع أصحاب الشخصيات القوية منهم من أن يرددوا آيات نجاحهم في مناصبهم ويفخروا بجهودهم في إصلاح أحوال أقاليمهم تحت طاعة فراعنتهم ، وظهر من صفوفهم رجل يدعى "إتي" ، لم يكن أكثر من مساعداً لأحد رؤساء بيت المال ، ولكنه وصف نفسه بأنه مواطن كفء ، يعمل بساعده ، وأضاف أنه كان سنداً في إقليم طيبة ، وأنه أحيى منطقة الجبلين في سنوات قل الخير فيها وتعطل فيها أربعائة رجل . وأكد أن نفسه أبت عليه أن يستغل ابنة نقيير أو يقتصب أرضه ، وأنه استطاع أن يجهز عشرة قطعان من الماعز وقطيعين من الماشية وقطيعاً من الخمر ، وخصص عدداً من الرجال لكل قطع . . . وجهز ثلاثين مركبا ، وثلاثين أخرى ، وسد كفاية الجبلين بالغلال ثم أفاض من غلاله على منطقة إسنا ومنطقة الحية . . ثم أشار إلى أنه تبع مولاة الكبير ومولاة الصغير . ولم ينس بعد ذلك دنياه ، فأضاف أنه ابنتى لنفسه دارافاخرة زودها بكل شيء ثمين ، وأنه على الرغم من ثرائه ظل الناس يؤكدون أنه برئ من الرشا والاعتصاب (٢٧) .

*
* *

تعاقب على عرش البلاد في نهاية عصر الأسرة الحادية عشرة ملكان أو ثلاثة ، لا يقل الخلاف حول عددهم وتتابعهم عن الخلاف حول عدد أوائل ملوك الأسرة وألقابهم (٢٨) . ومن أسمائهم المؤكدة : متوحوتب « نب تاوى رع » ، ومونتوحوتب « سعنخ كارع » .

ويذكر لسياسة الحكم خلال عهود أولئك الملوك احتمال اشتراك أولياء عهودهم معهم في الحكم رغبة في أن يكتسبوا الخبرة فيه ويضمنوا ولاء الأنصار قبل أن ينفردوا به . ويدعو إلى هذا الظن ثلاث قرائن أو أربع وهى : أن نب تاوى رع متوحوتب احتفل بعيد السد الثلاثينى في العام الثانى من حكمه ، وذلك إذا صح معنى فيما يعتقد برستداشتراكه مع أبيه ثمانية وعشرين عاما . وأن شخصا يدعى سنوسرت لقبته نصوصه بلقب "الأب المقدس" ، وسجل نقش في الكرك تحتل كتابته خلال عصر الأسرة الثامنة عشرة

BREASTED, op. cit., 459. (٢٧)

J. VANDIER, "L'ordre de succession des derniers rois de la XI dyn." *Analecta Orientalia* XVII, 36f., (٢٨)

WINLOCK, in *J.E.A.* XXVI (1941), 116f.

ويقترح ونلوك ترتيب ملوك الأسرة على النحو التالى :

انتف سهرتاوى (٢١٤٣ - ٢١٤٠) ، انتف واح عنخ ٢١٤٠ - ٢٠٩١ ، انتف نخت نب تبفر (٢٠٩١ - ٢٠٨٨) ، متوحوتب سعنخ أب تاوى (٢٠٨٨ - ٢٠٧٠) ، متوحوتب نجحبة رع (٢٠٧٠ - ٢٠١٩) ، متوحوتب سعنخ كارع (٢٠١٩ - ٢٠٠٧) ، متوحوتب نب تاوى رع (٢٠٠٧ - ٢٠٠٠) وكان هذا الأخير في رأيه مفتصبا للحكم وربما شاركه في الحكم غيره .

اسمه بعد إسم الملك سعنخ كارع متوحوتب ، ولكن في غير خرطوش (٢٩) . وذلك مما قد يعنى اعتباره ولى عهد اشترك مع أبيه سعنخ كارع وإن لم يتيسر له الحكم مستقلا . ثم ما ذكره الموظف « آتى » من أنه تبع مولاة العظيم ومولاة الصغير ، وذلك مما يعنى طاعته للحاكم وولى عهده المشترك في الحكم معه (ص ٤٢٨) . وكانت ظاهرة إشراك أولياء العهود في الحكم ظاهرة رددت دريوتون أصولها إلى عصر الأسرة السادسة .

ولعل أوضح ما يذكر للنشاط الاقتصادي خلال النصف الثاني من الأسرة هو الاتجاه نحو استعادة الاستثمار الواسع لموارد الصحراء الشرقية والصحراء الغربية واستعادة الاتصال الواسع ببلاد النوبة وبلاد بونت . وبدأ هذا الاتجاه بمحاولة توطيد الأمن في السبل المؤدية إلى البحر الأحمر عبر الصحراء الشرقية ، ومحاولة تعديها ، وإعادة استغلال محاجرها (الجرانيتية) ومناجمها لصالح الدولة وصالح الفرعون . ويبدو أن ذلك لم يكن بالأمر الهين ، إذ تحدثت نصوص العصر عن بعثتين كبيرتين ، لازال الباحثون على خلاف في أيهما سبقت الأخرى ، خرجت إحدهما في عهدنب تاوى رع متوحوتب في عشرة آلاف رجل بين مدنيين وعسكريين وترأسها وزير يدعى « أمنمحات » فوطدت الأمن في وادى الحمامات وعمرت بعض مواطنه القديمة المهجورة ويحتمل أنه كانت منها واحة وادى جاسوس القريبة من القصير الحالية ، (٣٠) ثم أعادت استغلال محاجره . وقد يكون عدد العشرة الآلاف هذا عددا مبالغاً فيه ولكنه ينم على أية حال عن أن أصحابه كانوا في خلق كثير . وقص الوزير أمنمحات رئيس البعثة في نقوشه التي سجلها باسم فرعوننب تاوى رع أن معجزتين حدثتا خلال قيام رجاله بقطع تابوت الفرعون وغطائه من محاجر وادى الحمامات ، وروى في المعجزة الأولى أن غزالة حبلى قصدت معسكر رجاله واتجهت إليه وهى تتلفت خلفها دون خوف أو استغراب ، ثم استقرت في مكان بعينه ، ووضعت وليدها فيه ، فاعتبرها الرجال معجزة تنبهم إلى الموضع المناسب الذى ينبغى أن يقطعوا منه تابوت فرعونهم ، وتوهموا فيما بينهم أن حيوانات البرارى نفسها لم تكن تأبى أن تسعى إلى نرعونهم ومن أجل صالحه .

وروى أمنمحات أن المعجزة الثانية حدثت بعد المعجزة الأولى بثمانية أيام ، وكان قد عز على رجاله أن يعثروا على موارد الماء في مسالك الصحراء والجبال ، وأوشكوا أن يضيقوا بحالمهم ، ولكن حدث بغاة أن تجلت كرامة الإلهمين رب الصحراء الشرقية ، وتجلت مكانة الفرعون عنده ، فهطل المطر مدرارا ، واستحال الجبل إلى بحيرة ، وانكشفت فوهة بئر بلغ عمقه في قاع الوادى عشرة أذرع وبلغ عرضه عشرة أذرع ، امتلأ بالماء الصافى حتى حافه ، على الرغم من أن جيوشا عدة وبدوا كثيرين مروا على مكانه أعواما طويلا دون أن تراه عين أو يلحظه إنسان ، على حد قول أمنمحات (٣١) .

(٢٩) (Stoek, op. cit., 46. Anm. 6)

وجد بين احجار الصرح الثالث بالكرنك

(٣٠) دريوتون وفاندييه : المرجع السابق ص ٢٧٢

L.D. II, 149c, f.; FBMAN, in ZÄS, 1891, 60; BREASTED, op. cit., 451.

(٣١)

وقال رجل آخر من عهد الملك نفسه في نص نقشه بوادي الحمامات : «خرجت إلى هذه البادية كما لو كنت ابن ستين (وعندي) سبعون ولدا من زوجة واحدة ، وأدبت كل ما هو صواب من أجل نب تاوى رع ، عاش أبدا » . ويبدو أنه أكلت إلى هذا الرجل مهمة الإشراف على منطقة واسعة في الصحراء الشرقية ، بحيث ادعى أنه أصبح المدير الفعلي "لأرض الصحراء كلها" . وذكر من صور نجاحه وإخلاصه في أداء مهمته أنه أحال وديان الصحراء ومرتعاتها إلى بحيرات وعمرها بالذراى . . . ، وأضاف أنه تكفل بعمل تحصينات حدودية امتدت شمالا حتى "منعة خوفو" في مديرية المنيا ، وربما امتدت جنوبا إلى لقيطة في وادي الحمامات (٢) .

وخرجت بعنتان إلى النوبة في عهد الملك نفسه للتفتيش عن الجمشت في وادي الهودى إلى الجنوب الشرقى من أسوان بنحو سبعة عشر ميلا (٣٣) .

أما البعثة الكبيرة الأخرى التي تقرن ببعثة أمنمحات فقد خرجت في العام الثامن من عهد سعنخ كارع متوحيب برياسة موظف كبير يدعى حتو (أو حننو) وبلغ تعداد رجالها نحو ثلاثة آلاف رجل ، مدنيين وعسكريين . وكانت تستهدف تأكيد الأمن في مسالك القوافل وتعميرها وتحصيل الهدايا باسم القصر الملكي وقطع أحجار لثماثيل ملكية ضخمة والإشراف على إنزال سفن «جيبيلية» إلى البحر الأحمر لاستعادة الاتصال ببلاد بونت عن طريقه واستيراد «بنحور طازج» منها :

واعترف حتو بأنه انتفع من حالة الأمن التي حققتها بعثة عسكرية سبقته إلى تأمين الطريق ، وقد تكون تلك البعثة هي بعثة أمنمحات ، أو بعثة استطلاعية من رجال حتو نفسه ، وذكر أنه بدأ طريقه من قفط وسلك دربا قصيرا من دروب الصحراء، وادعى أنه سار على الدرب الذي وجهه إليه مولاه ، وأكد أنه أكرم رجاله فسمح لكل منهم بسقاء (أو قربة ماء صغيرة) وحامل (أى عصا مثل عصا الراعى يعلق فيها سرة الخبز وسقاء الماء) وقدرين ، وصرف لكل منهم عشرين رغيفا (صغيرا) يوميا ، وسمح لهم بأن يحملوا نعالهم على ظهور الحمير ، وأضاف أنه ود لو جعل الطريق نهرا وجعل الصحراء طريقا زراعيا ، وأنه عمل على تطهير آبار قديمة وحفر آبار أخرى جديدة ، وقد بلغت في مجملها خمسة عشر بئرا ، ولا زالت بعض معالمها باقية حتى الآن . ثم استمر في طريقه حتى بلغ ساحل البحر الأحمر ، ربما عند الميناء التي تحدت معالمها خلال عصر الأسرة الثانية عشرة

COUYAT-MONTET, Hammamat, pl. I; NEWBERRY, Beni Hassan, II, 18-19. (٢٢)

وأضاف كيس تحصينات أخرى أقامها المصريون في نفس العصر على التلال الشرقية عند الجبلين وفوق الجرد لتتحكم في مدخل طيبة وتشرّف على تجارتها وضرائبها (KEES, Das alte Agypten, 56).

A. ROWE, in Ann. S. XXXIX, 187f; A. FAKHRY, The Inscriptions of Wadi el Hudi, Cairo 1952. (٣٣)

أى بعد أيامه بقليل وسميت «ساو» عند نهاية وادى جاسوس الفوقانى على خط ٢٦,٠٦ ، كما يعتقد أدولف إرمان وهرمان كيس ، وشمالى القصير القديمة بنحو أربعين ميلا (٣٤) . وأزل سفينة أو سفننا إلى البحر ودشنها بذيح القرابين ثم عهد بها إلى رجالها . وحملها ببضائع يستبدلون بها ماتوده الخزان الملكية ومعابد الدولة من بلاد برنت ، ثم استغل طريق عودته لقطع أحجار تماثيل مولاه ، وادعى أنه فعل ذلك نظرا لحب مولاه الشديد له (٣٥) .

ويبدو أن انقطاع الاستغلال الواسع لمناطق المناجم والمحاجر ، وانقطاع الاتصال ببلاد بونت خلال عصر الانتقال الأول ، جعل استعادة النشاط في هذه النواحي ضربا من المخاطرة والبسالة ، وجعل أصحاب هذا النشاط يتامسون طريقهم من جديد كما فعل كل من الوزير أممحات وزميله حنو . وصورت مخاطر هذا العصر قصة جمع فيها مؤلفها بين الواقع والخيال ، وعرفت اصطلاحا باسم قصة الملاح الغريق (٣٦) ، وإن كان عكس هذه التسمية أى "نجاة الملاح" أولى بها .

وروت القصة أن أحد رجالات البلاد كان في سبيل عودته عن طريق النيل من مهمة كلفه بها فرعونه فيما وراء أرض واوات بأقصى النوبة ، ولكن لم يقدر له النجاح فيها ، ولما اقتربت سفينة من العاصمة أتاه أحد خاصته من الملاحين يهثه بسلامة العودة دون نقص في ملاحيه ، ويصف له فرح رجاله ومعانقة بعضهم لبعض ، ولكن الرجل كان في واد آخر ، وظل مهموما يتخوف عاقبة فشله ، فابرى الملاح يسرى عنه ويهون عليه ويبعث الأمل في نفسه ، وقص عليه قصة تداولت عليه فيها شذائد ظن أن لا نجاة له منها ، ولكنه نجى وسلم وعاد إلى وطنه واستمتع باجتماع شمله بأهل بيته .

وروى له في قصته أنه خرج بسفينة بحرية كبيرة بلغ طولها مائة وعشرين ذراعا وبلغ عرضها أربعين ذراعا ، واستلها معه مائة وعشرون بحارا وصفهم له بأنهم كانوا من خيرة ملاحى مصر ، وأنهم خبروا السماء والأرض ، وأن قلوبهم كانت أشد من قلوب الأسود ، وكانوا يتنبأون بالريح قبل أن تقبل وبالعاصفة قبل أن تحدث ، ولكن حدث لهم ما لم يتوقعوه فدهمتهم العاصفة وهاجت أمواج البحر وارتفعت نحو

A. ERMAN, in ZÄS, XXI, 203

(٣٤)

واستمرت هذه الميناء حتى العصر الصاوى ، وعثر على معالمها ومعالم البشر التى تغذيها بالماء ، وأضاف كيسرانه نشأت بجوارها ميناء جديدة فى العصور البطلمية سميت Philoteris على خط عرض ٢٦ر٣٣
H. KEES, article, Philoteris, in Pauly-Wissowa, Real-Encyclopadie.

Hammamat 114; BREASTED, op. cit., 429f; W.C. HAYES, "Career of the great steward Henenu...", (٣٥)
in J.E.A. XXXV, 43f.

وادعى حنو لنفسه مناصب كبيرة ونعوتا مشرفة ، ذكر فيها انه كان مشرفا على ما كان وما لم يكن ، وانه اشرف على الخزانة والشون ورأس مجالس الستة ، واشرف على مدخل الجنوب وأقاليم الجنوب وكان يتلقى تقارير الموظفين ، وأكد انه كان يحرض على الحكم وفق ضميره .

GOLENISCHIEFF, Le conte du Naufragé, Cairo 1912; A. ERMAN, Die Literatur, 57f. (٣٦)

ثمانية أذرع ، ففرقت السفينة بمن فيها ، ولم ينج منها غير راوى القصة الذى ألقته به الأمواج على جزيرة فى أقصى الأخضر الكبير (أى فى أقصى البحر الكبير) ، ف قضى فيها ثلاثة أيام فى دغل لا أنيس له فيه ولا معين ، ثم اتخذ طريقه فى أرضها فوجد فيها خيرات لا تحصى من الفواكه والطيور والأسماك ، فطعم وشرب ، ولم ينس أربابه فأشعل نارا وقدم عليها قربانا ، وإذ هو كذلك سمع ديبيا قاصفا يقبل عليه ، فغشيه من الخوف ما غشيه ، ولما استمسك وجد أعوانا ضخما طوله ثلاثين ذراعا ويزيد أثر ديبية على الأرض عن المترين عرضا ، وكان جسده مغشى بالذهب وحاجباه بلون الزبرجد ، فانبطح البحار على بطنه فرقا وإجلالا ، وتوجه إليه الثعبان وسأله عن حاله وعن آتى به إلى جزيرته أتى يحف الموج بها ، فاستبد الخوف بالرجل وفقد السمع والقدرة على الكلام ، وحمله الثعبان فى فمه إلى بحره وترفق به حتى أفرخ روعه ثم أعاد عليه سؤاله ، فقص الرجل عليه قصته بتامها . . . وهنا هون الثعبان عليه أمره ، وذكره بالآء ربه الذى قدر له الحياة وأرساه على « جزيرة الروح » ، ثم بشره بأنه سيعود إلى وطنه ، وأن سفينة مصرية سوف تأتى إليه بلاحين يعرفهم ، ولكن بعد أربعة أشهر ، فيرجع معهم إلى بلده ويموت فيها .

واستأنس الثعبان بالرجل ، وأراد أن يهون عليه أمره ، فقال له : ” ما ألد أن يروى الإنسان ماذا بعد مرور المحنة “ ، ثم قص عليه قصته فإذا ببلواه لاتقل عن بلواه ، وروى له أنه عاش مع إخوته وأولاده فى الجزيرة ، وكان عدتهم سبعة وثلاثين ، عدا طفلة صغيرة رزقها بعد أن ارتجأها ودعا بها ، ولكن نجا هوى من السماء فاحترقوا بناره ، ولم ينج سواه ، فكاد يموت حزنا عليهم بعد أن وجدهم كومة هباء .

وأبى الثعبان أن يعكس حزنه على ضيفه فشجعه وقال له : ” إذا تشجعت وشدت قلبك فلسوف تملأ حضنك بأولادك ، ولسوف تقبل زوجتك وترى دارك ، وأجمل من ذلك كله أنك سوف تبلغ العاصمة التى تعيش فيها بين إخوانك “ .

وأكبر الملاح الثعبان ، فأقبل عليه وقبل الأرض بين يديه . ونذر على نفسه ليلغى أمره إلى الفرعون حين يعود إلى وطنه ويعمل على تقديم القرابين والبخور باسمه وإرسال السفن إليه بخيرات بلده ، فبسم الثعبان ضاحكا من قوله ، وأفهمه أنه بذاته سيد بلاد بونت وأن بخورها ملكه . ثم انقضت الأربعة أشهر ، وتحقق وعد الثعبان فأقبلت السفينة وتعرف الملاح على من فيها ونزل إليهم مزودا بكيات هائلة من المروا والتوابل وذيول الزراف والصموغ والبخور وأنياب العاج والفهود وأنسانيس ثم فارق الجزيرة بعد أن علم من سيدها أنها سوف تزول من الوجود ويتلغها الموج . وعاد الرجل إلى بلده بعد شهرين يملأه الأمل بما وعده الثعبان به من سعادته فى داره ولقائه لأطفاله ووفاته فى وطنه .

لا يزال تمديد جانب الحقيقة وجانب الخيال فى هذه القصة موضعا لجدل طويل ، وإن ذهب الظن إلى أن مغامرة الملاح فيها كانت قرب جزيرة الزبرجد فى البحر الأحمر ، (وقد ذكرها بليني باسم Topoz

وذكرها استرابون باسم (Ophidides) . وعلى أية حال فإنه يعيننا من القصة غلبة روح التفاؤل فيها وحرص كاتبها أوراويها على أن يفترض لكل مصيبة ما هو أشد منها ، ويفترض لكل مصيبة مخرجا منها . وأملت هذه الروح على الملاح صاحب المغامرة على أن يشجع أمير سيفيته الذي تخوف غضب فرعونه بقوله ” استمع إلى أيها النبيل ، (وثق أني) رجل برىء من المبالغة ، اغتسل وضع الماء على أناملك (حتى تهدأ أطرافك) ، وأجب إذا سئلت وتحدث إلى الملك وذهنك معك ، أجب دون تردد ، فمطلق الرجل يحبه وحديثه يكفل له ما يصبون به وجهه (؟) وتصرف بما يملكه (عليك) عقلك “ .
(أو ... اقرأ تقريرك للـك وذهنك حاضر ... الخ)

* * *
أسلفنا عن نشاط السياسة المصرية فيما وراء الحدود الشمالية الشرقية ، ما ذكره أحد موظفي نب حبة رع من أن مولاه كان له نشاطه في أرض جاني ، أي في جنوب الشام ، وذكر ملك من ملوك الأسرة نفسها أنه قاوم الآسيويين في بواديهم . وزاد حنو أمرا آخر في عهد سعنخ كارع متوحتب ، فذكر لنفسه دورا في معاملة الحاونبو ، أي أهل جزر البحر المتوسط لاسما الكريتيين . وقد تكون هذه المعاملة ودية أو عدائية . وإن كان الاحتمال الأول هو الأرجح .

* * *
جعلت القوائم الملكية سعنخ كارع آخر ملوك الأسرة الحادية عشرة ، وذكرت بردية تورين أن فترة حكمه دامت اثني عشر عاما (٣٧) ، وأضافت بعده سبع سنوات لم تنسبها إلى ملك معين . وإذا صح هذا الذي أتت به تورين كان معناه أن سنوسرت الذي تلقب بلقب الأب المقدس وظهر اسمه بعد اسم نب تاوي رع وسعنخ كارع واجه ظروفًا شائكة ولم يعترف بشرعية حكمه كتبة القوائم الملكية ، ولا زالت مشكلته هو الآخر قائمة ، ولا زال الرأي يتراوح بين اعتباره ولي عهد لم يستطع أن ينفرد بالحكم بعد أبيه ، وبين اعتباره شيخا كبيرا بلغ العرش في ظروف غير مستقرة ثم انتقل حق الحكم منه إلى ولده أوصهره ” أمنمحات “ الذي اعتبره التاريخ مؤسس أسرة حاكمة جديدة (٣٨) وهي الأسرة الثانية عشرة حوالي عام ١٩٩١ ق . م (٣٩) .

* * *
احتفظت النقوش الصخرية في النوبة بأسماء عدد من الحكام اتحموا ألقاب الفراعنة ، ولكن لم يرد لهم ذكر في آثار الوادي ولم تتحدد مواضعهم في قوائم الملوك ، وكان أكثرهم ذكرا في النوبة ملك يدعى

(٣٧) ورد اسمه في مدة نقوش تدل على عناية عهده ببناء المعابد الكبيرة ومقاصر العبادة الصغيرة ، ويحتمل أنه بدأ تشييد قبره في حوض الجبل بمحاذاة معبد نب حبة رع في الدير البحري ، ولكنه لم يتمه ، ولا زالت معالم الطريق المؤدى إليه والمر الصاعد إلى سطحه الواسع باقية

(WINLOCK, op. cit., 52).

(٣٨) STOCK, op. cit., 40 ANU. 6; GARDINER, Egypt of the Pharaohs, 125.

أمنمحات وبأس الأسرة الثانية عشرة بالأسرة الحاكمة السابقة له ، في بداية الجزء الثاني ان شاء الله .

See, W. SMITH, in J.N.E.S., 1952, 121; WINLOCK, "The Origin of the Anc. Eg. Calendar", in Proc. (٣٩)

American Phil. Soc., 1940, 457, n. 33.

عشر في مقبرة مکت رع بمنطقة الدير البحري في طيبة (٤٣) على نماذج كثيرة لأدوات زينته وأناقته ، ونماذج أخرى طريفة لداره أو دواره وما كان يلحق بها من مكاتب ومصانع وحظائر ومخازن ، فضلا عن كانوا يعملون فيها من موظفين وأتباع وصناع . وتبقى من نموذج مسكنه الخاص جانب أمامي من طابق أول لا يختلف كثيرا عن الطوابق الأولى في القيلات الحديثة ، ويتألف من فناء متسع يتوسطه حوض ماء مستطيل كبير ، تشرف الأشجار على جانبيه ، وتلي الفناء صفة مرتفعة أو قراندة متسعة يعتمد سقفها على ثمان أساطين خشبية دقيقة رقيقة ملونة ، شكلت سيقانها وتيجانها على هيئة اللوتس والبردى .

وتختلف من ملحقات الدار أو الدوار نموذج مصنع غزل ونسيج تعمل فيه طائفة من النساء ، وكان صاحبه يؤدي ضرائب العينة إلى الدولة ، وربما اشتغل لحسابها أيضا . ونموذج مصنع للتجارة يعمل فيه صناعه ويستخدمون أدوات يدوية لا تزال تستعمل حتى الآن ، وأخصها المناشير والأزاميل والدقمايق . ونموذج كرار لتخمير البجعة وتصفيتها ، وآخر لمعجن ومخبز يعمل فيه رجال ونساء ، وثالث لحظيرة متسعة جاورتها ظلة مرتفعة فسيحة جلس فيها رب الدار ومن حوله حراسه حاملو الحراب ، وكتبته الذين جلس كل منهم أمام منضدة حجرية صغيرة وضع فوقها أدوات كتابته .

وهكذا احتفظت نماذج مکت رع بصورة لثراء المترفين في عصره ، عصر الأسرة الحادية عشرة ، ونمت على أنه كان من أصحاب الأملاك من حققت لهم أملاكهم الواسعة حفا من الكفاية الذاتية في إنتاج مطالبهم ومطالب أسرهم وأتباعهم المحيطين بهم .

ولم تتضمن مقبرة مکت رع صورة من حياة التعم وحدها ، وإنما تضمنت في الوقت نفسه مئات من أسلحة الحرب ونماذجها ، لا سيما الحراب والأقواس وجعاب السهام ، وذلك مما يعني أحد فروض ثلاثة ، وهي : أن الرجل كان من هواة جمع الأسلحة وكان يحتفظ بها في متحف بداره . أو أن تقاليد عصره كانت تفرض على الأثرياء أن يحتفظوا بأسلحة كثيرة ليزودوا بها رجال أقاليمهم حين تطلب الدولة منهم تسليحهم ، أو أن أيام مکت رع بالذات كانت أياما مضطربة وكان عليه أن يتربح مفاجآت بأسلحته ، وكل من هذه الفروض الثلاثة محتمل .

لم تقتصر مخلفات الأسرة الحادية عشرة على نماذج المساكن الثرية وحدها ، وإنما احتفظت معها بنماذج صغيرة من الطين قلدت التخطيط العام لبيوت أهل الطبقات الفقيرة والطبقات الوسطى . وظهرت هذه النماذج منذ نهاية الدولة القديمة ، واستمرت خلال عصر الانتقال ، ثم اكتملت عناصرها في بداية الدولة الوسطى ، وجرى الاصطلاح على تسميتها باسم بيوت " الكا " أي بيوت الروح ، إيحاءً إلى تخصيصها لنفع الروح في آخرها (٤٤) .

WINLOCK, in Bull. Metr. Mus. 1921, 12f., (٤٣)

PERTIE, Gizeh and Rifeh, 1, pl. XIV f.; Egyptian Architecture, pl. XXIV, etc. (٤٤)

وظلت نماذج البيوت الفقيرة لاتعدو فناء مسورا بسور خفيض من جواليص الطين ، يقوم في مؤخرته من الداخل كوخ (خص) مقبي السقف مبني بجواليص الطين ، أو صفة (تسقيفة) متواضعة مسطحة السقف أو مائلة السقف يحمل سقفها عمودان أو ثلاثة من جواليص الطين .

وتميزت عن هذه النماذج نماذج أخرى تفضلها بعض الشيء قلدت فيما يغلب على الظن البيوت الريفية الشائعة، واحتوت في نهاية فنائها على ثلاث حجرات متصلة أو منفصلة يتقدمها رواق مستطيل مسقوف ويعلوها سطح مسور بجواجز بسيطة (درازين) تنفذ منه منافذ مائلة للتهوية والنور (تشبه ملاقف الهواء التي كانت تتضمنها مساكن الجليل الماضي في الريف) . وقد يتصرف أصحاب المسكن في حجراته فيرتبونها على جانبي الرواق أو على جوانبه الثلاثة ، ويستفيدون من السطح المتسع فيبنون بين منفذى الهواء (الملقفين) حجرة عليا صغيرة، ويبنون الدرج المؤدى إلى السطح من ركن الفناء أو يجعلونه يعتمد على الجدار الخارجى للمسكن إذا كان بعيدا عن جدار السور . وغالبا ما يبنون حجرة ضيقة في ركن الفناء لاستخدامها مخزنا أو حظيرة للطيور ويتركون بقية الفناء لمبيت الماشية .

وامتازت عن النماذج السابقة من حيث الثراء ومن حيث التطور نماذج أهل الطبقة الوسطى الريفية، وكانت ذات طابقين و سطح ، يؤدي إلى طابقها الثانى و سطحها درج يعتمد على عقد مقبي ، ويكون لمجراتها العليا نوافذ حيث لا خوف من تلصص المارين في الطريق على أهلها . وظل للأروقة الأمامية المسقوفة مكانها في الطابقين لجلوس أهلها في أمسيات الصيف وللاستقبال الضيوف . وقد يحتوى فنائها الواسع على حوض رباعى تحيط به ظلة (تسقيفة) ذات أعمدة . وكثيرا ما وجدت في حجرات هذه النماذج نماذج صغيرة لأسرة ومقاعد، وذلك مما يعنى أنها أصبحت تخدم غرضين، وهما: نفع الروح، والرمز إلى المسكن الذى يتمناه المتوفى لنفسه في أخراه .

*
* *

مر بنا حين استعرضنا الخطوط العامة لفنون النحت والنقش خلال عصر الانتقال ، أنها ظلت محدودة الكفاية محدودة الآفاق، وإن ميّز تماثيل سادتها الخشبية طابع ريفى مستحب وأسلوب واقعى متواضع، وميّر تماثيل أتباعها الحشنة تألفها الجماعى وحرية الحركة المثلثة فيها ، وميّر صورها النحيلة قليلة التناسب نوع من صدق التعبير عن الحياة الأسرية وعلاقات أفرادها بعضهم بعض، وميّر نقوش توابيتها ورسومها نوع من الثراء في تصوير المفردات وتسجيل التراتيل والدعوات .

وترتب على ذلك أن فنون الدولة الوسطى لم ترث عن سابقتها شيئا ذا بال، ولم تجد وراءها نموذجا راقيا قريبا ترجع إليه وتستوحيه ، لاسميا أنها نشأت في طيبة بعيدة عن منف كعبة الفن القديمة، وكان عليها أن تتلمس لنفسها سبلا جديدة تعبر بها عن أوضاع عصرها وخصائصه . وبدأت بواكير النجاح النسبى لفن النحت حينذاك في تماثيل متوحوتب نب حجة رع . وكان منها ذلك التمثال الذى وصفناه بردائه القصير الذى يشبه أردية أعياد السد، ولونه الأسود الذى اقترضنا أنه قد يرجع إلى رغبة الفنان في تشبيه فرعونه بالمعبود أوزير باعتباره رب الخصب ، أو يرجع إلى سوء اختياره للون المناسب ، ويبدو أن

هذا الفرض الأخير هو الأرجح ، فقد حاول الرجل أن يعبر في تماثله عن عظمة فرعونيه بكل وسائله ، ولكنه لم يستطع أن يعبر فيه عن هذه العظمة بغير امتلاء وجهه وهيبته وامتلاء جسده وضحائه ، واكتفى بالخطوط العامة فيه دون إظهار عضلات جسمه واثناءاته ، وصوره يعقد يديه على صدره في جاسة أوزيرية مهيبية ولكنه أظهره برداء العيد القصير الذي لا ينسجم مع أردية أوزير الطويلة المعروفة أو على الأقل لم تجر العادة على إظهاره في تماثيل الملوك التي صورتهم في هيئة أوزيرية . ونحت ساقى التمثال بضخامة ملحوظة ، وتحتل هذه الضخامة أكثر من فرض واحد ، فهي قد تدل على ابتلاء صاحبه بمرض تضخم الساقين (داء الفيل) كما يظن بعض الباحثين ، ولو أنه فرض مستبعد حيث لم تجر عادة المصريين على تمثيل عيوبهم البدنية في تماثيل يأملون أن تخلد إلى أبد الآبدين ويأملون أن يبعثوا في الآخرة على مثالها . وقد تدل على عدم تمكن الفنان من فنه وعدم استطاعته تقدير النسب السليمة في تماثله ، أو هي ترجع أخيرا إلى أن هذا التمثال كان واحدا من تماثيل كثيرة لصاحبه قامت في معبده وعلى جانبي الطريق المؤدى إليه ، ورأى المثالون في كثرتها ما يغنى عن الاهتمام بتفاصيلها ، ولم يجدوا ضرورة للعناية الكاملة بكل واحد منها على حدة (٤٥) .

وعلى أية حال ، ومهما يكن من عيوب هذا التمثال ، فهي عيوب تغفر له إذا قورن بتماثيل عصر الانتقال الذي سبقه ، ولا تمنع إطلاقا من اعتباره باكورة طيبة لفن النحت في عصره . وقد أصاب النجاح النسبي في نحته ونحت أمثاله من التماثيل الملكية ، بعض تماثيل الخاصة في عصره ، ومن هذه التماثيل بضعة تماثيل لمكت رع وولده وتمثالان صغيران لموظف يدعى "مري" نحتهما الفنان من الحجر وأظهره في أحدهما يبسط يديه على صدره في وضع تعبدى لطيف ، وتمثال آخر بنفس الوضع لرجل يدعى إيقر ، وتمثال خشبي صغير للأميرة عاشيت وجد داخل تابوتها ، ولم يخجل من حيوية واضحة زادت احتفاظه بتطعيم عينيه (٤٦) ، بل وأصاب النجاح النسبي تماثيل الجوارى والأتباع الصغيرة ، فبلغت حدا لا بأس به من سلامة النسب ورقة التفاصيل ، وإن تفاوتت فيما بينهما من حيث الحيوية ودقة الصناعة ، ومن أمتع ما يستشهد به مها تماثالان بلحاريتين من حاملات القرابين في مقبرة "مكت رع" ظهر فيهما من حلاوة التعبير وصفاء الملامح وتفصيل الثياب المشغولة بالحرز على هيئة فلوس السمك ، ما يجعلهما يفوقان أشباههما من تماثيل عصر الانتقال براحل طويلة (٧) .

وهكذا لم تخط مصر خلال عصر الأسرة الحادية عشرة خطواتها الموفقة في مجالات السياسة والاستثمار والاستقرار فحسب ، وإنما بدأت تحت الخطى لاستعادة مجدها الفني القديم الذي قدر لها أن تبلغ به ذرى عالية جديدة في عصر الأسرة الثانية عشرة ومنذ بداية الألف الثاني قبل ميلاد المسيح .

*
* *

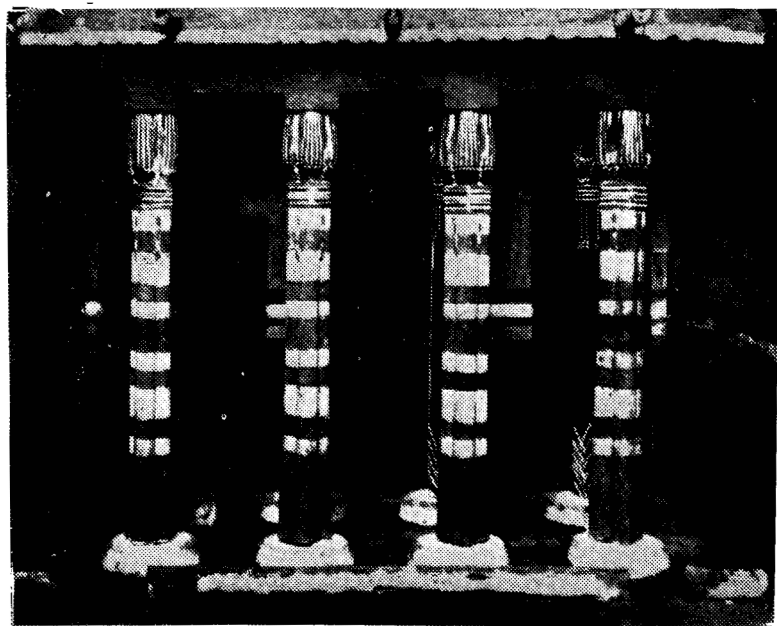
Cairo 36195, Metropolitan Museum 26-3-29, (٤٥)

Metropolitan Museum, 20-3-4 ; 26-7-1393 ; British Museum, 37895, 37896...etc. (٤٦)

Cairo 46725 ; Metropolitan Museum 20-3-7. (٤٧)



شكل ٥٢ — صقر مهيب من الذهب يمثل الرمز المتحجب للعبود حور (من عصر الأسرة السادسة)



شكل ٥٣ — بهو في دار مكت رع

فهرس بأهم المفردات

الدير البحرى : ٤٢٥ +
 السبيلة : ٦٩ +
 السنطة : ٣٧
 السودان : ٢٩١ ، ٣٨٨ ، ٣٩٠
 العاطرية : ٧١
 الفهر : ٥٩ +
 الفيوم ٣٧ ، ٥٤ ، ٣٢٢ ، ٣٧٨ ، ٤١٤
 القفصية : ١٠٧ ، ٧١
 الكاب : ٢٣ ، ٢١١
 للاهون : ٣٧
 الملاح الفرقي : ٤٣١ +
 المنيا : ٣٧
 النوبة : ٢٩١ ، ٣٣٣ (أسماء قبائلها) ٣٨٨ ، ٣٨٩
 النيل : ٥٢ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٢٠٠ ، ٢٧١ ، ٣١٣ ، ٣٤٤
 امبو (كوم) : ٣٣ ، ٦٩
 أمنحات (وزير) : ٣٦٤ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠
 أمنحات (مهرج) : ٤٢٢ حاشية ٦
 أمون : ٣٤ حاشية ١٦٢ ، ٣٩ ، ٤٠ حاشية ١٩٤ ، ٤٢٣
 إنب حج : ٢٨٢ — ٢٨٤ ، ٣٠٣ ، ٣٠٠
 إنبو : ١٩٨ ، ٢٠٥ ، ٢٥٩
 إنقف : ٤٠٤ ، ٤٢١ ، ٤٢٢
 إنقف عا : ٤٠٧ ، ٤٢٢
 أمشير : ٤١
 أهناسيا : ٣٧ ، ٢٦١ ، ٤٠٢ + ٤١٨
 أوزير : ١ (حاشيته ٢) ١٦٤ ، ١٩٧ — ١٩٩ ، ٢٠٥ — ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٥٧ ، ٣١١ ، ٣٢٢
 ٤١٣ ، ٤١٨ ، ٤٢٦
 أوسة : ٤٣
 أونو : ٣٨ ، ١٩٩ + ٣٨٨ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣٦٢ ، ٣٦٤ ، ٣٦٦
 إيبور : ٣٩٣ — ٤٠٠ ، ٤١١ ، ٤١٢
 إيجو بتوس (ومشتقاتها) ١١ +
 ليرة : ٤٤٠
 ليرتيسن : ٤٣٤
 ليرماعت : ٣٦٤

أب : مقدس (أبو الإله) ٤٢٤ ، ٤٢٨ ، ٤٣٣
 أبو : ٢٣ (حاشية ١٥٦) ٣١٣
 أبواهل : ٣٥١ — ٣٥٢
 أبوطشت : ٣٥
 أبوة : ٣٨١
 إبي : ٤٠٢
 أيب : ٤٢
 أيدوس : ٢٣٥ ، ٢٨١ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٤١٨
 أيفيلية : ٥٩ +
 إترقى : ٤ ، ٢٥٦ حاشية ٣٠ ، ٢٨٩
 أتوم : ٣٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠١
 إاقى : ٤٠٢
 أثر النبي : ٣٨
 أجب ، أجي ، أجة : ١١
 إحصاء : ٢٢٩ ، ٢٧٠
 إختام : ٢٦٦ — ٢٦٧
 إدارة (نظم) : ٢٦٧ — ٢٧١ ، ٢٧٢
 إدبوى : ٣
 إدفو : ٢٠٨ ، ٢٣٣
 إارثت : ٣٨٩
 إارثة : ٢٨٩ ، ٢٩١
 أنجم : ٣٥
 أرمنت : ٣٤ ، ٤٢٣
 استرابون : ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣
 إيسى : ٣٧٢
 إسا : ٣٤
 أسوان : ٣٣ ، ٣١٣ ، ٣٨٦ ، ٣٨٩
 أسبوط : ٣٦ ، ٤٠٣ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨
 اشتراك أولياء اليهود : ٣٨٦ ، ٤٢٨ — ٤٢٩
 أشولية : ٦١ +
 أشمونين : ٤٣٦ ، ٤٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٤٠٦
 اطفيح : ٣٧ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥
 إعفاءات : ٣٧١ ، ٣٨٣ ، ٤٠٢
 إعياد : ٢٥٩ (أظرب سد)

بشنس : ٤١
 بهيت (الجزر) : ٣٩
 بلامون : ١٩٦
 بلاد النهرين : ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٨٩ ، ٢٦٢ —
 ٢٦٥ ، ٢٦٤
 بلوتارخ : ٢٤٣
 بنى حسن : ٤٠٦
 به : ٢٠٥ ، ٢٠٩ ، ٢٨٧
 بوخير : ٣٩ ، ٥٩ ، ١٩٨ ، ٢٠٥
 بونت : ٣٧٠ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٤٣١ ، ٤٣٢
 بؤونة : ٤٣
 بياهو : ٣٧
 بيت : ١٩٦ ، ١٩٧
 بيت خلاف : ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٢٤
 بيتى : ٢٠٩
 بيوى : ٤٣
 تاج أبيض : ٢١٠
 تاج أحر : ١٣٨ ، ١٩٦ ، ٢٠٩
 تاسوع عين شمس : ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥
 ٣٢٥ ، ٣٢٤
 تاسى : ١٩٣
 تاشمو : ٣
 تاجحو : ٣
 تاجحيت : ١٩٣
 تامرى : ٤
 تاوى : ٣
 تى : ٣٠١ ، ٣٨١
 تحوتى : ٢٠٥ ، ٢٦٠ ، ٢٢٢ — ٣٦٢ ، ٣٢٥
 ترمس : ٣٨٩
 ترورو (تلولو) : ٤٠٨
 تظوظ طبق : ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٦ ، ٣٨٢ ، ٣٨٧
 ٣٩٢ ، ٣٩٧ ، ٤٠٠ ، ٤١٠
 تقيى : ٤٠٣ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨
 تقويم (شمسى) : ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤
 ٣١٥ — ٣١٧
 توت : ٤١
 تورين (فاثمة) : ٢٣٦

لاية : ٣٩ حاشية ١٨٨ ، ٤٣ ، ١٩٨ ، ٢٠٥ ، ٣١٣ ، ٣٦٣
 لايقاد النار : ٤٩ ، ٦٤
 لايحوتب : ٣٠٥ — ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٤١١
 لايحوتب (ملك) : ٤٠٢
 لايحجرة : ٢٢١
 بابلون : ٣٨
 باخورم : ٤٣
 باهور : ٤٣
 بانوب : ٤٣
 باو أونو : ٢٠٢
 باوية : ٢١١
 باورجدى : ٣٩٠ (حاشية ٢٥٧)
 باو فرغ : ٣٤٥ ، ٣٥٤
 باونحن : ٢١١
 بى الأول : ٣٨٢ ، ٣٨٤
 بى الثانى : ٣٨٩ ، ٣٩٢ ، ٤٠٢
 بى ناخت : ٣٩١
 بتاح : ٢٨٥ ، ٢٩٠ — ٢٩١ ، ٣١٨ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤
 بتاح حوتب : ٣٧٦ — ٣٧٨
 بتاح سفروى (سفرو) : ٣٢٤ ، ٣٢٦
 بجاوية (لغة) : ٢٥ — ٢٦
 پرايسن : ٢٥٨ ، ٢٧٣ — ٢٧٧
 بربا : ٣٥
 بربرية (لغة) : ١٤ +
 برحج : ٢٦٨ ، ٢٦٩
 بردشر : ٢٦٩
 برعجا : ٢٢٢
 بركة السمك : ٣٢٢
 برمهاات : ٤١
 برمودة : ٤١
 پرنسر : ٢٨٩
 پرنو : ٢٨٩
 پروى حج : ٣٧٤
 بردية ليدن : ٣٤٤ ، ٩٣٤
 بسادة : ٤٣
 بشاى : ٤٣

حور: ١٣٧، ١٦٤، ١٩٢، ١٩٤، ١٩٨، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٥، ٢٠٧، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٥، ٢٧٤، ٢٧٨، ٣٠١، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٤٣، ٣٧٩، ٣٨٢
 حورح: ٢١٩
 حورنوب: ٣١٨، ٣٣٠
 حورور: ٣٦٩
 حورون: ٣٥٢
 حوفى: ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١
 خصائص جنسية: ١٢، ٢٥، ٣٢، ٩٧، ١٠٦، ١١٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٦٦
 خج با: ٣١٨، ٣١٩
 خج سخم: ٢٥٨، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٨، ٢٩٢
 خج تخموى: ٣٥٨، ٢٧٧، ٣٠٠
 خج: ٢٠٦
 خنكاوس: ٣٥٨، ٣٥٩
 خنقى إمدرو: ٣١١، ٢٤٣
 خنقيوش: ٣٧٤
 خندى: ٤٠٨
 خنوم: ٣١٣، ٣٢٥، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٦٣
 خنوم خوفوى: ٣٢٣
 خون انبو: ٤١٤ - ٤١٧
 خوية: ٣٨١
 خيى (مرى لب رع): ٤٠٤ +
 خيى (صاحب العالميم): ٣١٣ - ٤١٤ + ٤٠٨
 خيى حاكم أسبوط: ٤٠٣، ٤٠٥، ٤٠٨
 دب: ٢١٠
 ددف حور: ٣٤٥، ٤١١
 دهروط: ٣٧
 دمنهور: ١٩٦
 دن (ومتزادفاته): ٢٢٨، ٢٥٦، ٢٧٣، ٢٩٢
 دندرة: ٣٥، ٣٨٢
 دهشور: ٣٢٧، ٣٣٠
 ديمة: ٣٧
 ديور دور الصقلى: ٢٣٩، ٢٤٣
 رانكيمة: ١٣
 رع: ٢٠٥، ٢٥٧، ٣١٤، ٣٥٧ - ٣٥٨، ٣٦٠، ٣٦٢ - ٣٦٦، ٣٦٨

توقيت متابع: ١٢٧ - ١٦٢
 تونة: ٣٦
 نامون (الأشونين): ٢٠٥
 نغو: ٣٨٥
 نغى: ٢٨١، ٤٠٨
 جاقى (أمير): ٤٠٢
 جاقى (جنوب سور يا): ٤٢٥
 جب: ٢٠٦، ٢٠٧، ٣٢٢، ٣٢٣
 جبيل: ١٥٦، ٣٣٤ (وحاشية ٩٣)، ٣٩١ (واظرفيقيا)
 جيعوقى: ١٩٤، ٢٢٩
 جعفرع: ٣٦١ +
 جيدر: ١٩٧
 جدى: ٣٤٤، ٣٦٢
 جر: ٢٥٦، ٢٨٦، ٢٨٨، ٢٩١، ٢٩٨
 جرجا: ٣٥ -
 جسرقي: ٣١٧
 جوفينال: ٢٤٤
 حاب (حجى): ٢٦١، ٣٠٣
 حامية (لغة): ١٤
 حب سد: ٢٢٨، ٢٦٠، ٢٩٢، ٣٠٨، ٣١١ (وحاشية ٨٤)، ٣٣٠
 حت وعرة: ٣٩
 حنحور: ٢٠٢، ٢٠٧، ١٧٩، ١٣٧، ٣٧ (وحاشية ٢٢٥، ٢٢٤، ٢٠٨)
 حنوب: ٣٦
 حجر رشيد: ١٤٥ - ٢٤٦
 حرخوف: ٣٨٩، ٣٩٠
 حريش: ٣٧٩، ٤١٨ (وحاشية ٧٣)
 حكام الأقاليم (اختصاصاتهم وتطور سلطاتهم): ٢٦٩، ٢٧٠، ٣٧٥، ٣٨٣، ٣٩٢، ٣٩٦، ٤٠١
 حو: ٤٠٣، ٤٠٥، ٤٢٧
 حقا نخت: ٤٣٤، ٤٣٥
 حلوان: ١٠٠ + ٢٩٧
 حنو: ٤٣٠ +
 حم أونو: ٣٣٦ (وحاشية ٩٦)
 حوتب سخى: ٣٧٣

سوت : ٢١٠
 سوتى : ٢١٠
 سونو : ٣٣ (حاشية ١٥٦)
 سينا : ٣٢٧ ، ٣٢٦ ، ٣١٧
 شاحوتب (شاس حوتب) : ٣٥
 شياكا : ٣٢٢
 شيرامنت (شيراخيت ، شيراريس) : ٣٨
 شبسپناح : ٣٧٠ ، ٣٥٨
 شبسرع : ٣٧٢
 شبسكاف : ٣٥٨ — ٣٥٧ ، ٣٥٥
 شطب : ٣٥
 شعرى (نجم) : ٣١٥ — ٣١٦
 شماى : ٤٠٢
 شنودة : ٤٣
 شمسوحر : ٢٠٨ ، ٢٠٦
 شمس حرر : ٢٧٠
 شمس دپوت حرر : ٢٧٠
 شنوتى : ٣٧٤
 شون : ٢٦٨
 شيلية : ٥٩ +
 صا الحجر : ٤٠
 صان الحجر : ٤٠ ، ٩
 صفت : ٤٠
 صلايات : ٧٠ (؟) ، ١٠٩ ، ١٣٧ ، ١٧١ ،
 ١٩٠ + ٢٢٤ ، ٢٢٢ ، ٢٢٠
 ضرائب : ٣٧٤
 طحننا : ٣٧
 طوبة : ٤١
 طولم : ٢١٣ — ٢١٢ ، ١٧٧
 طيبة : ٣٤ (وحاشية ١٦٢) ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ،
 ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣
 عا طرية : ٧١
 عاموحرپوشع : ٣٨٤
 عج مر : ٣٧٥ ، ٢٦٩
 عجا : ٢٥١ — ٢٥٤ ، ٢٩٢
 عسكرية : ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣١٧ ، ٣٩١ ،
 ٤٣٧ ، ٤٠٩

رع نب (رع نوب) : ٣٣٠ ، ٣١٤
 رع نب : ٢٥٤
 رع ور : ٣٧٢
 رعمت (ومشقاتها) : ١٢ — ١٣
 رودجدة : ٣٦٢ — ٣٦٣
 زوسر : ٢٩٩ + ٣٦٤ ، ٣٢٣
 ساحررع : ٣٧١
 سارع : ٣٤٨
 سامية (لغة) : ١٣ +
 ساو : ١٩٧ ، ١٩٦
 سيكية : ٧١
 سيلية : ٦٩ +
 ست (سوتبخ) : ١٣٢ ، ١٣٧ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ،
 ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٥٥ ، ٢٧٨ ،
 ٣٠١ — ٣٠٢ ، ٣٢٥
 سشو : ١٩٣
 سجاوتى : ٣٧٤ ، ٢٦٨
 سخم لب : ٢٧٤
 سخم لب برن ماعت : ٢٧٤
 سخم خت : ٣١٧
 سخمة : ٢٨٥
 سشات : ٢٨٥ ، ٢٥٩
 سعنخ ابتاوى (مونو حوتب) : ٤١٧ ، ٤٢٣
 سشب عنخ (سفنكس) : ٣٥٣
 سعنخ كارع (ستو حوتب) : ٤٢٨ — ٤٢٩
 سقارة : ٣٨ ، ٢٨٥ ، ٣٠٤ + ٢٣٥ (قائمة)
 سكر : ٣٨ ، ٢٥٩
 سماتاوى : ٢٦٠ ، ٤٢٤
 سمريخت : ٢٥٧ ، ٢٧٣
 سنب : ٣٧١ ، ٣٩٠
 سنفرو : ٣٢١ +
 سمبود : ٣٩
 سندهور : ٤٠
 سنطلة : ٣٧
 سهرتاوى (أنف) : ٤٠٣ ، ٤٢٢
 سو : ٣٢٢ ، ٣٢٥
 سوبك : ٣٩ ، ٣٧٩

نعرمر : ٢٢٤ - ٢٥١ - ٢٣٠ - ٢٥٣
 قرحو : ٣٣٢ - ٣٣٣
 قركارغ : ٤٠٢
 تقريركارغ : ٣٧٢
 قركلوحور : ٤٠٢
 نقادة : ١٣٢ + ٢٥١
 نويت : ١٣٢ ، ١٦٨ ، ١٩٧ ، ٢٧٤
 في ماعت حاب : ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٣ ، ٣٣١
 نيت (نت) : ١٩٦ ، ٢٢٨ ، ٢٨٥
 نيت لإقرق (نيتوكريس) : ٤٠٠ - ٤٠١
 نيسو : ٢١٠
 نيسو بيتي : ٢٥٤
 هاتور : ٤١
 هتقو : ٣٨٣
 هر : ٣٨٩ ، ٣٥٠ ، حاشية ٢٥٣
 دواره : ٣٩
 هور : ٣٦
 هورابولو : ٢٤٤ (حاشية ٢١)
 هوسوية (لغة) : ١٥
 هولوسين : ٧٦
 هيراكو نيوليس : ٢٨٠
 هيروودوت : ٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٢
 هيكاتيوس : ٢٤١ ، ٨٤
 واج كارغ : ٤٠٢
 واهي (ومترادفاته) : ٢٥٦ ، ٢٦١ ، ٢٩٢
 واح عنخ (انف عا) : ٤٠٧ ، ٤٢٢
 وادي الشيخ : ٧٤
 واشپناح : ٣٧٢
 والي الصعيد : ٣٧٥ ، ٣٨٣ - ٣٨٤ ، ٣٨٦
 (حاشية ٢٤٢) : ٣٩٣
 وارات : ٣٨٩ ، ٤٣١
 وبواوت : ١٩٨ ، ٢٠٨ ، ٢٠٥ ، ٢٥٩
 وچاه : ٤
 وچاه ثرو : ٤
 ورمج شعور : ٣٧٥
 وصركارغ : ٣٨١
 وصرکاف : ٣٦١ ، ٣٦٤
 ونو : ٢٠٤ ، ٢٨٨
 ونى : ٣٨٤ - ٣٨٦
 ونيس : ٤٣ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩

مصر (ومترادفاتها) : ٥ - ١٠
 معبد الشماير : ٣٠٩ ، ٣٢٩ ، ٣٤٠ ، ٣٥١ ، ٣٦٦
 معبد الودادى : ٣٢٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠
 ٤٢٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٥
 معبحة : ٢٨ ، ٣٦٥
 معارى : ٢٧١
 مفدة : ٢٥٩
 مقابر : ٩٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٦ ، ١٧٦ -
 ٣١١ ، ٣٠٩ ، ٢٩٧ - ٢٩٣ ، ١٨٢ ، ١٧٨ ،
 ٤٢٣ ، ٣٧٨ ، ٣٧٦ ، ٣٥٨ ، ٣٤١
 مقياس النيل : ٢٧١ ، ٢٠٠
 مکت رع : ٤٣٤ ، ٤٣٦
 ملوى : ٢٠٤ ، ٢٠٦
 منعة خوفو : ٣٢٣ ، ٣٢٥
 منف : ٣٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ (المذهب المنفى)
 ٤١٨ ، ٣٨٦ ، ٣٠٣ ، ٢٩٩
 منقباد : ٣٦
 منوف : ٣٩
 منكاو رع : ٣٥٤ - ٣٥٦ ، ٣٥٧ - ٣٥٩
 منى : ٢٥١ - ٢٥٣
 موتو : ٣٤ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤
 موستيرية : ٦٥ +
 ميت رهينه : ٣٨ ، ٢٨٣
 ميديم : ٣٧ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧
 مير : ٣٦
 مين : ٢ (حاشية ٢) ، ٢١٥ ، ٢٢٣ ، ٢٥٩
 ناخت نب تيفسر : ٤٢٢
 نب ناروى رع (موتوحتوب) : ٤٢٨ ، ٤٢٩
 نب حبة رع (موتوحتوب) : ٤١٧ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ -
 ٤٢٦ ، ٤٢٧
 نب خروع (موتوحتوب) : ٤٢٣ ، ٤٢٦ +
 نب كا : ٣٠٠ ، ٣١٩
 نب ماعت (سنفرو) : ٣٣١ ، ٣٨٥ (حاشية ٢٣٩)
 شررخت (ومترادفاته) : ٢٩٩ +
 نبت حت : ١٩٨ ، ٢٠٥ ، ٣٦٣
 نخب (انخاب) : ٢١١ ، ٢٣ ، ٢٨٠
 نخبه (نخابه) : ٢٧٦ ، ٢٨٠
 نخن : ١٨٢ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٧٩ ،
 ٢٨٤ ، ٢٨٠
 نذية : ١٩٩ ، ٣٧٩

موضوعات الجزء الأول

رقم الصفحة

تصدير هـ - و

الفصل الأول

أ - أسماء مصر القديمة ١

ب- مصر بين جيرانها في الجنس واللغة :

التكوين التاريخي ١٢

صلات اللغة المصرية بالمجموعة السامية ١٥

في مفردات الدولة القديمة ١٧ - في مفردات الدولة الوسطى ١٩ - في مفردات
الدولة الحديثة ٢٠

صلات المفردات المصرية بالمجموعة الحامية ٢٢

المقومات الشخصية للمفردات المصرية ٢٦

روابط فقه اللغة المصرية بالمجموعتين السامية والحامية ٢٧

المقومات الشخصية لقواعد اللغة المصرية ٢٩

فرعون والفراعنة ٣٠

ج- روابط المجتمع المعاصر بالمجتمع القديم :

في التكوين التاريخي ٣٢

في أسماء البلاد ٣٣

في أسماء الشهور ٤٠

في مفردات اللغة الدارجة ٤٢

في العادات الاجتماعية ٤٥

د - مراحل التاريخ الحضارى لمصر القديمة ٤٦

دهور ما قبل التاريخ

الفصل الثاني

رقم الصفحة

- ١ - تعريف دهور ما قبل التاريخ والمظاهر البيئية التي مهدت لها وأثرت في حياة أهلها ٤٩
- بواكير النشاط البشرى وقرائنه في أرض مصر :
- ب - في الفجر الحجري ٥٦
- ج - في الدهر الحجري القديم الأسفل ٥٩
- د - « « « الأوسط ٦٥
- هـ - « « « الأعلى ٦٨
- و - « « « الوسيط ٧٤

الفصل الثالث

بجز التاريخ

(أو الدهر الحجري الحديث)

- ١ - مظاهره البيئية وخصائصه الحرفية ٧٨
- ١ - تربية الحيوان ورعيه ٧٩
- ٢ - الزراعة (عوامل الاهتمام إليها - وأثرها في حياة أهلها - ومدى فضل النيل والمصريين فيها) ٨١
- ٣ - تطور الأدوات الحجرية ٨٦
- ٤ - صناعة الفخار والعوامل المؤثرة فيها ٨٨
- ٥ - نسج الكتان والحصير وجدل السلال والحبال ٩١

ب - مواطنه الحضارية وعادات أهلها وعقائدهم ومميزات صناعاتهم وأسلوب مساكنهم ومقابرهم :

- ١ - في مرمة بنى سلامة ٩٣
- ٢ - في حلوان ١٠٠
- ٣ - في الفيوم ١٠٣
- ٤ - في دير تاسا ١٠٧

الفصل الرابع

الحضارات النحاسية الحجرية (أو عصر بداية المعادن)

- بدايتها ١١٣
- ١ - البدارى ١١٤
- توقيتها وأسلوب حياة أصحابها - عقائدها في الدفن والعبادة - خصائص نغارها - بواكير فنها - اتصالاتها الداخلية والخارجية .
- ب - فترة ما قبل الأسرات (مقدمة عن التوقيت المتتابع) ١٢٧
- ج - مواضيع الرسوم ودلالاتها الحضارية في عهد نقادة الأولى ١٣٣
- أساليب الرسوم وعناصرها - بواكير النقش - الفن التشكيلي - الصلوات الخارجية - المجتمع وأفراده والعوامل المؤثرة فيه - المساكن والمقابر .
- د - في الوجه البحرى (الظروف البيئية والمعيشية المؤثرة في حضارته الأولى) ... ١٥٠
- المعادى (مساكنها وخصائص صناعتها وتوقيتها واتصالاتها بجزيراتها) ... ١٥١

هـ - في عهد نقادة الثانية ١٥٦

عناصر الرسوم التخطيطية والحيوانية والنباتية والبشرية وخصائصها -
رسوم المراكب ودلالاتها - مقامع القتال - الموطن الأصلي لحضارتها - أساليب
النقوش وموضوعاتها - المساكن - تبشير الكتابة (٩) - وسائل التسلية
- المقابر .

الفصل الخامس

في سبيل الوحدة

- المراحل الأولى :

١٧٩ روابط الأسرة ونشأة القرية والإقليم وثقافة السكان

ب - الفن في خدمة مراحل الوحدة ١٨٤
(رسوم نخن - نقوش سكنين جبل العركي - صلاية صيد الأسود - صلاية
الأسد والعقبان) .

ج - ممالك فجر التاريخ ١٩٥
(مملكة عنجة - مملكة دمنهور (أو البلامون ؟) - مملكة ساو - مملكة نوبت -
مملكة جدو - مملكة أونو - مملكة به الأولى - مملكة به الثانية - مملكة نخن
الأولى - مملكة نخن الثانية - مذهب الطوطمية) .

د - عودة إلى الفن وتعبيراته ٢١٤

(الفن التشكيلي - فن النقش - آثار العقرب ومكانه في التاريخ -
صلاية الحصون والقنائم - صلاية الفحل - آثار نعرمر : صلاياته ورأس
مقمرته) .



رقم الصفحة
٢٣١

مقدمات العصور التاريخية ومصادرها
مقومات الكتابة والحساب - وسائل التاريخ - قوائم الفراعنة - مايتون -
المناظر والتراجم - مصادر الحياة الاجتماعية والفنية والفكرية - المؤرخون الإغريق
والرومان - مراحل الكشوف الحديثة .

الفصل السابع

حضارة مصر في عصر بداية الأسرات ٢٤٩-٢٩٨
تسمية العصر وتوقيته - مشكلة مؤسسه - ألقاب فراعته - أسماءهم -
سياسة العصر وأعياده - الموطن الأول لحضارته وحكامه - الأوضاع الإدارية -
الحضارة المادية - مشكلات الأسرة الحاكمة - المدن الكبرى - المساكن -
الحياة الفكرية - السياسة الخارجية - تطور المقابر .

الفصل الثامن

حضارة مصر وسياستها في الدولة القديمة

١ - في عصر الأسرة الثالثة ٢٩٩-٣٢٠
ثريخت وصلاته بالأسرة الثانية ومناقشة الظروف التي أحاطت ببداية أسرته
الحاكمة - مقبرة بيت خلاف - المقبرة الجنوبية في سقارة - لإمخوتب ومكانته
في التاريخ والأساطير - الهرم المدرج ومجموعته المعمارية بخصائصها الفنية وأغراضها
الدينيوية والأخروية - فنون الأفراد في عصر الأسرة الثالثة - لوحة الحجاعة - لقب
رع نوب - عين شمس والتقويم الشمسي - عهد خلفاء ثريخت وآثارها -
لقب حور نوب .
ب - في عصر الأسرة الرابعة ٣٢١-٣٦١
الظروف التي أحاطت ببداية الأسرة - عهد سنفر و سياسته الداخلية وصلاته
الخارجية - عهد خوفو وخصائصه المعمارية والسياسية - عهد جد فرع ومشكلاته -
عهد خفرع وآثاره - عهد منكاورع ومظاهره - عهد شيسسكاف ومشكلاته -
نهاية الأسرة والظروف التي صيحتها والعوامل التي أثرت فيها .

رقم الصفحة

ج - في عصر الأسرة الخامسة ٣٦٢ - ٣٨٠

صلوات الحكام بالمذهب الشمسي - معابد الشمس وخصائصها العقائدية
والمعمارية - أهرام الأسرة ومعابدها وخصائصها المعمارية والفنية - متون
الأهرام - الاستثمار الداخلي والعلاقات الخارجية - الأوضاع الاجتماعية والتطور
الطبيقي - نظم الحكم والإدارة - تعاليم بتاح حوتب - نهاية العصر ومشكلاتها
التاريخية .

د - في عصر الأسرة السادسة ٣٨١ - ٣٩١

كبار شخصيات العصر - تقاليد الحرب - الأوضاع الاجتماعية - خصائص
العارة والنحت والنقش - رحلات الكشف في النوبة .

الفصل التاسع

٣٩٢ - ٤٢٠

عصر اللامركزية

مهداته - الثورة الاجتماعية وعواملها ومراحلها ونتائجها - فترة الانتقال
الأولى - سياسة الحكم الإقليمية - مملكة أهناسيا وعلاقتها بأنصارها -
تنافس أهناسيا وطيبة ومراحل النزاع بينهما - نتائج سياسة العصر وأحداثه
في الحياة السياسية والاجتماعية والنقائدية لأصحابه - قصة القروى الفصيح
ومدلولاتها - فنون العصر ومظاهرها .

الفصل العاشر

الدولة الوسطى

١ - عصر الأسرة الحادية عشرة ٤٢١ - ٤٣٨

خصائص العصر - حكمه - السياسة الداخلية - الاستثمار الاقتصادي
والصلوات الخارجية - قصة الملاح - مظاهر الحياة الاجتماعية والفنية .

المهتدين

فهرس بأهم المفردات ٤٣٩ - ٤٤٤



تم طبع هذا الكتاب يوم ٣ شعبان سنة ١٣٨٢
(٣٠ من ديسمبر سنة ١٩٦٢)

محمد الفاتح عمر
عضو مجلس الإدارة المتدب

الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية

١٠٠٠-١٩٦٢-٦٤٥٩

مكتبة المهتدين الإسلامية